



عصور الجديدة

مجلة فصلية محكمة- صنف ج- يُصدرها مختبر
تاريخ الجزائر- جامعة وهران 1 أحمد بن بلة

المجلد 10- العدد 2

(جوان) 1441هـ/2020م

ردمد ISSN 2170-1636

EISSN 2600-6324

الإيداع القانوني: 1156-2014-2014-2014
Depot Légal

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
"وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ
وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ
شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ"

صدق الله العظيم

سورة آل عمران- الآية 140.

مدير المختبر ورئيس التحرير:

أ.د. عبد القادر بوناية- كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- جامعة وهران 1 أحمد بن بلة

الهيئة العلمية للمجلة:

- أ.د. محمد البركة- جامعة سيدي محمد بن عبد الله- الكلية متعددة التخصصات- تازة- المغرب
أ.د. فتيحة سيفو- كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- جامعة وهران 1 أحمد بن بلة
أ.د. إبراهيم جدلة- أستاذ التاريخ الإسلامي بكلية الآداب والفنون والإنسانيات- جامعة منوبة - تونس
د. محمد حقي- كلية الآداب- جامعة السلطان مولاي سليمان- المغرب
د. خالد صقلي- كلية الآداب والعلوم الإنسانية- جامعة ظهر المهراز- فاس- المغرب
د. امحمد بوشريط- كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية- جامعة مصطفى اسطمبولي- معسكر
د. نوال بلمداني- كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية- جامعة مصطفى اسطمبولي- معسكر
د. تواتية بودالية- كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية- جامعة مصطفى اسطمبولي- معسكر
د. سعيد بن حمادة- المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين- مكناس- المغرب
د. مختار بونقاب- كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية- جامعة مصطفى اسطمبولي- معسكر
أ.د. بختة مقرنطة- كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية- جامعة مصطفى اسطمبولي- معسكر
د. أم الخير عثمان- كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية- جامعة خميس مليانة

شروط النشر بالمجلة

ترحب المجلة بمشاركة الباحثين المتخصصين في تاريخ الجزائر خاصة وتاريخ العالم عامة في مختلف العصور، وعلم الآثار وتحقيق التراث التاريخي المخطوط، وتقبل للنشر الدراسات والبحوث المستوفية للشروط الأكاديمية التالية:

- 1- أن يكون البحث مبتكرا أصيلا ولم يسبق نشره.
- 2- أن يتبع الباحث الأصول العلمية المتعارف عليها، وبخاصة فيما يتعلق بتوثيق المصادر، مع إلحاق كشف المصادر والمراجع بالهوامش في آخر البحث، وضرورة كتابتها على الشكل التالي: المؤلف- عنوان الكتاب- المحقق- الطبعة- دار النشر- مكان النشر- تاريخ النشر- الجزء والصفحة.
- 3- إرفاق المقال بسيرة ذاتية موجزة وعنوان البريد الإلكتروني.
- 4- ترسل المقالات إلى موقع المجلة في البوابة الجزائرية للمجلات العلمية:

<https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178>

- 5- يتراوح عدد صفحات البحث ما بين 10 إلى 25 صفحة مكتوبة بخط Sakkal Majalla مقاس 15 وتباعداً 1. وتكتب الهوامش في نهاية البحث بطريقة عادية أي مثل كتابة نص المقالة، وبمقاس 10 وتباعداً فردي، مع تقديم عنوان المقال والملخص- لا يقل عن 200 كلمة- والكلمات المفتاحية باللغة العربية وباللغة الإنجليزية بالنسبة للمقالات المكتوبة باللغة العربية، أما بالنسبة للمقالات المكتوبة باللغات الأجنبية (فرنسية- إنجليزية- إسبانية) تقديم ملخص بلغة المقال وباللغة الإنجليزية واللغة العربية وكلمات مفتاحية- لا يقل عن 200 كلمة.

- 6- تخضع كل البحوث المقدمة للنشر في المجلة للتحكيم العلمي (كل بحث يُحكّم من طرف مراجعين اثنين في التخصص أو أكثر إذا استدعى الأمر ذلك: وجود تضارب بين المُحكِّمين الأولين)، ولا تقبل المقالات التي لا تحترم الشروط المذكورة سابقاً.

- 7- لا ترد الدراسات والبحوث إلى أصحابها سواء نشرت أم لم تنشر.

- 8- الدراسات والبحوث المنشورة في المجلة لا تعبر إلا عن رأي أصحابها.

- هيئة إصدار المجلة: مختبر تاريخ الجزائر- جامعة وهران 1 أحمد بن بلة

<http://labos.univ-oran1.dz/Histal>

الموقع الإلكتروني للمختبر

الموقع على صفحة facebook: <https://facebook.com/pages/labohistoire-dalgerie>

مدير المختبر ورئيس التحرير: أ.د. عبد القادر بوبايا- قسم التاريخ وعلم الآثار

البريد الإلكتروني الخاص بمدير المختبر Lab.histoire.algerie@univ-oran1.dz

العنوان: ص.ب. 1541 المنور- كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- جامعة وهران 1 أحمد بن بلة

فهرس الموضوعات

- *كلمة مدير المختبر ورئيس التحرير.....أ.د عبد القادر بوبايرة/ص6
*شذرات تربوية تعليمية من حياة بعض الخلفاء العباسيين ما بين 132-247هـ/750-
861م.....عثماني أم الخير- الجزائر/ص9
*جرائم الانحراف الجنسي في مجتمع المغرب الإسلامي من خلال وصف إفريقيا للوزان
"قراءة في البواعث والإجراءات".....بركات كمال- بوعقادة عبد القادر- الجزائر/ص31
*غياب الأباء المفرد عن محيطه الأسري وتأثيره على حياة الطفل بالمغرب الأوسط بين
القرنين 7-9هـ/13-15م.....بوقاعدة البشير- الجزائر/ص52
*الوضع القانوني للأرض والاضطرابات الاجتماعية في الأندلس: ثورة الربض.....
73 محمد حقي- المملكة المغربية/ص
*نص جديد من كتاب "البيان المغرب" لابن عذاري المراكشي.....
89 محمد المرتضي- المملكة المغربية/ص
*علم المواقيت في المشرق والمغرب الإسلاميين (1-9هـ/7-15م).....
111 مصطفى بن واز- الجزائر/ص
*مسألة القرصنة أو الجهاد البحري في المغرب الإسلامي: دراسة مقارنة.....
131 الطاهر قدوري- المملكة المغربية/ص
*تأثير العصبية القبلية في تأسيس الدولة المرينية من خلال كتاب العبر لابن خلدون.....
147 فاطمة خريس- يخلف حاج عبد القادر- الجزائر/ص
*اللسان الناطق لسكان منطقة بلزمة "دراسة في اللهجة الشاوية".....
162 ممدوح بومخيلة- فتيحة سيفو- الجزائر/ص
*طرق التدريس ومناهج تحصيل المعرفة ببجاية خلال الحكم الحفصي (7-9هـ/13-15م)..
177 مسعود بركة- الجزائر/ص
*كأظمة في عيون الجغرافيين والأدباء.....عايد عتيق جريد- الكويت/ص198
*مأساة الموريسكيين بين اجتهاد الفتوى وغياب القوة العسكرية 906-950هـ/1500-
1543م.....فاطمة الزهراء حميش- الجزائر/ص211

- *العلاقات التجارية بين إيالة الجزائر ومملكة الدنمارك في نظر القنصل لودلف هامكين (Ludolf Hammeken) (1746-1751م).....ص/الجزائر/229
- *معاهدة الصلح بين الجزائر وإسبانيا سنة 1791م.....
- بن عتو بليروات- الجزائر/ص/249
- *النساء الحضر والنشاط الحرفي في الجزائر خلال الفترة العثمانية على ضوء الكتابات الأجنبية.....إيمان شريط- بن عمر حمدادو- الجزائر/ص/266
- *موقف الشيخ البكري بن عبد الرحمن التواتي من كتابات محمد بن مصطفى بن الخوجة الجزائري سنة 1898م.....عبد الله بابا- الجزائر/ص/277
- *دور المؤتمرات الدولية في دعم وتدويل القضية الجزائرية في المجال الإفريقي والآسيوي 1955-1962.....سعاد بولجويجة- الجزائر/ص/294
- *إستراتيجية الثورة الجزائرية في مواجهة وتحييد الإدارة الاستعمارية الفرنسية (1954-1962).....سليم سايح- الجزائر/ص/313
- *نشاط منظمة الجيش السري الفرنسية في مدينة وهران وانعكاساته (1961-1962).....عبد الناصر بختي- محمد لعباسي- الجزائر/ص/336
- *أماكن الذاكرة بالمغرب: مراكز الاعتقال التعسفي بجهة درعة- تافيلالت نموذجاً.....عبد المجيد الهلالي- المملكة المغربية/ص/359
- *إكتشاف موريتانيا نوفمبر 2019م.....عبد القادر خليفي- الجزائر/ص/378
- *الإصدارات الجديدة-2020.....عبد القادر بوبايا- الجزائر/ص/403
- *MARKRIA Souhila- Los Mudejares Granadinos: de una Convivencia Pacífica a una Evangelización y Asimilación represiva.....p.410
- *KHINECHE Soumèya- American Health Care Insurance Systems and Reforms forms from George Walker Bush to Barack Husein Obama...p.423

كلمة العدد

تواصل مجلة عصور الجديدة التي يُصدرها مُختبر تاريخ الجزائر- جامعة وهران1 أحمد بن بلة مسيرتها العلمية التي بدأتها سنة 2011م، ويأتي هذا العدد الثاني من المجلد العاشر ليثري المكتبات بعدد معتبر من المقالات المتعلقة بالتاريخ والحضارة جادت بها أقلام ثلة من الباحثين- أساتذة وطلبة دكتوراه- من مختلف الجامعات الجزائرية إضافة إلى مقالات متميزة من المملكة المغربية ودولة الكويت الشقيقتين.

وبهذه المناسبة نود أن نذكر الباحثين بضرورة تقديم أعمال ترقى بالمجلات العلمية الجزائرية عامة، ومجلة عصور الجديدة خاصة إلى مستوى الجودة لأننا وللأسف الشديد لازلنا نتلقى مقالات من "دكاترة" لا ترقى إلى مستوى الشهادة التي يحملونها، والذي يحز في أنفسنا أن البعض من هؤلاء ينهال على هيئات تحرير هذه المجلات بدون تمييز بالاتهامات من قبيل المحاباة في النشر والتميز بين الباحثين المرسلين لمقالاتهم على أساس جهوي وغيرها من الاتهامات.

إننا في مجلة عصور الجديدة، ومنذ إنشائها سنة 2011 سعينا وسنسعى دائما إلى أن تكون منبرا للمقالات العلمية التي تتميز بالجودة في جميع المجالات- اللغة والموضوع والمستوى العلمي- حتى تكون في مستوى طموحنا إلى أن تكون مجلة علمية بآتم معنى الكلمة، والذي يؤسف له أن هناك من يكتب ويرسل دون حتى مراجعة ما يكتب، وفيما يلي نموذج لمثل هذه المقالات التي يتساءل المرء هل هي مكتوبة من طرف دكتور أو تلميذ في مراحل التعليم الابتدائي، وإن كان في هذه المراحل من هو أفضل من صاحب المقال المستشهد به.

إليك بعض الفقرات- مثلما وردت- من إحدى المقالات المرسلة للنشر، ولكم الحكم على مستوى صاحبها مع العلم أنه أستاذ حاصل على شهادة دكتوراه بتقدير مشرف جدا: "تلك الخطوات التي تساعدنا على نسج منحنيات خريطة عمرانية للدينة المغرب أوسطية يسعدنا ان نقدمها للجمهور الاكاديمي والمهتمين بقراءة التراث المعماري والإرث الحضاري في العصر الوسيط"- "من خلال هذه الإشكالية نحاول الإجابة عن التساؤلات التالية حول قضية التواصل الطونيسي والموقعي للمدينة"- "لكن الوضعية الحضرية للمدينة لن تستمر ذلك أن مازونة تعرضت لأضطرابات وخراب عم مدن المغرب الاوسط خاصة مع شهادة العبدري"- "لكننا لا نملك معطيات نصية وملموسة حول استقرار الوفود الأندلسية بالمنطقة ولا اللقى

والأبنية الأثرية ذات الطراز الأندلسي"- وعموما كانت مازونة في بداية العصر الحديث تتشكل من اربعة احياء كبيرة ولكل منها أحياء صغيرة"- "حيث تكون الدواب والطرقاات ضيقة بها إلا انه ليس بحوزتنا دلائل كافية وقطعية على استحداث الإنسان في مازونة الوسيطية لهاته الوسائل وأمام هذا النقص الفاحش في المادة الأثرية".

هذه عينة مما كتب أحد الدكاترة في مقال بعثه للنشر؛ وأترك للقارئ الحكم على المستوى الذي يتميز به بعض الباحثين الذين يتساءل المرء عن كيفية تمكنهم من كتابة أطاريحهم ومناقشتها، وحصولهم على شهادة الدكتوراه بتقدير مشرف جدا، وهم عاجزون عن كتابة مقال يرقى إلى المستوى المطلوب.

وبالعودة إلى مجلة عصور الجديدة فإن هذا العدد يتضمن مقالات متعددة شملت أغلب العصور التاريخية: التاريخ الوسيط- التاريخ الحديث- التاريخ المعاصر، ومنها على وجه الخصوص مقال يتضمن نصوصا جديدة من كتاب البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب لابن عذاري المراكشي تميظ اللثام عن كثير من الفجوات المتعلقة بتاريخ المرابطين، والتي لم ترد في كل طبعاات هذا المصدر الهام.

مدير المختبر ورئيس التحرير: أ.د عبد القادر بوباية

المقالات

باللغة العربية

التاريخ الوسيط

شذرات تربوية تعليمية من حياة بعض الخلفاء العباسيين ما بين
132-247هـ/750-861م
Educational educational fragments from the life of
some Abbasid caliphs (132-247AH / 750-861AD)

اسم ولقب المؤلف المرسل: دة.عثماني أم الخير- Othmani Oum-El-Khir صص9-30
الدرجة والعنوان المهني: أستاذة محاضرة أ في التاريخ الوسيط- جامعة الجليلي بونعامة/خميس مليانة
(الجزائر/البريد الإلكتروني: o.otmani@univ-dbkm.dz)

تاريخ استقبال المقال: 2020/03/15 تاريخ المراجعة: 2020/04/01 تاريخ القبول: 2020/04/11

ملخص: كثر النقد الموجّه إلى شخصية وسلوك الخلفاء العباسيين وأولادهم بين التمجيد تارة والفسق تارة أخرى، لكنّ المتفحص للسيرورة الإجتماعية لهؤلاء لا يقتضي دراسة حياتهم أو حكمهم دون التعرّض لمسار تربيتهم، ثمّ أيضا الأخذ بعين الإعتبار أنّهم بشر مثل غيرهم، قد يصيبون وقد يخطؤون، لكن لكلّ مقال كلام وأحكام؛ نظرا للعوامل التي تتفاعل لإظهار ذلك الواقع، كما تتدخل فيها أيضا الأعراف والتقاليد والعادات الإجتماعية؛ فهذه الدّراسة نحاول أن نوضّح من خلالها جوانب من موضوع تربية وتعليم أولاد الخلفاء العباسيين، والعوامل المتحكّمة فيها، وكذا معرفة فاعليتها في صناعة الرّجل الصّالح، والحقيقة أنّ جمع مادة هذا المقال كان صعبا جدّا لأنّها منثورة في عدّة مصادر من حقول معرفيّة متنوعة، ورغم ذلك تتبعت المعلومة فالمعلومة، والتقتطها على اختلاف مصادرها.

الكلمات المفتاحية: التّربية- أولاد الخلفاء- العباسيون- التّأديب- التمجيد- الفسق- التعليم.

Abstract: *There is a lot of criticism directed at the personality and behavior of the Abbasid caliphs and their children, between glorification at times, and debauchery at other times, but the examiner of the social process of these does not require the study of their lives or their rule without being subjected to the path of their education, then also taking into account that they are human beings like others, they may make mistakes, but each article has words and judgments, given the factors that interact to show that reality, as well as social norms, traditions and customs.*

This study attempts to clarify aspects of the subject of education and education of the children of the Abbasid caliphs, and the factors controlling them, as well as knowing their effectiveness in making a good man. Various fields of knowledge, and yet the information is followed, so the information is obtained from various sources.

العباسيين، وأن سعيهم لطلب العلم والرحلة إليه دأبهم الأول، ثم إن علاقاتهم مع غيرهم من طلبة العلم كانت علاقة تواضع وتفَضُّل، وهذا ليس جديداً على أحفاد بني هاشم؛ فقول: "مؤدّب نفسه ومعلّمها أحقّ بالإجلال من مؤدّب الناس ومعلّمهم"⁽⁵⁾.

2-1- الخلفاء العباسيون ونُصَحَ شيوخ أولادهم: حرص الخلفاء على تعليم أولادهم بواسطة نخبة من العلماء، كُلُّ حسب زمانه واهتمامه العلمي؛ فالرّشيد عهد بتعليم ابنه الأمين إلى الأحمر النّحوي (ت194هـ)⁽⁶⁾، ثمّ الكسائي (ت197هـ)⁽⁷⁾، وعهد بتأديب المأمون إلى اليزيدي (ت165هـ)⁽⁸⁾، وسيبويه (ت180هـ)⁽⁹⁾، ومن جميل ما ذكر تلك الوصيّة التي عهد بها الرّشيد التي جمعت بين الثّقافة والسّلوک إلى مؤدّب ولده الأمين ونصّها "يا أحمر، إنّ أمير المؤمنين قد دفع إليك مُهجة نفسه وثمره قلبه؛ فصبرٌ يدك عليه مبسوطة، وطاعته لك واجبة؛ فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين، إقرئه القرآن، وعرفه الآثار، وروّه الأشعار، وعلمه السنن، وبصّره مواقع الكلام وبدئه، وامنعه من الضّحك إلّا في أوقاته، وحذّه بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا عليه، ورّفّع مجالس القوادم إذا حضروا مجلسه، ولا تُمرّن بك ساعة إلّا وأنت مغتنم فيها فائدة تفيده إيّاها من غير أن تخرق به؛ فتميت ذهنه، ولا تُمعن في مساحته؛ فيستحلي الفراغ ويألفه، وقومّه ما استطعت بالقرب والملاينة؛ فإنّ أباهما فعليك بالشدّة والغلظة"⁽¹⁰⁾.

ولم تكتف فقط بمستوى التّعليم التّلقيني؛ بل تجاوزت إلى السّلوکي؛ إذ نصّت على مواطن الحديث وسلاسته؛ دليل على الرّغبة في تربية الولد ضمن الجماعة ليتعامل معها، ولعلّها كانت ليست من العرب فقط؛ بل كذلك من العجم وغيرهم ممّن كان في المجتمع العباسي، وهذا رأي أحد الباحثين: "قد أخذ الرّشيد من وصايا سابقه أشياء، وزاد عليهم أشياء أخرى؛ فاتّفق مع عبد الملك بن مروان الأموي في البدء بتعلّم القرآن ورواية الشّعر والسّير، وزاد عليه الاهتمام بتعليم الولد مواقع الكلام وبدئه وختامه"⁽¹¹⁾.

3-1- التّأثير الفارسي: تجلّى التّأثير الفارسي من مظاهر انتشار الثّقافة الفارسيّة جرّاء كثرة الوافد الأعجمي عامّة والفارسي خاصّة، وأيضا ترجمة الكتب، وبخاصّة في العصر العباسي الأول، وكذلك من بعض النّصائح التي تدخل في إطار تحضير وليّ العهد عند الفرس؛ فحدث الاقتباس بطرق شتى؛ ففي نصيحة جارية أمّ ولد للملك تخصّ طريقة تربية ابنهما: (دون أن يذكر القفطي اسمهما) "فلما تجاوز حدّ الفطام قالت: "أيها الملك

إنه ينبغي لك أن تُخْضِرَ لولدك جليسا فاضلا، وترتاد له حكيمًا عالما عاملا ممّن غُدِّيَ بنعمتك، ونشأ في ظلّ درجتك؛ ليعرف من الصّغر، ويستغي لكثرة الخبر بتفاصيل أحواله في كثير من الأوقات عن العيان بالخبر؛ لتدوم به صحّته⁽¹²⁾.

ويتفق هذا مع ما أثار عن الإمام علي بن أبي طالب في فضل العلم والأدب، وفضل العالم والمتعلّم: "من نصّب نفسه للنّاس إماما أن يبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره، وليكن تأديبه بسريره قبل تأديبه بلسانه"، وقيل: "مَنْ لم يتعلّم في صغره لم يتقدّم في كبره"⁽¹³⁾، وتضيف النّصيحة العمليّة: "فإذا بلغ سنّ التّعليم، واحتاج التّبصير والتّفهيم وجب أن تلتمس له جليسا صالحا ورعا، متفتّنا في العلوم متوسّعا؛ فيكون ذلك طبيبا لجسمه، وهذا طبيبا لنفسه، وذاك عناية بتدبير أحوال بدنه، وهذا همّة في تنوير قلبه؛ للاهتداء في التّرتي إلى محلّ قدسه، وينبغي أن تتقدّم إليه بطاعة كلّ منهما، وتوفير حظّه من الإكرام، وأن يخصّ بالزيادة من ذلك جليسه؛ لفضل طبّ النفوس على طبّ الأجسام"⁽¹⁴⁾.

وتأمّر جليسه بأن يجعل له وقتا مخصوصا لتعليمه، وقدرا من الزّمان معيناً لتأديبه وتقويمه، وأن لا يشغل زمانه كلّه بفنون الجدّ، ولا يحمل على قريحته ما لا تطيقه، فيمضها بكثرة الكدّ؛ فإنّ القلوب إذا أُكْرِهت عميت، والقرائح إذا لم تُرَوّح تبلّدت وفسدت، والمملك لئذ لم يكن له حظّ من العلوم كان ناقصا في نفوس رعيّته، ولم يكن للأدب والفضائل عنده سوق لفقدان أهليّته، ومن سعادة جدّ المملك أن يكون له وزير صالح، ومشير ناصح، وجليس مُعاد له بالحكمة مراوح، وطبيب لأدواء جسمه ناصح؛ لأنّ يُؤهّل بعده للاستخلاف، واستحقّ ولاية العهد بما ارتفع في فضله من الخلاف⁽¹⁵⁾.

وكان تكوين حاكم المستقبل مشروعًا منذ الصّغر بإكسابه ثقافة متنوّعة "قائلا لها: "إني أريد أن أجعله لأقوال العلماء مطالعا، ولهم في أخلاقهم وأدابهم متابعا؛ فما الذي ينبغي أن يُقتصر به من ذلك عليه، ويلزم الاشتغال به لتكون همّته مصروفة إليه؟"⁽¹⁶⁾، فقالت: "إنّه قد أخذ بحمد الله من علوم الدّين بالحثّ الأوفر، واهتدى بأنوار هذا فبصر بعدما استبصر، والإكثار ربّما أملّ وأضجر، والعلم أكثر من أن يُحصى؛ فخذّه منه بأحسن ما يروى ويُؤثر، وقد أهّلته لأمر؛ فينبغي أن يكون شغله في هذا الوقت بما ينتفع به فيه، وإلزامه يخفّ ما هو مفتقر إلى العمل به في وقت تولّيه"⁽¹⁷⁾.

4-1- نصائح العلماء والفقهاء: لم تقتصر النصيحة على وصايا الخلفاء لمؤدّبي أولادهم؛ بل تعدّت لتشمل نصائح العلماء والفقهاء؛ ففي سنة 204هـ/820م دخل الإمام الشافعي أبو عبد الله محمد بن إدريس (204-150هـ/767-820م) يوماً إلى بعض حُجَر الرّشيد؛ فأقعدته الخادم عند أبي عبد الصّمد مؤدّب الأولاد قال له: "يا أبا عبد الله، هؤلاء أولاد أمير المؤمنين، وهذا مؤدّبهم؛ فلو أوصيتهم؛ فقال له: "ليكن أول ما تبدأ به من إصلاح أولاد أمير المؤمنين إصلاحك نفسك؛ فإنّ أعينهم مغفورة بعينك؛ فالحسن عندهم ما تستحسنه، والقبیح عندهم ما تستقبحه، علّمهم كتاب الله، ولا تُكرههم عليه فيملّوه، ولا تتركهم فيهجروه، ثمّ زدهم من الشّعْر أعقّه ومن الحديث أشرفه، ولا تخرجهم من علم إلى غيره حتّى يتقنوه؛ فإنّ ازدحام الكلام في المُسمّع مصدّد للفهم⁽¹⁸⁾.

وفي ذلك تأكيد لدور المؤدّبين والشيوخ عموماً في ترسيخ العلوم وتربية النّشء، مع اتّباع طرق لإيصال الفهم، وذلك ما يؤكّده ابن الجوزي (ت751هـ) في نصيحة لولده، مؤكّداً دور أحد شيوخه في تحضيره للمرحلة التّعليميّة المواليّة: "وأنا لا أعلم ما يُراد مِنّي، وضبط لي مسموعاتي إلى أن بلغت، فناولني ثبّتها، ولازمته إلى أن توفيّ- رحمه الله-؛ فنلتُ بها معرفة الحديث والتّقل"⁽¹⁹⁾.

ثانياً- مراقبة الخلفاء لسلوكات أولادهم: لم يهمل الخلفاء العباسيون رغم تعدّد مهامهم متابعة أولادهم بصفتهم آباء لهم، ومن ذلك ما يلي:

1-2- الخلفاء العباسيون الأوائل: لكلّ خليفة عباسي بصمته تتجلّى فيما نذكره:
أ- في عهد الخليفة أبي جعفر المنصور: حفظت لنا كتب التّاريخ بعضاً من اهتمام الخلفاء الأوائل بمجال السلوكيات؛ فكان المنصور ممّن يراقبون محيط أولادهم داخل القصور، إذ سمع جليّة في داره فقال: "ما هذا؟"؛ فإذا خادم له قد جلس، وغلّمة حوله، وهو يضرب لهم بطنبور، وهم يضحكون منه؛ فأخبر بذلك، فقال: "وما الطنبور؟"؛ فوصفه له حماد التّركي، فقال له: "وأنت فما يدريك ما الطنبور؟" قال: "رأيتّه بخراسان"؛ فقال: نعم؛ فدعا بنعله، وقام يمشي رويداً، حتّى أشرف على الغلمان فرأهم؛ فلمّا أبصروه تفرّقوا؛ فقال: "خذوا الخادم فأكسروا ما معه على رأسه"، ثمّ قال: يا ربّيع، أخرجّه من قصري، وابعث به إلى حمّان النّخّاس حتّى يبيعه"؛ فوجّه الربّيع من ساعته، فبيع بالكنخ⁽²⁰⁾.

وتتبعوا سلوكيات أولادهم بمعرفة من يجالسون وأخلاءهم؛ فهذا الخليفة المنصور كان مطيع بن إياس⁽²¹⁾ منقطعا إلى ابنه جعفر؛ فدخل أبوه المنصور عليه يوما؛ فقال لمطيع: "قد أفسدت ابني يا مطيع"؛ فقال له مطيع: "إنما نحن رعيتك؛ فإذا أمرتنا بشيء فعلنا"⁽²²⁾، وقيل: بأنه رُفِعَ خبر إلى المنصور أن مطيع بن إياس زنديق، وأنه يعاشر ابنه جعفرا وجماعة من أهل بيته، ويوشك أن يُفسدوا أديانهم، وينسبوا إلى مذهبه؛ فقال له المهدي: "أنا به عارف، أما الزندقة فليس من أهلها، ولكنّه خبيث الدّين، فاسق مستحلّ للمحارم"، قال: "فأحضره، وائمه عن صحبة جعفر وسائر أهله"؛ فأحضره المهدي وقال له: "يا خبيث، يا فاسق، قد أفسدت أخي ومن تصحبه من أهلي"... قال الربيع للمهدي عن مطيع: "أضربه مائتي سوط، وأحبسه"⁽²³⁾... قال: "لأنك سكير خمير، قد أفسدت أهلي كلهم بصحبتك"⁽²⁴⁾.

ب- في عهد الخليفة المهدي أبي عبد الله محمد بن المنصور (158-169هـ/755-786م): اختار الخلفاء ندماءهم؛ فكان أحدهم إبراهيم الموصلبي⁽²⁵⁾، قال: أول خليفة سمعني المهدي...، كان المهدي لا يشرب؛ فأرادني على ملازمته وترك الشرب؛ فأبئت عليه، وكنت أغيب عنه الأيام؛ فإذا جئته منتشيا، فغاضه ذلك متي؛ فضربني وحبسني؛ فحذقت القراءة والكتابة في الحبس، ثم دعاني يوما؛ فعاتبني على شربي في منازل الناس والتبدل معهم؛ فقلت: يا أمير المؤمنين، إنما تعلمت هذه الصناعة للذتي وعشرتي لإخواني، ولو أمكنتي تركها لتركها وجميع ما أنا فيه لله عز وجل؛ فغضب غضبا شديدا، وقال: "لا تدخل على موسى وهارون البتة؛ فوالله لئن دخلت عليهما لأفعلن ولأصنعن"؛ فقلت: نعم⁽²⁶⁾، ثم بلغه أنني دخلت عليهما، وشربت معهما، وكانا مستهترين بالنبيذ؛ فضربني ثلاثمائة سوط، وقيّدني وحبسني"⁽²⁷⁾، قال: ثم أخرجني المهدي، وأحلفني بالطلاق والعِتاق وكلّ يمين لا فُسحة لي فيها ألا أدخل على ابنه موسى وهارون أبدا، ولا أغتيمهما، وخلي سبيلي"⁽²⁸⁾.

ولا نستبعد هذا السلوك على الخليفة المهدي لأنه نشأ على مثله، حيث قال والده له: "يا أبا عبد الله، لا تجلس مجلسا إلا ومعك من أهل العلم من يحدثك حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فإن محمد بن شهاب الزهري قال: "الحديث ذكراً لا يحبه إلا ذكور الرجال، ولا يبغضه إلا مؤنثوهم"⁽²⁹⁾، وكان الوزير يعقوب بن داود⁽³⁰⁾ يعظه في

تعاطيه شرب التَّبِيد بين يديه وكثرة الغناء، ويلومه على ذلك، ويقول: "ما على هذا استوزرتي، ولا على هذا صحبتك، أبعد الصَّلوات الخمس في المسجد الحرام يُشرب عندك التَّبِيد، وَيُسْمَع السُّمَاع بين يديك"⁽³¹⁾، وهذا تأكيد كبير على حسن انتقاء الخليفة للوزراء؛ "فأول ما يظهر نُبل السُّلطان، وقوّة تميّزه، وجوّد عقله في انتخاب الوزراء، واستنقاء الجلساء، ومحادثه العقلاء؛ فهذه خلال تدلُّك على كماله، وهذه خلال يجمل في الخلق ذكره، وترسّخ في النفوس عظمته، والمرء موسوم بقبرينه، وكان يقال: "حليّة الملوك وزينتهم وزراؤهم"، "لا يضلُّح السُّلطان إلا بالوزراء والأعوان"⁽³²⁾.

وقيل: كان يعقوب قد عرف أخلاق المهدي، ونهيمته في النساء؛ فكان يباسطه⁽³³⁾، وعن يعقوب الوزير قال: "كان المهدي لا يحبّ التَّبِيد، لكنّه يتفرّج على غلمانه فيه فألومّه، وأقول: "على ماذا استوزرتي؟ أبعد الصَّلوات في الجامع يُشرب عندك، وتُسْمَع السُّمَاع؟" فيقول: "قد سمعه عبد الله بن جعفر": فأقول: "ليس ذا من حسناته"، ولمّا عزله المهدي عزل أصحابه، وسجن عدّة من آله وغلمانه وأعوانه⁽³⁴⁾، وأضاف الأَبَشِيبي(ت850هـ): "واعلم أنّه ليس للوزير أن يكتّم عن السُّلطان نصيحة وإن استقلّها، وموضع الوزير من المملكة كموضع العينين من الرأس، وكما أنّ المرأة لا تترك وجهها إلاّ بصفاء جوهرها وجودة صقلها، ونقاءها من الصّدأ، كذلك السُّلطان لا يكمل أمره إلاّ بجودة عقل الوزير، وصحّة فهمه، ونقاء قلبه"⁽³⁵⁾.

وقال بزجمهر الفارسي: "إذا خدّمت ملكا من الملوك فلا تُطعّه في معصية خالك؛ فإنّ إحسانه إليك فوق إحسان الملك، وإيقاعه بك أغلظ من إيقاعه"، وقالوا: "علّم السُّلطان وكأنك تتعلّم منه، وأشر عليه وكأنك تستشيره، وإذا أحلك السُّلطان من نفسه بحيث يسمع منك، ويثق بك؛ فإنّك والدخول بينه وبين بطانته؛ فإنّك لا تدري متى يتغيّر منك فيكونوا عونًا عليك، وإياك أن تُعادي مَنْ إذا شاء أن يطرح ثيابه، ويدخل مع الملك في ثيابه فعل"⁽³⁶⁾، وهو نفسه الذي ذكره القفطي(ت646هـ) في ضرورة اعتماد الكُفّاء: "إنّما يجب على الملك أن يعتمد من ولّاته على كُفّاته ومن جُباته على نُقّاته، ومن قضاته على هُدّاته، ومن وزرائه على من يقترن الصّواب بآرائه"⁽³⁷⁾.

وكان للخليفة المهدي عند قدومه مدينة رسول الله أن بعث إلى الإمام مالك بن أنس أبو عبد الله(93-179هـ/711-795م) فأتاه؛ فقال لهارون وموسى: "اسمعا منه؛

فبعث إليه فلم يُجيبهما؛ فأعلما المهدي؛ فكلمه فقال: "يا أمير المؤمنين، العلم يُؤتى أهله"؛ فقال: "صدق مالك، صيرًا إليه"، فلمّا صرًا إليه قال له مؤدّبهما: "اقرأ علينا؛ فقال: "إنّ أهل المدينة يقرؤون على العالم كما يقرأ الصّبيان على المعلّم؛ فإذا أخطأوا أفتاهم"؛ فرجعوا إلى المهدي؛ فبعث إلى مالك فكلمه؛ فقال: "سمعت ابن هشام يقول: "جمعنا هذا العلم في الزّوضة من رجال، وهم يا أمير المؤمنين: "سعيد بن المُسيّب... كلّ هؤلاء يُقرأ عليهم ولا تقرؤون"؛ فقال: "في هؤلاء قدوة، صيروا إليه فاقروا عليه؛ ففعلوا"⁽³⁸⁾.

ت- في عهد الخليفة هارون الرّشيد أبي جعفر (170-193هـ/787-809م) ومن بعده: استمرت التّربيّة والتّأديب في عهد خلف المهدي؛ إذ قال الحسين بن الضّحّاك⁽³⁹⁾: "ضربني الرّشيد في خلافته لصحبتني ولده، ثمّ ضربني الأمين لممايلة ابنه عبد الله، ثمّ ضربني المأمون لميلي إلى محمّد، ثمّ ضربني المعتصم لمودّة كانت بيني وبين العباس بن المأمون، ثمّ ضربني الواثق لشيئ بلغه من ذهابي إلى المتوكل"⁽⁴⁰⁾، وهناك محاولات من بعض العجم لتعليم أولاد الخلفاء سلوكياتًا ملوكيّة تتنافى والفطرة؛ فذكر لنا أنّ إيتاخ⁽⁴¹⁾ بصهر بالواثق في حياة المعتصم واقفا موضعًا لم يكن له أن يقف فيه؛ فزجره وقال: "تَنَحَّ، فوالله لولا إنّي لم أتقدّم إليك في ذلك لضربتك مائة عصا"⁽⁴²⁾.

ثالثا- أساليب التّعليم، ومواده: تعدّدت نذكر منها:

1-3 المناظرات: تنوعت أساليب التّعلّم، وخصّصت اللّغة العربيّة وعلومها حفاظًا عليها أمام لغة الفرس التي كانت تفرض نفسها، بخاصّة من دعاة الشّعوبيّة؛ فالمناظرات⁽⁴³⁾ أهمّ طرق التّعليم لإشاعة العربيّة محلّ الفارسيّة، "ناظر فارسي عربيًا بين يدي يحيى بن خالد"⁽⁴⁴⁾؛ فقال الفارسي: "ما احتجنا إليكم ولا لغتكم، حتّى أنّ طبيخكم وأشربتكم ودواوينكم، وما فيها على ما سمينا ما غيرتموه كالإسفيداج والسّكباج والدّوغباج وأمثاله كثيرة كالسنكنجبين والجلّاب وأمثاله كثيرة، وكالروزنامج والإسكدار والفراونك، وإنّ كان روميًا ومثله كثير؛ فسكت عنه العربي؛ فقال له يحيى بن خالد: قل له: "اصبر لنا نملك كما ملكتم ألف سنة بعد ألف سنة كانت قبلنا، لا نحتاج إليكم ولا إلى شيء كان لكم"⁽⁴⁵⁾.

وفي ذلك أكثر من فائدة؛ إذ أنّ الاهتمام ببلاغة الإقناع بالمناظرة حُكّمه كذلك الوعي الجاد بمسيس الحاجة إلى ثقافة الحوار التي تشكّل البديل الإنساني عن العنف

والتطرف؛ ذلك أنّ الإقناع يمثّل الجواب الحضاري عن الاختلاف⁽⁴⁶⁾، هدف المناظرة الكشف عن الحقيقة أو الصواب، وهدف الجدل التغلب عن الخصم؛ فالمناظرة التي سادت في التراث العربي الإسلامي هي تلك التي تقرّ الاختلاف، وتقوم على التفاعل بين المتناظرين لخدمة ما يُعتقد أنّه الصواب، ومن ثمّ فهي فعّالة منتجة ومُطوّرة للمعرفة⁽⁴⁷⁾. وسئل الإمام الشافعي: "مَنْ أقدّر الفقهاء على المناظرة؟"، قال: "مَنْ عَوّد لسانه الرّكض في ميدان الألفاظ لم يتلعثم إذا رمقته العيون"⁽⁴⁸⁾، وقيل لحكيم: "بِمَ يُعرف عقل الرّجل؟ فقال: "بقلة سقّطه في الكلام، وكثرة إصابته فيه"؛ فقيل له: "فإن كان غائبًا؟"؛ فقال: "بإحدى ثلاث: إمّا برسوله وإمّا بكتابه وإمّا بهديته؛ فإنّ رسوله قائم مقام نفسه، وكتابه يصف نُطق لسانه، وهديته عنوان همّته؛ فبقدر ما يكون فيها من نقص يُحكّم به على صاحبهما"، وقيل: "العقل ملك، والخصال رعيّة؛ فإذا ضعف عن القيام عليها وصل الخلل إليها"⁽⁴⁹⁾.

وبما أنّ تلك المناظرات كانت تقام في قصور الخلفاء، كانت لها أدابًا استفاد منها أولاد الخلفاء، هي أنّه يقتضي للمناظر أن يحترز عن الإيجاز وعن الإطناب، وعن استعمال الألفاظ الغريبة، وعن اللفظ المجمل، ولا بأس بالاستفسار، وعن الدخّل قبل الفهم، ولا بأس بالإعادة، وعن التعرّض لما لا دخل له في المقصود، وعن الضحك، ورفع الصّوت وأمثالهما، وعن المناظرة مع أهل المهابة والاحترام، وألاّ يحسب الخصم حقيرًا⁽⁵⁰⁾. 2-3- المجالس: هي تسجيل لما كان يحدث في مجالس العلماء، وفيها يُلقى الشّيخ ما يشاء من تلقاء نفسه؛ فيُسأل الشّيخ فيجيب؛ فيُدوّن كلّ ذلك فيما يسمّى مجلسًا، أمّا الأمالي فيُمليها الشّيخ أو من ينيبه عنه بحضرته؛ فيقيدها الطّلاب في دفاترهم؛ فكلّ من المجالس والأمالي مظهرًا لما كان يدور من تدوين لأقوال العلماء والمتصدّرين للتعليم، وينصبّ الكلام المنطوق على المتحاورين؛ بينما يكون محور الاهتمام الكتابة هو الموضوع نفسه؛ فاللغة من أكثر الإشارات أهميّة إلى العلاقة بين الفرد، وهويّته والجماعة الاجتماعيّة التي ينتمي إليها؛ فالتماثل أو عدمه بين الفرد ولغته إنّما يتجلّى في سلوكه، وينعكس على حياته بشكل واضح؛ ذلك أنّ اللغة جزء من تركيبنا العضوي⁽⁵¹⁾.

والملاحظ أنّ الخلفاء جلسوا في المجالس منذ وقت مبكّر؛ فهذا الخليفة المهدي لما شبّ أمره أبوه على طبرستان وما والاها، وتادّب وجالس العلماء وتميّز⁽⁵²⁾، واهتمّت

مجالس العلماء بالعربيّة تحديداً؛ فبرع شيوخ في تعليمها وإحيائها؛ إذ اجتمع الكسائي مع شيوخ فقال: "من تبخر في علم النحو اهتدى إلى سائر العلوم"، وتعلّم النحو على كبر سنّه، واشتغل بالنحو حتّى مَهَرَ، وصار إمام وقته، وكان يؤدّب الأمين والمأمون، وصارت له اليد العظمى والوجاهة التامة عند الرّشيد وولديه⁽⁵³⁾.

كما تعلّموا من الأمثال إذ ذكر العسكري(ت395هـ) في مقدّمة كتابه: "ثمّ إنّي ما رأيت حاجة الشّريف إلى شيء من أدب اللّسان بعد سلامته من اللّحن كحاجته إلى الشّاهد والمثل والشّدرة، والكلمة السّائرة؛ فإنّ ذلك يزيد المنطق تفخيماً، ويكسبه قبولاً، ويجعل له قدراً في النفوس، وحلاوة في الصّدور، ويدعو القلوب إلى وعيّه...، وتدخّل في كلّ أساليب القول أرجوها في أقواها من الألفاظ...؛ فهي من أجلّ الكلام وأنبله وأشرفه وأفضله؛ لقلّة ألفاظها، وكثرة معانيها، ويسير مؤونتها على المتكلّم مع كبير عنايتها، وجسيم عائدتها، ومن عجائب أنّها مع إيجازها تعمل عمل الإطناب والأمثال أيضاً نوع من العلم منفرد بنفسه لا يقدر على التّصرّف فيه إلّا من اجتهد في طلبه حتّى أحكمه، وبالغ في التماسه حتّى أتقنه..."⁽⁵⁴⁾.

وذكر مجلس للكسائي مع القاضي أبي يوسف⁽⁵⁵⁾ نقلاً عن الأحمر قال: "دخل أبو يوسف الفقيه على الرّشيد وعنده الكسائي يحدثه؛ فقال: "يا أمير المؤمنين، قد سعد بك هذا الكوفي وشغلك؛ فقال الرّشيد: "النحو يستفرغني، أستدلّ به على القرآن والشّعر"⁽⁵⁶⁾، ووجه لتعليم أولاد الخلفاء بالفصاحة، وأسند عن إسماعيل بن اليزيدي، قال: كان أبي يكلم الأمين والمأمون بكلام يتفصّحان به"، ويقول: "كان أولاد الخلفاء من بني أميّة يُخرّج بهم إلى البدو حتّى يتفصّحوا، وأنتم أولى بالفصاحة منهم"⁽⁵⁷⁾ لدمجهم في الحياة العامّة؛ لأنّ الكلمات التي ينطق بها النّاس تشير إلى خبرة مشتركة، وتُستخدم في شرح وقائع أو أفكار قابلة للنّقل؛ لأنّها تشير إلى مخزون من المعرفة بهذا العالم يشترك فيه آخرون، وتعكس أيضاً مواقف كتّابها ومعتقداتها ووجهات نظرهم التي يشاركون فيها آخرون تضطلع اللّغة في الحالتين بالتعبير عن واقع ثقافي⁽⁵⁸⁾.

اتّصل اليزيدي(ت165هـ) بالرّشيد فجعل ولده في حجره؛ فكان يؤدّبه، وكان ثقة، وهو أحد القراء الفصحاء العالمين بلغات العرب والنحو...، وكان يجلس في أيّام الرّشيد

مع الكسائي في مجلس واحد، ويُقرآن النَّاسَ"، وكان الكسائي يؤدّب الأمين وهو يؤدّب المأمون؛ فأما الأمين؛ فإنَّ أباه أمر الكسائي أن يأخذ عليه بحرف حمزة، وأما المأمون فإنَّ أباه أمر أبا محمّد أن يأخذ عليه بحرف أبي عمرو⁽⁵⁹⁾، وفي هذا التعلّم تحضيرهما لإجماع الرعيّة فيما بعد رغم تعدّد أحرف القراءة.

والتعلّم في الصغر له أكثر من دلالة، ذكر الأبيشيبي في ذكر الفصحاء من الرجال: "لمّا أفضت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز أته الوفود؛ فإذا فهم وفد الحجاز؛ فنظر إلى صبي صغير السنّ، وقد أراد أن يتكلّم؛ فقال: "ليتكلم مَنْ هو أسن منك؛ فإنه أحقّ بالكلام منك"؛ فقال: "يا أمير المؤمنين، لو كان القول كما تقول لكان في مجلسك هذا من هو أحقّ به منك"، قال: "صدقت؛ فتكلّم"⁽⁶⁰⁾.

وبلغ من اهتمام الكسائي بتعلّم النحو أن كان إماما في النحو، وكان يؤدّب الأمين بن هارون، ويعلمه الأدب...، أن اجتمع الكسائي يوما بمحمّد بن الحسن الفقيه الحنفي في مجلس الرّشيد؛ فقال للكسائي: "من تبخر في علم النحو تهدي إلى جميع العلوم"؛ فقال له محمّد: "ما تقول فيمن سها في سجد السهو؛ هل يسجد مرة أخرى؟ قال الكسائي: "لا، قال: لماذا؟ قال: "لأنّ النّحاة تقول: "التصغير لا يُصغّر"⁽⁶¹⁾، أمّا المأمون فقرأ العلم في صغره، وسمع الحديث من أبيه، وأدبه اليزيدي، وجمع الفقهاء من الآفاق، وبرع في الفقه والعربيّة وأيام النَّاسِ، ولمّا كبر عني بالفلسفة وعلوم الأوائل ومهر فيها؛ فجرّه ذلك إلى القول بخلق القرآن، ولم يلّ الخلافة من بني العباس أعلم منه، وكان فصيحاً مفوّهاً⁽⁶²⁾.

في حين كان هناك اهتمام بتعليم البنات، وقيل: "لا تعلّموا بناتكم الكتاب، ولا تروهنّ الشعر، وعلموهنّ القرآن، ومن القرآن سورة النور"⁽⁶³⁾، بينما نجد في المصادر الإسلاميّة ذكراً لما بلغته عليّة⁽⁶⁴⁾ أخت الرّشيد في تعلّم الغناء، كما كان عمّها إبراهيم بن المهدي بن محمّد المنصور العبّاسي الأسود، ولذلك كان، ولضخامته يقال له: "التّنين" وابن شكّله، وهي أمّه، وكان أديبا فصيحاً، شاعرا، رأسا في معرفة الغناء وأنواعه⁽⁶⁵⁾.

أمّا المتوكل على الله جعفر (232-247هـ/847-861م) فإنّه ندب يعقوب بن السّكيت⁽⁶⁶⁾ الإمام في العربيّة إلى تعليم أولاده⁽⁶⁷⁾، وكان المتوكل قد ألزمه تأديب ولده المعتز بالله⁽⁶⁸⁾؛ فلما جلس عنده قال له: "بأيّ شيء يحبّ الأمير أن نبدأ- يريد من العلوم-":

فقال المعتز: "بالإنصراف"، قال يعقوب: "فأقوم"، قال المعتز: "فأنا أكف نهوضاً منك؛ فاستعجل؛ فعثر بسرأويله فسقط، والتفت إلى يعقوب حجلاً، وقد احمر وجهه؛ فأنشد يقول: "يُصَابُ الفَتَى مِنْ عَثْرَةٍ بِلِسَانِهِ، وَلَيْسَ يُصَابُ المَرْءُ مِنْ عَثْرَةِ الرَّجُلِ"؛ فلما كان من الغد دخل يعقوب على المتوكل؛ فأخبره بما جرى؛ فأمر له بخمسين ألف درهم، وقال: "قد بلغني البيتان"⁽⁶⁹⁾، وكل ما سبق يثبت دور التجربة في تعليم الخلفاء وأولادهم؛ فضلاً عن العقل الغريزي المشترك بين العقلاء؛ فالعقل التجريبي، وهو مكتسب، وتحصل زيادته بكثرة التجارب والوقائع، وباعتبار هذه الحالة يُقال: "إن الشيخ أكمل عقلاً وأتم دراية، وإن صاحب التجارب أكثر فهماً وأرجح معرفة"⁽⁷⁰⁾.

رابعا- أمثلة لمجالس العلم: لخص الحسن بن سهل⁽⁷¹⁾ جملة الآداب في قوله: "الآداب عشرة: فثلاثة منها شهرجانية، وثلاثة أنوشروانية، وثلاثة عربية، وواحدة أبرت علمين؛ فأما الشهرجانية فالضرب على العود، واللعب بالشطرنج، واللعب بالصّوالج، وأما الأنوشروانية فالطب والهندسة والفروسيّة، وأما العربية فالشعر والنسب في أيام العرب، وأما الواحدة التي أبرت علمين، فمقطعات الحديث والسير، وما يتذاكره الناس بينهم في المجالس"⁽⁷²⁾، ومن أشهر المجالس نذكر:

مجلس سيبويه مع الكسائي وأصحابه بحضرة الرشيد: قال الفراء (ت207هـ)⁽⁷³⁾: قدم سيبويه على البرامكة، فعزم يحيى على الجمع بينه وبين الكسائي؛ فجعل لذلك يوماً...، قال: فحضر الكسائي، فأقبل على سيبويه؛ فقال: "تسألني أو أسألك؟ فقال: لا بل سلمي أنت...؛ فقال له: ما تقول أو كيف تقول: قد كنت أظن أن العقرب أشد لسعة من الزنبور؛ فإذا هو هي أو فإذا هو إياها؟ فقال سيبويه: فإذا هو هي، ولا يجوز النصب؛ فقال له الكسائي: لحنّت"، ثم سأله عن مسائل من هذا النوع: خرجت، فإذا عبد الله القائم أو القائم؟، فقال سيبويه: في كل ذلك بالرفع دون النصب، فقال الكسائي: "ليس هذا من كلام العرب، العرب ترفع في ذلك كله، وتنصب...؛ فقال يحيى بن خالد: "قد اختلفتما وأنتما رئيسا بلديكما؛ فمن ذا يحكم بينكما؟" فقال الكسائي: "هذه العرب ببابك، قد جمعتم من كل أوب، ووفدت عليك من كل صقع، وهم فصحاء الناس، وقد

قنع بهم أهل المصرين، وسمع أهل الكوفة، وأهل البصرة منهم فيحضرون ويُسألون؛ فقال يحي وجعفر: "لقد أنصفت"؛ وأمر بإحضارهم فدخلوا؛ فسُئلوا عن المسائل التي جرت بين الكسائي وسيبويه؛ فتابعوا الكسائي، وقالوا بقوله⁽⁷⁴⁾.

وذهب بعض الباحثين إلى اعتماد لغة الأعراب فيصلا في قضايا الخلاف النحوي، وأنّ هذه الخلافات أثرت اللّغة العربيّة، وكان الخلفاء العباسيون رعاة هذه المجالس، وتجري المناظرات بحضورهم، واشتهرت حادثة هامة في مسألة الخلاف النحوي بين شيخ المدرسة الكوفيّة في النحو الكسائي، وبين شيخ المدرسة البصريّة في النحو سيبويه بحضرة الرّشيد⁽⁷⁵⁾، وهناك مجالس تخصّ تعليم العربيّة والتّصّ القرآني منها:

مجلس علي بن حمزة الكسائي مع المفضّل بحضرة الرّشيد: قال: جاءني رسول الرّشيد يوم الخميس بكرة، فقال لي: أجب، فدخلت عليه، ومحمّد عن يمينه، والمأمون عن يساره، والكسائي بين يديه باركا، وهو يطرح محمّدا والمأمون معاني القرآن؛ فسلمت؛ فردّ وقال: اجلس؛ فجلست؛ فقال لي: "كم اسم في سيكفيكهم الله؟" قلت: "ثلاثة أسماء يا أمير المؤمنين"...؛ فقال: كذا أخبرنا الشّيخ، وأشار بيده إلى الكسائي، والتفت إلى محمّد؛ فقال له: "أفهمت؟"؛ فقال: "قد فهمت يا أمير المؤمنين"، قال: "فاردّد ذلك عليّ"، فردّه، فقال: "أحسنّت"⁽⁷⁶⁾، وكان للمجالس فوائدًا أخرى كتعليم أولاد الخلفاء التّواضع بصفته ممارسة وليس كلاما.

ولفحوى هذه المجالس في حضور أولاد الخلفاء أكثر من نفع؛ فقد ذكر أحد الكتاب في تقديمه نفع ذلك: "فإنّ ألطف الكلام موقعا، وأشرفه موضعا كلمة حكمة يقتدي بها الإنسان بسناها؛ فهتدي، ويتبع هداها فيرتدع، ومثّل سائر يُغني بإيراده في المحافل عن ألفاظ يؤلّفها، ومعان يتكلّفها، وينزل صاحبه من العلم فوق منزلته، ويرتّب من الأدب في أعلى مرتبته، وقديما قيل: "يكفيك من الآداب أن تروي الشّاهد والمثّل"⁽⁷⁷⁾.

وفي ذكر لأخبار الكسائي أنّه قدم بغداد؛ فضمّه الرّشيد إلى ولديه المأمون والأمين، أشرف الرّشيد على الكسائي، وهو لا يراه؛ فقام الكسائي ليلبس نعله لحاجة يريدها؛ فابتدراها الأمين والمأمون، فوضعاها بين يديه؛ فقبّل رأسيهما وأيديهما، ثمّ أقسم عليهما ألاّ يعاودا؛ فلمّا جلس الرّشيد مجلسه قال: "أيّ النّاس أكرم خادما؟" قالوا: أمير المؤمنين- أعزّه الله- قال: "بل الكسائي يخدمه الأمين والمأمون"، وحدثهم الحديث⁽⁷⁸⁾.

كما ذكر عن محمد بن عمران الضبي النحوي الكوفي (ت255هـ/869م) مؤدب عبد الله بن المعتز، وكان على اختيار القضاة للمعتز، فاجتمع إليه القضاة والفقهاء، وكان الضبي قبل ذلك معلماً فنعس، ثم رفع رأسه؛ فقال: "تهجوا"....، وكان شيخاً طوّلاً يحفظ حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان يحفظ الأخبار والملاح، وقيل: بأنه حكى أنه حفظ ابن المعتز، وهو يؤدبه النازعات، وقال له: إذا سألك أمير المؤمنين أبوك، في أي شيء أنت؟ فقل: أنا في السورة التي تلي "عبس"، ولا تقل: أنا في "النازعات"؛ فسأله أبوه: "في أي شيء أنت؟"، فقال: "أنا في السورة التي تلي عبس"؛ فقال له: "من علمك هذا؟" قال: "مؤدبي"؛ فأمر له بعشرة آلاف درهم⁽⁷⁹⁾، وفي ذلك تدرّيبهم على نطق الكلمة التي تعلمهم وحدة الصّف.

رابعا- الخلفاء ومعاملة مؤدّبيهم: اتخذ الخلفاء عدّة أساليب لجذب الشيوخ لتعليم وتأديب أولادهم؛ فرؤي أنّ شريكا⁽⁸⁰⁾ دخل على المهدي فقال له: "لا بدّ من ثلاث، إمّا أن تلي القضاء أو تؤدّب ولديّ وتحديثهم، أو تأكل عندي أكلة"؛ ففكر ساعة، ثم قال: "الأكلة أخفّ عليّ"؛ فأمر المهدي بعمل ألوان من المخّ المعقود بالسكر وغير ذلك فأكل؛ فقال الطباخ: "لا يفلح بعدها"، قال: "فحديثهم بعد ذلك، وعلمهم العلم، وولي القضاء لهم"⁽⁸¹⁾، وعن حمدان بن الأصهباني قال: "كنت عند شريك؛ فأتاه بعض ولد المهدي فاستند؛ فسأله عن حديث؛ فلم يلتفت إليه، وأقبل علينا، ثم أعاد فعاد بمثل ذلك، فقال: "كأنتك تستخفّ بأولاد الخليفة"، قال: "لا، ولكنّ العلم أزين على أهله من أن تضيعوه"، قال: فجئنا على ركبتيه، ثم سأله؛ فقال شريك: "هكذا يُطلب العلم"⁽⁸²⁾.

قدم المهدي إلى المدينة فبعث إلى الإمام مالك فأتاه؛ فقال لهارون وموسى: اسمعنا منه؛ فبعث إليه فلم يجبهما؛ فأعلما المهدي؛ فقال: "يا أمير المؤمنين؛ العلم يؤتى أهله"؛ فقال: "صدق مالك، صيرا إليه"؛ فلما صرّا إليه قال له مؤدّبهما: "اقرأ علينا"؛ فقال: "إنّ أهل المدينة يقرؤون على صالح كما يقرأ الصبيان على المعلم؛ فإذا أخطأوا أفاتهم"⁽⁸³⁾؛ فالإمام مالك بن أنس قصده طلبه العلم من الأفاق في آخر دولة أبي جعفر وما بعد ذلك، وازدحموا عليه في خلافة الرّشيد إلى أن مات⁽⁸⁴⁾، وبعث المهدي إلى مالك بألفي دينار أو قال بثلاثة آلاف دينار، ثم أتاه الرّبيع بعد ذلك؛ فقال: "إنّ أمير المؤمنين يحبّ أن تعادله إلى مدينة السلام"؛ فقال: قال النبي صلى الله عليه وسلم "المدينة خير لهم لو

ذات يوم خالصة أمة زبيدة فقالت: "إِنَّ السَّيِّدَةَ تَقْرَأُكَ السَّلَامَ، وَتَقُولُ لَكَ: "حَاجَتِي أَنْ تَرْفُقَ بَابِي مُحَمَّدٌ"; فَقُلْتُ: قَوْلِي لَهَا: "إِنَّ مُحَمَّدًا مَرَّحٌ لِلْخِلاَفَةِ بَعْدَ أَبِيهِ، وَلَا يَجُوزُ التَّقْصِيرُ فِي حَقِّهِ..."⁽⁹³⁾، وكان علي بن المبارك الأحمر يؤدّب الأمين قال: "قعدتُ معه ساعةً من نهارٍ؛ فوصل إليّ فيها ثلاثمائة ألف درهم"⁽⁹⁴⁾، وشرب اليزيدي عند المأمون؛ فلما أخذتُ منه الكأس أقبل يعتزّ عليه بتعليمه إيّاه، وأساء مخاطبته؛ فلما أفاق من سُكْرِهِ عرّف ما جرى؛ فلبس أكفانه⁽⁹⁵⁾، كما كان لبعض الشيوخ معاملة لأولاد الخلفاء مشددة منها:

ما قاله أبو محمد اليزيدي قال: "كنت أودّب المأمون، فأتيته يوماً وهو داخل فوجّهتُ إليه بعض الخدم يُعلمه بمكاني فأبطأ، ثمّ وجّهت لأبيه آخر فأبطأ، فقُلْتُ: "إِنَّ هَذَا الْفَتَى رَبِّمَا تَشَاغَلُ بِالْبِطَالَةِ"; فَقِيلَ: "أَجَلٌ..."; "فَلَمَّا خَرَجَ أَمَرْتُ بِحَمَلِهِ؛ فَضَرَبْتُهُ سَبْعَ دُرُرٍ"، قال: فَإِنَّهُ لِيَدْلِكَ عَيْنِيهِ مِنَ الْبِكَاءِ إِذْ قِيلَ هَذَا جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى قَدْ أَقْبَلَ فَأَخَذَ مِنْهُ مَنَدِيلاً؛ فَمَسَحَ عَيْنِيهِ مِنَ الْبِكَاءِ، وَجَمَعَ ثِيَابَهُ، وَقَامَ إِلَى فَرَشِهِ؛ فَقَعَدَ مَتَرَبِّعًا، ثُمَّ قَالَ: "لِيَدْخُلْ" فَدَخَلَ؛ فَقَمْتُ عَنِ الْمَجْلِسِ، وَخَفْتُ أَنْ يَشْكُونِي إِلَيْهِ؛ فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ بِوَجْهِهِ، وَحَدَّثَهُ حَتَّى أَضْحَكَهُ، ثُمَّ خَرَجَ؛ فَجِئْتُ فَقُلْتُ: "لَقَدْ خَفْتُ أَنْ تَشْكُونِي إِلَى جَعْفَرٍ"; فَقَالَ لِي: "يَا أَبَا مُحَمَّدٍ، مَا كُنْتُ أُطَلِّعُ الرَّشِيدَ عَلَى هَذِهِ، فَكَيْفَ بِجَعْفَرٍ؟ إِنِّي أُحْتَاجُ إِلَى أَدَبٍ"⁽⁹⁶⁾.

وقال الفراء: "ذُكِرْتُ لِلْقَعُودِ مَعَ الْمُعْتَصِمِ حَيْثُ نَشَأَ، وَلَزِمْتُ نَحْوًا مِنْ شَهْرَيْنِ؛ فَلَمَّا عَزَمَ عَلَى ذَلِكَ جَاءَ رَجُلٌ يَقَالُ لَهُ أَبُو إِيَادٍ؛ فَطَلَبَ الْقَعُودَ مَعَهُ، فَسُئِلَ لِيَنْظُرَ مَا مَقْدَارُهُ فِي الْعَرَبِيَّةِ؛ فَقِيلَ لَهُ: "كَيْفَ تَقُولُ يَا زَيْدُ أَقْبَلُ؟"; فَقَالَ: "يَا زَيْدُ أَقْبَلُ"، قِيلَ: "فَمَا هَذِهِ الضَّمَّةُ؟" فَقَالَ: الْوَاوُ الَّتِي فِي قَوْلِهِ، وَأَقْبَلَ، فَارْتَضَى، وَأَقْعَدَ مَعَ الْمُعْتَصِمِ فَاسْتَغْنَى، وَأُزِلْتُ أَنَا...، وَكَانَ يُعْجَبُ بِهَذَا، وَيَتَعَجَّبُ مِنْهُ، وَيَقُولُ: "الدُّنْيَا لَا تَأْتِي عَلَى اسْتِحْقَاقٍ"⁽⁹⁷⁾.

وكان مع المعتصم غلام يتعلّم معه في الكتاب؛ فمات الغلام؛ فقال له الرّشيد: "يا محمد مات غلامك، قال: "نعم يا سيدي، واستراح من الكتاب"، قال الرّشيد: "وإنّ الكتاب ليبلّغ منك هذا المبلغ؟ دَعُوهُ إِلَى حَيْثُ انْتَهَى، لَا تَعَلِّمُوهُ شَيْئًا، وَكَانَ يَكْتُبُ كِتَابًا ضَعِيفًا، وَيَقْرَأُ قِرَاءَةً ضَعِيفَةً"⁽⁹⁸⁾؛ بينما فسّر ابن عبد ربّه ذلك بما أو رده من رواية أنّ هارون الخليفة قال لابنه المعتصم: ما فعل وصيفك فلان؟ قال: مات؛ فاستراح من

الكُتَّاب، قال: وَبَلَغَ مِنْكَ الكُتَّابُ هَذَا المَبْلَغَ، وَاللَّهِ، لَا حَضْرَتَهُ أَبَدًا، وَوَجَّهَهُ إِلَى البَادِيَةِ؛ فَتَعَلَّمَ الفِصَاحَةَ، وَكَانَ أُمِّيًّا⁽⁹⁹⁾.

وَلَا نَفْهَمُ مِنْهَا رَغْبَةَ الخَلِيفَةِ فِي تَجْهِيلِ ابْنِهِ المَعْتَصِمِ؛ بَلْ تَغْيِيرَ مَكَانِ تَعْلِيمِهِ لِأَنَّ الكُتَّابَ مَحْدَدَ الدَّهَابِ إِلَيْهِ بِوَقْتِ مَعَ الِاتِّزَامِ، وَهَذَا أَرَاهُ قَيْدًا لِحَرِيَّةِ هَذَا الوَلَدِ، وَنَجِدُ تَأْكِيدًا لِمَا ذَهَبَتْ إِلَيْهِ عِنْدَ التَّوْزِيرِ (مِنْ عُلَمَاءِ ق6هـ)"، وَكَانَ أُمِّيًّا لَا يَقْرَأُ وَلَا يَكْتُبُ؛ لِأَنَّهُ كَانَ يَقْرَأُ فِي المَكْتَبِ، وَهُوَ صَغِيرٌ؛ فَمَاتَ لَهُ غُلَامٌ كَانَ يَقْرَأُ مَعَهُ؛ فَعَزَّاهُ أَبُوهُ هَارُونَ الرَّشِيدُ؛ فَقَالَ لَهُ: قَدْ اسْتَرَّاحَ مِنَ المَكْتَبِ؛ لَيْتَنِي كُنْتُ عَوْضًا عَنْهُ؛ فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ: وَاللَّهِ، لَا دَخَلْتَهُ أَبَدًا بَعْدَ اليَوْمِ فَخَرَجَ أُمِّيًّا⁽¹⁰⁰⁾، وَالدَّلِيلُ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ بْنَ العَبَّاسِ قَالَ: "كَانَ المَعْتَصِمُ إِذَا تَكَلَّمَ بَلَغَ مَا أَرَادَ، وَزَادَ عَلَيْهِ⁽¹⁰¹⁾.

وَتَذَكُرُ بَعْضَ المَصَادِرِ مَا كَانَ مِنَ المَعْتَصِمِ مَعَ الإِسْكَافِيِّ، قَالَ البَلْخِيُّ، أَبُو جَعْفَرٍ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الإِسْكَافِيِّ السَّمْرَقَنْدِيِّ، وَكَانَ عَجِيبَ الشَّأْنِ فِي العِلْمِ وَالدِّكَاةِ وَالمَعْرِفَةِ وَصِيَانَةِ النَّفْسِ وَنُبُلِ الهِمَّةِ وَالتَّزَاهَةِ عَنِ الأَدْنَانِاسِ بَلَغَ فِي مَقْدَارِ عَمْرِهِ مَا لَمْ يَبْلُغْهُ أَحَدٌ مِنْ نَظَرَانِهِ، وَكَانَ المَعْتَصِمُ قَدْ أُعْجِبَ بِهِ إِعْجَابًا شَدِيدًا؛ فَقَدَّمَهُ وَوَسَّعَ عَلَيْهِ، وَبَلَّغْنِي أَنَّهُ إِذَا تَكَلَّمَ أَصْغَى إِلَيْهِ، وَسَكَتَ مَنْ فِي المَجْلِسِ؛ فَلَمْ يَنْطَقُوا بِحَرْفٍ، حَتَّى إِذَا فَرَّغَ نَظَرَ المَعْتَصِمِ إِلَيْهِمْ، وَقَالَ: مَنْ يَذْهَبُ عَنِ هَذَا الكَلَامِ وَالبَيَانِ، وَكَانَ يَقُولُ لَهُ: "يَا مُحَمَّدُ، اعْرَضْ هَذَا المَذْهَبَ عَلَى المَوَالِي فَمَنْ أَبَى مِنْهُمْ فَعَرِّفْنِي خَبْرَهُ لِأَفْعَلَ بِهِ وَأَفْعَلَ⁽¹⁰²⁾.

وَفِي سَنَةِ 227هـ/842م دَخَلَ هَارُونَ بْنُ زِيَادٍ مُؤَدَّبَ الوَائِقِ بِاللَّهِ عَلَى الوَائِقِ بِاللَّهِ هَارُونَ (227-232هـ/842-847م)؛ فَأَكْرَمَهُ...؛ فَقِيلَ لَهُ: "مَنْ هَذَا يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ الَّذِي فَعَلْتَ بِهِ مَا فَعَلْتَ؟"، قَالَ: "هَذَا أَوَّلُ مَنْ فَتَقَ لِسَانِي بِذِكْرِ اللَّهِ، وَأَدْنَانِي مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ"⁽¹⁰³⁾، وَلَمَّا أَرَادَ المَتَوَكَّلُ أَنْ يَأْمُرَ بِاتِّخَاذِ المُؤَدَّبِينَ لِوَلَدِيهِ المُنْتَصِرِ وَالمَعْتَزِّ جَعَلَ ذَلِكَ إِلَى إِيْتَاخِ كَاتِبِهِ أَنْ يَتَوَلَّى ذَلِكَ؛ فَبِعَثَ إِلَى الطَّوَالِ وَالأَحْمَرِ... وَغَيْرِهِمْ؛ فَأَحْضَرَهُمْ مَجْلِسَهُ؛ فَجَاءَ أَحْمَدُ بْنُ عُبَيْدٍ؛ فَقَعَدَ فِي آخِرِ المَجْلِسِ؛ فَقَالَ لَهُ مَنْ قَرَّبَ مِنْهُ: "لَوْ ارْتَفَعْتَ..."; فَلَمَّا اجْتَمَعُوا قَالَ لَهُمُ الكَاتِبُ: "لَوْ تَذَاكُرْتُمْ وَقَفْنَا عَلَى مَوْضِعِكُمْ مِنَ العِلْمِ فَاخْتَرْنَا؛ فَأَلْقُوا بَيْنَهُمْ بَيْتًا لِابْنِ غَفْلَةَ: ذَرِينِي إِنَّمَا حَطَّيْتُ وَصَوَّبِي- عَلَيَّ وَإِنَّمَا أَنْفَقْتُ مَالًا...؛ فَقَالُوا: "ارْتَفِعْ مَالًا..."; ثُمَّ سَكَتُوا؛ فَقَالَ لَهُمُ أَحْمَدُ مِنْ آخِرِ النَّاسِ: "هَذَا الإِعْرَابُ، فَمَا المَعْنَى؟"; فَأَحْجَمَ

القوم؛ فقيل له: "ما المعنى عندك؟" قال: أراد مال ومكث إياي، وإنما أنفقتُ ما لا لم أنفق عرضاً؛ فالمال لا ألام على إنفاقه؛ فجاءه خادم... فأخذ بيده، حتّى تخطى به إلى أعلاه، وقال: ليس هذا موضعك؛ فقال: لأكون في مجلس أرتفعُ منه إلى أعلاه أحبّ إليّ من أن أكون في مجلس، ثمّ أخطُ عنه، واختير هو... وابن قادم⁽¹⁰⁴⁾، وعن ابن السكّيت قال ابن عبيد: شاورني في منادمة المتوكل؛ فنهيتُه؛ فحمل قولي على الحسد، وأجاب إلى ما دُعِيَ إليه...؛ فكانت نهايته... أن أمر الأتراك فداسوا بطنه؛ فحمل إلى داره؛ فمات بعد غد ذلك اليوم، وكان ذلك سنة أربع وأربعين ومائتين، ويقال: سنة أربعين ومائتين⁽¹⁰⁵⁾.

خاتمة: يتبيّن أنّ خلفاء بني العباس اهتموا بتربية أولادهم (إنثاء، وذكوراً) لأكثر من اعتبار؛ فترقبوهم بالرعاية الأبوية فطرياً، وألزمهم ضرورة تعلّم أمور الدنيا والدين؛ كون الذكور سيصيرون إلى ولاية عهد فيما بعد، وتصبح لهم مسؤوليّة الإمامة والخلافة التي توجب عليهم تحقيق العدل وحماية الرعيّة في حراسة الدين؛ لذلك انتقوا لهم المؤدّبين والشيوخ، ولم يمنعوهم من تعلّم فنون أخرى؛ فانعكس ذلك على واقع المجتمع العبّاسي.

الهوامش:

- 1- أبو بكر أحمد بن محمّد الهذلي ابن الفقيه- مختصر كتاب البلدان- مطابع بريل- ليدن- 1302هـ- ص2.
- 2- جلال الدين السيوطي- تاريخ الخلفاء- خرّج أحاديثه أحمد بن شعبان بن أحمد- دار البيان الحديثة- القاهرة- ط1- 1426هـ/2005م- ص208-3- عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الإفريقي، الزاهد، الواعظ؛ روى عن الخليلي، ليس قويّ الحديث. أنظر أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمّد العكري الدمشقي ابن العماد الجنبلي- شذرات الذهب في أخبار من ذهب- أشرف على تحقيقه وخرّج أحاديثه عبد القادر الأرنؤوط- حقّقه وعلّق عليه محمود الأرنؤوط- دار ابن كثير- دمشق- ط1- 1410هـ/1989م- ص255/أبو خالد، يقال له: "أبو أيوب المعافري"، ثمّ "الشّعباني الإفريقي"، قاضي إفريقيّة، أول مولود ولد في الإسلام بالمغرب، من إفريقيّة. توفيّ سنة 156هـ/773م. أنظر محمّد بن مكرم ابن منظور- مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر- تحقيق رويّة النخاس- مراجعة محمّد مطيع الحافظ- الطبعة الأولى- دار الفكر- دمشق- 1404هـ/1984م- ج14 ص49/من الطبقة الخامسة، وكان الثوري يعظّمه، مات بالقيروان، في رمضان سنة إحدى وستين ومائة". أنظر محمّد بن أحمد بن أبي بكر الذهبي- سير النبلاء- ط11- أشرف على تحقيقه وخرّج أحاديثه شعيب الأرنؤوط- حقّق هذا الجزء حسن الأحوال- مؤسّسة الرسالة- بيروت- ط11- 1417هـ/1996م- ج6 ص413-4- السيوطي- مصدر سابق- ص129-5- شهاب الدين محمّد بن أحمد الأبيشي- المستطرف في كلّ فنّ مستطرف، دار الفجر للتراث، القاهرة، 2009م- ص35.
- 6- الأحمر النّحوي، شيخ العربيّة، علي بن المبارك، قيل: علي بن الحسن تلميذ الكسائي كان ذكياً، فرأى الكسائي يدخل ويخرج فلزمه إلى أن برع، فندبه لتعليم أولاد الرّشيد نيابة عن نفسه توفيّ الأحمر بطريق مكة سنة 194هـ/810م. أنظر الذهبي- سير النبلاء- ج9- ص93.
- 7- الكسائي النّحوي، أبو الحسن علي بن عبد الله بن بهمن بن فيروز، يكنّى: بأبي عبد الله؛ أعجمي، من الفراء السّبعة، كوفي وتنقل في البلدان، وقرأ على ابن أبي ليلى الذي يقرأ بحرف علي، من فراء مدينة السّلام، وكان أو لا يُقرئ الناس بقراءة حمزة، ثمّ اختار قراءة،

- فأقرأ بها الناس في خلافة هارون؛ سُمي الكسائي؛ لأنه كان يحضر مجلس معاذ الهراء، والناس عليهم الحلل، وعليه كساء رودباري، توفي برنوية بالري(197هـ/813م أو 199هـ/815م) كتبه: معاني القرآن، وغيره. أنظر- محمد بن اسحاق المعروف إسحاق أبي يعقوب الوراق ابن التديم- كتاب الفهرست- دار إحياء التراث العربي- بيروت- ط1- 1427هـ/2006م- ص32-72/ الكسائي... الأسيدي، بالولاء الكوفي لم يكن له في الشعر، والكسائي، بكسر الكاف؛ قيل له: الكسائي؛ لأنه دخل الكوفة وجاء إلى حمزة بن حبيب الزيات، في كساء، فقال حمزة: من يقرأ؟، فقيل له: صاحب الكساء، وقيل: بل أحرم في كساء. أنظر- أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر ابن خلكان- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان- تحقيق إحسان عباس- دار صادر- بيروت- ط1- 1414هـ/1994م- ج3- ص297.
- 8- يعي بن المبارك اليزيدي: يُكنى: أبا محمد، اختلف في اسمه(يعي، وعبد الرحمن)، نسبة إلى يزيد بن منصور الجُمَيْرِي ت سنة 165هـ/782م، كان يزيد خال المهدي، نُسب إليه لصُحبته إياه، يؤدّب ولده، ثم أدب المأمون. أنظر، ابن خلكان: وفيات الأعيان - ج6 ص190/الفاضي أبو المحاسن المفضل بن محمد بن مسعر التنوخي المعري- تاريخ العلماء التحوين من البصريين والكوفيين وغيرهم- تحقيق الدكتور عبد الفتاح محمد الحلو- مكتبة مروان العطية- جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية- المملكة العربية السعودية- 1401هـ/1981م- ص114/أخذ التحوين عن أبي عمرو، يقول الشعر: أبو محمد اليزيدي: أبو محمد، يعي بن المبارك بن المغيرة العدوي المعروف باليزيدي المقرئ، ثقة، أحد القراء العالمين بلغات العرب التحوين صدوقا، له تصانيف حسنة، شعره مدون، صنّف كتاب "نوادير" في اللغة. أنظر- ابن خلكان- مصدر سابق- ج6 ص183-184/ابن التديم- مصدر سابق- ص57.
- 9- سيئويه، إمام التحوين: أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر الفارسي، ثم البصري طلب الفقه، الحديث، أقبّل على العربية، وألّف فيها كتابه مات سنة 180هـ/796م، قيل: 188هـ/884م. أنظر- الذهبي- المصدر السابق- ط11- أشرف على تحقيق الكتاب وخزج أحاديثه شعيب الأرنؤوط- حقق هذا الجزء نذير حمدان- مؤسسة الرسالة- بيروت- ط11- 1417هـ/1996م- ج8 ص352/مولي لبني الحارث ولد بقرية من قرى شيراز يقال لها: البيضاء، فلزم حلقة حماد بن سلمة؛ اسم فارسي؛ فالسي: ثلاثون، وبويه: راتحة، المعنى: ثلاثون راتحة. أنظر-المعري-مصدر سابق-ص92وما بعدها/ كنيته: أبو الحسن، بالفارسية: راتحة التفاح، أخذ التحوين عن خليل وغيره، اللغات عن أبي الخطاب الأخفش الكبير، عمل كتابا لم يسبقه إليه أحد، قدم أيام الرشيد إلى العراق، وهو ابن اثنتين وثلاثين سنة، توفي، وهوله نيف وأربعون سنة، بفارس، قيل: كان وروده العراق قاصداً يعي بن خالد، فجمع بينه وبين الكسائي والأخفش، فناظره، وخطياه في مسائل، وحاكماه إلى فصحاء الأعراب وعاد إلى البصرة، ثم فارس، ومات بها سنة 179هـ/795م، قال المازني: "من أراد أن يعمل كتابا كبيرا في التحوين كتب سيئويه، فليستحي". أنظر- ابن التديم-الفهرست-ص57.
- 10- أبو الحسين علي بن الحسين بن علي المسعودي- مروج الذهب ومعادن الجوهر- تقديم الدكتور يوسف البقاعي- الطبعة الأولى- دار إحياء التراث العربي- بيروت- لبنان- ج3، ص254-11- محمد محمد محمود الغرابوي- من وصايا الخلفاء الأمويين والعباسيين ومعاونهم لمؤدّي أولادهم- مجلة كتيبة اللغة العربية بالقازيق- جامعة الأزهر، ع21- دار المنظومة، السعودية- 2001م- ص304.
- 12- الوزير جمال الدين بن يوسف القفطي- أساس السياسة- تحقيق خليل العطية- دار الطليعة للطباعة والنشر- بيروت- ط1- رجب1429هـ/تموز2008م- ص106-107-13- الأبشيبي- مصدر سابق- ص35-37-14- القفطي- أساس السياسة- ص107-15- القفطي- نفس المصدر- ص107-108-16- القفطي- نفس المصدر- ص108-17- نفسه- ص18- أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد ابن الجوزي- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم- دراسة وتحقيق محمد عبد القادر عطا- مصطفى عبد القادر عطا- راجعه وصحّحه نعيم زوزور- دار الكتب العلمية، بيروت- ط1- 1412هـ/1992م- ج10 ص139-140-19- أبو الفرج ابن الجوزي- لفنة الكبد في نصيحة الولد نصيح بها ولده أبا القاسم بدر الدين علي المولود (551هـ ت 630هـ)- شرح وتحقيق أشرف عبد المقصود بن عبد الرحيم- مكتبة الإمام البخاري- الإسماعيلية، مصر- ط1- 1412هـ- ص35-20- أحمد بن يعي بن جابر البلاذري- جمل من أنساب الأشراف، حققه وقدم له أ.د. سهيل زگار والدكتور رياض الزركلي- دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع- بيروت- ط1- 1417هـ/1996م- ج4- ص357.
- 21- مطيع بن إياس: من بني بكر؛ من بني الدليل بن بكر بن عبد مناة بن كنانة، الدليل، وليث أخوان لأم، ولد بالكوفة طريفا خليعا حلوا معايشة مليح النادرة ماجنا...متهما بالزندقة يكتي ب"أبا سلى"، كان مطيع، ويعي بن زياد الحارثي، وابن المقفع، ووالبة بن الحباب يتنادمون، ولا يستأثر أحدهم على صاحبه بمال، ولا مُلك، مرميين بالزندقة. أنظر- أبو الفرج الأصفهاني- كتاب الأغاني- تحقيق وإشراف لجنة من الأدباء- دار الثقافة- بيروت- ط5- 1401هـ/1981م- ج13 ص285 وبعدها-22- الأصفهاني- نفس المصدر- ص289-23- الأصفهاني- نفس المصدر- ص317-24- الأصفهاني- نفس المصدر- ص318-25- إبراهيم الموصلبي أحمد بن

- محمد بن إسماعيل بن إبراهيم، فارسي، وحسب إسحاق الموصلي: "جدنا ميمون هرب من جور بعض عمال بني أمية، فنزل الكوفة في بني عبد الله بن دارم"، وأمه من بنات الدهاقين الذين هربوا سنة 120هـ/738م بالكوفة، الموصلي لأنه صحب صالحياً كانوا يسبون الطريق ويصيبه معهم، فيشربون ويغنون، فتعلم الغناء، فكان أحذقهم- الأصفهاني- نفس المصدر-ج5- ص 142 وما بعدها.----26- الأصفهاني-نفس المصدر- ص146.----27-الأصفهاني- نفس المصدر- ص147.----28-الأصفهاني- نفس المصدر-ص147-148.
- 29- أبو مروان عبد الملك بن الكردبوس التوزري من علماء القرن السادس الهجري- الإكتفاء في أخبار الخلفاء- دراسة وتحقيق عبد القادر بوباية- دار الكتب العلمية- بيروت- ط1-2009م- المجلد الثاني (أخبار خلفاء بني العباس)- ص109.
- 30- يعقوب الوزير الكبير الزاهد بن طهمان الفارسي الكاتب، كان والده كاتباً للأمير نصر بن سيار متولي خراسان، فلما خرج يعي بن زيد بن علي، كان داود يناصح يعي سراً، وصار أخوه علي بن داود كاتباً لإبراهيم بن عبد الله بالبصرة فلما قُتل اختفا مدة، ثم ظفر المنصور بهما، فسجنهما، ثم استخلف المهدي عليهما، وكان معهما في السجن إسحاق بن الفضل، فلزمه، فعظمه المهدي واختص به، فوزر له، وفوض إليه أئمة الأمور. أنظر- الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن أبي بكر الذهبي (ت748هـ)- سير النبلاء- ط11- أشرف على تحقيق الكتاب وخرج أحاديثه شعيب الأرنؤوط- حقق هذا الجزء نذير حمدان- مؤسسة الرسالة- بيروت- لبنان- 1417هـ/1996م- ج8- ص 346-347/ وفي 166 هـ/783م قبض المهدي على وزيره يعقوب؛ لكونه أعطاه هاشمياً من ولد فاطمة؛ ليقتله، فهزبه، كان شيعياً يميل إلى الزيدية، ويقربهم. أنظر- ابن العماد الحنبلي- شذرات- ج1- ص261.
- 31- الإمام الحافظ عماد الدين أبي الفدا ابن كثير القرشي الدمشقي- البداية والنهاية- راجعه وخرج أحاديثه وعلق عليه محمد تامر- شريف محمد- محمد عبد العظيم- محمد سعيد محمد- دار الوعي للنشر والطبع والتوزيع- الجزائر-ج5- ص526.----32- الأبيشي- مصدر سابق- ص148.----33- الذهبي- سير أعلام النبلاء- ج8 ص347.----34- الذهبي- نفس المصدر- ص348-349.----35- الأبيشي- المستطرف في كل فن مستظرف- ص149.----36- الأبيشي- نفس المصدر- ص145.----37- القفطي- أساس السياسة- ص61.----38- الذهبي- سير أعلام النبلاء- ج8 ص64.----39- الحسين بن الضحاک بن ياسر، من موالى سليمان بن ربيعة، باهلي صليبية، بصري المولد، والمنشأ، من شعراء الدولة العباسية، جالس الأمين، شاعر أديب ظريف حسن التصرف في الشعر، حلو المذهب، يلقب بالخليع، حتى تجاوز المائة؛ لما قدم المأمون من خراسان إلى بغداد أمر بأن يسرى له قوم من أهل التأديب يجالسوه، فذكر له جماعة فيهم الحسين، فقال: "لا حاجة لي فيه، والله لا يراني أبداً إلا في الطريق". الأصفهاني-الأغاني-ج7- ص145/ابن خلكان- وفيات الأعيان- ج2- ص162 وما بعدها.----40- الأصفهاني- الأغاني- ج7- ص220.
- 41- إيتاخ، غلام طيخ لسلام الأبرش، فاشتره منه المعتصم في سنة 199هـ/815م، فيه شجاعة، رفعه المعتصم والواثق، وضما إليه أعمالاً، كان المعتصم إذا أراد قتل أحد، فيبدي إيتاخ، ويحبس، وكان مع المتوكل في مرتبته، إليه الجيش والمغاربة. أنظر- ابن الأثير (الإمام العلامة أبو الحسن، علي أبي الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري الملقب بعز الدين الكامل في التاريخ- الطبعة الثالثة- دار الكتاب العربي- بيروت- 1400هـ/1980م- ج6 ص101.----42- عمرو بن بحر الجاحظ- التاج في أخلاق الملوك- تحقيق ونشر دار الفكر- بيروت لصاحبها إبراهيم الزين 1375هـ- دار البحار- بيروت- 1955م- ص225.----43- "اعلم أن المناظرة هي: النظرة بالبصيرة من الجانبين في النسبة بين الشئيين؛ إظهاراً للصواب، ولكن من الجانبين وظائف وللمناظرة آداب. أنظر عصام الدين أبو الخير أحمد مصطفى بن خليل طاشكيري زادة- رسالة الآداب في علم البحث والمناظرة- تحقيق حايك النهمان- ط1- دار الظاهرية للنشر والتوزيع- الكويت- 1433هـ/2012م- ص33.
- 44- يعي بن خالد البرمكي، وزير الرشيد، جدّه، من مجوس بلخ، يخدم التمهارة، فلما فتح المسلمون بلخ أسلم خالد، وساد وتقدم في الدولة؛ استوزه السقاح، ثم المنصور، وكان يعي ابنه نبياً، خلوقاً، فضم إليه المهدي ولده الرشيد، ثم صار كاتبه فثابه، ووزيره قبل توليه الخلافة، قال له: "يا أبت. أنت أجلسني في هذا المجلس ببركتك، ويؤنك، وحسن تدبيرك، وقد قلدت الأمر، ودفع له خاتمه، فتولى الوزارة، ونهض بأعباء الدولة، وبعد نكبة البرامكة أدخله الرشيد السجن مات فيه سنة 190هـ/806م. أنظر- ابن خلكان- وفيات- ج6- ص219 وما بعدها.----45- أبو بكر محمد بن يعي الصولي- أدب الكتاب- نسخته وعني بتصحيحه وتعليق حواشيه محمد بهجة الأثري ونظر فيه علامة العراق السيد محمود شكري الألوسي- طبع في المكتبة العربية- بغداد- المطبعة السلفية- القاهرة- مصر- 1431هـ - ج2- ص193.----46- عبد اللطيف عادل- بلاغة الإقناع في المناظرة- الطبعة الأولى- دار الأمان- الرباط- المغرب- 1434هـ/2013م- ص16.----47- عبد اللطيف عادل- نفس المرجع- ص130-137.----48- محمد بن أحمد بن أبي بكر الذهبي- سير

- أعلام النبلاء- أشرف على تحقيقه شعيب الأرنؤوط- حَقَّق هذا الجزء محمَّد نعيم العرقسوسي- مؤسَّسة الرسالة- بيروت- ط11- 1417هـ/1996م- ج10 ص50-49- الأبيشيبي- المستطرف-ص25-50- طاشكبري زادة- رسالة الآداب- ص37.
- 51- كلير كرامش- اللُّغة والثَّقافة- ترجمة أحمد الشَّيبي- مراجعة عبد الودود العمراني- الطَّبعة الأولى- منشورات وزارة الثَّقافة والفنون والتِّراث- إدارة البحوث والدراسات الثَّقافيَّة- قطر- 2010م- ص 129-52- السَّيوطي- مصدر سابق- ص214-53- ابن خلكان- وفيات- ج3-ص296/عبد الملك بن حسين بن عبد الملك الشَّافعي العاصمي المكي- سَفْط النَّجوم الغوالي في أنباء الأوائل والتَّوالي- تحقيق وتعليق: الشَّيخ عادل أحمد عبد الموجود- الشَّيخ علي محمَّد معوَّض- ط1- منشورات دار الكتب العلميَّة- بيروت- لبنان- 1419هـ/1998م - ج 3 - ص149-54- أبو هلال الحسن العسكري بن عبد الله بن سهل العسكري- جمهرة الأمثال- ضبطه وكتب هوامشه ونسَّقه الدكتور أحمد عبد السَّلام- خرَّج أحاديثه أبو هاجر محمَّد سعيد بن بسبوني زغلول- دار الكتب العلميَّة- بيروت- ط1- 1408هـ/1988م- ص9-10.
- 55- أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم الكوفي قاضي القضاة، أول من دعي بذلك، تفقَّه على الإمام أبي حنيفة، ونشر علمه، يحبُّ أصحاب الحديث، روى عنه محمَّد الشَّيباني، وليَّ القضاء للمهدي، وابنيه، قال عند وفاته: "كلُّ ما أفتيتُ به، فقد رجعتُ عنه إلا ما وافق الكتاب، والسُّنة" توفيَّ سنة(182هـ/798م) حفظ التَّفسير، والمغازي وأيام العرب؛ جالس ابن أبي ليلى، ثمَّ أبي حنيفة وخالفه، يقول دُبُر الصَّلَاة: "اللَّهم اغفر لي، ولأبي حنيفة"، أول من صنَّف في أصول الفقه، على أبي حنيفة، وأملى المسائل، ونشرها، ودُفن بمقابر قريش، بكنخ بغداد، بقرب أمِّ جعفر زبيدة. أنظر- ابن العماد الحنبلي- شذرات- م2 ص368 وما بعدها.
- 56- أبو القاسم عبد الرِّحمن بن إسحاق الرِّجَاجي- مجالس العلماء- تحقيق عبد السَّلام محمَّد هارون- ط3- مكتبة الخانجي للطَّباعة والنَّشر والتَّوزيع- القاهرة- 1420م-1999م- ص106-57- السَّيوطي- مصدر سابق- ص235-58- كلير كرامش- اللُّغة والثَّقافة- ص15-59- ابن خلكان- وفيات- ج6- ص184-60- الأبيشيبي- المستطرف-ص87-61- ابن خلكان- وفيات- ج3 ص296-62- السَّيوطي- مصدر سابق- ص236-63- عمرو بن بحر الجاحظ- البيان والتَّبئين- الطَّبعة الأولى- دار إحياء التَّراث العربي للطَّباعة والنَّشر- بيروت- لبنان- 1430هـ/2009م- ج2- ص205.
- 64 - عُليَّة، بنت المهدي؛ أمها أم ولد، مغنِّيَّة، يقال لها: مكنونة، كانت من جوارى المروانيَّة المغنِّيَّة، كانت مكنونة جارية المروانيَّة، وليست من آل مروان بن الحكم، هي زوجة الحسن بن عبد الله بن عباس، مغنِّيَّة، وكانت أحسن جارية بالمدينة وجها، أُشترت للمهدي، فولدت له عُليَّة بنت المهدي سنة160هـ/777م، وتوفيت سنة210هـ/826م، ولها خمسين سنة، وصلى عليها المأمون. أنظر، الأصفهاني: كتاب الأغاني، ج11، ص171-195؛ أنظر- عثمان بن أم الخير- الحياة الاجتماعيَّة في العصر العبَّاسي من خلال آثار"الجاحظ"132هـ/750م-869هـ/255م- جامعة الجزائر2- الجزائر- 1434هـ- 1435هـ/2013م-2014م- ص140 وما بعدها.
- 65- أنظر ابن عماد الحنبلي- شذرات، م2، ص53.
- 66- يعقوب بن إسحاق السِّكِّيت، روى عن الأصمعي، وأبي عبيدة، والفراء، من أهل اللُّغة، كتبه: (إصلاح المنطق الألفاظ وغيره)، ولم يكن له في علم النَّحو، يميل في اعتقاده إلى مذهب تقديم أمير المؤمنين علي، السِّكِّيت بكسر السَّين المهملة الكاف المشدَّدة، ياء مثناة تحته تاء مثناة، من فوقها، عُرف بذلك؛ لأنَّه كان كثير السُّكوت، كان يؤدَّب مع أبيه بمدينة السَّلام، في درب القنطرة صبيان العامَّة، فاحتاج إلى الكسب، فتعلَّم النَّحو، ووفاته في رجب سنة (243هـ/858م) توفيَّ، وعمره 80عاما، من أهل الفضل، والدِّين، والثِّقة ترقَّى إلى أن صار يؤدَّب ولد المتوكل. أنظر ابن خلكان- وفيات- ج6 ص396-401/المعري التنوخي- تاريخ العلماء النَّحويين- ص206/أبو الفرج عبد الرِّحمن بن علي بن محمَّد ابن الجوزي- المنتظم في تاريخ الملوك والأئمِّم- دراسة وتحقيق محمَّد عبد القادر عطا- مصطفى عبد القادر عطا- راجعه وصحَّحه نعيم زوزور- الطَّبعة الأولى- دار الكتب العلميَّة- بيروت- 1412هـ/1992م- ج11- ص311-313-67- السَّيوطي- مصدر سابق- ص262.
- 68- ابن المعتز، عبد الله بن المعتز بن المتوكل بن المعتصم بن الرِّشيد بن المهدي، واحد دهره في الأدب والشَّعر، وكان يقصده فصحاء الأعراب، ويأخذ عنهم، ولقيَّ العلماء من النَّحويين والإخباريين، كثير السَّماع، غزير الرِّواية. أنظر ابن التَّدميم- الفهرست- ص129-69- ابن خلكان- وفيات- ج6- ص399-70- الأبيشيبي- المستطرف- ص24-71- الحسن بن سهل السَّرخسي، وزير المأمون، وحَمُوهُ أبو محمَّد الحسن بن سهل كان سمحا، جوادًا، مَدْحًا، وسرخس: مدينة من خراسان؛ موته لغلبيَّة المرَّة السَّوداء؛ لحزنه على أخيه الفضل، حين قُتل معاصفة في الحَمَّام توفيَّ سنة(236هـ/851م) له سبعون عاما. أنظر- ابن العماد الحنبلي- شذرات- م3- ص167.

- 72- جعفر بن شمس الخلافة مجد الملك - كتاب الآداب- عني بتصحيحه وضبط ألفاظه وتفسيرها والدنا محمد أمين الخانجي-ط2- مكتبة الخانجي- 1414هـ/1993م-ص61-73- الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء؛ مولى بني منقر ولد بالكوفة كان منقطعاً إلى ابن سهل، فكتب إليه: أن الأمير حسن ربما سألني عن الشيء من القرآن...، فإن رأيت أن تجمع كتاباً أرجع إليه" سبب إملائه الحدود، أن بعض أصحاب الكسائي سألوه أن يمل عليهم أبيات النحوف... يجلس للناس في مسجده، يتفلسف؛ أكثر مقامه ببغداد، وفي آخر السنة بالكوفة، يقيم بها أربعين يوماً في أهله يفرق بينهم، توفي بطريق مكة سنة (207هـ/823م)، كتبه: معاني القرآن ألفه لابن طاهر، وغيره. أنظر- ابن النديم- الفهرست-ص73-74/له كتب في العربية يقال لها: "الحدود"، يقال: أنه يوماً لحن بين يدئ الرشيد، فقال: طبايع أهل البدو اللحن، وطبايع العرب الإعراب، وإذا تحفظت لم ألحن، وإذا تكلمت مُرسلاً رجعت إلى الطبايع فاستحسنه، وابتدأ بإملاء "كتابه في القرآن" سنة (203هـ/819م)، كان يُملي منه في يومين كلَّ أسبوع، وفرغ منه سنة (205هـ/821م). أنظر- المعري- مصدر سابق-ص187-188-74- الزجاجة- مجالس العلماء-ص10.
- 75- خير الله سعيد- موسوعة الوزافة والوزاقين في الحضارة العربية الإسلامية- الطبعة الأولى- مؤسسة الإنتشار العربي- بيروت- لبنان- 2011م- ج1- ص115-76- الزجاجة- مصدر سابق-ص30-77- جعفر بن شمس الخلافة مجد الملك- كتاب الآداب- ص2-78- ابن النديم- الفهرست- ص72-79- أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد ابن الجوزي- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم- دراسة وتحقيق محمد عبد القادر عطا- مصطفى عبد القادر عطا- راجعه وصحَّحه نعيم زوزور- الطبعة الأولى- دار الكتب العلمية- بيروت- 1412هـ/1992م- ج12- ص99-80- شريك بن عبد الله العلامة الحافظ قاضي الكوفة أبو عبد الله النخعي، من كبار الفقهاء ولد في 95هـ/714م ببخارى أو نُقل إلى الكوفة، عاش 82 سنة ت(187هـ/803م أو 188هـ/804م)، بالكوفة. أنظر- الذهبي- مصدر سابق-ج8-ص202 وما بعدها-81- السيوطي- مصدر سابق-ص219-82- الذهبي- سير أعلام النبلاء-ج8- ص207-83- الذهبي- نفس المصدر-ص63-64-84- الذهبي- نفس المصدر-ص55-85- الذهبي- نفس المصدر-ص62-63-86- السيوطي- تاريخ الخلفاء- ص288-87- أبو معاوية الضَّير، محمد بن خازم مولى بني سعد بن زيد بن مَناة بن تميم الحافظ الحجَّة أبو معاوية السَّعدي الكوفي الضَّير أحد الأعلام ولد سنة 113هـ/731م، وعتي وهو ابن أربع سنين سنة 73، وكان هارون الرشيد يُجلُّه ويحترمه مات سنة 194هـ/810م. أنظر الذهبي- سير أعلام النبلاء- ج9 ص73-77-88- السيوطي- نفس المصدر- ص222.
- 89- قُطْرِب، يقول المثل: أشهر من قُطْرِب: عن أبي عمرو أنه دويبة لا تنام الليل؛ أي إنما يقطعها سيراً. أنظر- العلامة الأديب أبو القاسم جار الله محمد بن عمر الزمخشري- المستقصى في أمثال العرب-ط2- منشورات محمد علي بيضون- دار الكتب العلمية، بيروت، 1408هـ/1987م- ج1 ص175-90- المعري- تاريخ العلماء النحويين- ص83-84-91- العاصمي المكي- سمط النجوم-ج3- ص436-92- ابن خلكان- وفيات-ج3- ص295-93- العاصمي المكي- سمط النجوم-ج3- ص436-94- المعري- مصدر سابق- ص187-95- أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القبرواني- زهر الآداب وثمر الألباب- شرحه ووضع فهارسه علي محمد الجاوي وعارضه بمخطوطات القاهرة وحقَّقه عيسى البابي الحلبي وشركاه- الطبعة الثَّانية- 1389هـ/1969م- ج1- ص448.
- 96- السيوطي- تاريخ الخلفاء- ص241-97- الزجاجة- مجالس العلماء-ص50-98- ابن الجوزي- المنتظم-ج11- ص27.
- 99- أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي- العقد الفريد-تحقيق الدكتور مفيد محمد قميحة- الطبعة الأولى- دار الكتب العلمية- بيروت- 1404هـ/1983م- ج2 ص275-100- ابن الكردبوس التُّوزري- الإكتفاء في أخبار الخلفاء-ج2 ص259/روى الصُّولي عن محمد بن سعيد قال: كان المعتصم غلاماً في الكتاب يتعلَّم منه، فمات...قال: فكان يكتب ويقرأ قراءة ضعيفة... المعتصم بالله أبو إسحاق محمد بن الرشيد(218هـ/227هـ-833م/842م) ولد سنة 180هـ/796م) أمه أم ولد من مَوْلِدات الكوفة "ماردة"، من أحظى الناس عند الرشيد، كان ذو شجاعة وقوَّة، وهمة، وعزِّياً من العلم. أنظر- السيوطي- تاريخ الخلفاء- ص253.
- 101- السيوطي- نفس المصدر-ص255-102- ابن النديم- الفهرست-ص2213-103- أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد ابن الجوزي- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم- دراسة وتحقيق محمد عبد القادر عطا- مصطفى عبد القادر عطا- راجعه وصحَّحه نعيم زوزور- الطبعة الأولى- دار الكتب العلمية- بيروت- 1412هـ/1992م- ج11 ص121/السيوطي- تاريخ الخلفاء- ص259-104- ابن النديم- الفهرست- ص79-80-105- المعري- مصدر سابق- ص202/في 244هـ/859م قتل المتوكل ابن السكيت... فنظر المتوكل إلى المعتز والمؤيد فقال له: "من أحب إليك هما أو الحسن والحسين؟"، فقال: "قنبر؛ يعني مولى علي خير منهما"، فأمر الأتراك، فداسوا بطنه حتَّى مات، وقيل: أمر بسلِّ لسانه فمات، وأرسل إلى ابنه بديته، وكان يعقوب رافضياً. أنظر- السيوطي- تاريخ الخلفاء- ص262.

جرائم الانحراف الجنسي في مجتمع المغرب الإسلامي من خلال وصف إفريقيا
للوّزان (10هـ/16م) " قراءة في البواعث والإجراءات"
Crimes of sexual Deviation in the maghreb Society islamique
through Africa's Description of wazzan (10 AH/16 CE) " Reading in
motives and proceduers"

الماسم ولقب المؤلف المرسل: كمال بركات- Barkat Kamel صص31-51
الدرجة ومؤسسة الانتماء: طالب دكتورالي- مخبر الدّراسات التّاريخية والمتوسطيّة عبر العصور- جامعة
لونيسى علي- البلديّة2/البريد الإلكتروني: Kamelbarkat55@gmail.com
الماسم ولقب المؤلف الثاني: د. عبد القادر بوعقادة- Bouagada Abdelkader
الدرجة ومؤسسة الانتماء: أستاذ محاضر- جامعة البلديّة2 لونيسى علي- الجزائر
البريد الإلكتروني: bouagada_aek@yahoo.fr

تاريخ استقبال المقال: 2019/10/07 تاريخ المراجعة: 2020/01/20 تاريخ القبول: 2020/02/19

ملخص: يروم هذا البحث تسليط الضّوء على أحد المواضيع التي تندرج ضمن حقل المحظورات التي لطالما سكت عنها، وصُدّت عنها الأقلام؛ لذلك لا يزال تناولها من المنظور التاريخي يشقّ طريقه بخطى متثاقلة، وارتأينا أن تكون مساهمتنا على أكثر الجرائم فتكًا بالنوع البشري في تاريخ المغرب الإسلامي، في نهاية عصره الوسيط، والمتمثلة في جرائم الانحراف الجنسي، من خلال قراءة في كتاب "وصف إفريقيا" للحسن الوزان، مركزين بالأساس على الأسباب الماديّة والدوافع التفسّية التي أدت بالمجتمع المغربي إلى التردّي في حمئة هذه الجرائم، ثمّ الوقوف على أهمّ العقوبات التي سنّها العقل التّأديبي، كما تهدف الورقة البحثيّة إلى تقريب صورة أكثر واقعيّة عن طبيعة المجتمع المغربي بعيدا عن النظرة التّمجيدية، وفي الوقت نفسه نسعى من خلال الموضوع التّأكيد على نجاعة توظيف نص الرّحلة في البحوث الإنسانيّة عموما، واختراق مجال المحظور بالخصوص. وقد خلصنا من خلال دراستنا إلى مجموعة من الاستنتاجات ذات بُعدين: منهجي ومعرفي نوجزها في النّقاط التّاليّة:

- وصف إفريقيا من المصادر الهامّة في التّاريخ الإجتماعي لبلاد المغرب بما في ذلك تاريخ المحظورات والجريمة.

- وقوع فئات مختلفة من المجتمع في العديد من جرائم الجنس المنحرفة كالزنا واللواط والسحاق، وقد تعددت الأسباب، منها ما هو مادي، ومنها ما هو نفسي، كما أكد الوزان على ضعف الوازع الديني كونه السبب الرئيس.

- تبقى هذه الجرائم أمراً شاذاً عن مجتمع المغرب الإسلامي، ولم تصل لحد الظاهرة الإجتماعية؛ بل إن مرتكب هذه الجرائم تعرض إلى عقوبات شرعية وعرفية. إضافة إلى مقاطعة اجتماعية.

الكلمات المفتاحية: الجرائم- الجنس- اللواط- السحاق- البغاء- الزنا- الانحراف- العقوبات - وصف إفريقيا- الوزان- المغرب الإسلامي.

Abstract: This research highlights one of the topics that fall within the taboos and taboos that have long been silent and repelled by pens. Therefore, I still take it from a historical perspective in a funny way, and I thought that my contribution to the most deadly crimes of human kind, in the history of the Islamic Maghreb at the end of its medieval age, represented in crimes of sexual deviations, through reading in the book "Description of Africa "For Hassan Al Wazzan, focus on The material causes and psychological motivations, which led the Moroccan society to deteriorate in the heat of these crimes, and then to identify the most important penalties enacted by the disciplinary mind. Emphasis on the effectiveness of the use of the text of the trip in humanitarian research in general, and penetrate the field of prohibited in particular.

After conducting our study, we come out with a double set of findings; the systematic and the cognitive dimensions. They are summarized as follows:

- Counting Africa as an important source in the social history of Maghreb including history of bans, taboo and crimes.
- The fall of certain parts of the society in many deviant sexual crimes such as adultery, sodomy and lesbianism.
- Though the motives behind the issue were physical and psychological, it is stressed out that the core reason is the weakness of religious consciousness.
- These crimes remain uncommon for the Islamic Maghreb society; they did not spread to the social phenomenon likewise. Instead, the perpetrators of these crimes were subjected to legal and customary penalties along with social boycott.

Keywords: crimes- Sex- sodomy- Lesbian- Prostitution- Adultery- deviation- Penalties- Africa Description- Wazzan- Islamic Maghreb .

مقدمة: يعدّ تناول موضوع المحظورات والجرائم من الجانب التاريخي من الحقول المعرفية الجديدة التي جاءت كاستجابة للأصوات المطالبة بضرورة تجديد الكتابة التاريخية، وإعادة النظر في كتابة تاريخ المغرب وفق رؤية تتجاوز الطرح التقليدي الذي

هيمن طويلا، وذلك بعد الانفتاح على مظان مصدرية مكنت الباحثين من التخلّص من إكراهات الحوليات التاريخية، ورغم بعض المحاولات الجادة¹ إلا أنّ تاريخ المحظورات والجرائم، والبحث في أسبابها وتداعياتها، وأثرها في سلوك وذهنية إنسان العصر الوسيط بالغرب الإسلامي لا يزال يسير بخطى متثاقلة؛ فقياسا لما هو مُنجز من أبحاث تاريخية في هذا الحقل يمكن القول: "إنّه لم يتجاوز مرحلة التّشكّل".

تأسيسا على هذا، ارتأينا أن نساهم بمقاربة تاريخية نتتبع فيها الكشف عن إشكالية الدوافع المادية، والبواعث النفسية لجرائم الانحراف الجنسي، والعقوبات المختلفة التي تعرّض لها الجنّة، والتي سجّلت حضورا في مجتمع المغرب الإسلامي خلال القرن 10هـ/16م؛ تزامنا مع الانقسامات السياسية في المغرب الأقصى (الوطاسي السّعدية)²، والمراحل الأخيرة من أعمار الدّول في المغرب الأوسط والأدنى (الزيانية والحفصية)، وهي مرحلة يختلّ فيها نظام الدّولة؛ فيكثر القتل والهرج حسب ابن خلدون³. كلّ ذلك من خلال قراءة في وصف إفريقيا للحسن الوزان⁴ التي تعدّ إحدى أهمّ الرّحلات الجغرافية؛ فمن مزاياها أنّها كتبت بذهنية منفتحة نالت إعجاب النّقاد الأوروبيين⁵، وقد مكّنتنا انفتاح الوزان في كتابته الوصفية من الولوج إلى عالم المحظورات الذي ظلّ زمنا طويلا عالما منسياً أُحكّم عليه الإغلاق من طرف مؤلّفي الحوليات التاريخية، كما أنّ نزاهة الوزان وحياده⁶ الذي وُصف به، وموضوعيته وجسّه التاريخي الذي لمسناه في مواضع مختلفة من وصفه⁷ كان حافزا لنا لاتّخاذ كمرجعية في دراستنا. زيادة على شعوره بمسؤولية المؤرّخ نجد الوزان قد صوّر لنا المجتمع المغربي وبلاده وفق نظرة شمولية مبينة- كما قال- "المدن والجبال والمواقع، والقوانين والعوائد، دون إهمال شيءٍ ممّا يستحقّ أن يُعرف"⁸، كما أنّ القارئ لوصف الوزان يخرج بنتيجة مفادها أنّه يستطيع أن يكتب من خلاله تاريخا بِنْيويًا لمجتمع المغرب الإسلامي؛ فالوزان لم يدعُ عنصرا اجتماعيا إلا وذكره في وصفه، والتاريخ البِنْيوي من خصائصه أنّه "تاريخ النَّاس وليس تاريخ العامّة؛ لأنّه لا يقصي أولئك الذين يحظون بمواقع متميّزة في صلب السّلطة"⁹.

ومن جملة ما تعرّض الوزان لذكره الطبقات الإجتماعية الهامشية، والذي يهّمنا هنا العنصر المنبوذ منها من المجرمين؛ فإنّ كان ابن عبد الملك يري أنّ ذكر النّساء من

الأمر المستشعنة، وذكر القيان منهن "وصمة وجرحه... وعثرة لا تُقال، وزلة لا تُغتفر، وسيئة لا تكفير عنها، وكبيرة يجب المتاب منها"¹⁰؛ فإنّ الوزان لم يتردد في ذكر النساء اللاتي يمتنّ البغاء في دور عمومية¹¹، وذكر حتى النساء العرافات اللاتي يمارسن جريمة السحاق الشنيعة¹².

بالإضافة إلى ذلك يمكن اعتبار وصف الوزان وثيقة إدانة لبعض عناصر المجتمع المغربي في مرحلة من مراحل تاريخه، بترديهم في العديد من الجرائم التي كان لها أثر على ذهنيته وسلوكه وتاريخه، ولهذه الوثيقة مصداقيتها؛ بخاصة وأنّ "معظم مادة الكتاب من مشاهدات المؤلف وخبراته الشخصية"¹³، كما أنّها صادرة عن إنسان لطالما جالس الفقهاء في المدن والقرى التي زارها، وعمل على مناظرتهم ومناقشتهم في نوازل وفتاوى دقيقة¹⁴، بل الأكثر من ذلك أنّه مارس القضاء، وفصل بين الناس في قضاياهم في بعض المناطق التي زارها كجبل سمد ومدينة المديّة¹⁵، وهي بلا شك من الأمور التي تجعله يطلع على الواجهة الخلفية للمجتمع.

استنادا إلى هذا، تروم ورقتنا البحثية هذه التطرق إلى نوع من الجرائم التي تهدد الكيان البشري وتفسده، ويتعلق الأمر بجرائم الانحراف الجنسي بأنواعها التي نبحث من خلالها الوقوف على أسبابها؛ انطلاقا من رصد تجلياتها، والتحرّي عن دوافعها المادية وبواعثها النفسية، مع تسجيل المواقف الفردية والجماعية منها، ويستلزم كلّ ذلك اتباع منهج تاريخي بآلياته المختلفة، كذلك الاستعانة بالتحليل النفسي الاجتماعي الذي تقتضيه هذه الدراسة.

1- دلالة الجريمة "وضع المصطلح في السياق التاريخي": ارتأينا قبل الخوض في رصد تمثّل مظاهر الانحراف الجنسي التي أوردها الوزان في وصفه، والبحث في أسبابها وبواعثها، والموقف منها أن نستعرض أولاً مفهوم ودلالة مصطلح الجريمة، ووضعها في سياق تاريخ البحث؛ فلا غرو أنّه لا سبيل لإدراك أيّ علم إلا عبر فهم مصطلحاته، كما أنّه لا يُعقل أن نحلّل ونعلّل أيّ ظاهرة دون فقه وتفكيك مصطلحاتها، بخاصة إذا تمّ تناولها من منظور تاريخي؛ فهنا تصبح مسألة مراعاة السياق التاريخي للمصطلح من أولى الأولويات، حيث يرى الأستاذ بولطيف أنّ مسألة ضبط دلالة المصطلح الذي يُراد إجراؤه ضمن مجال تداولي معيّن من أدقّ إشكالات الكتابة التاريخية في وقتنا الراهن، وعلل ذلك بما يعترى

المصطلحات من عوارض الزمان والمكان؛ فتتغير دلالاتها- قليلا أو كثيرا- بين عصر وآخر، وبين هذا الصقع وذلك¹⁶.

أعتقد أنّ هذا التقديم أشدّ ما يكون انطباقا على مصطلح "الجريمة"؛ فمفهوم الجريمة يتّصف بنوع من المرونة والتّسببية¹⁷، وخاصّة وأتمّها ظاهرة اجتماعيّة؛ لذلك فإنّ المحدّد الأساسي للفعل المحظور أو السلوك الإجرامي خاضع للقيّم الاجتماعيّة في المنظور الاجتماعي، وفي هذا الصّد يري دوركايم (Émile Durkheim) أنّنا لا ننكر أفعالا معيّنة لأتمّها إجراميّة، ولكنّها إجراميّة بالنّسبة لنا لأنّنا نستنكرها¹⁸؛ فالسلوك الذي يحكّم عنه مجتمع ما بأنّه جُرما في منظومته القيميّة قد تراه جماعة أخرى سلوكا عاديا.

لا ريب أنّ وجهة نظر دوركايم تُحيل إلى دور العُرف في تحديد الأفعال التي تُنسب إلى الجريمة أو إلى السلوكات المألوفة، ولا بأس أن نقدّم مثلا تاريخيا يثبت هناك بعض القبائل الصّحراويّة المغربيّة "ألفوا سيرا نشؤوا عليها"¹⁹ كان من بينها: "أتمهم لا ينكرون على من يرتكب جريمة زنا المحارم"، ونستشفّ ذلك من خلال ردّ عبد الله بن ياسين على رسالة الاحتجاج التي أرسلها إليه شيخه "وجاج بن زلو" بعد أن بلغه ما مارسه من عُنف ضدّ القبائل الصّحراويّة؛ فكان ردّ عبد الله بن ياسين "أما إنكارك على ما فعلت وندامتك على إرسالي؛ فإنّك أرسلتني إلى أمة كانت جاهليّة يُخرج أحدهم ابنه وابنته لرعي السّوام؛ فيعزبان في المرعى؛ فتأتي المرأة حاملا من أحدها ولا ينكرون ذلك"²⁰.

ونظرا لهذه المرونة التي يمتاز بها مفهوم الجريمة سنعمد إلى تعريفها من المنظور الشّري الإسلامي؛ لأنّ أحكامه خاضعة لضابط واحد هو: مخالفة التّصوص الشّريّة، كما أنّ المفهوم الإسلامي للجريمة يتوافق مع السّيّاق التّاريخي لمجتمع بحثنا الذي لطالما دعا حُكّامه إلى تطبيق أحكام نصوص الشّرع²¹ ربّما بحثا عن مشروعيّة الحكم، خاصّة وأنّ الرّعيّة تُنكر على مَنْ عطّل الحدود، وتهاون في تطبيقها؛ فكان الغالب عندهم تحكيم كتاب الله وسنّة رسوله في أحكامهم، وإقامة الحدود الشّريّة التي نصّت عليها الشّريعة²².

لعلّ أهمّ تعريف شامل لمعنى الجريمة من هذه الرّؤية ما ذكره الماوردي في كُون "الجرائم محظورات شرعيّة زجر الله- تعالى- عنها بحدّ أو تعزير"²³، ومن هذا التعريف نستنتج أنّ الجريمة هي التّردّي في أفعال نهى الشّرع عن إتياها أو ترك أعمال حرّم الشّرع تركها، ولا تعتبر هذه التّواهي والأوامر جرائمًا، إلّا إذا ترتبت عليها عقوبة (حدّا أو تعزيرا)،

ولا شك أنّ مجتمع المغرب الإسلامي في نهاية العصر الوسيط عرف جرائمًا مختلفة تمكّن الوزان من رسم صورة جليّة عنها سنحاول تتبّع جرائم الانحراف الجنسي، ودوافعها فيما يلي.

2- تمثّلات جرائم الإنحراف الجنسي: "ثنائية الزنا والجنسانية المثليّة": لا ريب أنّ مجتمع إسلامي كمجتمع المغرب في نهاية العصر الوسيط يدرك تمام الإدراك أنّ الموقف الديني يستنكر ويجرّم أيّ علاقة جنسيّة خارج مؤسّسة الزواج؛ مهما كان نوعها، حيث نصّت العديد من النصوص الشرعيّة على تحريمها، ووَضَعها ضمن خانة الكبائر والجرائم التي تقتضي عقوبة²⁴، إلا أنّ المتتبّع لما جاء في وصف إفريقيا يدرك أنّ الأمر لم يتوقّف عند حدّ جريمة الزنا فحسب؛ بل تعدّاه إلى العلاقات الجنسيّة المثليّة أو ما يسمّى بـ"الجنسانية المتوحّشة"²⁵، سنقف عند تمثّلات هذه الظاهرة الإجراميّة، وبواعثها النفسيّة، وأسبابها الماديّة، وخاصّة وأنّ الوزان اخترق حواجز الطابوهات، وسجّلها في رحلته.

1-2 جرائم فواحش الزنا والبغاء "التجليات والبواعث": صوّر لنا الوزان المرأة في بعض المناطق المغربيّة في صورة المتهّم الأوّل في التردّي في براثن فاحشة الزنا، ربّما ذلك يعود للنظرة السائدة في ذهنيّة المجتمع الوسيط في العالم الإسلامي الذي يرى في المرأة السبب الأوّل في الفتنة؛ عاجزة عن مقاومة وسوسة الشيطان؛ بل النساء هنّ حبايل الشيطان ومصانده²⁶، كما أنّه كان راسخا في المخيال الجمعي "أنّ هيجان شهوة المرأة أشدّ من غلّمة الرّجل"²⁷؛ لذلك فإنّ الزواج لم يحلّ دون وقوع فئة من النساء في فاحشة الزنا، وكنّ يحرصن على أن يتمّ ذلك في سرّيّة تامّة، كما هو شأن نساء إحدى حواضر هسكورة اللاتي كنّ "يقدمنّ أنفسهنّ عن طيب خاطر للغرباء متى أمكهنّ ذلك في تستر كامل"²⁸، كما عُرفت نساء جبل بني منصور بالخيانة الزوجيّة؛ فلا تكاد توجد فيهنّ واحدة وفيّة لزوجها²⁹، وإنّ كنّا لا نسلّم بهذه الأحكام العامّة؛ فإنّنا لا نستبعد في الوقت نفسه وجود نماذج من هذا القبيل.

لعلّ أحسن مثال نوردّه في قضيّة ثنائيّة الخيانة الزوجيّة، وتقديم النساء أنفسهنّ عن طيب خاطر لغير أزواجهن القصّة التي أوردها الوزان على لسان قاضي القضاة لدى أمير دبدو؛ مفادها أنّه لما عُيّن نائباّ لأمير دبدو على إحدى المناطق التابعة لحكم هذا الأخير

عشق إحدى فلاحات تلك المنطقة التي كان من عاداتهم الذّهاب للاحتطاب من الغابة، وعندما خرجت هذه الفلاحة مع زوجها إلى الغابة نال القاضي من المرأة ما أراد دون كبير مناقشة، وعملت على التّستر على الأمر باحتيالها على زوجها³⁰.

إنّ هذه التّماذج تُحيل من جانب خفيّ إلى الحرمان الجنسي الذي كانت تعاني منه بعض النّساء المغربيات، كما تحيل إلى أنّ الزّواج في بلاد المغرب كان أمراً ذكورياً؛ فلم تكن المرأة تُستشار فيمن سيكون شريك حياتها، حتّى وإن كانت من طبقة النّخبة، كما هو حال بنات ملك فاس محمّد الشّيخ، حيث زوّج اثنتين من بناته دون استشارتهما³¹، وفي الوقت نفسه تؤكد على أنّ الحبّ في العلاقات الزّوجية كان أمراً هامشياً؛ فكما يرى أحد الباحثين بأنّ "تاريخ الزّواج ليس هو تاريخ الحبّ بالضرّورة"³².

كلّ هذه الأمور دفعت بالمرأة إلى التردّي في المحذور كلّما سنحت لها فرصة؛ فأصبح هروب المرأة من العوائد التي عُرفت بها نساء مريضة كردّة فعل عن أدنى إهانة من أزواجهنّ، ولا يجدنّ أيّ مشكلة في ترك أولادهنّ، والذّهاب للزّواج برجل آخر³³، ويبدو أنّ مسألة هروب المرأة من بيتها عرفتها مختلف مناطق المغرب الإسلامي في هذه الفترة، ودليل ذلك أنّ كتب التّوازل قد حفلت بالتّعريض لهذه القضية، وكشفت لنا عن الكثير من مُلابساتها وأسبابها؛ ففي الكثير من المرات تُطرح على الفقيه مسائل من قبيل "المرأة تنشز من زوجها، وتهرب مع آخر"³⁴، و"عن امرأة هربت من عصمة رجل إلى آخر"³⁵، كما كانت وفاة الزّوج³⁶، والإكراه على الزّواج³⁷ من أسباب هروب المرأة، ويُفهم من تركيز التّوازل على هذه القضية أنّها شكّلت هاجساً للسّاكنة، وقضية مُستجدة في المجتمع المغربي.

لكن عند تجاوز النّظرة الذّكورية للمجتمع المغربي الذي "يُحِمّل المرأة وحدها مسؤولية الأعمال التي يشارك فيها كالافتضاض والحمل قبل الزّواج والبلغاء"³⁸ ندرك أنّ المرأة لم تكن المبادر الوحيد في فاحشة الزّنا؛ فإنّ كانت قد مارست الإغواء والخيانة الزّوجية والنّشوز، والهروب من بيتها؛ فإنّ الرّجل هو الآخر لم يكن بريئاً من هذه الجريمة؛ فنجدّه قد عمل على مراودة المرأة عن نفسها³⁹، كما مرّ معنا في قضية السّلطان المريني الذي راود زوجة كاتبه عن نفسها، أو ما قام به قاضي دبدو الذي راود

إحدى فلاحات بني يستين عن نفسها، ونال منها جنسياً⁴⁰، وهما نموذجان يُظهران الرجل في صورة المُستدرج، والغاوي للمرأة على التردّي في فاحشة الزنا.

كما ظهر الرجل في صورة المُغتصب؛ مثلما هو شأن عمرو السيف الذي اعتدى على طفلة جنسياً⁴¹، ومن الجدير بالذكر أنّ الرجال في كثير من الأحيان يعتمدون إلى مقايضة أموالهم بمتعة الفجور مع العاهرات، كما هو حال تُجار قسنطينة الذين يُبتذرون مُعظم ما حصلوا عليه من أموال على النساء العاهرات في تونس⁴²، اللاتي اضطرنّ إلى الاتجار بمفاتهنّ بأبخس الأثمان، في ظلّ واقع اجتماعي بائس⁴³.

والظاهر أنّ دور البغاء التي تُمارس فيها فاحشة الزنا بكلّ حرّية أصبحت تعرف تواجدًا في عواصم المغرب الإسلامي في نهاية العصر الوسيط؛ فلم يقتصر الأمر على حاضرة تونس فحسب؛ بل يذكر الوزان أثناء تعداد منشآت القسم الشرقي من مدينة فاس، بأنّها فيها "دور عمومية تُمارس فيها البغايا مهنتهنّ بثمن بخس"⁴⁴، والغريب في الأمر أنّ ذلك يتمّ "تحت حماية رئيس الشرطة أو حاكم المدينة"⁴⁵؛ بل الأكثر من ذلك؛ فقد كان لرؤساء الشرطة في فاس الحقّ في اتّخاذ حانات، وممارسة مهنة البغاء والتدييث⁴⁶.

ولا نستبعد أنّ الهجاء الذي وجهه الونشريسي (ت914هـ) للذين كانوا على رأس الخطط الشرعية، بما في ذلك الشرطة، راجع لممارستهم لمثل هذه الأعمال، حيث قال: "وبالجملة إنّ أكثر الخطط الشرعية في زماننا أسماء شريفة على مُسمّيات خسيّة"⁴⁷، ولا نستبعد أن تكون المصلحة المادية والعسكرية للدولة من وراء السماح بمثل هذه النشطات، وخاصّة وأنّ الدولة تفرض على أصحاب هذه الفنادق دور البغاء إتاوات، كما أنّهم ملزمون عند الحاجة بأنّ يقدموا إلى جيش الملك أو الأمراء عددا كثيرا من موظفيهم لطبخ الطعام للجنود⁴⁸، وهو ما ذهب إليه أحد الباحثين مؤكّداً أنّ انتشار البغاء بمدينة تونس أدّى إلى فرض ضريبة على البغايا، واعتُبر ذلك ترخيص ضمني من طرف السلطة لهذا النشاط وإباحته؛ ما دام يضمن لخزينتها دخلا إضافيا⁴⁹، كما لا نستبعد أنّ هذه الدُور والفنادق كانت تقدّم خدماتًا جنسية للجيش.

لم يكن رجال الشرطة وحكّام المدن في المغرب الإسلامي في نهاية عصره الوسيط وحدهم من يشجعون على انتشار جرائم فاحشة الزنا والممارسة الجنسية خارج مؤسسة الزواج؛ والغريب في الأمر أنّ تجد في مجتمع عُرف عن رجاله أنّهم "لا حدّ لغيرتهم على

نسائهم، حتى أنهم لم يهبون أرواحهم بدل أن يتحملوا العار في حق نسائهم، كما لا حدّ لحرصهم على المال والشرف⁵⁰؛ ففي المجتمع ذاته ذكر الوزان في نص لا يخلو من مبالغة. وينقصه الكثير من الضبط، وبخاصة وأنه عممه على كل بوادي بلاد المغرب، "أنه يمكن لجميع الفتيات أن يكون لهنّ قبل الزّواج عشيق يدقن معه حلاوة الحبّ، ويرحب الأب نفسه بعاشق ابنته أجملّ ترحيب، وكذلك يفعل الأخ بعاشق أخته، بحيث إنّه لا توجد امرأة تُزفُّ بكراً إلى زوجها"⁵¹، وإن كان هذا النص يناقض طبائع ساكنة بلاد المغرب وقيّمهم؛ فإنّه لا يمنع أن تكون بعض المناطق قد شكّلت استثناء، وشدّت عن الأعراف والقيّم السائدة.

لم يكن الأب والأخ المرّحب الوحيد بعشيق البنت أو الأخت؛ بل حتى الأمّ لم تكن بريئة هي الأخرى، حيث لعبت دور المتواطئ لترتيب اللقاءات الحميمة بين ابنتها وعشيقها، وفي هذا الصّدّد نستشهد بما قامت به زوجة عبد الرّحمن أمير مدينة أسفي، حيث "كان لهذا الرّجل بنت بارعة الجمال عشقت رجلا من العامّة... يدعى علي بن وشمين، وقد تمكّن هذا الرّجل أن ينام مع البنت أكثر من مرّة بتواطئ أمّها مع إحدى الإماء"⁵².

وإن كنّا لا نستبعد حدوث أمور مشابهة، إلّا أنّها قد تبقى محدودة، وبخاصة وأنّ فقدان البنت غشاء بكارتها خارج الزّواج يلحق بأهلها عارا كبيرا، كما أنّه يجلب غضبا ومقاطعة مجتمعية؛ فقد كان من عادات أهل فاس الانصراف من الأعراس دون أكل إذا اتّفق أنّ العروس لم تكن بكراً⁵³، من هنا ندرك أهمية غشاء البكارة في المنظومة القيمية لمجتمع المغرب الإسلامي؛ إذ لطالما اعتبرت البكارة دليلا ماديا يثبت عقّة البنت، وقد ارتبطت العقّة ببعد قيمي، وهو الشرف الذي انحصر في الكثير من الأحيان في مدلوله الجنسي، وأضحى الأنثى رمز شرف الرّجل؛ بل ورمز العشيرة جمعاء⁵⁴، وقد تنبّه الباحث مالك شبل لهذه القضية؛ فأكد أنّ "طابو" البكارة من وجهة نظر قيمية اجتماعية في الذهنية المغاربية السائدة يرمز إلى شهادة القبول داخل المجتمع، وفي الوقت ذاته إلى شعور الفرد المغاربي بالاستواء النفسي، كما أنّه يرمز إلى المثل الأعلى الاجتماعي⁵⁵.

إذا كان افتضاض البكارة "الحجّة المادية على تحقّق الممارسة الجنسية"⁵⁶؛ فإنّ الدّم الناتج عنها إن كان في الحلال (زواج شرعي) يصبح دما مقدّسا في المخيال الجمعي

للمجتمع المغربي؛ تحتفل به العائلات في أجواء شعبية يتم خلالها الإعلان عن عفة الفتاة أمام المدعويين، وهو ما جرت به العادة في أعراس الفاسيين⁵⁷.

2- 2 جرائم فواحش الجنسية المثلية "ثنائية اللواط والسحاق": تعدّ مواضيع الجنسية المثلية من أكثر المواضيع التي سكت عنها لدرجة أنّ صاحب كتاب "السلوكات الجنسية المهمشة في المغرب الكبير" استغرب الصمت المطبق الذي أحاط بمجموعة من المسائل التي طبعته- حسب- في حينها الحياة الاجتماعية، وأطرت الأفق المحسوس لعائلات حاكمة؛ مستهجنًا هذا الصمت بقوله: "يشتغل كلّ شيء كما لو أنّ الجنسية المثلية لم يكن لها وجود على الإطلاق على أرض الإسلام"⁵⁸.

مهما يكن من أمر؛ فإنّ الوزان- رغم جرأته التي أبان عنها في "وصفه" باختراق مجال المحظور؛ فإننا نجد كلاً تكلم عن أمور الجنس المنحرفة بصفة عامّة- مثلية كانت أو عادية- يعبر عن حالة الحياء والتحرّج التي تُصيبه في عبارات من قبيل "ولا يخفى ما يُصيبني من خجلٍ عندما أعترف وأكشف عيوب الأفرقة"⁵⁹، بل يصل به حدُّ الحرّج إلى الإعراض عن الخوض في الكلام عن بعض التصرفات بقوله: "تصرفات غير شرعية، ووضيعة يحسن أن نضرب صفحاً عن ذكرها"⁶⁰، ولإبعاد كلّ حرّج عن نفسه برز اختراقه لمجال المحظورات والكلام فيه في موضعين من وصفه موضحاً سبب ذلك، بقوله: "ولولا ما يلزم المؤرّخ من قول الحقّ لأغفلت بكلّ سرور هذا القسم من وصفي"⁶¹، وتأسيساً على ذلك سنعالج في هذه النقطة ما أطلق عليه ملك شبل "الواقعة الجنس مثلية"⁶² في شقها الذكوري والأنثوي؛ انطلاقاً من الشواهد التي قدّمها لنا الوزان.

سبق وأن أشرنا إلى أنّ الموقف الديني يُدين ويستنكر كلّ علاقة جنسية خارج مؤسسة الزواج، ويزداد الموقف الديني صرامة وشدّة، وبخاصّة في العلاقات الجنس مثلية لتعارضها مع المشيئة الإلهية، ولأنّها لا تؤدّي إلى الإنجاب؛ فهي بذلك تمرّد على الحكم الإلهي والقانون الاجتماعي في الوقت نفسه⁶³.

ولمّا كان هذا النوع من العلاقات من المناكح يؤدي إلى فساد النوع البشري؛ بل إلى انقطاعه⁶⁴؛ فقد اتفقت الأديان السماوية على تحريمه وتجريمه، كما ورد في القرآن الكريم العديد من النصوص تستهجن هذا الفعل "اللوّاط"، لعلّ أهمّها قوله تعالى: "وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ (80) إِنَّكُمْ

لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ⁶⁵(81)، وأمّا عن عقوبة هذه الجريمة فقد قال الإمام مالك وغيره: "يُرْجَمَانِ فِي اللُّوْطِيَّةِ أَحْصَيْنَا أَوْ لَمْ يُحْصَيْنَا"⁶⁶، وقد أثنى ابن خلدون⁶⁷ عن مذهب الإمام مالك- رحمه الله- في حُكْمِهِ عَنِ اللُّوْاطِ بِقَوْلِهِ: "كَانَ مَذْهَبُ الإِمَامِ مَالِكٍ فِي اللُّوْاطِ أَظْهَرَ مِنْ مَذْهَبٍ غَيْرِهِ، وَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ أَبْصَرَ بِمَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ، وَاعْتَبَرَهَا لِلْمَصَالِحِ"، وأمّا في الدِّيانَاتِ الأُخْرَى؛ فنجد في اليهودية مثلا نفس الحكم؛ فقد جاء في سفر اللاوين: "وَإِذَا اضْطَجَعَ رَجُلٌ مَعَ ذَكَرِ اضْطِجَاعِ امْرَأَةٍ؛ فَقَدْ فَعَلَ كِلَاهِمَا رَجْسًا؛ إِنِّهُمَا يُقْتَلَانِ؛ دُمُهُمَا عَلَيْهِمَا"⁶⁸.

إنّ هذه الممارسات الخارجة عن المؤلف والشاذة كانت أمورا مألوفة عادية في بعض مناطق المغرب الإسلامي في عصر الوزان، كما تكشف بعض نصوص الوزان أنّ التعلّق بالغلّمان لم يكن أمرًا معيبيًا؛ فنجد شعراء مدينة فاس مثلا ينظمون الشعر باللّغة العامية يصف بعضهم فيه حبّه للغلّمان، ولا يجد أدنى حرج أو خجل في ذكر الغلام الذي يهواه باسمه⁶⁹، في حين نجد أمرًا أعجب من ذلك؛ فقد تحظى الممارسات الجنسية الشاذة بإجماع الجماعة، كما هو حال سكان مدينة أزّمور الذين شاعت بينهم فاحشة اللواط؛ لدرجة أنّهم لا يتحرّجون في أنّ يبيّح الأب لولده عن صديق مداعب وملاطف له، وأرجع الوزان- وفق نظرة دينية لتفسير الظاهرة التاريخية- سقوط مدينة أزّمور سنة 918هـ/1512م في يد البرتغاليين إلى هذه الجريمة الشنيعة⁷⁰.

في حين يؤكّد الوزان بروز هذه الجريمة في عواصم المغرب الإسلامي كمهّن موازية، دُفع أصحابها إليها بدافع الفقر والحاجة، كما هو شأن بعض الغلّمان في مدينة تونس الذين دفعتهم الحاجة إلى التّعرّض للرجال، ووصفهم الوزان بأنّهم "أشدّ دناءة ووقاحة ورذالة من العاهرات"⁷¹؛ فزيادة إلى شحنة الاحتقار التي يحملها هذا الوصف؛ فإنّه ينمّ من جانب خفيّ على أنّ الفقر لم يكن العامل الحقيقي الباعث بهذه الفئة لممارسة هذا السلوك؛ بل إنّ ضرورة نفسيّة خالصة تختفي وراء الحاجة والفقر.

وأعتقد أنّ هذه الأمور خاضعة للنظرة الاجتماعية التي يرى أحد علماء الاجتماع بأنّها تكون أكثر تفرّجًا ومرونة مع الذي يتّخذ من ممارسة الجنسية المثلية كمهنة، يُقال: إنّه يضطرّ إلى عرض جسده بسبب انعدام فرص شغل، وإنّه يُضجّي من أجل إعالة

نفسه وأسرته، أما المثلي الذي يمارس مثليته من أجل ضرورة نفسية خالصة فإنه يُعتبر شاذًا، وهو ما لا يتفهمه النظر الاجتماعي⁷².

لم تكن مدينة تونس وحدها من تحوي هذه الفئة؛ بل إن عاصمة أخرى من عواصم المغرب الإسلامي في نهاية العصر الوسيط ضمت في فنادقها هذا الصنف من المثليين جنسيًا؛ فقد ذكر الوزان في وصفه لفنادق فاس أنه أسوأ ما فيه "رهط يقال لهم "الهبوى"، وهم رجال يرتدون ثياب النساء، ويتحلون بجلهنّ يخلقون لحاهم، ويقلدون النساء حتى في طريقة كلامهنّ...، إنهم يتغنون أيضا، ولكل واحد من هؤلاء الأندال صاحب يتسراه ويعاشره كما تعاشر المرأة زوجها"⁷³.

العجيب أن مثل هذه الفنادق والدور كانت تُقام بمباركة من السلطة، وتحت حمايتها لحاجات الجيش التي لا نستبعد أن تكون بضمنها الحاجات الجنسية المثلية، بخاصة وأن الجند يعيشون في بيئة ذكورية تساعد على ظهور تلك الممارسات التي تسبب فيها الفصل بين الجنسين، والتي يتم احتواؤها لكونها تسد حاجة الأوساط العامة التي عرفت بؤسا اجتماعيا وجنسيا واقتصاديا، كما تمثل مصدرا من مصادر تنوع اللذة الجنسية بالنسبة إلى الخاصة⁷⁴؛ فقد ذكر الوزان أن أحد أبناء أمراء تونس في عهده تم تعيينه نائبا على مدينة قسنطينة، و"كان ما يزال غلاما صغيرا أقرع، لوطيا سكييرا جائرا"⁷⁵.

إن الكلام عن جريمة فاحشة اللواط الذي يمثل عاملا من عوامل اختلال النظام الجنسي، وتمردا على الأمر الإلهي، وضربا صارخا للمنظومة القيمية الاجتماعية؛ بل تهديدا للنوع البشري يقودنا إلى الكلام عن جريمة مماثلة في شقها الأنثوي؛ ألا وهي جريمة فاحشة السحاق.

يجب التنبيه على أن مواضيع الجنس، رغم فاعليتها الاجتماعية، ما تزال تقبع تحت جدران الصمت العازلة التي تزداد سُمكا وقتامة في العلاقات الجنسثلية بالأخص في شقها الأنثوي "السحاق"؛ فقد مارست الثقافة السائدة الواد لمثل هذه المواضيع بتقنيها للمجالات المعرفية؛ "فالسحاق من المواضيع التي لا ينبغي الخوض فيها حتى على مستوى التخيل؛ لأن ما يمكن تصوّره نكاح الرجل للمرأة أو نكاح اللوطيين، أما أن يتحوّل الجسد الأنثوي إلى موطن لذة المرأة نفسها؛ فذاك أمر لا يسوغه مسوغ"⁷⁶.

رغم هذا الواد الممارس لهذه المواضيع من طرف الذهنية العاملة والعامّة على حد سواء؛ فإنّ الأحكام الفقهية أو الاجتماعية المحدّرة منها، والمُشْتَعَة عليها أكبر دليلاً على تواجدها، والذي يهمننا هنا الإشارات التي تهتمّ تواجد الظاهرة في فترة ومجال بحثنا، ولعلّ أحسن مثال على ذلك ما أفصح به كلّ من العقباني(ت871هـ) والونشريسي(914هـ)؛ فكلاهما أكدّ أنّه "كثُر ذكر هذه المفسدة- جريمة فاحشة السّحاق- في هذا الزّمان"، وأرجع السّبب في ذلك إلى "اطّلاع بعض الفاسقات على محاسن الأخرى من تحريك شهوة التّفاعّل الذّي يختار بعضهنّ لذّته عن مباحضة الرّجل"، بخاصّة عند اللّقاء في الحمّامات⁷⁷.

في السّياق ذاته ذكر الوزّان نصّاً غاية في الأهميّة يثبت تواجد جريمة السّحاق بين عرّافات من مدينة فاس، حيث تساحق إحداهنّ الأخرى، كما أتهنّ يقعنّ في حبّ كلّ امرأه جميلة تأتي لاستشارتهن، ويعشقنها كما يعشق شاب فتاة، وتطلبنّ منها قبلاّت غراميّة في مقابل الثّمّن، وتقبّل المرأة في أغلب الأحيان⁷⁸، ولا نستبعد أن تكون فئة من النّساء القادّمات للاستشارة هنّ أيضا مثليّات جنسيّاً، وهو ما نفهمه من قول الوزّان: "وتطلب كثير من النّساء اللّواتي ينسرحنّ لهذه اللّعبة من العرّافات الدّخول في طائفتهنّ"⁷⁹.

وكما هو معلوم؛ فالجنسيّة المثليّة النّسائيّة، بوصفها شذوذا- يتعرّض لنّبذ ديني واجتماعي- تعمل السّحاقيّات أنفسهنّ على كتمه وتّحاشي إفشائه، وهذا سبب الصّعوبة التي يجدها عند بحثهنّ عن الجسد المتواطئ؛ فوضعيّة الشّاذ الجنسي مزيجاً من المصادفات⁸⁰؛ أي أنّه لا يلتقي بشبيهه إلّا صدفة، كما هو حال النّساء اللّاتي يأتين إلى العرّافات، ويطلبنّ الانخراط في فتنهنّ.

إجمالاً يمكن القول بأنّ الجرائم الجنسيّة بأنواعها تشترك في نفس الضّرر، حيث تؤدّي إلى فساد النّوع البشري وانقطاعه، وقد عرفت هذه الجرائم تواجداً في مجتمع المغرب الإسلامي في نهاية العصر الوسيط (القرن 10هـ/16م)، ولمّا كانت هذه الجرائم تهدّد الإنسان بدرجة أولى؛ لا شك أنّ يسعى "العقل التّأديبي"⁸¹ لوضع عقوبات تحدّ منها برّدع المجرمين؛ فما هي أهمّ تلك العقوبات، وإلى أيّ مدى كانت مطابقة للشّرع؟

3- عقوبات جرائم الانحراف الجنسي "جدل النّظر الشّرعّي والاعتبار العرفي": أثناء بحثه في الحدّ من خطر الجرائم عموماً، وجرائم الانحراف الجنسي بالتّحديد سعى العقل

العقابي المغربي إلى سَنِّ مجموعة من العقوبات لمنع حدوث هذه الجرائم أولاً، وللزجر والرّدع بعد حدوثها؛ فالعقوبات كما يقول الفقهاء: "موانع قبل الفعل؛ زواج بعده؛ أي العلم بشرعيتها يمنع الإقدام على الفعل، وإيقاعها بعده يمنع العود إليه"⁸²، وبما أنّ إقامة العقوبة على الجريمة يقتضي وجود نصّ يُجرّم ذلك الفعل؛ فالفعل "لا يُعدُّ جريمة إلا إذا نصّ عليه القانون صراحة"⁸³.

إنّ هذه القاعدة التّشريعية التي يستند عليها التّعريف القانوني نجد لها ما يقابلها في التّعريف الشّرعي للجريمة الذّي وضعه الماوردي، ومفاده "الجرائم محظورات شرعية زجر الله تعالى عنها بحدّ أو تعزير"⁸⁴، وقد نوّه الإمام أبو زهرة لهذا الأمر فاعتبر أنّ التّعريف الشّرعي والقانوني للجريمة متقاربان، وأنّه لا يمكن اعتبار أيّ فعل جريمة إلا إذا كان هناك نصّ "شرعي أو قانوني" يجرّم ذلك الفعل، كما أنّ العقاب لا يكون إلا بنصّ قانوني أو شرعي⁸⁵.

لهذا، فلا شكّ أنّ يضطلع العقل القانوني (الفقهي والعرفي) إلى استنباط أحكام من نصوص الشّرع لتجريم بعض الأفعال والسلوكات، كما أنّه وضع نصوصاً تحدّد العقوبة، وبما أنّ المستند الأوّل لاستنباط القواعد القانونية هو نصوص الشّرع نتساءل: إلى أيّ مدى توافّق النّظر الشّرعي مع الواقع التّاريخي لمجتمع المغرب الإسلامي، بخاصّة فيما تعلق بعقوبة جرائم القتل والانحراف الجنسي.

الظاهر أنّ لنصوص الشّرع وكتب الفقه الإسلامي مكانة في الأحكام القضائيّة؛ ففي تتبّعه لشأن القضاء بمدينة فاس أشار الوزان أنّ "هناك قاضٍ مكلف بالأحكام الشّرعية؛ أي بتطبيق القوانين المستخرجة من كتب الفقه الإسلامي، ومعه قاضٍ آخر كئيب له مكلف بقضايا اجتماعية كالزّواج والطلاق، ولا يتوقّف الأمر عند هذا الحدّ؛ بل يوجد مُفتي يُستفتى في المسائل الفقهية، ويُرجع إليه في الأحكام التي أخطأ فيها القضاة"⁸⁶.

ومما يُثبت حضور نصوص الشّرع في أحكام القضاء في المدن المغربية أنّ الذّين يتولّون القضاء عادة ما يتميّزون بالتمكّن من المسائل الفقهية، كما هو حال العديد من قضاة المدن المغربية؛ فقد ذكر الوزان أنّ مدينة تسكدلت الواقعة في إقليم مراكش كان يتولّى شؤون القضاء فيها قاضيًا له من التّمكّن والتّضلع في الفقه؛ لدرجة أنّه يفصل في

كلّ القضايا، إلاّ ما يُرجَع فيه إلى النّفاليس، وهُم الأعيان الذّين كانوا يتولّون الفصلَ في الجنايات وبعض القضايا المدنيّة⁸⁷.

وأصبحت بعض المدن شبه مُحكّمة يقصدها النَّاس من الأماكن المجاورة، وترفع إليها جميع الخصومات؛ فدسّوى فيها المطالبات القضائيّة؛ لكونها تضمّ فقهاء وقضاة متضلّعين في الفقه والنّوازل، ومثال ذلك مدينة أيت داود التي تعرف فيها الوزّان على شيخ يحفظ كتاب المدوّنة عن ظهر قلب؛ أي أنّه مُلمّ بجميع القوانين؛ إذ أنّ المدوّنة تشتمل على ثلاثة أجزاء تتناول بالدّرس أصعب المسائل الفقهيّة، وتبيّن رأي الإمام مالك فيها⁸⁸.

إنّ المتنبّع للتّقارير التي نقلها إلينا الوزّان عن مدن المغرب الإسلامي في عصره يلاحظ ذلك التّمايز والتّنوّع في العادات والتّقاليد، ولم يقتصر الأمر على هذا فحسب؛ بل تباينت حتّى في الاحتكام إلى الشّرع؛ فإنّ كانت نصوص الشّريعة والأحكام الفقهيّة هي المرجع الأساس في تحديد العقوبات، في الكثير من مدن المغرب الإسلامي؛ فإنّنا وجدنا بعض المدن الأخرى كمدينة إداوازكواغن لم يكن لسكانها "قاض ولا فقيه، ولا شخص يُحكّمونه ليفصل بينهم في خصوماتهم؛ إذ ليس لهم من الإيمان والشّريعة، إلاّ ما يجري على ألسنتهم"⁸⁹؛ لهذا نجد أنّ ساكنة إحدى النّواحي في إقليم حاحا يُحكّمون أنفسهم في قضاياهم المدنيّة كما يُحبّون لعدم وجود فقيه أو قاضي يرّجعون إليه⁹⁰.

وكان من عادة بعض المناطق في المغرب الإسلامي؛ نظرًا لعدم وجود من يحكّم بينهم في قضاياهم؛ اللّجوء إلى تحكيم الغريب وعابري السّبيل فيها، كما حصل للوزّان مع سكان جبل سمد، حيث عرضوا عليه قضاياهم بعد أن أخبره أحد أعيانهم قائلا: "لعلّك تجهل يا سيّدي عادتنا، وهي أنّه لا ينفصل غريب عنّا قبل أن يدّرس قضايانا، ويقضي فيها"⁹¹، والظاهر أنّ هذه العادة لم تكن خاصّة بسكان جبل سمد وحدهم؛ بل يذكر الوزّان أنّه أقام بمدينة المدية شهرين؛ لأنّ الغريب إذا مرّ بها يكاد سُكانها يحبسونه بالقوّة؛ طالبين منه بتوسّل وابتهاال أنّ يفصل في قضاياهم، ويحرّر عقودهم، ويفتيم في نوازلهم"⁹².

وهو ما يفسّر سيادة الأعراف التي يرى أحد الباحثين أنّ سبب شيوعها في المجتمعات القبليّة⁹³ راجع إلى تمركز الفقهاء في المدن، وغياهم شبه الكليّ عن الفضاءات

البدويّة مركز استقرار التّجمّعات القبليّة، وعادة ما تتحوّل هذه العقوبات إلى جرائم قتل لتأثير العادات والتّقاليد الخاطئة في المجتمعات التي يسودها اعتقاد خاطئ مفاده أنّ هذه الجرائم لها ما يسنّدها من الدّين⁹⁴، يمكن أن نُطلق عليها "عقوبات انتقاميّة" تتسبّب فيها دوافع نفسيّة كالانتصار للشرف، والخشية من العار.

من هذا المنطلق لا شكّ أنّ تكون العقوبات التي تعرّض لها الجناة تختلف من مكان لآخر؛ فإمّا أن تكون عقوبات شرعيّة أو عقوبات عرفيّة؛ فإنّ كانت العقوبات الشرعيّة تستند على النّص الدّيني والاجتهاد الفقهي؛ فإنّ العقوبات العرفيّة عادة ما تخضع لاتّفاق الجماعة؛ فتصبح تقليدًا معمولًا به، والدّي يهمنّا هو تتبّع العقوبات التي طُبقت على مرتكبي جرائم الانحراف الجنسي.

3-1 العقوبات الشرعيّة: يبدو أنّ تطبيق حدود الشّرع كان معمولًا به في جرائم الحدود في بعض مدن المغرب الإسلامي؛ ففي تتبّعنا للعقوبات التي طُبقت على الجرائم الجنسيّة وجرائم فاحشة الزّنا بالتّحديد أمّدنا الوزان بإشاراتٍ تؤكّد تطبيق العقوبات الشرعيّة على مرتكبي جرائم فاحشة الزّنا؛ فقد حكّم فقهاء مدينة "المدين" على أحد قادة حاضرة هسكورة "المدينة" الذي اختطف ابنة ملك مدينة المدين، واغتصبها قهراً بالموت؛ لأنّه مُحصّن زانٍ، وطبّق عليه حكم الرّجم عندما تمّ القبض عليه، بعد فراره متنكراً في زيّ مُتسوّل؛ ربّما تكون البيّنة التي استندوا عليها في إقامة الحدّ أنّ الفتاة كانت حامل منه في شهرها الثّامن⁹⁵؛ فالحمل من الأمور التي يثبت بها الحد⁹⁶.

وبغض النّظر عن الخلفيات السياسيّة التي كانت وراء قتل هذا القائد؛ فلا شكّ أنّ تطبيق حدّ الرّجم في حقّه هو من العقوبات الشرعيّة؛ فبالرّغم من عدم وجود نص صريح في القرآن يُثبت حدّ الرّجم؛ فإنّ كُتّب السّنة حافلة بالتّصوص التي تُثبت عقوبة الرّجم على المُحصّن الزّاني⁹⁷.

كما أنّه من دلائل حضور العقوبات الشرعيّة في جريمة الزّنا نصّ أوردّه الوزان يمكننا أن نستشفّ منه نوعاً آخر من العقوبات الشرعيّة التي كان يتعرّض لها البكر المرتكب لجريمة الزّنا، وهو النّفي والتّغريب؛ فقد أخبرنا الوزان أنّ من عادات ساكنة جبل لوكاي الواقعة في ريف فاس أنّهم يقبلون جميع المنفيين من فاس، ويرحبون بهم ما عدا الزّناة؛ لأنّ هؤلاء القوم غيبورون، لا يرغبون في وجودهم بينهم⁹⁸؛ فالنّص وإن كان

يفصح عن موقف بعض المناطق من مرتكبي جريمة فاحشة الزنا؛ فهو في نفس الوقت يُثبت عقوبة النفي التي اعتبرها أحد الباحثين عقوبة تكميليّة، ولا مانع أن تكون أصليّة⁹⁹، وأعتقد أنّها تكميليّة كونها تأتي بعد الجلد في حدّ البكر من الزانين؛ فقد جاء في حديث عبادة بن الصّامت عن النبي صلى الله عليه وسلّم قال: «خُذُوا عَنِّي خُذُوا عَنِّي قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِهِنَّ سَبِيلًا الْبِكْرُ بِالْبِكْرِ جَلْدٌ مِائَةٌ وَنَفْيٌ سَنَةً وَالثَّيْبُ بِالثَّيْبِ جَلْدٌ مِائَةٌ وَالرَّجْمُ»¹⁰⁰.

لذلك فإنّ النفي متمم لأحد أنواع العقوبات الشرعيّة للزنا التي صنّفها ابن جزي إلى أربعة عقوبات حسب طبيعة جنس الشخص، وكونه مُحصّن أو غير مُحصّن، ووضعيتة الاجتماعيّة؛ أي حُرّ أم عبد، والذي يهمنّا هو الرّجل الحرّ غير المُحصّن الذي جعل عقوبته جلد مائة، وتغريب عام إلى بلد آخر يُسجن فيه، وهو رأي الإمام مالك، حيث حصر عقوبة النفي في جرميّ الزنا والحرابة، مع سجن الزاني مدّة سنة؛ أمّا المُحارب حتّى تُعرف له توبة¹⁰¹.

3-2 العقوبات العُرفيّة: كما أنّ العقوبات العُرفيّة لم تكن غائبة هي الأخرى؛ فعند رصدنا للعقوبات التي تعرّض لها أصحاب جرائم الانحراف الجنسي أمّنا الوزان ببعض الإشارات التي تُثبت سيطرة العُرف والعادة، وتدخّلها في سنّ العقوبة؛ أي تدخّل ما أُطلق عليه "العامل الأنثروبولوجي"¹⁰² الذي له صلة مباشرة بالعادات والتقاليد.

قد سبقت الإشارة إلى أنّ بعض العقوبات العُرفيّة كانت خاضعة لبواعث نفسيّة محضة؛ فهي عقوبات انتقاميّة تُحمّل بعد الثأر؛ فأصبحت بذلك جرائم في ثوب عقوبات؛ لأنّ الذي يُنقذ العقوبة في الأصل هو الإمام أو من ينوب عنه¹⁰³؛ فرغم اختلاف الفقهاء في قضيّة الاقتصاص من الرّوج الذي يُقدم على قتل مَنْ وجده متلبسًا مع زوجته، وليس له البيّنة على ذلك إلى قولين، إلّا أنّ جمهور الفقهاء يرى بعدم جواز القتل إلّا مع وجود بيّنة، ويُحمّلون القاتل التبعيّة الجنائيّة¹⁰⁴، ولذلك تتحوّل هذه العقوبات إلى جرائم في ثوب عقوبات.

وعادة ما تقع هذه العقوبات على جرائم، بخاصّة المتعلّقة بالشرف؛ فقد كان رجال مدينة أديكيس يعاقبون كلّ من تجرّأ أو بالغ في الاقتراب من نساءهم بالقتل¹⁰⁵، وقد وجد بعضهم في القتل عقوبة لردّ الاعتبار، وانتصارا للشرف والعرض، ومسحًا لذلّ

الفضيحة، كما هو حال الكاتب الذي قتل السلطان المريني أبا سعيد (ت824هـ) لأن هذا الأخير راود زوجته عن نفسها¹⁰⁶.

ونفس البواعث تقريبا جعلت زوجة عمرو السيف تعاقب زوجها بالقتل لمضاجعته لابنتها من زوج آخر، ولا نستبعد أن سبب هذه العقوبة بسبب عامل نفسي يتمثل في هدرها وخيانتها؛ لذلك أرادت الانتصار لنفسها بقتله؛ فالجريمة كما يرى ولسون في المقام الأول تأكيد للأنا¹⁰⁷.

خاتمة: ختما يمكن الخلوص إلى استنتاجات ذات بُعدين: منهجي ومعرفي، أما فيما يتعلق بالجانب المنهجي فيمكن الحكم على كتاب "وصف إفريقيا" بأنه وثيقة مصدريّة، لا يمكن الاستغناء عنها لأيّ باحث يروم دراسة التاريخ الاجتماعي والاقتصادي، وكلّ ما يتعلّق بالذهنيّات للمجتمع المغربي، بخاصّة خلال القرن 10هـ/16م، وفي الوقت نفسه مصدراً مهمّاً لدراسة تاريخ المحظورات في مجتمع المغرب الإسلامي.

كما يمكن أن نعتبر الوزان من المجدّدين في فنّ الرحلة؛ فهو لم يكتف بوصف الخطوط العريضة في رحلاته؛ بل نجده انتبه لأدقّ التفاصيل؛ إذ اهتمّ بالجغرافيا والإنسان معا، بحيث لم يتجاوز إقليما إلاّ بين مُدُنِه، وحدّد موقعه، وعرفّ بعاداته وتقاليده، ووقف عند طبائع أهله وسلوكهم، ولم يكد يترك جزئية إلاّ أتى على ذكرها، في أسلوب شمولي نادراً ما نجده عند من سبقه من الرّحّالة، إضافة إلى ميزة أخرى؛ كونه معظم وصفه من مشاهداته الشّخصيّة.

رغم هذه المزايا إلاّ أنّ النتيجة التي يصل إليها الباحث عند قراءته لوصف الوزان يجد إضافةً للأحكام المتناقضة طابع التعميم الذي غلب على وصفه؛ لذلك فاستحضار الحسن التّقدي ضروري في الاستفادة من هذا المصدر.

أما فيما يخصّ الجانب المعرفي؛ فقد توصلنا من خلال وصف الوزان إلى أنّ مجتمع المغرب الإسلامي خلال عصره قد تردّى في الكثير من الجرائم؛ متفاوتة الخطورة؛ لعلّ أخطرها ما كان يهدّد الإنسان بالدرجة الأولى جرائم الانحراف الجنسي التي تراوحت أسبابها بين الدوافع الماديّة كالفقر والأوضاع الاجتماعيّة المزريّة، والبواعث التّفسيّة من قبيل الحرمان الجنسي والانحراف الأخلاقي، وضعف الوازع الديني الذي كثيرا ما أكد عليه الوزان بوصفه عاملاً أساسياً في جرائم الانحراف الجنسي، ومن هنا يجب علينا استحضار العوامل التّفسيّة في حركة التاريخ.

كما يجب التأكيد على أنّ جرائم الانحراف الجنسي تبقى سلوكيات فردية منحرفة لم تصل لحدّ الظاهرة الاجتماعية؛ لذلك لا يمكن تعميمها على مجتمع المغرب الإسلامي؛ هذا المجتمع الذي قاطع كلّ من له صلة بهذه الجرائم، كما هو حال أهل فاس مع أرباب الفنادق وساكنيها الذين يمارسون أفعالاً شاذة، وكذا انصرفهم دون أكل إذا ثبت لديهم أنّ العروس لم تكن بكرًا.

كما تبين لنا من خلال بحثنا هذا أنّ العقل التأديبي اجتهد في وضع عقوبات لردع المجرمين؛ تراوحت بين العقوبات الشرعية والعرفية، وهذه الأخيرة تحوّلت تحت تأثير المجتمع، وضغوطات نفسية إلى عقوبات انتقامية وصلت إلى حدّ القتل، وتكرّرت هذه العقوبات، خاصة ضدّ جرائم الشرف.

ونختم دراستنا بالتأكيد على أنّ قضايا المحظورات في المغرب الإسلامي في عصره الوسيط لا تزال حقلًا بكرًا ينتظر التفاتة الباحثين، خاصة أنّها موضوعات مرس عليها نوع من الصمت، ولم تتناولها الأعلام إلا نادرًا؛ ربّما يعود ذلك لاشتغال النخب الكاتبة بكلّ ما هو متناقب، واستبعاد أن يكون لمثل هذه المواضيع دور في حركة التاريخ، لكن في الحقيقة إنّ الذي ينكر تواجدها أو ينكر دورها في الحراك الاجتماعي، وبذلك التاريخي؛ فهو في الحقيقة جاهل بطبائع الأحوال في العمران، ومن هنا نتساءل إلى أيّ مدى يمكننا أخذ مؤثّر "العامل الجنسي" في تفسير الظاهرة التاريخية عموماً، وتاريخ المغرب الإسلامي بالخصوص؟

الهوامش:

1- إبراهيم القادري بوتشيش، الجرائم وعقوباتها في الغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط (القرن 4-8هـ/10-14م)، مقال ضمن أعمال ندوة: التاريخ والقانون التقاطعات المعرفية والاهتمامات المشتركة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية مكناس، أيام 3-4-5 نوفمبر 2009م؛ فاطمة بلهوري، نوازل جنائية من بلاد الغرب الإسلامي بين التشريع القضائي والتدوين التاريخي، مقال ضمن أعمال ندوة: التاريخ والقانون التقاطعات المعرفية والاهتمامات المشتركة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية مكناس، أيام 3-4-5 نوفمبر 2009م/الحسن بولقطيب، نظام العقوبات والسجن في المغرب الإسلامي، مساهمة في تاريخ العقل التأديبي، مجلة فكر ونقد، عدد 23، نوفمبر 1999م---2-الوزان الحسن بن محمد الفاسي، وصف إفريقيًا، ترجمة: محمد حجي-محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1983، ج1، ص7.

3-ابن خلدون، المقدمة، ضبط خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، بيروت، دار الفكر، 1431هـ، ج1ص376---4-تمّ الاعتماد في هذا المقال على الترجمة العربية التي أنجزها الباحثان محمد حجي، ومحمد الأخضر، ط2، جزآن، دار الغرب الإسلامي- بيروت، 1983م، وعن التعريف بالحسن الوزان، ويوصفه بنظر مقدّمة المترجمين، ج1، ص5-23---5-الوزان، مصدر سابق، ج1، مقدّمة المترجمين، ص18---6-المصدر نفسه، ج1، ص18---7-لمسّ هذه الموضوعية في معرض كلامه عن مدينته فاس، حيث لم يثنه عن التراجع عمّا كتبه في حقّها، إلا ما يلزم المؤرخ من قول الحقّ، وإلا فإنّه عزّم أن يُغفل الكلام عن هذا القسم في وصفه، وكان يفضّل السكوت عن اللوم الذي تستحقّه المدينة التي نشأ، وترعرع فيها الوزان: وصف إفريقيًا، ج1، ص232؛ كما تتجلى موضوعيته في كلامه عن أفريقيا ككل التي حمل اسمها "الإفريقي"، فجعل من الأمانة العلمية، والحقيقة التاريخية أمرًا فوق كلّ اعتبار قاتلاً: ولا يخفى ما يصيبني من خجل عندما أعترف، وأكشف عيوب الأفارقة، إفريقيًا في الواقع هي التي أرضعتني، وفيها كبرتي، وقضيت أجمل، وأطول

- قيسُط من حياتي، لكن عُذري عند الجميع، وهو ما أضطلع به من دُور المؤرِّخ الذي يلزمه قول الحقِّ الواقع، دون أيِّ اعتبار. ولا إرضاءَ رغبات أيِّ كان؛ ذلك السَّبب الذي اضطررتُ من أجله اضطرارًا إلى أن أكتب ما أكتب قاصدًا ألا أبتعد عن الحقيقة في شيء، وأن أترك جانبًا مُحسِنات الأسلوب، وزُخْرُف القول". ينظر: المصدر نفسه، ج1، ص89-8-المصدر نفسه، ج1، ص15، 16.
- 9- كيريزيسوف بوميان، تاريخ البنى ضمن كتاب التَّاريخ الجديد، تنسيق جاك لوغوف، ترجمة وتقديم محمَّد الطاهر المنصوري، مركز الدراسات الوحدة العربيَّة، بيروت، 2007م، ص220-10- ابن عبد الملك أبو عبد الله محمَّد بن محمَّد الأنصاري الأوسي المراكشي، الدَّليل والتَّكملة لكتَّابَي الموصول والصَّلَّة، تج محمَّد بنشريفة، دار الثقافة، بيروت، ص1، ق1، ص13-11- الوزان، مصدر سابق، ج1، ص247؛ ج2، ص60-12- المصدر نفسه، ج1، ص263-13- المصدر نفسه، ج1، ص15-14- المصدر نفسه، ج1، ص1، مقدِّمة المترجمين؛ ج7-15- المصدر نفسه، ج1، ص139/نفسه، ج2، ص41-16- لخضر بولطيف، الفقيه والسياسة في الغرب الإسلامي- مدخل إلى دراسة التَّجربة السياسيَّة الموحدية- المجلس الأعلى للغة العربيَّة، الجزائر، 2004م، ص7.
- 17- عوسي لسمر، التَّشريع الإسلامي وتديين العقاب، إفريقيا الشَّرق، المغرب، 2017م، ص63/فلسفة العقاب من المدرسة التَّقليدية إلى ما بعد الحدائنة، إفريقيا الشَّرق، الدَّار البيضاء-المغرب، 2016م، ص13-18- بوردون، وف. بوريكو، المعجم التَّقدي لعلم الاجتماع، ترجمة سليم حداد، ط1، المؤسسة الجامعة للدراسات والنَّشر، 1986، ص242-19- النَّويزي شهاب الدِّين أحمد بن عبد الوهاب، نهاية الأرب في فنون الأدب، تج عبد المجيد ترحيني، دار الكتاب العلميَّة، بيروت، دت، ص140-20- نفسه، ج24، ص142.
- 21- المراكشي أبو محمَّد عبد الواحد بن علي، المُعجب في تلخيص أخبار المغرب، شرحه صلاح الدِّين الهواري، ط1، المكتبة العصرية، بيروت، 2006م، ص202-204/مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمَّنة، نشرها ليفي بروفنسال، الرِّباط، المطبعة الاقتصادية، 1941م، صص128-168/أبو عبد الله محمَّد القاسم القيرواني ابن أبي دينا، كتاب المُؤنس في أخبار إفريقيَّة وتونس، ط1، مطبعة الدولة التُّونسيَّة، تونس، 1286هـ، ص145/علي أحمد، القضاء في بلاد المغرب والأندلس منذ الفتح وحتى نهاية القرن التَّاسع الهجري، مجلة دراسات تاريخية، العدد53/54، تموز- كانون الأوَّل 1995م، ص161-22- المقري التلمساني أحمد بن محمَّد، نفع الطيب من غصن الأندلس الرُّطيب وذكر وزيرها لسان الدِّين بن الخطيب، تج إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط1، 1997، ج1 ص220-23- الماوردي أبو الحسن علي بن محمَّد، الأحكام السُّلطانية، تحقيق أحمد جاد، دار الحديث- القاهرة، 2006م، ص322.
- 24- قال تعالى، "وَلَا تَقْرَبُوا الرِّزْيَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا" [الإسراء،32]. وفي تحديد عقوبة جريمة الرِّزنا يقول الله تعالى: "الرَّائِيَةُ وَالرَّائِي فَاحِشَةٌ كَلَّا وَاجِدَ مَبْهَمًا مَيْتَةً جَلَدًا وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيْشَهِدَ عَدَاؤُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ" (سورة النور، آية 2)، أما الحديث، فقد جاء عن عبادة بن الصَّامت عن النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «خُذُوا عَنِّي خُذُوا عَنِّي قَدْ جَعَلَ اللهُ لِهِنَّ سَبِيلًا الْبِكْرُ بِالْبِكْرِ جَلْدٌ مِائَةٌ وَنُفْيَ سَنَةٍ وَالنَّيْبُ بِالنَّيْبِ جَلْدٌ مِائَةٌ وَالرَّجْمُ» أخرجه الامام مسلم في صحيحه، باب، حدِّ الرِّزْي، الحديث رقم 1690، ينظر صحيح مسلم بشرح النَّووي، ط2، مؤسسة قرطبة، ج1، 11، 1994م، ص270-271-25- عروسي لسمر، التَّشريع الإسلامي وتديين العقاب، إفريقيا دار الشَّرق، المغرب، 2017، ص130.
- 26- ابن الرِّزات، التَّشوف إلى رجال التَّصوِّف وأخبار أبي العباس السَّبي، تحقيق أحمد التَّوفيق، ط2، منشورات كليَّة الآداب بالرِّباط، المغرب، 1997، ص231/ابن الحاج أبو عبد الله محمَّد بن محمَّد العبدري المالكي، المدخل، مكتبة دار التَّراث، القاهرة، دت، ج4، ص33-27- أمال قرامي، الاختلاف في الثقافة العربيَّة الإسلاميَّة- دراسة جنديريه- ط1، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2007م، ص673-28- الوزان، مصدر سابق، ج1، ص165-29- نفسه، ج1، ص330-30- نفسه، ج1، ص360.
- 31- المصدر نفسه، ج1، ص353-32- لحسن العسي، اللذة والعنف (تاريخ الرِّزواج)، سلسلة شرع، طنجة، العدد السَّابع، ربيع الثَّاني 1417- سبتمبر 1996، ص11-33- الوزان، مصدر سابق، ج1، ص334-34- المازوني أبوزكريا يعي، الدُّرر المكنونة في نوازل مازونة، تحقيق حساني مختار، مراجعة مالك كركوش الزَّواوي، دار الكتاب العربي- الجزائر، 2009، ج2، ص247-35- المصدر نفسه، ج2، ص449-36- المصدر نفسه، ج2، ص305.
- 37- المصدر نفسه، ج2، ص149-38- فاطمة المرنيسي، السُّلوك الجنسي، ص74. نقلًا عن محمَّد ياسر الهلالي، نظرة المجتمع للمرأة في المغرب القرن 8-9 هـ/14-15 م مساهمة في تاريخ الدَّهنيَّات، مجلة أمل، العدد 13-14، السَّنَة الخامسة 1998م، ص82-39- الوزان، مصدر سابق، ج1، ص318-40- نفسه، ج1، ص360-41- نفسه، ج1، ص107-42- نفسه، ج2، ص60-43- نفسه، ج2، ص78.77-44- نفسه، ج1، ص247-45- نفسه، ج1، ص247-46- نفسه، ج1، ص250-47- الونشريسي أبو العباس أحمد بن يحيى، المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقيَّة والأندلس والمغرب، تخرج مجموعة من الفقهاء بإشراف محمَّد

- حبي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية-الرباط/دار الغرب الإسلامي بيروت- 1401هـ/1981م، ج10ص81-48-الوزان، مصدر سابق، ج1 ص232.
- 49-إبراهيم جدلة، المجتمع الحضري في العهد الحفصي، منشورات وحدة البحث، المعهد العالي للدراسات التطبيقية في الإنسانيات بقفصة- جامعة قفصة، عدد01، جانفي 2010م، ص275-50-الوزان، مصدر سابق، ج1 ص86-51-المصدر نفسه، ج1 ص88-52-المصدر نفسه، ج1 ص148-53-المصدر نفسه، ج1 ص256-54-قرامي، مرجع سابق، ص256-5-مالك شبل، الجنس والحريم روح السراري، السلوكات الجنسية المهتمشة في المغرب الكبير، ترجمة عبد الله زارو، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2010م، ص106-56-المرجع نفسه، ص107-57-الوزان، مصدر سابق، ج1 ص256-58-مالك شبل، مرجع سابق، ص23-59-الوزان، مصدر سابق ج1 ص89-60-المصدر نفسه، ج1 ص232-61-المصدر نفسه، ج1 ص89؛ 232-62-مالك شبل، مرجع سابق، ص25-63-عروسي لسمر، مرجع سابق، ص130.
- 64-ابن خلدون، مصدر سابق، ج1 ص468-65-سورة الأعراف- آية 80-81، ينظر، سورة التمل-آية 54-55؛ الشعراء- آية 166-165؛ سورة العنكبوت آية 28-29-66-ابن عطية أبو محمد عبد الحق الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، دار ابن حزم، ص1425-67-ابن خلدون، مصدر سابق، ص468-68-سفر اللاوين، الإصحاح العشرون/13-69-الوزان، مصدر سابق، ج1 ص260-70-المصدر نفسه، ج1 ص159-71-المصدر نفسه، ج2 ص78-72-عبد الصمد الذليلي، سوسولوجيا الجنسانية العربية، ط1، دار الطليعة، بيروت، 2009م، ص93-73-الوزان، مصدر سابق، ج1 ص232-74-أمال قرامي، مرجع سابق، ص451-75-الوزان، مرجع سابق، ج2 ص57-76-أمال قرامي، مرجع سابق، ص458-77-العقباني أبو عبد الله محمد بن أحمد التلمساني، تحفة الناظر وغنية الذكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر، تح، علي الشنوفي، Extrait du bulletin d'Etudes Orientales de l'Institut Français de Damas Tome XIX-1967، ص505-72-الونشريسي، مصدر سابق، ج2 ص505.
- 78-الوزان، مرجع سابق، ج1، ص263-79-المصدر نفسه، ج1، ص263-80-مالك شبل، مرجع سابق، ص32.
- 81-مصطلح سبق للباحث المغربي الحسين بولقطيب توظيفه في مقاله، نظام العقوبات والسجن في المغرب الإسلامي، مساهمة في تاريخ العقل التأديبي، مجلة فكر ونقد، عدد23، نوفمبر 1999، ص43-82-ابن عابدين، حاشية ابن عابدين، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت-1421هـ-2000م، ج4، ص3-83-عروسي، فلسفة العقاب، ص11، 12-84-الموردي، مصدر سابق، ص322-85-محمد أبو زهرة، الجريمة والعقوبة في الفقه الإسلامي، دار الفكر العربي، القاهرة 1998، ص21-86-الوزان، مصدر سابق، ج1، ص249-87-المصدر نفسه، ج1، ص104، والهامش رقم، 8 من نفس الصفحة-88-المصدر نفسه، ج1، ص106-89-المصدر نفسه، ج1، ص102-90-المصدر نفسه، ج1، ص101-91-المصدر نفسه، ج1، ص139-92-المصدر نفسه، ج2، ص41-93-بوتشيش، مرجع سابق، ص337-94-مراد رايق رشيد عودة، القتل بدافع الشرف في الشريعة الإسلامية (دراسة فقهية)، قسم الدراسات الإسلامية-كلية العلوم الإدارية والإنسانية، جامعة الجوف-المملكة العربية السعودية، ص2-95-الوزان، مصدر سابق، ج1 ص165، 166-96-ابن جزي محمد بن محمد الغرناطي المالكي، القوانين الفقهية في تلخيص مذهب المالكية، تحقيق، محمد بن سيدي مولاي، 1430، ص531.
- 97-جاء عند البخاري قول عمر (رضي الله عنه)، "لَقَدْ حَسِبْتُ أَنْ يَطُولَ بِالنَّاسِ زَمَانٌ حَتَّى يَقُولَ قَائِلٌ، لَا نَجِدُ الرَّجْمَ فِي كِتَابِ اللَّهِ، فَيَضِلُّوا بِتَرْكِ فَرِيضَةِ أَنْزَلَهَا اللَّهُ، أَلَا وَإِنَّ الرَّجْمَ حَقٌّ عَلَى مَنْ رَزَى، وَقَدْ أَحْصَيْتُ إِذَا قَامَتْ الْبَيْتَةُ أَوْ كَانَ الْخَمْلُ أَوْاعْتَرَفَ". قال سفيان، "كذا حفظتُ، أَلَا وَقَدْ رَجَمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَرَجَمْنَا بَعْدَهُ" أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحدود، باب الاعتراف بالزنا، حديث رقم، (6829)، ص1688-98-الوزان، مصدر سابق، ج1، ص336-99-أحمد فتحي بهنسي، العقوبة في الفقه الإسلامي، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1985، ص174-100-أخرجه الامام مسلم في صحيحه، باب حد الزنى، الحديث رقم 1690/صحيح مسلم بشرح النووي، ط2، مؤسسة قرطبة، 1994م، ج11، ص270.
- 101-ابن جزي، مصدر سابق، ص529/الإمام مالك ابن أنس الأصبغي، المدونة الكبرى، رواية الإمام سحنون بن سعيد التتوخي عن الإمام عبد الرحمن بن القاسم العتقي عن الإمام مالك ابن أنس، ط1، مطبعة السعادة، مصر، ج15، 1323هـ، ص236-237-102- بوتشيش، مرجع سابق، ص355-103- بهنسي، مرجع سابق، ص224-104-مراد رايق، مرجع سابق، ص10-105-الوزان، مصدر سابق، ج1 ص101-106-المصدر نفسه، ج1 ص318-107-كولون ولسون، التاريخ الإجرامي للجنس البشري-سيكولوجية العنف البشري-، ترجمة السيد علي، الإسكندرية: منتدى الإسكندرية، دت، ص144.

غياب الأب المفرط عن محيطه الأسري وتأثيره على حياة الطفل
بالمغرب الأوسط بين القرنين 7-9هـ/13-15م.

The long absence of father from their family atmosphere and its effects on the child life in the Middle Maghreb between the 7-9AH/13-15.

اسم ولقب المؤلف المرسل للمقال: د. البشير بوقاعدة- Bougaada Bachir صص 52-72
الدرجة ومؤسسة الانتماء: أستاذ محاضر قسم أ- جامعة محمد لىن دباغين سطيف2. الجزائر.
البريد الإلكتروني: bachirbougaada@yahoo.fr

تاريخ استقبال المقال: 2019/09/14 تاريخ المراجعة: 2020/04/01 تاريخ القبول: 2020/04/13

الملخص: تتناول هذه الورقة البحثية بالدراسة والتحليل جانباً من المخلفات الاجتماعية والنفسية على حياة الطفل بالمغرب الأوسط بين القرنين 7-9هـ/13-15م، تلك الناجمة بشكل مركز عن غياب الأب عن فضائه الأسري لفترات زمنية واسعة تصل أحياناً إلى عدة سنوات منشغلاً بأمور الحرب والتجارة والرحلة في طلب العلم ودون اصطحاب الأهل، ولئن كانت المادة المصدرية المتمثلة في كتب التاريخ والحوليات لم تحتفظ لنا بما يكفي من مادة خيرية تميظ اللثام عن حيثيات تلك المخلفات وجوانب تلك المفزرات؛ فإن ذلك النزر اليسير من الإشارات التي وقفنا عليها بين أحشاء النصوص التراجيمية- المنقبية ومصنفات الرحلة، وما احتفظت به أيضاً النصوص النوازلية، شكّلت حجر الأساس لمعالجة اشكالية هذه الدراسة، لا سيما ما تعلق بطبيعة الانعكاسات التي أنتجها ذلك الغياب على المستوى الاجتماعي والنفسي لطفل المرحلة الزمنية الخاضعة للدراسة، كما تسلّط الضوء على مستويات ذلك التأثير السلبي ومظاهره في حياة الطفل، من مثل تحمّله المسؤولية في سن مبكرة من حياته، وانخراطه في سوق الشغل في مرحلة عمرية لا تتناغم وطبيعة الجهد الذي يقتضيه ذلك النشاط ويتطلبه، والفراغ الاجتماعي والنفسي المحتمل أن يعيشه الطفل في ظل غياب والده عن فضائه الأسري مدة واسعة، وحياة الفقر والعوز المالي الذي يمكن أن يعانیه الطفل إذا غاب من يقوم على أمور الأسرة

الاجتماعية والمالية ولم يترك معيلا ولا من يخلفه على إدارة مؤسسته الاجتماعية نيابة عنه.

الكلمات المفتاحية: الطفل، النفسية، المغرب الأوسط، التأثيرات، الرحلة، الاجتماعية، غياب طويل، علمية، تجارية.

ABSTRACT: *This research paper aims at studying and analyzing the consequences and the socio psychological effects on the life of the child of the Middle Westerner between the 7-9AH/13-15CE, as a result of the long absence of fathers from the family atmosphere occupied with the trip and its scientific, religious and commercial purposes. Although the source material represented by history books and annuals did not preserve enough information that reveals those effects and consequences, the very little indications that we came across it within the biographical texts, the texts of voyagers and Nawazili texts formed the basis of this study and fed its researches, in particular those relating to the nature of the implications created by that absence at the social level, and the psychological effects that characterized the sentimental life of the child of the period under consideration. It also deals, in the second part, with the effects of the long absence of fathers from their family atmosphere, occupied with the trip and its purposes be it scientific, religious or military, on the behavioral, the educational and the social upbringing of the child. Among this, the child being responsible and accountable at a young age and entering the labor market at a period of age that does not suit the nature of the efforts required by the child's work. In addition to the big social vacuum lived by the child with the absence of his father from the family for a long time. Not to mention, the lack of money and the child life of poverty in the absence of who is in charge of the household financial and social affairs.*

Keywords: *child; psychological; the Middle West; effects; trip; social; absence; long; scientific; commercial.*

1- المقدمة: من الإشكاليات التاريخية التي تشدّ انتباه الباحث في تاريخ المغرب الأوسط بين القرنين 7-9هـ/13-15م، إشكالية غياب الأب عن محيطه الأسري وفضائه الاجتماعي لفترة زمنية طويلة، قد يصل الأمر أحيانا أن تستغرق عدة سنوات، ومن الطبيعي أنّ هذا الغياب حتى وإن كان له ما يُبرّره أو كان اضطراريا؛ كالانشغال في حرب حصار طالّت مدتها، أو السفر للتجارة بما يستغرق مدة زمنية معتبرة، أو كان الانشغال لسبب الرحلة في طلب العلم من بلد إلى بلد ومن حاضرة لأخرى دون اصطحاب الأهل واستنزف مدة زمنية معتبرة؛ فإنّ لذلك الغياب انعكاس سلبي على حياة الأبناء النفسية والاجتماعية،

خصوصا إذا لم يترك الأب معيلا ينوب عنه في إدارة شؤون الأسرة الاجتماعية، ويلي حاجياتها المتلونة ومنها المالية.

ومن المعلوم أنّ الطفل في مرحلة الطفولة، وبخاصة في مرحلتي الطفولة الوسطى (من السنة السادسة إلى التاسعة) والطفولة المتأخرة (من تسع سنوات إلى الثانية عشر) يعتمد بشكل أساس على أبويه؛ ذلك أنّه لا يزال في مرحلة النمو، وأنها مرحلة تتطلب حضور الأب في حياة الابن أكثر من غيرها من مسارات حياته.

تأسيسا على هذا الطرح، تتبدّى مقاصد الباحث على كاهل هذه الورقة البحثية، بكونه سلك منحنى إبراز أهم الانعكاسات الاجتماعية والنفسية التي يُخلّفها الغياب المفرد للأب في حياة الطفل أو الابن بالمغرب الأوسط، من خلال تحديد طبيعة الواقع الذي تعيشه شريحة الطفولة على مستوى التكوين والتنشئة الاجتماعية والرعاية النفسية، كما حاول الباحث من جهة أخرى الكشف عن جانب من صور الرعاية الاجتماعية والنفسية التي تضطلع بها عناصر العائلة المغربية في ظل غياب الزوج أو الأب، في جهد يُفصح عن لعب دور البديل المؤقت للاضطلاع بتلك الوظيفة للتخفيف من الآثار السلبية التي يمكن أن يرمي بها الغياب الطويل للوئى عن أسرته أو وظيفته الاجتماعية.

وعليه، فإنّ من الأسئلة التي تطرح نفسها في هذا الصدد: ما طبيعة الدوافع والحاجات الاجتماعية والنفسية التي تتطلب رعاية مستديمة من طرف الأب في مسار طفولة ابنه؟ وفيما تتجلى أبرز التبعات السيئة لغياب الأب المطول عن حياة ابنه في مرحلة الطفولة في مسار النمو النفسي والتنشئة الاجتماعية؟ وإلى أي حدّ يشكّل غياب الأب المطول خطرا على النمو السليم لشخصية ابنه في كل مناحيها؟

مع أنّه من الجدير الإشارة في طليعة هذه الدراسة، إلى أنّ تركيزنا على المخلفات السلبية للغياب المفرد للأب عن فضائه الأسري لا يُلغي جانبا من الإيجابيات التي ينطوي عليها ذلك الغياب أو ينفي ذلك؛ إذ لا يخفى علينا أنّ الظرفية التاريخية التي عايشها الأب خلال فترة الدراسة كانت تحتمّ عليه في الغالب ذلك الغياب، وأنّ غياب الأب لفترة طويلة كان محدودا وليس سمة شائعة، وأنّ الجهد التكافلي لعناصر المجتمع فيما بينهم كان بارزا بما من شأنه أن يُغطي مشكل حاجة العجز في النفقة.

كما أنّ مخلفات هذا الغياب السلبي ينطبق على عناصر محدودة من شريحة الطفولة، ولم يكن مسألة مطروحة بإلحاح ضمن نصوص المصادر التي وقفنا عليها.

2- أثقال الغياب الأبوي على حياة الطفل الاجتماعية: من الأمور المتفق عليها في عالم الطفل الاجتماعي والنفسي أنّ من متطلبات النمو السليم للطفل أن يكتسب التعلّق الاجتماعي بالوالدين والإخوة وهو في مرحلة المهد، وأنّ أقوى رابطة هي تلك التي تشدّه إلى الوالدين، وبالأخصّ الأمّ في مسعى منه لإشباع رغباته الأساسية من حاجته إلى الراحة والبعد عن الألم، وحاجته إلى التعلّق ودفء العاطفة والاستقرار، والثبات في البيئة التي يفترضها أو المحيطة به¹، وتؤكد الدراسات السوسيو-نفسية أنّ ضيق شبكة العلاقات للوالدين يرتبط بالاختلال الوظيفي للوالدية، ولذلك الاختلال تأثير سلبي على علاقتهما بالطفل وتنشئته، في حين إذا كان حبل التواصل بينهما والتعاون متينا كان ذلك مفيدا في تنشئته وصناعة شخصيته¹.

ونعتقد أنّ غياب الأب بشكل متكرر ولمدة طويلة عن فضائه الأسري ينطوي على جوانب من الأثر السلبي في مسار العلاقة الزوجية والوظيفة الوالدية، لا سيّما وأنّه كما قيل: إنّ الأولاد يقلّدون الوالدين أكثر ممّا يسمعون من تنبيهاتهم؛ وبالتالي يشكّل الغياب المطول للأب عن حياة الطفل فراغا ملحوظا في وظيفته الأبوية، وفي هذا الشأن، تفيدنا الدراسة الموسومة بتنشئة الطفل بأنّ: "ضرورة وجود الأب إلى جانب الأم تكمن في ذلك الدعم المادي والمعنوي الذي يقدمه لها في مساعدتها على دعم سلطتها تجاه الطفل"².

في ذات الصدد، تُثار في مجال الحياة الاجتماعية والنفسية للطفل إشكالية تتعلّق بما يصطلح عليه بالتناقض بين مطالب الطفل ومطالب البيئة في هذه المرحلة، أو مدى الكفاءة التي يواجه بها الآباء حاجات أبنائهم، وكذا مدى الكفاءة التي يواجه بها الطفل ظروف البيئة المحيطة به³، ومن ذلك الحضور في حياته الاجتماعية، وتوفير جو الاستقرار الاجتماعي الذي ينبغي أن يعيش تحت سقفه أيّ طفل؛ فإذا كانت الزوجة بحكم المرحلة العمرية ومستوى الوعي بحجم الأعباء الاجتماعية الملقاة على كاهل بعلمها تصبر- إلى حدّ ما- على بُعد الزوج وغيابه عن وسطه العائلي إن انشغل عن أسرته؛ فإنّ الطفل لا تسمح له مرحلته العمرية وإمكاناته العقلية والنفسية ومقوماته الإدراكية بأن يتأقلم بشكل مناسب مع ذلك الفراغ الأبوي إن كانت مدته طويلة؛ فالطفل لا ريب جدّ حساس

من فرط غياب الأب⁴، ولا يقوى على مقاومة الضغوط التي تقع عليه في هذه المرحلة، لا سيّما إن تعلّق الأمر بالفراغ الاجتماعي الذي ينتاب حياته ويُخيم عليها، والذي يمكن أن يعصف بتوازن نموه النفسي والاجتماعي بحكم أنه لا يزال في مرحلة التكوين.

أما إذا حرصت الأسرة على توفير الجو الاجتماعي المناسب والأنسب، والأرضية العاطفية الكافية باحتضان حياته، وكفالة واقعه النفسي كفالة طبيعية ناجعة؛ فقد حققت الأسرة استجابة بطريقة سديدة ومناسبة، وفي الوقت المناسب، وعلى الشاكلة المرجوة لحاجة طفلها، وأشبعت رغباته الاجتماعية والنفسية على الصورة الطبيعية المنشودة، ومن ثمّ يحسّ الطفل بالثقة والأمن والراحة⁵، ويحسن أداء واجبات النمو في مرحلة الطفولة التي يحيها، وينجح في تحقيق مستويات النمو المتوقعة منه⁶، وهو الواقع الذي تفسّره الدراسات النفسية الحديثة، ولعلّه قد يصدق على واقع زمنئذ بأنه: "حالة انفعالية تساعد (الطفل) على الشعور بالتوحد مع البيئة المحيطة به"⁷.

وإذا أردنا أن نقف على صدى ذلك في واقع الطفل في المرحلة الخاضعة للدراسة، نعتقد أنّ ما ألمحت إليه بعض نصوص نوازل الونشريسي حول الواقع الاستثنائي الذي عايشه الطفل زمنئذ من شأنه أن يُقرب لنا صورة عن ذلك؛ وذلك على ضوء النازلة التي فحواها: "إذا انتقل الأب إلى بلد بعيد عن الحاضنة؛ فله أن يأخذ ولده المحضون معه"⁸، ونحو ذلك من المسائل النازلة في هذا الشأن الكاشفة لطبيعة الظرفية الاجتماعية الاستثنائية التي يعايشها بعض الأطفال في تلك الحقبة، ومن ذلك أيضا النازلة التي أوردتها تحت عنوان: "من قدم من سفر ووجد مولودا فنفاه عنه؛ ولم يهتم زوجته بالزنى"⁹.

ونازلة الونشريسي المتعلقة بنقل الأب ولده المحضون معه إن انتقل إلى بلد بعيد، وإن كانت لا تتناغم بشكل دقيق مع الاشكالية الرئيسة التي تعالجها هذه الدراسة، إلا أنها تفيدنا في منحى أهمية مكانة الأب في حياة ابنه، وحجم الضرر الاجتماعي والنفسي الذي يُخلّفه بعده عن حياته إلى جانب أهمية حضور الأم أيضا.

ولا ينتابنا الشك في أنّ البيئة الاجتماعية والمحيط النفسي الذي يختلج الكائن البشري، يتباين من حقبة زمنية لأخرى تبعا لطبيعة الظرفية الاجتماعية السائدة والمنظومة الدينية الناظمة لمسار الحياة والمُحدّدة لنظامها، والمناخ العُرفي والتقليد

السائد، وكذا المستندات الثقافية الناطقة برؤية المجتمع للنمط الحياتي الذي ينسجم مع ثقافته ومعتقده، ويعكس رغبةً تتناغم معهما؛ فما كان الطفل بالمغرب الأوسط يفترشه من بيئة اجتماعية وثقافية وعُرفية خلال فترة الدراسة يتباين ولو بنسبة محدودة مع ما يعيشه الطفل الجزائري في راهنا، كما أنّ طبيعة علاقة التأثير والتأثر بين الطفل ووالديه ونسجها ومخرجاتها وقولها، ومحتوى التبادلية الذي تصطبغ بها لا تنطق بصورة متناغمة ومنسجمة كل الانسجام بين واقع الطفل في الحقة المخصصة للدراسة وواقعه في عصرنا هذا، وبالتالي لا يكون الإسقاط صادقا في كل مخرجاته وأحواله إذا انتهجناه في معالجة بعض المحطات البحثية من جسم دراستنا هذه، ولجأنا إليه في حال اضطررنا لذلك أمام شحّ المادة المصدرية أو انعدامها في أحيان أخرى في مساعينا للوقوف على واقع معاناة الطفل بالمغرب الأوسط الاجتماعية والنفسية الناجم عن غياب الأب عن محيطه الاجتماعي لفترات طويلة.

ذلك أنّ هذا الواقع كثيرا ما يدفعنا للاستنجاد بالدراسات الاجتماعية والنفسية الحديثة الكاشفة لطبيعة الواقع النفسي والاحتياجات الاجتماعية التي تبني حياة الطفل بناءً سليما، وتعيّنه على ملامسة الاستقرار النفسي والراحة والأمن الاجتماعي، وتميط اللثام عن حاجاته ومتطلباته وسقف رغباته، وهو الجانب البحثي الذي لا نجد صداه في جسم النص المصدري الذي احتفظ بحوادث التاريخ الاجتماعي في الفترة مدار الدرس، بل عكفت الدراسات والبحوث الأكاديمية على معالجة إشكالياته حديثا فقط، تماشيا والتطور الذي تشهده البشرية في العصر الحالي.

وعليه، فإذا كانت المادة المصدرية لم تفصح بما فيه الكفاية عن طبيعة الأسباب الكامنة وراء خروج الأزواج أو الآباء وغيابهم المطول عن أسرهم في الفترة المخصصة للدراسة؛ فإنّ الصعوبة تزداد تفاقما حين يُرام معرفة آثار ذلك الغياب على حياة الطفل الاجتماعية، ومخلفاته على مسار حياته الطبيعي وأمنه النفسي والعاطفي، ولئن كان صاحب الدراسة الموسومة بالحرب والمجتمع بالمغرب خلال العصر الميريني¹⁰، يعتقد أنّ دافع الخروج للغزو والحرب الذي أوردته المادة النوازلية¹¹ إلى صف دوافع السفر للتجارة والاتجاه إلى المشرق لأداء فريضة الحج، يعدّ من أبرز أسباب غياب الأزواج عن أهلهم وذويهم وأبنائهم مُددا طوال ومسافات زمنية واسعة، ويتصدّر قائمة

ذلك الغياب؛ فإننا نعتقد كذلك أنّ الخروج للرحلة العلمية وللتجارة من طرف الأزواج يحتل موقعا أساسيا هو الآخر ضمن قائمة تلك الدوافع، كما نعتقد أنّ الطفل لم ينج هو الآخر من المخلفات السيئة لهذا الغياب الطويل، تلك التي يمكن أن تطال الحياة الاجتماعية للعائلة؛ ذلك أنّ الوقع الأكبر يمكن أن يثقل كاهل الزوجة التي تتحمّل أعباء المسؤولية الاجتماعية في فترة غيابه، ومع ذلك يتقاسم الأولاد معها نصيبها في المعاناة زمن ذلك الغياب إذا طال.

وحتى نتجنّب الوقوع في فخ المبالغة، كان لزاما الإشارة إلى أنّ العائلة المغرب أوسطية في الحقبة مجال المدارس كانت في الغالب تصبر على فترة الغياب الأبوي، وتتصرف بشكل عادي في فترة ذلك الغياب متأقلمة مع العُرف الساري، والنمط الحياتي-الاجتماعي الذي تصطبغ به حياة تنقل الزوج وغيابه المتكرر إذا دعت الحاجة إلى ذلك، وكانت الزوجة تحرص في غيابه على أن تكفل أبناءها على أحسن وجه، وتُقوّي من جهودها ليستوعبوا أسباب غياب الأب.

ومن ثمّ، كانت الزوجة تسعى بكل ما أوتيت من إمكانيات مادية، وما حازته من مقومات معرفية لخلق جو اجتماعي مناسب لتنشئة الأطفال تنشئة اجتماعية سليمة، وتوفير المناخ الملائم لذلك، تستثمر المقومات المادية المتاحة، وتصبر إن أصابها الخصاص، وتتدبّر الأمور حتى يرجع المعيل، ولعلّ من أبرز ما يصدق على ما أوردنا أنّ عائلة الحباك (ت613هـ/1217م) صبرت صبورا جميلا حين رحيله عنها، وتركه الفضاء البجائي مدة أربعة أعوام بعد دخوله تيار التصوف¹²، كما سهرت والدة إبراهيم الغول المسيلي (ق8هـ/14م) على حسن رعايته، إذ يذكر الحفناوي أنّه: "تواتر أنّ إبراهيم الغول تركه أبوه في بطن أمه، وأوصاها بتسميته باسمه إن لم يرجع إليها قبل سنة، وسافر يريد حجّ بيت الله الحرام"؛ فعملت بوصيته¹³، ولما توفيت أمه "تركته في كفالة أخيها، وربّته أم سيدي عيسى بن محمد"¹⁴.

ولئن كانت هناك حالات اجتماعية تنطق بواقع من المعاناة عايشته شريحة الطفولة في ظل غياب الأب عن محيطه الأسري، ولو أنّها معدودة أو محدودة؛ فإنّ من أبرز ما وقفنا عليه من مشاهد كاشفة لذلك، ما يوضحه العرض الموالي:

1.2 تحمل المسؤولية الأبوية في سن مبكرة: من المشاكل الاجتماعية التي طرحت نفسها في حقل قضايا المجتمع بالمغرب الأوسط ما تعلق بما يطال حياة الطفل من أعباء اجتماعية لا تتناغم وسنه أو مرحلته العمرية، ونقص ذلك اضطراره بوظيفة الأب في حال غيابه عن وسطه العائلي وانشغاله عن أسرته، حيث يقتحم ميدان الوظيفة الاجتماعية في سن مبكرة من حياته، ويتحمل أعباء مسؤولية فوق طاقته العمرية، بشكل اضطراري تفرضه عليه الظرفية الاجتماعية التي أنتجها غياب الولي والقائم على شؤون الأسرة.

ولئن كان هذا التحمل الاضطراري من طرف الطفل للمسؤولية الاجتماعية من شأنه أن يخفف من حجم الأعباء الاجتماعية التي تتحملها الأم، ويكون مُعينا لأمه على إدارة الأسرة، ومدد يد العون لتلبية حاجاتها ومتطلباته وحاجات إخوته، وينبئ في ذات الوقت عن شعور الطفل بحجم المسؤولية الاجتماعية الملقاة على كاهل أمه، ومستوى الفراغ الذي خلفه غياب والده عن محيطه العائلي؛ فإن ذلك الشعور والإحساس بروح المسؤولية، والمبادرة للاضطلاع بمهامها وتضحيتها بصحته، لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يلغي حجم المساوئ والانعكاسات السلبية التي تنجم عن تحمل الطفل لأعباء المسؤولية في مرحلة عُمرية لا تستجيب لحجم تلك المسؤولية، ولا تتجاوب وأعباءها عقلا وجسما.

وعليه، لا نجد حرجا في اعتماد النوازل التي طرقت قضايا الأسرة ومشكلاتها الناجمة عن الغياب المفرط للزوج عن حليلته أو زوجته في كشف جانب من واقع المعاناة التي يتكبدها الطفل؛ ذلك أن الطفل جزء من الأسرة، ومعاناة الأم يعني معاناة وليدها هو الآخر، وتضرره مما تتضرر منه في المنحى الاجتماعي، ونحسب أن المسائل التي أثارها المصنفات النوازلية المتعلقة بتشخيص الواقع التازمي الذي تئن تحت سقفه بعض الزوجات نتيجة الغياب الفاحش لأزواجهن عن بيت الزوجية للحرب أو الحج والتجارة والرحلة العلمية، والكاشفة لواقع التدمير الذي عّبرت عنه بعضهن وطبيعة الحلول الاستعجالية والظرفية التي استنجدت بها بعضهن من قبيل: اشتراط الزوجة على زوجها في عقد القران أن ألا يغيب عنها غيبة قريبة ولا بعيدة طائعا أو مكرها قبل البناء أو بعده أزيد من ستة أشهر، أو شرطت على الزوج أن لا يخرجها من بلدها¹⁵، وعرض مسائلهن

على القضاء ليفصل فيها كطلب الطلاق من زوجات غاب عنهن أزواجهن غيبة طويلة بسبب الحرب أو نحوها من أسباب الغيبة، ورفضهن النفقة من أهل أزواجهن على أولادهن عوضاً عن أزواجهن، ورغبتهم من جهة أخرى في الزواج كمخرج من الواقع المتأزم الذي يزرحن تحت وطأته¹⁶، أو اللواتي أقدمن على الزواج حين طال غياب أزواجهن مستنجدات بسلطة القضاء¹⁷: تعدّ ظرفية اجتماعية صعبة توجي بواقع من حياة المعاناة الاجتماعية التي يتخبّط بين نسيجها أطفال تلك الأسر.

هذا وتجدر الإشارة إلى أنّ شعور الابن بروح المسؤولية الأسرية في سن مبكرة من حياته العمرية لا يندرج في خانة السلبية فحسب، وإنّما ينطوي على قسط ولو محدود من نسبة الايجابية؛ ذلك أنّ الطفل يكتسب شخصية قوية تمكّنه من الاستعداد لخوض غمار الحياة بكل أثقالها، وفهم مبكر لمنظومة أعبائها ومسؤولياتها.

2.2 تشغيل الأطفال: لا يعترينا الشكّ في أنّ تعليم الأطفال كان الهدف الأسوى الذي تصبو إليه أي أسرة بالمغرب الأوسط لتمكينهم من بناء شخصية علمية قوية، واجتماعية فاعلة قادرة على تحمّل المسؤوليات، وترك بصماتها الإيجابية في الحقل الحياتي، وملامسة الأمان المستقبلي، بيد أنّ ذلك لا يعني أنّ الطفل لم يقتحم سوق الشغل تحت طائل ظروف اجتماعية واقتصادية قاهرة تبرّر الصنيع، وتكشف مستويات الحاجة التي اضطرت الأسرة لذلك؛ فعلى اعتبار أنّ انشغال الأب عن أسرته وأولاده وحليلته، وهجران محيطهم لمدة زمنية معتبرة تنقطع أخباره عنهم دون أن يترك من يُعينهم على تلبية حاجاتهم، وسدّ متطلباتهم من قبيل:

ابن قادر على رعاية الأسرة في غيابه إلى حين رجوعه أو مصدر دخل من تجارة أو مال مدخر ونحو ذلك ممّا تستعين به زوجته وبنيه في الإنفاق وقضاء الحوائج في فترة غيابه، كان يُفضي إلى انتاج ظرفية مادية حرجة تتخبّط في شباكها أسرته لاسيّما أولاده؛ ذلك أنّ الزوجة في البعض من الحالات التي طالت غيبة زوجها عنها وجدناها- كما هو قار بين أحشاء نصوص المادة النوازلية- تلجأ إلى القاضي ليفسخ عقدها مع زوجها الغائب وتزوج بغيره، أمّا الأولاد فإن صادف واقعهم الاجتماعي في ظل غياب الأب عن محيطه العائلي ظرفية متأزمة شأن التي ذكرنا من وضعية الفقر والعوز والعاللة؛ فإنّ حجم وطأة المعاناة تكون على كاهلهم أشدّ وأنكى.

وعليه، فإنّ أطفال بعض العائلات التي غاب عنها مُعيلها غيبة معتبرة، كانوا يلجأون إلى اقتحام عالم الشغل، وهم في مرحلة عُمرية لا تسمح لهم بذلك، ولا تؤهلهم للاضطلاع بتلك الوظيفة عقلا وجسما، ولا وراء أنّ ولوج الطفل عالم الشغل في مرحلته العُمرية تلك، له في الغالب الأعم من سوء التبعات على حياته الاجتماعية ماله؛ فهو يؤثر سلبا في مسارات تكوينه النفسي-الاجتماعي والجسمي-العضلي؛ ذلك أنّه لا يطبق القيام بالجهد العضلي الشاق، ولا يصمد أمام مستويات الإرهاق العالية، فضلا عن أنّه يصرف نظره إلى أمور لم يحن أوانها على حساب الأهمّ، أو ما ينبغي أن يصرفه إليه في ذلك السنّ من مراحل التكوين في حياته كالتعلّم وحفظ القرآن¹⁸.

وكان من أبرز المجالات التي دخلها الطفل للعمل: أسواق الأقمشة، والعمل في الخياطة والحياكة، وأسواق النخاسة والجزارة، ورعاية المشية، والتنظيف، وتعبئة الخضر والفواكه ومختلف المنتوجات الزراعية في مواسم الحصاد، وغيرها من الأنشطة التي تناسب في الغالب وطبيعة جسمه ومستوى عمره¹⁹.

ولئن كانت المادة المصدرية التي شكّلت أكبر ملاذ يستنجد به الباحث وهو يتجشّم عناء البحث في مواضيع تتعلّق بتفاصيل الحياة الاجتماعية للأسرة المغرب أوسطية خلال فترة الدراسة هي كتب النوازل والمدونات الفقهية؛ التي طرقت جانبا من ذلك الواقع الاجتماعي في مواطن من بحر نصوصها في ألوان من الغاية تخدم البحث الفقهي النوازلي وليس التاريخي، أو نقول أشارت إليها في سياق معالجة المسائل الفقهية التي طُرِجت للنظر الشرعي بشأنها، والفصل وفق أحكامه فيها، وليس بغرض التأريخ وتشريح الواقع الاجتماعي الذي عاشته الساكنة في الفترة مدار الدرس؛ فإنّ نصوص النوازل حتى وإن احتفظت بمادة تعين على معالجة بعض القضايا الاجتماعية إلا أنّ حصة الأسد من ذلك اختصت بالإشارة- عن غير قصد تأريخي- إلى جوانب من قضايا المرأة؛ كطلبها الطلاق في غيبة زوجها مُددا طوال، أو جهلها زمن رجوعه²⁰.

وقد أحسن حميد تيتاو القول حين علّق على ما تضمّنته النوازل في هذا الصدد، بأنّ الأمر يتعلّق بحالات فردية ومتفرقة لנסاء غاب عنهن أزواجهن، وأصبحن يطلبن البثّ في حالاتهنّ لما نالهن من العوز والفاقة²¹، أو تعبيرها عن قلقها من الواقع الاجتماعي العصيب الذي باتت تعيشه في ظل غياب الزوج، كما عبّرت عنه المسائل التي اختصت

بعرض حالها في متون كتب النوازل ومدونات الفقه، شأن ما تفصح عنه العبارات الدالة على ذلك على نسق: "في ضيق من الحال"، "في ضيق من المال"، "ليس في البلاد من يقوم بها"، "خافت على نفسها وحالها الفقر" و"هي محتاجة"²²، أمّا ما تعلق بواقع شريحة الطفولة الاجتماعي زمن غياب الوالد، وانشغاله بأمور العلم، وسفره في طلبه لمسافات زمنية طويلة؛ فإنّ الإشارات التي تضمّنتها المادة النوازلية شحيحة بشكل كبير، ونحن لا نغيب على أصحابها ذلك طبعاً؛ ذلك أنّه ليس ميدان اختصاصها بقدر ما نروم التنويه بالفقر المدقع الذي يصطدم به الباحث في تاريخ الحياة الاجتماعية لشريحة الطفولة في المغرب الوسيط.

لذلك نعتقد أنّه لا حرج إن استنجدنا بسبيل إسقاط واقع عام على كافة العناصر المجتمعية التي عاشت تحت سقفه، من قبيل: أنّ نحتمل على سبيل المثال: أنّ ما عايشته الأمّ- الزوجة من مظاهر الخصاصة والعوز والعالّة في فترة غياب زوجها لا يختلف كثيراً عمّا عايشه أطفالها وهم بمعيتها تحت سقف عائلي واحد، أو أنّ نحتمل أنّ ما أفصحت عنه تلك النصوص من واقع المعاناة، وحجم الحاجة التي تخبّطت في شباكها المرأة- الزوجة وأولادها حين انقطع عنها زوجها، وانشغل بأمور الحروب والحصارات لمدة زمنية طويلة، ولم يترك من خلفه معينا، ولا من يقوم على شؤون بيته وعائلته، أنّه يمكن أن ينطبق على الأمّ- الزوجة وأطفالها الذين غاب عنهم ربّ الأسرة غيبة طويلة إذا لم يترك من هو مؤهل ليعيل عائلته، ولم تكن زوجاتهم من أصحاب الثروة والجاه والتجارة²³.

ونحسب أنّ ما أشار إليه الونشريسي في معياره يُقوي ما نهدف إليه؛ وذلك على سبيل المثال في النازلة التي مؤدّاها: أنّ أبا عبد الله المازري سئل عمّن "غاب بالأندلس وترك زوجة وطفلة منها وطفلا من غيرها مطلقة؛ فلما كان الآن أنفذ سبعة دنانير في المركب الأول، واثني عشر في المركب الثاني، ولم يترك لأولاده وزوجته نفقة؛ فقامت أم الطفل تريد مخاصمة الزوجة والابنة برزق ابنها"²⁴.

في ذات السياق، تحتفظ لنا كتب التراجم والمصنفات المنقبية بمادة تراجمية تكشف بصيصا من واقع حياة النخبة المترجم لها في مرحلة الطفولة؛ فابن مريم التلمساني على سبيل المثال وهو يُترجم للشيخ أحمد بن محمد ابن زكري التلمساني

(ت899هـ)، ويستعرض جانبا من طفولته، أشار إلى أنّ هذا الأصولي البياني المنطقي مات أبوه وتركه صبيا في حضانة أمّه، ونظراً للوضع الاجتماعي-المالية الصعبة التي تعيشها أسرته، أرسلته أمّه ليتعلّم الصنعة؛ حيث أدخلته في طراز يتعلّم الحياكة عند معلم في تلمسان، وبقي عند ذلك المعلم حتى تعلم النسيج.²⁵

وأفادنا ابن مريم التلمساني بأمر مهم في هذا الشأن يتعلّق بأنّ الشيخ الولي الصوفي أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن زاغو المغراوي التلمساني (782-845هـ) زار المكان الذي يتعلّم فيه ابن زكري فتكلم مع الأخير، ودار بينهما حديث حتى انتهى الأمر إلى أنّ بن زكري ذهب إلى المجلس الذي يدرس فيه بن زاغو تلامذته، وسمع منه مسألة فقهية لم يفهمها طلبته لكن ابن زكري فهمها، وعند ذلك سأله بن زاغو عن حالته الاجتماعية؛ فأخبره أنّه يتيم الأب وأمّه هي من ترعاه، وعن قيمة أجرته في تلك الصنعة فأجابته أنّه نصف دينار في الشهر؛ فقال ابن زاغو أنا أعطيك نصف دينار في الشهر وتتوقف عن العمل، وتنشغل بالعلم والقراءة؛ فوافقه إلى ذلك²⁶، كما أورد صاحب البستان في مصنّفه: أنّ الشيخ أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي الشهير بزروق (846-899هـ) عاش يتيما في كفالة جدّته، التي أدخلته الصنعة في عمر العاشرة بعدما حفظ القرآن؛ فتعلّم صناعة الخرز²⁷؛ فهذه الحادثة حتى وإن لا تتناغم بشكل تام مع مسعانا البحثي هذا، لكون الوالد مات وليس غاب للعلم، فإنّها ترسم جانبا من واقع معاناة الطفل، وانخراطه في عالم الشغل في سنّ لا تسمح له على حساب الاهتمام بطلب العلم والقراءة.

كما أنّه من الجدير الإشارة، إلى أنّ هناك من أهل العلم والرحلة لتحصيله والتبحّر في فنونه، من كان يصطحب ابنه معه في رحلته العلمية يلازمه خلال مساراتها، ولئن كان في هذا الصنيع من أثقال الجهد الكبير الذي يتكبّده الطفل في رحلته مع أبيه، ومعاناته من وعثاء السفر؛ فإنّ فيه من الفوائد العلمية الجمة التي يجنيها في هذه الرحلة، وكذا انعكاساتها الإيجابية على مسار تكوينه الجسدي والنفسي، وممّا وقفنا عليه في هذا الصدد، ما حدث مع والد ابن مرزوق (ت781هـ/1379م) الذي ارتحل معه ابنه إلى بلاد المشرق، وابنه طفلا صغيرا لم يتجاوز ثماني سنوات؛ وذلك في مسعى اكتساب المعارف الجديدة، والوقوف على ثقافات متلونة في البلاد التي زاروها²⁸.

3.2 الفراغ الاجتماعي-الأسري: إذا كانت الأزمات الناجمة عن ظروف الحرب وترسباتها لم تستثن بمخلفاتها السيئة أي شريحة اجتماعية أو عُمريّة؛ ذلك أنّ شريحة الطفولة حتى وإن لم تكن مستهدفة ضمن قائمة الأهداف الحربية المباشرة؛ فإنّ انشغال الأبوين بأمور الحرب، وتضرّرهم تحت وطأتها كان وقع الضرر يمتد ليطلّ حياة الطفل الاجتماعية ويعصف بها؛ فإنّ مشكل الانشغال عن الأهل لم يقتصر على ظرفية الحرب وأزماتها، وإنّما كانت أسباب انشغال الأب عن أهله وعائلته في مغرب الحقبة المدروسة متعددة، ومنها الترحال في طلب العلم سيما إذا طالّت مدة غيابه، ويحتمل أنّ البعض من أطفال عائلات أولئك الرحالة قد عانوا من الفقر والخصاصة على غرار الأمهات أو الزوجات، وإنّنا قد نبشّنا في هذه الإشكالية عدّة مرات في بحر دراستنا هذه؛ فإنّ غايتنا على كاهل هذا المبحث تنحصر في كشف جانب من معاناة الطفل المتمثلة في شعوره بالفراغ الأسري- الاجتماعي، حين ينشأ الطفل ووالده غائب عن ناظره، وأمه هي من تتحمّل- في الغالب- مسؤولية إدارة شؤون البيت، ووظيفة تحصيل المال ومسألة الإنفاق والمصاريف. وإذا كان الغياب المطول للأب عن حليلته وأسرته قد ساهم في البعض من الحالات في نمو نبات النزاع الزوجي، وإيجاد تربة خصبة لنمو المشاكل الأسرية كمشكل التطلاق الذي كانت بعض الزوجات ترفعه إلى سلطة القضاء بحكم الإعسار في النفقة وضرر المغيب²⁹؛ فإنّ لهذه المشاكل ضلع واسع في تنامي حدّة التأثيرات السيئة على الحياة العائلية للطفل؛ فقد يفقد أمنه العاطفي- الاجتماعي إذا كان أبوه غائبا ثمّ تزوجت أمه برجل آخر، ويلحقه التفريط الأبوي (من الطرفين) في جانب الرعاية الاجتماعية، وتزداد فجوة الشعور بالفراغ الاجتماعي اتساعا وتأثيراتها السلبية على نفسيته تفاقما؛ وحتى وإن لم تفصح المادة المصدرية بشكل صريح عن وجود متاعب على حياة الطفل خلفها الغياب الأبوي المفرط في الرحلة العلمية؛ فلا يعني ذلك التوفيق المطلق والتام من طالب العلم، وهو ربّ أسرة في آن بين الوظيفة الاجتماعية ومساعدته في طلب العلم والرحلة إليه في البلاد شرقا وغربا، وإنّما قد يشوب مسعاه النقص وتغليب أمر على آخر، ولسنا نذكر هذا عن أهل العلم من باب النقيصة، وإنّما من باب بيان صعوبة التوفيق بين الأمرين، وكشف طبيعة الحدث وحقيقته.

في حالة اجتماعية تصبّ في نفس وعاء المبتغى، يضعنا ابن الزيات أمام واقع اجتماعي عصيب خلفه تخليّ الزوج عن مسؤولياته تجاه زوجته وأولاده وانقطاعه لأمر العلم، وهو ما يصدق على حالة أبي عمر بن العباس الصنهاجي المعروف بالحباك (ت613هـ/1216م) الذي قال لزوجته: "إن لم توافقيني في هذا فعديني ميتا؛ فخرجت عنها وتركت جميع مالي، وغبت عن تلمسان أربعة أعوام"³⁰.

كما أنّه من الملاحظات التي يحسن بنا أن لا نغفل عن ذكرها، ما تعلق بكون عامل التصوف والزهد، والانقطاع عن الحياة الاجتماعية لصالح الحياة التبعديّة، ساهم هو الآخر في خلق فراغ اجتماعي عانت منه بعض الأسر المغربية في الحقبة الوسيطة، ونقصد بذلك أولئك الذين تزوّجوا، وانقطعوا عن زوجاتهم وأولادهم، بل إنّ هناك من طلق زوجته، وتخلّى عن أولاده، وانشغل بأمور العبادة والتصوف، ولئن كانت المادة المصدرية لم تحتفظ لنا- في حدود ما نعلم وما وقفنا عليه طبعاً- بنصوص كاشفة لانعكاسات ذلك الانقطاع على مسار حياة أبنائهم الاجتماعية وتنشئتهم، ومخلفاته على حياتهم النفسية؛ فإنّ ذلك الصمت لا يعدّ بأي حال من الأحوال مؤشراً على انعدام حالات تنطق بمستويات ولو جدّ محدودة لحجم معاناة وتأثيرات سلبية خلفها انقطاع الولي عن أسرته، وتفريطه- ولو دون نقصد- في أحد أهمّ واجباته الاجتماعية³¹.

ففي مشهد اجتماعي قريب الصلة من طرحنا هذا، أطلعنا ابن مريم التلمساني على نص في مسعاه التراجمي لأولياء تلمسان وشيوخها، كشف على ضوئه جانباً من عزوف بعض متصوفة وأولياء المغرب الأوسط عن بناء أسرة، وتفريغهم للعبادة والإصلاح الاجتماعي، وممّا استوقفنا عنده في هذه المحطة: أنّ الأمر بلغ بأحدهم أن فرّح بموت ولديه؛ وذلك أنّه عندما كان ابن مريم يستعرض سيرة الشيخ محمد بن عمر الهواري (ت843هـ/1439م)، أورد بأنّه طرحت مسألة في العلم على الأخير وهو بوهران؛ فأجاب: أنّه كان ينبغي أن تُطرح هذه المسألة على محمد ابن مرزوق، وهو من يُجيب عنها فهو ليس عنده ولد، وقد تعجّب من حضر من قوله: "ليس له ولد"، وهو عنده ولدان، ثمّ بعد تفصيل من صاحب الرواية، ذكر: أنّ ابن مرزوق لما بلغه قول الهواري قال: "الحمد لله الذي أراحني منهما يعني من ولديه، وفهم من قول الشيخ أنّه كُوشِفَ بعدم بقائهما، وأتّهما يموتان عن قريب؛ فكان الأمر كذلك"³².

4.2 هاجس الفقر والخصاص المالي: بالإضافة للجوء الطفل الاضطرابي لولوج عالم الشغل في سن لا تسمح له بذلك جسميا ونفسيا، ساهم ذلك الغياب الفاحش في توسيع دائرة الأزمة، لتشمل ما يطاله من أثقال الفقر والحاجة للمال، ذلك أنه ليس كل الأطفال تُتاح لهم فرصة الشغل من جهة، ومن جهة أخرى فإنّ الطفل في مرحلة معينة من طفولته يكون في حاجة شديدة للاعتماد على من حوله، ولا غنى له عن الاعتماد على والديه أو الكبير³³، وإذا غاب عنه السند الذي يتكئ عليه نفسيا خارج البيت ويعتمد عليه، يكون الطفل أكثر قابلية للتأثر بالظروف الصعبة المحيطة به وعدم الصمود أمامها، ومن ضمنها أزمة العوز المالي أو الفقر والحاجة؛ وذلك حين يشاهد أقرانه يعيشون واقعا اجتماعيا أفضل بكثير مما يفترشه هو، ويقبع تحت سقفه، ويعجز عن تلبية حاجاته الاجتماعية ورغباته المتنوعة، ويصطدم بعوائق تحول دون مطالبه.

ولعلّ من بين ما يُقوّي طرحنا هذا ما يكشفه حرص الزوجة في الفترة مدار الدرس الاشتراط على زوجها النفقة على الابن الصغير لمدة معلومة، حيث ذكر الونشريسي: أنّ القاضي أبا بكر بن زرب سئل عن رجل تزوّج امرأة لها ابن صغير؛ فشرطت على زوجها أن ينفق على ابنها خمسة أعوام أو أكثر³⁴، ويُعلّل تخوفها هذا بعدة أمور منها: خوفها من سفر الزوج المطول أو انقطاعه عن أسرته وانشغاله عنها ونحو ذلك.

وقد لا نستبعد ولو بقدر محدود أن يغرق الطفل في الخيال والأوهام، ويشعر بالنقص والاضطراب، وكلّها عوامل تؤثّر سلبا في بناء شخصيته الجسمية، فضلا عما يعانیه نفسيا، ويشعر به من نقص وضعف، وكذا شعوره بالتضارب مع بيئته، وتفريط أبوي في توفير المناخ الاجتماعي المناسب لخوض غمار حياته، خصوصا وأنّ الطفل كما يقول علماء النفس لا يستطيع- في ظل تلك الظرفية الصعبة- أن يتحكّم في انفعالاته أو حتى أن يخفف منها³⁵.

ولو توقفنا عند إحدى الروايات التي ساقها ابن مريم التلمساني، وهو يترجم لأحد شيوخ تلمسان وأولياها الشيخ الحسن أبركان (ت857هـ/1453م)، للمسنا جانبا من ضيق العيش الذي عايشته أسرته في مسعاه الزهدي، وتفرغّه للعبادة وإصلاح مشاكل المجتمع، إذ يذكر: أنّ "أصحابه وولده رأوا ضيق منزله"، ومن ثمّ ضيق أحواله³⁶، وكذلك محمد بن يوسف السنوسي (ت895هـ/1489م) الذي قالت "له زوجته وما الذي أمرت

بتركه"³⁷، وكذلك الشيخ محمد بن عبد الجبار بن ميمون الفجيجي (ت905هـ/1499م) الذي قالت "له زوجته ما عندنا ما نطعم الضياف"³⁸، أو ما ذكره الونشريسي بشأن "من سافر إلى المشرق، وترك أم ولد لها بنت بدون نفقة؛ فقامت أم الولد بحقها وأرادت العتق"³⁹، و"من أثبتت غيبة زوجها وعدم نفقتها"⁴⁰، والمرأة التي "أقامت شاهداً على أن ولدها في نفقتها إلى أن توفي والده وهو غائب عنه"⁴¹.

في هذا الصدد لا تفوتنا الإشارة إلى مشكلة عدم قدرة المشرف أو الأمّ على شؤون الأسرة كتوفير بعض متطلبات الطفل في مجال التربية والتعليم، ومن ذلك: ما اختصّ بتوفير الأدوات المدرسية، ومما يؤكد هذا الترخيص ما رواه محمد السنوسي عن والده الذي كان في صغره يقرأ مع الأولاد، ولا يملك أدوات مدرسية، وفي أحد الأيام وهو في خلوته في الصحراء دعا الله أن يرزقه تلك الأدوات، وكان من كرامته أن انشقت الأرض وأخرجت له ما أراد⁴²؛ فحال هذا الطفل حقيقة ليست كحال الطفل الذي يدرس في جو عائلي منسجم شأن على سبيل المثال عبد الله بن محمد بن أحمد الشريف التلمساني الحسني (748-792هـ) الذي قرأ بفاس وأبوه بها، فظهرت نجابته وحفظ القرآن، "ثمّ أقبل أبوه عليه، وقد كملت هيئته بقبول الحقائق وفهم الدقائق؛ فقرأ عليه في الأصول والاقتصاد"⁴³، كما أورد المازوني نازلة تفيد بأنّ هناك من الأمهات من حرصن على توفير الأجرة لتدريس أولادهن كصناعة العجين وبيعه، وتأجير المدرسين والمعلمين⁴⁴، وهو ما يوحى بغياب الأب عن فضائه الأسري غيبة طويلة أو انقطع بشكل نهائي للحرب أو الحج والعلم والتجارة.

وعليه، فعلى الأب (أو الوالدين بشكل أساس)، كما توصّلت إليه الدراسات النفسية- التربوية، أن يلعب دوراً محورياً في تنمية شعور الطفل بالكفاءة، والوصول به إلى الأساس الضروري للنمو السوي في هذه المرحلة والمرحلة الموالية، ومدّ يد العون للطفل خلالها للقيام بواجبات النمو على أكمل وجه، وإكسابه قدراً عالياً من الثقة في النفس والمحيط الاجتماعي، وتوفير الأرضية الخصبة التي تمكّنه من التصرف بشكل استقلالي، وتشجيعه على ممارسة سلوكه التلقائي⁴⁵.

3. مخلفات الغياب على المستوى النفسي للطفل: في هذه المحطة من البحث، سنحاول- في ظل ما نحوزه من نص خيري- الكشف عن مستويات التأثير السلبي الناجم عن غياب

الأب لفترة معتبرة عن محيطه الأسري على نمو ابنه النفسي، وطبيعة التأثيرات الجانبية المحتملة في تكوين شخصيته الوجدانية، وذلك على اعتبار أنّ الطفل يعتمد في مرحلته العمرية تلك بشكل أكبر على والديه أكثر من اعتماده على نفسه، حتى وإن كان في بعض الأمور ينزع إلى الاستقلالية الذاتية فيخوضها أو يبدي رأيه تجاهها، إلا أنّ ذلك لا يكون في كل حالاته، وإنّما يحتفي في ظل الظروف العصيبة بوالديه، ويلجأ في الشدائد إليهما، ولا يشعر بتمام الراحة والأمن والاطمئنان وهما غائبان، أو أحدهما غائب عن حياته، وذلك لاسيما في علاقته العاطفية بينه وبينهم؛ فعلى ضوء ما قرّرت الأبحاث النفسية، وأثبتته الدراسات المتخصصة في المجال الوجداني للطفل، يتجلّى لنا بأنّ التفاعل بين الولد ووالديه أو الفئة الحاضنة له، لا يتمّ بشكل فاعل وطبيعي وناجع إلاّ إذا سار في اتجاه ثنائي أو كان تفاعلا ثنائيا، وليس يسير في اتجاه واحد، أو كان تفاعلا من طرف جهة واحدة تجاه الأخرى؛ فالوليد كما يؤثّر في الحاضن يؤثّر الحاضن في الوليد.

وعلى هذا الأساس فإنّ غياب الأب المطول، وانشغاله المستمر عن دوره الأبوي من شأنه أن يعطل مسار تلك السيرورة التبادلية الناعمة لجسم العلاقة التفاعلية المتبادلة بين الطفل ووالده، ونعتقد أنّ لذلك تأثير- ولو نسبي- على أمن الطفل النفسي واستقراره الوجداني؛ فعلى اعتبار أنّ الوالدة أو الأمّ تسهر على جبر ذلك الانقطاع، وتجتهد في تغطية ذلك الغياب بحضورها الفاعل في حياته الاجتماعية ورعايتها لعالمه الوجداني؛ أو كما يُعبّر عنه المختصون بإعادة التوافق المستمر بإشباع حاجات الطفل بشكل كافٍ، والاستجابة المستديمة لممارساته في الوقت المناسب وبطريقة سديدة⁴⁶؛ فإنّ الأمّ إذا لم تُوفّق إلى حدّ كبير في أداء وظيفتها التطبيبية تحت طائل العوز المالي الذي تعانیه، وثقل الأعباء الاجتماعية الملقاة على كاهلها، يُحتمل أن يكون الضرر على نفسية الطفل أشدّ وأقوى.

في هذا السياق تكشف المادة التراجمية أنّ الشيخ محمد بن إبراهيم التلمساني الأبلي (ت757هـ/1355م) لم ينل حلاوة تربية والده؛ حيث نشأ في كفالة جدّه لأمه أبا الحسين ابن غلبون القاضي في تلمسان⁴⁷، مع الإشارة إلى أنّ المادة المصدرية التي وقفنا عليها لم تفصح عن سبب كفالة الجد للأبلي بدلا عن أبيه؛ فهل يرجع ذلك لموت الوالد أو لانقطاع أخباره، أو لانشغاله بأمور التجارة ونحوها.

الطفل لأنين أمه ومعاناتها من الطبيعي أن يكون له تأثير بعيد الغور في المساس بأمنه العاطفي واستقراره النفسي، ورسم معالم شخصية مضطربة⁴⁹.

في ذات السياق، أثرت مشكلة مهمة في مجال النمو الوجداني السليم للطفل، وهي ذات صلة بالتعلق بالوالدين، ودور ذلك الرابط في نمو ولدتهما النفسي: ذلك أن الطفل إذا فشل في بناء علاقة انفعالية اجتماعية وثيقة وأمنة مع أفراد أسرته في مرحلة الطفولة الأولى؛ فإنه يجد صعوبة في تحصيل مادة من الثقة والأمان اللازم للامسة نمو سليم في المراحل العمرية اللاحقة من طفولته، ولا يستطيع أن يستكشف بيئته الاجتماعية بشكل طبيعي⁵⁰.

الخاتمة: على ضوء هذا الجهد البحثي، كان من بين أهم ما تمّ رصده كاستنتاجات بحثية نُدبِل بها ورقتنا البحثية هذه، ما نورد ملخصه في النقاط الموالية:

على الرغم ممّا وقفنا عليه من مادة تكشف جانباً من معاناة الطفل بالمغرب الأوسط في الفترة المخصصة للدراسة في ظل انشغال والده عن أمور الأسرة وشؤونها المتلونة؛ فإنّ ذلك لا يعني أنّ ذلك ينسحب على فئة عريضة من حياة الطفولة بالفترة مدار الدرس، بل يعدّ مشهداً كاشفاً لحالات معدودة وعيّنات ضيقة تكاد تذوب أمام القيم الاجتماعية النبيلة التي حافظ عليها المجتمع من قبيل صور التكافل والتضامن والترابط الأسري والاجتماعي.

يحتاج الطفل إلى عناية أبوية اجتماعية ونفسية زائدة، وحضوراً قويا في حياة أولاده في مرحلة الطفولة: حضوراً يُعين على بناءٍ سليم لشخصيته، وكفيل بمرافقته دورياً لتقييم سلوكياته الانفعالية والاجتماعية، وقيادته لحيازة ضمير سوي، ومنظومة خلقية قوية ومتوازنة، وشخصية سوية وقوية ومتكاملة.

هذا ويساهم الأب بحضوره في حياة أبنائه الاجتماعية والنفسية مساهمة فاعلة في إرساء قواعد شخصية تسمح بتخطيم مواطن الشعور بالزعة الاستقلالية في أداء الواجبات وتحمل المسؤوليات، والانفصال العاطفي لحيازة الشعور بالقدرة على تحمل الأعباء الملقاة على كاهلهم، وحسن الاضطلاع بها بصفة ذاتية واستقلال معنوي؛ أي انتقال سلس في أداء دورهم بشكل منفصل دون أن ينقطع حبل الرقابة الأبوية.

وممّا يوصى به في هذا الصدد ضرورة اجتهاد الأب في توفير مناخ نفسي واجتماعي كفيل بحضانة أولاده في حال انقطاعه عن وسطه العائلي لمدة زمنية معتبرة في سبيل تحصيل العلم أو نحوه؛ أي السعي الحثيث للامسة التوازن بين كفتي المسؤولية الأبوية النفسية والاجتماعية، من حيث تلبية حاجات الأولاد بطريقة مباشرة أو غير مباشرة؛ أي بنفسه أو من ينوب عنه، دون إشعار الأبناء بالفراغ الاجتماعي والنفسي، كأن يترك زوجته وأسرته ضمن مناخ أسري

كعائلة موسعة يشرف على إدارتها الجدّ أو غيره ممن يخوّل له الشرع القيام بذلك، ونحو ذلك من مقومات المناخ الاجتماعي الكفيل برعاية الأبناء رعاية اجتماعية طبيعية.

الهوامش:

- 1- في هذا السياق أثار ابن خلدون مسألة مهمة تتعلق بدور الوالدين في صناعة شخصية وليدهما، ومدى قدرتهما على ترك بصمات حية في تلك الشخصية، انظر: ابن خلدون عبد الرحمن، المقدمة، دار ابن البيثم، القاهرة، 1426هـ/2005م، ص475/محمد إسماعيل، الأطفال مرآة المجتمع الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1986، ص27.
- 2- الشريبي زكريا ويسرية صادق، تنشئة الطفل وسبل الوالدين في معاملته ومواجهة مشكلاته، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، 1421هـ/2000م، ص213.
- 3- ولعلّه يتناغم وما كشف عنه ابن خلدون بشأن دور الوالدية في توجيه اهتمامات الطفل الدراسية في مرحلة الطفولة؛ وذلك بتحفيظه القرآن ومتون الشعر. وأضاف بوتشيش: بأنّ معظم الآباء في مغرب العصر الوسيط كانوا وحسن نية يحدّون من طموحات أبنائهم حين يمنعونهم عن الالتحاق بمجالس الدرس ودفعهم للعمل، انظر: ابن خلدون، المصدر السابق، ص740، بوتشيش ابراهيم الفادري، المغرب والأندلس في عصر المرابطين، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1993، ص59.
- 4- ومن أبرز علماء المغرب الأوسط الذين ذكرت المصادر أنهم ارتحلوا في طلب العلم، وجابوا البلاد الإسلامية لتحصيله، دون أن تفصل في المدد التي قضوها، وحالهم الاجتماعية- الأسرية، نذكر: أبو الحسن علي بن أبي نصر فتح بن عبد الله البجائي (506-652هـ)، عبد الرحمن بن محمد المعروف بابن السطاح (ت 629هـ/1215م)، أحمد بن هلال العروضي الجزائري (ت 640هـ/1242م)، أحمد بن محمد المقرئ التلمساني (986-1040هـ)، انظر العباس بن ابراهيم السمالي، الإعلام بمن حل مراكش وأغامت من الأعلام، راجعه عبد الوهاب ابن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ط2، 1414هـ/1993م، ج2 ص8-13/الحفناوي محمد، تعريف الخلف رجال السلف، مطبعة بيبير فونطانة، الجزائر، 1324هـ/1906م، ج2 ص283/بريكة مسعود، النخبة والسلطة في بجاية الحفصية، رسالة ماجستير في تاريخ حضارة المغرب الأوسط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، 1429-1430هـ/2008-2009م، ص90. للمزيد من التفصيل حول أسباب الرحلة ومقاصدها، وأبرز الرحالة، انظر الناجي، لمن، 1437هـ/2016م، رحلات علماء المغرّبين الأقصى والأوسط الملكية وأثارها العلمية من خلال القرنين السابع والثامن الهجريين، القاهرة، دار الكلمة للنشر والتوزيع، عواطف محمد نواب، الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين، الرياض، السعودية، مكتبة الملك فهد الوطنية، 1417هـ/1996م.
- 5- ونحسب أنّ أكبر أثر نفسي هو ذلك الذي تخلفه الحرب على نفسية الطفل، ذلك أنّ التأثير لا يقتصر على شريحة الكبار، وإنما ينسحب أيضا على فئة الأطفال.----6. ابن خلدون، المصدر السابق، ص316، ولقد فصلت في هذا عديد الدراسات النفسية الحديثة، ومن ذلك ما أشار إليه الباحث: محمد إسماعيل، المرجع السابق، ص27-29.----7. للوقوف على خفايا ذلك التأثير وطبيعته، انظر محمد إسماعيل، المرجع السابق، ص28.----8. الونشريسي أحمد، المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، ج4، إخراج محمد حجي وآخرون، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، 1401هـ/1981م، ص48.----9. المصدر نفسه، ج4، ص72.----10. تيتاو حميد، الحرب والمجتمع بالمغرب خلال العصر المريني، منشورات عكاظ، المغرب، (د.ط)، 2010، ص386.
- 11- الونشريسي، المصدر السابق، ج6، ص12/ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تج دوروتيا كرافولسكي، ط1، المركز الإسلامي للبحوث، بيروت، 1407هـ/1986م، ص143.----12. الحفناوي، المرجع السابق، ج2، ص250.
- 13- ابن مريم محمد التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ج1، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1336هـ/1908م، ص30/الحفناوي، المرجع السابق، ص18-20.----14. الحفناوي، المرجع السابق، ص20.
- 15- الونشريسي، المصدر السابق، ج3 ص109-113، 264/ابن مرزوق محمد، المناقب المرزوقية، تج، سلوى الزاهري، مطبعة النجاح الجديدة، 1429هـ/2008، المغرب، ص521/تيتاو، المرجع السابق، ص377.----16. الونشريسي، المصدر السابق، ج4 ص114، 240، 267، 275، 285.----17. المصدر نفسه، ج2، ص430-432.

- 18- فإذا كان انتهاج الأب لسبيل العقاب في التنشئة والتربية له من التأثيرات السلبية على نفسية الطفل فما بنا بالفقدان التام للوالد، وفي خضم ظرف اجتماعي عصيب؛ فقد أوردت المصادر أن نمط التأديب على كاهل القمع والعنف والتهديد بدل الحجة والإقناع، قد رسم وجها شاحبا عن طبيعة العلاقة بين الأب والابن، وأفضى إلى انعكاسات سلبية على نفسية الأبناء، تجلّت في ما ارتسم على شخصيته من عقْد نفسية واختلالات في مسارها الطبيعي، بل واستمرت تلك التأثيرات النفسية إلى سنّ ما بعد الطفولة، حتى أنّ هناك من ارتسمت تلك التأثيرات في ذهنه واحتفظ بآثارها وما نسبها إلى سنّ متقدّمة من حياته. للمزيد من التفصيل بهذا الشأن انظر الونشريسي، المصدر السابق، ج3 ص59/لطيف محماد، الطفولة والتنشئة الاجتماعية بالمغرب الأقصى خلال العصر الوسيط، ط1، طبع طوب بريس، الرباط، المغرب، 1436هـ/2015م، ص33-35.
- 19- النبروي نجلاء سامي، جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية للطفل بالأندلس (ق 4-10هـ/10-16م)، شبكة الألوكة، ص25-20. الونشريسي، المصدر السابق، ج4 ص19-21. تيتاو، المرجع السابق، ص389-22. الونشريسي، المصدر السابق، ج4 ص19/تيتاو، المرجع السابق، ص390-23. للمزيد في هذا الشأن، انظر تيتاو، المرجع السابق، ص390.
- 24- الونشريسي، المصدر السابق، ج3، ص319/تيتاو، المرجع السابق، ص390-25. ابن مريم، المصدر السابق، ص38/الحفناوي، المرجع السابق، ج1 ص38.
- 26- وهو ما فصل فيه بشكل أكبر كل من: ابن مريم، المصدر السابق، ص38، الحفناوي، المرجع السابق، ج1، ص44.
- 27- التنيكي، المصدر السابق، ص130، ابن مريم، المصدر السابق، ص45-28. ابن مرزوق، المصدر السابق، ص300.
- 29- الونشريسي، المصدر السابق، ج3، ص230-30. ابن الزيات يوسف، التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تح، أحمد التوفيق، ط2، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، الرباط، المغرب، 1997، ص436.
- 31- الونشريسي، المصدر السابق، ج2 ص430-32. ابن مريم، المصدر السابق، ص230-231/التنيكي، المصدر السابق، ص516-33.
- 33- محمد إسماعيل، المرجع السابق، ص228-34. الونشريسي، المصدر السابق، ج3 ص111-112.
- 35- وإن كنّا لا نحوز على نص مصدري، يكشف طبيعة المعاناة النفسية التي تطالهم، فإن ذلك لا يعني انعدامها في الفترة المدروسة. وللوقوف على جوانب من هذا في وقتنا الحاضر، ينظر: محمد إسماعيل، المرجع السابق، ص229.
- 36- ابن مريم، المصدر السابق، ص93، التنيكي، المصدر السابق، ص161-37. التنيكي، المصدر السابق، ص566-570.
- 38- ابن مريم، المصدر السابق، ص288-39. الونشريسي، المصدر السابق، ج3، ص285-40. المصدر نفسه، ج3، ص318.
- 41- المصدر نفسه، ج3، ص323-42. التنيكي، المصدر السابق، ص566-572-43. المصدر نفسه، ص225-226.
- 44- المازوني، الدرر المكنونة في نوازل مازونة، تح، مختار حساني، ج1، الجزائر، دار الكتاب العربي، 2009، ص38.
- 45- وهو الطرح الذي تزكّيه الدراسات الحديثة التي عكفت على دراسة نفسية الطفل وحياته الوجدانية. 46- محمد إسماعيل، المرجع السابق، ص129-47. ابن مريم، المصدر السابق، ص38، التنيكي، المصدر السابق، ص412، الحفناوي، المرجع السابق، ج1، ص89-48. ولقد أشارت العديد من الدراسات الحديثة إلى هذا الأمر، وقصّلت فيه من ذلك الدراسة التي انجزها الباحث: محمد إسماعيل، المرجع السابق، ص232-49. ولا يمكن أن يخفى علينا حجم انعكاسات التأثير النفسي الذي تعانیه الأم على نفسية أولادها إذا استشعروه.
- 50- ولا بأس أن نبحث عن مادة تقرّنا إلى روح الحدث ولو بشكل نسبي، ويكون ملاذنا أننذ هو ما أفصحت عن الدراسات النفسية الحديثة عن ما يختلج نفسيات الأطفال، ويعيشون تحت سقفه من ألم، كدراسة: محمد إسماعيل، المرجع السابق، ص155.

الوضع القانوني للأرض والاضطرابات الاجتماعية في الأندلس:
ثورة الريض
**The legal status of the land and social unrest in
Andalusia: the Arrabal revolution**

اسم ولقب المؤلف المرسل للمقال: محمد حقي- Hakki Mohamed صص73-88
الدرجة والعنوان المهني: أستاذ- كلية الآداب ببني ملال جامعة السلطان مولاي سليمان المغرب.
البريد الإلكتروني: haqqim@hotmail.com

تاريخ استقبال المقال: 2019/12/05 تاريخ المراجعة: 2020/04/01. تاريخ القبول: 2020/04/04

الملخص: حظيت ثورة الريض بعناية كبيرة من الباحثين الذين كتبوا حول تاريخ الأندلس، لكن تصوره لها يكاد يكون نمطيا، ولما رجعنا إلى ما ورد في مقتبس ابن حيان (السفر الثاني) من معطيات، وعمقنا البحث في باقي المصادر ظهر لنا أن لهذه الثورة حقيقة أخرى غير تلك المتداولة مما دفعنا إلى العودة للكتابة عنها، وقد توصلنا في دراستنا إلى أنها لم تكن مجرد صدام عسكري بين ساكنة الريض والحكم بن هشام الأموي، ولكنها كانت مشكلة أعمق ارتبطت بغموض واضطراب الوضع القانوني للأرض في الأندلس، واتضح أيضا أن الصراع كان طويلا (15 سنة)، وعرف صدامات عسكرية وكلامية، ومرافعات فقهية بين الحكم الرضي الذي يدعي ملكية أرض الريض، وحقه في استغلالها بالشكل الذي يريد، وبين الرضيين الذين يرفضون ذلك، ولأن المشكل قانوني في طبيعته؛ فقد جرّ إليه الفقهاء باعتبارهم ممثلي السلطة الشرعية في البلد، مما وسّع جبهة الصراع، وزاد الأمور تعقيدا، وقد انعكس هذا الاختلاط على نتائجه التي كانت كارثية إذ هُدم الريض كلية، وقُتل عدد كبير من سكانه، وطُرد الباقي من بلدهم ووطنهم.

الكلمات المفتاحية: ثورة- الريض- قرطبة- الحكم الرضي- الأندلس- الفقهاء.

Summary: *The Revolution of the suburb of Cordoba received great attention from the researchers who wrote about the history of Al-Andalus, but their perception of it is almost typical. When we returned to the quote of Ibn Hayyan (The Second Book) and deeply searched the rest of the sources, it seemed that this revolution has a different reality from the one that circulated, which led us to rewrite about it. In our study, we concluded that this was not only a military clash*

between the inhabitants of the suburb of Cordoba and al-Hakam ibn Hisham the umayyad, but also a deeper problem associated with the ambiguity and disruption of the legal status of the land in Al-Andalus. It was also clear that the conflict had been long (15 years) and had known military and verbal clashes and doctrinal arguments between Al-Hakam, who claims ownership of the land of the suburb, and his right to exploit it in the way he wants, and the inhabitants of the suburb who refuse that. Because the problem is legal in nature, the jurists dragged into it as representatives of legitimate authority in the country, thus broadening the conflict front and further complicating things. This mixture reflected in its disastrous results, with the total destruction of the suburb, the murder of a great number of its inhabitants and the expulsion of the rest of its country and homeland.

Key words: suburb- revolution-Cordoba- Al-Andalus- Al-Hakkam-jurists.

مقدمة: تميز عهد الحكم الرضيي (180- 206هـ/821-996م) بثورات المدن مثل طليطلة وماردة وقرطبة، وتميزت ثورة هذه الأخيرة بميزة ومسحة لم تتسم بها الثورات الأخرى مما أعطاها؛ بالرغم من أنها اقتصرت فقط على ضاحية من ضواحيها، قوة وأهمية امتدت ظلالتها على باقي التاريخ الأندلسي عامة، والعهد الأموي منه خاصة.

وإذا كانت هذه الثورة/الثورات قد حظيت بعناية كبيرة، واهتمام من قبل المؤرخين قدماء ومحدثين، وكثرت الآراء وتعددت؛ بالخصوص حول أسبابها؛ فإن الكثيرين لم ينتهوا أو لم يثيروا طابعها الاقتصادي والاجتماعي، بل وأخفوا عنا جزء مهما من تطوراتها، والجدل الذي أثارته، وإذا كنا نؤكد أن تأخر الكتابة عنها إلى القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي قد ضيع الكثير من أخبارها وأحداثها؛ فإننا في نفس الوقت نؤكد أيضا أن الحساسية التي أثارها، والعداء الكبير الذي أظهرته السلطة اتجاه الرضييين وكل من اعتنى بأمرهم، وخوف الناس من التصنيف في خانة الأعداء، وما يتبع ذلك من مضايقات إن لم تكن عقوبات، قد جعل الناس يعزفون عن الاهتمام بها، والخوض في أمرها، وتسجيل تفاصيلها؛ فلا يعقل أن تكون قضية محورية مثل هذه بعيدة عن الجدل الفقهي ونقاشات الفقهاء، لكن؛ وللأسف، فلا نجد لها أثرا في كتب الفقه، ولا حتى في تراجمهم عدا ما يذكر من تعرض بعضهم للقتل أو للمطاردة، ثم حصوله عل العفو من الحكم الرضيي، وهذا الإهمال والتجاهل هو ما حدا بنا إلى العودة إلى الموضوع، وطرقه من جديد رجاء إبراز بعض حقائقه.

ورد الحديث عن هذا الحدث/الأحداث في معظم كتب التاريخ الأندلسي وبعض الكتب الفقهية وكتب التراجم وكتب الأدب، لكن أهم مصدرتناولها باستفاضة هو كتاب

"المقتبس في انباء الأندلس" (السفر الثاني) لابن حيان القرطبي الذي جاء بروايات مختلفة وتلميحات دفعتنا إلى تعميق النظر والبحث فيما لم تورده الروايات الأخرى، وقد خصص لأحداث الرّيض ستا وأربعين صفحة كاملة⁽¹⁾، اعتمد فيها روايات متعددة ومختلفة تضمنت أخبارا وتفاصيل لا توفرها المصادر الأخرى، وأغلب الدراسات التي تناولت موضوع الرّيض لم تعتمد كمصدر؛ ربما لأنه اكتشف متأخرا ولم ينشر إلا في بداية الألفية الثالثة، لذلك فالعودة إلى ثورة الرّيض مبررة، وتعد بتعميق الرؤية حولها.

عندما نتكلم عن هذه الأحداث فنحن نتكلم عن مدينة قرطبة عاصمة الأمويين في الأندلس بما تمثله من رمزية وأهمية سياسية وعلمية واقتصادية، ونتكلم بالضبط عن الرّيض القبلي الموجود على ضفة النهر اليسرى والمقابل للقنطرة والقصر، ونحن نتحدث أيضا عن الربع الأخير من القرن الثاني الهجري (عهد الحكم الأول) وما يمثله من أهمية في ترسيخ الحكم الإسلامي الأموي في الأندلس، وتغيير في طبيعة السلطة، وتحول في العلاقة بين الحاكم والمحكوم في هذه الربوع.

وسنعمل على مقارنة الموضوع من خلال العناصر التالية:

1- أحداث ثورات الرّيض

2- أسباب وعوامل انفجار ثورات الرّيض

3- رمزية ثورات الرّيض ونتائجها.

1- أحداث ثورات الرّيض: ثورة الرّيض ليست حدثا واحدا تمّ في يوم واحد كما قد يتوهم البعض، وتبعته قرارات كثيرة، بل هو حدث طويل تضمن مجموعة من الهبات والصدامات والقرارات بين أهل الرّيض القبلي من جهة والحكم الرّيضي أو من يمثله من جهة ثانية على مدى خمس عشرة سنة (188-203هـ)، وبالرغم من أن المصادر ركزت على المشهد الأخير، والذي يعرف بهيج الرّيض الكبير، وقلة منها أثارت بدايته؛ فقد تغافلت عن باقي التطورات طيلة هذه المدة، وسنحاول تتبعها بتدقيق حتى تتضح الصورة، وتنجلي بعض الأمور التي ستسهل فهم الأجزاء الموالية من الموضوع.

بدأ الصراع بين أهل الرّيض القبلي والسلطة الأموية في عام 189هـ/804م أو الذي قبله عندما قرر الحكم الأول فرض عشور الأطعمة وظيفا سنويا من غير خرص غلة على أهل الرّيض، وتشدد في ذلك، ولقي قراره إنكارا شديدا منهم⁽²⁾، وزاد الناس نقمة عليه

بتكليفه ربيع القومس النصراني المتكبر والمحتقر للمسلمين بجمعها⁽³⁾، ويبدو أن هذا الأمر أثار نقاشاً حاداً، وخلق اضطراباً في مدينة قرطبة شارك فيه فقهاؤها، وبذلت جهود كبيرة فشلت في حل المشكل بسبب تشدد الحكم، مما أغضب وجهاء المدينة، الذين قرروا اتخاذ خطواتهم الموالية.

كان المشهد الثاني هو ما يعرف بحادث الريض الأول في جمادى الثانية عام 189هـ، عندما اجتمع عدد من أهل قرطبة من فقهاء ووجهاء منهم مالك بن يزيد بن يحيى التجيبي قاضي قرطبة السابق وموسى بن سالم الخولاني صاحب السوق ويحيى بن مضر القيبي الفقيه ومسور الخصي ويحيى بن نصر اليحصبي وأبو كعب بن عبد البر وعيسى أخوه وغيرهم...، وقرروا عزل الحكم عن الإمارة، وتعيوضه بابن عمومته محمد بن قاسم القرشي المرواني، ولما عرضوا الأمر على هذا الأخير تظاهر بقبوله ثم وشى بهم للحكم، وبعد التثبت من ذلك ومعرفة كل المشاركين في المؤامرة، قبض على جماعة منهم ممن لم يستطيعوا الفرار؛ فنكّل بهم وقتل منهم اثنين وسبعين (72) رجلاً، وصلبهم على شطّ الوادي أمام القصر ليكونوا عبرة لأهل المدينة، وكان من بين القتلى يحيى بن مضر القيبي تلميذ وشيخ مالك وزعيم الفتوى في قرطبة⁽⁴⁾، وأمام هول الحادث توقف أهل الريض وقرطبة عامة عن مواجهة الحكم دون نسيان حقدهم أو معارضتهم له.

في العام الموالي (190هـ/805م)، وبينما كان الحكم في حصار بني وانسوس بماردة قام أهل قرطبة على صاحب السوق ابن لبيد المسى بعامل العجم فجأة لأمر أنكروه عليه، ومنعوه من إنفاذ حكم؛ فرجموه بالحجارة وأرادوا قتله، لكنه امتنع منهم بجنده، ثم خرج عليهم وفضّ جمعهم، وقتل منهم قوماً تفرقوا، وعاد الحكم مسرعاً بعد ثلاثة أيام؛ فقبض على زعيم الهيج المدعو ديبيل، وهو من سوق الريض؛ فصلبه منكساً وضرب أعناق رجال آخرين؛ فهدأ الوضع مرة أخرى، وكتّم الناس غيظهم، وناموا على أحقادهم⁽⁵⁾.

هدأت الأوضاع ولكن النفوس ظلت حاقدة، وبدأ كل طرف يعد لصاحبه في هدوء

وسرية.

أما الحكم فقد خاف من مفاجأة أهل الريض القريبين من قصره؛ فأخذ حذرهم، وأصلح سور قرطبة وقوّاه، واحتفر الخندق حوله، وأقام الرصيف قدام قصره وما

فوقه، كما ربط الخيل بباب قصره، وأوقف غلمانا مسلحين على بابه ليلا ونهارا، وأعد العدة لكل مواجهة محتملة أو ثورة مفاجئة⁽⁶⁾، ولا يستبعد أن يكون قد أمر غلمانه بالتحرش بأهل الريض، وإهانتهم كلما سنحت لهم الفرصة⁽⁷⁾، وباستظهاره بالقوة بهذا الشكل البارز زاد من حقد الناس عليه وعدائهم له⁽⁸⁾.

أما أهل الريض فلم يسكتوا على ذلك إلا تقيّة، وهم المشهورون بجراتهم وشراستهم منذ عهد الولاة، ألم يستعن بهم الصميل بن حاتم ويوسف الفهري لتقتيل اليمنية وهزمها في معركة شقنودة عام 129هـ/746م؟⁽⁹⁾ ألم يكن واحد منهم وقاح من أجبر الداخل على تغيير عاداته في حضور الجنائز عندما أوقفه ذات مرة بالشارع، وطلب منه أن يأمر قاضيه المرافق له بإنصافه في مظلمة وألح في ذلك؛ فاستجاب له الداخل مكرها، ومنذئذ تولى عن حضور الجنائز⁽¹⁰⁾؟ ألم يكونوا وراء تدمير قرطبة والأندلس في بداية القرن 5هـ/11م؟ ألم يشبههم الوالي الموحي بالجميل الذي لا يسلم من صياحه سواء خفف عنه حمله أو أثقل تعبيراً منه عن قلة رضاهم عن الحكام وكثرة فضولهم وشغفهم⁽¹¹⁾؟ فهم- كما لخص ابن حيان- ليسوا إلا "سواما طغاما جهالا أجلافا، أولي استخفاف بالسلطان، وجرأة عليه، وتحصيل لأخباره، وطعانان في سيرته، لا يشكرون له نعمة، ولا يغمضون له عن عورة، ولا يعتقدون له هيبة"⁽¹²⁾، ولذلك لجأوا إلى الحرب الكلامية والنفسية على الحكم حيث تمرسوا به وتغامزوا عليه، واستحدث فقهاؤهم أشعار الزهد والحضّ على قيام الليل في صوامع المساجد، وضمتوها تعريضا به، بل هتفوا به بعبارة "الصلاة يا مخمور"، وصاروا يتسلطون على غلمانه وجنده من الحشم بالألسنة، ويعرضون لهم في الأندية، ويسمعونهم القبيح⁽¹³⁾.

ووصلت جراتهم على الحكم أن اعترضوا سبيله في أحد الأيام عندما خرج للصيد بالقنباية وعبر القنطرة، وشقّ سوق الريض؛ "فعرضوا له بالقول، ورموا إليه بالتعريض، وصفقوا عليه بالأكف"؛ فأعرض عنهم كاتما غيظه، ثم عاد فقبض على عشرة من رؤساء أهل قرطبة؛ فقتلهم وصلبهم منكسين⁽¹⁴⁾؛ فاشتد لذلك غضب أهل الريض، ولم يعودوا قادرين على كتمان غيظهم، وانتظروا الشرارة للثورة، وهو ما وفره حادث الغلام والصيقل.

وكان المشهد الأخير من هذا الصراع الطويل هو ما يعرف بحادث الرّيض الكبير في يوم الأربعاء 13 من رمضان عام 202هـ/817م؛ فقد اندلعت الثورة في الرّيض القبلي بعدوة النهر بعد قتل غلام الحكم لصيقل سيوف ماطله، والتحق بهم أهل المدينة وأهل الرّيض الشرقي وغيرهم من باقي الأرباض ممدّين ومدعمين لهم⁽¹⁵⁾، ويظهر أن الثوار لم يخططوا للثورة في هذا الوقت حتى أنهم لم يعينوا زعيما لهم كما ورد في قصتي شبريط الوشقي سجين الحكم والحداد وغلّامه اللذان عابا عليهم عدم توفرهم على زعيم⁽¹⁶⁾، وسنحاول تتبع أحداثها.

بدأت الأحداث بهجوم الرّيضيين بأعداد كبيرة مزودين بكل أنواع الأسلحة المتوفرة لهم على القصر؛ حيث سيطروا على قنطرة الوادي، وبلغوا باب السدّة، وأحاطوا بالقصر ييغون اقتحامه على الحكم، حتى أن الحكم أحس بالخطر، وأيقن بغلبتهم عليه، وهنا تحرك أهل الدولة؛ فتجمّع بالقصر الأمويون والموالي وعبيد الحكم وجنده وجيوش الكور لصدّ المهاجمين وقتالهم، وصعد الحكم إلى سطح القصر لتشجيعهم وتحريضهم على الصمود، ووضع مع حاجبه عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث خطة محكمة لهزم الثوار؛ فبينما كلّف المغيرة بن هشام القرشي مع رجاله بصدّ المهاجمين بباب القنطرة وحماية القصر، أمر عبيد الله بن عبد الله بن هشام الأموي البلنسي صاحب الصوائف وإسحاق بن المنذر القرشي بالخروج من القصبّة نحو الباب الشرقي (الباب الجديد لكون الحكم استحدثه) في غفلة من الثوار؛ فعبروا النهر بعيدا من القنطرة في مخاضة الرملة، وأتوا الثوار من الخلف، وأضرموا النار في الرّيض ونهبوه، وعملوا على نقل الخبر للثوار لتشتيت انتباههم، وما إن توصل هؤلاء بالخبر حتى تراجعوا للإغاثة؛ فوجدوا البلنسي خلفهم فصدّمهم، بينما دفع المغيرة من جهة القنطرة فوقعوا بين الجيشين؛ فقتلوا تفتيلا عظيما، وانهمزوا شرهزيمة، ثم جرت الهزيمة إلى باقي الأرباض، وكان القتال قد امتد طيلة النهار وطرفا من الليل⁽¹⁷⁾، وطورد الثوار وتتبعوا في الدور والمنازل، ونهبت ممتلكاتهم، وهتكت ستورهم، وقتلوا وأسروا لمدة ثلاثة أيام⁽¹⁸⁾، وبالرغم من أن الروايات المتوفرة لا تذكر ذلك؛ فيظهر أن أهل الرّيض أظهرت مقاومة داخل الرّيض مما أجبر الحكم وحاجبه بعد مداوات على قبول شروطهم (الخروج منه بممتلكاتهم)⁽¹⁹⁾، والعفو

عنهم بكتاب أمان نص على خروجهم من قرطبة، وما يؤكد هذا كونهم لم يخرجوا من قرطبة إلا بعد أسبوع من وقوع الهيج (الأربعاء 20 رمضان)⁽²⁰⁾.

ولتأكيد انتصاره وقوته ونشر الرعب قام الحكم بصلب ثلاثمائة رجل على طول شط الوادي من القنطرة إلى المصارة⁽²¹⁾، بينما كلف ربيع القومس وغلمانه (الخرس) يهدم الريض في اليوم الموالي (الخميس 14 رمضان)، وحُوّل إلى مزرعة وحرّم البناء فيه ما بقيت الدولة الأموية، وهدمت وأحرقت معه دور كثيرة لأهل الخلاف في المدينة والأرياض، ولم يفلت؛ ممّن يشك فيه، إلا من أثبت ولاءه لبني أمية أو علاقته بأحد رجال الدولة⁽²²⁾، أما أسلاب الريض فأخذها الحكم، ووضعها في خزائن في القصر مكثت فيها بقية حياته⁽²³⁾، ونقلت "السوق العظمى التي كانت هناك منذ نزل ذلك الريض في الدولة العربية" إلى العدو الدنيا التي بأسفل المدينة حذاء قصره وقربه⁽²⁴⁾.

وزاد من محنة أهل الريض عداء الناس لهم محاباة للسلطان وطمعاً؛ فقد قعد لهم في الطرق والممرات الجند وفسقة الناس لنهب ما تبقى لهم من ممتلكات، وقتل كل من صمد في وجههم⁽²⁵⁾.

خرج الربضيون ومن معهم من قرطبة؛ فلجأوا إلى الثغور والكور القاصية، واستقر جمهورهم في طليطلة المعارضة للحكم لأنها قبلت إجاتهم، وهناك نظموا أنفسهم تحت قيادة معارض طليطلي يدعى مهاجر بن القتيل؛ كان قد لجأ إلى أرض الحرب (الأراضي المسيحية) بأهله وأتباعه قبل ذلك خوفاً من الحكم عام 198هـ/813م، وأعلنوا معصية الحكم⁽²⁶⁾، ويذكر ابن حيان أن الحاجب عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث غزا طليطلة عام 203هـ/818م، وعرض على أهلها تسريح رهائنهم بقرطبة مقابل إخراج الربضيين من مدينتهم، ووعدوه فرجع عنهم، لكنهم لم يلتزموا بوعدهم فعاد إليهم في العام الموالي "لأخذهم بما تكلموا به من إخراج من صار عندهم من فلّ قرطبة، ومسكنهم أي البلاد أحبوا سواها وسوى قرطبة"⁽²⁷⁾، ولا ندري هل أخرجوهم أم لا، ولكن ابن سعيد يقول: إن هؤلاء هم الذين خرجوا إلى الإسكندرية رفقة زعيمهم⁽²⁸⁾.

واضطر كثيرون من الربضيين لأجل البقاء في الأندلس إلى الاستخفاء ونكران أنسابهم، والاحتماء بالولاء الأموي⁽²⁹⁾، ولحق جزء منهم بالمغرب وتفرقوا فيه⁽³⁰⁾، واستقر

كثير منهم بمدينة فاس (سبعة آلاف)، وعمروا عدوة الأندلس، ونزل آخرون في ضواحيها ووجبال فازاز⁽³¹⁾.

وتوغل حوالي خمسة عشر ألفاً منهم نحو الشرق، واستقروا بالإسكندرية، ثم انتقلوا منها بعد اصطدامهم بسكانها واحتلالها ثم التصالح مع الوالي العباسي، إلى جزيرة كريت حيث أسسوا إمارة هنالك⁽³²⁾.

انتهت معارضة الريض بانتصار الحكم الأول، وتخلصه من هذه الساكنة المشاغبة؛ فلماذا كل هذا الصراع؟

2- عوامل ثورات الريض ومعارضته للحكم: تتبعنا بدقة وتوأدة أهم المصادر وبعدها الدراسات المعاصرة للبحث عن العوامل التي كانت سببا في اندلاع هذا الصراع وتطوره، وسنعمل على استعراضها بداية بالمصادر، وتثنية بالدراسات بعد أن نقسمها إلى مجموعات.

- المصادر:

*السبب الاقتصادي: ذكر ابن حيان أن سبب الثورة "إنكارهم [الريضيون] عليه توظيفه عليهم عشور الأطعمة التي ألزمهم إياها وظيفاً مؤدى للسنين من غير خرص غلة ولا على حدود شرعية؛ فغلظ شأنه عليهم جداً"⁽³³⁾، وزاد الإحساس بشدة وطأة التوظيف تكليف ربيع القومس النصراني المتكبر والمتشدد بجمعها حيث عذب الناس وقتل بعضهم؛ فأبغض الناس الحكم أكثر بسببه⁽³⁴⁾.

*السبب الديني: انهمك الحكم في الملذات من شرب خمر ولهو وصيد ومُجاهرته بذلك، وانشغاله عن الصلاة، وقيام أهل الحسبة خاصة الفقهاء بانتقاده، وكشف عيوبه، وفضحه في المساجد ومن على صوامعها، وتحريض الرعية للقيام عليه، بل عملوا على إسقاطه ببيعة محمد بن القاسم الأموي من بني عمومته؛ فوشى بهم، وقبض على عدد كبير منهم قتلوا وصلبوا؛ فحقد الناس على الحكم أكثر⁽³⁵⁾.

*السبب السياسي: تجبر الحكم واستعلاؤه، واستقواؤه بجنده وحصانة قصره، وتحرشه مع رجاله بالرعية مما زاد من حقد الناس عليه⁽³⁶⁾، وكذلك عقاب الريضيين المتكرر بالحبس والقتل والصلب عند كل حركة (189هـ-190هـ- حركة التصفيق عليه بالسوق) يقومون بها كما أوضحنا أعلاه.

استخفاف الرعية وبخاصة سكان الريض القبلي بالحكم ورجاله، ووصول جراتهم عليه إلى حد أنهم كانوا ينادونه من أعلى صوامع المساجد بأوصاف قدحية قوية، واعترضوا سبيله في أحد الأيام عندما خرج للصيد بالقنباية ومَرَّ بالريض؛ "فعرضوا له بالقول، ورموا إليه بالتعريض، وصفقوا عليه بالأكف"⁽³⁷⁾.

خلاف مملوك الحكم مع صيقل السيف بالريض بعد ما ماطله كثيرا في إصلاح سيفه، وغضبه وقتله بالسوق؛ فكان ذلك السبب المباشر لثورة الريض الكبير⁽³⁸⁾.

إذا تمعنا في هذه الأسباب سنلاحظ أن معظمها هي مظاهر للصراع وتطوره، بحيث كانت هناك- كما بينا أعلاه- أفعال وردود أفعال من الطرفين، ويمكن أن نحتفظ منها بالسبب الأول الذي نرى أنه كان وراء كل هذه التطورات، لكنه يحتاج منا إلى توضيح وإبراز لعلاقة كل الأطراف به.

- الدراسات المعاصرة: كل الدارسين الذين اطلعنا على مواقفهم من أحداث الريض قد ساروا على خطى المصادر وكرروا كلامها إلا في حالة واحدة، وقد قسمنا آراءهم إلى ثلاث مجموعات:

- سبب ديني ارتبط باستهتار الحكم، وميله إلى اللهو والمجون وجهره بذلك مما أغضب الفقهاء المتشددين، ودفعهم إلى انتقاده والتحريض عليه⁽³⁹⁾.

- عامل اقتصادي متعلق بفرض ضرائب غير شرعية على السكان⁽⁴⁰⁾.

- عامل اجتماعي متعلق بتميش المولدين الغالبين على ساكنة الريض مما جعلهم يثورون بتحريض من الفقهاء⁽⁴¹⁾.

يلاحظ أن هذه الدراسات احتفظت بالعامل الاقتصادي الذي أكدنا أنه يعتبر المحور في هذا الصراع، واعتبرت التراشق الديني بين الحكم والعامّة والفقهاء سببا بينما هو في الواقع مظهر للصراع، والغريب في الأمر أن هؤلاء الدارسين أدخلوا المولدين في الصراع، واعتبروهم محورا أساسيا فيه، والحق أننا لا نعرف من أين جاؤوا بهذا الأمر؛ فحتى لو أردنا أن نستنتج بعض الأشياء من واقع التوزيع السكاني بالأندلس؛ فقرطبة وموسطة الأندلس لم تكن قط مجالا لنشاط المولدين السياسي؛ ذلك أن تحركهم تركز أساسا في الثغرين الأوسط والأعلى وإشبيلية والبيرة ورية، وأيضا لا تسمح لنا الدراسات المنجزة حول توزيع السكان في الأندلس بإثبات كون قرطبة محل استيطان واسع وغالب

للمولدين؛ فهي مدينة عاصمة أخذت طابعا وطنيا استقرت بها كل عناصر السكان في الأندلس من عرب مضر ويمن وموالٍ وبربر ومولدين وغيرهم مع هيمنة واضحة لعرب مضر⁽⁴²⁾، ونرجح أن يكون البربر والعرب من أكثر ساكنة الريض بناء على الوجهات التي اختار الريضيون الهجرة إليها بعد هزيمتهم (بلاد المغرب- مصر- الثغر الأوسط معقل البربر واليمنية)، وبناء على ذلك نستبعد هذا العنصر، ونحتفظ بالعنصرين الآخرين كعاملين مهمين مترابطين ومتكاملين.

ونحن نتناول أسباب حادثة الريض في المصادر والدراسات المعاصرة أكدنا أن العنصر الاقتصادي كان المحور الذي حرك كل هذه الأحداث، فكيف يمكن تفسير ذلك؟ بينا أعلاه أن الصراع في الريض انطلق عندما فرض الحكم الريضي ضريبة على سكانه مما أثار حفيظتهم وغضبهم؛ فلماذا أثارت كل هذا الغضب خاصة وأن الأمويين كانوا يفرضون ضرائب على مختلف جهات الأندلس بما فيها قرطبة وإقليمها التي كانت جبايتها في أيام الحكم بن هشام مائة ألف دينار وعشرة آلاف دينار وعشرين دينارا، ومن القمح أربعة آلاف مدي وستمائة مدي، ومن الشعير سبعة آلاف مدي وستمائة مدي وسبعة وأربعين مدياً⁽⁴³⁾، ولم ترفض أداءها أو ثارت ضدها، لنستجلي الأمر علينا أن نتوقف عند عبارات النص الذي نقل به ابن حيان الخبر وفيه يقول: "إنكارهم عليه توظيفه عليهم عشور الأطعمات التي ألزمهم إياها وظيفا مؤدى للسنين من غير خرص غلة ولا على حدود شرعية؛ فغلظ شأنه عليهم جدا"⁽⁴⁴⁾.

أهم الأفكار التي يتضمنها النص هي:

- فرض عشور الأطعمة/ وظيف سنوي من غير خرص غلة/ ضريبة غير شرعية.

يبدو أن هذه الضريبة فرضت على أهل الريض القبلي جزافا من غير التزام بنصاب مما يجعلها أقرب إلى ضريبة الخراج التي تفرض على أراضي الخمس التي تؤخذ من الغنائم لصالح بيت المال⁽⁴⁵⁾، لكن ما علاقة الريض بهذا الأمر؟

يفهم الأمر إذا عرفنا أصل أرض الريض؛ فالمصادر التاريخية تذكر أن عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموي لما عين السمح بن مالك الخولاني واليا على الأندلس عام 100هـ/718م "أمره أن يُخمس أرضها، ويُخرج منها ما كان عنوة خُمسا لله من أرضها وعقارها، ويقرّ القرى في أيدي غنامها بعد أن يأخذ الخمس"⁽⁴⁶⁾، ويقال إن السمح نفذ

أمره؛ "فخرج من الخمس البطحاء المعروفة بالربض"⁽⁴⁷⁾، وتضيف أن هشام بن عبد الملك الخليفة لما كفل عبد الرحمن بن معاوية (الداخل فيما بعد) بعد موت أبيه "وهب لعبد الرحمن هذا جميع الأخماس التي اجتمعت للخلفاء بالأندلس، وأقطعها إياها، ووجهه لحيازتها من الشام سعيد بن أبي ليلى"⁽⁴⁸⁾، ويفهم من كلام الموالي الأمويين (جاء ليأخذ إقطاع أسرته) للصميل بن حاتم لتبرير وصول عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس أن هذا الأمر مشهور بالبلاد، ويقربه الجميع، ويعترف بملكته له⁽⁴⁹⁾.

وهذا يعني أن ملكية أرض الربض تعود لعبد الرحمن الداخل ومن بعده لوارثه هشام ومن بعده ابنه الحكم الأول، وأن المستقرين به منذ عهد الولاة يحتلون أرضا لا حق لهم فيها، وإذا أرادوا البقاء بها فعليهم أن يدفعوا مقابلا لذلك.

والنتيجة التي نصل إليها من استقصائنا هذا هو أن الصراع بين أهل الربض القبلي والحكم هو صراع حول الحق في أرض الربض، ويتأكد الأمر إذا توقفنا عند القرار الذي اتخذه الحكم بعد انتصاره في الهيج الأخير، إنه الإزالة الكاملة وإخفاء كل أثر له، وتحويله إلى مزرعة، وتوصية خلفائه بمنع أي بناء به ما دامت الدولة الأموية قائمة، وهو ما حافظوا عليه⁽⁵⁰⁾، ولم تسلم من ذلك حتى المساجد التي تؤكد المصادر أن الأرباض تتوفر على أعداد كافية منها، ولا يمكن أن نفسر ذلك بكونه لا يحترم التعاليم الإسلامية بشأن المساجد، ولكن تصرفه مرتبط ببناء أقيم فوق أرض الغير، لذلك فهو في حكم الغصب وللمتضرر الحق في إزالته.

لا ندري كيف بدأ الصراع بين الطرفين، هل طالب الحكم منهم إفراغه خاصة وأنه يصاقب قصره، ويسبب له كثيرا من الفوضى والأذى لما يحتويه من أسواق وعمارة، ولوجوده في طريق نزهته وراء القنطرة؟ أو طلب منهم دفع مقابل لاستغلال أرض يملكها؟ أكيد أن القضية ستثير نقاشات فقهية وقانونية في وسط يهيمن عليه الدين ويحرك حياته، لكن المصادر للأسف؛ وبكل أصنافها، لا تحتفظ لنا بأي أثر له، ونعتقد أن المشاكل التي تبعت هذا الخلاف ومآل الربض والحساسية التي يثيرها عند الحكم ومن خلفه كانت وراء تجاهل المؤرخين والفقهاء للكتابة حوله.

ونعتقد أن الخلاف بين الطرفين أخذ بعدا فقهيا، وأن الربضيين؛ شأن عامة كل المدن الإسلامية، قد استنجدوا بالفقهاء لحل الإشكال، وتحديد موقف الشرع منه،

ونعتقد أيضا أن الفقهاء أو على الأقل جزء منهم قد اعترضوا على موقف الحكم وساندوا العامة مما ورطهم في الصراع، وأدخلهم في عداء مع الحكم، ويفترض أن يحيى بن مضر القيسي شيخ وتلميذ مالك ومقدم الفقهاء في الأمور الخلافية والأكثر تشددا كان متولي هذا الأمر⁽⁵¹⁾ مما قد يفسر محاولته مع آخرين عزل الحكم، وبالتالي مقتله في حادث الرض الأول.

أما الحكم الأول فلا يظهر أنه كان مختلفا مع كل الفقهاء؛ فقد كان "يقرب الفقهاء والعلماء والصالحين"⁽⁵²⁾، وكان يؤثر الفقيه زياد بن عبد الرحمن شبطون (ت197هـ) ويقبل شفاعاته⁽⁵³⁾، واستعان بيحيى بن يحيى الليثي في صلحه مع عمه عبد الله عام 186هـ/802م إذ أشرف على الصلح بينهما ووثقه وثبته⁽⁵⁴⁾، وكان يبّر طالوت بن عبد الجبار المعافري، ويقبل شفاعته، وعزّاه في زوجته لما ماتت، وسار في جنازتها⁽⁵⁵⁾، لكن يظهر أنه في هذه القضية رفض الخضوع لإرادة الفقهاء (الشرع)؛ أو على الأقل لفريق منهم، وبالتالي حكم الشرع فاعتبروه مارقا، وحكموا بعدم أهليته لتولي السلطة؛ فأرادوا عزله بمحمد بن القاسم قبل أن ينكشف أمرهم ويقتلوا، وقد ورد في قصته مع طالوت عندما قبض عليه بعد الرض الكبير أن الفقيه أبغضه لله ولم ينفعه معه كل ما فعله له من قبل⁽⁵⁶⁾.

لقد اتضح سبب العدا بين الحكم والفقهاء، والذي هو رفضه الخضوع لحكم الشرع، واتضح أيضا سبب التحالف بين الفقهاء وأهل الرض، ولا ننسى أن نذكر أن بعض الفقهاء كانوا طرفا في الصراع لأنهم من سكان الرض ومن أصحاب المصلحة في بقاءه على حاله، ولناخذ كمثال يحيى بن يحيى الليثي الذي "كان مسكنه بالرض المسوى بالتدمير" ومعه أخوه فتح الذي قتل في الهيج، وربما أيضا عيسى بن دينار وآخرين⁽⁵⁷⁾، بل يذكر بعض المؤرخين أنه "اجتمع في الرض أربعة آلاف فقيه وطالب"⁽⁵⁸⁾.

يبدو أن الصراع في الرض القبلي بقربطبة في عهد الحكم الرضوي هو نتيجة لصراع حول وضعية الأرض في الأندلس، وشرعية تملكها واستغلالها، وما جرّه ذلك من نقاشات شارك فيها حاملو وحماة الشرع من الفقهاء، وليس ذلك بالغريب عن مسألة لم تحسم فقهايا إذ ظل جواب الفقهاء عن سؤال كيفية فتح المغرب والأندلس غامضا وملتبسا، وكثيرا ما يتجنبون الجواب، ويلجأون إلى التعميم: المغرب والأندلس لم تفتح لا عنوة ولا صلحا، وقد تسبب هذا الغموض في صدامات طويلة امتدت على مدى خمس

راوي ابن حيان بقوله: "هي [الوقعة] التي ضربت أوتاد ملك بني مروان بالأندلس؛ فاستقرت على الثرى"⁽⁶²⁾، وقد اتجهت إجراءات الحكم في اتجاهين:

*رفع عدد مواليه والزيادة منهم بشكل واسع بعدما اختبر فائدتهم وإخلاصهم في هذه المحنة، وكان يقول: "ما استعدت المملوك بمثل الرجال، ولا حامى عنها كعبيدها"⁽⁶³⁾؛ فعمل على تحرير جميع ممتلكيه، وأعطاهم أموالهم وصبرهم بطانته⁽⁶⁴⁾، كما قرب ناسا آخرين عند تهديم دور المعارضين بالأرباض الأخرى وبالمدينة بعدما جاء كل منهم "ببينة أنه من موالى بني أمية أو من أهل ولايتهم...، [أو] من كان بسبب من السلطان وحاشيته"⁽⁶⁵⁾، واستكثر من الجند المماليك والأحرار ورتبهم على قصره⁽⁶⁶⁾.

*إدماج السلطة الدينية صاحبة الشرع والنفوذ على الرعية في جهاز الحكم؛ فخلال أحداث الريض قُتل كثير من رجال العلم، وهرب كثير إلى طليطلة، واستخفى آخرون⁽⁶⁷⁾، ولما هدأ الوضع كتب لهم أمانا في الأنفس والأموال، وسمح لهم بالعودة إلى موطنهم⁽⁶⁸⁾، وأرسل إلى يحيى بن يحيى الليثي من يستصلحه بطليطلة، وأعادته إلى قرطبة، ورد عليه ماله الذي تركه خلفه؛ فكسبه إلى جانبه⁽⁶⁹⁾، وصار فيما بعد دعما قويا لابنه عبد الرحمن، ولما وقع في يده الفقيه طالوت بن عبد الجبار المعافري أظهر له لينا وعفا عنه، وتعهده بتلبية حاجياته، واستمر في برّه حتى وفاته؛ فحضر جنازته وتصدق على قبره⁽⁷⁰⁾، وهذه الخطوات نجح الحكم في مصالحة الفقهاء وكسب ودهم، وفتح المجال لاندماجهم في جهاز الحكم حيث صاروا عنصرا مهما من عناصر شرعيته، وبخاصة منذ عهد ابنه وخليفته عبد الرحمن الأوسط (206هـ-238هـ).

وبعد أن قوى الحكم الأموي جانبه، وتحصّن عسكريا ودينيا (شرعية) صار بإمكانه أن يحكم كيفما شاء، وتعامل مع رعيته معاملة القهر والاستعباد، "وأنفذ تنفيذ العشور على جميع الناس بحضرتة، وكور مملكته على ما أحبه هو وكروهو هم؛ فأذعنوا له به، ولم يجسر أحد فيما بعد أن يفوه بكلمة فيه"⁽⁷¹⁾.

كان حادث الريض لحظة تحول في حياة الأندلس السياسية؛ إذ انتقلت السلطة بعده من طابع شبه قبلي إلى طابع ملوكي يحكم فيه الحكام الأمويون بالقهر والقوة بدعم من الفقهاء.

ونشير في الأخير إلى أن حادث الرّيض قد غير الشكل العمراني لمدينة قرطبة؛ فبعدما كانت تتجه في توسعها نحو الجنوب في اتجاه شبّار وبعده شقنّدة، توقف هذا التوسع بتهديم الرّيض القبلي ومنع البناء فيه، وهو الوضع الذي استمر حتى سقوطها في يد المسيحيين؛ فاتجهت حركة التوسع شرقا وغربا وشمالا، كما ساهم الحادث في جمع المؤسسات الحيوية حول القصر بنقل سوق الرّيض العظمي إلى الضفة الأخرى أسفل القصر⁽⁷²⁾، وقريبا أيضا من المسجد الجامع، وبذلك يمكن للسلطة مراقبة كل شيء.

خاتمة: كان صراع الرّيض حدثا طويلا عرف صدامات عسكرية وكلامية ومرافعات فقهية/شرعية، وكان في أصله مشكلة عقارية ارتبطت بوضعية الأرض في الأندلس، وإذا كان في البداية نزاعا بين من يدعي ملكية أرضه (الحكم الرّيضي/السلطة الأموية) وحقه في استغلالها بالشكل الذي يريد، وبين من يستغله منذ زمان الفتح وعهد الولاة (الرّيضيون)، ويرفض الخضوع لطلبات الأول؛ فقد جرّ أطرافا أخرى إلى الصراع باعتبارها الحَكَم وصاحبة السلطة الشرعية في البلد وهم الفقهاء؛ فتوسعت الجهة وزادت الأمور تعقيدا مما تسبب في نتيجته الكارثية المتمثلة في إبادة أعداد هائلة من سكان الرّيض، وطرد الباقي من بلدهم ووطنهم، وتدمير الرّيض نهائيا، على أن ما حدث كان مفيدا للحكم الأموي ولأهل الأندلس لأنه سمح بتغيير نوعية الحكم، وإدماج السلطة الشرعية (الفقهاء) في دواليبه؛ فتوحدت اتجاهات الطرفين، وتشارك في تسيير البلد كل من زاوية رؤيته.

الهوامش:

- 1- ابن حيان، المقتبس، السفر الثاني، تحقيق محمود علي مكي، مركز الأمير فيصل للدراسات والبحوث الإسلامية، الرياض، 2003، ص123-128/نفسه- ص140-179. 2- نفسه، ص161-162. 3- نفسه، ص132/ابن الخطيب، أعمال الأعلام، تحقيق سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003، ج2 ص16. كان يعذب الناس ويقتل بعضهم. وكان العرب والبربر يقبلون يده فيغسلها تقززا منهم. 4- نفسه، صص121-123-127-160/ذكر بلاد الأندلس، تحقيق مولينا، مدريد، 1983، ص131/ابن عذاري، البيان المغرب، تحقيق لفي بروفنصال وكولان، دار الثقافة، بيروت، 1980، ج2 ص71/ابن خلدون، العبر، ضبط خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، 2000، ج4 ص161. وقيل إنه نصب لهم مائة وأربعين جذعا. 5- ابن حيان، ص125-126 و159-160/ابن عذاري، ج2 ص71. 6- نفسه، ص122-147-170. 7- ويقوم شاهدا على ذلك ما قام به الجندي مع الصيقل في الرّيض. المقتبس، ص2، ص148. 8- نفسه، ص147/ذكر بلاد الأندلس، ص132.
- 9- أخبار مجموعة، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، 1989، ص60/السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين، ص163-164. 10- المقرئ، نفع الطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ج3 ص37. 11- نفسه، ج1 ص154-155/ج3 ص25-26. 12- ابن حيان، المصدر السابق، ص2 ص169. 13- نفسه/المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق سعيد العريان، دار الكتاب، البيضاء، 1978، ص44-45. 14- نفسه، ص170. 15- نفسه، ص148/ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، 1964، ج1 ص42. 16- نفسه، ص152/ابن الخطيب، المصدر السابق، ج2 ص17-18. 17- ابن حيان، المصدر السابق، ص2 ص140-141 و148-150 و162 و170-171. 18- نفسه، ص150-172/ابن سعيد، المصدر السابق، ج1 ص42. 19- نفسه، ص172. 20- نفسه، ص151.

- 21- نفسه، ص142/النويري، تاريخ الغرب الإسلامي، تحقيق مصطفى أبو صيف أحمد، دار النشر المغربية، البيضاء، 1985، ص90--
 22- نفسه، ص150-151-23- نفسه، ص153. "أمر بجمع أموال أهل الرض المخني عليهم وأثاثهم وما غادره النهب من متاعهم في منازلهم؛ فضم جميعه إلى الخزائن التي بإزاء السطح أودعه فيها وحماها طوال أيامه". 24- نفسه، ص165-25- نفسه، ص172--
 26- نفسه، ص142 و146 و153 و163 و27- نفسه، ص179-180 و194. 28- ابن سعيد، المصدر السابق، ج1 ص42. 29- نفسه، ص164-30- نفسه، ص153 و164. 31- ابن خلدون، المصدر السابق، ج4 ص161/محمد حقي، البربر في الأندلس، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2017، ص44-45. 32- ابن حيان، المصدر السابق، ص2 ص153-154/164/المعجب، ص45-33- نفسه، ص161-162. 34- ذكر بلاد الأندلس، ص132/ابن الخطيب، المصدر السابق، ج2 ص16. 35- ابن حيان، المصدر السابق، ص2 ص123 و147/ابن عذاري، المصدر السابق، ج2 ص71/ابن خلدون، المصدر السابق، ج4 ص161/النويري، المصدر السابق، ص83-84/المراكشي، المصدر السابق، ص44-45. 36- المقتبس، ص2 ص147/النويري، المصدر السابق، ص89-37- نفسه، ص170-38- نفسه، ص147/ابن سعيد، المصدر السابق، ج1 ص42/النويري، المصدر السابق، ص89.
 39- عنان محمد عبد الله، دولة الإسلام في الأندلس، ع1، ق1، مطبعة المدني، القاهرة، 1997، ص243/أنجيل بالنتيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ص4/الفتي، تاريخ المغرب والأندلس، المطبعة التجارية الحديثة، القاهرة، 1990، ص82/نعني، تاريخ الدولة الأموية في الأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، ص190/بيوضون، الدولة العربية في إسبانيا، دار النهضة العربية، بيروت، 1986، ص222/شاكر، الأندلس في التاريخ، منشورات وزارة الثقافة، بيروت، 1990، ص33/الكيبيسي، دور الفقهاء، دار البشائر الإسلامية، بيروت، 2004، ص146-147.
 40- عنان، ص243/الكيبيسي، ص149-41- عنان، ص243/الفتي، ص82/نعني، ص190/بيوضون، ص222/شاكر، ص33/الكيبيسي، ص148-42- محمد حقي، البربر في الأندلس، 2017/نفسه، في الأندلس، مصر: أو عرب الشمال، 2019-43- المقري، المصدر السابق، ج1 ص541-44- ابن حيان، المصدر السابق، ص2، ص161-162.
 45- الماوردي، الأحكام السلطانية، تحقيق أحمد جاد البصري، دار الحديث، القاهرة، 2006، ص258 و288/الداودي، أحمد بن نصر الداودي، الأموال، تقيق رضا محمد سالم شحاده، دار الكتب العلمية، بيروت، 2008، ص177-46- أخبار مجموعة، ص30/ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، 1989، ص38/ابن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص26/ابن خلدون، المصدر السابق، ج4 ص152/المقري، المصدر السابق، ج1 ص235-47- ابن عذاري، المصدر السابق، ج2 ص26/ابن القوطية، المصدر السابق، ص38-48- المقري، المصدر السابق، ج1 ص333-49- نفسه، ج3 ص30. اتفق أبو عثمان وصهره عبيد الله بن خالد أن يقولوا للصميل بن حاتم "أنه قصد لإزادة الإيواء والأمان وطلب أخماس جده هشام لدينا ليتعيش بها، لا يريد غير ذلك". 50- ابن حيان، المصدر السابق، ص2 ص150 و172/ابن الأبار، الحلة السيرة، تحقيق حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، 1985، ج1 ص44. وقد بني به بناء في عهد هشام المؤيد؛ فلما علم به أمر عبد الملك المظفر العامري بهدمه ففعل.
 51- عياض، المصدر السابق، تحقيق عبد القادر الصحراري، مطبعة فضالة، المحمدية، 1983، ج3 ص126. وقع اعتراض على حكم للقاضي بن بشر، وأرادوا عقد مجلس لتقييمه؛ فاقترحه يحيى بن يحيى ليكون ضمن الحضور.
 52- المقري، المصدر السابق، ج1 ص342-53- نفسه، ص340-341-54- النويري، المصدر السابق، ص82-55- ابن حيان، المصدر السابق، ص2 ص167-56- عياض، المصدر السابق، ج3 ص341-57- ابن حيان، المصدر السابق، ص2، ص155 و166-58- النويري، المصدر السابق، ص91-59- ابن حيان، المصدر السابق، ص2، ص142-144-60- نفسه، ص145-61- نفسه، ص174-175-62- نفسه، ص173-63- ابن سعيد، المصدر السابق، ج1 ص43-64- نفسه/ابن حيان، المصدر السابق، ص2، ص154-65- نفسه، ص151-66- نفسه، ص165-67- نفسه، ص166 و201/ابن سعيد، المصدر السابق، ج1 ص43/ابن عذاري، المصدر السابق، ص77.
 69- ابن حيان، المصدر السابق، ص2، ص201/ابن سعيد، المصدر السابق، ج1 ص43/النويري، المصدر السابق، ص91.
 70- نفسه، ص166-167/عياض، المصدر السابق، ج3 ص340-341-71- نفسه، ص165، وقال أيضا: "ربوا رعيتهم رباية العبيد". 72- نفسه، ص165.

نص جديد من كتاب "البيان المغرب" لابن عذاري المراكشي
A new text from the book "Al-Bayan al-Mughrib" by
Ibn Idhāri al-Marrākushi

الكاتب المرسل للمقال: د. محمد المرتضي- Elmortadi Amine صص 89-110
الدرجة والعنوان المهني: أستاذ باحث في تاريخ الغرب الإسلامي- أكاديمية جهة فاس- مكناس- المغرب
البريد الإلكتروني: Elmortadi82@gmail.com

تاريخ استقبال المقال: 2019/12/15 تاريخ المراجعة: 2020/04/01 تاريخ القبول: 2020/04/10

الملخص بالعربية: يُعتبر كتاب "البيان المغرب" لابن عذاري المراكشي من المصادر الإخبارية التي لا يمكن الاستغناء عنها في دراسة شمال إفريقيا والأندلس خلال العصر الوسيط، ولا شك أن الكتاب المذكور وقعت به خروم تسببت في ضياع أخبار مهمة من تاريخ المرابطين، ويتعلق الأمر بأخبار ما بين عامي 469-495هـ/1076-1102م، وقد انفرد محمد عبد الله عنان بإيراد نصوص نقلها عن أوراق مخطوطة عثر عليها في مكتبة جامع القرويين بفاس، وعلى الرغم من أهمية تلك النصوص إلا أن محمد عبد الله عنان لم يُدرجها في ملحق كتابه "دولة الإسلام في الأندلس"، كما أن النسخ المطبوعة المحققة لكتاب "البيان المغرب"- التي اطلعنا عليها- لم تستفد منها، ومن ثمّ جاء اهتمامنا بتلك النصوص التي تُقدم معطيات مهمة حول مرحلة دقيقة من مراحل تطور الدولة المرابطية.

الكلمات المفتاحية: المغرب؛ الأندلس؛ ابن عذاري؛ البيان المغرب، عنان، جامع القرويين؛ ملوك الطوائف، الدولة المرابطية.

ABSTRACT: The book "Al-Bayan al-Mughrib" by Ibn Idhāri al-Marrākushi is considered one of the indispensable news sources in the study of North Africa and Andalusia during the medieval period. There is no doubt that the book mentioned, signed by Khurum, which caused the loss of important news from the history of the Almoravids, and it comes to news between the years 469-495A.h/1076-1102CE, Muhammad Abdullah Annan singled out texts that he quoted from manuscript papers found in the library of the al-Qarawn Mosque in Fez. Despite the importance of these texts, Annan did not include them in the appendix to his book: "The State of Islam in Andalusia," and the printed copies of the book "Al-Bayan Al-Maghrrib"- which we have seen- did not benefit from it. Hence our interest in

those texts, which provide important data about an accurate stage of the development of the Almoravid state.

Keywords: Morocco; Andalusia; Ibn Adhari; Mosque of Al-Qarawiyyin; The Almoravid state; 'Inan; Taifas kings.

مقدمة: يُعتبر كتاب "البيان المغرب" لابن عذاري المراكشي (ت. بعد 712هـ/1312م⁽¹⁾) من المصادر الإخبارية التي يرجع إليها الباحثون في كتاباتهم التاريخية الوسيطية، نظرا لاعتماده على الروايات المعاصرة للأحداث⁽²⁾، «وروايات نادرة، تجعله يرقى إلى مرتبة المصادر الأولية التي لا يمكن الاستغناء عنها في دراسة شمال إفريقيا والأندلس»⁽³⁾.

ويرجع الفضل في نشر الكتاب أول مرة للمستشرقين، حيث نشر دوزي (R.Dozy) الجزأين الأول والثاني محققين ما بين عامي 1848 و1851م، وليفي بروفنسال (L.Provençal) الجزء الثالث عام 1929م. وبعد تحقيق ومراجعة، نشر كولان (Colin) وليفي بروفنسال الجزأين الأول والثاني عام 1948م. كما نُشر القسم الثالث - وهو غير الجزء الثالث المذكور- بتحقيق المستشرق ميراندا (Meranda)، وإسهام محمد بن تاويت ومحمد الكتاني في تطوان عام 1963م. ثم صدر الكتاب في أربعة أجزاء عن دار الثقافة ببيروت عام 1967م، وكان الجزآن الأول والثاني مصورين عن طبعة دوزي، والثالث مصورًا عن طبعة بروفنسال، والرابع بتحقيق إحسان عباس، ولم يذكر في هذه الطبعة الجزء الذي نشره المستشرق ميراندا وسماه القسم الثالث، وبعد ذلك ظهر "البيان المغرب" (قسم الموحدين) بتحقيق جماعة من الباحثين في بيروت عام 1406هـ/1985م.

وأخيرًا صدرت طبعة جديدة عن دار الغرب الإسلامي بتونس عام 1434هـ/2013م، بعنوان: "البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب"، حققه وضبط نصه وعلّق عليه بشار عواد معروف وابنه محمود بشار عواد، ومما جاء في مقدمة التحقيق أن ابن عذاري جعل كتابه في ثلاثة أجزاء «تناول في الجزء الأول تاريخ شمال إفريقية منذ الفتح العربي الإسلامي وحتى ظهور المرابطين والموحدين، وخصّص الجزء الثاني لأخبار الأندلس منذ فتحها، وعصر

الولادة، ثم العهد الأموي، وقيام الدولة العامرية؛ فظهور ملوك الطوائف، وحتى دخول المرابطين إلى الأندلس سنة 478هـ، أما الجزء الثالث فهو عودة إلى تاريخ المغرب؛ إذ أتى فيه على أخبار الدولة المرابطية اللمتونية، وما كان من شأنها في المغرب والأندلس، ثم أخبار الدولة الموحدية وما عاصرها من أخبار بني هود والحفصيين والنصرين، ثم الدولة المرينية وانتصارها واستيلائها على مراكش في أواخر سنة 667هـ⁽⁴⁾.

وقد ذكر إحسان عباس أنه وقع في أوراق الجزء الذي حققه- الجزء الرابع- «خرم كبير ضاعت به أخبار الأحداث ما بين عامي 469-1076/495-1102م، ويشمل بقية فتوحات يوسف في المغرب، وجوازه الأول إلى الأندلس وأخبار معركة الزلاقة (1086/479م)، والجواز الثاني (1088/481م)، والثالث (1090/483م)، وسقوط أكثر دول الطوائف»⁽⁵⁾، ونحسب أن إدراجه رواية صاحب "الروض المعطار" دون غيرها في الملحق الثاني من الكتاب، لسد بعض الخلل الواقع في النسخة المحققة، وبخاصة في أخبار يوسف بن تاشفين بين سنتي 479-495هـ/1086-1102م، كان اختيارا موقفا، لأنه على الرغم من المثالب التي ميزت إنتاج الجغرافيين عموما، وأهمها إيراد روايات خرافية؛ فكتاب "الروض المعطار" للحميري تضمن روايات تاريخية قيمة⁽⁶⁾، وفي المقابل اكتفى بشار عواد بالإشارة، في مقدمة التحقيق، إلى أن الذي وصل إلينا من الجزء الثاني لأخبار الأندلس منذ فتحها حتى دخول المرابطين إليها سنة 478هـ، إلى حدود سنة 460هـ فقط؛ «فبقي القسم المتضمن للسنوات 460-478هـ»⁽⁷⁾، وفاته التنبيه على الفراغ الذي في الأصل كما فعل إحسان عباس محقق الجزء الرابع من كتاب "البيان المغرب" (قسم المرابطين) لابن عذاري المراكشي، و"الروض المعطار" للحميري.

ويبدو أنه وقع في كتاب "البيان المغرب" خرم آخر ضاعت به أخبار أحداث ما بين 511هـ/1117م و514هـ/1120م، وقد انفرد محمد عبد الله عنان بإيراد بعض النصوص التي نقلها عن أوراق مخطوطة⁽⁸⁾ يقول عنها: «وكان من حُسن الحظ أننا عثرنا خلال بحثنا في "خروم" (دشت) مكتبة جامع القرويين بفاس،

الأندلس، ليسيروا معه لاستنقاذ سرقسطة ولاردة؛ فقدم على تميم عبد الله بن مزدلي وأبو يحيى بن تاشفين صاحب قرطبة بعساكرهما؛ فخرج تميم بن يوسف بن تاشفين من بلنسية مع أمراء لمتونة؛ فقصده نحو لاردة، وكان بينه وبين ألفونسو الأراكوني قتال عظيم أقبله عن لاردة خاسئاً خاسراً بعد أن بذل جهده في حصارها وقتالها، وفقد عليها من جيوشه ما يزيد على العشرة آلاف فارس، ورجع تميم إلى بلنسية»⁽¹¹⁾.

وربما كانت رواية ابن عذاري أكثر وضوحاً ودقة، حيث يقول: «إنه لما توالى تضيق العدو على سرقسطة وحصارها وهزيمة أهلها، وتحريق قنطرتها، ونزول العدو على قصرها المعروف بالجعفرية، اتصل الخبر بعبد الله بن مزدلي؛ فسار الجيش إليها ولحق به مدد من جيش قرطبة؛ فقويت نفوس أهل سرقسطة، ولحق الجيش بطرسونة، وقد شدد العدو غارته عليها؛ فجدّ في اتباعه وأدركه غير بعيد؛ فهزم الله العدو، وأظهر على يد عبد الله بن مزدلي عجائب في هذه الغزوة لم يعهد مثلها منذ مدة بعيدة قبلها، ثم احتل بتطيلة، وتلوم بها، وأقلع الفرنج عن سرقسطة؛ فرأى الأمير عبد الله بعد تلومها أن ينهض إليها؛ فترك الجمولة ومدد قرطبة، وانتخب أنجاد العسكر، وصمم إلى سرقسطة؛ فدخلها في أوائل جمادى الآخرة، وقد استنشق أهلها ريح الحرب، وفي خلال ذلك اعتل الأمير عبد الله المذكور؛ فتوفي في رجب؛ فكتم وفاته أياماً، ثم انبث الخبر وعلم به رذمير؛ ففغر على البلد فمه، وألقى عليه زوره، وقد نفذت الأقوات، وبلغ الميقات؛ فدخله بالمعاهدة»⁽¹²⁾.

وبالرغم مما يوجد بين رواية ابن عذاري وابن زرع من اختلاف في الوقائع والتفاصيل؛ فالروايتان تؤكدان وقوع معارك عنيفة بين المسلمين والنصارى خلال مدة حصار سرقسطة، وأن آخر ولايتها عبد الله بن مزدلي قد اشترك بقواته في هذه المعارك. ومن ثم يظهر أن سرقسطة لم تُسلم صلحاً، بل أرغمت على التسليم إرغاماً، بعد أن ضاق بأهلها أهوال الحصار، وهُزمت القوات المرابطية التي سارت لاستنقاذها⁽¹³⁾.

- وقوع الفتنة في قرطبة سنة 514 أو 515هـ/1120 أو 1121م: لعل من أبرز الأحداث التي شهدتها الأندلس خلال العقد الثاني من القرن السادس الهجري، وتردّت في أكثر من رواية قيام العامة ضد المرابطين بقرطبة، وتُفيدنا بعض الروايات التاريخية بأن أمير المسلمين علي بن يوسف كان قد ولى على قرطبة أبا يحيى بن رواد؛ «فحدث بينه وبين أهلها ما أوجب قيامهم عليه، وحدث بين أهلها وبين من كان فيها من المرابطين فتنة كبيرة، ونهبوا دورهم وقصورهم»⁽¹⁴⁾ على حدّ تعبير صاحب "الحلل الموشية".

ولم تكشف رواية صاحب "الحلل" عن تفاصيل ما حدث، واكتفت بالإشارة إلى أن السبب فيما جرى لم يكن بداءة من أهل قرطبة وإنما كان ضد الظلم والفساد⁽¹⁵⁾، بينما تقول رواية ابن عذاري: إنه في سنة 514هـ/1122م خرج عامل قرطبة يوم عيد الأضحى لحضور استعراضات عسكرية استعملت فيها المجانيق والآلات الحربية، «وقد أقبل السواد الأعظم الذي لا يُطاق بمجمع حضور العيد، وحضور كل ذاعروناعق من كل حدب وشاهق؛ فكثرت الدفاع والتزاحم، ودهم الحشم؛ فكثرت بينهم التزاحم، وأقبل لفيض الريض الغربي؛ فالتقى بأسهم على القصر، ورام صاحبه المدافعة بحشمه وخدمه فغلبوه، واقتحم القصر عليه، [وانتهب] جميع ما فيه، وخرج هو فارًا بنفسه، وركب القاضي أبو الوليد بن رشد في أعلام الفقهاء؛ فردع العامة، وقمع السفلة»⁽¹⁶⁾.

ومن خلال تتبع السياقات التي ورد فيها حادث الفتنة، في الأوراق المخطوطة، يبدو أن ما حدث بقرطبة لا ينبغي عزله عن الخلل الذي أصاب قيادة الجهاد الحربي بالأندلس، حيث استشهد في معركة قُتُنْدَة سنة 514هـ/1120م «من المطوّعة نحو من عشرين ألفاً»⁽¹⁷⁾، واحتشد نحو اثني عشر ألف فارس من طوائف الروم في قلعة أيوب سنة 514هـ/1120م⁽¹⁸⁾ استعداداً للمواجهة مع المسلمين، والغالب على الظن أن التزاحم الذي وقع بين أهل قرطبة أثناء الاستعراضات العسكرية لم يكن إلا بعد الهزيمة لأن معركة قُتُنْدَة وقعت في شهر ربيع الأول، وحدثت الدفاع كان يوم عيد الأضحى من السنة نفسها، ولا يُستبعد أن يكون لرد فعل والي المدينة أبي يحيى بن رواد دور في

تأجيج الصراع بدل احتوائه، مما تطلب قدوم أمير المسلمين بنفسه ل تهدئة الأوضاع، ولعل ما يدعم هذا الرأي أنه في السنة نفسها وقع بغرناطة حادث مشابه عند معاينة التجارب العسكرية، حيث قتل أجداي بن سير اللمتوني صيباً خطأ، وحدثت ضجة بسبب ذلك، إلا أن أجداي استرضى أهل الصبي بديعة، وتم احتواء الوضع، وعاد الهدوء إلى المدينة⁽¹⁹⁾.

وعليه، ف"الفتنة القرطبية" جاءت في سياق الهزائم المتتالية التي تعرضت لها الجيوش المرابطية سواء في معركة قُتْنَدَة سنة 514هـ/1120م تحت قيادة الأمير إبراهيم بن يوسف بن تاشفين أو قبلها، حيث سقطت سرقسطة في يد النصراني قبل حوالي سنتين من تاريخ المعركة المذكورة، ولم يستطع القائد العام لجيوش المرابطين في الأندلس⁽²⁰⁾، وهو الأمير أبو الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين إنقاذها على الرغم من استنجد أهلها به⁽²¹⁾، والنصوص المقتطفة من الأوراق المخطوطة المتبورة تُقدم تفاصيل أوفى عن حوادث ما بين سنتي 512 و514هـ/1118 و1121م.

2- النصوص المقتطفة من الأوراق المخطوطة: يبدو أن الأوراق التي عثر عليها عنان في خروم مكتبة جامع القرويين بفاس، لم يكن استعمالها مُتاحاً بالشكل المطلوب بسبب الخروم التي بها، والمقتطفات التي نشرها في كتابه "تاريخ الإسلام في الأندلس" سبع فقرات، وهي:

الفقرة الأولى- رسالة المتوكل على الله عمر بن الأفطس إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين: «لما كان نور الهدى أيدك الله دليلك وسبيل الخير سبيلك، ووضحت في الصّلاح معالمك، ووقفت على الجهاد عزائمك، وصحّ العلم بأنك لدعوة الإسلام أعزُّ ناصر، وعلى غزو الشرك أقدر قادر، وجب أن تُستدعى لما أعضل من الداء، وتُستغاث لما أحاط بالجزيرة من البلاء؛ فقد كانت طوائف العدو المطيف بأنحاءها «أهلكهم الله»⁽²²⁾، عند إفراط تسلُّطها واعتدائها⁽²³⁾، وشدة كليها واستشراءها تُلاطفُ بالاحتيال، وتُستنزَلُ بالأموال، ويخرج لها عن كل ذخيرة، وتسترضى بكل خطيرة⁽²⁴⁾، ولم يزل دأبها التشطط والعناد، ودأبنا الإذعان والانقياد، حتى نفذ⁽²⁵⁾ الطارف والتلاد، وأتى على الظاهر والباطن النفاذ، وأيقنوا

وتجنب تلك الجماعة، ورام تخذيل الأذفونش؛ فأرغبه في المال فأبى وأقسم ألا يبرح عنها حتى يدخلها»⁽²⁷⁾.

الفقرة الثالثة- حول حوادث سنة 512هـ/1118م: «إنه في سنة اثنتي عشرة وخمسمائة ولّى أمير المسلمين علي بن يوسف أخاه الأمير أبا الطاهر تميماً إمرة بلاد شرقي الأندلس لما ضيق العدو عليها، وأعمل عزمه وحزمه إليها، وذلك أنه لما رأى «أذفونش» ضعف سرقسطة، وتفرق الجيش عنها بعد موت الأمير أبي بكر بن إبراهيم، جدّ في الحشد إليها واستجاش للإفرنجية؛ فأقبلت في عدد لا تحصى، أكثرهم جند ورماة؛ فاحتل سرقسطة مستهل صفر من هذه السنة (512هـ)؛ فخرج المسلمون إليهم، ونشبت الحرب بينهم؛ فحمل الروم عليهم؛ فانهزم الناس، وهم في أثرهم إلى ريبض الدباغين، إلى القنطرة؛ فازدحموا بها، وقد حصل الروم معهم فيها؛ فبادر المسلمون بإلقاء النار عليها؛ فاحتترقت القنطرة إلى أقصاها، ولولا المناجزة بين الريبض والمدينة لكانت الحالقة، وبات الناس على الأسلحة، وخمسوا أبواب المدينة، واتصل الحصار وتواترت الحرب، وكان أذفونش قد تخلف عن...؛ فلحق بعد نصف شهر، فتعاوض العدو، وقد أمد، وزاد كلبه واشتد، ولنحو الشهر تغلبوا على قصر... بالجعفرية، وهو قبيل ميل من سرقسطة، وكان عبد الله بن مزدلي أوان نزول الروم على سرقسطة بالعسكر على جيان لحماية ذلك الثغر عن عدو طليطلة»⁽²⁸⁾.

الفقرة الرابعة- حول حوادث سنة 512هـ/1118م أيضاً: «لما توالى تضيق العدو على سرقسطة وحصارها وهزيمة أهلها، وتحريق قنطرتها، ونزول العدو على قصرها المعروف بالجعفرية، اتصل الخبر بعبد الله بن مزدلي، فسار الجيش إليها ولحق به مدد من جيش قرطبة؛ فقويت نفوس أهل سرقسطة، ولحق الجيش بطرسونة، وقد شد العدو غارته عليها؛ فجدّ في اتباعه وأدركه غير بعيد؛ فهزم الله العدو، وأظهر على يد عبد الله بن مزدلي عجائب في هذه الغزوة لم يعهد مثلها منذ مدة بعيدة قبلها، ثم احتل بتطيلة، وتلوّم بها، وأقلع الفرنج عن سرقسطة؛ فرأى الأمير عبد الله بعد تلوّمه أن ينهض إليها؛ فتترك الحمولة ومدد قرطبة، وانتخب أنجاد العسكر، وصمم إلى سرقسطة؛ فدخلها في أوائل جمادى

الآخرة، وقد استنشق أهلها ريح الحرب، وفي خلال ذلك اعتل الأمير عبد الله المذكور؛ فتوفي في رجب؛ فكنتم وفاته أياماً، ثم انبث الخبر وعلم به رزمير؛ ففغر على البلد فمه، وألقى عليه زوره، وقد نفدت الأقوات، وبلغ الميقات؛ فدخله بالمعاهدة والأمنة في يوم الأربعاء الثالث من شهر رمضان المعظم من السنة المؤرخة (أعني 512هـ)⁽²⁹⁾.

الفقرة الخامسة- حول حوادث ما بين 512 و514هـ/1118 و1121م: «وفي هذه السنة (أي سنة 512هـ) [عين؟] أمير المسلمين علي بن يوسف أبو يعقوب بن ينتان بن علي مرسية، وفي سنة [ثلاث؟] عشرة وخمس مائة ولّى أمير المسلمين علي بن يوسف غرناطة ابنه الأمير أبا بكر... اتصل به وفاة ابن مزدلي بسرقسطة، [وتقلب الأمر وعليه إلا شخص ابنه أبا بكر؟]؛ فوردها في أواخر ذي القعدة من السنة؛ فلم يستقم له أمرها فعزل عنها، وفي شهر... وابنه شهرين ونصف، وفي سنة أربع عشرة وخمس مائة تحرك [أبولب أو بكر؟] وإبراهيم بن يوسف بن تاشفين والي إشبيلية... أمير المسلمين علي بن يوسف تجهيز العساكر... وجيوش ابن رزمير انتقلت على شر... والرؤساء بالأندلس... والدخول تحت رايته؛ فتحرك معهم ووجد ابن زيادة... والأمير أبو محمد بن... اللمتوني بجيش اغرناطة وأبو يعقوب ينتان بن علي صاحب مرسية... من الأمراء والرؤساء، وكان ابن رزمير على قلعة أيوب [بن صالح؟] اتصل به تحرك... إليه؛ فجال في محتشدة من بلاده؛ فاجتمعت عليه من طوائف الروم نحو اثني عشر ألف فارس من الأنجاد وأبطال جلال ومعه من [الرجال؟] والرماة... وخفي هذا... على الأمراء والرؤساء»⁽³⁰⁾.

الفقرة السادسة- حول حوادث سنة 514هـ/1121م: «نفذ أمر أمير المسلمين إلى البلاد الأندلسية، بإحياء المجانيق والآلات الحربية؛ فلما كمل منه المختص بغرناطة، خرج لمشاهدة التجربة لها والرمي بها أجداي بن سير اللمتوني صاحب الأعنة؛ فتزاحم هناك الجم الغفير؛ فرام الفسحة، وأشار برسيخ كان في يده؛ فأصاب صبيلاً في مقتله فقضى لوقته، وانفض اللفيف، وتخرجت البلدة؛ فاسترضى ولي الدم بدفع الدية؛ فسكنت الثورة، وأمهل الله القاتل ثم أخذه،

ولما كمل ما أنشئ منها بقرطبة، وقد جاء عيد النحر؛ فخرج ثانية عامل البلدة لمشاهدة التجربة، وقد أقبل السواد الأعظم الذي لا يطاق بمجمع حضور العيد، وحضور كل ذاعروناعق من كل حدب وشاهق؛ فكثرت التدافع والتزاحم، ودهم الحشم؛ فكثرت بينهم التزاحم، وأقبل لفييف الريض الغربي؛ فالتقى بأسهم على القصر، ورام صاحبه المدافعة بحشمه وخدمه فغلبوا، واقتحم القصر عليه و[انتهب] جميع ما فيه، وخرج هو فاراً بنفسه، وركب القاضي أبو الوليد بن رشد في أعلام الفقهاء؛ فردع العامة، وقمع السفلة»⁽³¹⁾.

الفقرة السابعة- حول سياسة تاشفين بن علي أهل الأندلس: «وساس (أي تاشفين) أهل الأندلس سياسة طارها ذكره، من الاستقامة واتباع ناموس الشريعة»⁽³²⁾.

إن هذه الفقرات تُؤكد أن كتاب "البيان المغرب" لابن عذاري، وخصوصاً الجزء الخاص بالمرابطين، لم يصل إلينا كاملاً بعد، ولعل ما يؤيد صحة هذا الرأي أنه بالإضافة إلى النصوص المقتطفة من الأوراق المخطوطة، توجد إشارات منشورة من الأوراق المبتورة في كتاب "دولة الإسلام في الأندلس" لمحمد عبد الله عنان.

3- الإشارات المنشورة من الأوراق المبتورة: قبل الحديث عن إشارات عنان إلى الأوراق المخطوطة، يجدر بنا إثارة الانتباه إلى ملاحظتين أساسيتين: الملاحظة الأولى: من خلال تتبعنا لتلك الإشارات، يبدو أنها توجد في الأجزاء الخاصة بالعصرين الثاني والثالث؛ أي عصر دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي وعصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس.

الملاحظة الثانية: إذا كانت أغلب النصوص المقتطفة اهتمت بحوادث ما بين سنتي 512 و514هـ/1118 و1121م؛ فالإطار الزمني للإشارات المنشورة يمتد ما بين سنتي 483 و536هـ/1090 و1142م.

وبخصوص حوادثها فهي كالآتي:

- حوادث سنة 483هـ/1090م: تتعلق بسياسة عبد الله بن بلقين مع يوسف بن تاشفين وألفونسو السادس، وموقف صفيه وأثيبره منها. قال عنان نقلاً عن ابن

عذاري: «إن عبد الله بن بلقين كان أول من شهر الخلاف على يوسف بن تاشفين؛ فنظر في اختيار الآلات وألحق الرماة والرجال، وأعلا الأبراج، وبنى الأسوار، ونصب الرعدات، وملا بيوت السلاح، وجدّ في ضرب السهم، ونقل المال والذخيرة، وخرّج المتاع والآنية إلى قصبة المنكب لكونها في غاية المنعة، وعلى ضفة البحر، وعمد إلى مال كثير، وثياب نفيسة، وتُحف جليلة، وأعلاق دقيقة؛ فوجه بها إلى أدفونش، وكتب إليه مُتطارحا عليه، مستجيرا به، وأعلمه أن البلد بلده وأن فيه قايدته؛ فاهتز لذلك الأدفونش، وقبل المال والهدايا، وأقسم بجميع إيمانه أن يشدّ اليد عليه في ملكه، ولا يتركه لضيم ولا خصيمة، وأن ينهض إليه بنفسه، ويبذل جهده في نصره؛ فقويت نفس حفيد باديس بذلك، وفي ذلك يقول صفيه وأثيره السمسري:

صَانَعُ أَذْفُونَشِ النَّصَارَى فَاَنْظُرْ إِلَى رَأْيِهِ الدَّيْرِ
وَشَادَ بُنْيَانَهُ خِلَافًا لِبَطَاعَةِ اللَّهِ وَالْأَمِيرِ
يَبْنِي عَلَى نَفْسِهِ سِقَاهَا كَأَنَّهُ دُودَةُ الْحَرِيرِ
دَعْوُهُ يَبْنِي فَسَوْفَ يَدْرِي إِذَا أَتَتْ قُدْرَةُ الْقَدِيرِ⁽³³⁾

- حوادث سنة 486هـ/1093م: لما دخل جمادى الأولى عدت الأقوات، وهلك الناس، وتوالى اليبس، واستحكم الوباء، وابن هود يُخاطب بالتسويق والمطل؛ فاجتمع أهل بلنسية إلى الفقيه أبي الوليد الوقيشي في التكلم لابن جحاف⁽³⁴⁾.

- حوادث سنة 488هـ/1095م: وفاة المعتمد بن عباد في شهر ذي الحجة من السنة المذكورة في سجنه بأغمات بعد اعتقال دام زهاء أربعة أعوام⁽³⁵⁾، ولجوء المنصور بن المتوكل على الله بن الأفطس إلى حماية ملك قشتالة، واعتناقه النصرانية⁽³⁶⁾.

- حوادث سنة 489هـ/1096م: قاد الفونسو السادس حملة على قرطبة؛ «فلما علم أن المرابطين هناك على أهبة شديدة لمدافعته، تحوّل عنها وسار إلى قرمونة وهي حصن إشبيلية الشرق؛ فهاجمها واقتحم بسائطها فيما بينها وبين استجة، واستولى على غنائم وفيرة وسبى جموعا عظيمة، ثم اتجه صوب إشبيلية، وعاث في بسائطها؛ فامتنع أهل إشبيلية بمدينتهم، ولم يخرجوا إلى قتاله حسبما كان

يتوقع؛ فلما يئس من الاشتباك مع المسلمين، ساروا في قواته وغنائه صوب بطليوس، ثم جاز إلى أراضي قشتالة عائداً إلى قواعده»⁽³⁷⁾، ولما عاين أهل وشقة هزيمة المسلمين، يئسوا من النصر والإنقاذ، ولم تمض على ذلك ثلاثة أيام حتى حصلوا على الأمان، وسلمت وشقة للنصارى بعد حصار دام ثلاثين شهراً، وفي الحال صير مسجدها الجامع كنيسة، وأصبحت عاصمة لمملكة أراجون⁽³⁸⁾.

- حوادث سنة 490هـ/1097م: حصار سرقسطة: على أثر سقوط مدينة وشقة⁽³⁹⁾، واندلاع ثورة عبد الجبار بن المعتمد، وهي الثورة التي اتخذت ذريعة للتنكيل بأبيه وتصفيده في سجنه بأغمات؛ «وذلك أن عبد الجبار [عبد الجبار بن المعتمد بن عباد] امتنع بحصن أركش الواقعة جنوبي إشبيلية وشرق شريس، في جمع كبير من أصحابه، وبعث إلى ألفونسو السادس يطلب عونه، وعلم الأمير سير اللمتوني فاتح إشبيلية بذلك؛ فسار إلى أركش، وبعث إلى أمير المسلمين يخطره بالأمر؛ فبعث إليه مدداً من الخيل والرجالة؛ فضحمت الحملة، وأحدقت بالحصن، وضيقت على من فيه، واتصلت الحرب بين الفريقين، وابن عباد يخرج في قواته من أن لأخرويشتيك بالمرابطين في معارك دامية، وأصحابه يتساقطون من حوله تباعاً، وفي ذات يوم أصاب ابن عباد سهم رماه به أحد الرماة المرابطين؛ فاحتمله أصحابه جريحا، وتوفي لأيام قلائل؛ فكتم أصحابه موته، وكان قد مضى على هذه المعارك نحو ستة أشهر، وفني كثير من حامية الحصن، واشتد بها الضيق، وعندئذ حاول القادة الأندلسيون الحصول على الأمان؛ فرفض الأمير سير، واقتحم الحصن أخيراً، وقتل معظم حاميته، واستخرج جثة عبد الجبار من قبرها، واحتز رأسه ورؤوس أصحابه، وحملت إلى مدينة إشبيلية، وعلقت على أسوارها، ووقعت حوادث هذه الحملة في سنة 490هـ (1097م)⁽⁴⁰⁾.

- حوادث سنة 511هـ/1117م: وفاة الأمير أبو بكر بن تافلوت المسوفي، وهو ابن عم أمير المسلمين علي بن يوسف وصهره- زوج أخته- «ولما اتصل نبأ وفاته [وفاة الأمير أبو بكر] بالأمير أبي إسحاق إبراهيم بن يوسف، أخي أمير المسلمين علي بن

يوسف، وهو يومئذ والي مرسية، بادر بالسير إلى سرقسطة فنظر في شؤونها، وضبط أحوالها، ولما اطمأن إلى توطيد أمورها عاد إلى مقر ولايته»⁽⁴¹⁾.

- حوادث سنة 512هـ/1118م: كان حصار العدو لسرقسطة في مستهل شهر صفر، وقد بلغ عدد الفرنج خمسين ألف فارس⁽⁴²⁾، وتم تسليم المدينة يوم الأربعاء الثالث من شهر رمضان من السنة المذكورة⁽⁴³⁾، ويبدو أن تعيين أبو يعقوب بن ينتان بن علي بن يوسف واليا على مرسية والأمير أبو بكر بن علي واليا على غرناطة وإبراهيم بن يوسف بن تاشفين واليا على إشبيلية كان ما بين 512 و514هـ/1118 و1121م⁽⁴⁴⁾.

- حوادث سنة 514هـ/1120م: أعلن محمد بن تومرت دعوته بمراكش؛ «ففي ذات يوم جمعة من هذه السنة [أي سنة 514هـ/1120م] دخل إلى المسجد الجامع [بمراكش] رجل صغير القد، متواضع الهيئة، وجلس على مقربة من المحراب بإزاء الموضع المخصص لجلوس أمير المسلمين؛ فلما اعترض على ذلك بعض سدنة الجامع تلا الآية ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [سورة الجن: 18]، ولما حضر أمير المسلمين علي بن يوسف، نهض سائر الحضور إلا ذلك الرجل؛ فلما انتهت الصلاة بادر الرجل بالسلام على علي، وقال له فيما قال: "غير المنكر في بلدك؛ فأنت المسئول [المسؤول] عن رعيتك" وبكى؛ فلم يجبه أمير المسلمين بشيء، ولما عاد إلى القصر سأل عنه؛ ف قيل له إنه قريب العهد بالوصول، وهو يؤلف الناس ويقول لهم: إن السنة قد ذهبت؛ فأمر علي بن يوسف وزيره عمر بن ينتان أن يكشف عن أمره ومقصده؛ فإن كانت له حاجة ينظر في قضائها؛ فقال الرجل: ليس لي حاجة، وما قصدي إلا تغيير المنكرات»⁽⁴⁵⁾، وعلى إثر اندلاع الثورة بقرطبة، واقتحام العامة قصر عامل المدينة، وفراره بنفسه⁽⁴⁶⁾، استدعى أمير المسلمين علي بن يوسف القاضي ابن رشد وفقهاء المدينة، «وجرت بينهم أحاديث طويلة في أمر الثورة والانتزاع على الرياسة، واقتحام قصر الوالي وانتهابه، وذكر أعيان قرطبة أمير المسلمين بوصية أبيه في أن يقبل من أحسن من أهل قرطبة، وأن يتجاوز عن أساء منهم، وكان محمد بن داود قاضي إشبيلية في ركاب أمير المسلمين؛ فجعل يعظم

الأمر، ويبالغ في تصوير شناعته، ويقول: إنه اجتراء وعصيان وضلال، ودافع القاضي ابن رشد من جهة أخرى عن موقف أهل المدينة، ويّين أنهم لم يشقّوا عصا ولا نبذوا طاعة، وأنه كان من واجب الوالي أن يعاقب المذنب من عبده؛ فقال أمير المسلمين: فتمكنوا منهم؛ فقال ابن رشد: ليس لنا قدرة على حصرهم، وإنما يحصرهم صاحب الأمر، ثم بعد ذلك يأمر الصفح عنهم، وانتهت المفاوضات بالاتفاق على أن يقوم أهل قرطبة بالتعويض عما نهب من المرابطين، وارتضى أمير المسلمين هذا الاتفاق، ولكنه غضب لموقف ابن رشد وإيضاحاته؛ فصرفه عن القضاء، وولى مكانه أبا القاسم بن حمّدين، وأمر كذلك بصرف الأمير عبد الله ابن تينغمر عن غرناطة، وأسند نظر غرناطة إلى أخيه الأمير أبي الطاهر تميم، وكان يومئذ بفاس؛ فاستحثه إلى الحضور، ولبث تميم والياً على غرناطة مدى عامين، ثم عين بعد ذلك والياً لإشبيلية مكان الأمير أبي بكر بن علي بن يوسف؛ فلبث والياً حتى وفاته في سنة 520هـ⁽⁴⁷⁾.

- حوادث سنة 515هـ/1121م: ظهور دعوة ابن تومرت، وتزامن ذلك مع ووقوع الفتنة في قرطبة، ومما ذكر في هذا الصدد أن قاضي مراكش مالك بن وهيب بيّن لأمير المسلمين علي بن يوسف «خطورة هذا الرجل [يعني ابن تومرت]، وخطورة دعوته وتعاليمه، وقال له: إن هذا رجل لا يبغى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكنه يبغى تضليل العامة، وإثارة الفتنة، والوصول إلى السلطان، وأشار عليه بقتله، وأشار البعض الآخر على أمير المسلمين، باعتقال الرجل وسجنه، وعبر عن ذلك أحدهم بقوله للأمير: "ألقه في الكبول لئلا يسمعك الطبول"، وخالفهم في ذلك الوزير ينتان بن عمر، وقال لعلي بن يوسف: إن هذا وهن في حق الملك، ونوه بضعف الرجل وضآلة شأنه؛ فأمر علي بن يوسف وزيره أن يعتقله لديه أياماً حتى يرى فيه رأيه، ولم تمض أيام على ذلك حتى جاءت الأنباء بوقوع الفتنة في قرطبة، وأخذ علي بن يوسف في التأهب للعبور إلى الأندلس؛ فطلب إلى وزيره أن يأتيه بابن تومرت، وحضر بين يديه، وقال له علي: بلغني أنك ما صنعت ببجاية وغيرها؛ فتورع الناس عن قتلك؛ فعرفني بحقيقة غرضك؛ فقال ابن تومرت: غرضي تغيير المنكر، ورفع المغارم، والآتولي من

قبيلتك أحد، وأن تركوا اللثام لأنه من شأن النساء، ولا تجوز به الصلاة؛ فزجره أمير المسلمين، وأمر بإخراجه من مراكش، وكان ذلك في أوائل سنة 515هـ»، «ولما حلّ ابن تومرت بأغمات استمر فيها على طريقته من مطاردة المنكر والجملة على المرابطين، واتخذ لصلاته ودعايته مسجدا خارج أغمات؛ فأمر صاحب المدينة بإخراجه وإبعاده»⁽⁴⁸⁾.

- حوادث سنة 536هـ/1142م: مات كثير من المرابطين على مقربة من جبل عفرا ناحية تازا، حيث «دخل الشتاء بقره، وكان شتاء قاسيا توالى فيه الرياح العاصفة والأمطار الغزيرة بضعة أسابيع؛ فأغرقت السهول واكتسحت الوديان والقرى، وقاسى منها العسكران أيما عناء وشدة، وكان وقعها على المرابطين في السهل أشد وأنكى؛ حيث تساقطت الخيام، وعامت أوتادها لرخاوة الأرض، وغرقت الدور، ومات كثير من المرابطين بردا وجوعا، وعزّت الأقوات والوقود في المعسكرين، وبلغ سعر الشعير وفقا لقول البيذق في معسكر الوجدان "ثلاثة دنانير للسطل، وبلغ الحطب عند تاشفين دينارًا للطل"، ولم ترفع هذه الغمة إلا حينما دخلت طوالع الربيع، وكان ذلك حسبا يحدثنا البيذق سنة ست وثلثين وخمسمائة (أوائل سنة 1142م)»⁽⁴⁹⁾.

ومن الأخبار التي أفادنا بها ابن عذاري أن علي بن يوسف كان يؤثر الجند النصارى، «ويمكن لهم، وكانوا في ظل هذه الرعاية الخاصة يتعالون على المسلمين، ويفرضون عليهم المغارم، ولما اضطرت الأمور في أواخر عهد علي، أهمل أمر الجند المسلمين، وعجز الأمير عن الإنفاق عليهم، حتى كان أكثرهم يكرون دوابهم»⁽⁵⁰⁾.

خاتمة: من خلال ما سبق نستطيع التأكيد أن كتاب "البيان المغرب" لابن عذاري المراكشي لم يصل إلينا كاملا بعد، وخصوصا الجزء الخاص بالمرابطين، وبما أن محمد عبد الله عنان لم يُدرج الأوراق التي عثر عليها في ملحق كتابه: "دولة الإسلام في الأندلس" لأسباب لم يكشف عنها؛ فمن المحتمل أنه كان يريد تحقيقه مرة أخرى، وبما أن النسخ المطبوعة المحققة لكتاب "البيان المغرب" لم تستفد منها، نظن أن جزء المرابطين في حاجة إلى إعادة التحقيق من جديد

تدارك النقص والاضطراب الذي يعتري النسخ المحققة، ولعل ما يؤيد صحة هذا الرأي ما جاء في هذا المقال من فقرات مقتطفة من الأوراق المخطوطة التي عثر عليها محمد عنان في مكتبة جامع القرويين بفاس، والإشارات المنثورة من الأوراق المبتورة التي تُغطي حوادث ما بين سنتي 483 و536هـ/1090 و1142م.

الملحق رقم1: صفحة من الأوراق المخطوطة التي عثر عليها عنان بخزانة جامع القرويين بفاس



المرجع: عنان، العصر الثالث - عصر المرابطين (القسم الأول)، م س، ص: 19.

الملحق رقم 2: جدول يتضمن إشارات محمد عبد الله عنان إلى الأوراق المخطوطة التي عثر عليها
 بـخـزانة جامع القرويين بفاس في كتابه: "دولة الإسلام في الأندلس"

الصفحات	الإشارات	الرقم
عنان، العصر الثاني- دول الطوائف، ص 92- 93.	حوادث سنة 474هـ/1081م: رسالة المتوكل على الله عمر بن المقتدر بن الأفطس إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، التي كتبها ذو الوزارتين أبو عبد الله محمد بن أيمن.	01
عنان، العصر الثاني- دول الطوائف، ص 340- 341.	حوادث سنة 483هـ/1090م: سياسة عبد الله بن بلقين مع يوسف بن تاشفين وأدفونش (الفونسو السادس)، وموقف صفيه وأثيره السمسرى منها.	02
عنان، العصر الثاني- دول الطوائف، ص 243.	حوادث سنة 486هـ/1093م: لما دخل جمادى الأولى عدمت الأقوات، وهلك الناس، وتوالى اليبس، واستحكم الوباء، وابن هود يُخاطب بالتسويق والمطل، فاجتمع أهل بلنسية إلى الفقيه أبي الوليد الوقشي في التكلم لابن جحاف.	03
عنان، العصر الثاني- دول الطوائف، ص 361.	حوادث سنة 488هـ/1095م: وفاة المعتمد في شهر ذي الحجة، في سجنه بأغمات بعد اعتقال دام زهاء أربعة أعوام.	03
عنان، العصر الثاني- دول الطوائف، ص 369.	حوادث سنة 488هـ/1095م: لجوء المنصور بن المتوكل على الله بن الأفطس إلى حماية ملك قشتالة، واعتناقه النصرانية.	04
عنان، العصر الثاني- دول الطوائف، ص 371.	حوادث سنة 489هـ/1096م: حملة ضخمة للفونسو السادس على قرطبة وإشبيلية وبطليوس.	05
عنان، العصر الثاني- دول الطوائف، ص 289.	حوادث سنة 489هـ/1096م: لما عاين أهل وشقة هزيمة المسلمين، ينسوا من النصر، والإنقاذ، ولم تمض على ذلك ثلاثة أيام حتى حصلوا على الأمان، وسلمت وشقة للنصارى بعد حصار دام ثلاثين شهرا، وفي الحال صير مسجدها الجامع كنييسة، وأصبحت عاصمة لمملكة أراجون.	06
عنان، العصر الثاني- دول الطوائف، ص 290- 291.	حوادث سنة 490هـ/1097م: حصار سرقسطة على أثر سقوط مدينة وشقة.	08
عنان، العصر الثاني-	حوادث سنة 490هـ/1097م: ثورة عبد الجبار بن المعتمد	09

361-362.	دول الطوائف، ص	وهي الثورة التي اتخذت ذريعة للتنكيل بأبيه وتصفيده في سجنه بأغمت، وقدم ابن عذاري تفاصيل عنها.
10	عنان، العصر الثالث - عصر المرابطين (القسم الأول)، ص 89.	حوادث سنة 511هـ/1117م: وفاة الأمير أبو بكر بن تافلوت المسوفي. وهو ابن عم أمير المسلمين علي بن يوسف وصهره- زوج أخته ⁽⁵¹⁾ .
11	عنان، العصر الثالث - عصر المرابطين (القسم الأول)، ص 93-94.	حوادث سنة 512هـ/1118م: ولّى أمير المسلمين علي بن يوسف أخاه الأمير أبا الطاهر تميماً إمرة بلاد شرقي الأندلس لما ضيق العدو عليها، وحاصر سرقسطة.
12	عنان، العصر الثالث - عصر المرابطين (القسم الأول)، ص 92.	حوادث سنة 512هـ/1118م: حصار سرقسطة في مستهل شهر صفر، الفرنج، وقد بلغ عدد الفرنج خمسين ألف فارس.
13	عنان، العصر الثالث - عصر المرابطين (القسم الأول)، ص 101.	حوادث سنة 512هـ/1118م: تاريخ تسليم سرقسطة يوم الأربعاء الثالث من شهر رمضان.
14	عنان، العصر الثالث - عصر المرابطين (القسم الأول)، ص 19.	حوادث ما بين 512 و514هـ/1118 و1121م: تعيين أبو يعقوب بن ينتان بن علي بن يوسف واليا على مرسية والأمير أبو بكر بن علي واليا على غرناطة وإبراهيم بن يوسف بن تاشفين واليا على إشبيلية.
15	عنان، العصر الثالث - عصر المرابطين (القسم الأول)، ص 157-158-169.	حوادث سنة 514هـ/1120م: وقعت بمراكش أول بادرة مؤذنة ببداية الثورة التي اضطلع بها محمد بن تومرت.
16	عنان، العصر الثالث - عصر المرابطين (القسم الأول)، ص 82.	حوادث سنة 514هـ/1121م: اندلاع الثورة بغرناطة وقرطبة، واقتحام العامة قصر عامل قرطبة، وفراره بنفسه.
17	عنان، العصر الثالث - عصر المرابطين (القسم الأول)، ص 84-85.	حوادث سنة 514هـ/1121م: استدعاء أمير المسلمين علي بن يوسف القاضي ابن رشد على إثر اندلاع الثورة بقرطبة.
18	عنان، العصر الثالث - عصر المرابطين (القسم الأول)، ص 104.	حوادث سنة 514هـ/1121م: كانت موقعة كُتندة التي استشهد فيها عدد من الفقهاء والعلماء، وفي مقدمتهم أبو علي الصديقي، وأبو عبد الله بن الفراء قاضي ألمرية، وارتد الأمير إبراهيم بن يوسف في فلول الجيش المرابطي إلى

بلنسية.		
19	حوادث سنة 515هـ/1121م: ظهور دعوة ابن تومرت، ووقوع الفتنة في قرطبة.	عنان، العصر الثالث - عصر المرابطين (القسم الأول)، ص 171-172.
20	حوادث سنة 536هـ/1142م: مات كثير من المرابطين على مقربة من جبل عفرا من ناحية تازا.	عنان، العصر الثالث - عصر المرابطين (القسم الأول)، ص 236-237.
21	حوادث سنة 536هـ/1142م: كان علي بن يوسف يؤثر الجند النصراري، وفي أواخر عهده أهمل أمر الجند المسلمين.	عنان، العصر الثالث - عصر المرابطين (القسم الأول)، ص 242.
22	سياسة تاشفين بن علي أهل الأندلس	عنان، عصر المرابطين، ص 145.

الهوامش:

- (1)- ابن عذاري المراكشي غير ابن عذاري البلنسي الأندلسي (ت. 695هـ/1295م). انظر: المراكشي (العباس بن إبراهيم السملالي)، الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، راجعه عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ط 2، 1419هـ/1998م، ج 4، ص 284-285. أنجيل جنثال بالنتيا، تاريخ الفكر الأندلسي، نقله عن الإسبانية حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1955م، ص 249-250. كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، نقله إلى العربية عبد الحلیم النجار، دار المعارف، ط 5، 1983م، ج 6، ص 100. عبد الواحد ذنون طه، ابن عذاري المراكشي: شيخ مؤرخي المغرب العربي، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2004م.
- (2)- عز الدين أحمد موسى، النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، دار الشروق، بيروت - القاهرة، ط 1، 1983، ص 19.
- (3)- عبد الواحد ذنون طه، "موارد تاريخ ابن عذاري المراكشي عن شمال إفريقيا من الفتح إلى بداية عهد المرابطين"، مجلة المجمع العلمي العراقي، مج 36، ربيع الأول 1406هـ/1985م، ج 4، صص 201-262، ص 201.
- (4)- بشار عواد معروف ومحمود بشار عواد، مقدمة تحقيق كتاب: البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب لابن عذاري، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط 1، 1434هـ - 2013م، ج 1 ص 5.
- (5)- ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، الجزء الرابع (قسم المرابطين)، تحقيق ومراجعة إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت- لبنان، ط 3، 1983، هامش رقم 1، ص 30.
- (6)- إبراهيم القادري بوتشيش، أثر الإقطاع في تاريخ الأندلس السياسي: من منتصف القرن الثالث الهجري حتى ظهور الخلافة (250هـ - 316هـ)، مطابع منشورات عكاظ، الرباط، 1992م، ص 22.
- (7)- بشار عواد معروف ومحمود بشار عواد، مقدمة تحقيق كتاب: البيان المغرب، م س، ج 1، ص: 5. نفسه، ج 3، صص 24-26.
- (8)- لم نستطع التأكد من وجود الأوراق التي عثر عليها عنان بخزانة القرويين بفاس، لأن خروم الخزانة لم يتم إعدادها بعد حتى يُستفاد منها بالشكل المطلوب.
- (9)- محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس: العصر الثالث - عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس (القسم الأول)، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 2، 1411هـ/1990م، ص 13.
- (10)- راجع: ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط: نسان جديان، تحقيق أحمد مختار العبادي، معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، 1971م، ص 118، والحميري حيث يقول: «وأخذ النصراري سرقسطة من أيدي المسلمين سنة

- اثنتين وخمسمائة بعد أن حاصروها تسعة أشهر، صلحا، خرج إليها الإفريج في خمسين ألف راكب». الجميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان- بيروت، ط 2، 1984م، ص317.
- (11)- ابن أبي زرع، الأئيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972م، ص162، 163.
- (12)- عنان، دولة الإسلام في الأندلس: عصر المرابطين، المرجع السابق، صص93 - 95. نقلا عن الأوراق المخطوطة التي عثر عليها عنان في مكتبة جامع القرويين.
- (13)- يشير ابن الخطيب إلى أن عبد الملك بن أحمد المستعين بن هود تسبب في ضياع سرقسطة نهائيا من أيدي المسلمين بانحيازهم إلى جانب ملك قشتالة. راجع: ابن الخطيب، أعمال الأعلام فيمن بوقع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من الكلام، تحقيق سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2003م، ج 2، ص173.
- (14)- ابن سماك العاملي، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق عبد القادر بوبايا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2010م، ص151.
- (15)- الحلل الموشية، المصدر السابق، ص151 - 152.
- (16)- عنان، العصر الثالث - عصر المرابطين (القسم الأول)، المرجع السابق، ص: 82. نقلا عن الأوراق المخطوطة المشار إليها سابقا، ولا يفوتنا أن نشير في هذا الصدد إلى أن القطعة التي نشرها هويسبي ميراندا وتم اعتمادها في تحقيق كتاب "البيان المغرب": سواء في النسخة المطبوعة بتحقيق إحسان عباس أو في تلك التي حققها بشار عواد ونشرها سنة 2013م، لا تتضمن هذا النص، والفقرة الواردة في شأن ما حدث بقرطبة لا تُقدم صورة واضحة بسبب الاضطراب الذي في نصها. راجع: ابن عذاري، البيان المغرب، تحقيق إحسان عباس، المصدر السابق، ج 4، ص: 66. نفسه، البيان، تحقيق بشار عواد، المصدر السابق، مج 3، ص: 54. وانظر أيضا: AMBROSIO (Huici Miranda), (1961): «Un fragmento inédito de Ibn °Idârî sobre los Almoravides», Hespérís – Tamuda, vol. II, Fasc. 1, Rabat, pp: 43 - 112, p: 81.
- (17)- ابن الأبار، المعجم في أصحاب القاضي الصدفي، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني، القاهرة- بيروت، ط1، 1989م، ص17/ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق كولان وبروفنسال، دار الثقافة، بيروت- لبنان، ط3، 1983م، ج 1 ص308.
- (18)- انظر: النصوص المتقطعة من الأوراق المخطوطة (حوادث ما بين 512 و514هـ/1118 و1121م) في هذا المقال.
- (19)- عنان، العصر الثالث - عصر المرابطين (القسم الأول)، المرجع السابق، ص82. نقلا عن الأوراق المخطوطة.
- (20)- ابن عذاري، البيان، تحقيق إحسان عباس، م س، ج 4، ص49 - 50.
- (21)- ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، تحقيق عبد السلام الهراس، دار الفكر، بيروت- لبنان، 1995م، ج 3، ص184.
- (22)- الزيادة من "البيان المغرب" (الأوراق المخطوطة). عنان، دولة الإسلام في الأندلس: العصر الثاني- دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 4، 1417هـ/1997م، هامش رقم 2، ص92.
- (23)- في "البيان المغرب: «واعترازها». عنان، دولة الإسلام في الأندلس: العصر الثاني- دول الطوائف، هامش رقم 3، ص92.
- (24)- في "البيان المغرب: «نفسية». عنان، العصر الثاني- دول الطوائف، المرجع السابق، هامش رقم 4، ص: 92.
- (25)- في "البيان المغرب: «استصفي». عنان، العصر الثاني- دول الطوائف، المرجع السابق، هامش رقم 5، ص: 92.
- (26)- عنان، العصر الثاني- دول الطوائف، المرجع السابق، ص92- 93. نقلا عن الأوراق المخطوطة.
- (27)- عنان، العصر الثاني- دول الطوائف، المرجع السابق، ص290- 291. نقلا عن الأوراق المخطوطة.
- (28)- عنان، دولة الإسلام في الأندلس: العصر الثالث - عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس (القسم الأول)، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 2، 1990م، ص93.
- (29)- عنان، دولة الإسلام في الأندلس- عصر المرابطين، المرجع السابق، ص93- 94. وقد وردت هذه الفقرة في الصفحة المصورة من المخطوطة تحت عنوان: "ذكر وفاة عبد الله بن مزلي وتغلب العدو على سرقسطة".
- (30)- هذه الفقرة حاولنا استخراجها من الصفحة المصورة من المخطوطة المشار إليها سابقا.
- (31)- عنان، دولة الإسلام في الأندلس- عصر المرابطين، المرجع السابق، ص82.

- (32)- ابن عذاري، البيان المغرب، تحقيق إحسان عباس، المصدر السابق، ج 4، ص 79. عنان، العصر الثالث - عصر المرابطين (القسم الأول)، المرجع السابق، ص 145.
- (33)- عنان، العصر الثاني- دول الطوائف، المرجع السابق، ص 340-341. نقلا عن الأوراق المخطوطة.
- (34)- عنان، العصر الثاني- دول الطوائف، المرجع السابق، ص: 243. نقلا عن الأوراق المخطوطة. وهذا الحادث ذكره ابن عذاري في موضع آخر من كتابه "البيان". راجع: ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة كولان وبروفنسال، دار الثقافة، بيروت- لبنان، ط 3، 1983م، ج 3، ص 305-306.
- (35)- عنان، العصر الثاني- دول الطوائف، المرجع السابق، ص 361. نقلا عن الأوراق المخطوطة من "البيان المغرب" المشار إليها سابقا. وذكر ابن الأبار أن وفاته كانت في ربيع الأول سنة 488هـ/1095م. انظر: ابن الأبار، الخلة السيرة، حققه وعلق حواشيه حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، ط 2، 1985، ج 2، ص 55.
- (36)- عنان، العصر الثاني- دول الطوائف، المرجع السابق، ص 369. نقلا عن الأوراق المخطوطة من "البيان المغرب" المشار إليها سابقا. وقد ورد الحادث أيضا في "أعمال الأعلام". انظر: ابن الخطيب، أعمال الأعلام، المصدر السابق، ج 2، ص 182-183.
- (37)- عنان، العصر الثاني- دول الطوائف، المرجع السابق، ص 371. نقلا عن الأوراق المخطوطة.
- (38)- المرجع نفسه، ص 489. نقلا عن الأوراق المخطوطة.
- (39)- المرجع نفسه، ص 290-291. نقلا عن الأوراق المخطوطة.
- (40)- المرجع نفسه، ص 361-362. نقلا عن الأوراق المخطوطة.
- (41)- انظر: عصر المرابطين، المرجع السابق، ص 89. نقلا عن الأوراق المخطوطة.
- (42)- المرجع نفسه، ص 92-94. نقلا عن الأوراق المخطوطة. وقد ورد الحادث أيضا في "روض القرطاس". راجع: ابن أبي زرع، روض القرطاس، المصدر السابق، ص 163.
- (43)- المرجع نفسه، ص 101. نقلا عن الأوراق المخطوطة. --- (44)- المرجع نفسه، ص 19. نقلا عن الأوراق المخطوطة.
- (45)- المرجع نفسه، ص 158 و: 170. نقلا عن الأوراق المخطوطة. (46)- المرجع نفسه، ص 82. نقلا عن الأوراق المخطوطة.
- (47)- انظر: عصر المرابطين، المرجع السابق، ص 84-85. نقلا عن الأوراق المخطوطة.
- (48)- المرجع نفسه، ص 171-172. نقلا عن الأوراق المخطوطة.
- (49)- المرجع نفسه، ص 236-237. نقلا عن البيدق والأوراق المخطوطة من "البيان المغرب". البيدق، أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحيدين، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1971، ص 53.
- (50)- عنان، العصر الثالث - عصر المرابطين (القسم الأول)، المرجع السابق، ص: 242. نقلا عن البيدق والأوراق المخطوطة.
- (51)- قال عنان نقلا عن ابن عذاري: «ولما اتصل نبأ وفاته [وفاة الأمير أبو بكر] بالأمير أبي اسحاق إبراهيم بن يوسف، أخي أمير المسلمين علي بن يوسف، وهو يومئذ والي مرسية، بادر بالسير إلى سرقسطة فنظر في شؤونها، وضبط أحوالها، ولما اطمأن إلى توطيد أمورها عاد إلى مقر ولايته». عنان، العصر الثالث - عصر المرابطين (القسم الأول)، المرجع السابق، ص 89. نقلا عن الأوراق المخطوطة من "البيان المغرب" المشار إليها سابقا.

علم المواقيت في المشرق والمغرب الإسلاميين (1-9هـ/7-15م)
Timing science in the Islamic orient and western
(1-9H/7-15)

المؤلف المرسل للمقال: مصطفى بن واز- Benouaz Mustapha صص 111-130
الدرجة والعنوان المهني: أستاذ محاضر أ- جامعة طاهري محمد- بشار- الجزائر.
البريد الإلكتروني: mostaphabenouaz@gmail.com

تاريخ استقبال المقال: 2019/10/10 تاريخ المراجعة: 2020/04/01 تاريخ القبول: 2020/04/25

الملخص: يعد علم المواقيت من أهم العلوم الفلكية، إذ من خلاله استطاع المسلمون أن ينظموا حياتهم اليومية في مختلف مجالات الحياة، وقد كان علماء المسلمين أكثر اهتماما بهذا العلم نظرا لارتباطه العضوي بشعائهم من خلال مواقيت زمانية ومكانية؛ فقد استطاعوا- في خضم إدراكهم لخطورة التعامل مع الوقت- صناعة آلات تسهل حسابه، وتحدد اتجاه القبلة؛ فكان ذلك إسهما إيجابيا في تسهيل التعامل مع الزمن. إن تطور هذا العلم عند المسلمين جاء بإيعاز وتشجيع من الحكام ورغبة عارمة من العلماء في تأدية رسالتهم الحضارية.

لقد عرفت الدولة الإسلامية في مختلف فترات ثلثة من هؤلاء العلماء الذين تركوا مؤلفات ضخمة في كل مجالات هذا العلم، الذي أضحت الحاجة إليه أكثر من ضرورة في وقت تسعى الأمم بمختلف مشاربها للاستثمار فيه في خضم طفرة علمية وعالمية كبرى. الكلمات المفتاحية: التوقيت؛ الزمن؛ العلماء؛ الشعائر؛ القبلة؛ الفلك؛ الحساب.

ABSTRACT: Timings science is one of the most important astronomic sciences; as through it the Muslims could organize his daily life in different fields, for that reason, the Muslims were most interested in this science because of its organic link with their rituals through temporal and spatial timings. they could -in the midst of their realization of the gravity of dealing with time-make machines that facilitated its calculation and determined the direction towards the kaaba -kibla.And that was a positive contribution in facilitating the dealing with time.

The development of this science among the Moslems was inspired and encouraged by the rulers and was brought about by the overwhelming desire of scholars to deliver a message of civilisation.

the Islamic state knew-in its various periods- a few scientists who left huge scientific products in all the fields of this science which became more than

- لغة: المواقيت أو الوقت أو اليواقيت من فعل وقت يوقت؛ فالوقت مقدار من الزمن مفروض لأمر ما، وكل شيء قدر له حيناً فقد وقته توقيتاً، والجمع أوقات، والميقات: الوقت، والجمع مواقيت، وقد استعير الوقت للمكان، ومنه مواقيت الحج لمواضع الإحرام، ووقت الله الصلاة توقيتاً ووقتها يوقتها من باب حدد لها وقتاً، ثم قيل لكل شيء محدود موقوت ومؤقت⁽³⁾ مصداقاً لقوله تعالى: "إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا"⁽⁴⁾؛ فالتوقيت والتأقيت: أن يجعل للشيء وقت يختص به، وهو بيان مقدار المدّة، يقال: وقت الشيء يوقته، ووقته يقته إذا بين حدّه، وهو مفعال منه، وأصله موقات؛ فقلبت الواو ياء لكسر الميم، ومنه حديث ابن عباس: "لَمْ يَقْتِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْخَمْرِ حَدًّا"، أي لم يقدر، ولم يحده بعدد مخصوص⁽⁵⁾.

- اصطلاحاً: المواقيت "فرع من فروع علم الفلك نتعرف منه على أزمنة الأيام والليالي وأحوالها وكيفية التوصل إليها، ومنفعته معرفة أوقات العبادات وتوحيّ جهتها، والطوالع والمطالع من أجزاء البروج، والكواكب الثابتة التي منها منازل القمر، ومقادير الظلال والارتفاعات، وانحراف البلدان بعضها عن بعض"⁽⁶⁾؛ فهو عبارة عن قواعد كلية وقوانين عامة يبحث فيها عن النجوم وأفلاكها، ما يسير منها وتحديد مواقعها، وعمّا ينشأ عن ذلك من معرفة فصول السنة، ومعرفة ما مضى وما بقي من أجزاء الليل والنهار، ومعرفة أوقات الصلوات الخمس الاختيارية والضرورية، وتعيين سمت القبلة، ومعرفة حساب الأهلة، وكسوف الشمس وخسوف القمر، والفرق بين الساعة المحلية والضرورية، ومعرفة عدد السنين والحساب⁽⁷⁾، والفرق بين الميقات والوقت: أن الميقات ما قدر لي عمل فيه عمل من الأعمال، والوقت وقت الشيء...، ولهذا قيل مواقيت الحج للمواضع التي قدرت للإحرام⁽⁸⁾.

فكما أخذ قوم مما في آية المواريث من ذكر السهام وأربابها وغير ذلك، واستنبطوا منها من ذكر النصف: "علم الفرائض" والثلث والرابع والسدس والثلث حساب الفرائض، ومسائل العول واستخرجوا منها أحكام الوصايا، كذلك نظر قوم إلى ما في هذا العلم من الآيات الدالة على الحكم الباهرة في الكون؛ فاستخرجوا منه علم المواقيت فأصبح علماً قائماً بذاته، وأصبح له علماء ينتسبون إليه، وكتب تسمى باسمه⁽⁹⁾.

وينقسم علم المواقيت إلى قسمين: مواقيت زمانية ومواقيت مكانية:

أ- المواقيت الزمانية: وهي التي تهتم بتحديد أوائل الشهور القمرية ونهايتها حتى تقام الشعائر بناء على ذلك، كما تهتم بالنظر في الكواكب والبروج من حيث سيرها⁽¹⁰⁾.

ب- المواقيت المكانية: وهي التي تختص بأماكن الإحرام للحج والعمرة؛ فالمسلمون يؤدون الحج انطلاقاً من مواقيت مكانية لا يتعدونها، منها ذو الحليفة والجحفة وقرن المنازل ويللم⁽¹¹⁾.

1-1 أهمية علم المواقيت: تتعلق أهمية علم المواقيت بتأدية فرائض الإسلام من صلاة وصيام وزكاة وحج؛ فاتجاه المسلمين إلى الكعبة لتأدية الصلاة مرتبط بتحديد جهة القبلة⁽¹²⁾، حيث اتفق المسلمون خاصة في بلاد المغرب الإسلامي أن الوجهة الصحيحة لتحديد القبلة هي وقت الزوال، وكنتيجة لذلك بنوا مساجدهم باتجاه الجنوب، استناداً لحديث الرسول صلى الله عليه وسلم: "ما بين المشرق والمغرب قبلة"⁽¹³⁾، مما جعل المحارب فيها مغلوطة الاتجاه، وهو الأمر الذي ينكره المتبعي ولا يشاطرهم الرأي فيه، لأنهم فسروا الحديث بطريقة خاطئة؛ فجاءت غالبية مساجدهم منصوبة إلى خط الزوال بناء على التقليد لا الاجتهاد⁽¹⁴⁾.

لقد نظم المسلمون شعائرهم على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وفق هذا العلم في صورة بسيطة، ارتباطاً بحركة الشمس؛ فالصلاة مثلاً صلاها الرسول صلى الله عليه وسلم في وقتين مختلفين فيما يسمى بالوقت الاختياري والوقت الضروري، وذلك مصداقاً لقوله صلى الله عليه وسلم: "أَمَّنِي جِبْرِيلُ عِنْدَ النَّبْتِ مَرَّتَيْنِ: فَصَلَّى الظُّهْرَ فِي الْأُولَى مِنْهُمَا حِينَ كَانَ الْفَيْءُ مِثْلَ الشَّرَاكِ، ثُمَّ صَلَّى الْعَصْرَ حِينَ كَانَ كُلُّ شَيْءٍ مِثْلَ ظِلِّهِ، ثُمَّ صَلَّى الْمَغْرِبَ حِينَ وَجَبَتِ الشَّمْسُ وَأَفْطَرَ الصَّائِمُ، ثُمَّ صَلَّى الْعِشَاءَ حِينَ غَابَ الشَّفَقُ، ثُمَّ صَلَّى الْفَجْرَ حِينَ بَرَقَ الْفَجْرُ، وَحَرَّمَ الطَّعَامَ عَلَى الصَّائِمِ، وَصَلَّى الْمَرَّةَ الثَّانِيَةَ الظُّهْرَ حِينَ كَانَ ظِلُّ كُلِّ شَيْءٍ مِثْلَهُ لَوْقَتِ الْعَصْرِ بِالْأَمْسِ، ثُمَّ صَلَّى الْعَصْرَ حِينَ كَانَ ظِلُّ كُلِّ شَيْءٍ مِثْلِيهِ، ثُمَّ صَلَّى الْمَغْرِبَ لَوْقَتِهِ الْأُولَى، ثُمَّ صَلَّى الْعِشَاءَ الْآخِرَةَ حِينَ ذَهَبَ ثُلُثُ اللَّيْلِ، ثُمَّ صَلَّى الصُّبْحَ حِينَ أَسْفَرَتِ الْأَرْضُ، ثُمَّ التَّقَتِ إِلَيَّ جِبْرِيلُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، هَذَا وَقْتُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِكَ، وَالْوَقْتُ فِيمَا بَيْنَ هَذَيْنِ الْوَقْتَيْنِ"⁽¹⁵⁾، حيث يبدأ الوقت الأول لصلاة ما في محل مات عند إتيان الشمس إلى ارتفاع معين نظراً لخط الأفق الظاهري⁽¹⁶⁾.

لكن مع مرور الزمن تطور علم المواقيت؛ فأضحى هناك استخدام لآلات حركة الشمس؛ فقد استخدم المسلمون المزولة الشمسية، وعرفت عندهم اسم الرخامة، وذلك لتحديد مواقيت الصلوات الخمس بناء على الظل الشمسي⁽¹⁷⁾.

أما بالنسبة للصيام؛ فقد كان المسلمون وما يزالون يصومون ويفطرون برؤية الهلال مصداقا لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "صُومُوا لِرُؤْيَيْهِ، وَأَفْطِرُوا لِرُؤْيَيْهِ؛ فَإِنْ غَمَّ عَلَيْكُمْ فَعُدُّوا ثَلَاثِينَ ثُمَّ أَفْطِرُوا"⁽¹⁸⁾، ومع ذلك فالمسلمون دوماً يختلفون في صيامهم من قطر إلى قطر، أَخْبَرَنِي كُرَيْبٌ، أَنَّ أُمَّ الْفَضْلِ بِنْتَ الْحَارِثِ بَعَثَتْهُ إِلَى مُعَاوِيَةَ بِالشَّامِ قَالَ: فَقَدِمْتُ الشَّامَ؛ فَقَضَيْتُ حَاجَتَهَا، وَاسْتَهَلَّ عَلَيَّ هِلَالُ رَمَضَانَ وَأَنَا بِالشَّامِ؛ فَرَأَيْتَا الْهِلَالَ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ، ثُمَّ قَدِمْتُ الْمَدِينَةَ فِي آخِرِ الشَّهْرِ؛ فَسَأَلَنِي ابْنُ عَبَّاسٍ، ثُمَّ ذَكَرَ الْهِلَالَ؛ فَقَالَ: مَتَى رَأَيْتُمُ الْهِلَالَ؛ فَقُلْتُ رَأَيْتَاهُ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ؛ فَقَالَ: أَأَنْتَ رَأَيْتَهُ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ؟ فَقُلْتُ: رَأَاهُ النَّاسُ وَصَامُوا، وَصَامَ مُعَاوِيَةُ، قَالَ: لَكِنْ رَأَيْتَاهُ لَيْلَةَ السَّبْتِ؛ فَلَا نَزَالَ نَصُومُ حَتَّى نُكْمَلَ ثَلَاثِينَ يَوْمًا أَوْ نَرَاهُ؛ فَقُلْتُ: أَلَا تَكْتَفِي بِرُؤْيَيْهِ مُعَاوِيَةَ وَصِيَامِهِ، قَالَ: لَا، هَكَذَا أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. حديث ابن عباس حديث حسن صحيح غريب، والعمل على هذا الحديث عند أهل العلم أن لكل أهل بلد رؤيتهم⁽¹⁹⁾.

مما يستنتج من هذا الحديث اختلاف المطالع بين الأقطار، وهو ما يتضح في شرح الحديث، "أنه لا يلزم أهل بلد رؤية غيرهم إلا أن يثبت ذلك عند الإمام الأعظم؛ فيلزم كلهم لأن البلاد في حقه كالبلد الواحد...، وإن تباعدت فوجهان..."⁽²⁰⁾، لكن الاختلاف لا زال مستمرا بين المسلمين رغم التطور العلمي المذهل؛ فهناك دول تصوم بمجرد ولادة الهلال، في حين تشترط دول أخرى الولادة أولا، ثم الرؤية بعد غروب الشمس بمدة زمنية معينة ودرجات ارتفاع، وتبقى الرؤية وعلم الفلك صنوان في تحديد بداية الشهر أو نهايته.

لا زالت المعايير الفلكية لرؤية الهلال محل جدل بين الفقهاء والفلكيين، حيث اختلفوا في تحديد الزمن اللازم مروره من وقت الاقتران إلى وقت التمكن، من رؤية الهلال رؤية بصرية في الجو الصحو تماما وبالبصر الطبيعي والحواس السليمة⁽²¹⁾.

ومختصر القول، ولكي تتحقق الرؤية يرى الفلكيون أن تتحقق ثلاثة شروط:

أولاً: حدوث اقتران القمر بالشمس، معلنا دورة جديدة له حول الأرض، وهي الظاهرة التي تدعى المحاق أو القمر الجديد، وهي لحظة عالمية.

ثانياً: غروب القمر بعد غروب الشمس.

ثالثاً: أن يمكث القمر فوق الأفق الغربي بعد غروب الشمس لمدة لا تقل عن نصف ساعة قبل أن يغيب، بل ويشترط أحياناً ألا تقل المسافة الفاصلة بينها وبين الشمس والقمر عن سبع⁽²²⁾، وهذا الحكم يسري كذلك على الأعياد والحج، لكن الإشكالية القائمة في مدة بقاء الهلال بعد غروب الشمس.

إن معرفة المسلمين بالكواكب ومواقع طلوعها وغروبها كانت تمكن قوافلهم التجارية من أن تشق طريقها في الصحراء وبخاصة في الليل، ويتقنون طريقهم من موقع النجوم⁽²³⁾، وفي القرآن الكريم أكثر من إشارة إلى ذلك منها قوله تعالى: "وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ"⁽²⁴⁾.

2-1 الحساب القمري والحساب الشمسي:

1-2-1 الحساب القمري: قال الله تعالى: "إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ..."⁽²⁵⁾.

تخضع هذه الشهور لحركة القمر، وكلما حدث الاقتران أي اقتران الشمس والقمر مع الأرض على استقامة واحدة؛ فيعتبر ذلك نهاية شهر قمري وبداية آخر، ويتجلى من خلال ظهور المحاق (الهلال في أول أيامه) بعد غروب الشمس لمدة معينة

1-2-1-1 السنة القمرية الكبيسة والبسيطة: لمعرفة حساب السنة القمرية كبيسة كانت أم بسيطة نطلق من المعطيات التالية: كل سنة قمرية هي 354 يوماً و8 ساعات 48 دقيقة أي ما يعادل 30/11.

إذا كان بسط كل سنة > 15 فالسنة بسيطة، وإذا كان بسط كل سنة < 15 فالسنة كبيسة، على أن تضاف أجزاء السنوات التالية إلى 15 حتى تبلغ الثلاثين (30/30) أي يوم واحد الذي يضاف إلى 354 فتصبح 355 يوماً؛ فالسنة إذن كبيسة، والجدول التالي يوضح المسألة.

- التطبيق الحسابي⁽²⁶⁾:

السنة	السنة	السنة	السنة	السنة	السنة
-------	-------	-------	-------	-------	-------

6	5	4	3	2	1
- 11	+ 11	+ 11	- 11	+ 11	11 >
6	14	3	8	11	15
=	25 =	14 =	=	=	إذن
6 > 15	< 15	> 15	3 > 11	22 < 15	سنة بسيطة
إذن	إذن	إذن	إذن	إذن	
سنة بسيطة	سنة كبيسة	سنة بسيطة	سنة بسيطة	سنة كبيسة	
	+ 25			+ 22	
	30 = 5			30 = 8	

إذن فالسنوات الكبيسة هي: 2، 5، 7، 10، 13، 15، 18، 21، 24، 26، 29.

والسنوات الباقية بسيطة.

ولمعرفة السنة إذا ما كانت بسيطة أم كبيسة فنقسم السنة المطلوبة على ثلاثين،

فإذا وافق الباقي أحدهما فالعام كبيس.

مثال: 1414هـ/30 = 47، والباقي 4، إذن العام بسيط.

2-2-1 الحساب الشمسي (الغريغوري): الحساب الغريغوري (الشمسي) نسبة إلى البابا غريغوار 13 (Grégoire XIII) الذي أسس قواعد الحساب بمعونة لجنة من العلماء حيث تم فرضه على العالم المسيحي بداية من 989هـ/1582م)، وقد كانت البداية باعتماد التقويم اليولياني على أساس أن في السنة 365.25 يوماً، ولذلك يكون إصلاح الخطأ في التقويم بإضافة يوم واحد كل أربع سنوات، وبذلك تكون هناك ثلاث سنوات بسيطة تحوي 365 يوماً، وتكون أيام شهر فبراير فيها 28 يوماً، وسنة رابعة كبيسة تحوي 366 يوماً، وتكون أيام شهر فبراير فيها 29 يوماً⁽²⁷⁾.

لكن السنة تتألف في التقويم الغريغوري من 365 يوماً و5 ساعات و49 دقيقة، أي أنها تقل فعلاً 11 دقيقة عن السنة في التقويم اليولياني، ويعني هذا أن يتقدم التقويم اليولياني عن الواقع يوماً واحداً كل 131 سنة تقريباً، ولذلك قرر بابا الفاتيكان غريغوريوس الثالث عشر أن يصلح التقويم، وأصدر مرسومه البابوي بإصلاح التقويم اليولياني⁽²⁸⁾.

والملاحظ أن أسماء الشهور الشمسية بأسماء أبطرة ترتبط بعدة معاني، بل إن شهر سبتمبر (septembre) بمعنى العدد سبعة، وشهر أكتوبر (octobre) بمعنى ثمانية، ونوفمبر (novembre) بمعنى تسعة وديسمبر (décembre) بمعنى عشرة، أي أن رقم هذه الشهور لا يتطابق وموقعها من السنة المسيحية، ناهيك أن بقية الأسماء هي بأسماء أبطرة وآلهة⁽²⁹⁾.

إن الفارق الحسابي بين الحساب القمري والحساب الغريغوري هو 10 أيام في حال ما إذا كانت السنة الهجرية بسيطة، و11 إلى 12 يوماً في حال ما إذا كانت السنة الهجرية كبيسة، ونظراً للفارق الحسابي فإن الشهور القمرية لا تعرف ثباتاً كالشمسية، لنصوم مثلاً رمضان ونحج في مختلف فصول السنة.

2- تطور علم الفلك عند المسلمين: ونظراً لارتباط علم المواقيت بعلم الفلك لا بد من الإشارة إلى أن هذا الأخير يرجع فضل تطوره لعلماء المسلمين المتخصصين الذين استمدوا أولى معارفهم الرياضية ممن سبقهم من الفرس واليونانيين، ثم انكبوا بأنفسهم على البحث والمقارنة والتحقيق مستعينين بالرصد والملاحظة والاستنباط الرياضي⁽³⁰⁾.

لقد سعوا لتطوير هذا العلم الذي تشعب إلى عدة فروع هي: علم الأزياج أو الزيجات وعلم الأرصاد وعلم تسطيح الكرات والآلات الحادثة عنه وعلم الآلات الظلية وعلم المواقيت⁽³¹⁾.

ومما شجعهم على نهج هذا الطريق دعوة القرآن الكريم للتأمل في الكون واستنطاقه؛ فقد ورد في القرآن مفردات فلكية كثيرة؛ لفظ السماء والسموات ورد في القرآن 310 مرة، ولفظ الشمس 33 مرة، ولفظ القمر 27 مرة، ولفظ النجم والنجوم 13 مرة، وبعض سور القرآن تسمت بأسماء فلكية وظواهر كونية مثل سور القمر والنجم الشمس والمعارج والتكوير والانفطار والبروج والانشقاق⁽³²⁾، ووردت تلك الآيات الداعية إلى النظر في السماء والتفكير في بنائها المحكم ومحتوياتها المذهلة، مثل قوله عز وجل: "إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ"⁽³³⁾.

إن أولى الألباب ينظرون إلى الظواهر الكونية نظرة المتأمل الباحث في المسائل العلمية، حيث بدأ المسلمون يلتفتون دراسةً وإسهامًا إلى علم الفلك في العهد العباسي حيث ترجم إبراهيم الفزاري كتاب "السندهند" في عهده، واتخذه العلماء مثلاً يحتذى به، حيث كان رجل هندي قد وفد على الخليفة المنصور، وكان يحمل كتاباً يحتوي على ذلك العلم، وكان ذلك سنة 156هـ/772م؛ فطلب الخليفة ترجمة هذا الكتاب إلى العربية؛ فتولى ذلك محمد بن إبراهيم الفزاري، ووضع منه كتاب "السندهند الكبير"، وبقي العمل به إلى أيام المأمون⁽³⁴⁾، وفي فترة خلافة هذا الأخير صار لهذا العلم منزلة خاصة؛ فأول مرة أوضحت هناك مرصد كبيرة لها مواقعها الثابتة والتميزة، وعدد الفلكيين الذين ارتبطت أسماءهم به، حيث أمر المأمون بقياس دائرة نصف النهار، ووكل هذا العمل إلى فريقين: فريق عمل بصحراء سنجار شمال الفرات، والآخر بصحراء تدمر، وقد وصل كلا الفريقين إلى نتيجة جعلت درجة الطول 56 ميلاً غربياً وثلثي الميل، وهي نتيجة تقرب إلى حد كبير من القياس الصحيح⁽³⁵⁾ (الميل = 1609م)، وكانت المهمة الكبرى لتلك المراصد إيجاد جداول فلكية مبنية على أرصاد حديثة للشمس والقمر فقط⁽³⁶⁾، وهو دليل على احتضان الحكام للعلم وتشجيعهم لأهله، وكان للأندلسيين الدور الكبير في وضع التقاويم كتقويم سعد بن عريب الذي عاصر الحكم المستنصر بالله، وكان للعرب المسلمين آلات متعددة للرصد، كما كانت لهم مراصد علمية في طليطلة وقرطبة⁽³⁷⁾.

وقصد متابعة حركة النجوم والكواكب سعى علماء المسلمين لإقامة مراصد ولعل من أشهرها:

- مرصد الشماسية في بغداد: ويدعى كذلك المرصد المأموني نسبة إلى الخليفة العباسي المأمون (198-218هـ/813-833م) الذي أمر أن يتولّى العلماء الرصد بمدينة الشماسية؛ "فوقفوا على زمن سنة الشمس الرصدية، ومقدار ميلها، وخروج مركزها، وموضوع أوجها، وعرفوا مع ذلك بعض أحوال الكواكب السّيارة والثابتة، وفي سنة 218هـ/833م قطع بهم عن استيفاء غرضهم موت المأمون؛ فقيّدوا ما انتهوا إليه وسمّوه "الرصد المأموني"، وكان الذي تولّى ذلك يحيى بن أبي منصور كبير المنجّمين في عصره، وخالد بن عبد الملك المروزي، وسند بن عليّ، والعبّاس بن سعيد الجوهري، وألّف كلّ واحد منهم في ذلك زيجاً منسوباً إليه موجوداً في أيدي الناس؛ فكانت أرصاد هؤلاء أوّل أرصاد كانت

في دولة الإسلام"، ويذكر أن هذا المرصد بني في بغداد عند باب الشام سنة 214هـ/830م⁽³⁸⁾، وهناك من يشير إلى أن أول مرصد في الإسلام كان في عهد بني أمية على عهد معاوية بن أبي سفيان (661-680هـ/1262-1281م) في دمشق⁽³⁹⁾.

وفي عهد المأمون تم إنشاء مرصد جبل قاسيون في دمشق، كما أنشئت في بغداد مراصد أخرى منها مرصد أبناء موسى بن شاكر في بغداد، كما أقاموا مرصداً آخر سامراء⁽⁴⁰⁾.

- مرصد المراغة: تم بناؤه في القرن 7هـ/13م، ويعد هذا المرصد واحداً من أهم المراصد في تاريخ الحضارة الإسلامية، وتقع المراغة بالقرب من مدينة تبريز بفارس، بُني المرصد خارج المدينة. وقد أنشأه مانجو أخو هولوكو، وكان مانجو مهتماً بالرياضيات والفلك، وقد عهد إلى جمال الدين بن محمد الزيدي البخاري بمهمة إنشاء هذا المرصد، واستعان بعدد هائل من العلماء منهم نصير الدين الطوسي وعلي بن عمر الغزويني ومؤيد الدين العرضي وفخر الدين المراغي ومحيي الدين المغربي وغيرهم، ويعد مرصد المراغة أول مرصد استفاد من أموال الوقف، إذ وقفت عليه عقارات وأراضٍ لكي يتم ضمان استمرارية العمل به⁽⁴¹⁾.

- مرصد سمرقند: أسس هذا المرصد أولغ بك حفيد تيمورلنك بتمويل منه في سمرقند سنة 826هـ/1423م، ويقع فناء المرصد الذي يبلغ ارتفاعه حوالي 21 متراً على تل ذي قاعدة صخرية، وتبلغ مساحة سطح ذلك التل حوالي 85 متراً من الشرق إلى الغرب، وحوالي 170 متراً من الشمال إلى الجنوب، وقد وضعت جداول فلكية في المرصد عرفت بجداول أولغ بك، وتعد من أدق الجداول في العالم، وكان مزوداً بالكتب وآلات الرصد الفلكية⁽⁴²⁾.

- المرصد الحاكي (مصر): نسبة إلى الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي، إذ قام ابن يونس المصري بأخذ أرصاد دقيقة للشمس والقمر والكواكب بمرصده فوق المقطم، وعليه فقد قام بوضع الزيج الحاكي، وكان هذا الزيج أكثر دقة من نظيرتها البطلمية بمدرسة الإسكندرية كما عمل ابن يونس في علم اللوغريتمات وأبدع فيه⁽⁴³⁾.

- مرصد طليطلة الزرقالي: نسبة إلى فلكي الأندلس الزرقالي، ويعرف أيضاً بالزرقيل وهو من رجال القرن 5هـ/11م، وله مؤلف نفيس يسمى زيج طليطلة، وصنع عدداً من الأجهزة الفلكية ومنها الأسطرلاب⁽⁴⁴⁾، ولكن المصادر التاريخية لم تتعرض إليه بشكل كاف.

إن الغاية الكبرى من هذا أن يحقق المسلمون ذواتهم، ويصنعون مكانة لهم في هذا العالم، عكس الواقع المرير الذي نعيشه، إذ نجد البلدان الإسلامية تحتكم في أداء شعائرها لمعطيات السياسة والانتماء القطري، وبخاصة في شهري رمضان وشوال، ليبقى عامل العلم تحت هذا التأثير.

3. أدوات الحساب الفلكية:

1-2 أدوات الرصد:

- الأسطرلاب أو الأسطرلاب: هو الآلة التي بها يُتعرّف على أحوال الكواكب والنجوم، وتحديد مواقعها في السماء، وتحديد الوقت بالساعة ليلاً ونهاراً، ومعرفة ارتفاع الشمس وعروض البلدان، ومعرفة المطالع من النجوم في أي زمان، وهناك نوعان رئيسيان من الأسطرلاب تتفرع منهما سائر أنواع الأسطرلابات، وهما المسطح والكروي⁽⁴⁵⁾؛ فالمسطح هو جسم من معدن في الغالب يشتمل على صفائح مستديرة رسمت فيها خطوط مستقيمة ومستديرة تامة وناقصة، متوازية وغير متوازية، تعرف به ساعات الليل والنهار، أما الكروي فهو عبارة عن دائرتين معدنيتين متداخلتين إحداها تدل على دائرة البروج، والثانية تدل على سمت (ارتفاع) الانقلاب الذي يدل عليه قطبا دائرة الاستواء، يضاف إلى الدائرتين دائرة ثالثة تدور حول قطبي دائرة البروج، وبها يعرف خط الطول، ثم تضاف دائرة رابعة موضوعة في داخل الدوائر الثلاث فيما ثقبين اثنين يرى منهما القمر والنجوم والكواكب المراد رصدها، وقياس أطوالها وعروضها⁽⁴⁶⁾، وكان أبو إسحاق إبراهيم بن حبيب الفزاري أول من عمل في الإسلام أسطرلاباً، وعمل مبطحاً ومسطحاً⁽⁴⁷⁾، وقد طور العلماء العرب الأسطرلاب المسطح؛ فجعله السجزي (ت477هـ/1084م) زورقاً ذا قُطبين بدلاً من قطب واحد، وكذلك طوره العالم البيروني الذي استخدم الأسطرلاب في قياس الزوايا والارتفاعات⁽⁴⁸⁾، ومازال المسلمون يطورون الأسطرلاب في العهد الإسلامي حتى أخذ منحى أكثر دقة.

- ذات الحلق: وهي عبارة عن حلقة كبيرة تقوم مقام منطقة فلك البروج، وحلقة ثانية تقوم مقام التي تمر بالأقطاب مركبة في الأولى، ثم من حلقتين أخريين هما حلقة الطول الكبرى والصغرى، ثم من حلقة الأرض التي يكون قطر محدها مساوياً لقطر مقعر حلقة

الطول الصغرى، توضع على كرسي الآلة أي الأسطرلاب، وهي من أهم الآلات التي ابتكرها جابر بن سنان⁽⁴⁹⁾.

- ذات السميت: أو ذات الارتفاع، وهي عبارة عن نصف حلقة يعلم بها سمت الكوكب، أي ارتفاعه، وهذه أيضا من مبتكرات علماء المسلمين، قطرها واحد من سطوح أسطوانية وأخرى متوازية السطوح⁽⁵⁰⁾.

- البوصلة: وتسمى الحك، وهي عبارة عن إبرة ممغنطة مشدودة بخيط من الحرير في الغالب، مركوزة في وسط القاعدة، تشير إلى اتجاه الشمال في أي وقت كان، وبهذا يتم التعرف على الجنوب المعاكس له، وعلى الشرق والغرب المتعامدين على الجنوب والشمال⁽⁵¹⁾، وقد طورها أحمد بن ماجد في القرن 5هـ/11م من خلال اختراع إبرة جالسه على سنّ لكي تتحرك حركة حرة دون الحاجة إلى وعاء الماء⁽⁵²⁾.

- ذات الشعبتين: وهي عبارة عن مساطر ثلاث توضع على كرسي الآلة أي الأسطرلاب، وبها يعلم سمت أي ارتفاع⁽⁵³⁾.

- ذات الربيعين: هي من أهم مبتكرات العرب والمسلمين، بها يعرف قياس الدرجات، أخذها عنهم العالم بالفلك الدانمركي تيخوبراهي في أواسط القرن 9هـ/15م⁽⁵⁴⁾.

- المشبه بالناطق: من اختراع تقي الدين الراصد، وهي آلة كثيرة الفوائد في معرفة بعد ما بين الكوكبين، وتتألف من ثلاث مساطر: اثنتان منتظمتان انتظام ذات الشعبتين، إضافة إلى الحلقة الاعتدالية ذات الأوتار طبق الناطق⁽⁵⁵⁾.

2-2 أدوات القياس:

- المزولة الشمسية: هي عبارة عن ساعة شمسية تتكون من عدة نقاط وخطوط رسمت على صفيحة عريضة في وسطها قائم أو وتد تقع عليه الشمس؛ فتترك وراءه ظلا متحركا على النقاط والخطوط، وبمراقبة هذا الظل كانوا يعرفون ساعات النهار⁽⁵⁶⁾ خلال القرن 1هـ/7م، وأقدم النصوص المخصصة لها ما كتبه الخوارزمي، وما يميز الساعة الشمسية العربية أنها بالإضافة إلى خطوط الساعة المنقوشة، نجد فيها خطوطا لتحديد أوقات الصلاة الظهر والعصر، وأقدم ساعة شمسية عربية صنعها ابن الصفار بقرطبة، ومن أهم المزولات مزولة مسجد سيدي الحلوى بتلمسان، وهي أسطوانية محدبة عمودية نقشت سنة 748هـ/1347م، وقد صنعها أحمد بن محمد اللمطي، وكذا مزولة جامع

الزيتونة التي صنعها أبو القاسم بن الحسن سنة 745هـ/1345م⁽⁵⁷⁾، وساعة خزانة المنجانية في تلمسان: وهي بمثابة آلة لرصد الوقت ذات شكل هندسي، تعد أول ماكينة عالية الإتقان أنشئت بمشور تلمسان، وهي عبارة عن شجرة ذات طيور مغردة تعود إلى عهد أبي تاشفين الأول (718-737هـ/1318-1337م)⁽⁵⁸⁾.

3- الساعة المائية: هي عبارة عن إناء من المرمر الأبيض على شكل قمع مقطوع ارتفاعه 36 سم، مزخرف من الخارج ومنحوت من الداخل، فيما بعد تم اقتباس هذه الثقب، وفي وقت لاحق حاول المسلمون تطوير هذا النوع من الأجهزة⁽⁵⁹⁾.

في سنة 685هـ/1286م قام الموقت محمد ابن الحباك بصنع ساعة مائية لتحديد أوقات الصلاة، ومعرفة الساعة في الأيام الملبدة بالغيوم، وكانت الساعة تتألف من حوض من الفخار مع وعاء رسم عليه خطوط وعليه ثقب، وعند وضع الوعاء على الحوض المملوء بالماء فالخطوط التي عليه تسمح بتعيين مستوى الماء، وبالتالي تحديد الوقت المنقضي، وتشبه هذه الساعة الساعات المائية التي ذكرها الرحالة الحسن الوزان المعروف بليون الإفريقي (893-955هـ/1488-1548م) في كتابه وصف إفريقيا، هذه الأخيرة أقل تعقيدا إذ لا تحمل تدريجات من ناحية أخرى، وهذا ما يدل على أن هذه الأداة لم يقتصر استخدامها في الفلاحة، ولكن استعملت أيضا لتلبية أغراض أخرى كتحديد أوقات الصلاة كما وصفها الجزنائي⁽⁶⁰⁾.

4- الساعة الرملية: تتكون الساعة الرملية من قنيتين من الزجاج فوق بعضهما؛ متصلين بفتحة ضيقة تسمح بتسرب الرمل الناعم من الكرة العليا إلى السفلى، وعند استخدامها يجب التأكد في كل مرة من مرور كامل الرمل لقلب الجهاز، لذا هي أكثر ملاءمة لقياس الفترات القصيرة رغم سهولة أدائها؛ فصناعة الساعة الرملية تتطلب إتقان عمل الزجاج، وفي نفس الوقت الأخذ بعين الاعتبار سيلان الرمل الذي يرتبط بنعومته شكل الحجر وحجم الفتحة⁽⁶¹⁾.

كانت شائعة في المشرق منذ القرن 15هـ، إذ جاء ذكرها من طرف شهاب الدين العسقلاني (733-853هـ/1372-1449م) في إنباء الغمر⁽⁶²⁾.

ويعود استخدامها إلى العهد المريني حيث ذكر علي الجزنائي أن الموقت محمد بن محمد بن العربي أعد عام 746هـ/1346م إلى جانب منجاجة جامع القرويين بفاس رمليات لاختبار الوقت⁽⁶³⁾.

ويبدو أن هذه الأداة كانت شائعة في المغرب الإسلامي، ومن بين الأوائل الذين أشاروا إليها تعبيراً عن مرور الوقت لسان الدين ابن الخطيب (712-776هـ/1313-1374م) في إحدى أشعاره:

تأمل الرمل في المنجان منقطعا يجري وقدره عمرا منك منتهيا
والله لو كان وادي الرمل بنجده ما طال كاملة إلا وقد ذهباً⁽⁶⁴⁾

ذكرت الرملية بوضوح من طرف المؤلف المغربي عبد الرحمن التاجوري (ت961هـ/1554م) عن بيت الإبرة: "...؛ فلو كنت قبل الزوال ورأيت الباقي للزوال ثلاثين درجة مثلاً وعندك رملية، وهي المنكاب عند المشاركة فيها ثلاثون درجة وقلبتها؛ فإذا فرغت كانت الشمس على خط الزوال..."⁽⁶⁵⁾.

للتذكير فإن أول إشارة للمؤقتين في المغرب الإسلامي وإلى غرفة خاصة بهم كانت بجامع القرويين، وكانت تحوي مختلف المعدات⁽⁶⁶⁾، هذه المعدات التي لم تكن تختلف عما كان موجوداً في المشرق الإسلامي.

ومن التحف والقطع النادرة التي تلتقي بالأساس لجامع الأندلسيين الأسطراب المسطح، وهو معد من قطع متراكبة ومنقوشة ومنحوتة لقياس الكواكب، وضبط مواقيت الصلاة، وكان قد أنجز خصيصاً لمسجد الأندلسيين بالعدوة اليمنى لمدينة فاس، وقد نقش على الأسطراب تاريخ صنعه في عام 614هـ/1217م، بالإضافة إلى اسم صانعه محمد بن الفتوح الخميري⁽⁶⁷⁾.

كما كان للمسجد الأموي في دمشق باب يدعى باب الساعات (الباب القبلي)، لأنه عمل هناك بلشكار الساعات، حيث كان يعمل بها كل ساعة تمضي من النهار، عليها عصافير وحيّة من نحاس وغراب؛ فإذا تمت الساعة خرجت الحية فصرفت العصافير وصاح الغراب، وسقطت حصاة في الطست؛ فيعلم الناس أنه قد ذهب من النهار ساعة، وكذلك سائرها⁽⁶⁸⁾.

4- أشهر علماء المسلمين المؤقتين:

- 1- ابن الشاطر (704- 777هـ/1304- 1375م): وهو أبو الحسن علاء الدين علي بن إبراهيم بن محمد الأنصاري الموقت، المعروف بابن الشاطر، عالم بالفلك والهندسة والحساب، من أهل دمشق مولدا ووفاء، كان رئيس المؤذنين فيها، من كتبه "إيضاح المغيب في العمل بالربع المجيب"، و"أرجوزة في الكواكب"، و"الاسطرلاب"، و"مختصر في العمل بالاسطرلاب"، و"النفع العام في العمل بالربع التام"، و"نزهة السامع في العمل بالربع الجامع"، و"كفاية القنوع في العمل بالربع المقطوع"⁽⁶⁹⁾.
- 2- المراكشي (ت 660هـ/1262م): وهو أبو علي شرف الدين الحسن بن علي بن عمر المراكشي، موقت مغربي، له "جامع المبادئ والغايات في علم الميقات"، وهو أعظم ما صنف في هذا الفن⁽⁷⁰⁾.
- 3- حسن بن محمد بن باصة (ت 716هـ/1317م): رئيس المؤقتين بالمسجد الأعظم من غرناطة، كان فقيهاً إماماً في علم الحساب والهيئة، ماهراً في التعديل، مع التزام السنة، والوقوف عند ما حد العلماء في ذلك، مداوم النظر، ذا مستنبطات ومستدركات وتوالييف، نسيج وحده ورحة وقته⁽⁷¹⁾.
- 4- الجادري (777- 818هـ/1375- 1415م): عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن يوسف بن محمد بن عطية المديوني الفاسي، ويعرف بالجادري، فقيه موقت محدث، ولد وتوفي بفاس، من آثاره فهرسة، و"شرح على البردة"، و"روضة الأزهار في علم وقت الليل والنهار"، و"اقتطاف الأنوار"، و"شرح الدرر اللوامع"⁽⁷²⁾.
- 5- الغرناطي (ت 746هـ/1346م): أبو جعفر السلمي نزيل بجاية، نظم أرجوزة تدعى "توسط المنازل في الشهور بمعرفة وقت الفجر والسحور"، والتي تشير بالتأكيد لمنازل القمر التي تقطع خط الزوال في أوقات الفجر والسحور، والتي كانت حسب تلميذه ومترجمه ابن الأبار جد شائعة⁽⁷³⁾.
- 6- الريشي (ت 836هـ/1432م): هو شهاب الدين أحمد بن غلام الله بن أحمد بن محمد الريشي القاهري، فلكي، وقد أناف على الخمسين، من تصانيفه: "اللمعة في حل الكواكب السبعة"، و"كفاية التعليم في وضع التقويم"، عين موقتا بجامع الملك المؤيد بالقاهرة⁽⁷⁴⁾.

7- ابن سمعون (ت737هـ/1337م): هو محمد بن أحمد بن سمعون، موقت، له "التحفة الملكية في الاسئلة والاجوبة الفلكية"، و"الأصول الثامرة في الأعمال بربع المساطرة"، و"كنز الطلاب في الأعمال بالأسطرلاب"⁽⁷⁵⁾.

8- الكراديسي (823-887هـ/207-273م): هو أبو محمد الحسن بن خليل الموقت، الشهير بالكراديسي، موقت، كان مؤذنا بالقاهرة، نسبته إلى طبنة بالجزائر، له علم بالفلك، من كتبه "كفاية المحتاج من الطلاب إلى معرفة المسائل الفلكية بالحساب"، و"مقدمة في عمل الهلال"، و"أشكال الوسائط في المنحرفات والبسائط"⁽⁷⁶⁾.

9- الوفاي (811-876هـ/1408-1471م): هو عبد العزيز بن محمد بن محمد القاهري الشافعي الوفاي، فلكي، ولد بالقاهرة ونشأ بها، وعين موقتا بالجامع المؤيدي، من آثاره: "الدرر المنتثرات في العمل بالربع المقنطرات"، و"وسيلة الطلاب في استخراج الاعمال بالحساب"، و"قطف الزهرات في العمل بربع المقنطرات"، و"نظم العقود في عمل الساعات على العمود"، و"نزهة النظر في العمل بالشمس والقمر"⁽⁷⁷⁾.

10- الفزاري (ت180هـ/796م): محمد بن إبراهيم بن محمد بن حبيب، أول من عمل في الإسلام أسطرلابا، وعمل مبطحا ومسطحا، له من الكتب "القصيدة في علم النجوم"، و"المقياس للزوال"، و"الزيج عن سني العرب"، و"العمل بالأسطرلاب المسطح"، و"العمل بالأسطرلاب ذوات الحلق"⁽⁷⁸⁾.

2- أشهر المؤلفات في علم المواقيت:

1- كتاب المواقيت: لأبي العباس أحمد بن أحمد الطبري الشافعي الشهير بابن القاص (335هـ/947م)⁽⁷⁹⁾.

2- اليواقيت في علم المواقيت... وعمدة النظاري مواقيت الليل والنهار: لعبد العزيز المنوفي المصري الشافعي، كان مشاركا في العلوم وعارفا بالمليقات، توفي سنة 703هـ/1304م)⁽⁸⁰⁾.

3- يواقيت المواقيت: منظومة للشيخ برهان الدين إبراهيم الجعبري، المتوفى سنة 732هـ/1332م)⁽⁸¹⁾.

4- اليواقيت في علم المواقيت: أرجوزة لعمر بن أحمد الحزمي الحموي، ألفها سنة 854هـ/1450م)⁽⁸²⁾.

5- تحفة الفقراء في علم الميقات من طريق ربع الدائرة المقنطرات: رسالة لمحمد بن كاتب سنان القونوي (ت910هـ/1505م)، وهي على خمسة وعشرين بابا ألفها لأمير شهنشاه بن بايزيد العثماني⁽⁸³⁾.

6- تيسير الكواكب السماوية لسعد الدولة الشريفة السليمانية في فن الميقات: لمصطفى الموقت بالجامع السليبي، كتبه سنة 946هـ/1540م، ذكر فيه غرر الشهور العربية والرومية والسنة الشمسية والقمرية إلى سنة ألف، وأوقات تحاويل الشمس في البروج مجدولا إلى سنة ألف⁽⁸⁴⁾.

7- يواقيت الصلاة في مواقيت الصلاة: لإبراهيم نظى ابن موسى سرى الإسكندراني الحنفي⁽⁸⁵⁾.

8- المقدمة التوتية في الميقات: للشيخ الزاهد أبي زيد عبد الرحمن بن محمد الناجوري ألفها سنة 999هـ/1591م، وبين فيها الفصول والأوقات⁽⁸⁶⁾.

9- اليواقيت لطالب معرفة المواقيت: تأليف على بن محمد ابن أبي القاسم بن إبراهيم بن محمد الدادسي (ت 1075هـ/1665م)⁽⁸⁷⁾.

بالإضافة إلى المؤلفات كانت هناك العديد من الأرجوزات منها:

1- "روضة الأزهار في علم وقت الليل والنهار" للغرناطي، استخدم فيها زيجا لابن الرقام في حساب موقع الشمس والنجوم⁽⁸⁸⁾.

2- "تحفة الحساب": لمؤلف مجهول من القرن 9هـ/15م، استخدم في أرجوزته نتائج الأرصاء التي أجريت في دمشق سنة 657هـ/1259م فيما يخص دقة الاعتدالين الربيعي والخريفي⁽⁸⁹⁾.

خاتمة: يعد الوقت أهم عنصر محرك للحياة وأساس قيام الحضارة، وبالتالي من الضروري الاستثمار فيه بقوة لاستغلال الإمكانيات المتاحة.

- أضحى علم المواقيت علما قائما بذاته، وقد تعددت فوائده علميا واجتماعيا، وأضحى أكثر من ضروري لضبط موازين الحياة.

- قطع المسلمون أشواطا معتبرة في هذا العلم، حيث ظهر علماء كبار، ومؤقتون وقفوا على تجسيد الشعائر الدينية، وألفوا كتباً ومصنفات مازالت مادة خاما نستطيع الاستفادة منها.

- لم يكن المسلمون ليرتقوا بهذا العلم لولا تفوقهم في علم الفلك الذي طوروه، واستطاعوا أن يبدعوا فيه حتى أصبح تراث إسلاميا محضاً.
- تعددت آلات الحساب والرصد، وكانت من ابتكار المسلمين حيث استطاعوا معرفة جوانب من الكون بمختلف أبعاده.
- عرفت البلاد الإسلامية إنشاء مراصد فلكية في عهود مختلفة، أثبتت علو كعب العلماء في هذا التخصص.
- انضبطت حياة المسلمين أكثر خاصة بعد اكتشاف المراصد الخاصة بالتوقيت، مما جعل التعامل مع الزمن أمراً سهلاً، ومع ذلك لم يستطع المسلمون توحيد بدايات ونهايات شهورهم.
- إرادة العلماء القوية في الوصول بهذا العلم إلى منتهاه في ظل دعم وتشجيع من الحكام.
- ولا بد من الإشارة في الأخير إلى ضرورة الانكباب والبحث في مواضيع تتعلق مثلاً بدراسة المتون الخاصة بعلم الفلك، ودراسة الأدوات الفلكية في العصر الإسلامي، وتحقيق المخطوطات الخاصة بهذا العلم.

الهوامش:

- 1- المهدي حسين بن محمد، صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم والأمثال، مراجعة عبد الحميد محمد المهدي، وزارة الثقافة، دار الكتاب، اليمن، 2009، ج2 ص350-351-2- المهدي. المرجع نفسه، ج2 ص341.
- 3- أبو العباس أحمد بن محمد بن علي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، المكتبة العلمية، بيروت، دت، ج2 ص667-4- سورة النساء، الآية 103-5- ابن الأثير. مجد الدين أبو السعادات المبارك، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق طاهر أحمد الزاوي- محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، 1979، ج5 ص121.
- 6- الهانوي. محمد بن علي ابن القاضي، موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تقديم وإشراف ومراجعة: د. رفيق العجم، تحقيق: د. علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط1، 1996م، ج1 ص63.
- 7- السريري. أبي الطيب مولود، المجموعة الرابعة من رسائل علمية في فنون مختلفة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1971م، ص142-.
- 8- العسكري أبو هلال الحسن بن عبد الله، الفروق اللغوية، تحقيق محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، مصر، ص271-9- القنّوجي أبو الطيب محمد صديق خان، أجد العلوم، دار ابن حزم، ط1، 2002، ص348-10- القرافي شهاب الدين أحمد بن إدريس الصنهاجي، كتاب اليواقيت في علم المواقيت، دراسة وتحقيق، رسالة ماجستير في الفقه، جامعة أم القرى- السعودية، 1428هـ، ص90-11- القرافي. المرجع نفسه، ص94-12- عزيز معتصم، علم التوقيت مفهومه وفوائده، مجلة المحجة، العدد 474، 3 مارس 2017، ص10.
- 13- الترمذي. محمد بن عيسى بن سؤدة، الجامع الكبير - سنن الترمذي، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، ج1 ص446.
- 14- عزرودي. نصيرة، علم الميقات بالمغرب الأوسط دلائل القبلة لأبي علي المتيجي (ق6هـ/12م) أنموذجاً، المجلة الجزائرية للبحوث والدراسات التاريخية المتوسطية، جامعة جيلالي اليابس، سيدي بلعباس، العدد الثالث، 2016، ص37.

- 15- الترمذي. المصدر السابق، ج 1 ص 217-16- مؤلف مجهول، كيف تحسب مواقيت الصلاة، شوهده (2020/04/09)، على 15:20 الموقع: <http://www.namazvakti.com/ar.lyeni.pdf>.
- 17- مجاهد عماد، الأهلة والمواقيت: هلال رمضان ومواقيت الصلاة بين الشرع والفلك، دار أمجد للنشر، عمان، 2016، ص 96-97.
- 18- الترمذي، المصدر السابق، ج 2 ص 61-19- الترمذي. المصدر نفسه، ج 2 ص 69.
- 20- الشوكاني محمد بن علي، نيل الأوطار، تحقيق عصام الدين الصبايطي، دار الحديث، مصر، ط 1، 1993، ج 4 ص 230-21- قاسم الشيخ. نزار محمود، دور علماء المسلمين في تطوير المعايير الفلكية لدورتي الشمس والقمر، المؤتمر الدولي الثاني في تاريخ العلوم عند العرب والمسلمين، جامعة الشارقة، 2014، ص 46.
- 22- الضليح. هاني، ما هي شروط رؤية هلال رمضان بيلته الأولى؟، شوهده (2020/04/09)، على 15:30، ينظر الموقع: <https://www.aljazeera.net/news/scienceandtechnology/>
- 23- عزيز معتصم، علم التوقيت مفهومه وفوائده، مجلة المحجة، العدد 474، 3 مارس 2017، ص 10-24- سورة الأنعام-25- سورة التوبة، الآية 36-26- انطلقنا من المعطيات التالية: السنة البسيطة: 354 يوما، والكبيسة: 355 يوما، والمعطيات الالكترونية. 27- Paul Perbost, le calendrier grégorien, Bulletin de l'APMEP n°343 1984, Ecole normale de Nice, p 331. 28- Paul Perbost, Ibid, p 332. 29- Ophélie, L'origine du nom des mois et des jours, (consulté le site: 07/10/2019, à 19:30) <http://www.ikonet.com/fr/blogue/culture/l%e2%80%99origine-noms-mois-jours/>
- 30- الخطابي. محمد العربي، علم المواقيت أصوله ومناهجه، 1986، ص 85-31- الهانوي. المصدر السابق، ص 64.
- 32- خياط. أسامة عبدالله، علم الفلك: تفسير آيات القرآن في الكون، (شوهده الموقع: 2019/09/30)، على 14:00 <https://www.ejaz.org/index.php/component/content/article/66-Issue-VIII/545-Astronomy-interpretation-of-the-verses-of-the-Koran-in-the-universe>
- 33- سورة آل عمران، الآية 190-191.
- 34- الفطحي جمال الدين أبو الحسن، إخبار العلماء بأخبار الحكماء، تحقيق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 2005، ج 1 ص 205-35- الحنبلي عبد العلي بن أحمد بن محمد، تحقيق عبد القادر الأرنؤوط، محمود الأرنؤوط، دار ابن كثير، دمشق، 1406هـ، ج 4 ص 194-195-36- كريم ديار حسن، الجغرافية الفلكية، الجندرية، ط 1، 2015، ص 28-37- حسين كريم، عجيب عبد الرحمن. نوفل حامد، أعلام الرياضيات والفلك في الأندلس، مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية، جامعة الأنبار، العدد 7، 2013، ص 232.
- 38- الدواداري أبو بكر بن عبد الله بن أبيك، كنز الدرر وجامع الغرر، مجموعة من المحققين، عيسى الباي الحلبي، 1995، ج 5 ص 196-39- مجموعة من المؤلفين، الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الرياض، ط 2، 1999، ص 16 ص 522-40- نفسه-41- كريم. المرجع السابق، ص 29-42- قاسم الشيخ. المرجع السابق، ص 33-34-43- الهبيعي إيناس محمد، تاريخ الدولة الفاطمية، دت، نسخة إلكترونية، ص 66.
- 44- نبروي. فتيحة، تاريخ النظم والحضارة الإسلامية، الدار المصرية اللبنانية، دت، نسخة إلكترونية، ص 411-45- الهانوي. المصدر السابق، ص 176-46- زيغريد هونكة، شمس العرب تسطع على الغرب، دار الجيل الجديدة، بيروت، 1993م، ص 138-47- ابن النديم. أبو الفرج محمد بن إسحاق بن محمد، الفهرست، تحقيق: إبراهيم رمضان، دار المعرفة بيروت، لبنان، ط 2، 1997، ص 381-48- كحالة. عمر رضا، معجم المؤلفين، مكتبة المثنى، بيروت، دت، ج 13 ص 17-49- العبري بنا، تاريخ مختصر الدول، تحقيق أنطون صالحاني اليسوعي، دار الشرق، بيروت، 1992م، ص 73.
- 50- حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، تحقيق محمد شرف الدين يالتقايا، مكتبة المثنى، بغداد، 1941 هـ، ج 1 ص 81-51- بكير. بوعروة، المراصد الفلكية وأبرز أجهزتها الفلكية في الحضارة الإسلامية، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، العدد 9، 2010، ص 112-52- مؤلف مجهول، البحارة المسلمين أول من اخترع البوصلة المغناطيسية، الموقع: 2019/09/30، على <http://www.mawhapon.net/?p=4203> (14:00).
- 53- القرافي. المصدر السابق، ص 93-54- قاسم الشيخ. المرجع السابق، ص 40-55- القرافي. المصدر السابق، ص 93.

- 56- الفضلي جراح بن نايف، اليواقيت في علم المواقيت، مذكرة ماجستير، جامعة أم القرى، السعودية، 1428هـ، ص92-57- بكلي محمد رضا وآخرين، جوانب من تقنيات التوقيت وأدوات الرصد في المغرب الإسلامي، د.ت، ص22-23، الموقع: 2019/10/09 <https://www.raco.cat/index.php/Suhayl/article/viewFile/287317/375562>
- 58- عزرودي، المرجع السابق، ص25-59- البكلي، المرجع السابق، ص27-60- نفسه-61- الجزائري علي، جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ط2، 1991م، ص50-62- البكلي، المرجع السابق، ص26-63- الجزائري، المرجع السابق، ص51-64- أحمد بن محمد، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط1، 1900، ج6 ص504-65- البكلي، المرجع السابق، ص26-66- الجزائري، المرجع السابق، ص50-51-67- عبد الخالق سارة، جامع الأندلسيين.. تحفة خالدة عبر الزمان بمدينة فاس المغربية، موقع مصراوي، (شاهد الموقع: <https://www.masrawy.com/islameyat/others-masaged/details/2019/3/4/1525683/2020/11/20>)
- 68- ابن كثير أبو الفداء إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية، تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث العربي، ط1، 1988، ج9 ص180-69- الزركلي خير الدين بن محمود، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط15، 2002، ج4 ص251-70- حاجي، المصدر السابق، ج1 ص572.
- 71- ابن الخطيب محمد بن عبد الله، الإحاطة في أخبار غرناطة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2003، ج1 ص114-72- كحالة المصدر السابق، ج5 ص179-73- البكلي، المرجع السابق، ص9-74- كحالة. المصدر السابق، ج2 ص39-40-75- الزركلي، المصدر السابق، ج5 ص325-76- اسماعيل بن محمد أمين، هدية العارفين، وكالة المعارف الجليلية، اسطنبول، د.ت، ج1 ص153/الزركلي، المصدر السابق، ج2 ص170-77- كحالة. المصدر السابق، ج5 ص216-78- نفسه، ج1 ص19-79- حاجي، المصدر السابق، ج2 ص1456-80- البغدادي، المصدر السابق، ج1 ص581-81- حاجي، المصدر السابق، ج2 ص2054-82- نفسه، ج2 ص2053-83- نفسه، ج1 ص371.
- 84- حاجي، نفس المصدر، ج1 ص519-85- البغدادي، المصدر السابق، ج2 ص732-86- حاجي، المصدر السابق، ج2 ص1799-87- البغدادي، المصدر السابق، ج2 ص732-88- بكلي، المصدر السابق، ص9-89- نفسه.

مسألة القرصنة أو الجهاد البحري في المغرب الإسلامي:
دراسة مقارنة.

The issue of piracy or maritime Jihad in Islamic west:
A comparative study

صص 146-131

اسم ولقب المؤلف المرسل: الطاهر قدوري- Kaddouri Tahar

الدرجة والعنوان المهني: أستاذ التعليم العالي مؤهل- المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين- وجدة- المملكة المغربية/البريد الإلكتروني: taharkaddouri@hotmail.com

تاريخ استقبال المقال: 2020/01/22 تاريخ المراجعة: 2020/04/01 تاريخ القبول: 2020/04/20

ملخص: نحاول في هذه المقالة تتبع ظاهرة القرصنة/الجهاد البحري على مستوى التراكم المعرفي الذي أفضى إلى تبني مصطلح معين؟ فلماذا يفضل البعض تسمية الظاهرة بالجهاد البحري؟ ولماذا يرى فيها الطرف الآخر أنها عملية سطو عكرت صفو التنقلات البحرية لمدة طويلة من تاريخ الشعوب البحرية؟ فانطلاقا من هذه الأسئلة نحاول البحث في الظاهرة من خلال الرجوع إلى مختلف الكتابات التي ناقشت القضية خلال العصر الوسيط ببلاد الغرب الإسلامي، ومن خلال تمحيص الروايات التاريخية ومقابلة بعضها، ثم كذلك من خلال الوقوف عند العديد من الاتفاقيات الدولية التي عقدتها الدولة المغربية في العصر الوسيط والدول الأوروبية خاصة المدن الإيطالية. الكلمات المفتاحية: قرصنة، جهاد بحري، البحر المتوسط، الغرب الإسلامي، سفن، نشاط بحري.

Abstract: In this article we try to follow up the phenomenon of piracy/maritime Jihad on the knowledge accumulation level which lead to adopt a specific term: Why some people prefer to call the issue maritime Jihad? Meanwhile, others refer to it as a robbery that troubled maritime transports for a long time in the maritime populations history?

Starting from these questions we try to figure out this phenomenon by referring to different writings which discussed the case during the middle age in Islamic west countries, by examining historical tales and matching them, then by

looking to many international conventions that was convened by Moroccan State and the European ones, especially the Italian cities, in the middle age.

Keywords: piracy, maritime Jihad, Mediterranean sea, Islamic west, Ships, Nautical activity.

مقدمة: أثارت ظاهرة "القرصنة" أو "الجهاد البحري" نقاشا حادا بين الباحثين قديما وحديثا؛ فمنهم من اعتبرها نشاطا عاديا وأمرا طبيعيا، وهي قديمة قدم الملاحة، ومنهم من اعتبرها أمرا طارئا عكس صفو التنقلات البحرية والنهرية، وبعضهم جعلها آفة لصيقة بالأمة الإسلامية، وعمم آخرون أحكامهم فجعلوها خاصة بالشعوب البحرية؛ فما هي إذا التعريفات التي قدمت لعمليات القرصنة؟ وما الفرق بينها وبين الجهاد البحري؟ وما هي أوكار القرصنة ومجالات نشاطها؟ وفي أي وقت كانت تزدهر؟ وما هي مجهودات الدول للحد منها؟

1- ملاحظات حول المصطلح: قبل أن نحاول بسط الموضوع، لابد أن نشير إلى أن أغلب الدراسات التي تطرقت لموضوع القرصنة أو الجهاد البحري في البحر المتوسط، تناولته في فترات حديثة على الأقل مع تكون الإمبراطورية العثمانية والإمارات المورسكية التي نشطت في أقصى الشمال الغربي من المغرب الأقصى مع المجاهد العياشي، والجمهورية السلوية بمصعب أبي رقرق¹، مغفلين أي حديث عن هذه الظاهرة في الفترات الوسيطية والقديمة، وكأن القرصنة ظاهرة وسمت بها الفترات الحديثة بعد ق 9/15م، إلا أننا لا نكاد نساير هذا الزعم، وذلك باعتبار أن القرصنة، كما أكد غير واحد من الباحثين، هي ظاهرة عامة تعاطتها الشعوب المطلة على البحر، مما يجعلها قديمة قدم ركوب الإنسان البحر.

والدراسات الكثيرة التي أنجزها باحثون مسلمون تفضل استعمال اصطلاح الجهاد البحري للدلالة على مفهوم الحروب التي تقع في البحر، وتكون بذلك استمرارا لعمليات الجهاد التي انطلقت مع بداية الفتوحات الإسلامية، واستطاعت أن تصل إلى عدة مناطق من العالم القديم برا، بينما تطلب قطع البحر الوصول إلى مناطق أخرى²، مما جعل هذه الحركة تدخل في إطار عام تجلت فصوله في مواصلة عمليات الجهاد لتبليغ رسالة الإسلام.

لقد أطرت هذه العملية عدة أحاديث نبوية ترغب وتشجع على الغزو في البحر، منها حديث أم حرام بنت ملحان في الموطأ، عن أنس بن مالك (ض) قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ذهب إلى قباء، يدخل على أم حرام بنت ملحان؛ فتطعمه، وكانت أم حرام تحت عبادة بن الصامت؛ فدخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فأطعمته، وجلست تفلي في رأسه؛ فنام رسول الله يوماً، ثم استيقظ وهو يضحك، قالت: فقلت ما يضحك يا رسول الله؟ قال: "ناس من أمي عرضوا علي غزاة في سبيل الله يركبون ثبج هذا البحر، ملوكا على الأسرة"، قالت:، قلت له يا رسول الله: ادع الله أن يجعلني منهم"³.

ومن بين الأحاديث الأخرى التي ترغب في ركوب البحر والغزو فيه نذكر قوله صلى الله عليه وسلم: "غزوة في البحر خير من عشر غزوات في البر، ومن أجاز البحر فكأنما أجاز الأودية كلها، والمائد فيها كالمتشحط في دمه"⁴.

وإذا كان الأمر مقبولاً مع تدفق الحملات الإسلامية شرقاً وغرباً؛ ففي أي خاتنة نضع تلك العمليات التي كان يقوم بها أفراد من سكان السواحل الإسلامية، والتي استهدفت المراكب التجارية دون الأخذ بعين الاعتبار الوضعية القانونية لهذه المراكب؟ يرى برونو أن الجهاد البحري كان مرادفاً لعملية القرصنة (Course)⁵، بينما لا يميز برنشيبيك بين المصطلحين، إذ غالباً ما يوردهما للدلالة على شيء واحد هو اعتراض السفن المارة بمنطقة ما⁶، ويذهب عبد الله العروي إلى اعتبار الجهاد البحري عملية تقابلها عند الأوروبيين عملية القرصنة⁷، أما زكي مبارك فيرى أن الأمر كان متعارفاً عليه، وكان متبادلاً بين المغاربة ونصارى فرنسا وإسبانيا وإيطاليا⁸.

لقد طُرحت عملية اعتراض السفن على فقهاء المغرب الإسلامي وعالجهوا في إطار مجموعة من النوازل⁹، لكن الغالب على أجوبتهم معالجتها لموضوع افتداء السلع والأفراد الذين وقعوا في الأسر من قبل العدو؛ فابن رشد يجعل افتداء التجار ومن بالمركب بمنزلة الأسرى¹⁰؛ فتطرح الفدية من القيمة الكلية للبضائع المحمولة في المركب¹¹، وتبقى أجرة الكراء ثابتة وحقا كاملاً لصاحب المركب إذا تعرض المركب لعملية السطو من قبل لصوص في البحر لأن البضاعة لم تتلف بطارئ عرض للمركب كعطب أو نحوه¹²، أما إذا

تمكن الأسرى المسلمون من الفرار من قبضة النصارى، وهم على متن مراكب نصرانية راسية بإحدى مراسي المسلمين؛ فإنهم لا يردون ولا يفتدون¹³.

وينحو أحد الباحثين التونسيين¹⁴ منحه خاصا به معتمدا على إشارات وردت عند أحد فقهاء المالكية¹⁵، ويجعل القرصنة أمرا مشروعاً أطرها ونظمها الفقه الإسلامي، ويرى أن الفقهاء كانوا يتعاطون القرصنة التي اعتبرت أمراً مشروعاً واستمراراً لمختلف أنواع الحروب التي تخوضها دار الإسلام مع دار الحرب¹⁶، وأنها كانت تتم في إطار شركات يقوم أفرادها باعتراض السفن وتقاسم الغنائم، كما كان من الصعب التحكم في القرصنة أو حمل سكان المناطق الساحلية على عدم ممارسة هذا النشاط¹⁷، ويعتمد الباحث نفسه على نص مبثور للفقهاء المالكي سحنون ليستخلص منه مشروعية القرصنة فيقول: "لم يمارس الأفارقة القرصنة بصورة آلية فوضوية بل إن الفقه قنمها؛ فكانت خاضعة مبدئياً لشرعة الحرب"¹⁸.

وما يجب أن نركز عليه في هذا المستوى هو حمل عمليات اعتراض السفن في البحر، على اعتراض المسافرين في قوافل برية، ومن ثم وجدنا من الباحثين من حاول الوقوف عند هذه النقطة متطرقاً لما يعرف بحدا الحرابة¹⁹ الذي يفيد في الفقه الإسلامي كل من يقوم بإفساد السابلة أو يسعى إلى الاعتداء على المارة ويقوم بقطع الطريق.

وقد اتفق الفقهاء على أن من يقوم بهذا العمل يسعى إلى الإفساد في الأرض، وأن خطره يعم البر والبحر؛ فكانت درجة الإفساد وعرقلة المواصلات في الطرق البرية لا تقل عن القلاقل التي يثيرها "قطاع البحر"؛ فقام الفقهاء قطاع الطرق البحرية على قطاع الطرق البرية، لهذا وجدنا من المؤرخين من يستعمل لفظة "متلصصة البحر"²⁰ على غرار "متلصصة البر"، والمتمعن في فتاوى الونشريسي يجده يحمل "متلصصة البحر" على "متلصصة البر"²¹؛ فكان حكمهما واحداً، وذلك بالنظر إلى العمل الذي يقومون به؛ فاعتبرت حرابة البحر كحرابة البر²³.

وبناء على هذا يرى بعض الباحثين²² ضرورة استعمال مصطلح الحرابة لما يحمله من قيمة إجرائية بدلا من استعمال مصطلح القرصنة الذي يدل في كثير من الأحيان على عمليات السطو التي تتعرض لها السفن في البحر، "ويكون الغرض منه الحصول على

مكسب باغتصاب السفن أو البضائع أو الأشخاص"²⁴، وغالبا ما تورده هذه الكلمة مرادفة للكلمة الغربية (Causaire) أو (Piraterie)؛ فما مدلول هاتين اللفظتين؟ فاللفظة "Piraterie" مشتقة من اللفظة اللاتينية «Pyra» التي تفيد معنيين: الغش والخداع²⁵، "أو قد تكون مشتقة من اللفظة اللاتينية «Pirata» واليونانية «Pirates»، واللفظ الأصلي هو «Peiran»²⁶، ويقابله في الفرنسية لفظة «Essyer» وهو الأكثر منطقاً"²⁷، وهذه اللفظة كانت تدل على البحارة المغامرين الذين يركبون البحر²⁸ أيام السلم وأيام النهب والصوصية، لكن سرعان ما أصبحت لصيقة بالبحارة الذين يقومون بعملية اعتراض السفن ونهبها دون أن يكون لهم ترخيص من دول معينة²⁹.

أما لفظة "Corsaire" حسب الأب دان (Le père Dan) فممنسوبة إلى "corse" التي تطلق على الشعوب المستقرة بكورسيكا³⁰، ويرى أحد الباحثين أنها مشتقة من الأصل اللاتيني "Carsaro"، وتدل على السفن التي رخص لها من طرف دولها بأن ترد هجومات الأعداء³¹.

ومن ثم يكون الفرق بين «Course» و«Piraterie» ملخصا في مشروعية العمل الذي يقوم به البحارة، وهم يمارسون هاتين العمليتين؛ فإذا كانوا يحملون ترخيصا أو إذنا من قبل دولهم؛ فإن العملية تدخل في إطار «Course»، وتكون بذلك حربا بحرية مشروععة موجهة ضد عدو ما، أما إذا لم تكن العملية تحمل ترخيصا فإن ذلك يدخل في إطار Piraterie التي يكون هدفها عرقلة العمليات التجارية، وعرقلة المواصلات البحرية، ونهب المراكب وأسر المسافرين³².

لكن السؤال الذي يطرح بإلحاح هو ما مدى مصداقية واحترام السفن التي تحمل رخصا للقيام بعمليات Course؟ وما مدى مصداقية الموثيق المبرمة بين الدول؟ وهل كان الممارسون لهذا النشاط سواء تعلق الأمر بعمليات «Course» أو بعمليات «Piraterie»، يحترمون سفن الدول الصديقة أو على الأقل مهادنتهم لهم، والتي تربطهم بها معاهدات سلم وتجارة؟

على ضوء هذا الأمر، لا نكاد نرى ما ذهب إليه الأستاذ محمد الطالبي³³ بأن عمليات القرصنة كانت تزدهر في ظل غياب اتفاقيات كان من شأنها أن تحد من هذا النشاط، ولعل المتمعن في الوثائق التي أوردها كل من "ماس لاتري" ومصطفى نشاط تقدم أدلة

قوية على أن دول العصر الوسيط سعت إلى عقد اتفاقيات جعلت ظاهرة القرصنة ومحاولة الحد من نشاطها من بين أولوياتها.

وإلى جانب هذين المصطلحين تستعمل الكتابات الغربية مصطلح "Les Sarrazins" و"Course Barbaresque"، وتطلق لفظة "Sarrazins" في عمومها على الشعوب المسلمة وبخاصة تلك المجموعة التي احتضنت رسالة الإسلام، وتدفقت خارج الجزيرة العربية؛ فتولت نشر الإسلام، ويرى أحد الباحثين³⁴ أن هذه اللفظة عند الغربيين غالباً ما تدل على أعمال السرقة والنهب، وهي مشتقة من اللفظة اللاتينية Saraceni، والمشتقة بدورها من اللفظة العربية "سارقين"، وقد دلت هذه اللفظة- حسب الباحث نفسه- على الكلمة العربية "شرقي" التي كانت تطلق على القبائل العربية المتاخمة للحدود الشرقية للإمبراطورية الرومانية؛ فتطورت لتدل على المجموعات المعتنقة للإسلام³⁵.

أما اللفظة "La course barbaresque" فإن استعمالها في الكتابات الأوروبية يراد به أولئك البحارة من سكان الشمال الإفريقي الذين كانوا يتولون اعتراض السفن المارة بالقرب من سواحلهم، وغالباً ما نجد هذه اللفظة مرادفة لللفظة السابقة "Sarrasins"³⁶. وهكذا؛ فإن هذه اللفظة الدالة على عمليات السلب والنهب في البحار تختلف كلياً في مدلولها عن اصطلاح "الجهاد البحري"، مما يجعلنا نستنتج أن المؤسسة الدينية قد تحكمت بشكل كبير في وضع صيغ تنطلق من تشريعاتها لتدل على عمل مشروع يقوم به نفر من أفرادها ضد سفن العدو، وفي المقابل نجد أن الكنيسة كانت مسؤولة عن صياغة مجموعة من الألفاظ التي تنتهي في آخرها إلى وسم العمليات البحرية للمسلمين وفتوحاتهم في أوروبا بعمليات القرصنة³⁷؛ فإلى أي حد كان المسلمون عمومًا والمغاربة خصوصاً مسؤولين عن عمليات القرصنة؟

2- القرصنة بين المسلمين والنصارى: من خلال تصفحنا لمجموعة من الإشارات الواردة في مصادرنا التاريخية؛ فإن المسلمين عمومًا والمغاربة خصوصاً قد تعرضت سفنهم لعمليات النهب التي مارسها بحارة من مختلف المدن الأوروبية، ورغم أن الغرر كان يغلب على الطريق البري بسبب القلاقل التي أحدثها الغزو الهلالي بالطريق البري الذي يربط المغرب ببلاد مصر³⁸؛ فإن المغاربة وبخاصة أولئك الذين كان عزمهم زيارة البيت الحرام

غالبا ما يسافرون على متن سفن توصلهم إلى بلاد مصر، ليواصلوا بعد ذلك الرحلة نحو بلاد الحجاز.

إن تفضيل المغاربة الطريق البحري لا يعني أن البحر كان أكثر أمنا من الطريق البري، بقدر ما يدل على أن الخطورة متفاوتة بين الطريق البري والبحري، وحتى إذا ركبوا البحر فإنهم ينتظرون في كل لحظة أن يقعوا في قبضة العدو، ولعل الحالة النفسية التي عاشها ابن جبير وابن رشيد السبتي وأحمد المقرئ³⁹ على متن المراكب التي نقلتهم إلى ديار مصر خير دليل على ضعف الأمن في البحر المتوسط.

وفي اتجاه آخر يخبرنا ابن حوقل أن سواحل بلاد الشام خلال ق4هـ/10م كانت تتعرض مرارا للهجمات النصرانية التي كانت تقوم بعملية السطو على المراكب الراسية بمصر وبلاد الشام⁴⁰، ويورد كل من البادسي وعبد المالك المراكشي والغبريني العديد من التراجم للعلماء والأولياء الذين ركبوا البحر، وتعرضوا لعمليات القرصنة التي كانت تقوم بها السفن النصرانية.

فهذا عيسى بن محمد الغافقي أسر رفقة جماعة من المسلمين كانوا عازمين على القصد إلى الحج⁴¹، والأمر نفسه تعرض له محمد بن عيسى بن دادوش الذي أسرفي سواحل إشبونة عندما كان متجها نحو فاس⁴²، ومن العلماء من قاوم هجوم القراصنة فلم يستسلم حتى استشهد⁴³.

ويرسم البادسي صورة قاتمة عن حالة الفزع والقلق التي كان يعيشها سكان الساحل الريفي من جراء تردد السفن الأوروبية على بلادهم فأذاقوهم سوء العذاب، ولم ينفع سكان الساحل الريفي سوى الاستنجاد بالأولياء الذين بفضل بركتهم حميت السواحل، ولم يستطع النصارى الاقتراب من بعض النقاط المائية وبعض الربط الساحلية⁴⁴، وتعتبر فتاوي ابن رشد والونشريسي خير دليل على ما تعرضت له المراكب المغربية من هجومات السفن النصرانية⁴⁵.

أما في الجانب الآخر: فغالبا ما تتطرق الكتابات الأوروبية إلى الحملات البحرية التي تعرضت لها أراضيهم، على أنها جزء من عملية قرصنة واسعة نظمتها دار الإسلام انطلاقا من بلاد الشام أو من المغرب الإسلامي ضد العالم المسيحي في صقلية والأراضي البيزنطية والسواحل الجنوبية المتوسطية لأوروبا وبلاد شبه جزيرة إيبيرية⁴⁶، مما يجعلنا نتساءل

عن تحديد عمليات القرصنة؛ فمتى يمكننا أن نصف حملة عسكرية بحرية ما بأنها حملة لأغراض القرصنة؟

الواقع أن من الصعوبة بمكان وصف ما قام به المسلمون ضد النصارى أو العكس، بأنها حملة ذات صبغة قرصنة، وذلك بالنظر إلى حالة عدم الاستقرار وانعدام الأمن التي ميزت العالم المتوسطي طيلة العصور الوسطى.

صحيح أن دول الحوض المتوسطي- سواء الشمالية أو الجنوبية- كانت تجمعها فترات هدنة، بناء على مجموعة من الموائيق الموقعة بينهما⁴⁷، لكن غالباً ما كانت هذه الهدنة نفسها تخرق لسبب أو لآخر، ومن ثم فإن بعض الباحثين ذهب إلى صعوبة الفصل بين ظاهرة القرصنة باعتبارها ممارسة فردية أو جماعية لسفن دولة ما، وبين تلك التحركات الحربية التي كانت تقوم بها الدول في إطار توسعاتها⁴⁸.

وبناء على هذا؛ فهل يمكننا أن نصف تلك الحملات البحرية التي قامت بها البحرية الإسلامية في عهد الخلافة الأموية بدمشق أو الأندلس، وتحركات الأغالبية نحو صقلية وجنوب إيطاليا، والغزوات البحرية المرابطية الموحدية في المتوسط بأنها عمليات قرصنة؟ وبالمقابل؛ فهل يمكن أن تنعت الحملات النورماندية التي تعرضت سواحل الغرب الإسلامي، وتلك الحملات الصليبية نحو المشرق، أنها عمليات قرصنة؟

إن الإجابة عن هذين السؤالين ما انفكت تؤطرهما المؤسسة الدينية التي ألفت بظلالها على مجالات عديدة من جوانب الحياة والفكر؛ فالمسلمون لا يعتبرون تلك الحملات الكبرى سوى استمراراً لخطتهم البرية التي انطلقت من الجزيرة العربية لتبليغ رسالة الإسلام، والشيء نفسه كانت تراه مؤسسة الكنيسة التي كانت تنظر إلى الحملات البحرية الأوروبية أنها استمرار لنشر المسيحية، واسترجاع للمواقع التي فقدتها مع بداية زحف الفاتحين المسلمين.

ومن ثم فإن الحملات البحرية بين الطرفين كانت تدخل في إطار الحرب المعلنة؛ فكل طرف يتوقع هجوم الطرف الآخر، إلا أنه إذا كانت بين دولتين تنتميان لديانتين مختلفتين (الإسلام والمسيحية) موائيق ومعاهدات سلم وتجارة؛ فإن العمليات الحربية التي تعترض سفنها تندرج في إطار عملية القرصنة⁴⁹.

عملياتهم هذه تمكن قراصنتهم من أسر أميرة موحدية من بنات أبي يعقوب يوسف كانت ستزف لأحد الأمراء الموحدين بإفريقية، وحملت إلى صقلية، ولما تم التعرف أنها من البيت الموحد؛ فإن النورمان عملوا على إرجاعها إلى السلطان، وهو ما كان له الأثر الطيب على نفسية الخليفة الموحد الذي بعث إلى صقلية من يرفع شكراته إلى الملك النورماني، ويسعى إلى عقد معاهدة سلم وصداقة بين الطرفين.⁵⁵

وعموما، من النادر أن نجد اتفاقية في الفترة الوسيطة لم تشر إلى ظاهرة القرصنة ومحاولة اتخاذ السبل الكفيلة للحد منها، وكان على كل دولة تربطها بدولة أخرى معاهدات سلم وصداقة وتجارة أن تلتزم بمعاينة من يمارس هذا النشاط من رعاياها⁵⁶، وذلك في محاولة لضمان حد أدنى من السلم والأمن لتنشيط المحاور التجارية البحرية؛ فقد نصت المعاهدة المبرمة بين الموحدين وجنوة في بندها التاسع عشر: أنه إذا قام الموحدون بتجهيز سفنهم لمطاردة قرصنة ينتمون إلى جنوة يكون من واجب جنوة أن تسلم سفنا للمشاركة في هذه المطاردة.⁵⁷

ورغم هذه الاتفاقيات؛ فإنه قلما كان يتم احترام فترات الهدنة أو سفن الدول الصديقة، حيث تطالعا الأحداث بعمليات قرصنة تمت في بحبوحة السلم والصداقة بين بعض الدول وبصفة خاصة مع بداية القرن 7هـ/13م والقرن 8هـ/14م⁵⁸، كما أمكننا في هذه الفترة معرفة أسماء بعض القرصان الذين كانوا يتولون قيادة عمليات القرصنة، سيما من الجانب الأوروبي⁵⁹؛ فتخبرنا الحوليات الجنوبية أنه في سنة 616هـ/1219م قام قرصان مغاربة بمطاردة الجنوي دونوديابوس (DONODEABOS) إلى حدود جزيرة سردينيا⁶⁰، وفي سنة 620هـ/1223م وسق التاجر الجنوي ريفالدو أركانتو (RAIVALDO ARCANTO) مركبا بسلع ساهم فيها أحد أمراء تونس من ميناء تونس في اتجاه إسبانيا إلا أن التاجر الجنوي عمل لتحويل اتجاه الرحلة إلى مرسليليا حيث تم الاتفاق على التخلص من المسلمين والسيطرة على السفينة، الشيء الذي أدى إلى توتر العلاقات بين تونس وجنوة⁶¹، وفي سنة 671هـ/1273م قام الجنويون في ميورقة بتحطيم سفينة كان على متنها أحد الفاسيين.⁶²

ومع بداية القرن 8هـ/14م بلغت عمليات القرصنة أوجها خلال الفترة الوسيطة حيث يورد أماري في مصنفه مجموعة من الرسائل المتبادلة بين ملوك المغرب الإسلامي

(بنو مرين وبنو عبد الواد والحفصيون وبنو الأحمر) من جهة، وملوك أراكون خايبي الثاني (Jaime II) وبيدرو الرابع (Pedro IV) من جهة أخرى، تدعو إلى ضرورة تكثيف الجهود للحد من القرصنة، ومعاقبة المتعاطين لها⁶³.

وفي الرسالة المؤرخة في 15 رجب 739هـ/27 يناير 1339م بعث بها عبد الله بن الوليد بن الأحمر لبيدرو الرابع يخبر فيها بما تعرض له رعاياه في ألمرية إثر غرق سفينتهم؛ فصادفوا جفنين لرعايا أراكون قاموا بأسر المسلمين والسيطرة على تجارتهم⁶⁴، وتكررت العملية نفسها من رعايا أراكون ضد رعايا بني نصر، عندما كان تجار من مالقة قد أوسقوا من أنفا قمحا في جفن لأحد النصارى لكن سرعان ما اعتراضهم سفن برشلونة؛ فاستولوا على ما كان في الجفن⁶⁵.

ودائما في عهد بيدرو الرابع؛ فقد اشتكى المرينيون على عهد عبد الله فارس ابن أبي الحسن المريني من توالي عمليات القرصنة الأراكونية، إذ تكشف الرسالة المؤرخة بـ28 رجب 752هـ/20 شتنبر 1352م أن عمليات القرصنة الأراكونية توالى على رعايا الدولة المرينية، والدولتان في فترة صلح "ثابت باق على عقده وصحيح عهده"⁶⁶، كما تضرر بنو عبد الواد من عمليات القرصنة القطلانية، وهو ما تخبر بها الرسالة المؤرخة بـ4 ربيع الآخر 761هـ/23 شتنبر 1360م التي توضح عملية السطو التي تعرضت له سفينة لتجار أندلسيين مشحونة بالزرع كانت متجهة نحو بلاد المسلمين⁶⁷.

كما نسجل أن الاعتداءات نفسها تعرضت لها الإمارة الحفصية، هذا مع العلم أن تونس الحفصية كانت تربطها بالقطلانيين علاقات سلم وتجارة، لكن غالبا ما كانت تنتهك هذه المعاهدات⁶⁸؛ فما هي الأسباب التي أدت إلى الانتعاش القوية لعمليات القرصنة مع نهاية القرن 7هـ/13م؟ وهل ساهم تفكك الدولة الموحدية في هذه الانتعاش؟

ويتضح أن هذه العمليات: سواء تلك التي كانت تتم بمباركة وتزكية الدولة التي ينتمي إليها القرصان، أو تلك التي يقوم بها أفراد لحسابهم الخاص، لم تكن تفرق في نشاطها بين السفن الصديقة أو غير الصديقة، كما أنها لم تكن تفرق بين السفن التجارية، وتلك التي كانت تحمل مسافرين أو حجاجا.

ولعل هذا يخالف ما ذهب إليه أحد الباحثين⁶⁹ الذي يرى أن القراصنة كانوا يحترمون السفن التي كانت تحمل حجاجا مسلمين أو نصارى؛ فرحلة ابن جبير لا يمكن أخذها دليلا يعكس مدى احترام القراصنة للحجاج، ذلك بأن ابن جبير وفي إطار وصفه هول البحر، كان كثيرا ما يورد عبارات يستفاد منها أن البحر لم يكن آمنا، وأن العدو كان يتربص بكل السفن بغض النظر عن جنسيتها ونشاطها، ولعل ما لاقاه ابن جبير وابن رشيد السبتي وبعض المتصوفة والفقهاء خير دليل على ذلك⁷⁰.

وتجدر الإشارة إلى أن هذه العمليات لم تكن موجهة ضد المسلمين فقط، وإنما كانت موجهة أيضا ضد النصارى فيما بينهم؛ ففي سنة 562هـ/1167م هاجمت سفن بيزية سفنا جنوية محملة بسلع كانت قد وسقت من الغرب الإسلامي، كما اشتركت سفن بيزية وبنندقية سنة 611هـ/1215م في عملية السطو على سفن جنوية بعد عودتها من تونس⁷¹، وقام الجنويون بعدة عمليات ضد سفن بيزيا كما هو الشأن بالنسبة إلى سنة 684هـ/1285م عندما هاجم بيسا سبينولا (Bissa Spinola) سفينة بيزية إبان عودتها من بلاد المغرب، وتكررت العملية في سنة 685هـ/1286م عندما هاجم بيني ديتا زكاريّا الجنوي (detta Zaccaria Bene) سفنا تابعة لبيزة بقناة المانش⁷².

ولعل الهدف من هذه العمليات تحقيق أرباح ولو على حساب تجار من ديانة واحدة ومن بلدة واحدة (نموذج المدن الإيطالية)، كما تعكس مدى التنافس الذي كان بين التجار الإيطاليين حول من يظفر بامتيازات تجارية مع بلاد المغرب في ظل التفوق البحري، واستمرار ضعف البحرية في الغرب الإسلامي.

وحرصا من السفن على ضمان قدر معين من الأمن؛ فإنها كانت تنظم رحلاتها على شكل قوافل في إطار رحلات جماعية تتعاون لرد هجومات القراصنة، ويرى أحد الباحثين أن مدينة جنوة وفي خضم تنظيمها لهذه الرحلات الجماعية، قد سبقت بكثير مدينة البندقية في هذا النوع من الرحلات⁷³، كما كانت السفن الإيطالية تتولى تقسيم رحلاتها إلى عدة مراحل، وتسهر على مرافقة القوافل التجارية سفن حربية تقوم بحماية وحراسة القوافل التجارية حتى توصلها إلى نقطة الحراسة الموالية وهكذا، والعملية نفسها تتكرر إبان رحلة العودة⁷⁴.

وقد يكون هذا الحرص من قبل الإيطاليين على تأمين تجارتهم مما يدل بشكل واضح على أهمية التجارة في الفترة الوسيطية، التي اعتبرت شريان الحياة الاقتصادية الإيطالية؛ فعلى هامش الانتعاش التجارية كانت تنتعش القرصنة ورحلات السطو على السفن⁷⁵، ومن ثم وجدنا من الباحثين من حاول أن يفرق بين الطبيعة التجارية لرحلات سفن البندقية ورحلات القرصنة لسفن جنوة وبيزا⁷⁶.

فالاندفاع التجاري للجنوبيين والبيزيين، واهتمامهما بالرحلات البحرية كان الهدف منه حماية تجارتهم من غزوات المسلمين، إلا أنهم سرعان ما اكتشفوا أن مزيدا من المغامرة البحرية يمكن من جني غنائم كثيرة، ولهذا أخذوا في احتراف القرصنة مستغلين تدهور البحرية في المغرب الإسلامي عقب الصراع الأموي الفاطمي، وهذا بخلاف مدينة البندقية التي كانت بحريتها موجهة أساسا للعمليات التجارية، إذ كثيرا ما قامت بحريتها بمطاردة القراصنة في بحر الأدرياتيك، وهذا بخلاف البحرية البيزية والجنوية.

ومن أجل ضمان مزيد من الأمن أنشأت مدينة جنوة مؤسسة أو مكتبا يتولى تقديم تعويضات للمتضررين من أعمال القرصنة الجنوبيين بغض النظر عن ديانتهم مسيحيين كانوا أو يهودا أو مسلمين، ولم تكن دولهم في حالة حرب مع جنوة⁷⁶؛ فيتقدم المتضرر بشكواه مع إشارته إلى تاريخ العملية، ونوع الخسارة وأسماء القرصنة وتوقيعه، ويضع شكواه بطريقة سرية في صندوق بالقصر مخصص لهذا الغرض، ويفتح الصندوق في فترات معينة من السنة، ويتولى النظر في الشكايات حكما تعتبر أحكامهم إلزامية⁷⁷.

ويرى مصطفى نشاط أن الهدف من إنشاء هذا المكتب كان "تعبيرا عن نضج [جنوة] التجاري، بأن غلبت الوسائل التفاوضية على حساب وسائل العنف في حل مشاكلها البحرية"⁷⁸.

ويجمل أن نذكر أنه من خلال الوثائق التي جمعها ماس لاتري (Mas Latrie) وديفورك (Dufourq) وأماري (Amari) ومصطفى نشاط وبنساصي ورسائل العزاوي، أن عمليات القرصنة لم تؤثر كثيرا في النشاط التجاري بين دول المغرب الإسلامي والدول الأوروبية في الفترة الوسيطية؛ فرغم تبادل الرسائل التي تشجب وتستنكر عمليات القرصنة التي كانت تتعرض لها السفن التجارية؛ فإن الدول الوسيطية لم تدخر وسعا للحد من هذا النشاط (القرصنة) الذي اعتبره أحد الباحثين نشاطا إنسانيا⁷⁹ استهدف

في الفترات الحديثة إنهاك القوى الاقتصادية للعدو وإضعافه⁸⁰، كما كانت "شكلا من أشكال حرب استنزاف على مختلف المستويات"⁸¹، ولم يتم التحكم في هذه الظاهرة إلا في الفترات الحديثة مع تفوق الأساطيل الأوروبية من الناحية التقنية، ونشوء الدول الوطنية التي تولت محاربة هذا النشاط، وإرجاع الأمن والسلام لتشجيع التجارة التي انتقلت من البحر المتوسط إلى المحيط الأطلسي مع اكتشاف العالم الجديد والانفتاح على ثرواته.

إلا أن المجال المتوسطي احتضن أغلب هذه العمليات، وذلك بالنظر إلى قدم الملاحه به، كما أن أغلب العمليات التجارية كانت تتم في هذا البحر، حيث جمعت شعوبه سواء تلك التي كانت في ضفته الشمالية ذات الديانة النصرانية أو تلك التي كانت في ضفته الجنوبية ذات الديانة الإسلامية، علاقة اقتصادية متينة لم يكدر صفوها نشاط القراصنة أو الحروب المتوالية بين الضفتين؛ فندشطت عدة طرق تجارية، وإليه كانت تنتهي الطرق التجارية الدولية سواء تلك التي كانت تأتي من المشرق الإسلامي محملة بالمواد الأسيوية (توابل وحرير وعطور ومعادن...) نحو بلاد الشام، ليتولى بعد ذلك تجار إيطاليا توزيعها في باقي بلدان أوروبا، أو تلك التي كانت تنتهي إليه من المحاور التجارية الصحراوية التي كانت تربط بلاد السودان بموانئ المغرب الشمالية، وبخاصة سبته وهنين وبجاية وتونس والمهدية، التي كان يستقر بها تجار أوروبيون يتولون نقل مواد المغرب والسودان نحو أوروبا.

الهوامش:

- 1- لمزيد معلومات حول هذه النقطة يرجع ل" روجي كواندرو، قراصنة سلا، ترجمة محمد حمود ، نشر جامعة محمد 1991. ص 7.
- 2- نموذج صقلية و الأندلس وجنوب فرنسا.---3- مالك بن أنس، الموطأ، حققه وخرج أحاديثة أبو عبد الرحمن الأخصر الأخصري، 2. الدار البيضاء 1999، ص 401.---4- أخرجه السيوطي عن عبد الله بن عمرو في الجامع الصغير رقم 5744، وقال صحيح، وحكم عليه الألباني بأنه صحيح على شرط البخاري.
- 5- L.Brunot, Nots lexicologiques sur le vocabulaire maritimes de Rabat Salé, Paris 1920, p27 Art Zihad.
- 6- برنشفيك، تاريخ إفريقيا في العهد الحفصي من القرن 13م إلى القرن 15م، ترجمة حماد الساحلي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1988، ج 2، ص 227.
- 7- عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1994، ج 2، ص 226.
- 8- زكي مبارك، "الجهاد البحري في الغرب الإسلامي"، مجلة البحث العلمي، ع 45، 1998، ص 16-17-20-21.
- 9- ابن رشد: فتاوى ابن رشد، تحقيق محمد المختار التليلي، ط1، دار الغرب الإسلامي 1987، سفر 1 ص 606-607.
- 10- أبو العباس الونشريسي، المعيار... تحقيق جماعة، بإشراف محمد حجي، طبع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دت، ج 8، ص 297-298 و 302---11- نفسه.---12- نفسه، ج 2، ص 118.

- 13- محمد الطالبي، دولة الأغالية، ترجمة المنجي العيادي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985، ص452 وما بعدها.
- 14- مثل ما ورد عند سحنون والمالكي وأبو العرب، محمد الطالبي، نفسه، ص. 452.
- 15- نفسه، نموذج زيد بن محمد الجمعي، الذي كان فقها تاجرا وكان يتعاط عمليات القرصنة حتى أنه مات في البحر على يد الصقليين. 16- نفسه، ص452-17- نفسه، ص. 587-588.
- 18- صبيحي صالح، "الحماية من القرصنة في نظر الشريعة الإسلامية"، ضمن أعمال أكاديمية المملكة المغربية الدورة 9، الرباط، أبريل 1986، يرجع لبعض فقراتها في مجلة البحث العلمي، ع 45، 1998، ص. 17-18.
- 19- ابن حوقل، صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1979، ص53/الإصطخري، كتاب الأقاليم، مكتبة المثنى، بغداد، دت، ص33-20-الونشريسي، المعيار... م. س، ص205-231.
- 21- لمزيد من المعلومات يرجع لمقال عمر عبد الله نصيف، ص17-18/مقال صبيحي صالح، ص. 215-231.
- 22- صبيحي صالح، مقال سابق، ص. 17-18 عمر عبد الله نصيف م. س، ص. 205-231.
- 23- عمر نصيف، م. س، ص210-24-أميلي، م. س، ص66. هامش 5/زكي مبارك، مقال سابق، ص23.
- 25- Hubert.D, Pirates et filibustiers, que sais-je, Paris 1952, pp 5-6
- 26- إميلي، م. س ص 66 هامش 5. و 64-63-62-61 p., EA Vallejo, Course piraterie., ندوة غ الإسلامى والغرب المسيحي.
- 27- زكي مبارك، مقال سابق، ص. 23.
- 28- Hubert, op cit pp 5 et 6
- 29- إميلي، م. س، ص. 66-30- زكي مبارك، م. س، ص. 23. سعد الزاكي، م. س، ص. 78.
- 31- H. Merrien, Histoire des corsaire, Paris 1954, p 9 et suiv
- 32- محمد الطالبي، م. س، ص. 587-588-33- زكي مبارك، مقال سابق، ص. 22-34- نفسه، ص. 23.
- 35- Monlou, Les Etats barbaresques, que sais- je Paris, 1964, p.20.
- 36- زكي مبارك، م. س، ص. 22-37- الوزان، م. س، ج1 ص65-66-38- ابن جبير، رحلة ابن جبير، مقدمة مصطفى زيادة، دت، ص69-114-219/ابن رشيد السبتي، رحلة ابن رشيد السبتي، تحقيق أحمد حدادي، رسالة مرقونة بمكتبة المجلس العلمي بمدينة وجدة، السفر 5، ص975/المقري، نفع الطيب...، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968، مج 1 ص33-35.
- 39- صورة الأرض، م. س، ص162-163/بنيامين التطيلي، رحلة ابن يونة...، ترجمة وتعليق عزرا حداد، ط1، دار ابن زيدون، بيروت، 1996، ص. 58-40- ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكلمة...، السفر 5، القسم 2، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1965، ص. 508.
- 41- نفسه، السفر 8، القسم 2، تحقيق محمد بن شريفة، مطبعة الجديدة، الرباط، 1984، ص. 509.
- 42- محمد بن أحمد المعروف بابن الجلاب نموذجاً، الصلة لابن الزبير، الذيل والتكلمة، السفر 8، ص. 519-520.
- 43- عبد الحق البادسي، المقصد الشريف...، تحقيق سعيد أعراب، ط2، الرباط، 1993، ص. 51-60-61-69-95-111-112.
- 44- ابن رشد، فتاوي ابن رشد، م. س، سفر 1، ص. 606-607/الونشريسي، المعيار، ج8، ص 297-298-302، ج2 ص 118.
- 45- Monlou, op-cit, p 27-30 et 36
- 46- نحيل هنا إلى الوثائق التي جمعها البارون Amari و De Mas Latrie
- 47- CH.Picard Océan atlantique musulman de la conquête arabe à l'époque Almohade, Paris, 1999, p 126-335-359
- 48- Mas Latrie, Relations et commerce de l'Afrique septentrional du Maghreb avec les Nations Chrétiennes au moyen âge, Paris, 1886, p 401
- 49- أما عبد الهادي التازي فيفرق بين الحرب البحرية المعلنة وبين تلك التي تخرق معاهدة أو اتفاقية فيسي الأولى حرباً، أما الثانية فتندرج في إطار عمليات القرصنة. البحث العلمي، م. س، ص. 24
- 50- عبد الإله بنمليح، إفريقية الزيرية...، رسالة مرقونة، كلية الآداب، وجدة، ص360-364.
- 51- Piraterie et Flibustiers, op-cit, p7-8-9
- 52- Mas Latrie, op.cit, p94
- 53- Ibidem---54- Ibid, p 95
- 55- عبد الهادي التازي، م. س، ص. 236-237-56- خاصة المعاهدات التالية: Mas Latrie, op-cit, p 94-95-96

- 57- بيذا وتونس 1157-1186: البند الرابع ومعاهدة 1236 والبند 22 و23/معاهدة فرنسا- تونس في البند الأول/معاهدة جنوة- تونس في البند الثاني ومعاهدة 1250، البند 23/ميورقة- تلمسان في البند 5.
- 58- Mas Lateie, op-cit, p 91
- 59- مصطفى نشاط، جنوة وبلاد المغرب، رسالة مرقونة، 1996، كلية الآداب وجدة. المملكة المغربية، ص. 254 وما بعدها. - Maximiliano, Los documentos Arabes diplomaticos del archivo de la Rona Dearucon, Madrid, 1940, p55. et ce qui suit
- 60- نموذج الجنوي "Spinola" الذي هاجم في سنة 1285 سفينة بيزية، نشاط، م. س، ص. 270. هامش 40. والجنوي "Benedette Zaccarie" الذي هاجم سنة 1286 سفنا بيزية، مصطفى نشاط، نفسه، ص. 255-61- مصطفى نشاط، م. س، ص. 254-62- نفسه، 63- نفسه،
- 64- Amari, Diplôme Arabi del Archivo fiorentino, Publicat Percura, p 105-106-65- Ibid, p 106-66- Ibid, p 106-67- Ibid, p 210-68- Ibid, p 217.
- 69- لمزيد من المعلومات حول هذه المسألة يرجع ل: 273، 272، 259، 225، Los documentos, p 70- محمد أمين البزاز، "حول نقل البحرية المسيحية لحجاج الغرب الإسلامي، تأملات في رحلة ابن جبير." ندوة الغرب الإسلامي والغرب المسيحي، نشر كلية الآداب الرباط، 1996، ص. 87-88-89.
- 71- ابن جبير، م. س، ص. 69-114-219. ابن رشيد السبتي، م. س، ص. 207-208. نفع الطيب، م. س، مج 1، ص. 33-35. والذيل والتكلمة، م. س، ص 5، ق 2، ص. 508. أحمد العزاوي، مجموعة جديدة من رسائل موحدية، القسم الأول، ط1، منشورات كلية الآداب القنيطرة، 1995، الرسائل رقم 185-281-72- مصطفى نشاط: جنوة..، م. س، ص. 269. هامش 30-73- نفسه، ص. 270. هامش 40-74- مصطفى نشاط، م. س، ص. 264-265/بشاري لطيفة، التجارة الخارجية لتلمسان في عهد الإمارة الزيانية ق. 7-10هـ، رسالة مرقونة كلية الآداب الرباط، ص. 124-75- بشاري، م. س، ص. 124-76- نفسه، ص. 254-77- أرشبالد لويس، القوى البحرية والتجارية...، ترجمة أحمد محمد عيسى، دار النهضة، دت، ص. 314-315-78- حول مختلف الدراسات التي أثرت بشأن هذا المكتب، يراجع مصطفى نشاط، م. س، ص. 265-266-79- نفسه، ص. 265-266-80- نفسه، ص. 267.
- 81- Ph. Gosse, Histoire de la piraterie, Paris, 1952. p 13.
- 82- نشاط، م. س، ص. 253-83- إميلي، "مسألة الجهاد البحري بين القرصنة المشروعة ولصوصية البحر." ندوة البحر في تاريخ المغرب، نشر كلية الآداب المحمدية، سلسلة رقم 7، سنة 1999، ص. 110.

تأثير العصبية القبلية في تأسيس الدولة المرينية

من خلال كتاب العبر لابن خلدون

The effect of tribal Assabia on the establishment of the merinid State through the book of 'Ibar d'ibn Khaldun

اسم ولقب المؤلف المرسل: خريس فاطمة- Kherris Fatima صص 147-161

الدرجة والعنوان المهني: طالبة دكتورالية تاريخ عام (وسيط)- وعضو في مختبر تاريخ الجزائر- جامعة وهران 1
البريد الإلكتروني: kherrisfatima8@gmail.com

اسم ولقب المرسل الثاني: د. حاج عبد القادر يخلف - Khllef Hadj Abdelkader

الدرجة والعنوان المهني: أستاذ محاضر أ- جامعة وهران 1 أحمد بن بلة
البريد الإلكتروني: ikhleforan31@yahoo.fr

تاريخ استقبال المقال: 2020/03/17 تاريخ المراجعة: 2020/04/01. تاريخ القبول: 2020/04/20

ملخص: يتناول موضوع بحثي هذا دراسة العصبية القبلية ودورها في قيام الدولة المرينية، بالاعتماد على كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر للعلامة ابن خلدون (ت808هـ/1406م)؛ فمن المعروف عنه أنه أولى عناية بالغة لدراسة العصبية وتفسيرها؛ فهو يعتبرها أساس قيام الدول وسقوطها، وتأتي العصبية القبلية الزناتية على رأس الأسباب التي أدت إلى تأسيس الدولة المرينية في بلاد المغرب الأقصى.

وقد خصص ابن خلدون للعصبية فصولاً عديدة في كتابه، يبين من خلالها الدور المهم للعصبية في نشوء الدول واستقرارها أو تدهورها واندهارها، وتقوم العصبية عنده إما على رابطة الدم أو رابطة الدين أو أي رابطة اجتماعية أخرى في جميع مراحل الدولة لا سيما في العصر الوسيط، وينطبق هذا على الدولة المرينية التي عاصرها، وعمل في بلاط سلاطينها، واستخلص منها نظريته حول العصبية القبلية الزناتية، ودورها في تأسيس الدولة المرينية، وقد كانت سبباً مباشراً في انتقالها من البداوة إلى الحضارة. وبناء على ذلك سوف نوضح في دراستنا هذه بداية تأسيس الدولة المرينية، مع التركيز على عصبية النسب الزناتية، وهي رابطة دموية جمعت بين القبائل، وشكلت منهم

حلفا قويا لمواجهة قساوة الحياة والعدوان الخارجي، كما سنعالج تأثير العصبية في سلوك القبائل، ويمكن اعتبار زناتة أنموذجا لهذا التأثير، ذلك أنّها فكّرت وقدّرت أنّ الانتقال من البداوة إلى الحضارة يمرّ عبر الدخول إلى المغرب الأقصى، ومن ثمّ تأسيس الدولة التي يحلمون بها، مع الإشارة إلى الصراع الذي كان قائما بين القبائل المرينية للوصول إلى الرياسة.

الكلمات المفتاحية: الدولة المرينية، العصبية، العبر، ابن خلدون، زناتة، الصراع القبلي، البداوة، الحضارة، النسب، المغرب الأقصى.

Abstract: *The topic of research deals with the study of tribal nervousness and its role in the establishment of the marinade state, based on the book of lessons and the divan of debutants and news in the days of arbas, barbarians and the berbers and their contemporary from the greatest sultan of the greatest Ibn khaldoun, as it is known that he gives a great importance his study of nervousness and the considers it the basis for the establishment and weaking of states, the tribal nervousness is considered as one of the most important reasons for the establishment of the marinade stae in the country of Maghreb.*

Ibn khaldoun divoted many chapters to nervousness in his book, he shows through I that there is an important role for the nervousness in the emergence of states and its stability and also its decomposition and extinction. It is based on either blood or religion relationship or any other social relationship in all the stages of a state, especially in the middleage and we mention the marinid state which he Tenth and worked for the sultans, and he extracted from it his theory concerning the tribal nervousness adultery of this state, and it was a dire it reason for the transition from nomadism to civilization based on that, we will clarify in this study the establishment of the marinid state with the focus on Pedigree nervousness Zinatory It is a bloody bond Between the tribes They formed a strong alliance between them for Face the cruelty of life And external aggression. The study also addresses the effect of nervousness on the behavior of tribes And thinking about the transition from nomadism to civilization Through entry to the Far East And establish a state for them With reference to the conflict that existed between the tribes marined To get to the head.

Keywords: *The Marinid state, the nervousness, the lessons, Ibn Khaldoun, Zenata, tribal conflict, Bedouin, civilization, lineage, the Far Maghrib.*

مقدمة: شهد المغرب الإسلامي خلال القرن 7هـ/13م سقوط الدولة الموحدية (524-668هـ/1130-1269م)، التي انقسمت إلى ثلاثة كيانات سياسية، من بينها دولة بني مرين الذين استوطنوا المغرب الأقصى، ودامت دولتهم أكثر من قرنين (668-869هـ/1213-1465م)، وتميّزت بقوّتها التي جعلتها تسيطر على المغرب الأقصى، وتبسط نفوذها على

جزء من بلاد الأندلس، وقد تهيأ لهم ذلك بفضل النظام السياسي والعسكري القوي الذي مكّنه من منافسة جيرانهم الزنانيين والحفصيين، وضمن لهم الاستقرار والاستمرار في حكم بلاد المغرب وقسم من بلاد الأندلس ردحا من الزمن.

تعدّ قبيلة بني مرين الزناتية البربرية نموذجاً للعصبية القبلية البدوية، حيث تمكّنت من تشكيل حلف قويّ تجمعه رابطة الدّم، وبذلك تمكّن المرينيون من تحقيق الغاية التي سعت إلى تجسيدها عصبيتهم ألا وهي الملك والرياسة، عبر الدّخول إلى المغرب الأقصى، وتأسيس دولة حضارية لها قوتها وهيبتها بين دول العدوتين المغربية والأندلسية. وتجدر الإشارة إلى أننا نهدف من خلال هذا البحث إلى التعريف بمصطلح العصبية، وذلك باللّجوء إلى مفهوم العصبية عند ابن خلدون، وسنركّز على عصبية النّسب للقبائل المرينية، وكيف استطاعت عبر تلاحمها أن تخرج من قوقعة البداوة إلى تجسيد طموحاتها على أرض الواقع، بتأسيس دولة وحضارة أثّرت على مجريات الأحداث في منطقة تواجدها، مع التطرّق إلى ذلك الصّراع المستحكم الذي كان يحدث بين الفينة والأخرى فيما بين القبائل المرينية وأبناء عمومهم بنو عسكر حول الملك.

انطلاقاً من هذه المعطيات يمكننا صياغة إشكالية رئيسة لمناقشة موضوع بحثنا مناقشة علمية موضوعية، وترتكز هذه الإشكالية حول عدد من الأسئلة لعلّ أبرزها السّؤال التّالي: هل حقيقة أنّ العصبية القبلية الزناتية كانت سبباً مباشراً في قيام دولة بني مرين؟ ويندرج تحت هذا السّؤال سؤال آخر يتمحور حول ماهية العوامل التي جعلت منها دولة قويّة لها كيانه ومكانتها؟

وتتفرّع عن الإشكالية الأمّ تساؤلات كثيرة من أبرزها ما يلي: كيف نظر ابن خلدون لمفهوم العصبية؟ وإلى أيّ مدى يمكن اعتبار عصبية النّسب المريني أساس تأسيس دولتهم في المغرب الأقصى؟ وكيف ساهمت العصبية الزناتية المرينية في تحويل القبائل من سلطة اجتماعية بدوية إلى سلطة زمنية حضارية؟ وما تفسير تلك الصّراعات التي نشأت فيما بين القبائل المرينية بعد دخولهم للمغرب الأقصى؟

ومما يجب التّأكيد عليه أننا أثّرنا الاعتماد في هذه الدّراسة على المنهج التّاريخي الوصفي التّحليلي، الذي يقوم على جمع المادّة العلميّة المتعلّقة بالموضوع وتحليلها تحليلًا

منطقيًا، نسعى من خلاله إلى مناقشة الأحداث وتفسيرها تفسيرًا موضوعيًا بجانب الصواب ويقترب من الدقة قدر الإمكان.

1- مفهوم العصبية:

1.1- التعريف اللغوي للعصبية: يرجع أصل كلمة العصبية في اللغة إلى لفظ "العصب"، ومعناها الطي الشديد⁽¹⁾، وعصب الشيء يعصبه عصبًا طواه ولواه، وقيل شدّه، والتعصب تعني المحاماة والمدافعة، وتعصبنا له ومعنا نصرنا، وعصبة الرجل: بنوه وقربته لأبيه، وإنما سموا عصبية لأنهم عصبوا بنسبه أي أحاطوا به؛ فالأب طرف والابن طرف، والعلم جانب والأخ جانب والجمع العصبات⁽²⁾، ومنه قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾⁽³⁾، ومنه الحديث الشريف عن رسول الله (ﷺ): {اللَّهُمَّ إِنَّ تَهْلِكَ هَذِهِ الْعِصَابَةُ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ، لَا تُعْبَدُ فِي الْأَرْضِ}⁽⁴⁾. والمعنى واضح في هذه الآية الكريمة والحديث الشريف من أن العصبية تتولد في الجماعة المتحدة فتنشأ بينها رابطة قوية.

ويقول العرب عن الرجل العزيز الشديد الذي لا يقهر ولا يستدل: "فلان لا تعصب سلماته"⁽⁵⁾، كما يسمون السيد المطاع مُعَصَّبًا، لأنه يعصب بالتأج، أو تُعَصَّب به أمور الناس، أي ترد إليه وتدار به، والعمائم تيجان العرب⁽⁶⁾، وبالتالي فالمتعصب لشيء بالمعنى اللغوي العام هو المتصّف بالميل الشديد إليه؛ فهو نقيض الحرية والتسامح⁽⁷⁾.

يشير الباحث عبد الغني مغربي أنه للعصبية عدة معانٍ قائلا: إنها "مشتقة من لفظ "عصب" الذي يعني حرفياً: ربط، تجمّع، شدّ، أحاط، اجتمع... ثم إن عدداً من الألفاظ المشتقة من نفس الأصل، تتضمن نفس الفكرة: عصب "جعل شخصاً على رأس الحزب"، تعصب "عصب رأسه بعصابة، كان متعصباً"، انعصب "أصبح قاسياً" وعصب "عمامة"، وعصب "نخبة قليلة، عصب"، وعصابة "جماعة من الرجال"، ومعصب "زعيم وسيد"⁽⁸⁾، وثمة من يرى أن العصبية مشتقة من العصب الذي يعني "أطناب المفاصل التي تلائم بينها وتشدها"⁽⁹⁾.

يتبين لنا من خلال التعاريف السابقة أن العصبية أو العصبية تكون بين الأفراد الذين تجمع بينهم رابطة الدم، أو رابطة الحلف أو الولاء، لأنه شعور جماعي مشترك لدى

الأفراد، وبالتالي تتشكل بينهم قوّة جماعية تمنحهم القدرة على مواجهة العدو والظروف الصّعبة في حياتهم من خلال التّشارك بين القبائل.

2.1- التّعريف الاصطلاحي للعصبية: عزّف ابن خلدون العصبية بأنّها: "النّعمة"⁽¹⁰⁾ على ذوي القربى وأهل الأرحام أن ينالهم ضيم أو تصيهم هلكة"⁽¹¹⁾، ومعناها أنّ الأصل في العصبية القرابة من النّسب، أي أنّها تكون في أهل النّسب الواضح وفي أصهارهم أو من انتسب إليهم بالولاء أو الحلف، ولكنّ النّسب لا قيمة له في العصبية إلّا إذا كان به رابطة مصلحة أو الجوار"⁽¹²⁾، وهذا ما ذكره ابن خلدون في تاريخه من قول رسول الله (ﷺ): {تَعَلَّمُوا مِنْ أُنْسَابِكُمْ مَا تَصِلُونَ بِهِ أَرْحَامِكُمْ؛ فَإِنَّ صِلَةَ الرَّحِمِ مَحَبَّةٌ فِي الْأَهْلِ، مَثْرَأٌ فِي الْمَالِ، مَنْسَأَةٌ فِي الْأَثْرِ}⁽¹³⁾، بمعنى أنّ الصّلة تتعلّق بذوي الأرحام كلّها لا بالوالدين فقط، ذلك أنّ صلة الرّحم محبّة، أمّا النّسب فهو سبب في الالتحام الذي يوجب صلة الأرحام حتّى تقع النّعمة والمناصرة؛ فالنّسب أمر وهمي لا حقيقة له، ونفعه إنّما هو في هذه الوصلة والالتحام"⁽¹⁴⁾؛ فهذا دليل على أنّ العصبية تهدف إلى الرّبط بين الأفراد الذين تجمعهم رابطة دمويّة أو جوارية؛ فتنشأ بينهم قوّة واتّحاد لمواجهة مشاكل الحياة، وبالتالي يسعون للمحافظة على هذا الاتّحاد أو الرّابطة.

والعصبية أو العصبية التي يقصدها ابن خلدون لا تعني مطلقاً الجماعة، بل تتكوّن من أقارب الرّجل الذين يلازمونه، وهذا يعني أنّ العصبية تقوم أساساً على القرابة، كما أنّ جميع أقارب الرّجل ليسوا بالضرّورة عصبه له، بل فقط الذين يلازمونه منهم"⁽¹⁵⁾، كما أنّها الصّورة التي تعكس المجتمع البدوي، والقوّة القادرة على حفاظ التّرابط عند المجتمع البدويّ والقبيلة، وتساعد في الانتقال من العمران البدويّ إلى العمران الحضاريّ، والوصول إلى الملّك والاحتفاظ به، والذي يعدّ الهدف الأسمى للعصبية في المجتمع البدويّ"⁽¹⁶⁾.

اعتبر الباحث روزنتال أنّ العصبية هي القوّة التي تساهم في تطوّر وتحديد مصيرها"⁽¹⁷⁾؛ فهذا يعني أنّ القوّة التي تستند عليها هذه الأسرة أو تلك في استيلائها على السّلطة لا بدّ أن تكون نابعة عن طبيعة المجتمع القبليّ نفسه، وليست هذه القوّة إلّا العصبية ذاتها"⁽¹⁸⁾؛ فالعصبية عند ابن خلدون هي القوّة الجماعية التي تمنح القدرة على المواجهة، سواء كانت المواجهة مطالبة أو دفاعاً"⁽¹⁹⁾.

نستنتج ممّا سبق أن العصبية حسبما أشار إليها ابن خلدون تتشكّل من الالتحام بالنسب، وتؤثر في كلّ من ينتمون إليه من خلال التلاحم وزرع المحبة بينهم، وبالتالي إمكانية تشكّل مجتمع، انطلاقاً من القبيلة أو العشيرة، بالسعي إلى تنظيم هذه القبائل والالتحام فيما بينها لمواجهة العدو، ثمّ الانتقال إلى مرحلة التوسّع والتفكير في تأسيس دولة، وهو ما حدث بالضبط مع بني مرين في مسار انتقالهم من البداوة إلى الحضارة، وتأسيسهم للدولة المرينية.

2- عصبية النسب عند القبائل المرينية: كان بنو مرين يمثلون قسماً قوياً من قبائل زناتة⁽²⁰⁾، وينسبون إلى جدّهم مرين بن ورتاجن بن ماخوخ بن جديج بن فاتن بن يدّر بن يخفت ابن عبد الله بن ورتيّص بن المعزّ بن إبراهيم بن سجيك بن واسين، وأنهم إخوة بني يّلومي ومديونة⁽²¹⁾.

وهناك من المؤرّخين من أرجعهم إلى النسب الشّريف؛ فقد ذكر الفقيه أبو عبد الله محمد بن علي السّلي صاحب "العلامة السلطانية في الحضارة التونسية" أنّ بني مرين شرفاء، ويرجع نسبهم إلى البيت النبويّ، حيث قال: "يعقوب بن عبد الحق بن محيو بن أبي بكر بن حمّامة بن محمد بن علي بن تاشفين بن يحيى بن علي بن إبراهيم بن إسماعيل بن عمر بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه⁽²²⁾، وهناك من أرجعهم إلى ولد إدريس بن عبد الله بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه⁽²³⁾، وإن كان هذا القول صحيحاً لكنّ المرينيين لم يستغلّوه ويؤسّسوا دولتهم بسبب النسب الشّريف، بل فرضوا سيطرتهم بالقوّة والرّغبة في الاستقرار، بغضّ النظر عن القيم والملكات الروحية والخبرة السياسية التي كان يتمتع بها أمراؤهم.

ويذكر نسبهم أنّ الرّياسة فيهم قبل تلك العصور كانت لمحمّد بن ورزين بن فكّوس بن كوماط بن مرين⁽²⁴⁾، وأنّه كان لمحمّد إخوة آخرون يعرفون بأهمّ تنالفت، وكان بنو عمّه ونكاسن بن فكّوس، وكان لمحمد من الولد سبعة: شقيقان وهما حمّامة وعسكر⁽²⁵⁾، ولمّا هلك محمد قام بأمر بني مرين ابنه الأكبر حمّامة ومن بعده عسكر، ثمّ تولّى الحكم من بعده المخضّب⁽²⁶⁾، الذي بقي أميراً عليهم إلى قيام أمر الموحدّين⁽²⁷⁾ الذين تمكّنوا من القضاء عليه، ثمّ تولّى من بعده أبو بكر ابن عمّه حمّامة بن محمد⁽²⁸⁾ إلى أن هلك؛ فقام بالأمر من بعده ابنه محيو⁽²⁹⁾، الذي ساعد الدولة الموحدية في حروبها على الأندلس⁽³⁰⁾.

نلمس من خلال ما سبق أنّ رابطة النّسب كانت واضحة في ترابط قبائل بني مرين، وهي أهمّ ميزة في تأسيس الدّول في العصر الوسيط، وقد شكّل النّسب القريب لقبائل بني مرين قاعدة قائمة على أساس الحلف والولاء، ولهذا فإنّ النّسب الحقيقيّ هو ذلك الانتماء الدّمويّ الذي تكون فيه العصبية أشدّ كلّما كانت الوصلة ظاهرة من خلال النّسب القريب؛ فإنّ القرابة إذن هي قاعدة العصبية عند بني مرين.

3- دور العصبية النّسبية في إلتحام القبائل المرينية: إنّ أساس الرّابطة العصبية بين القبائل هو تلك الحميّة الصّادرة عن الفطرة، بحيث يقوم الأفراد بمناصرة أقربائهم في الدّم، حيث يقول ابن خلدون: "وما جعل الله في قلوب عباده من الشّفقة والتّعرة على ذوي الأرحام وأقاربهم موجودة في الطّبائع البشريّة"⁽³¹⁾، وكان بنو مرين هؤلاء يمثّلون قسما قويّا له عراقته وسطوته بين القبائل⁽³²⁾، ويؤكّد ذلك ابن أبي زرع الفاسي من خلال قوله: "فهم أعلى قبائل زناتة حسبا، وأشرفها نسبا، وأغزرها كرما، وأحسنها شيما، وأرعها ذماما، وأشدّها في الحروب بأساً وإقداما، وأكثرها ديناً، وأحسنها ظناً، وأصلحها يقيناً، وأوفاهها عهداً، وأوفرها عددا"⁽³³⁾، ويستشفّ من هذا القول أنّ الرّئاسة تنسب للذين يتميّزون بكلّ معالم القوّة والهيبة عن بقية العصائب الأخرى، والأهمّ في ذلك أنّها تتمتع بنسب راق يمنحها أفضلية النّسب عن غيرها إلى جانب الكثرة العددية التي تجعلها أكثر عزيمة، ولهذا فإنّ بقية الأفراد عليهم اتباع أوامر عصبية القوة والخضوع والطّاعة لها. شهدت قبائل بنو مرين تلاحماً فيما بينها ساعدها في تأسيس دولتها، ويعود ذلك إلى النّسب الرّناتي الذي يربط بينهم خاصّة في الحروب؛ فإذا كان النّسب المتواصل بين المتناصرين قريباً جدّاً بحيث يحصل به الاتّحاد والالتحام كانت الوصلة ظاهرة؛ فاستدعت ذلك بمجرد ووضوحها، وإذا بعُد النّسب بعض الشّيء فرُبّما تُنوسي بعضها، ويبقى منها شهرة فتحمل على النّصرة لذوي نسبه⁽³⁴⁾.

فقد استدعاهم المنصور الموحّدي (580-595هـ/1184-1198م)⁽³⁵⁾ للجهاد في الأندلس، والمشاركة في غزوة الأرك⁽³⁶⁾ سنة 591هـ/1195م، وتوجّه إلى بلاد الأندلس الأمير محيو بن أبي بكر المريني ومعه قيادة متطوّعة من قبائل بني مرين وقبائل زناتة وغيرهم⁽³⁷⁾، وقد أبلى بنو مرين في هذه المعركة بلاءً حسناً، وأصيب الأمير محيو بجراحات

ثقيلة أدت إلى وفاته لما عاد إلى البلاد من الغزوة، وتوفي سنة 591هـ/1195م بصحراء الزاب⁽³⁸⁾.

يذكر الباحث الجابري أنّ النسب هو الأساس الذي تقوم عليه الرابطة العصبية سواء كان حقيقة أم وهما، ومحرّك كلّ هذا المصلحة المشتركة الدائمة للجماعة⁽³⁹⁾، حيث يقول ابن خلدون: "فلا يصدق دفاعهم وزيادهم إلا إذا كانوا عصبية وأهل نسب واحد لأنهم بذلك تشتد شوكتهم ويخشى جانبهم، إذ نعمة كل أحد على نسبه وعصبية⁽⁴⁰⁾".

وما يؤكّد كلام ابن خلدون المصالح المشتركة التي كانت بين قبائل بني مرين، بخاصة بعدما دخلوا إلى المغرب الأقصى، وقاموا باستدعاء إخوانهم وقبائلهم للالتحاق بهم فيه والاستيلاء عليه، وفي هذا الشأن يقول ابن أبي زرع الفاسي: "وأمام هذه الظروف السيئة أرسل المرينيون إلى إخوانهم وقبائلهم يخبرونهم بحال البلاد وخلاتها وخصبها ونقاء هوائها، وسعة مسارحها ومراعها وعدوبة مياهها، وكثرة أنهارها والتفاف أشجارها وبركات ثمارها، ويأمرونهم بالمسير إليها والقدوم عليها؛ فليس ثمّ من يصدّهم عنها ولا ينازعهم فيها؛ فوصل الخبر إلى أشياخ مرين؛ فشدوا رحالهم وأقبلوا إلى المغرب مسرعين، حتّى وصلوا إلى وادي تلاغ، ودخلوا المغرب من تلك الباب بالخيال والإبل والمراكب والقباب في جيوش كالسيل أو التمل أو الجراد المنتشر"⁽⁴¹⁾.

فالعصبية القبلية القويّة التي تميّزت بها القبائل المرينية شكّلت منهم حزبا قويا أدخل الرعب في قلب العدو، وتمكّنوا من السيطرة على العديد من الأماكن في المغرب الأقصى واتسع نطاقهم، وفي هذا الشأن يقول ابن خلدون: "والسبب في ذلك أنّ الملك إنّما يكون بالعصبية، وأهل العصبية هم الحامية الذين ينزلون بممالك الدولة وأقطارها وينقسمون عليها؛ فما كان من الدولة العامة قبيلها وأهل عصابتها أكثر، كانت أقوى وأكثر ممالك وأوطاناً، وكان ملكها أوسع لذلك"⁽⁴²⁾؛ فلا نبالغ إذا قلنا إنّ الدولة المرينية تأسست بفعل عصبية النسب التي حقاً شكّلت منهم حلفا قويا؛ فواجهوا صعوبات التنقل، وتمكّنوا من الدخول إلى المغرب الأقصى وتأسيس دولة قويّة مترامية الأطراف.

4- انتقال قبائل بني مرين من البداوة إلى الحضارة: هناك مجموعة من الأسباب التي دفعت بني مرين للانتقال من البداوة إلى الحضارة، ولعلّ من بين أهم هذه الأسباب:

1.4- البحث عن أسباب العيش: إنّ الطابع البدوي الذي تميّزت به حياة بني مرين فرض عليهم البحث والتّنقل لإيجاد المراعي الخصبة ترعى فيها ماشيتهم التي تعتبر مصدر حياتهم⁽⁴³⁾؛ فقد كانت قبائل بني مرين تنتشر بمجالات القفر من فيكيك⁽⁴⁴⁾ إلى سجماسة⁽⁴⁵⁾، إلى ملوية⁽⁴⁶⁾، وربّما يتخطّون في ظعنهم⁽⁴⁷⁾ إلى بلاد الرّاب⁽⁴⁸⁾.

كانت القبائل المرينية منذ عهد الدولة الموحدية تنتقل شمالا إلى التّول والأرياف للترؤد بما يحتاجونه من متطلّبات حياتهم، وبيع ما في حوزتهم منها، وبخاصّة في فصلي الرّبيع والصّيف، وتمتدّ رحلتهم إلى أجريسيف⁽⁴⁹⁾، إلى وطّاط، حيث كانوا يأمنون مع بقايا قبائل زناتة مثل مكناسة⁽⁵⁰⁾ في جبال تازي⁽⁵¹⁾، وبني يرنيان ومغراوة الذين كانوا يقطنون في قصور وطّاط في المناطق المرتفعة من وادي ملوية، ويقضون فصل الشّتاء في هذه المناطق⁽⁵²⁾، ولهذا فإنّ مصدر العصبية هي الحياة البدوية، وما يعانيه أفرادها من حالة القساوة والشّدّة وطبيعة الحياة التي تتميز بالعنف والصراع من أجل البقاء⁽⁵³⁾؛ فإنّ القبائل تسعى إلى عمل المستحيل من أجل العيش؛ فعند الحاجة تقوم بالالتحام فيما بينها لمواجهة قساوة الحياة أو العدوان وكلّ أشكال الظّلم.

لم يكن للقبائل المرينية مكان محدّد يستقرون فيه، بل كانوا يعيشون حياة البدو الرّحل الذين وصفهم ابن خلدون بقوله: "فهؤلاء المتوحّشون ليس لهم وطن يرتافون⁽⁵⁴⁾ منه، ولا بلد يجنحون إليه؛ فنسبة الأقطار والمواطن إليهم على السّواء؛ فلهذا لا يقتصرون على ملكة قطرهم وما جاورهم من البلاد، ولا يقفون عند حدود أفقهم، بل يظفرون إلى الأقاليم البعيدة، ويتغلّبون على الأمم النّائية"⁽⁵⁵⁾.

أشار الباحث كنون (ت1410هـ/1989م) إلى سياسة قبائل المرينيين قبل انتقالهم إلى مرحلة الحضارة قائلا: "ولم تكن لهذه القبائل في بلادها فوضى ولا نظام ولا قانون، بل كانت خاضعة لأحكام الشرع الشريف في معاملاتها وأحوالها الشخصية، وكانت تقيم على رأسها زعيما كسائر القبائل، يسمى بالأمير تحقيقا لاستقلالها الذاتي"⁽⁵⁶⁾.

ورغم أنّ ابن خلدون يركّز على الدّعوة الدّينية، ويعتبرها ضرورية في نشوء الدّولة واستقرارها حيث يقول: "فالدّعوة الدّينية تزيد الدّولة في أصلها قوّة على قوّة العصبية التي كانت لها من عددها"⁽⁵⁷⁾ إلا أنّ بني مرين لم يعتمدوا على الدعوة الدّينية في تأسيس دولتهم، بل إنّ الظروف السياسية الصعبة التي كانت تشهدها الدولة الموحدية عقب

هزيمتها الكبرى في معركة حصن العقاب (609هـ/1212م)⁽⁵⁸⁾ بالأندلس، شجعتهم في أداء دورهم السياسي والانتقال من بلاد القفار إلى المغرب الأقصى، وتأسيس دولة قويّة لها حضارتها، دون أن تتبني اتجاهها دينيًا كما فعل المرابطون والموحدون وغيرهما من الدّول التي تأسست في بلاد المغرب.

2.4- الهروب من دفع الإتاوة: كانت قبائل بني مرين تسعى إلى الابتعاد عن الضرائب الباهضة التي كانت تفرضها الدّولة الموحدية على القبائل، لذلك كانوا لا ينتمون لسلطان أو حاكم حتّى لا يفرض عليهم دفع الإتاوة، وفي هذا الشأن يروي لنا ابن زرع الفاسي (ت726هـ/1326م) حياة المرينيين قائلا: "لا يعمرون إلّا القفار، ولا يؤدّون لسلطان بدرهم ولا دينار، ولا يدخلون تحت حاكم ولا سلطان، ولا يرضون بذلّ ولا هوان، لهم همم عالية ونفوس إلى المعالي سامية، لا يعرفون الحرث ولا التّجارات، ولا يشتغلون بغير الصّيد والغارات، جلّ أموالهم الإبل والخيّل"⁽⁵⁹⁾.

3.4- تدهور أوضاع المغرب الأقصى بعد سقوط الدّولة الموحدية: أصبح المغرب قبيل دخول قبائل بني مرين مليئًا بالاضطرابات السياسية والفتن الداخليّة؛ فقدت خلالها الدّولة الموحدية مكانتها بين القبائل، حيث يصف لنا صاحب الذّخيرة أحوال بلاد المغرب قائلا: "فوجدوا المغرب خاليا قد باد أهله ورجاله، وفي خيله وحماته وأبطاله، وقُتلت قبائله وأقياله، قد استشهد الجميع في غزوة العقاب؛ فأقفرت بلادهم الموحدون؛ فعمرها البوم والسّباع والدّئاب"⁽⁶⁰⁾.

انتشر بنو مرين قبل دخولهم المغرب الأقصى على الحدود المطلّة على وادي ملوية، في الجبل الفاصل بين بلاد المغرب وبلاد الصّحراء⁽⁶¹⁾؛ فالأمر الذي دفع بهم للنزوح إلى هذه المنطقة هو الابتعاد عن المشاكل مع القبائل الزناتية الأخرى التي كانت في المغرب الأوسط، والتفكير في الدخول إلى بلاد المغرب الأقصى، التي أصبحت مهيّأة للسيطرة عليها نتيجة ضعف الحكّام والمشاكل السياسيّة التي كانت تتخبّط فيها الدّولة الموحدية.

4.4- شخصيّة الأمير عبد الحقّ بن محيو (592-614هـ/1195-1217م): دخل المرينيون المغرب الأقصى سنة 610هـ/1213م بزعامة الأمير عبد الحقّ بن محيو المريني، الذي كان فيه وفي ذريّته الملك والرّياسة، وهو أبو الأملاك من بني مرين⁽⁶²⁾، "وكان خير أمير عليهم قياما بمصالحهم" على حدّ قول ابن خلدون⁽⁶³⁾، ويعتبر أول من نقل المرينيين من مرحلة

البدوة في القفار إلى مرحلة الحضارة، والتفكير الفعلي في تأسيس دولة لهم في المغرب الأقصى⁽⁶⁴⁾.

إنّ اختيار الملك ليس بالأمر السهل فهو أساس الدولة، ولهذا يجب أن يكون عادلاً جواداً يجلّ العلماء وأساطين الدين؛ فهو خليفة الله في أرضه، وأنّ الله اختاره لينقذ أوامره ويؤيد دينه، ويحقق العدل في حكمه، ويجب أن يتّصف بجميع الصّفات اللّازمة لتأدية هذه المهمة⁽⁶⁵⁾، وقد تميّز هذا الأمير بمجموعة من الصّفات التي أثّرت على السلوك البدوي للقبائل المرينية، ممّا أعطى انطباعاً حسناً عن المرينيين لدى كثير من سكان المغرب الأقصى؛ فأحبّوهم ووجدوا في الانضمام إليهم الأمن والأمان الذي فقدوه في ظلّ السّلطة الموحدية⁽⁶⁶⁾.

5.4- الرّغبة في تأسيس دولة حضارية: بدأ بنو مرين يفكّرون في ضرورة الاستحواذ على خيرات بلاد المغرب التي لم يشهدوها من قبل في الصّحراء، وأصبحوا يميلون إلى إنشاء حضارة تتمتع بالأمن والاستقرار ونشر العلم، ولكنّ ذلك لن يتحقّق لهم إلاّ بعد الإطاحة بالدولة الموحدية التي كانت تشكّل عائقاً أمام طموحاتهم⁽⁶⁷⁾؛ فقد أشار إليها الشاعر قائلاً:

قدمت مرين إلى بلاد المغرب والسعدُ يصطحبها بنيل المطلب

في عام عشرة من بعد ستّ قد مضت مئين فاحفظ وقيدُ واكتب⁽⁶⁸⁾

استغلّ المرينيون حكم المستنصر الموحد (594-620هـ/1198-1224م)⁽⁶⁹⁾، الذي كان "غلاماً لم يبلغ الحلم، وشغلته أحوال الصّبا وجنونه عن القيام بالسياسة وتديب الملك"⁽⁷⁰⁾؛ فساهموا في توسيع نفوذهم في المغرب الأقصى بكلّ الوسائل، ولمّا أدرك المستنصر الخطر المرينيّ حشد جيشاً من الموحدّين بلغ تعدادهم عشرين ألف مقاتل من قبائل مكناسة وتسول والبرانس وسدراته وهوارة وصنهاجة وفشتالة ولمطة وغيرهم بقيادة أبي علي بن وانودين للقضاء على حركتهم، والتقى الجمعان عند وادي نكور⁽⁷¹⁾؛ فكان الانتصار للمرينيين، وامتأّت أيديهم بالغنائم، وفرّ الموحدون إلى فاس⁽⁷²⁾ عرايا يسترون عوراتهم بأوراق المشعلة⁽⁷³⁾، ولذلك سمّيت الواقعة بعام المشعلة⁽⁷⁴⁾.

لقد أعطت هذه الواقعة دفعا قوياً للمرينيين لكي يستمرّوا في التوسّع على حساب ممتلكات الموحدّين، ويتمكّنوا في الأخير من القضاء على دولتهم نهائياً، والدّخول إلى مراكش سنة 668هـ/1269م⁽⁷⁵⁾ بعد معارك طاحنة وعنيفة معهم، وأقاموا دولة قويّة

ساهم حكامهم في تثبيت دعائمها واستقرارها، فضلا عن دورهم الجهادي في الأندلس للقضاء على الممالك النصرانية خدمة للإسلام ونصرة المسلمين بها.

وقد ساهم بنو مرين في تأسيس حضارتهم، وترسيخ المذهب المالكي في المغرب بطريقة مكيئة لا رجعة فيها، إلى جانب بناء المدارس ورفع راية الجهاد بالأندلس⁽⁷⁶⁾، وإحياء المولد النبوي الشريف، حيث قال ابن خلدون لما رحل إلى بلاد الأندلس، ووجد عادات ملوك بني مرين قد أثرت فيهم: "ثم حضرت ليلة المولد النبوي لخامسة قديمي، وكان يحتفل في الصنيع فيها والدعوة، وإنشاد الشعر اقتداء بملوك المغرب"⁽⁷⁷⁾، وهو ما يدل على العظمة والتأثير اللذين أصبحت تتمتع بهما القبائل المرينية التي بدأت بالعصبية القبيلة، وكانت غايتها القصوى هي التحول إلى عصبية عامة تساعد في تشكيل دولة تتمتع بالسلطة المركزية في حكم بلاد المغرب والأندلس.

خاتمة: اعتمدت الدولة المرينية على العصبية القبيلة بالدرجة الأولى، واعتبرتها محورا لتأسيس الدولة ومحركا لصيرورتها، على عكس الدول الفاطمية والمرابطية والموحدية وغيرها من الدول التي اعتمدت على العصبية الدينية كمنطلق لنشر مبادئها وتعاليمها، من أجل الوصول إلى إنشاء دولة قوية؛ فمن خلال ما تقدم ذكره في هذه الدراسة يمكن الخروج بالنتائج التالية: - يعتبر ابن خلدون أن العصبية رابطة تجمع بين أفراد المجتمع البدوي، وتنشأ بينهم عن طريق صلات دموية أو جوارية، تجعلهم يتعاونون فيما بينهم لمواجهة قساوة الحياة والعدوان الخارجي من أجل البقاء، وهي كذلك شرط أساس لتحقيق الملك، والانتقال من مرحلة البداوة إلى مرحلة الحضارة.

- تعتبر دولة بني مرين نموذجا للدول التي تأسست اعتمادا على العصبية القبيلة؛ فقد شهدت تلاحما فيما بين أفرادها، وشكلت منهم حلفا قويا، تمكنوا من خلاله الدخول إلى المغرب الأقصى والسيطرة عليه، وهو ما يؤكد صدق النظرية الخلدونية القائلة بأن تأسيس الدول في العصر الوسيط كان يخضع لقوة العصبية.

- تأثير شخصية عبد الحق بن محيو المريني على سلوك بني مرين بواسطة خصاله النبيلة وخبرته السياسية والعسكرية، التي جعلته يؤثر في عقلية القبائل البدوية الصحراوية ويحولها إلى قبائل طالبة للتحضّر تسعى إلى إقامة دولة في المغرب الأقصى بالإضافة إلى محاولتها القضاء على الفساد الذي عمّ أرجاء المغرب بعد سقوط دولة الموحدية ونشر الأمن والاستقرار.

الهوامش:

- 1- الفراهيدي، خليل بن أحمد، كتاب العين مرتباً على حروف المعجم، تج: عبد الحميد هندواوي، دار الكتب العلمية، ط1، 1424هـ/2003م، ج3، ص166-2- ابن منظور الإفريقي، لسان العرب، دار صادر، بيروت، 1414هـ/1993م، مج5، ص602، 606-3- سورة يوسف، الآية:8-4- مسلم أبو الحسين القشيري، صحيح مسلم المسند الصحيح المختصر من السنن بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، تج أبو قتيبة نظر محمد الفارابي، دار طيبة، الرياض، ط1، 1427هـ/2006م، رقم الحديث 1763، ص843.
- 5- الأزهرى، محمد بن أحمد، تهذيب اللغة، تج محمد علي النجار، دار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، دت، ج2، ص48.
- 6- الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، تج عبدالكريم العزباوي، مراجعة إبراهيم السمرزاني وعبد الستار أحمد فراج، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، ط2، 1407هـ/1987م، ج3، ص387-7- أحمد زايد، سيولوجية العلاقات بين الجماعات (قضايا في الهوية الاجتماعية وتصنيف الذات)، عالم المعرفة، الكويت، 1427هـ/2006م، ص58-8- عبد الغني مغربي، الفكر الاجتماعي عند ابن خلدون، تر محمد بن شريف بن الدالي حسين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1988، ص145-9- الزبيدي، المصدر السابق، ج3 ص375-10- النعرة: تعني الصراخ في الحرب أو الشر، ونعر القوم: هاجوا واجتمعوا في الحروب. ابن منظور، المصدر السابق، مج5 ص222/ الفيروز آبادي مجد الدين محمد بن يعقوب، قاموس المحيط، تج مكتب تحقيق التراث، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط8، 1426هـ/2005م، ص484-485.
- 11- ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد الحضرمي الإشبيلي، تاريخ ابن خلدون المسعى العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، تج خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، 1421هـ/2000م، ج1 ص160-12- عمر فروخ، تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون، دار العرب للملايين، بيروت، ط4، 1983م، ص698.
- 13- العسقلاني أحمد بن علي بن حجر، هداية الزواة إلى تخرية أحاديث المصايح والمشكاة، تخرية محمد ناصر الدين الألباني، تج علي بن حسن عبد الحميد الحلبي، دار ابن القيم، الدمام- دار ابن عقان، القاهرة، ط1، 1422هـ/2001م، مج4، رقم 4862، ص414.
- 14- ابن خلدون، المصدر السابق، ج1 ص161-15- محمد عابد الجابري، فكر ابن خلدون العصبية والدولة (معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط6، 1994م، ص167-16- جهاد علي السعيدة، دراسة تحليلية نقدية للمأخذ على فكر ابن خلدون في نظريته للعرب ونظريتي العصبية والدولة والمنهج الذي أتبعه، مجلة جامعة دمشق، دمشق، ع30، مج3 و4، 2004م، ص503.
- 17-Erwin Rosenthal, Ibn Khaldoun, A North Arabian Muslim Thinker of the Fourteenth Century, Manchester University 1940.P13
- 18- فيروز عثمان صالح، الخلافة والعصبية والملك عند ابن خلدون، مجلة دراسات إسلامية، جامعة الخرطوم، ع1، 1428هـ/2007م، ص20-19- محمد عابد الجابري، المرجع السابق، ص170-20- زناتة: من قبائل البئر البربرية، وهناك اختلاف بين المؤرخين في نسبهم للاطلاع على هذا الاختلاف، ينظر: القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تج: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط2، 1400هـ/1980م، ص273-274/ ابن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص4/ ابن حزم، أبو محمد علي الأندلسي، جمهرة أنساب العرب، تج عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة، ط5، 1982م، ص495.
- 21- ابن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص221/ هناك اختلاف كبير بين المؤرخين حول تسلسل أجداد بني مرين، فهناك من كان يذكر الاسم الحقيقي للجد والبعض كان يذكر لقبه الذي كان يلقب به بين البربر. ينظر إلى هذا الاختلاف: القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي، صُبْح الأعشى في صناعة الإنشاء، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1333هـ/1915م، ج5 ص194/ ابن أبي زرع الفاسي، الذخيرة السنيّة في تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور للطباعة والنشر، الرباط، 1392هـ/1972م، ص15/ ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور، الرباط، 1972م، ص278-279-22- نفسه، ص278.
- 23- ابن مرزوق، محمد بن أحمد التلمساني، المسند الصحيح في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تج ماريا خيسوس بيغيرا، تق: محمود بوعيّاد، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1401هـ/1980م، ص109-110/ ابن الأحمر أبو الوليد إسماعيل الخزرجي، روضة النسرين في دولة بني مرين، مطبوعات القصر الملكي، الرباط، 1382هـ/1962م، ص8-9-24- يحيى ابن خلدون، محمد بن محمد بن محمد بن الحسن، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، مطبعة بيرفونطانا، الجزائر، 1321هـ/1903م، مج1، ص101.
- 25- هناك من أرجع رئاسة المرينيين إلى ماخوخ الزناتي، وهو الجد الأعلى للمرينيين الذي من نسله تفرقت قبائل المرينيين وعشائرها. ينظر: ابن أبي زرع الفاسي، الذخيرة السنيّة، ص19-26- لتوضيح أكثر فإن ماخوخ الزناتي ولد ورتاجن بن ماخوخ وولد ورتاجن

- بن ماخوخ مرين، وولد ورتاجن بن مرين جميع شعوب قبائل بني ورتاجن، وهو تسع عشرة قبيلة، أما جرماط بن مرين فولد ولدين: فجوس وبابان، فولد فجوس ثلاثة أولاد: واطاس وتنالفت ووزير، وولد وزير بن فجوس ولدين: ينجاسن ومحمداً ، وولد محمد سبعة رجال منهم عسكري وحمامة، وفي ذرية حمامة كانت رئاسة بني مرين. ينظر: ابن أبي زرع الفاسي، المصدر نفسه، ص20.
- 27- المخضب بن عسكر: أول من ترأس من بني مرين. انقادت إليه بوادي زناتة وبلاد الزاب، وقاتل ملوك المتونة وملوك تكلاتة الصنهاجيين، ولم يزل يغير على بلادهم بتلمسان وبجاية والقلعة وغيرها، قتل المخضب وحمل رأسه إلى عبد المؤمن سنة (540هـ/1145م). ينظر: ابن أبي زرع الفاسي، المصدر نفسه، ص20-21/خير الدين الزركلي، الأعلام (قاموس تراجم)، دار العلم للملايين، بيروت، 15، 2002م، ج7، ص193-28- الموحدون: حملوا اسم الدولة التي مهد لتأسيسها ابن تومرت سنة 514هـ، ووطد دعائمها خليفته عبد المؤمن بن علي، ضمت المغرب والأندلس، انهارت سنة 609هـ بعد أن هزمتها جيوش الصليبيين في معركة حصن العقاب بالأندلس. ينظر: ابن الأثير، أبو الحسن علي الشيباني، الكامل في التاريخ، مر: محمد الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1407هـ/1987م، مج9 ص195-206/ عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تح محمد سعيد العريان، المجلس الأعلى لشؤون الاجتماعية، القاهرة، 1383هـ/1962م، ص245-403.
- 29- عرف المرينيون في فترته السلامة ولم يشتركوا في أحداث المنطقة حتى توفي سنة (561هـ/1165م). ينظر: ابن أبي زرع الفاسي، الذخيرة السنيّة، ص23-30- محيو بن أبي بكر بن حمامة: ولي أمر زناتة بعد أبيه أبي بكر إلى أن توفي سنة 591هـ متأثراً بالجراحات التي أصابته في معركة الأرك، وولي بعده الأمير عبد الحق. ينظر: ابن الأحرر، روضة النسر، المصدر السابق، ص14-31- ابن خلدون، المصدر السابق، ج1 ص159-160-32 محمد عيسى الحريري، تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني (610-869هـ/1213-1465م)، دار القلم، الكويت، ط2، 1408هـ/1987م، ص3-33- ابن أبي زرع الفاسي، الأئيس المطرب، ص278-33- ابن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص160-161-35- المنصور الموحدي: هو يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي الكومي الموحدي، أبو يوسف، من ملوك الدولة الموحدية، استقامت الأحوال في أيامه وعظمت الفتوحات، استطاع أن يكسر شوكة النصارى في معركة الأرك سنة 594هـ، وعقد معهم صلحاً لمدة 5 سنوات. ينظر: ابن أبي زرع الفاسي، الأئيس المطرب، ص220-230/ خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج8، ص203-36- الأرك: حصن منيع قرب قلعة رباح، أول حصون أذفونش بالأندلس، وهناك كانت وقعة الأرك على صاحب قشتالة وجموع النصارى على يد المنصور الموحدي في 591هـ/1194م، انتصر فيها المسلمون وتمكنوا من وقف زحف النصارى، وزادت من هيبة الموحدين ومكانتهم في الشمال الإفريقي. الحميري، صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، دار الجيل بيروت، ط2، 1408هـ/1988م، ص12-13/عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص358-360.
- 37- ابن خلدون، العبر، ج7 ص222/ابن أبي زرع، الذخيرة السنيّة، ص23/ابن مرزوق، المصدر السابق، ص111/القلقشندي، المصدر السابق، ج5 ص195-38- ابن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص222/ ابن أبي زرع، الذخيرة السنيّة، ص23/ابن مرزوق، المصدر السابق، ص111/القلقشندي، المصدر السابق، ج5 ص195-39- محمد عابد الجابري، المرجع السابق، ص172-40- ابن خلدون، المصدر السابق، ج1 ص159-41- ابن أبي زرع، الذخيرة السنيّة، ص26-42- ابن خلدون، العبر، ج1، ص204.
- 43- مزاحم علاوي الشاهري، الحضارة العربية الإسلامية في المغرب (العصر المريني)، مركز الكتاب الأكاديمي، عمان، دت، ص23.
- 44- فيكيك: عبارة عن ثلاثة قصور في وسط الصحراء يحيط بها عدد كبير من النخل. ينظر: ليون الإفريقي، وصف إفريقيا، تر: محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1983م، ج2، ص132-133.
- 45- سجالماسة: في صحراء المغرب، بينها وبين البحر خمس عشرة مرحلة، وهي على نهر يقال له زيز... وبينها وبين غانة في الصحراء مسيرة شهرين. الحميري أبو عبد الله بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، تح إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ط1، 1974م، ص305-46- ملوية: يقع إلى وادي صاع، فيجمعها معا ويصبان في البحر ما بين جراوة ابن قيس ومليلة. ينظر: الإدريسي، أبو عبد الله الحسيني، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1422هـ/2002م، مج1 ص247-47- الطغن: هو سير البادية لتجعة أو حضور ماء أو طلب مَرِيعٍ أو تحوُّل من ماء إلى ماء أو من بلد إلى بلد، والطَّغنة السَّفرة القصيرة. ينظر ابن منظور، المصدر السابق، مج13 ص271.
- 48- ابن خلدون، العبر، المصدر السابق، ج7، ص221/السيلاوي، أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تح: جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، دار البيضاء، 1954م، ج3، ص5/بينما يحدد القلقشندي إقامة المرينيين بين صاو وملوية فقط، ينظر: صُيح الأعشى، ج5 ص194/أشار ابن مرزوق في مسنده أن قبائل بني مرين تملك مساحات شاسعة من بلاد

- جريد إلى ناحية المغرب، حيث شمل ملكهم من بلاد الزاب إلى تاهرت وأحواز تلمسان. ينظر: ابن مرزوق، المصدر السابق، ص110/ ويذكر صاحب الحلل الموشية أن مواطنهم كانت تتركز في تلمسان، حيث انتشرت القبائل المرينية في المرحلة الأولى إلى الشرق من تلمسان وفي اتجاه مدينة تاهرت. ينظر: مجهول، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تج: سهيل زكار، عبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط1، 1399هـ/1979م، ص186.
- 49- كرسيف أو أجرسيف: مدينة من أحواز تلمسان واقعة على نهر ملوية بالقرب من مليلة، لها بساتين كثيرة. ينظر: الحميري، المصدر السابق، ص12/البكري أبو عبيد، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، دت، ص152.
- 50- مكناسة: مدينة بالمغرب في بلاد البربر على البر الأعظم. ينظر: الحميري، المصدر السابق، ص544/البغدادي صفي الدين بن عبد الحق، مَرَاوِدُ الاطِّلاَعِ على أسماء الأمكنة والبقاع، تج علي محمد البجاوي، دار المعرفة، بيروت، ط1، 1373هـ/1954م، ج3 ص1302-1303-51- تازي أو تازا: تقع في بلاد المغرب، أول بلاد تازا حدُّ ما بين المغرب الأوسط وبلاد المغرب في الطول، وفي العرض البلاد الساحلية مثل وهران ومليلة وغيرهما. ينظر: الحميري، المصدر السابق، ص128/مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، تج: سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1، دت، ص186.
- 52- ابن خلدون، العبر، ج7 ص224/ابن أبي زرع الفاسي، الذخيرة السنيّة، ص25/الأنييس المطرب، المصدر السابق، ص282/ابن السكالك محمد بن أبي غالب المكناسي، نصيح ملوك الإسلام بالتعريف بما يجب عليهم من حقوق آل بيت الكرام، تج نزهة المروني العللي الإدريسي، ددن، د.م.ن، دت، ص104/محمد عيسى الحريري، المرجع السابق، ص8/مزاحم علاوي الشاهري، المرجع السابق، ص23/محمد أمين محمد ومحمد علي الرحمان، المفيد في تاريخ المغرب، دار الكتاب، دار البيضاء، دت، ص155.
- 53- جهاد علي السعيدة، المرجع السابق، ص505-506-54- في الأصل: يتعايشون منه. ينظر: تعليق خليل شحادة في الهامش 2، العبر، المصدر السابق، ج1، ص181-55- ابن خلدون، المصدر نفسه، ج1، ص181-56- عبد الله كنون، النبوغ المغربي في الأدب العربي، دن، طنجة، ط2، 1380هـ/1960م، ج1، ص176-177-57- ابن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص198.
- 58- معركة العقاب: وقعت هذه المعركة بين ألفونس الثامن والناصر الموحد، هزم فيها الموحدون أمام جيش النصارى، وكانت سببا في ضعف الدولة الموحدية. للاطلاع على المعركة بالتفصيل ينظر: عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص401-403/المقري أحمد بن محمد التلمساني، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تج إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1408هـ/1988م، مج1 ص446.
- 59- ابن أبي زرع الفاسي، الذخيرة السنيّة، ص25-60- المصدر نفسه، ص26-61- المصدر نفسه، ص26.
- 62- ابن الأحمر، روضة النسرين، ص14-63- ابن خلدون، العبر، ج7 ص224-64- محمد عيسى الحريري، المرجع السابق، ص10-9-65- حسين طه، فلسفة ابن خلدون الاجتماعية (تحليل ونقد)، تر: محمد عبد الله عنان، تصدير: محمد صابر عرب، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط2، 2006، ص109-66- محمد عيسى الحريري، المرجع السابق، ص10-11-67- المرجع نفسه، ص11-68- ابن أبي زرع الفاسي، الذخيرة السنيّة، ص26/الأنييس المطرب، المصدر السابق، ص282.
- 69- لمستنصر: هو يوسف بن الناصر الموحد، من خلفاء الدولة الموحدية، وصاحب المغرب الأقصى وإفريقية وأندلس، توفي في رباط الفتح. ينظر: الحلل الموشية، المصدر السابق، ص161-162/. أحمد بن القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1973م، ص547-70- ابن خلدون، العبر، ج7 ص224.
- 71- وادي نكور: يقع بين رباط تازة والمقرمدة، وتقع عليه مدينة نكور العامرة بالسواق. ينظر: السلاوي، المصدر السابق، ج3، ص6/. الحميري، المصدر السابق، ص577-72- فاس: مدينة عظيمة، قاعدة بلاد المغرب. ينظر: الحميري، المصدر نفسه، ص434/مجهول، الاستبصار، ص180-73- المشعلة: نوع من النبات، سمي بها عام 613هـ/1216م لأن مهزيمي الموحدون كانوا يخصفون عليهم من ورقه أثناء وصولهم إلى فاس فازين أمام بني مرين. ينظر: ابن أبي زرع الفاسي، الذخيرة السنيّة، الهامش رقم5، ص28.
- 74- يسميها ابن أبي زرع الفاسي بالمشعلة. ينظر: الذخيرة السنيّة، ص28/بينما هي عند ابن خلدون "المشغلة". ابن خلدون، العبر، ج7 ص225/وكذا ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص284-75- ابن خلدون، العبر، ج7 ص241-76- عبد العزيز غوردو، "مدخل لقراءة ابن خلدون أسئلة في المنهج والنظرية"، دورية كان التاريخية، دن، وجدة، ع2، دت، ص31-77- ابن خلدون، العبر، ج7 ص551.

اللسان الناطق لسكان منطقة بلزمة "دراسة في اللهجة الشاوية"
The Balzema citizen's spoken tongue "a study
about the chaoui accent"

اسم ولقب المؤلف المرسل: ممدوح بومخيلة- Boumkhila Mamdouh صص162-176
الدرجة والعنوان المهني: طالب دكتوراه وعضو في مختبر تاريخ الجزائر- جامعة وهران1 أحمد بن بلة
البريد الإلكتروني: boumkhila.memdouh@edu.univ-oran1.dz
اسم ولقب المؤلف الثاني: فتيحة سيفو- Sifou Fatiha
الدرجة والعنوان المهني: أستاذة في التاريخ الحديث والمعاصر- جامعة وهران1 أحمد بن بلة
البريد الإلكتروني: sifou-doctmmsh@yahoo.fr

تاريخ استقبال المقال: 2019/12/25 تاريخ المراجعة: 2020/04/01 تاريخ القبول: 2020/04/25

الملخص: خصّصنا دراستنا هذه للهجة من اللهجات المحليّة في المجتمع الجزائري، وهي اللهجة الشاوية المتكلم بها في منطقة الأوراس لمعرفة أصل هذه اللهجة، وعلاقتها بالمجتمع الأوراسي عامة وسكان منطقة بلزمة خاصة كنموذج على ذلك، خصوصاً أنّها تمثل موضوعاً إثنوغرافياً بالدرجة الأولى، حيث تناولناها في ورقة بحثية تناولاً أكاديمياً يُبعدها عن أي التباس سياسي أو إيديولوجي قد يزيدنا تعقيداً حتى يتسنى للمطلع والقارئ من أخذ صورة عامة حول اللهجة الشاوية بكل تبايناتها وتداخلاتها ومكانتها في مجتمع بلزمة؛ فمن الواجب علينا كباحثين جزائريين ألا نترك كتابة تاريخنا لغيرنا، بخاصة بعد الاطلاع على بعض الدراسات السابقة حول الموضوع، والتي لم تكن تلتزم بالموضوعية سواء عن قصد مثل المستشرقين لتمرير مشروعهم أو دون قصد لعدم معرفتهم الكافية لخصوصيات اللهجات المحلية داخل المجتمع الجزائري، ولهذا فلا بُدّ أن نعوض ما فاتنا من تجاهل لتاريخنا بنفض الغبار عنه، وعدم ترك الفرصة للآخرين للحكم علينا، بخاصة أنّ الدراسات حول اللهجات المحلية في المجتمع الجزائري قليلة أو تكاد تنعدم، رغم أنّ هذه اللهجات عرفت انتشاراً ملحوظاً في مختلف مناطق الوطن، ولعلّ تجاهل الباحثين الجزائريين لهذا الموضوع وقلة الإشارة إليه هو غير متعمد، ولا

يقصد به التقليل من قيمتها، لذا ينبغي علينا نحن الباحثون الشباب تولى مسؤولية التدوين، وملء الفراغات التي تركها الباحثون الذين سبقونا في ميدان التأليف. الكلمات المفتاحية: اللهجات المحلية؛ المجتمع الجزائري؛ اللهجة الشاوية؛ المجتمع الأوراسي؛ سكان بلزما.

Abstract: *appropriated our studies about a local accent in the algerian society which is the Chaoui accent that's spoken in Auras to know the origin of this accent and it's relation with Auras society in general and the citizens of Belzema as a model in special, espicially it represent an ethnographic subeject in the ferst place, in which tackeleg it in research paper accdemically that excluded from any political or idiological confusion that make it more complicated, so that reder and the informed to take a general picture about the Chaoui accent whith all it's differences and interferences, It's our duty as algerian researchers to leave other researchers to write our history espicially after acknowledging the previous studies about the subject that wasn't subjective, whether on purpose like the orientalist to passing thier projects or accidentally to ther lack of awarness to the privacy of the Algerian accent in the Algerian society that is why we have to make it up what we missed from the ignorance to uour history by dusting off and not let the others judging us in particular, the studies about local dialects in Algerian society are a few and almost nonexistent, Although it has known a noticeable spread in different regions of the country; Perhaps Algerian researchers' disregard of this subject and lack of reference to it is unintentional, It is not intended to devalue those dialects, As new researchers in the field, we should take responsibility for codification, And fill in the blanks left by the researchers who preceded us in the writing.*

Keywords: *local accent; Algerian society; Chaoui accent; Aurasis society; Balzema citizens.*

مقدمة: يتميز المجال اللغوي في الجزائر بتعددده وتداخله، حيث تتفاعل ضمنه عدة لهجات متنوعة منها القبائلية والمزابية والتارقية والشلحية والشاوية...، ويتجلى ذلك من خلال ممارسة السكان لهذه اللهجات المتنوعة خلال فترة حياتهم اليومية سواء كانوا أفرادا أو جماعات، ولكن بوجود اختلافات من حيث كيفية النطق بها.

إنّ اللهجات المحلية المنتشرة في المجتمع الجزائري هي مسألة تخص كل المجتمع الجزائري بمختلف أطرافه وتوجهاته، لذلك وجب الحفاظ على هذا التراث الذي يعد إرثا لغويا منتشرا في عدة مناطق من الوطن، من بينها منطقة بلزما الشاوية في الأوراس، والتي تعتبر أنموذجا حيا، وعليه فإنّ للهجة الشاوية دور بارز وفعال في حياة مجتمع بلزما، إذ كانت ولازالت هذه اللهجة تؤدي وظيفة اتصالية خاصة، وهذا ما حفزنا للبحث

والتقصي في هذا الموضوع، وسعياً منا لتناول واقع اللهجة الشاوية في المجتمع الأوراسي عامة وسكان منطقة بلزمة خاصة.

الإشكالية: لا يزال العديد من المؤرخين والباحثين يطرحون عدة تساؤلات حول لهجات المجتمع الجزائري الموزعة على القطر، إذ نجد من بينها اللهجة الشاوية المنتشرة في مناطق من الأوراس مثل منطقة بلزمة، حيث أصبحت هذه التساؤلات تشكل اليوم مادة ثرية تستدعي البحث في غياب دراسات جادة تهدف إلى إبراز الحقيقة التاريخية؛ فمتى ظهرت هذه اللهجة؟ ومن أين جاءت أصولها؟ وما علاقتها بمنطقة بلزمة؟ ومن هم سكان هذه المنطقة؟ وكيف أصبحت هذه اللهجة تمثل واقعا معاشا في المجتمع بلزمة؟ وما هي العوامل التي كانت وراء استمراريتها داخل هذا المجتمع؟

وسعياً منا للإجابة على إشكالية الموضوع ارتأينا الاعتماد على العناصر الآتية: قراءة في تاريخ اللهجة الشاوية- علاقة سكان منطقة بلزمة باللهجة الشاوية- واقع اللهجة الشاوية في المجتمع الأوراسي.

أهداف الدراسة: يمكننا تحديد أهداف دراستنا هذه في النقاط التالية: محاولة ملء الفراغ الذي تركته الدراسات الأكاديمية حول اللهجات المحلية في الجزائر- إثراء المكتبة التاريخية الجزائرية بدراسة جديدة تتناول لهجة من لهجات المجتمع الجزائري- إزالة العديد من الاستفهامات التي كانت تقابل الكثير من الباحثين والقراء حول خصوصيات اللهجة الشاوية.

منهج الدراسة: اعتمدنا في دراستنا هذه على المنهج التاريخي الوصفي الذي وظفناه في سرد الأحداث ووصفها لكون أن موضوع الدراسة يتطلب ذلك، وإلى جانبه المنهج التحليلي الذي ساعدنا في تحليل المادة الخبرية وتفسيرها.

1- قراءة في تاريخ اللهجة الشاوية:

1.1- ماهية اللهجة: تعتبر اللهجة شكلاً من أشكال التواصل الاجتماعي الإنساني أي أنّها وسيلة كفيلة بتحقيق تواصل الأفراد والمجتمعات، وهذا ليس من باب الصدفة؛ فالواقع المعيشي اليوم كفيل بإثبات وجود لهجات على مستويات كثيرة ومتعددة وفي كل البلدان دون استثناء مع بعض الاختلافات في النسبة الممارسة لكل لهجة من اللهجات.

اللهجة أداة مقصودة على مجموعة متكلمة، هذه المجموعة عادة ما تكون متميزة بخصائص نفسية واجتماعية معينة يصعب على الآخرين اختراقها، وهو ما يجعل ألفاظها وكلماتها منطوقة لا تزيد إلا بعدا عن اللغة الرسمية أي لغة الدولة، وهذا ما يبين أن احتكاك هذه اللهجات مع اللغات الرسمية ولمدة طويلة يجعلها أكثر عرضة للانقراض⁽¹⁾. يتضح لنا أن اللهجة ما هي إلا مجموعة من الصفات اللغوية تنتهي إلى بيئة خاصة، ويشترك في هذه الصفة جميع أفراد هذه البيئة⁽²⁾.

إنّ ما يمكن أن نخرج به أن اللهجة هي رموز ذات معنى ودلالة ترتبط بنطاق جغرافي معين أو طبقات اجتماعية مختلفة، وهي مجموعة من صفات لغوية تنتهي إلى بيئة خاصة يشترك في هذه الصفات جميع أفراد هذه البيئة⁽³⁾.

يبدولنا من خلال ما سبق أن اللهجة مصطلح حديث في الدراسات اللغوية رغم أنّها ظاهرة لغوية معروفة منذ القديم؛ فقد أدرك قدماء اللغويين العرب الفروق الدقيقة بين اللغات القديمة المختلفة، وأشاروا في عدة مؤلفات إليها، مثلما فعل ابن خلدون عندما تحدث عن فساد الكلمة وعن لغات فاسدة⁽⁴⁾.

لكن إشاراتهم هذه لم تكن مؤسسة على رؤية علمية تهدف إلى تنميط هذه الظواهر والاهتمام بها، وجعلها محورا من محاور الدراسات اللغوية، وهو الأمر الذي أحرّ ظهور علم اللهجات عند العرب إلى أواخر القرن التاسع عشر في الوقت الذي قطعت فيه الدراسات اللهجية عند الغرب شوطا كبيرا بعدما مرّت بعدة مراحل متطورة، والتي توصلت إلى الاعتراف بها كواقع لغوي لا يمكن إزالته ومحوه أو التغاضي عنه⁽⁵⁾.

2.1- أصل تسمية الشاوية: يعود ظهور هذه التسمية إلى حوالي منتصف القرن الخامس عشر، أي ما بين وفاة ابن خلدون 1406م وغزوات البرتغاليين الأولى، ولم تستعمل إلا بعد زمن من قدوم بني مرين، حيث لا نجدها في مؤلفات العرب الذين كتبوا عن تاريخ البربر⁶.

لقد كان مارمول (Marmol) أول من استعمل تسمية الشاوية حيث ذكرها للإشارة إلى زناتة وهوارة التي إطلاق عليهما اسم الشاوية⁽⁷⁾، أما عند المؤرخين العرب فإننا لا نجد هذه الكلمة إلا عند القليل منهم مثل ابن خلدون الذي ذكرها في مقدمة كتابه بقوله: "ومن السكان البربر كان معاشهم على الغنم والبقير يسمون الشاوية"⁽⁸⁾، كما ذكرت

عدة دراسات أن مدلول هذه الكلمة ترجع للهجات الأمازيغية⁽⁹⁾؛ فالشاوية كلمة تطلق على رعاة الغنم لشهرتهم بتربية الغنم والبقر، ويسكن معظمهم في الجزائر، وبضبط في مناطق الأوراس⁽¹⁰⁾.

في الواقع إن مدلولها لم يكتمل بعد رغم أن ظهورها يعود إلى منتصف القرن الخامس عشر، ثم تطور بعد ذلك إلى أن صار استعمالها مقتصر على قبيلتي زناتة وهوارة المنتشرتين في منطقة الأوراس والأطلس الكبير⁽¹¹⁾.

تنسب الشاوية إلى عيشاوة المستقرين حاليا بين بني محمد عند سفوح إيدوغ غرب مدينة عنابة حيث تركوا إقليم الأوراس لكثرة الثورات التي عرفتها الأوراس مما أرغمهم على ترك المنطقة، وتوجهوا إلى جبل قريون الذي استقر فيه من غلب على أمرهم لكن معظمهم مازالوا منتشرين في مختلف مناطق الأوراس، وعليه فإن الشاوية هم السكان الأصليين الذين كانوا يسكنون بلاد الأوراس قبل الفتح الإسلامي⁽¹²⁾.

استمدت التسمية الشاوية من الحياة الاقتصادية التي كان يعيشها كل سكان الأوراس، وأطلقوها على لهجتهم التي يتكلمون بها نظرا لشهرتهم منذ القدم بإنتاج الحبوب والصفوف والجلود واللحوم؛ فقد كانوا تقريبا كلهم رعاة قبل أن يفرض عليهم الاستقرار، ولذلك سمو بالشاوية نسبة إلى ما يكسبون من الشاة، واضطروا على أثرها إلى الاعتصام بالجبال، والتخلي عن حياة التنقل شيئا فشيئا⁽¹³⁾.

إذا نظرنا إلى تسمية الشاوية؛ فإننا نجد أن لها دالتين: أولها أنها تطلق على الإنسان الأوراسي الذي كان يقطن بمناطق الأوراس، وثانها أنها تطلق على اللهجة التي يتحدث بها سكان هذه المناطق، كما نلاحظ أن هناك خاصيتين في الشاوية تدلان على أنهم قد كانوا من قدماء العرب، الأولى أنهم رعاة وتسميتهم مشتقة من الشاة، وهي خاصية معروفة في العرب، أما الثانية فهي أنهم كانوا يتنقلون من مكان إلى آخر قبل أن يستقروا، وهذه الخاصية أيضا مشهورة عند العرب الرحل والبدو.

1.3- التعريف باللهجة الشاوية: إننا نتصور مدى أهمية دراسة اللهجات المحلية في الجزائر، ومنها اللهجة الشاوية التي يتكلم بها سكان منطقة بلزمة وغيرهم من سكان الأوراس؛ فقد أشار إليها العديد من الباحثين الأجانب لمعرفة أصولها بواسطة علم اللغة (اللسانيات)، ومن أبرزهم إميل ماسكوري (Emile Masqueray) الذي أهتم بدراسة

اللهجات المحلية الجزائرية وفروعها، وميّز الفرق الموجود بين أمازيغية القبائل وأمازيغية الأوراس، ورأى أن الاختلاف بين اللهجتين القبائلية والشاوية يكمن في النطق وبعض المفردات، واعتبر أنّ مسألة النطق هي الأكثر أهمية لأنها تمثل جزءا كبيرا للتمييز بين المنطقتين كما أنّها تمس موضوعا إثنوغرافيا بالدرجة الأولى⁽¹⁴⁾.

إذا نظرنا إلى واقع اللهجة الشاوية في منطقة بلزمة نجد أنّها شفوية تستعمل في مجالات الحياة اليومية، حيث لم تكن مكتوبة، وبالتالي فإنّ صمودها أمام اللغات الوافدة عليها مثل العربية والفرنسية كان ضئيلا نوعا ما لكونها شفوية وقابلة للتطور، وهو ما يجعل ألفاظها عرضة للتلف، ولكنها رغم ذلك استطاعت أن تحافظ على تواجدتها بسبب تلك الاستعمالات اليومية المختلفة عبر العصور.

تتميز اللهجة الشاوية كباقي اللهجات المحلية الأخرى بطابعها الشفوي، أي أنّها وسيلة تعامل بين السكان في صورتها الشفهية، وقد تكون من مجموعة اللغات الحامية مثل اللغة المصرية القديمة والقبطية والليبية (البربرية)، وهي لغات السكان الأصليين لشمال إفريقيا قبل الفتح الإسلامي⁽¹⁵⁾.

تعتبر اللهجة الشاوية عن لون لساني غير مقنّن؛ ما يعني أنّها ليست لونا جغرافيا فقط بل هي لون اجتماعي أيضا، وهذا ما أشار إليه ماسكوري أثناء مقارنتها مع اللهجة القبائلية حيث رأى أنّ الاختلاف بينهما يعود إلى اختلاف المجموعات الإثنية الموجودة في كل من المنطقتين، وهو ما نلاحظه إلى اليوم؛ فسكان الشاوية مثل سكان بلزمة إضافة إلى لهجتهم يستعملون العربية في حياتهم اليومية في مقابل ذلك نجد سكان القبائل إضافة إلى لهجتهم يستعملون الفرنسية في حياتهم اليومية⁽¹⁶⁾.

إنّ ما يمكننا الإشارة إليه في الأخير أن اللهجة الشاوية في الجزائر اليوم موطنها هو بلاد الأوراس، وهذا بغض النظر إن كان السكان القاطنين في منطقة الأوراس يتكلمونها أولا؛ فقد نجد الكثير من القاطنين فيها يؤكدون انتماءهم للشاوية ولكنهم لا يتكلمونها، مما يؤكد لنا أن مقياس النطق المتكلم بها ليس هو الأساس الذي نحدد به المجتمع الشاوي، وإنما مرتبط في الأصل بمنطقة الأوراس⁽¹⁷⁾.

2- علاقة سكان منطقة بلزمة باللهجة الشاوية:

2.1- التعريف بالمنطقة: منطقة بلزمة منطقة تقع في غرب ولاية باتنة أي الأوراس الغربي، وهي منطقة جبلية ذات تضاريس وعرة ومعقدة، وتضم عدة قبائل عربية وشاوية تربط بينهما العقيدة الدينية واللغة والعادات والتقاليد، ويبلغ عددها حوالي 13 قبيلة، ونظرا لكونها همزة وصل بين بسكرة وباتنة وبين باتنة وسطيف وبين سطيف وبسكرة وبين بسكرة وقسنطينة كانت هي أول مهمة لمشروع الاحتلال الفرنسي للأوراس⁽¹⁸⁾.

2.2- نظرة تاريخية على سكان بلزمة: اختلفت المصادر والراويات حول أصول سكان بلزمة القاطنين في الأوراس؛ فهناك من ينسبهم إلى البربر، وهناك من ينسبهم إلى العرب، وهذا أمر طبيعي معروف في الدراسات الخاصة بفترة الفتوحات الإسلامية لبلاد المغرب بصفة عامة والأوراس بصفة خاصة؛ فقد ذكر اليعقوبي أن أغلب أهالي بلزمة من بني تميم ومواليهم المناهضين للسلطة الأغلبية في تلك الفترة⁽¹⁹⁾.

يقول ابن حزم إن منطقة بلزمة كانت إحدى مناطق الأوراس الهامة المتنازع عليها بين الأغلبية والفاطميين خلال الصراع بين الدولتين على المنطقة، مما يعني أنّ سكانها خليط بين العرب وبربر الأوراس، وذكر أنها كانت قاعدة هامة لبني تميم الذين سكنوا فيها⁽²⁰⁾.

ويذكر كل من النويري وابن المراكشي أن منطقة بلزمة كانت قاعدة مستحدثة من قبل العرب في الأوراس، ومعظم أهاليها من العرب القيسية المستقرين غرب الأوراس منذ الفتح الإسلامي، وعرفت بقبائلها القوية؛ فقد كان رجالها يذلون قبائل كتامة، ويفرضون عليهم الضرائب والعشور⁽²¹⁾.

يبدو لنا من خلال ما تشير إليه المصادر الإسلامية أن سكان بلزمة في الأوراس الغربي هم خليط عربي بربري شبيه تماما بذلك الخليط الجزائري العثماني المعروف باسم الكراغلة، وما يشير لذلك أن العرب القيسية المتواجدين في بلزمة لم يبقوا منفصلين عن سكان الأوراس بل حدث تزاوج بينهم وبين بربر الأوراس مما أنتج مجتمع منطقة بلزمة، لأن العرب القيسية بعد قدومهم إلى بلزمة كانوا رجالا فاتحين لنشر الإسلام ولا نساء لهم؛ فكانت العادة أن يتزوج العربي من البربرية، وبالتالي كان مجتمع بلزمة مثلما كان الحال مع الكراغلة في العهد العثماني بالجزائر، أي أنه بلزمي الموقع والأرض وعربي إسلامي النسب وتكوني وطبائعي بربري.

2.3- محافظة سكان بلزمة على استمرارية اللهجة الشاوية: من المفارقات العجيبة في المجتمع الجزائري الحفاظ على اللهجات المحلية لعصور طويلة رغم كل ما تعرضت له من مضايقات عبر العصور، وهذا الأمر ينطبق على سكان بلزمة أيضا الذين مازالوا إلى يومنا هذا يحتفظون بلهجتهم الشاوية⁽²²⁾.

يرجع سر حفاظهم على لهجتهم بالدرجة الأولى إلى عيشهم على هامش الوافدين، وعدم اندماجهم معهم لكونهم يعيشون في منطقة جبلية كانت بالنسبة لهم كحاجز طبيعي ساعدهم على المحافظة عليها، وهذا ما كان يحميهم من الأفكار الأجنبية⁽²³⁾. إن الميزة التي مكنتهم من الحفاظ على استمرار لهجتهم طويلا تميزهم بحب الاستقلال، وعدم الخضوع لأي قوة غازية، وبقائهم متمسكين بمنطقهم⁽²⁴⁾.

في حقيقة الأمر إن ما يميز مجتمع بلزمة ليس الحفاظ على لهجته فقط، وإنما عدم ذوبانه مع الغير فيما يخص عاداته وتقاليده وتراثه رغم تعرضه لمختلف الغزاة مثل الرومان والوندال والفرنسيين، وهذا عكس أقرانه من العرب والقبائل؛ فاليوم تطغى المصطلحات الفرنسية على العرب والقبائل في حواراتهم وكلامهم نتيجة الغزو الفرنسي وثقافته على عكس الشاوية الذين يخلو حوارهم وكلامهم تماما من الألفاظ والمصطلحات الفرنسية حتى عند النخبة المثقفة منهم الذين لا يستعملونها إلا للضرورة، أما البسطاء منهم فحتى العربية لا يستعملونها فيما بينهم إلا في الأمور الإدارية والرسومية والواجبات أو مع من لا يفهم لهجتهم، وهذه الخاصية من بين أهم أسباب استمرار هذه اللهجة داخل منطقة بلزمة.

لقد أكد لنا التاريخ أن بربر الأوراس (الشاوية) قد بقوا منذ الاحتلال الروماني إلى يومنا محافظين كل المحافظة على لهجتهم حتى قال عنهم المؤرخ الفرنسي الكبير بواسيار (boasiyar): "إنه لم يبق في أفكارهم ولا في عوائدهم ولا في أخلاقهم ولا في حياتهم أي تأثير قرطاجي أو روماني، إنما لم يبق إلا البربري الصرف"، ولنختم حديثنا في هذا العنصر بشهادة أخرى من نفس المؤرخ بقوله: "إنما الأمر الخارق للعادة أنهم من الشعوب التي استطاعت أن تحتفظ بطباعتها الأولى ومميزاتها الخاصة، وأننا لنراه اليوم على نفس الطريقة التي رآه الكتاب الأقدمون، وأنه ليعيش اليوم كما كان

يعيش تقريبا أيام يوغرطة، ولا نقول إنه قد حافظ فقط على كيانه وسط الأقوام التي عاشت معه بل إنه قد ابتلعها وأسدل عليه رداءه⁽²⁵⁾.

2.4- قواعد اللهجة الشاوية المستعملة من قبل سكان بلزمة: رغم أنّ اللهجة الشاوية تستعمل بالنطق فقط إلا أنّ لها عدة قواعد وحالات أثناء استخدامها حيث يتم الكلام فيها بتمثيله بعلامات يتبعها صوت معين تعبر عن ذلك الشيء، والنطق يكون له معنى، وهذا ما جعل للشاوية سراجا خاصا بها لا يفهمه إلا أبناء بيئتها⁽²⁶⁾.

ويمكننا اختصار القواعد الخاصة بها في منطقة بلزمة إلى قسمين هما:

أ- صياغة التعريف المفرد: من المعروف في لغتنا العربية توجد أداة واحدة للتعريف وهي "ال"، وهي تستعمل مع كل الحالات وكل الأجناس، أما في اللهجات الأمازيغية وفروعها مثل اللهجة الشاوية فلها أداة تعريف للمذكر وأداة تعريف للمؤنث، ونحن في هذا المقام استحضرننا اللغة العربية ليس للمقارنة، وإنما لتوصيل الفكرة فقط لأن المقارنة بين لغة ولهجة ليس من المنطق؛ فللهجة الشاوية أداة للمذكر وهي حرف "أ" الذي يوضع كسابقة في بداية الكلمة، أما أداة التأنيث فهي حرف "ث" التي تستعمل كسابقة ولاحقة للكلمة⁽²⁷⁾.

وهذه بعض الأمثلة لتوضيح الفكرة صياغة التعريف المفرد في اللهجة الشاوية:

- أداة المذكر: الرجل = أرياز، الطفل = أعطوط، القبر = أقبور.

- أداة التأنيث: المرأة = ثامتويث، الطفلة = ثاهيويث، مقبرة = ثمقبرث⁽²⁸⁾.

من مميزات اللهجة الشاوية من حيث النطق أنها تمنزج بين الأسماء والأفعال؛ ففي بعض الأحيان تأتي الأسماء المؤنثة من اللغة العربية والأسماء المذكرة من اللهجة الشاوية أو العكس، وغالبا ما يتم تقديم كلمة أو نغمة واحدة النطق كما رأينا في المثال السابق، حيث ذكرنا في أداة المذكر والمؤنث كلمة القبر والمقبرة، والتي تنطق بالشاوية أقبور وثمقبرث، أي أنها مستمدة من العربية بنطق الشاوية⁽²⁹⁾.

ب- صيغة الجمع: وهي نفس صيغة الجمع في اللهجة القبائلية، وإن كان فيها القليل من التغيير من ناحية النطق حيث تتحول أداة التعريف للمذكر في الجمع في أغلب الأحيان إلى حرف "إ" الذي يوضع كسابقة في بداية الكلمة والحرف "ن" كلاحقة في آخر الكلمة، وفي حالة أداة التعريف المؤنثة تتحول أداة التعريف المؤنثة في الجمع في أغلب الأحيان إلى

حرفين هما "ثي" كسابقة في بداية الكلمة، والحرفين "ين" كلاحقة في آخر الكلمة، وهذه أمثلة لتوضيح فكرة صيغة الجمع:

- أداة الجمع للمذكر: الرجال = إريازن، الأطفال = إعطوطن.

- أداة الجمع للمؤنث: النساء = ثيمطوين، بنات = ثمبيوين⁽³⁰⁾.

ما يمكن أن نقوله في الغالب هو أن الحرف "أ" أو "إ" يستخدم كأداة للتعريف للمذكر في بداية الكلمة سواء في حالة المفرد أو الجمع مع إضافة حرف "ن" في آخر الكلمة في حالة الجمع، أما الحرف "ث" فيستخدم في بداية الكلمة كأداة للتعريف للمؤنث في حالة المفرد فقط، أما في حالة الجمع فيستخدم الحرفين "ثي" في بداية الكلمة كأداة للتعريف بالمؤنث في حالة الجمع مع إضافة حرفي "ين" في آخر الكلمة بطبيعة الحال في حالة الجمع⁽³¹⁾.

3- واقع اللهجة الشاوية في المجتمع الأوراسي: عرفت اللهجة الشاوية في الجزائر عدة قضايا أحدثت انتقادات واعتراضات منها:

1.3- قضية أصل الشاوية (الأوراس): لقد سبق أن ذكرنا أن تسمية الشاوية تشير إلى خصوصيات الحياة الرعوية التي كان سكان الأوراس يمارسونها منذ القدم، إلا أن بعض الاستعمالات الحديثة للتسمية الشاوية خاصة إبان فترة الاستعمار الفرنسي تحمل في طياتها دلالات سلبية هي أقرب إلى احتقار سكانها، ومفادها أن قبائل الأوراس همجية وبدائية ترفض الاندماج، وأن ثوراتها المتعاقبة عبر تاريخها ما هي إلا دليل نعتها الدائم.

ويؤكد ذلك ما جاء في بعض التقارير الفرنسية أثناء دخولهم الأوراس وإنشاء مركز عسكري فيه، حيث تعرضوا للهجوم من قبل قبائل منطقة بلزمة⁽³²⁾، وقد وصف هذا الحدث الجنرال دوق دومال (Duc D'aumale) في تقريره بقوله: "تجمع حوالي ألف أو ألفان من المشاة وما بين 500 و600 فارس في سهل لامبيز، وهاجموا الجزء الأيسر من المعسكر، كانوا يتدافعون جماعات ومقبلين على الموت لا يحد حماسهم شيء"⁽³³⁾.

كما ورد أيضا في إحدى التقارير بأن إخضاع سكان الشاوية سيبقى دون معنى إن لم يتم القضاء على سكان منطقة بلزمة وعلى رأسها أولاد سلطان، حيث أشار أحد الضباط في تقريره قائلا: "إنني متيقن من أن مركز التمرد ضدنا يكمن في أولاد سلطان؛ فعندهم وجد أحمد باي المأوى، وهم الذين اعترضوا سبيل الجنرال سيلا (Sillage)

بالسلاح عندما كان متوجها ناحية الجنوب، لهذا اخترتهم ليكونوا المثل والعبرة في المنطقة، وإنما حين نقضي عليهم نضمن النجاح للعمليات اللاحقة، وندعم سيطرتنا على المنطقة⁽³⁴⁾.

هذه التقارير توضح لنا الهدف من بعض الاستعمالات الحديثة للتسمية الشاوية، وأكثر من ذلك فقد حاول البعض من ذوي العقول غير الناضجة الدخول في مناهة التمييز بين فئات المواطنين الناطقين بها والناطقين بالعربية، وكان للاستعمار الفرنسي يد وراء هذه اللعبة الخبيثة، والتي راح البعض يطرحونها، وهم يتساءلون عن أصول الشاوية وعن منشئهم، ولكن التاريخ وحده كفيلا بتقديم الإجابات الشافية لتمييز الحقيقة من الأباطيل⁽³⁵⁾.

لم تطرح مسألة الأصول في الفترة القديمة والوسيط، ولم تكن تشغل بال الباحثين والمفكرين حتى أواخر القرن الثامن عشر، ولكن مع بداية ظهور القوميات في منتصف القرن التاسع عشر طرحت هذه المسألة وبإلحاح شديد، وبخاصة عند الأقليات التي شعرت دون غيرها أنها مهددة في كيانها ووجودها؛ فراحت تبحث عن خصوصياتها لصونها والحفاظ عليها من الزوال، اللسانية منها والاجتماعية الثقافية⁽³⁶⁾.

وسكان الشاوية شأنهم شأن الكثير من سكان العالم يعانون من هذه المشكلة، حيث يجدون أنفسهم أمام كم من الفرضيات والاحتمالات المتضاربة وحتى المتناقضة بشأن أصولهم، مما جعل إبداء الرأي من الصعوبة بمكان، وبخاصة أمام المواقف المسبقة أحيانا والمؤسّسة في أحيان كثيرة، مما جعل كل رأي أو موقف يحسب عليه إذا كان يخالف الموقف الرسمي أو يتعارض معه، ولكن هذا يعني ألا يحول دون إبداء الرأي، لأنّ في ذلك خيانة للعلم والتاريخ وانتهازية سياسية، ومن المفروض ألا تكون من سمات الباحث الذي يجب أن يبقى هدفه الأسمى دائما البحث عن الحقيقة التاريخية حتى يتمكن من الاقتراب منها قدر الإمكان، ولذلك سنحاول تناول هذه القضية من خلال الاعتماد على ما جاء في بعض النصوص وتحليلها⁽³⁷⁾.

لتوضيح ذلك ينبغي الوقوف قليلا لاستعراض بعض آراء المؤرخين العرب والأجانب بخصوص الشاوية، وفي هذا الصدد يذكر ابن خلدون أنه كان بجبال الأوراس أمة عظيمة من قبائل تعرف بـ"زناتة وهوارة"، ويقول عنها زناتة بالمغرب كانوا شاوية⁽³⁸⁾.

وذكر الإدريسي أن قبيلتي زناتة وهوارة من أولى القبائل التي استقرت بالأوراس، ويطلق عليهما بني جانة، وعندما نتطرق إلى بني جانة تتم الإشارة إلى موقع سكنهم بجبال الأوراس، وبالتالي فإن أصل قبيلتي زناتة وهوارة يعود إلى بني جانة، ويشير المقرئ إلى أن زناتة في المغرب، ويسمى الشاوية، ويقول الإدريسي إنهما من أبناء جانة، وبلغ البربر ترجم ابن جانة بـ"وجانة"، وعليه فإن بني أوجانة مرادف لزناتة، وهذا ما يبين أن المصادر العربية تثبت أن أصل الشاوية يرجع إلى قبيلة بربرية هي زناتة، وتطرق المؤرخ الإسباني مارمول (Marmol) إلى قبيلتي زناتة وهوارة واعتبرهما من القبائل الشاوية⁽³⁹⁾.

أما مؤرخو الغرب فقد ذكروا أن قبائل الأوراس (الشاوية) ينتمون إلى قبائل القوط، كما اعتبرها البعض من أصل جرمانى، ومن هؤلاء المؤرخ الانجليزي توماس شو (Thomas Shaw) الذي وصف القبائل الشاوية بالأوراس عامة سنة 1780م بقوله: "إن لهم مظهرًا وسحنة مختلفة عن جيرانهم، ولم تكن بشرتهم سمراء بل بيضاء مائلة للون الوردى، وشعرهم يميل للاصفرار الداكن، وليس أسودًا مثل القبائل"، ودفعه هذا التباين في الملامح إلى الاعتقاد بأنهم ينحدرون من القبيلة التي ذكرها بروكون (Procon) أي أنهم حفدة الوندال⁽⁴⁰⁾.

في حقيقة الأمر لم تكن هناك أي علاقة بين سكان الشاوية والرومان أو الوندال، ولم يكن هناك أي اندماج ولو جزئي معهم، وما يدل على ذلك أنه لم يحدث أي تلاحم بين الشاوية الأوراس والفرنسيين طوال فترة الاستعمار الفرنسي، وما يشير إلى ذلك تلك الأطلال والحصون والثكنات الموجودة في معظم مناطق الأوراس، وهي شاهدة أن هذه المناطق كلفت الرومان والبيزنطيين وحتى الفرنسيين حشد جيوش جرارة للتغلب على المقاومات التي كانت في منطقة الأوراس، التي صارت المقاومة والصمود تقليدًا راسخًا فيها منذ عهد يوغرطة إلى عهد مصطفى بن بولعيد⁽⁴¹⁾.

2.3 - قضية إدماج اللهجة الشاوية في اللغة العربية: يراهن المعادون للهجة الشاوية أن إدماجها داخل اللغة العربية باستعمال مصطلحات العربية بصيغة شاوية في نظرهم سيؤدي لا محالة إلى انقراضها أو بالأصح ذوبانها، وبالتالي زوالها، ولكن لم يدركوا أن الشاوية لم يتخلوا في يوم من الأيام عن لهجتهم رغم تعرضها للمنافسة عبر الأجيال بداية من الرومان والفينيقيين والبيزنطيين والوندال والعرب والفرنسيين، ولا زالت موجودة، ولو

تخلوا عنها لما وصلتنا اليوم، أما اختيارهم لتعلم العربية فهذا ليس من أجل التخلي عن لهجتهم، وإنما كان نتيجة لاعتناقهم الإسلام لأنّ الفهم الجيد للدين الإسلامي يمر حتما عبر فهم لغة هذا الدين، وهذا ينطبق تماما علينا نحن كباحثين في التاريخ القديم أو المعاصر حينما اندفعنا لتعلم اللغة الفرنسية من أجل الفهم الجيد لتاريخ كفاح وطننا ضد المستعمر، لكون تاريخنا الوطني كتب بأقلام فرنسية، ولذلك فإنّ فهم تاريخ وطننا يجب أن يمر أولاً عبر فهم ومعرفة لغة المستعمر⁽⁴²⁾.

إنّ المشكلة التي دفعت الشاوية إلى استعمال بعض الكلمات العربية يعود لكونها تختلف في النطق مع اللهجات الأخرى مثل القبائلية وغيرها من اللهجات الأمازيغية، وهذا ما جعلها محلّ الشكوك وعدم المصادقية، دون التساؤل أو البحث عن الأسباب التي أدت إلى دمجها لبعض المصطلحات العربية في استعمالاتها مع المحافظة على نطقها نطقاً شاوياً محضاً، إلا أنّ إدخال المصطلحات العربية في اللهجة الشاوية جعل البعض يراه نقمة على هذه اللهجة، بينما هو في حقيقة الأمر إشارة تدل على الثراء اللغوي للمجتمع الجزائري⁽⁴³⁾.

لقد أشارت الباحثة ماتيا (Mathea) بخصوص قضية إدخال الكلمات العربية في اللهجة الشاوية من خلال دمجها مع احتفاظهم بخصوصياتها النطقية بقولها: إنّ الشاوية مجتمع مزدوج اللسان يتكلم الشاوية والعربية معاً؛ فالعربية تسهل له التعامل مع سكان المناطق الأخرى وكذا بعض أعوان الإدارة، أما الشاوية فإنه يتكلم بها فيما بينهم وداخل أسرهم⁽⁴⁴⁾.

لذلك نجد بعض الكلمات العربية تنطبق على أفكار يتلقاها الشاوية من العربية، ولكن في بعض الحالات فقط، وتستعمل بطريقة التصديق حتى يبقى نطقها بالشاوية، وقد أشرنا إلى ذلك في عنصر قواعد اللهجة الشاوية المستعملة من قبل سكان منطقة بلزمة. المثل: المقبرة = ثمقبرث في المؤنث، أما المذكر: القبر = أقبور⁽⁴⁵⁾.

رغم تسرب العربية داخل الشاوية إلا أننا لا نجد إلا حوالي 38% من الكلمات العربية في اللهجة المتداولة، ولكنها احتفظت بصيغة النطقية الشاوية من خلال صياغتها على طريقتها، وبالتالي بقيت تحافظ على عبقريتها الأصلية وتكوينها العضوي رغم تلك التحويلات الثانوية⁽⁴⁶⁾.

خاتمة:

- ما يمكننا قوله من كل ما سبق أن لعلم اللهجات اليوم مكانا في الدراسات اللغوية العربية بانصراف عدة باحثين إلى دراستها، وقد ساعدت دراساتهم في معرفة أن اللهجات واقعا لغويا لا يمكن إزالته ومحوه أو التغاضي عنه.
- رغم الغموض والنقص الذي يكتنف اللهجة الشاوية في منطقة بلزمة إلا أنها تعطينا معلومات عن سيروية دوامها واستمراريتها داخل مجتمع بلزمة باعتبارها الوسيلة الاتصالية الأولى المستعملة في الأسرة، والتي يتعلمها الأبناء منذ طفولتهم، وهذا ما يجعلهم يمارسونها ويتداولونها فيما بينهم، وبالتالي الحفاظ على استمراريتها لدى الأجيال بصورة شفوية.
- إن سر حفاظ سكان بلزمة على لهجتهم يرجع لعدة عوامل منها البيئة الطبيعية لكونهم يعيشون في منطقة جبلية كانت بالنسبة لهم كحاجز طبيعي ساعدهم في الحفاظ على استمراريتها وعدم ذوبانها.
- إن ما يعيب اللهجة الشاوية لدي سكان بلزمة وغيرهم من سكان الأوراس هو أنها لا تملك حروفا رغم أن لها أصوات ناطقة، مما يعني أنها منطوقة وليست مكتوبة، ولكن رغم ذلك فهي اللسان الناطق لسكانها باعتبارها تراث وإرث لغوي خاص بهم.
- إن تسمية اللهجة الشاوية استمدت من الحياة الاقتصادية التي كان يعيشها سكان الأوراس، وشهرتهم بممارسة رعي الغنم؛ فقد سموها بالشاوية نسبة إلى الشاة.
- رغم أن اللهجة الشاوية مصطلح حديث في الدراسات اللغوية إلا أنه ظاهرة لسانية معروفة مند القديم، ومازالت إلي يومنا تؤدي وظيفتها في المجتمع.
- يتضح لنا أن الشاوية لا يشكلون سلالة بالمعنى المتعارف عليه، ولكنهم يمثلون ظاهرة لغوية منطوقة وليست مكتوبة، ويميزها لسان خاص يبرهن على قدم تاريخها عبر الأزمنة.

الهوامش:

- 1- مرتاض عبد الجليل، مقارنات أولية في علم اللهجات، دار الغرب، وهران، الجزائر، 2002، ص 107-2- أنيس إبراهيم، في اللهجات العربية، ط9، مكتبة لآنجلو مصرية، القاهرة، 1995، ص 16-3- رمضان عبد النواب، فصول في فقه اللغة، ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، 1983، ص 72-4- أنيس فريحة، اللهجات وأسلوب دراستها، ط1، دار الحبل بيروت، 1989، ص 85
- 5- البسيوني عبد العظيم، من معالم العربية ولهجاتها، ط1، دار والى الإسلامية، مصر، 1998، ص 208
- 6- إيكارت، أبحاث حول أصل وهجرات أهم القبائل في إفريقيا الشمالية والجزائر خاصة، ترجمة حمزة الأمين يحيوي، عالم المعرفة، الجزائر، 2016، ج5، ص 126-7- مارمول كرىخال، إفريقيا، ترجمة محمد حجي وآخرون، الرباط، 1984، ج1، ص 138
- 8- ابن خلدون، مقدمة، تحقيق وتعليق: عبد الله محمد الدرويش، ط1، دار يعرب، دمشق، 2004، ج1 ص 246
- 9- بوزياني دراجي، القبائل الأمازيغية أدوارها مواطنها أعيانها، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2007، ج1 ص 10

- 10- الوزان الحسن بن محمد، وصف أفريقيا، ترجمة: محمد حجي محمد و محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، ط2، بيروت، لبنان، 1983، ج1 ص 66-11- زوزو عبد الحميد، الأوراس إبان فترة الاستعمار الفرنسي 1837-1939، ط3، دار هومة، الجزائر، 2011، ج1 صص48، 49-12- سعيدوني ناصر الدين، مذكرة حول إقليم قسنطينة، مجلة الأصاله، العدد 07، 1979، ص 14
- 13- عدي هواري، الاستعمار الفرنسي في الجزائر سياسة التفكيك الاقتصادي الاجتماعي 1830-1960، ترجمة جوزيف عبد الله، ط1، دار الحدائة، 1983، ص، ص 15، 19
- 14- Emile Masqueray, La Djebel Chechar, Revue Africaine, Vol.22, Bulletin de la Société de géographie d'Alger, 1878, p.270.
- 15- وافي علي عبد الواحد، علم اللغة، ط9، دار نهضة، 2000، ص202-16- غريبة عبد النور، الأوراس في الكتابات الفرنسية إبان الفترة الكولونيالية 1840-1939، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة لحاج لخضر، باتنة، 2010، ص26، 27
- 17- Mathéa Gaudry, La Femme Chaouia de l'Aurès, Etude de Sociologie Berbère, Ed.Chibah- Awal, Algérie, 1989, pp. 26-32.
- 18- إنتاج جمعية أول نوفمبر: ثورة الأوراس 1916، باتنة، 1986، ص 32-19- اليعقوبي، صفة العرب، طبعة لندن، دس، ص 12 إنتاج جمعية أول نوفمبر: ثورة الأوراس 1916، باتنة، 1986، ص 32-20- ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ترجمة عبد السلام هارون، ط3، دار المعارف، مصر، 1971، ص 199-21- ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ترجمة: سكوئان و لبروفنسال، دار الثقافة، بيروت 1982، ج1، ص123
- 22- A.Joly , le chaouiya des ouled Sellem , Rvue africaine, Vol. 55, Alger, 1911, p.415.
- 23- René Basset, Notes Sur le chaouia de la province de constantine, Journal Asiatique E mest, leroux Imprimerie Nationale, Editeur rue Bonaparte, 1896, p.361.
- 24- سعيدوني ناصر الدين، الإنسان الأوراسي وبيئته الخاصة، مجلة الأصاله، العدد 61/60، 1978، ص 118.
- 25- توفيق المدني أحمد، أوراس محطم الاستعمار الروماني، مجلة الأصاله، العدد 61/60، 1978، صص 16-23.
- 26- A.Joly , Op.Cit, p.422.
- 27- إكاريت، الاستكشاف العلمي للجزائر خلال أعوام 1840-1842، ترجمة حمزة الأمين يحيياوي، عالم المعرفة الجزائر، 2016، ج3، ص43.
- 28- A.Joly, Vacabulaire de chouiya des ouled Sellem, Revue Africaine, Vol. 56, Alger, 1912, pp. 232-252.-----29- A.Joly, Op.Cit, p.433.
- 30- إكاريت، الاستكشاف العلمي للجزائر، المصدر السابق، ص 45-31- المصدر نفسه، ص 49
- 32- قبائل منطقة بلزمة: أولاد سلطان، أولاد بوعون، أولاد سلام، أولاد فاطمة، أولاد حيدوسة، أولاد علي بن صابور، أولاد مهنة، أولاد بني يفرن، أولاد شليح، أولاد لخضر حلقاوي ، أولاد سيدي عبد الرحمان، أولاد علي بن فروج، أولاد سيدي الحاج بن عامر. أنظر، مختار هواري، نماذج من القمع الإداري الفرنسي تجاه بعض القبائل في الجنوب القسنطيني، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة الحاج لخضر، باتنة 1، 2017 صص25، 26
- 33- زوزو عبد الحميد، المرجع السابق، ص120-34- المرجع نفسه، ص122-35- المرجع نفسه، صص49، 50
- 36- آرامبورغ كميل، نشأة البشرية، ترجمة خليل الحر، منشورات العربية، دس، ص 121-37- حارش الهادي محمد، دراسات في تاريخ الجزائر الماضي والحاضر، دار هومة، الجزائر، 2013، ص 12-38- ابن خلدون، العبر، ط3، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2006، ج6، ص 137-39- إكاريت، أبحاث حول أصل وهجرات أهم القبائل في أفريقيا الشمالية والجزائر خاصة، المصدر السابق، ص 125-40- زوزو عبد الحميد، المرجع السابق، ص 56-41- المرجع نفسه، ص57-42- حارش الهادي محمد، المرجع السابق، ص43-43- المرجع نفسه، ص 31
- 44 - Mathéa Gaudry, Op.Cit, p.32---- 45 - A.Joly, Op, Cit , p 433
- 46- إكاريت، الاستكشاف العلمي للجزائر خلال أعوام 1840-1842، ص14.

طرق التدريس ومناهج تحصيل المعرفة بجاية
خلال الحكم الحفصي (ق7-9هـ/13-15م)
Teaching and learning methods in Bejaia
during the Hafsid rule (7-9-AH/13-15 AD)

اسم ولقب المؤلف المرسل للمقال: مسعود بريكة- Brika Messaoud صص 177-197
الدرجة والعنوان المهني: أستاذ محاضر- جامعة محمد أمين دباغين- سطيف2
البريد الإلكتروني: messaoubri@yahoo.fr

تاريخ استقبال المقال: 2019/11/29 تاريخ المراجعة: 2020/04/01. تاريخ القبول: 2020/04/29

الملخص: يهدف هذا العمل العلمي الذي يندرج ضمن التاريخ الثقافي لمدينة بجاية خلال الحكم الحفصي (ق7-9هـ/13-15م) إلى تتبع الحراك العلمي بالمدينة، بالبحث في طرق التدريس المتبعة، ومناهج تلقين المعرفة العلمية عبر المؤسسات التعليمية بالمجال البجائي، وتناولت الموضوع بالبحث في إشكالية طرق التدريس التي انتهجها الأساتذة الفقهاء، وهل بقيت الطريقة الكلاسيكية هي السائدة، أم هناك طرق جديدة؟ وتحليل العوامل المتحكمة في الثورة البيداغوجية التي عرفتها العملية التعليمية بجاية، ومظاهر التحول الجديد الذي طرأ على المنظومة المعرفية، وأثره في التحصيل العلمي في شتى العلوم، كما حاولت استنباط الآليات التي انتهجها الأساتذة في مجالس الدرس لتبليغ المادة المعرفية للطلبة، من خلال رصد كتب التراجم والطبقات لفهمها واستنتاجها، لأنتهي بالبحث عن المؤشرات التي تبرز نجاح العملية التعليمية، وصحة المناهج المتبعة من قبل هيئة التدريس، بتتبع طبيعة الحضور وعدد الطلبة عبر المؤسسات التعليمية بالمدينة وكفاءة المتخرجين.
الكلمات المفتاحية: بجاية، التدريس، المناهج، الأساتذة، الطلبة، المعرفة، التحصيل العلمي، مجالس الدرس.

Abstract: The present research, which falls under the cultural history of the city of Bejaia during the Hafsid rule (7-9-AH/13-15 AD), aims at tracing the scientific movement of the city, by investigating the teaching and learning methods through educational institutions throughout Bejaia.

I divided the research into two parts; The first part of it, I discussed the teaching methods adopted by the Scholars of Jurisprudence, whether the classical method remained prevalent, or there are new methods and analysis of the factors that governs the pedagogical revolution in the educational process in Bejaia, and aspects of the new changes occurring in the knowledge system and its impact on knowledge acquisition. In the second part, I have identified the mechanisms adopted by the teachers in the classrooms to teach students the subject matter, by investigating biography and classes books to understand and identify those methods. Finally, I have investigated the indicators that show the success of those methods adopted by the scholars, by tracking of the nature of the attendees and the number of students through educational institutions of the city.

Keywords: Bejaia, teaching, methods, teachers, students, knowledge.

مقدمة: تعترض الباحث في تاريخ العلوم والمعرفة في العصر الوسيط ببلاد المغرب عموماً والأوسط بالخصوص إشكالية المادة الخبيرة التي غالباً ما تتجاوز التأريخ للمعرفة؛ فجل المصادر الإخبارية دون كتابها الأحداث السياسية والعسكرية، وركزوا بالخصوص على التاريخ البلاطي السلطاني، وكانت العامة أو فئات الظلّ بألوانها المختلفة المغيب الأكبر في تلك الكتابات¹، يسري ذلك على الفئة العاملة بأقل حدة، لذلك يلجأ الباحث لأنواع أخرى من المصادر التي ملأت بعض الفراغ ككتب الفهارس والبرامج²، التي يرى البعض أنّ سبب تدوينها هو رغبة الشيخ في إثبات سنده العلمي تقديراً للعلم وخدمة للطلبة؛ فيأتي على ذكر رحلاته في طلب العلم، ويترجم لشيوخه وتلامذته، ويذكر الكتب التي قرأها وأقرأها³، كما أنها تفيدنا في فهم طرق التدريس التي انتهجها الشيخ مع طلبتهم.

رصدت هذا النوع من المصادر التي تؤرخ للحياة العلمية ببجاية خلال الحكم الحفصي (ق 7-9هـ/13-15م)، واستنتجت تلك الطرق لأفهم مدى تطورها أو بقائها جامدة، أترتكز على المحاور والجدال أم تعتمد على الحشو والتلقين والحفظ؟ وما طبيعة الأساليب التربوية المنتهجة في التدريس؟ وماهي المعايير التي يمكننا أن نقيس بها جدية وفعالية تلك الطرق والمناهج التربوية في تلقين المعرفة العلمية بالفضاء الثقافي البجائي خلال الحكم الحفصي؟

العرض: أقصد بطرق تحصيل المعرفة تلك السبل التي اتبعت لتبليغ المادة المعرفية ومحتوياتها للطلبة في كل فنون المعرفة العلمية التي كانت تدرس في مؤسسات التعليم البجائية، والمناهج التربوية المتبعة لإيصال مختلف العلوم، لأفهم مدى تحكم أساتذة بجاية في آليات التبليغ، وخلق تقاليد علمية جديدة.

1- طرق التدريس وتحصيل المعرفة: تباينت بين طريقة تقليدية كلاسيكية وطريقة تجديدية، تحكمت فيهما مجموعة من السياقات التاريخية، تراوحت بين الموروث التقليدي في التدريس المكتسب من الأجداد، ومؤثرات النخب المهاجرة إلى بجاية، وتتمثل في:

أ- الطريقة التقليدية الكلاسيكية: شدّد المنظرّون للتربيّة ببلاد المغرب الإسلامي على طريقة الحفظ والفهم⁴، وأن لا يتكل طالب العلم على القراءة من الكتب دون شيخ، وأباحوا للطلبة قراءتها إن كانت في متناولهم دون جهد مضمّن للبحث عنها أو السعي وراءها، واعتبروا الأستاذ محور العمليّة التعليميّة؛ فقال اليوسي: "وأن يعتمد على السّماع والحفظ والفهم لا على الكتب متّكلاً"⁵، وأساسها الإلقاء إذ يقوم المدرّس أو الأستاذ بالحديث في موضوع معين والطلّبة يدوّنون أو يستمعون لما يقوله، ومن حين إلى حين يطلب من المستمع استرجاع الدّرس فيمليه عليه، وهكذا مع بقية الطّلاب حتّى تتمّ عمليّة الاستيعاب والفهم⁶، ويتأكّد تدرّجهم على الإلقاء وضبط شخصيتهم بالحديث وكسب الثّقة في أنفسهم، ويأمر الشّيخ في نهاية الدّرس أحد الطّلبة بتريده ما كتبه لتصحيح الأخطاء، ويطلق على من يملي على زملائه الطّلبة عادة "المعين"⁷، لأنّه يساعد شيخه في عمليّة التّدريس بالاسترجاع، ولا ينتقل إلى عنصر أو جزئيّة إلّا بعد استيعاب الّتي قبلها، وهو ما أطلق عليه في التّربيّة بأسلوب التدرّج عند إلقاء الأفكار من البسيط إلى المعقد، والتركيز على استعدادات الطّلاب، وقدرتهم على الاستيعاب والفهم، وكثيراً ما ركّز أصحابها على حفظ المادة المقدّمة، والسؤال عنها بتريدها، وهو "مما يعين ثبات المحفوظ"⁸ بالمراجعة والتكرار، وقد أكّد الكثير من المنظرّين على أهميّة الحفظ كأداة من أدوات التّحصيل المعرفي على وزن ما قال أحدهم:

إِذَا لَمْ تَكُنْ حَافِظًا وَاعِيًا *** فَجَمْعُكَ لِلْكِتَابِ لَا يَنْفَعُ⁹

اشترطوا تصحيح الطّالب لأخطائه قبل الحفظ بتريدها على شيخه أو على أحد الطّلبة، مع الإكثار من تكرار المادة المحفوظة¹⁰، وقد فضّلها الطّلبة لأنّها تجعلهم أقوياء في الاسترجاع واستحضار الجواب، وقد كانت الكتب والمختصرات تستظهر للشّيخ ليستكشف درجة حفظهم، وتقاس المقدرة العلميّة للطلّبة على أساس عدد الكتب المستظاهرة¹¹، وقد ساعدهم النّظم على تذكّرها بقوة، لذلك نجد الكثير من التّراجم تأتي

في ثناياها على أسماء الكتب التي يحفظها الفقيه، ويصفونه بالحافظ والمستبحر في ترديد المسائل والفروع بطلاقة¹²، اشتهر ثلثة من الفقهاء بهذه الطريقة التي استحسناها البعض خاصة إذا كان المدرّس قادرا ومحصّلا؛ فقد عُرف الفقيه ابن تونارت الدكالي (ق7هـ/13م) بدروسه الفقهية الجيدة، بخاصة أثناء تدريسه لكتاب المدونة وإلقائه على الطلبة حيث كان "مليح التفهيم، حسن الإبتداء والتّتميم"¹³، ممّا يبيّن أنّ العيب ليس في طريقة تقديم الدّرس كما يرى البعض، وإنّما في مواصفات المدرّس؛ فإذا حضرت شروط الإبتقان نجح الدّرس.

قوبلت هذه الطريقة بالانتقاد من قبل بعض الدّارسين¹⁴، لأنّها برأيهم اعتمدت على النّقول واختصار الشّروحات، وتلقينها دون فهم ولا ضبط للمعاني، وقد ذهب ابن خلدون إلى أنّ المعلمين عقّدوا العمليّة للطلّاب بحشوههم لمادة خيرية معقّدة لا تفيد الطّلاب، وتجعلهم أسراء الحفظ والاسترجاع؛ فيطيلون عمرهم في ذلك دون فائدة¹⁵، كما أنّها قتلت روح الإبداع والاجتهاد عند الأساتذة والشّيوخ¹⁶، وأكسبت الطّلبة الخمول وقلة التدبّر والتّفكير، ودفعتهم إلى الملل وكره الدّراسة لأنّهم شعروا أنّهم غير معنيين بالنّقاش والجدل؛ فغاصوا في الشّرود وقلة الإبتباه، وربما يحصل التشيّع من الدّرس والشّيخ في آن واحد، ولعلّ ذلك ما جعل السنوسي يوجه النّصح للفقهاء المدرّسين بضرورة إيقاف الدّرس عند شعور الأستاذ بقلة تركيز الطّلبة ومللهم، والعودة إليهم بعد أن يدبّ فيهم النّشاط والرّغبة في السّماع؛ فقال موجّها كلامه للمدرّسين: "فليقم عنهم ويتركهم، ولا يعلمهم إلّا في الوقت الذي يعلم منهم النّشاط والحرص على ذلك"¹⁷، لأنّ الفائدة هي الفهم والتّحصيل؛ فإذا غابت فلا مانع من إيقاف الدرس، وعابوا عليها اعتمادها على مختصرات وشروح مهمة تتطلّب كتباً أخرى لتبسيط معانيها وفهم مغزاها، وهي من أسباب تأخّر التّعليم في بلاد المغرب برأي الكثير.

انتقد العبدري تلك الطّريقة لما دخل بجاية، وتأسّف على الوضعيّة الثّقافيّة التي آلت إليها المدينة وتباكى على حالها، حين لم يجد إلّا قلة من طلبة العلم انتهجوا الطريقة التقليديّة في التّدريس، واقتصروا على بعض التّأليف التي لا تنفع طالب العلم؛ فقال: "وبه أحاد من طلبة العلم قد اقتصروا على مطالعة الصّحف والدّفاتر"¹⁸، كما ذم طرقهم في تصحيح الحديث النبوي الشّريف، واعتبرها طريقة شاذة لم يعهدها العلماء

الكبار ولا عملوا بها، حتى وإن كانت المبالغة من العبدري في تشخيص الحالة الثقافية لبجاية إلا أنها تعبر عن واحدة من مآلات مناهج التدريس التي انتهجها بعض الأساتذة، والتي لم ترق إلى مستوى الحاضرة الثانية للحفصيين.

كما نبّه الأبي (ت757هـ/1356م) ومحمد المقري (759هـ/1358م) وابن خلدون على تراجع المعرفة العلمية وطرق تلقيها ببلاد المغرب ما بعد القرن (8هـ/14م)، والقدح في المحتويات المدرّسة والمناهج المتبعة؛ فقد رأى ابن خلدون أنّ كثرة التآليف أفسدت التعليم، وهو يشير إلى اعتماد المختصرات والبرامج التي كثيرا ما احتوت على مادة عسيرة محشوة قليلة الفائدة¹⁹، مع غياب روح الاجتهاد وبعث الحيوية في النصوص المدرّسة، واعتبر أحد الباحثين ذلك من مظهرات انزلاق الحضارة الإسلامية نحو الضعف الذي توالى تترّا²⁰ لغياب الفهم والتحصيل الجدي، والاعتماد على الحشود دون وعي ولا إدراك للمعاني وعمق المعرفة، يعضد ذلك رواية أبي عبد الله الشريف في مناقبه، حيث يذكر أنه دخل بجاية سنة 740هـ/1339م فجلس إلى مجالس مشيختها؛ فحدثهم في مسألة من مسائل ابن الحاجب؛ فقال بعضهم: "إن ابن الحاجب عندنا اليوم يقرؤه الصبيان؛ فسألهم في أسئلة عجزوا عنها"²¹، وهو ما يختصر نتائج التلقين دون الفهم، وغياب الجدل والفحص والتمحيص في المسائل الفقهية، وعلى شاكلتها بقية العلوم.

ب- الطريقة الحدائثية وثورة في المناهج والآليات: الملاحظ من خلال قراءتنا للموروث الموحد في الفترة الحفصية المبكرة أنه بدأ يتراجع لكنّه كان بطيئا نوعا ما، سواء على مناهج وطرق تدريس العلوم الشرعية خلال أو على مستوى أفضلية علم على آخر؛ فلم يعد الاهتمام منصبا على علم الكلام والجدال العقلي والتوحيد كما حرص عليه ابن تومرت، وغاب القول بأنّ للقرآن معاني باطنة لا يفهمها إلا المدركون لتأويل القرآن، وجعلوا المعنى الظاهري للنص هو المعنى الحقيقي²².

لم تسلم طرق التدريس من ذلك الانقلاب لسببين رئيسيين هما: هجرة الأندلسيين إلى بجاية، وإدخالهم لطرقهم ومناهجهم في التدريس والتعليم، التي كانت قائمة على النمط التقليدي المرتكز على التلقين والحفظ، والسبب الثاني هو الثورة التي أحدثها بعض الفقهاء البجائيين الذين ارتحلوا إلى بلاد المشرق لإتمام دراساتهم؛ فتأثروا بطريقة شيوخهم القائمة على المناقشة والمحاورة والسؤال²³؛ فاستحسنوها وأثروها على الطريقة

التقليدية، لذلك ارتأيت الوقوف على ذلك التجديد ونتائجه على مستوى الكفاءات المتخرجة من مجالس الدرس.

تقوم هذه الطريقة التي يفضلها الطلبة الحدّاق خصوصا، على طرح الأفكار وتداولها بين الطلبة، وعرضها على الشيخ بالتحليل والمناقشة والإتيان بالحجة والدليل، تولد فيها المعاني وتستدرج حتى تنضج وترسخ في ذهن الطالب، تقوم على الجدول للوصول إلى نتائج عميقة من خلال الحوار بين الطلبة والأستاذ²⁴، الشيوخ الذين اشتهروا باتباعهم تلك الطريقة عرف عن طلبتهم الميل إلى العلوم العقلية، ومناقشة الآراء وعدم التسليم إلا بما هو منصوص عليه وثابت، وقد أشاد الغبريني في برنامجه بطريقة شيخه أبي محمد بن عبد العزيز القيسي وأبي محمد عبد الله بن عبادة في تدريس الفقه؛ فقد كانا يقفان على الموطأ وكتب الفقه المالكية الأخرى بالشرح والتفصيل والتدقيق في المعاني، وإيراد الأمثلة بشكل يجعل الطالب يستوعب الأفكار، ويفرع في القضايا الكبرى بتبسيطها وتعليقها في قوله: "وكل ذلك على إتقان وتحصيل وجودة بيان بتفريع وتأصيل وإجمال وتفصيل"²⁵، ثم تطرح الأسئلة على الشيخين، ويجيبان عنها بكل دقة.

يتحدث الغبريني عن المذاكرة، وهي الأسئلة التي يطرحها الشيخ على طلبته من الدروس السابقة، والتي تقوم على الاسترجاع وقياس مدى الفهم والتحصيل عندهم، ليتدارك النقائص ويجبر الخلل قبل فوات الأوان، وعادة ما تكون في بداية كل درس "بالمذاكرة والمباحثة وإلقاء الأسئلة، وإيراد المشكلات"²⁶، يُستشف منها نقائص المتعلم من الدرس السابق، وذكر أنّ هذه الطريقة في إلقاء الدروس لا تنسى إلا لأفاضل العلماء وأكابر الفقهاء، مبيّنا مدى أهميتها لطلبة العلم وفائدتها الجمّة، بخاصّة وأنها تقوم على أسلوب المحاورّة والتّقاش، وإيراد المهم من القضايا الفقهيّة في أمهات الكتب الفقهيّة المالكيّة؛ فقال عن طريقة شيخه مبديا إعجابه بها: "ذلك ما جرت عليه العادة بإيراده عند أفاضل الفقهاء وأكابر العلماء"²⁷، موضّحا النتائج العلميّة المفيدة لتلك الطريقة والاستفادة الجمّة للطلبة: "فوقعت الاستفادة بذلك من كثير من أشيائي"²⁸، ممّا يبيّن أنّها طريقة كانت منتشرة ببجاية خلال القرن 7/14م؛ فانتهجها الكثير من المدرسين، وقد أتت أكلها، وازدادت نضوجا خلال القرن 8/14م، ويؤشر على ذلك هجرة الكثير من

فقهاء تلمسان إلى بجاية للدراسة والسماع من شيوخها، أو من خلال فتاوي البجائين المتبادلة مع علماء الحاضرة الزبانية²⁹.

شرحها الغبريني جيّدا، وهو يترجم للفقهاء أبي العباس أحمد الغماري (ت682هـ/1283م) عندما يحدثنا، وهو شاهد عيان، كيف كانت تجرى عملية النقاش والمحاورة داخل مجلس الدرس، ويتبين من كلامه أنّ الفقيه المدرّس حكيم في إدارة النقاش بين طلبة مجلسه العلمي بخاصّة في دروس الفقه وأصوله؛ فيقوم بقراءة كتاب من الكتب الفقهية كالتّهذيب مثلا، ويورد المسألة ونقيضها، ويذهب إلى ترجيح رأي من الآراء في المسألة الواحدة بالأدلة والبراهين حتّى يقع التّسليم، ثم يأتي بالرأي الثاني من المسألة للبحث فيها مع طلبته، ويناقش ويجادل ويستحضر الأدلة حتّى يقع الرّجحان في المسألة³⁰، وكان من نتائج هذه الطريقة أعمال فكر وعقول الطلبة، وزيادة المنافسة بينهم لتقديم الحجج على ما يعتقدونه ويرجحونه من آراء علميّة، وقد نقل لنا أجواء الدرس والمنافسة بين الطلبة: "ويقرأ الجلاب فيكثر البحث وتحتد القرائح"³¹، ويفتح في الأخير الشّيخ الباب للأسئلة التي لا يشترط الإجابة الفوريّة عنها، حيث يختار منها ما يفيد الموضوع الذي قدّمه لطلبته ليزيده تفصيلا وشرحا، ويعود عليهم بالفهم والاستيعاب، وقد لا يجيبهم في نفس الوقت حتّى يستجلي الجواب، ويبحث عنه ويرجئه إلى حصّة أخرى حتّى يكتمل عنده الجواب.

قد تختلف هذه الطريقة قليلا أثناء معالجة المسائل من أستاذ إلى آخر، لكنها في العموم ترتكز على قضيّة إشراك الطالب في النقاش الدائر داخل الحلقة، وقد اعتمدها الفقيه ابن عجلان (ت675هـ/1276م) الذي يترك الطالب يقرأ المادة المعرفيّة من كتاب يختاره الشّيخ، ثم يقع الخلاف أو السّؤال بين الطلبة، حتّى يحتدم النقاش ليتدخل المدرّس لحسم الأمور³²، ولعل ذلك ما جعل السّمهودي ينصح بملازمة الشّيخ والمداومة على حضور دروس الإقراء والمتابعة الدائمة قائلا: "أن يلزم حلقة الشّيخ في التّدريس والإقراء، بل وجميع مجالسه إذا أمكن"³³، ويفهم من كلامه إتباع طريقة واحدة ومنهجية واضحة لتحصل ملكة الفهم، ويزداد التّحصيل في أقصر مدّة ليتخرّج الطالب فقيها مجازا؛ فتنوع الأساندة يفسد العقل ويشوش الدّهن، ويجعل الطالب في حيرة من أمره؛ فلا يمكث مدّة إلّا وكره وربما انقطع عن مزاوله الدرس.

من الشيوخ الذين وصلوا العمل بتلك المنهجية في التدريس الفقيه محمد بن أبي القاسم المشدالي (865هـ/1460م) الذي كان يعمل العقل في فهم النصوص³⁴، ممّا نتج عنه اتجاه الفقهاء للاجتهاد في الفروع واستنباط الأحكام الشرعية، والإجابة على المسائل المستعصية، ولم يكن همهم الجمع فقط، بل ذهبوا إلى دراسة النصوص، وفهم الأحكام والتأليف في مناحي العلوم الشرعية خصوصاً³⁵.

جمع الأساتذة الذين تبنا هذه الطريقة بين الحفظ تارة والشرح تارة أخرى دون الإخلال بنظام الدرس لبعث النشاط في الطلبة، وهو مبدأ يقوم على الوسطية ويعبر الاهتمام لحالة الطلبة، مطبقاً النصيحة التربوية والتعليمية التي إنبتت على فكرة "ولياخذ من الحفظ والشرح ما يمكنه ويطبقه حاله من غير إكثار يمل، ولا تقصير يخل بجودة التحصيل"³⁶، اعتمدها كذلك الفقيه ناصر الدين المشدالي وحبدها، وكانت طريقته المفضلة في الدرس، حيث كان يحب التحري والتنقيب عن العلم الذي يدرسه، ويرفض الإستكانة إلى النقل، ممّا يضفي على النصّ الجدة والدقة، بخاصة في علمي اللغة والمنطق، وهي الطريقة التي جعلت دروسه كما وصفت "حسنة ومنقحة"³⁷، وقد لقيت هذه الطريقة استحساناً في أوساط الطلبة لأنهم وجدوا أنفسهم في الدائرة المحورية للعملية التعليمية، وأحسّوا أنهم جزء مهم فيها؛ فأصبحوا يناقشون ويبحثون ويجيبون ممّا فتح الباب أمامهم لزيادة الاطلاع والبحث، وجعلتهم أكثر استيعاباً أبعدهم عن الحشو والترقيم دون فائدة، وأصبحوا لا يشعرون بالملل أثناء الدرس، وتشوّقوا للحلقات العلمية وطريقة أساتذتهم التي خرجت عن المعهود، حبّذا الغبريني كثيراً، وأثنى على أصحابها في مشيخته، وأتى على أشهر من كان يطبقها من المدرّسين ببجاية بخاصة في علم الفقه.

أشاد ابن خلدون بتلك الطريقة التي تشغل الذهن وتنمي ملكة الجدل، لأنها بحسبه تقوم على المجادلة والمحاورة، ومناظرة الفكرة بالفكرة خصوصاً في الأمور العلمية، عكس ما كان يحدث في المغرب المريني الذي عاب عليهم طرقهم في التعليم القائم على الحفظ دون فهم ولا تحصيل قائلاً: "ف نجد طالب العلم منهم بعد ذهاب الكثير من أعمارهم في ملازمة المجالس العلمية سكوتا، لا ينطقون ولا يفاوضون، وعنايتهم

بالحفظ أكثر من الحاجة؛ فلا يحصلون على طائل من ملكة التصرف في العلم والتعليم...³⁸.

تحفز هذه الطريقة الشيخ على البحث والتنقيب عن الدروس التي يقدمها لطلبته، وتجعله مجدداً لأفكاره ومستوعبا لمفاهيم الدرس، ويأبى الاجترار ويتحرى الصدق والموضوعية فيما يقدمه، بخاصة في ظل وجود الطلبة الحذاق الذين يشعرون أستاذهم بتفوقهم؛ فيثيرون الشك في مادته العلمية؛ فينهض للقراءة والتمحيص؛ فقد اعترف ابن مرزوق أن أبواب المعارف لم تفتح له إلا بعد أن دخل أبو الفضل المشدالي تلمسان، وصار ينازعه في حلقة الدرس، مبدئياً إعجابه واعترافه بالطالب البجائي، حيث قال فيه: "ما عرفت العلم حتى قدم علي هذا الثأب؛ فقيل: كيف، قال: لأنني كنت أقول فيسلم كلامي؛ فلما جاء هذا شرع ينازعي؛ فشرعت أتحرق وانفتحت لي أبواب من المعارف"³⁹؛ فالحلقة التي تتشكل من مثل أبي الفضل تأبى الركون وترفض السكون، وتحب النشاط وتتوق إلى التجديد، وتستنطق المعرفة الرصينة، وتبحث عن أصولها.

أثارت هذه الطريقة حفيظة بعض الطلبة، حيث اشتكوا ضعف استيعابهم وقلة فهمهم للغة ومعاني أساتذتهم، نظراً للمستوى العالي لأفكارهم ولغتهم، واعتقد أن ذلك يعود إلى طبيعة تكوين مشيختهم وتمكنهم من قواعد اللغة، ورصانة المعرفة العلمية التي يحملونها؛ فقد ناشد طلبة أبي الفضل المشدالي شيخهم بخفض المستوى لعدم فهمهم فقالوا: "تنزل لنا في العبارة؛ فإننا لا نفهم جميع ما تقول"⁴⁰، لكنه أدرك أنها الطريقة الأسلم حتى يرتفعوا بمستواهم إليه مع إعاتهم على ذلك بدل النزول إليهم، ويتضح أن الطريقة أتت أكلها، والأسلوب التعليمي نجح مع طلبته؛ فما هي إلا أشهر حتى صاروا يفهمون دروسه، ويتلقونها بالقبول والاستيعاب⁴¹، وهي الطريقة التي مدحها السخاوي لما سمع دروسه في الفقه، والتي تجلب السامع للدرس، وتجعله أكثر تثبيتها في الأذهان والقلوب، حتى أنه رأى أن سماع درس واحد من المشدالي أفضل من مئة درس عند غيره⁴².

من نتائج هذه الطريقة حدوث المنافسة بين الطلبة، قال اليوسي كلاماً جميلاً في الموضوع حاثاً على التنافس بين الطلبة في تحصيل العلم: "ومما يذكي القريحة فيه منافسة أهل التحصيل وهي محمودة؛ فلا خير فيمن لا ينافس على الخير وقيام حظ

للنفس من جائزة تستجلب أو فائدة ما تطلب وفهم أوائله بسهولة⁴³، والمعلم هو المحرك لتلك المنافسة بين الطلبة في حلقة العلمية، بهدف إثارة انتباههم وشدّهم إلى الدرس، وإعمال العقل في النقاش، أو تكون من الطلبة أنفسهم بسبب الغيرة التي تحركهم، وحبّ التفوّق على أقرانهم، وإبداء الفطنة للشيخ، بخاصّة إذا وجد في المجلس من يفوقهم ذكاءً وحفظاً، وقد يحدث ذلك حتّى بين الإخوة؛ فقد قرأ محمد المشدالي على أخيه أبي الفضل، ويبدو من خلال كلام السخاوي أنّ محمداً أراد إظهار تفوّقه على أخيه؛ فكان يجتهد بالقراءة والحفظ ليتحقق مبتغاه، ولكنّ النقاش والجدال بينهما كان يفضي دوماً إلى تفوّق أبي الفضل، وقد نجح في إمتحاناته ومناظراته العلمية مراراً على أخيه محمد دون مطالعة ولا مراجعة⁴⁴، مما ينمّ عن سعة علمه وقوّة ذاكرته وحسن جداله.

2- الأساليب التربوية المتبعة: تعدّدت تلك الأساليب باختلاف مستوى الأساتذة والمدرسين، ولطبيعة المشيخة التي قرأوا عليها وتأثروا بها، أو لطبيعة تكوين الفقيه وتصوّره للأهداف التربوية والتعليمية من التدريس، وأهم تلك الأساليب المعتمدة:

أ- التّربّي في العلم بالرفق والحلم: أشارت مصادر التّربيّة والتعليم إلى الطّرق التي ينتهجها المرّبي كاللين والتّواضع، والسّؤال عن أحوال المتعلّمين⁴⁵، ويبدو أنّ مشيخة العلم البجائيّة فهمت أساليب التّعليم والتّربية التي تعتمد على التّحاور والنقاش الهادئ، وترفض الخشونة والعنف، ولعلّ ذلك يعود إلى تمرّسها الطّويل في التّدريس من جهة، وما اكتشفته ورأته من مشيختها التي أخذت عنها في رحلاتها العلميّة عبر حواضر العلم في عالم الإسلام الوسيط، حاتّة الطّلبة على السّعي لطلب العلم، والسّماع من الأساتذة، ناصحة ومرشده بأسلوب رزين، وتقدم الأدلة النّصيّة فيما تعتقده وتشره من أفكار تعين الطّلبة بكل ما تملك منقطعة لتعليم القرآن وأحكامه على شاكلة الفقيه أبي العبّاس أحمد بن محمد الشّاطبي (ت674هـ/1276م)، الذي كان "ناصحاً مجداً، يرغّب الطّالب في الأخذ عنه، ويعينه على ذلك"⁴⁶.

اشتهر الفقيه أبو الحجاج بن يوسف الجزائري (ق7هـ/13م) بإلقاء فكاهاة مهذبة مليحة في الدّرس من حين إلى حين لدفع الملل عن الطّلبة، وتكسير التّكرار الذي يجعل الطّالب يسأم أو يتضجّر من الدّرس، ولعلّ ذلك الأسلوب من أسباب كثرة الحضور في حلقاته، وطول مجلسه بخلاف مجالس الأساتذة الآخرين⁴⁷، أمّا أبو عبد الله الأصولي (ت

662هـ/1264م) فكان يتواضع لطلبته، ويلقي على مسامعهم من حين إلى حين قصّة تحمل فكاهاة، أو يدايعهم ويستلطفهم بكلام فيه بعض من البسمة والإنشراح في غير إطناب، ولا يتجاوز حق الطّلبة من الدّرس، وقد آتت أكلها وثمارها، بحيث زادت أساتذتهم مهابة، وارتفعوا في أعين طلبتهم؛ فقد قال الغبريني عنه: "كان ذو دعاية وفكاهاة، لا تحلّ برتبته ولا تحاط من منصبه"⁴⁸، كما أثنى على دروس الفقيه أبي العبّاس أحمد الغماري (ت682هـ/1283م)، وقال بأنّها مختارة بشكل جيّد ومنقحة يقدمها بشكل عذب تفيد الطّالب⁴⁹، ممّا يدل على تحضيره للدروس التي يقدمها لطلبته، واستيعابه للمعارف العلمية التي يطرحها للنقاش، حتّى أنّ الجدل في حلقة يشدّد بين طلبته؛ حتّى يقع الرّجحان على المسائل محل الحوار، ويفهم من كل تلك الأمثلة أن هؤلاء فهموا أن ترغيب المتعلم يتمّ بجذبه إلى أساتذته، وكسر كل القيود بينهما بالرفق واللين والحسنى دون الإخلال بأهداف العملية التعليمية.

ب- أسلوب الردع والتخويف: من خلال قراءة السيرة التعليمية للأساتذة البجائيين في مجالس دروسهم خاصة في الوعظ والإرشاد، تبين لي تركيز ثلثة منهم على أسلوب التخويف أو ما يطلق عليه في كثير من الأدبيات التراثية بالترهيب، بإتيانهم على النصوص التي تتحدث عن اليوم الآخر، وتذكير النّاس بأهوال القيامة والإتيان بأحاديث التّرهيب من النّار وما ينتظر العصاة والمجافين، وهو أسلوب انتشر خصوصا بين الخطباء والشيوخ، إن في حلق العلم والدّروس أو في خطب الجمعة والمناسبات الدّينية التي تعدّ فرصة استغلها هؤلاء، بخاصّة في حالات التّفسخ الأخلاقي والفساد الإجماعي، وكان أبو يحيى زكريا الزواوي من السّباقيين والمعروفين ببجاية بهذه الطريقة؛ فكان كثير التخويف يستشهد بآيات العذاب والتّذكير بجهنم ونارها وعذاب القبر ومهالك يوم القيامة وصور أهوالها، "كثير التخويف للناس، يحذرهم جهنم وحرّها وعذابها وشرها"⁵⁰، وقد خالفه أبو مدين شعيب في ذلك الأسلوب التريوي بقوله: "لا تقنط النّاس، وذكّهم بأنعم الله تعالى"؛ فرد عليه قائلا: "لا أقدر إلا على هذا"⁵¹، ممّا يدل على استحبابه للطريقة الزجرية التي رأى فيها الصّلاح والخير للنّاس ليرتدعوا، ويعودوا إلى ربهم⁵²، وكان يشدّد القول، ويزجر كل من يرفض طريقته أو يخالفه فيها مبديا غضبه من المعادين لها؛ فقد ورد أنّ أحد طلبته اعترض عن حديثه في أهوال القيامة والنّار بقوله: "شوقنا إلى الجنّة"؛ فصاح قائلا:

"متى خرجنا من النَّار حتَّى نذكر الجنة"⁵³، كما عرف عن الفقيه أبي تمام الوهراني (ق7هـ/م13م) في غالب دروسه وفي معظم مناهجه التّركيز على تخويف الحاضرين والإستدلال بالتّصوص الشرعيّة المرهبة⁵⁴، وقد نجح في جلب النَّاس إلى مجلسه، مستسيغين دروسه وطريقته في الإلقاء⁵⁵، حتَّى أنّهم تأثروا به مرّكزا على الإرشاد والإصلاح وتزكيّة الأنفس وتحليتها بالخيرات، كما عبّر الغبريني قائلا: "وكان له مجلس يروق الحاضرين ويسر الناظرين...، وكان يوجد لكلامه في النَّفس أثر"⁵⁶.

3- طرق التّحميل: إنّ المعرفة العلميّة بجاية سواء كانت المكتسبة من طرف مشيختها أم التي قدمتها للطلبة وأهل العلم ارتبطت بمجموعة من طرق التّحميل⁵⁷، وقد اختلفت من مدرّس لآخر حسب منهج شيوخه وطبيعة تكوينه والعوامل المؤثرة فيه، أو بالأحرى المدرسة التي تأثرت بها خاصّة الذين ارتحلوا إلى بلاد المشرق، ولكن الإجماع واقع على أنّ الأساتذة كانوا يُحضرون وينكبون على القراءة والإستزادة من معارفهم كاجتهاد شخصي لتقديمه لطلبتهم في أفضل صورة، وقد تعدّدت طرق تحميل المعرفة من شيخ لآخر وأهمها:

الطريقة	الكتاب	الشيخ	الطالب	المصدر
القراءة	بعض الموطأ	أبو عبد الله محمد بن صالح الكناني	العبدري	العبدري/ 84
المناوله	سائر الموطأ كتاب التيسير	نفسه	نفسه	العبدري/ 123
القراءة والمناوله والسماع	كتب اللغة + الفقه	أبو الحجاج يوسف الجزائري	طلبة بجاية وهم كثر	الغبريني/ 103
المناوله	كتب اللغة	أبو زكريا يحيى الهمداني	طلبته	الغبريني/ 255
الإجازة والإستدعاء	الكتب والعلوم المحصلة	كُثر	//	عنوان الدراية، الضوء اللامع

الجدول 1: طرق تحميل المعرفة

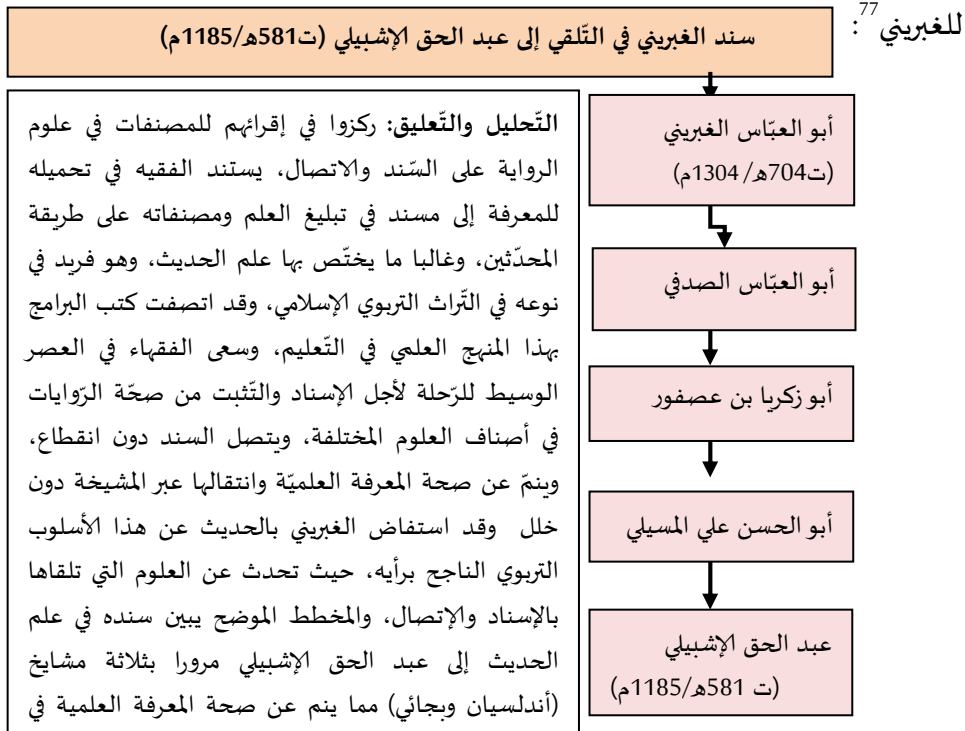
التّعليق والتّحليل: رغم تحامل العبدري على الحالة الثقافيّة لبجاية لما زارها إلاّ أنّه اعترف للشيخ أبي عبد الله محمد بن صالح الشّاطبي بالمعرفة العلميّة: فقد قصده طلبة العلم من أصقاع كثيرة وبعيدة للقراءة عليه والسماع منه؛ فيكيفهم شرفا أن يسمعوا

علم الحديث من فيه، وهي من الطرق المشهورة في تحميل هذا العلم⁵⁸؛ فالشيخ تكوينه أندلسي ثم هاجر إلى بجاية واتخذها مستقره، عين بالجامع الأعظم مدرّسا وخطيبا ما ينيف عن ثلاثين سنة، قرأ عليه العبدري جزءا من كتاب الموطأ وناوله بقيته، كما قرأ عليه كتاب التيسير⁵⁹، وقد أعجب العبدري بمنهجه وطريقته في الدّروس وعده من المشيخة القلائل وبقية العلماء ببجاية، واشتهر الفقيه أبو الحجاج يوسف الجزائري (ق7هـ/13م) بطريقته في الإقراء حيث يترك الحرية للطالب في اختيار ما يقرأ من علم على الشيخ، ولعلّ تمكن الشيخ في علوم شتى⁶⁰، جعله يختار تلك الطريقة التي استحسناها الطلبة؛ فأقبلوا على مجلسه بأعداد كبيرة، ممّا جعل مجلسه يطول، وطلبتة يجيدون ما يسمعون من شيخهم تصويبا وتصحيحا وشرحا وتفهيما⁶¹.

حضر الغبريني مجلسا من مجالسه؛ فلاحظ أنّه ينتقل في الفن الواحد بين عدّة مؤلفات؛ ففي اللّغة رأى أنّه يدرس كتاب "الإيضاح والجمل والمفصل وقانون أبي موسى الجزولي ومقدمة ابن بابشاذ"⁶²، ثمّ يعرّج على قراءة شعر المتنبي والمعري وكتب أدبيّة ونحويّة، ولعلّ ذلك هو السّبب في طول مجلسه؛ فلا يملّ الطالب، ويدرك أنّه سينتقل إلى نوع آخر فيشتاق إليه، وقد ذمّ البعض عمليّة الانتقال من فن إلى فن أو من كتاب إلى كتاب قبل أن يكمله دون مبررات؛ فينتج الملل وعدم نجاح الطالب فيها جميعا حتّى يدركه دون أن يشترط فيه التّبحر إلّا إذا أراد، "ويعني من كل فن بالأهم فالمهم"⁶³.

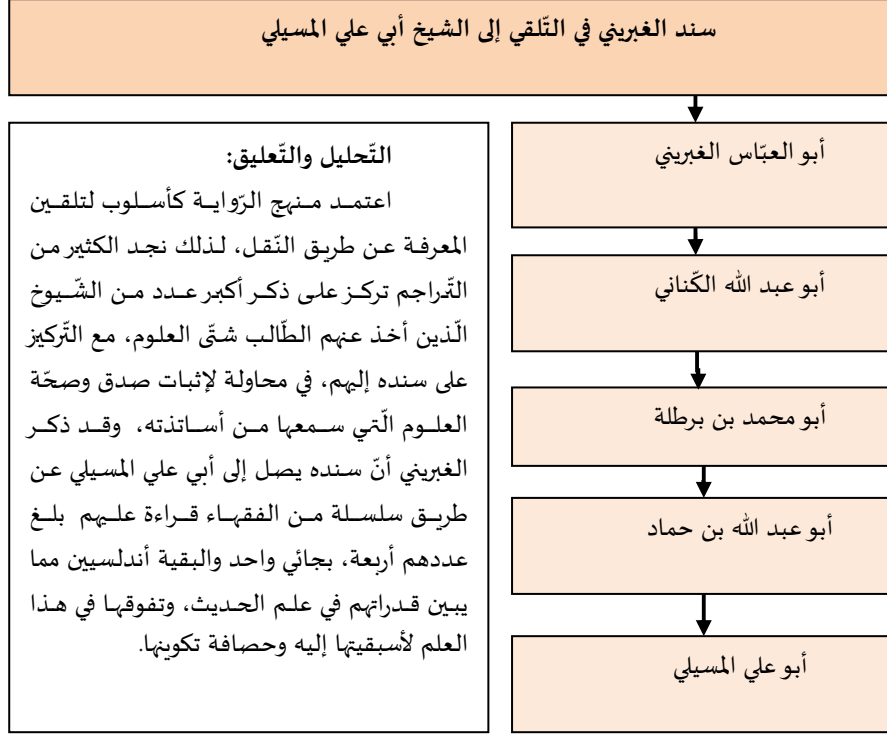
تعددت الطّرق عند الشيخ الواحد؛ فيقول الغبريني مثلا: "قرأت عليه وسمعت منه وأخذت عنه"⁶⁴، نستشف من النّص أنّ الطالب يقرأ والمدرّس يشرح⁶⁵، حيث يقوم الطالب بعرض ما قرأه على شيخه، ويطلق عليها المحدثون مصطلح "العرض"⁶⁶، والأخذ يوحى بمفهوم طريقة المناولة، بخاصّة عند الفقهاء الذين نذروا أنفسهم للإقراء⁶⁷، حيث يقوم الشيخ بمنح الطالب كتابا أو حديثا ليرويه⁶⁸، وقد حبت طريقة المناولة في تحصيل الكتب، بخاصّة إذا كانت من تأليف الشيخ المدرّس نفسه، لأنّه الأقدر على إيصال فحواها ومعانيها للطلّبة؛ فقد حرص طلبة الشيخ أبي زكريا يحيى الهمداني ببجاية على تلقي تأليفه مناولة منه⁶⁹، علما أنّ للشيخ برنامج تناول فيه شيوخه وتلاميذه والكتب التي درسها لكنّه في حكم المفقود⁷⁰.

سميت طريقة الإقراء بالمشافهة، أي من الشَّيخ مباشرة دون واسطة أي إقراء، وقد درس الغبريني علم القراءات مشافهة على شيخه أبي العباس أحمد الصديفي (ت 674هـ/1275م)، كما سمع منه مؤلفات في الحديث ورواها عنه⁷¹، ومن مآخذ هذه الطَّرُق الطَّعن في طريقة الرواية بالسماع دون إجازة أو يروي للبعض ثم يعممه على بقية الطلبة⁷²، وهي الإشارة التي نبه إليها الكتاني بأنَّ الرواية دون إجازة تدخل في باب التدليس والغرور، وهو خلل في أسلوب السماع إمَّا لعدم إتمام القراءة على الشَّيخ أو أنَّه لم يسمع منه أصلاً⁷³، ووجدت الإجازة، وهي أن يأذن الشَّيخ لتلميذه برواية مسموعاته وكتبه وتصانيفه⁷⁴، أما المقابلة فتقوم على مقابلة كتاب بأخر في نفس الفن، وهي عادة ما يقوم بها الفقهاء المدركين لمحتويات كل كتاب مع القدرة على استخراج مواطن الخلاف وعلله، اشتهر بهذا المنهج ببجاية الفقيه أبي جعفر بن أمية⁷⁵، وانتشر أسلوب الأسانيد في حواضر المعرفة كمنهج تميزت به التربية والتعليم عند المسلمين، وظهر ببجاية من خلال مشيخة وبرنامج الغبريني اتجاهين، واحد محلي من المغرب الأوسط بشيوخه المغاربة، والثاني أندلسي⁷⁶، والشكل التالي نموذج من اتصال السند في تدريس بعض المصنفات



الشكل 1: سند الغبريني إلى عبد الحق الإشبيلي

يتصل سند الغبريني كذلك بمجموعة من الشيوخ البجائيين ليصل إلى أبي علي عبد الحق المسيلي كما يبينه الجدول التالي:⁷⁸



الشكل 2: سند الغبريني إلى أبي علي المسيلي

4- مجالس الدرس (طرق الإلقاء وطبيعة الجلوس والحضور): يشرح الرّصاع الطريقة التي يلقي بها الأساتذة والشيوخ دروسهم كما شاهدها وجلس واختبرها بتونس؛ فبعد أن يختار طريقة حلقة لطلّبه، والتي غالبا ما تكون في شكل حلقة يجلسون على الحصر في إحدى أسطوانات المسجد أو عرصة منه، وينتظم في حلقة الشكلية المحددة من الشيخ، ويتوجه إليهم وهو جالس على الأرض في الغالب⁷⁹، أو يجلس في المحراب إذا لم تتعدّد الحلقات في المسجد ليكون عاليا فيراه جميع الطلبة ويسمعونه⁸⁰، وهناك صورا أخرى لجلوس المدرّس؛ فقد يجلس على دكان أو على كرسي ليكون عاليا فيراه كل الطلبة، ويراقب كل حركاتهم وأفعالهم وينصت إليهم⁸¹، ولعل هذه الطريقة شاعت بعد

ظهور الكراسي، أمّا في البداية فكان الشّيخ يقعد كما يقعد طلبته ليلقي دروسه ومواعظه.

المرجح دوماً أنّ المدرّس يجلس عالياً حيث يراه كل الطلبة ويسمعونه بشكل جيّد؛ فقد اتخذ أبو يحيى زكريا الزواوي كرسياً بجامع بجاية يجلس عليه ليلقي دروسه على طلبته⁸²، ممّا يوحي لنا حرص الشّيوخ على راحتهم أثناء الإلقاء وشمول رؤيتهم لطلبتهم لمراقبة المجلس وحسن إدارة حلقة الدّرس، وقد وصف الغبريني طريقة إلقاء الفقيه ابن عجلان (ت675هـ/1276م) لدروسه، حيث يأخذ الكتب بين يديه، وعندما يهّم الطالب بالقراءة من أحد الكتب المختارة يتناوله بين يديه، ثم يقع النقاش في المسائل المهمة فيتدخل الأستاذ في الأخير لحسم الخلاف وإيضاح المعاني وبيان المهم منها⁸³.

في الحلقات الكبيرة والمجالس الغاصّة كان الشّيخ يستنجد بشخص يبلغ كلامه للطلبة الذين لا يصلهم صوته، ويسمى "بالمستلمي"⁸⁴، رغم أنّي لم أجد له ذكراً في المصادر التي أرّخت للمعرفة ببجاية إلّا أنّ وجود مجالس كثيرة العدد كما ذكر الغبريني توحى لنا بحضوره فيها، علماً أنّ طريقة الإملاء كانت الأكثر حضوراً ببجاية وتلمسان؛ فيقف المستلمي في مكان مرتفع بحيث يراه الطلبة ويسمعونه جيّداً بصوت واضح وجهوري يعيد ما قاله المدرس على الطلبة فيدونونه، ويكون من حدّاق الطلبة ومن أحفظهم لكي لا يقع عليه اللبس في كلام الشّيخ المدرّس⁸⁵، ويزيد المستملون كلّما زاد عدد الحضور مع تبليغهم المدرّس بعدم وصول الصّوت؛ فيضطر إلى الاستنجاد بمستلمي آخر كلما تضاعف العدد، ولا يستبعد ذلك في وجود حلقات علميّة ببجاية تغص بالطلبة، وقد أثار عن محمد بن يحيى الباهلي المسفر أنّه يحبذ طريقة الإملاء التي تقوم على إسماع الطلبة كتاباً معيناً أو كتباً من قبل المدرّس الحافظ لتلك المقرّرات، وقد اختلفوا في طرق الإملاء؛ فمنهم من كان يملي، ثمّ يتفرغ للشرح، ومنهم من يملي جزءاً ثم يناقش المتعلمين فيه، وقد كانت إملاءات الباهلي مفضّلة عند الطلبة لكننا لا نمتلك معلومات عنها إلّا ما ذكره ابن قنفذ حيث قال: "له إملاء عجيب على مختصر ابن الحاجب"⁸⁶، وتتطلّب هذه الطّريقة قوّة الحفظ عند صاحبها وسرعة استرجاع محفوظاته العلميّة وإملائها، وغالباً ما يوصف هؤلاء بأنهم "حقّاظ ورواة"، وهي ميزة اختص بها علماء الحديث.

استنتج من خلال مجالس العلم وحلقات الدّروس التي كانت تلقى على الطّلبة ببجاية أنّ تلك المجالس تختلف من حيث عدد الطّلبة الذين يحضرونها باعتماد، فتارة أجد مجالس يحضرها عدد كبير من الطّلبة والبعض يحضرها القلّة، وسأحاول في هذا الجدول رسم صورة تلك المجالس العلميّة للفقهاء بين الكثرة والإنتقائيّة لإشخص الأسباب وراء تلك الظاهرة العلميّة:

المصدر	الأسباب	الحضور طبيعته وعدده	الفقيه
الغبريني/103	جودة ما يقرأه بضاعته مزجاة	مجلس واسع الحضور الكثير من الطلبة يتفنون فيما يقرأون	أبو الحجاج بن يوسف (13هـ/7م)
الغبريني/104	عالم ومتقن في كثير من العلوم	خلق كثير	أبو عبد الله بن صالح الشاطبي(ت699هـ/1299م)
الغبريني/177	التماس المنفعة العلميّة والبركة	خواص الطلبة	أبو عبد الله الشريف
الغبريني/180	كلام يروق للنفس يركز على التخويف	أتباع من الجمهور	أبو تمام الوهراني (ق7هـ/13م)
الغبريني/199	فقيه وأصولي	خواص أصحابه	أبو الحسن علي الملياني (670هـ/1272م) (ابن أساطيرت670هـ/1271م)
الغبريني/226	تقرأ عليه الكتب المذهبيّة زاهدا عابدا	مجلسه من المجالس المعتبرة	يعقوب بن يوسف المنجلاتي (ت690هـ/1291م)

الجدول2: طبيعة الحضور في حلقات الأساتذة البجائيين

التّحليل والتّعليق: ثلّة من الفقهاء كانت مجالسهم العلميّة كثيرة العدد والحضور من الطّلبة، وهي مؤشر على مدى القيمة العلميّة للفقهاء المدرّس، وقد أشرت أنّه كلّما كثير عدد الطّلبة في دروس وحلقات الأستاذ دلّ ذلك على تمكنه العلمي وقوة حضوره في العمليّة التّعليميّة، وهي شهادة على غزارة معارفه وسلامة تكوينه في الفنّ الذي يتحدّث فيه أو في الفنون التي تخصّص فيها، وبقدر ما كان مستوى الأستاذ جيّدا وتكوينه رصينا وطريقته محببة بقدر ما تمكن من إيصال المعاني واعتبر نمذجة في التّدريس؛ فقد كان مجلس الفقيه أبي الحجاج بن يوسف الجزائري من أكثر الحلقات جذبا وشهرة، وصفه الغبريني قائلا: "مجلس واسع الحضور يحضر فيه كثير من الطّلبة"⁸⁷، ولا نستغرب في

ذلك عند تدبرنا لسيرته، حيث كانت بضاعته مزجاة في الفقه وعلوم اللّغة⁸⁸، وطريقته في التدريس التي تقوم على التشويق والفكاهة أحيانا مع الطّلبة، وتنويعه في التدريس بين العلوم المتنوعة من النّحو والشعر والمقامات والفقه، وانتقاله بينها بتدرج وتركه الحرّية للطّالب بقراءة ما يحبّه، ثمّ التّعليق عليه⁸⁹، كل ذلك جعل دروسه محبوبة والإقبال عليها كبيرا، مما يوحي بأنّ الطّلبة كانوا يميزون بين المدرّسين ويختارون من يناسبهم، ولكثرة عددهم وعلو شأنهم لم يستطع تذكرهم إلا أنّ غالبيتهم يفوق الثّمانين طالبا علا كعبيهم، وانتصبوا في الخطط أقلّها الكتابة⁹⁰.

في حين تفرّد أبو عبد الله الشّريف (ق 7هـ/13م) بخواص الطّلبة وأفضلهم يقوم بتقديمهم كتاب "الإرشاد"، ولعلّ تدريسه لعلم العقائد الذي اختص به ثلّة قليلة من الطّلبة المجدين سبب من أسباب حضور الصفوة منهم⁹¹، كما أنّهم نالوا شرف القراءة على أحد الفقهاء الأشراف البجائيين؛ فجمعوا بين العلم وبركة الأستاذ الشّريف، وقد كانت النتيجة من ذلك المجلس المصغّر عمق الأفكار وسرعة الفهم وحصد التّنتائج العلميّة الجيدة، "ويجتنون أحسن الجني ثمرته"⁹²، وقد تكون طريقة الشّيوخ ومواضيعه في التدريس عاملا من عوامل جذب الطّلبة؛ فقد عرف عن حلقة الزّاهد أبي تمام الوهراني حضور جمع غفير لسماعها، لأنّه يركّز على علم الرّقائق، واستعماله لأسلوب التّخويف بطريقة مستساغة، حتّى أنّ طلبته كانوا عبّادا زهّادا أمثاله⁹³، وأقبل الطّلبة على دروس يعقوب بن يوسف المنجلاتي، وعدّ مجلسه من المجالس المعتبرة، كونه يقوم على كتب الفقه المالكي بشكل جيّد خاصّة كتاب "التّهذيب"، وقد اشتهر بدروسه بعد عودته من رحلته العلميّة، واستقراره ببجاية وجلوسه للتّدريس⁹⁴.

تظهر قوّة الحضور في حلقات الدّرس من خلال الإشارات الواردة في خضم التّراجم عن الأعداد الهائلة للمتخرّجين على يد الشّيوخ، من خلال المجالس العلميّة التي كان يعقدها؛ فقد روي أنّ الشّيوخ محمد بن أبي صالح الشّاطبي درس بالجامع الأعظم وخطب أكثر من ثلاثين سنة؛ فكانت النتيجة أنّ "روى وأقرأ، واستمع واستنفع به خلق كثير"⁹⁵، أمّا شيوخ التّصوّف فأكدوا التّعليم بالصّحبة من شيخ التّعليم، ولا يحصل العلم منه إلاّ لملاقاته وزيارته ومداومة صحبته، ويلحون على ضرورة البحث عنه، والسّير في الآفاق

لإجاده، علما أنهم يميّزون بينه وبين شيخ التربية، الذي يقوم عموما على القدوة بالمجاهدات والتأدب والزهد⁹⁶.

الخاتمة: يفهم من خلال ما سبق أن بجاية عرفت حراكا علميا في الفترة المدروسة، ويتضح أنها استفادت من طرق التدريس والأساليب التربوية الموروثة عن الفترة الحمادية، وهو الموروث الذي لا يمكن إنكاره خاصة خلال القرن 6هـ/12م، ولكن هذا لم يمنع الفقهاء والأساتذة الذين تعاقبوا على مجالس الدرس من إحداث ثورة جديدة في تلك الطرق والمناهج، بسبب العنصر الأندلسي الذي أدخل أساليب جديدة في التدريس، والرحلة العلمية لفقهاء بجاية نحو بلاد المشرق، الذين عادوا بمعطيات شيوخهم الجديدة، وطبقوها في مجالس الدرس والإقراء، وهو ما جعل الأساتذة ذوي التكوين المحلي يتجاوبون مع تلك الطرق والأساليب، مما أضفى على الدرس العلمي الجاذبية والتشويق، ومن ثم التحصيل المعرفي، وهو ما تظهره الأعداد التي تكاثرت في حلق العلم بالمساجد والزوايا المتعددة مشكلين فضاءً بجائيا متميزا في تلك الفترة.

الهوامش:

- (1) عن أسباب تغييب الكتابة التاريخية للفئات المهمشة ينظر إبراهيم القادري بوتشيش، المهمشون في تاريخ الغرب الإسلامي، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2014، ص26-34---2) تختلف مسمياتها مشرقا ومغربيا من الفهرسة إلى البرنامج والمعجم والثبث والمشيخة وأسماء أخرى، أنظر في تعريفاتها بالتفصيل عبد الله المرابط الترغي، فهارس علماء المغرب منذ النشأة إلى نهاية القرن الثاني للهجرة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان، ط1، 1999، ص30-50---3) ظهرت أول فهرسة في بلاد الغرب الإسلامي في بلاد الأندلس وهي فهرسة أبي علي القالي (ت356هـ/966م)، ينظر تفصيل تاريخ بداية الفهرسة الترغي، المرجع السابق، ص100 وما بعدها.
- (4) في أسس ومبادئ المنهج التربوي وطرق التدريس عند علماء الغرب الإسلامي أنظر: هادية صبيود: "الفكر التربوي ببلاد المغرب من محمد ابن سحنون وأبي الحسن القابسي وصولا إلى ابن خلدون"، نشر ضمن: حركة المعارف والمؤسسات التعليمية بالمجال العربي والمتوسطي، أعمال الندوة العلمية الدولية التي تم تنظيمها أيام 28-30 نوفمبر، الحمامات، تونس، (2014)، ص201-217.
- (5) القانون في أحكام العلم وأحكام العالم وأحكام المتعلم، تح حميد حماني اليوسفي، مطبعة فضالة، المحمدية، ط2، 2013، ص389.
- (6) فهرست الرّصاع: تحقيق محمد العنابي، المكتبة العتيقة، تونس، 1967، ص135---7) المصدر نفسه، ص158---8) القانون في أحكام العلم، ص421---9) السمهودي: جواهر العقدين في فضل الشرفين شرف العلم الجلي وشرف النسب العلي، تح: موسى بناي العلي، مطبعة العاني، بغداد، 1984، ص377.
- (10) قال السمهودي في هذا المعنى: "ولا يحفظ شيئا قبل تصحيحه لأنه يقع في التحريف والتصحيف"، أنظرها في: جواهر العقدين، ص362---11) نفس الشيء جرى في تلمسان فقد كان الشيخ محمد بن يوسف السنوسي (ت895هـ/1489م) يحفظ مختصر ابن الحاجب وكتاب التسهيل في النحو، ويجعل بعضا من الكتب أورادا في اليوم باستمرار، أنظر في ذلك: المواهب القدسية في المناقب السنوسية، تح: علال بوربيق، دار كردادة للنشر والتوزيع الجزائر، 2011م، ص63.
- (12) التنبكتي: نيل الإبتهاج بتطريز الديباج، تح: علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، ط1، 2004، ص40.
- (13) عنوان الدراية في من عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تح: رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1971، ص222.

- 14) في أهم الكتب التي اعتمدت في الحفظ في الفترة الحفصية وغيوب تلك الطريقة أنظر ما كتبه : إبراهيم أنوار: نقل المعرفة في المغرب المريني وإفريقية الحفصية (إلى منتصف القرن 8هـ/14م)، مطبعة دار المناهل المغرب، 2011، ص 212-214.
- 15) المقدمة، تج: عبد السلام الشداوي، CNRPAH، الجزائر، 2006، ج3، ص 209.
- 16) في نظرة ابن خلدون لحالة التعليم في الغرب الإسلامي أنظر عبد المجيد النجار، "تقويم ابن خلدون للحالة العلمية في الغرب الإسلامي" نشر ضمن العلم والفكر العلمي بالغرب الإسلامي في العصر الوسيط، تنسيق بناصر البعزاتي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، ط1، 2001، ص163-175، وانظر كذلك ما كتبه في هذا الشأن: نبيل خلدون قريسة، "بنية التعليم في المجتمع العربي الإسلامي في العصر الوسيط"، نشر ضمن حركة المعارف والمؤسسات التعليمية بالمجال العربي والمتوسطي، ص72-77.
- 17) المواهب القدسيّة، ص 49. (18----) رحلة العبدري، تج: علي إبراهيم كردي، دار سعد الدين للطباعة والنشر، ط 2، دمشق 2005م، ص83----19) حيث ذكر أن كثرة الاختصارات الموضوعية في العلوم مخلة بالتعليم، أنظر: المقدمة، ج3، ص 211.
- 20) وهو رأي الباحث التونسي إبراهيم جدلة "جغرافية المعرفة في العهد الحفصي"، الحياة الثقافية، ع 114 (2000)، ص 35.
- 21) عبد الله بن محمد التلمساني: مناقب التلمسانيين، تج: قندوز بن محمد الماحي، دار الوعي، الجزائر، ط1، 2018، ص 97.
- 22) الفرد بيل: الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم، تز: عبد الرحمان بدوي، ط 3، دار الغرب الإسلامي لبنان، 1987، ص 355. (23----) أمثال ناصر الدين المشدالي الذي أقر ابن خلدون أنه عاد من رحلته المشرقية بعد أن سمع من تلاميذ ابن الحاجب وتمكن من العلوم العقلية والنقلية، بعلم غزير ومفيد، أنظر: المقدمة، ج2، ص 352.
- 24) فهرست الرصاع، ص 134. (25----) عنوان الدراية، ص307. (26----) المصدر نفسه، ص307. (27----) المصدر نفسه، ص307. (28) المصدر نفسه، ص307. (29----) عن بعض التلمسانيين الذين دخلوا بجاية وسمعوا من مشيختها أنظر عبد القادر بويابة "الروابط العلمية بين بجاية وتلمسان من خلال كتاب البستان لابن مريم المديوني"، عصور الجديدة، العدد 8/7، 2012-2013، ص99-102. (30----) عنوان الدراية، ص112. (31----) المصدر نفسه، ص112. (32----) أنظرها بالتفصيل في: المصدر نفسه، ص116.
- 33) جواهر العقدين، ص 365. (34----) راجع بونار: "عبقرة المشدالين العلمية في بجاية على عهدها الإسلامي الزاهر"، مجلة الأصاله، ع 19 (1974)، ص 315. (35----) راجع بونار: "عبد الحق الإشبيلي البجائي"، مجلة الأصاله، ع 19، ص263-363. (36) جواهر العقدين، ص360. (37----) عنوان الدراية، ص365. عن أسباب تغيير الكتابة التاريخية للفئات المهمشة ينظر: إبراهيم القادري بوتشيش: المهمشون في تاريخ الغرب الإسلامي، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2014، ص 26-34. (38----) المقدمة، ج 2، ص352. (39) السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، دبت، ج 10، ص182. (40) المصدر نفسه، ج 9، ص183. (41----) رد عليهم بالقول: "لا تنزلوني إليكم ودعوني أرقبكم إلي فبعد كذا وكذا لمدة حتى تصيرون إلي فهم كلامي فكان الأمر كما قال "أنظره في: المصدر نفسه، ج 9، ص 183. (42----) المصدر نفسه، ج 9، ص 184. (43----) القانون في أحكام العلم، ص 421.
- 44) يقول السخاوي في ذلك: "فيجهد في المطالعة حتى يتوهم أنه يفوق عليه فإذا وقع الدرر وقفه على مباحثات وإشكالات ما خطرت له" أنظرها في: "الضوء اللامع، ج 9، ص 183. (45----) للتفصيل فيما ينظر الموسوعة الفقهية، ج 13، ص13. (46----) عنوان الدراية، ص 91. (47----) المصدر نفسه، ص103. (48----) المصدر نفسه، ص210. (49----) المصدر نفسه، ص112.
- 50) ابن قنفذ، أنس الفقير وعز الحقيير، تج نجاح عوض صيام، ط1، دار المقطم، القاهرة، 1422هـ/2002، ص65. (51----) المصدر نفسه، ص 65. (52----) ولعل لسان حاله قول الشاعر:
- طُوبَى لِمَنْ قَلْبُهُ بِاللَّهِ مُشْتَغَلٌ يَبْكِي النَّهَارَ وَطُولَ اللَّيْلِ يَبْتَهَلُ
خَوْفُ الْوَعِيدِ وَذِكْرُ النَّارِ أَحْرَقَهُ وَالذَّمْعُ مِنْهُ عَلَى الْخَدَيْنِ يَهْمَلُ
- أنظر الأبيات في: أنس الفقير، ص66. (53----) المصدر نفسه، ص 65. (54----) عنوان الدراية، ص 180-181.
- 55) نقل ابن سعد أخباره عن عنوان الدراية عند حديثه عن علماء وهران، أنظر: روضة النسر في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين: تج: يحيى بوعزيز، ط1، المؤسسة الوطنية للإشهار ANEP، الجزائر، 2004، ص185. (56----) عنوان الدراية، ص181.
- 57) وقد عدد القاضي عياض هذه الطرق، وهي ثمانية: فقال: "السماع من لفظ الشيخ، القراءة عليه، المناولة، الكتابة، الإجازة، الإعلام للطالب أن هذه الكتب من روايته، وصيته بكتبه له، الوقوف على خط الراوي فقط" أنظر بالتفصيل ما كتبه القاضي عياض: الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع، تحقيق السيد أحمد صقر، مكتبة التراث، القاهرة، المكتبة العتيقة، تونس،

- 1970، ص 68، وللتحليل والتفصيل أكثر أنظر: آسيا ساحلي: إنتاج وانتقال المعارف في المغرب الأوسط، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الوسيط، جامعة الأمير عبد القدر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، 2007-2008، ص 138.
- 58) أي السماع من لفظ الشيخ سواء من حفظه أو من كتابه، ولذلك يتردد لفظ الطالب رواية عن شيخه بقوله: "سمعت أو حدثنا أو حدثني"، وهذه الطريقة مشهورة في علم الحديث، أنظر: المرجع نفسه، ص 138. (59) الرحلة، ص 84. (60) ذكر الغبريني أن الشيخ كان له باع في علم الفقه وعلوم اللغة من نحو وأدب، أنظر عنوان الدراية، ص 103. (61) المصدر نفسه، ص 103. (62) المصدر نفسه، ص 103. (63) جواهر العقدين، ص 361. (64) في ترجمته لشيخه أبي الحجاج يوسف، عنوان الدراية، ص 103.
- 65) حيث يكلف طالب مجد ونجيب بقراءة الكتاب وكان يعرف بالأندلس بقارئ المجلس، أنظره في: الحسين أسكان: تاريخ التعليم بالمغرب خلال العصر الوسيط، ص 112، ويكون الطالب القارئ على قدر من العلم والقراءة الجيدة والدقيقة يسمعه العام والخاص، وكذلك عند: عبد الجليل غريان: التعليم بتلمسان في العهد الزياني، جسور للنشر والتوزيع، الجزائر، ط 1، 2011، ص 149.
- 66) فإذا عرض الطالب على الشيخ يقول: عرضت على فلان أو قرأ علي فلان وأنا اسمع، أنظر: عنوان الدراية، ص 103، وللتفصيل ينظر كذلك: إدريس عزوزي: "مفهوم الرواية والدراية عند المحدثين"، مجلة جامعة القرويين، ع 10، 1989، ص 132.
- 67) عنوان الدراية، ص 103. (68) وهي نوعان مناولة مقرونة بإجازة ومناولة مجددة عن الإجازة، إدريس عزوزي: "مفهوم الرواية والدراية عند المحدثين"، ص 132. (69) عنوان الدراية، ص 255. "مفهوم الرواية والدراية عند المحدثين"، ص 132.
- 70) ذكر الغبريني أنّ طلبته كانوا يطلبون إجازته على برنامج مشيخته الذي يحتوي على رواياتهم وعلى أسانيدهم في علوم كثيرة، أنظر: المصدر نفسه، ص 255. (71) المصدر نفسه، ص 108. (72) مولاي عمر صوصي علوي: النظام الفكري والاجتماعي للشريعة العلمية على عهد الدولة العلوية 1050هـ/1330هـ من خلال كتاب "الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام" للقااضي عباس بن إبراهيم المراكشي، أطروحة دكتوراة، جامعة ظهر المهرز، فاس، 2001-2002، ص 194-195.
- 73) فهرس الفهارس والأثبات، تج إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1982، ج 1، ص 262، وللإستزادة في موضوع التدليس في الحديث ينظر الخطيب البغدادي، الكفاية في معرفة أصول الرواية، تج إبراهيم بن مصطفى، ط 1، دار الهدى، مصر، 2003، ج 2، ص 367-372. (74) حتى وإن لم يسمعها أو يقرأها عنه، أنظر "مفهوم الرواية والدراية عند المحدثين"، ص 132. (75) عنوان الدراية، ص 216. (76) وشيوخه ببجاية أربعة وهم أبو سعيد تونارت الدكالي (ق 7هـ/13م) وأبو زيد عبد الرحمان اليزناسني (ق 7هـ/13م) وأبو زكريا اللقنتي (ق 7هـ/13م) وأحمد بن عثمان الملياني (ت 644هـ/1246م)، أما الإتجاه الأندلسي فمثله علي الزيات وأبو بكر محمد بن محرز (ت 955هـ/1257م)، أنظر عنوان الدراية، ص 223، 224، 241، وما بعدها، مشيخة الغبريني، 307 وما بعدها، وأنظر ما كتبه في الموضوع إبراهيم أنوار: نقل المعرفة في المغرب المربني وإفريقية الحفصية، ص 64-66. (77) عنوان الدراية، ص 77.
- 78) عنوان الدراية، ص 72. (79) فهرست الرضاع، ص 133، وأنظر كذلك ما كتبه في الموضوع: محمد الباجي بن مامي: مدارس مدينة تونس من العهد الحفصي إلى العهد الحسني، المعهد الوطني للتراث، تونس، 2006، ص 49.
- 80) علي عطية شرقي: "أهم المساجد والمدارس الحفصية"، ص 83. (81) في طريقة جلوس الأستاذ والطلبة أنظر ما كتبه: محمد الباجي بن مامي: مدارس مدينة تونس من العهد الحفصي إلى العهد الحسني، المعهد الوطني للتراث، تونس، 2006، ص 49-50.
- 82) عنوان الدراية، ص 65. (83) المصدر نفسه، ص 116. (84) عن المستملي أنظر محمد منير سعد الدين: العلماء عند المسلمين مكانهم ودورهم في المجتمع، دار المناهل للطباعة والنشر، بيروت، 1992، ص 191.
- 85) يشترط في المستملي أن يلقي كلام الشيخ على الطلبة دون تحريف ولا تبديل في النص ودون أخطاء، أنظر بالتفصيل في كل ذلك منير الدين أحمد، "دور المجالس والحلقات في النظام التربوي الإسلامي حتى القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي"، نشر ضمن: التربية الإسلامية المؤسسات والممارسات، المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، عمان، الأردن، 1989، ج 1، ص 292-293.
- 86) عنوان الدراية، ص 103. (87) المصدر نفسه، ص 103. (88) حسب تعبير الغبريني، ص 103. (89) ولعل تلك الأسباب مجتمعة جعلت المتخرجين من حلقاته ودروسه يفوقون الثمانين ممن ساهم للغبريني تخططوا الوظائف المختلفة، أنظر المصدر نفسه، ص 103. (90) المصدر نفسه، ص 103. (91) المصدر نفسه، ص 177. (92) المصدر نفسه، ص 177.
- 93) قال الغبريني إنّ بعضهم ذوو كرامات، أنظر: المصدر نفسه، ص 180. (94) المصدر نفسه، ص 226. (95) المصدر نفسه، ص 104. (96) أنظر للتفصيل في الموضوع: محمد فتحة: التّوازل والمجتمع أبحاث في تاريخ الغرب الإسلامي (من القرن 6 إلى 9هـ/12-15م)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، 1999، ص 235.

كاظمة في عيون الجغرافيين والأدباء¹
Kazima in the Eyes
of Geographers and Writers

اسم ولقب المؤلف المرسل: د. عايد عتيق جريد- Ayed Ateeq Juraid صص 198-209
الدرجة والعنوان المهني: أستاذ محاضر في التاريخ الحديث والمعاصر- دولة الكويت
البريد الإلكتروني: ayedateeq@gmail.com

تاريخ استقبال المقال: 2019/03/07 تاريخ المراجعة: 2020/04/01 تاريخ القبول: 2020/04/10

الملخص: كان لأرض كاظمة ذكريات خالدة في قلوب المسلمين؛ فقد دارت فيها أحداث تاريخية مهمة تؤكد على أصالة أرض الكويت، وعمقها التاريخي والجغرافي، وإرثها الحضاري؛ فقد ذكرها المؤرخون والجغرافيون والشعراء والرحالة، واصفين جمالها وبطولات المسلمين فيها؛ فكانت بحق أرض الشعر؛ فعلى مسرحها حدثت معركة طاحنة ومهمة بين جيش المسلمين بقيادة سيف الله المسلول خالد بن الوليد- رضي الله عنه- وجيش الفرس بقيادة هرمز عام 12هـ/623م، والتي عُرفت بمعركة "ذات السلاسل"، التي انتهت بانتصار المسلمين وقتل هرمز.

ومن كاظمة انفتح الطريق أمام جيش المسلمين لتحرير العراق من الفرس، ونشر الإسلام إلى حدود الصين.

وفي ضوء ما سبق؛ فإن هذه الدراسة تهدف إلى التعرف على أبرز الأحداث التي جرت على أرض كاظمة، مع بيان عمقها التاريخي والحضاري والجغرافي، من خلال ما تناوله المؤرخين والرحالة والجغرافيين، وكذلك بيان مكانتها عند الشعراء العرب، الذين حفظوا لنا الشيء الكثير عنها كأمراء القيس والقعقاع بن عمرو التميمي والفرزدق، ثم جاءت الخاتمة لترصد النتائج التي توصلت إليها الدراسة.

الكلمات المفتاحية: كاظمة- الكويت- التاريخ- الجغرافيا- الإرث الحضاري- المؤرخون- الجغرافيون- الشعراء العرب- الرحالة.

Abstract: The land of Kazima has great timeless memories in the hearts of Muslims. Great historic events took place therein that confirmed the genuineness, historic and geographic depth and civilized legacy of Kuwait. In fact, Kazima was

mentioned by historians, geographers, poets and travelers where they often described its beauty. Indeed, it was the land of poetry as its landscape had witnessed an important and fierce battle between the Muslim army led by Khaled Ibn Al-Waleed -May Allah be pleased with him- who is also known as "The Sword Drawn by Allah", against the Persian army led by Hormozd, which was called as Battle of Chains Dhat al-Salasil, in 12 H, 623 AD.

This battle which was fought in Kazima, the way to liberate Iraq from the Persians and dissemination of Islam to reach the borders of China was opened.

In light of the foregoing, this study aims at highlighting most important events that took place on the area of Kazima, as well as demonstrating its historic, geographic and civilizational genuinenity according to what have been tackled by historians and geographers. In addition, it seeks to showing its significance among Arab poets, such as Imru' al-Qais, Al-Qaqa ibn Amr al-Tamimi and Al-Farazdaq whom all kept great deal of its values.

Finally, the conclusion observes the results which the study reaches.

Keywords: Kazima- Kuwait- History- Geography- Cultural Heritage- Historians- Geographers- Arab Poets- Travelers.

تمهيد: كان لأرض² كاظمة³ ذكريات خالدة في قلوب المسلمين⁴؛ فقد دارت فيها أحداث تاريخية مهمة⁵ تؤكد على أصالة أرض الكويت، وعمقها التاريخي، وإرثها الحضاري؛ فقد ذكرها المؤرخون والجغرافيون والشعراء والرحالة واصفين جمالها، وبطولات المسلمين فيها⁶، والتي كان من أهمها معركة "ذات السلاسل" بين جيش المسلمين بقيادة سيف الله المسلول خالد بن الوليد- رضي الله عنه-، وجيش الفرس بقيادة هرمز عام 12هـ/623م⁷. ولقد حدثت هذه المعركة بعد أن انتهى المسلمون من حروب الردة، حيث وجه خليفة المسلمين أبو بكر الصديق- رضي الله عنه- خالد⁸- رضي الله عنه- لفتح العراق، وأمره أن يبدأ بأهمها وهي الأئمة⁹ ذات الأهمية الاستراتيجية الكبيرة¹⁰، بصفتها ميناء الفرس الأهم على الخليج العربي، ومنها تأتي الإمدادات للحاميات الفارسية المنتشرة بالعراق، وكانت هذه المدينة تحت قيادة هرمز¹¹، وكان من بين أهداف أبي بكر الصديق فتح العراق ونشر الإسلام.

ولقد روى الطبري في تاريخه أن خالد بن الوليد¹² كتب قبل خروجه إلى الأئمة، كتاباً إلى هرمز يقول فيه: "أما بعد، فأسلم تسلم، أو اعتقد لنفسك ولقومك الذمة، وأقرز بالجزية، وإلا فلا تلومن إلا نفسك؛ فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة"، وجمع هرمز جموعه، ونشبت الحرب بينه وبين خالد في كاظمة، وانجلت عن قتل هرمز، وهزيمة الفرس¹³.

ومن كاظمة انفتح الطريق أمام جيش المسلمين لتحرير العراق من الفرس، ونشر الإسلام إلى حدود الصين¹⁴، يقول الفارس الصحابي¹⁵ الجليل القعقاع¹⁶ بن عمرو التميمي¹⁷:

فَنَحْنُ وَطِنُنَا بِالْكَوَاظِمِ هُرْمُزًا وبالثني قرني قارن بالجوارف

- كاظمة في عيون الجغرافيين والأدباء:

- كاظمة والجغرافيون: لقد كانت كاظمة محل اهتمام الجغرافيين القدماء وفي العصر الحديث والمعاصر، ومن بين الجغرافيين القدماء الذين سلطوا الضوء في كتاباتهم على كاظمة الرحالة والأديب الجغرافي ياقوت الحموي¹⁸ في كتابه معجم البلدان، الذي قال فيه: "جو: على سيف البحر في طريق البحرين من البصرة، بينها وبين البصرة مرحلتان، وفيها ركيا كثيرة وماؤها شروب واستسقاؤها ظاهر"¹⁹.

وسلط الجغرافي أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر الضوء على كاظمة في كتابه تقويم البلدان قائلاً: "كاظمة جو على ساحل البحر بين البصرة والقطيف، وبين كاظمة والبصرة مسيرة يومين، وبين كاظمة والقطيف مسيرة أربعة أيام، وهي سمت الجنوب عن البصرة، ويقال لها: كاظمة البحور، وهي منازل العرب، بها مراعي جيدة، وأبار كثيرة، قريبة المدا"²⁰.

إلى جانب هذه الأسماء زار الحسن الأصفهاني كاظمة في القرن الثالث الهجري، وكتب عنها في كتابه بلاد العرب قائلاً: "وكاظمة على ساحل البحر، وبها حصن فيه سلاح قد أعد للعدو، وبها تجار ودور مبنية وعامتهم من تميم"²¹.

كذلك كان من بين الجغرافيين القدماء الحسن بن أحمد الهمداني²² الذي تحدث عن موقع كاظمة في كتابه صفة جزيرة العرب قائلاً: "سميت بلاد العرب الجزيرة لإحاطة البحار والأنهار بها، ومن أقطارها وأطرارها، وصاروا منها في مثل الجزيرة من جزائر البحر، وذلك أن الفرات القافل الراجع من بلاد الروم يظهر بناحية قنسرين، ثم انحط على الجزيرة العربية وسواد العراق حتى تقع في البحر من ناحية البصرة والأيلة، وامتد إلى عبادان، وأخذ البحر من ذلك الموضع مغرباً مطيفاً ببلاد العرب منعطفاً عليها؛ فأتى منها على سفوان وكاظمة، ونفذ إلى القطيف وهجر..."²³.

ومن بين الجغرافيين العرب القدامى الذين تطرقوا لكازمة الإدريسي في كتابه نزهة المشتاق في اختراق الآفاق قائلاً: "فمن ذلك صفة الطريق من البصرة إلى البحرين، ثم إلى اليمامة على البادية، وهو طريق العرب، وقليلاً ما يسلكه التجار؛ فمن ذلك أن الخارج عن البصرة يسير إلى منزل في الصحراء فيه عين ماء مرحلة، ثم إلى كازمة مرحلة، ثم إلى منزل في الصحراء، ثم إلى منزل، ثم إلى منزل، ثم إلى القرعاء، وهو منزل فيه عرب، ومنه إلى طخفة مترل عرب مرحلة، ومنه إلى الصمان مرحلة، وهو مترل فيه عرب، ثم إلى منزل فيه ماء، ثم إلى منزل لا ماء فيه، ثم إلى منزل فيه ماء، ثم إلى اليراني من غربي بلاد البحرين، ومنها إلى منزل، ثم إلى منزل، ثم إلى منزل، ثم إلى سلمية، ثم إلى السيال، ثم إلى حضرة اليمامة"²⁴.

برز في دولة الكويت أيضاً من المهتمين في المواقع الكويتية مثل الأستاذ فرحان عبد الله أحمد الفرحان الذي تطرق إلى جانب مهم وجديد عن موقع كازمة من ناحية التجارة²⁵؛ فقد كشف لنا أهمية سوق كازمة باعتباره أحد أسواق العرب القديمة؛ فعنه يقول: "موقع كازمة فرضها لتكون همزة الوصل وسوقاً له أهميته لاعتبارات كثيرة، منها أن كازمة مفترق طرق وممر، وكانت تربط بلاد فارس والعراق واليمن في وسط الجزيرة العربية، وكذلك كانت تربط شرقي الجزيرة العربية بهاتين البلدين فارس إيران والعراق"²⁶. كانت كازمة محل أنظار الجغرافيين الغربيين؛ فقبل ما يقارب أربعة قرون كانت تشير خرائطهم إليها، مثل خريطة شبه الجزيرة العربية التي نشرها الجغرافي الفرنسي نيكولا سانسون (Nicolas Sanson) عام 1652م، وقد ورد فيها اسم كازمة، وهو اسم يطلق في الكويت الحديثة على منطقة تقع على الساحل الشمالي لجنون الكويت، شمال شرق الجهراء²⁷.

يقول المفكر التونسي الدكتور الحبيب الجنحاني: "يبدو أن بعض الجغرافيين الأوروبيين قد اعتمدوا في رسم خرائط المنطقة على الترجمة اللاتينية لكتاب الإدريسي الصادر في باريس عام 1619م، كما نشر المستشرق الفرنسي جان دولاروك (Dela Roque) عام 1718م ترجمة لنصٍ مقتبسٍ من كتاب تقويم البلدان لأبي الفداء يتحدث عن كازمة البحور باعتبارها منازل للعرب من جهة، وباعتبارها منطقة تقع على ساحل البحر بين البصرة والقطيف من جهة أخرى"²⁸.

وبالنسبة لتاريخ كاظمة فهو لا يقل أهمية عن تاريخ الكثير من البلدان الإسلامية التي لها مكانتها في نفوس المسلمين؛ فهي كما قال عنها الأستاذ فرحان الفرحان: "يكفي أن منقبي الآثار يجدون في كل مرة بها دلائل وآثاراً تدل على السابقين، الذين تركوا بصمات في هذه البقعة من أرض الجزيرة العربية"²⁹.

إن القراءة التاريخية لأخبار قاطني³⁰ أرض كاظمة تبين لنا أنه تعاقب على سكنها منذ القدم الكثير من القبائل العربية؛ فكانت من الأماكن الطيبة والمحبية للسكن، وذلك لما تتمتع به من طيب الهواء وكثرة الكلا، ووفرة المياه الصالحة للشرب، ومن القبائل التي سكنتها قبيلة الأزدي وقبيلة تنوخ وقبيلة إياد وقبيلة عبد القيس، وكذلك قبيلة بكر بن وائل³¹، التي ذكرها الحسن بن أحمد الهمداني في كتابه صفة جزيرة العرب، بأن ديار بكر بن وائل من اليمامة إلى البحرين إلى سيف كاظمة؛ فأطراف سواد العراق فالأيلة فهيت³². ومن بين القبائل التي اشتهرت بكازمة قبيلة تميم³³، التي شاركت ببعض رجالها في معركة ذات السلاسل، وأيضاً كان منهم ملاذا للمستجيرين مثل الفرزدق³⁴ الذي كان كثير الذكر لقبر أبيه غالب بكازمة؛ فكان لشدة حبه وإخلاصه لأبيه يقضي حاجة كل محتاج يلجأ إلى قبره، وبذلك يقول:

إذا عَجَزَ الأحياء أن يحملوا دماً أناخ إلى أجدائنا كل غارم

ترى كل مظلوم إلينا فراره ويهرب منا جهده كل ظالم³⁵

والجدير بالذكر أن جد الفرزدق صعصعة كان ممن فدى المؤذات³⁶ في الجاهلية ونهى عن قتلهم، ويقال: إنه فدى أربعمئة منهم، وقيل دون ذلك، وكانت هذه الرواية وغيرها مصدر فخر للفرزدق، الذي نوه في شعره بهذه المكرمة لجده طويلاً، من مثل قوله:

أبي أحد الغيثين صعصعة الذي متى تُخلف الجوزاء والنجم يمطر

أجار بنات الوائدين ومن يُجر على القبر يُعلم أنه غير مُخْفِر³⁷.

ومن بين قصائد الفرزدق التي يفتخر فيها بقبيلته:

ألسنا الذين تميم بهم تسامي وفتخر في المشهد

وناجية الخير والأقرعان وقبر بكازمة المورد³⁸.

وإلى جانب أهمية كاظمة في التاريخ الإسلامي كان لها أهمية في تاريخنا الحديث؛ ففي أواخر القرن التاسع عشر الميلادي تنافست الدول الكبرى³⁹ على الوصول إليها، ومنها

ألمانيا، التي أدركت أن إقامة سكة حديد برلين، التي تصل إلى خليج كاظمة كان أمراً مهماً لها⁴⁰؛ فقد زار ستمريخ (Stemmrich) القنصل العام لألمانيا في إسطنبول الكويت عام 1900م مع بعثة ألمانية للتفاوض مع حاكم الكويت آنذاك الشيخ مبارك الصباح، حول مدّ الخط الحديدي برلين- بغداد إلى الكويت، وقد رفع تقريراً عن الزيارة إلى رئيس الدولة الألمانية، وضمّن تقريره معلومات عن ميزات موقع الكويت وأحوالها الاجتماعية⁴¹، ولقد كان الألمان يريدون شراء أرض كاظمة، لكن الشيخ رفض طلبهم⁴².

ونظراً لأهمية هذه الأرض تاريخياً سلط الباحثون الضوء على كاظمة، وكان من أبرزهم في العصر الحديث الأديب أحمد البشر الرومي، الذي تحدث في كتابه مقالات عن الكويت، عن كاظمة والفرزدق⁴³؛ فقد كان من أوائل الذين تطرقوا إليها، حيث نشر مقالاً في مجلة البعثة الكويتية في محرم 1371هـ/أكتوبر 1951م، تطرق لموقعها وأهميتها ومواردها، يقول عنها: "كاظمة موضع له شهرة واسعة عند العرب، سواء في الجاهلية أو الإسلام، وليس من المعقول أن يشتهر موضع مثل كاظمة إلا أن يكون ذا ماء وفير، وأعز ما في الصحراء الماء، وأنا أعتقد أن الجهراء هي التي كانت تدعى كاظمة قديماً، حيث إن ما مر في وصف كاظمة ينطبق على الجهراء تماماً، وبما أن الموضوعين متقاربان، ولم أجد للجهراء أثراً فيما تتبعته من مصادر قديمة، سواء باسمها الحالي أو باسم آخر، وكل ما وجدته عن لفظة الجهراء هو ما ذكره صاحب التاج الزبيدي: الجهراء ما استوى من ظهر الأرض، لا شجر فيها ولا أكام ولا رمال، إنما هي فضاء، وقال أبو حنيفة: الجهراء، الرابية المحلال ليست بشديدة الإشراف، وليست برملة ولا قُف".

ومن بين الأدلة التي قدمها الأديب أحمد البشر الرومي بأن كاظمة هي الجهراء، عندما أشار قائلاً: "بأن التاريخ يحدثنا حين نتبع وقعة ذات السلاسل عام 12هـ، بأن هرمز وهو قائد شرين بن كسرى جمع جموعاً كبيرة فنزل بهم على ماء كاظمة، لسد الطريق في وجه خالد بن الوليد- رضي الله عنه- وقتاله لحماية العراق، وقدم خالد بمن معه من الجيش وهم ثمانية عشر ألفاً؛ فنزل تجاههم في غير ماء؛ فشكا أصحابه ذلك؛ فقال: "جالدوهم حتى تجلوهم عن الماء؛ فإن الله- عز وجل- جاعل الماء لأصبر الطائفتين"؛ فلما استقر بالمسلمين المنزل وهم ركبان على خيولهم، بعث الله- سبحانه وتعالى- سحابة فأمطرتهم، حتى صارت لهم غدران من ماء.

ويضيف الرومي: "فمن حديث هذه الواقعة يتجلى لنا بوضوح أن الجهراء المعروفة الآن بهذا الاسم هي كاظمة بالذات لأسباب منها":

1- أن جيش الفرس لا يقل عن جيش خالد بن الوليد- رضي الله عنه-، الذي بلغ في هذه الواقعة ثمانية عشر ألفاً، وجيش مثل هذا العدد لا يمكن أن يكفيه ماء كاظمة المعروف الآن في حين أن آبار الجهراء كافية لتزويد أكثر من هذا العدد بالماء.

2- لو فرضنا أن الفرس نزلوا الموضع المعروف الآن بكازمة، لكان في وسع خالد بن الوليد أن ينزل على ماء الجهراء الموالى له، حيث أن خالداً قادم من الحفير وهو في الجنوب، ومن المستحيل أن يكون ماء الجهراء مجهولاً لدى العرب القدماء، إذ أن انخفاض منطقة الجهراء هذا الانخفاض الكبير يوجب لكل من وقعت عينه عليه بأنه من المؤكد أن يكون هناك ماء، ومعروف عن القدماء أنهم كانوا يحفرون الطوال، تلك الآبار التي لا يقل عمقها عن الأربعين قامه كاللصافة واللهابة والقرعاء والرقعى والحفر، بينما لا يزيد عمق آبار الجهراء عن أربع أو خمس قامات، وإذا فمن المؤكد أن الجهراء هي كاظمة⁴⁴.

هذه الأدلة التي جاء بها الأديب أحمد البشر الرومي يؤكدتها المؤرخ الكويتي بدر خالد البدر قائلاً: "إن أي موقع استراتيجي بهذه الأهمية لا يمكن أن يشتمل على مكان محدود لكازمة كما نعرفها اليوم، حيث من المؤكد أن تكون المنطقة بأسرها بما فيها من آبار المياه في الجهراء التي لها أهميتها في سوق الجيوش وطرق القوافل وجميع التحركات الصحراوية على كافة المستويات هي كاظمة كما كانت تعرف في تلك الأيام"⁴⁵.

ومن بين الأدباء الكويتيين الذين سلطوا الضوء على كاظمة الأديب يعقوب يوسف الغنيم، الذي أجاد حقيقة في توثيق تاريخ كاظمة وبيان أهميتها⁴⁶.

كما كان الدكتور سلطان الدويش من ضمن الباحثين الذين برزوا في توثيق تاريخ كاظمة أيضاً، الذي كان مؤلفه كاظمة البحور من المؤلفات القيمة والمهمة، وضمنه معلومات وفيرة عن أرض كاظمة.

- كاظمة والأدباء: نظراً لأهمية موقع كاظمة الجغرافي ومكانتها في التاريخ، اكتسبت شهرة واسعة في الشعر العربي؛ فقد تغنى بها الكثير من الشعراء العرب⁴⁷؛ فكانت مرتع حب ومغاني هوى لكثير من فحول شعرائهم يرددون ذكرياتهم العزيزة ووقائعهم ذات المفاخر، ويتخذون من ربوعها ومغانمها، وهي الواحة الخضراء، مشابه وأوصافاً في أشعارهم⁴⁸، كامرئ القيس⁴⁹ والققعاق بن عمرو التميمي والفرزدق⁵⁰.

ولقد حفظ لنا الشعراء شيئاً كثيراً عن كاظمة منهم امرؤ القيس⁵¹؛ فمن أبيات قصيدته
بكاظمة:

إذ هن أقساط كرجل الدبي أو كقطا كاظمة الناهل⁵²
ومن الشعراء الذين تغنوا بكاطمة أيضاً الفرزدق، الذي تعرّفنا من خلال قصائده على
الكثير من أسماء الأماكن في كاظمة⁵³، ومن أبيات شعره:
وكان لها ماء الكواظم غرة وحرب تميم ذات خيل من الخيل
يقول الدكتور يعقوب الغنيم عن الفرزدق: "هو أول من رفع ذكر كاظمة من الشعراء، وكان
يحبها حباً شديداً"، ويقص علينا من شواهد حبه لكاطمة أنه ذهب مرة إلى المدينة، ولكن
سرعان ما ملها، وتاق إلى مهوى فؤاده كاظمة، فقال:

تحنُّ بزوراء المدينة ناقتي حنين عجول تبتغي البورائم
وياليت زوراء المدينة أصبحت بأحفار فلج أو بسيف الكواظم⁵⁴.
ومن بين الشعراء الذين تغنوا بكاطمة الشاعر مهيار الديلمي⁵⁵، وقد تغنى بها كمنزل من
منازل أحبته، وكان شعره فيها غاية في الإبداع والإجادة؛ فمن ذلك قوله:
ألطيمة حبست بكاطمة أم أنت زرت رجالنا وهنا⁵⁶
وهذا أبو جرير بن عطية بن خطفي اليربوعي التميمي يترنم بهذه الأبيات الشجيرة بذكرى
كاظمة:

هل ينفعنك إن جريت تجريب أم هل شبابك بحد الشيب مطلوب
أم كلمتك بسلامنين منزله يا منزل الحي جادتك الأهاضيب
وإذا انتقلنا إلى كاظمة في الشعر الحديث؛ فسنجد أن شعراء هذا العصر لم يكونوا أقل
احترافاً بكاطمة ممن سبقهم؛ فقد جاء ذكر كاظمة في أشعار الشيخ ابن سند بن راشد النجدي
الوائي 1242هـ/1826م، الذي عاش سنوات الصبا والشباب على أرضها؛ فمن أبيات قصيدته
بكاظمة:

أحس نحوكما مادام لي رمق شوقاً إلى سمر أحلى من الثمر
فوصلاني ولو بساع لطفت فساعة الوصل لم تحسب من العمر
يحق من سحرتني يوم كاظمة بناظر كامل بالسحر والحوور
خود من البدو أبدت في محاسنها كالشمس قنعها برد من الخفر⁵⁷.
كما أن الأديب الدكتور خليفة الوقيان⁵⁸ هو الآخر كان من بين شعراء العصر الحديث،
الذين تناولوا كاظمة في كتاباتهم؛ فقبل نصف قرن يقول عنها:

ورقاء ياروض الصبا المتضوع صبي الجمال على الخمائل واسجعي
وتنقلب بين الرياض طليقة لا تسكي دمعاً ولا تتوجعي
لك في الحقول مسارج وملاعب فتلفي في سلاحها وتطلعي
ولك الجداول والغدير مصفق شوقاً إليك إلى الهوى فتمتعي
وعلى الغصون الراقصات تخطري وعلى ذرى عرش الجمال تربعي
فالحقل والروض النضير مرابع لك والرسوم الباليات مرابعي
ودعي الطلول فذاك شأن مسهد مثلي شقي بالدوارس مولع
أبكيك يوماً صرح كاظمة الذي درست معالمه كقفر بلقع
يا ساحة المجد الأثيل ودارة للخالدين وكل فديّ مبدع
كم صنت يا درع العروبة قلبها وغدوت في يوم الوغى كالأضلع
ورفعت في ذات السلاسل راية خفاقة للمجد لم تنزعزع⁵⁹

ومما تقدم نرى أن أهمية أرض كاظمة في قصائد الشعراء، الذي وصل عددهم حسب ما ذكره الأديب أحمد زكي الأنباري في كتابه كاظمة في الشعر العربي، إلى أكثر من مائة وخمسين شاعراً ذكروا كاظمة في شعرهم⁶⁰.

ولم يتوقف الاهتمام بكازمة على الأدباء الكويتيين في العصر الحديث، بل تعداه إلى غيرهم من الشعراء العرب؛ فهذا الأديب المصري الدكتور عبد الوهاب عزام⁶¹، الذي زار الكويت عام 1953م، طلب أن يرى أرض كاظمة⁶².

وعن هذه الزيارة يقول الأستاذ أحمد الشرباصي الذي صاحب الدكتور في رحلته لكازمة: "إنهم عندما وصلوا إليها أخذوا يسترجعون ذكريات التاريخ، وقد حيا عبد الوهاب كاظمة بيتين هما:"

بكازمة طوفت في ميعة الضحى وقلبي إلى الماضين جم التشوق

أكاد أرى في رملها قبر غالب وأسمع في الآفاق شعر الفرزدق⁶³

الخاتمة: من خلال هذه الدراسة توصلنا إلى جملة من النتائج كان من أهمها أنها دلت على أن كاظمة كان لها شهرة واسعة عند المؤرخين والجغرافيين والشعراء لا تقل عن غيرها من المواضع التاريخية، التي ذكرها المؤرخون والجغرافيون والشعراء وغيرهم في شبه الجزيرة العربية⁶⁴.

كما كشفت لنا الدراسة تميز موقع كاظمة الاستراتيجي، التي كانت تربط بلاد فارس والعراق في وسط الجزيرة العربية، وكذلك كانت تربط شرقي الجزيرة العربية بهذين البلدين:

فارس (إيران) والعراق، ولهذا كانت لها أهمية عند المسلمين وانطلاقهم لفتح ونشر الإسلام في الشرق.

وإلى جانب ذلك كانت هذه الأرض محل استهداف من الغرب في التاريخ الحديث؛ حيث زار ستيمرغ القنصل العام لألمانيا في إسطنبول الكويت عام 1900م للتفاوض مع حاكم الكويت آنذاك الشيخ مبارك الصباح، حول مد الخط الحديدي برلين- بغداد إلى الكويت. وكشفت لنا الدراسة كذلك بأنها بحق أرض الشعر؛ فقد تغنى بجمالها فطاحل الشعر العربي من أمثال امرئ القيس والقعقاع بن عمرو التميمي والفرزدق، كما عُرف عن أهلها الكرم والشجاعة؛ فكان لهم دور في معركة ذات السلاسل، وكانوا ملاذاً للمستجيرين.

الهوامش:

1- يرجع أصل هذه الدراسة إلى ورقة بحثية مختصرة قُدمت في ملتقى الآل والأصحاب الثالث، مبرة الآل والأصحاب، دولة الكويت، 13 رمضان 1439هـ/29 مايو 2018م. 2- تقع كاظمة على الجزء الغربي من جون الكويت، وهي مجموعة من التلال المطلة على ساحل البحر، وحدها من الجنوب جون الكويت، ومن الشرق منزرة الكويت الوطني. ومن الغرب منطقة تسمى الكويكب، ومن الشمال الغربي منطقة ميادين ومرتفعات جال الزور، وتقع آثار كاظمة شمال شرق مدينة الجبراء على مسافة 14 كم تقريباً، وهي عند التقاء خط العرض 24،29 مع خط الطول 45، 47، للمزيد انظر سلطان الدويش: كاظمة البحور دراسة تاريخية وأثرية لموقع كاظمة- محافظة الجبراء، ص 12-13. 3- كاظمة: الظاء معجمة: الكظم: إمساك الفم، والكاظم: المطرق لا يُجْرُ من الإبل، للمزيد انظر الشيخ الإمام شهاب الدين أبي عبد الله البغدادي، معجم البلدان، المجلد الرابع، دار صادر، بيروت، ص 431. 4- صحيفة الوطن: أحمد بن محارب الظفيري، كاظمة البحور، دولة الكويت، 15 أكتوبر 2005م. 5- صحيفة الوطن: عبدالله خلف، كاظمة لم تأخذ حظها في التاريخ الحديث، دولة الكويت، 6 فبراير 2016م. 6- صحيفة الوطن: أحمد بن محارب الظفيري، كاظمة البحور، دولة الكويت، 15 أكتوبر 2005م. 7- صحيفة الوطن: عبدالله خلف، كاظمة لم تأخذ حظها في التاريخ الحديث، دولة الكويت، 6 فبراير 2016م.

8- كتب أبو بكر الصديق- رضي الله عنه- إلى خالد بن الوليد- رضي الله عنه-، إذ أمره على حرب العراق، أن يدخلها من أسفلها، وإلى عياض إذ أمره على حرب العراق، أن يدخلها من أعلاها، ثم يستبقا إلى الحيرة، فأههما سبق إلى الحيرة فهو أميرٌ على صاحبه، وقال: إذا اجتمعنا بالحيرة، وقد فضضت ما مسالح فارس وأمنت ما يوتى المسلمون من خلفهم، فليكن أحدكما رداءً للمسلمين ولصاحبه بالحيرة، وليقتحم الآخر على عدو الله وعدوكم من أهل فارس دارهم ومستقر عزمهم المدائن، للمزيد انظر للمزيد انظر الطبري: تاريخ الطبري تاريخ الأمم والملوك 224هـ-310هـ، ج 3، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ص 347. 9- هي ثغر على الخليج العربي عند مصب دجلة، وهي قرب البصرة من جانبها البحري، للمزيد انظر أحمد الشرباصي: أيام الكويت، ص 475.

10- كانت أول مدينة قصدها خالد بن الوليد، هي مدينة الأيلة، وذلك بتوجيه من خليفة المسلمين أبي بكر الصديق - رضي الله عنه، حيث كان أبو بكر على دراية بالأمصار والأقطار والمسالك كنتاج طبيعي لاشتغاله بالتجارة قبل الإسلام، إضافة إلى خبرته بالفنون العسكرية، لمشاركته في جميع غزوات النبي- صلى الله عليه وسلم، للمزيد انظر سامي بن عبد الله بن أحمد المغلوث: أطلس الفتوحات الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، ص 28. 11- سامي بن عبد الله بن أحمد المغلوث: أطلس الفتوحات الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، ص 28.

12- روى سيف بن عمر عن طلحة الأعمى عن المغيرة بن عتيبة، وكان قاضئ أهل الكوفة، قال: فرّق خالد مخرجه من اليمامة إلى العراق، جنده ثلاث فرق، ولم يحملهم على طريق واحد، فسرح المثنى قبله بيومين ودليله ظفر، وسرح عدى بن حاتم وعاصم بن عمرو ودليلاهما مالك بن عباد وسالم بن نصر، أحدهما قبل صاحبه بيوم، وخرج خالد- يعنى في آخرهم- ودليله رافع، فواعدهم جميعاً الحفير ليجتمعوا به، ويصادموا عدوهم، وكان فوج الهند أعظم فوج فارس شأناً، وأشدّها شوكة، وكان صاحبه يحارب العرب في البر، والهند في البحر، وهو هرمز، فكتب إليه خالد، فبعث هرمز بكتاب خالد إلى شيرى بن كسرى، وأردشير بن شيرى، وجمع هرمز

وهو نائب كسرى، وجموعاً كثيرة، وسار بهم إلى كاظمة، وعلى مجنبيه قباذ وأنوشجان- وهما من بيت الملك- وقد تفرق الجيش في السلاسل؛ لثلاث يفرؤا، وكان هرمز هذا من أخص الناس طوية وأشدهم كفرة، وكان شريفاً في الفرس، وكان هذا الرجل كلما ازداد شرفاً زاد في جلته، فكانت قلنسوة هرمز بمائة ألف، وقدم خالد بمن معه من الجيش، وهم ثمانية عشر ألفاً فنزل تجاههم على غير ماء، فشكى إليه أصحابه ذلك، فقال: جالدهم حتى تجلوهم عن الماء، فإن الله جاعل الماء لأصبر الطائفتين، فلما استقر بالمسلمين المنزل وهم ركبان على خيولهم، بعث الله سبحانه فأمرهم حتى صار لهم غدران من ماء، فقوى المسلمون بذلك، وفرحو فرحاً شديداً، فلما تواجه الصفان وتقابل الفريقان، ترجل هرمز إلى البراز فتزلج خالد وتقدم إلى هرمز، فاختلفا ضربتين واحتضنه خالد، وجاءت حامية هرمز، فما شغله عن قتله، وحمل القعقاع بن عمرو على حامية هرمز فأناموهم، واهزم أهل فارس، وركب المسلمون أكتافهم إلى الليل، واستحوذ خالد على أمتعتهم وسلاحهم، فبلغ وقر ألف بعير، وسميت هذه الغزوة ذات السلاسل؛ لكثرة من سلسل بها من فرسان فارس، وأفلت قباذ وأنوشجان، للمزيد انظر الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل ابن كثير القرشي الدمشقي: البداية والنهاية، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، ج 9 ص 515-516-13- أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: تاريخ الطبري، ج 2، دار الكتب العلمية، بيروت، ص 309-14- صحيفة الوطن: عبدالله خلف، كاظمة لم تأخذ حظها في التاريخ الحديث، دولة الكويت، 6 فبراير 2016م.

- 15- أبانت المعركة عن الكثير من المواقف العظيمة، التي تميز بها المسلمون على قلة عددهم أمام جحافل الفرس الكبيرة، فمن هذه المواقف أول المشاهد التي ظهر فيها صدق فراسة أبي بكر الصديق - رضي الله عنه -، حينما قال عن القعقاع بن عمرو: لا يهزم جيش فيه مثل هذا، أما سيف الله المسلول خالد بن الوليد فقد ضرب أروع الأمثال في البطولة ورباطة الجأش. حينما أجهز على قائد الفرس وحاميته من حوله، فلم يستطيعوا تخليصه منه، ثم ظل يجالدهم حتى وصل إليه القعقاع بن عمر التميمي ومن معه ففضى عليهم، للمزيد انظر سامي بن عبد الله بن أحمد المغلوث: أطلس الفتوحات الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، ص 40-16- هو القعقاع بن عمر التميمي، أحد قادة الفتح الإسلامي، رافق خالد بن الوليد- رضي الله عنه- في فتح العراق، وقد وصف بالشجاعة والثبات وحسن البلاء، للمزيد انظر أحمد زكي الأنباري: كاظمة في الشعر العربي، ص 186.
- 17- سلطان الدويش: كاظمة البحور دراسة تاريخية وأثرية لموقع كاظمة - محافظة الجبيل، ص 24-18- هو الشيخ الإمام شهاب الدين أبي عبد الله البغدادي ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، ولا يُعلم شيء عن مولده، وكل ما يُعرف عنه أنه أخذ، وهو حدث، أسيراً من بلاد الروم، وحمل إلى بغداد مع غيره من الأسرى فبيع فيها، فاشترته تاجر اسمه عسكر الحموي، فنسب إليه وقيل له: ياقوت الحموي، وقد استفاد برحلاته الكثيرة فوائد جغرافية عديدة، للمزيد انظر الشيخ الإمام شهاب الدين أبي عبد الله البغدادي: معجم البلدان، م 1 ص 431-19- ياقوت الحموي أبو عبد الله البغدادي: معجم البلدان، المجلد الرابع، ص 431-20- صحيفة الوطن: أحمد بن محارب الظفيري، كاظمة البحور، الكويت، 15 أكتوبر 2005م.
- 21- مجلة الوعي: خلف أبو زيد، تاريخ وإرث حضاري.. كاظمة الكويتية، دولة الكويت، 22- هو الحسن بن أحمد بن يعقوب، ويعرف بأن يعقوب، وبالنسابة، وبابن الحائك، سكن صنعاء آخر عمره، للمزيد انظر الحسن بن أحمد الهمداني: صفة جزيرة العرب، تحقيق: محمد بن علي الأكواع الحوالي، أشرف على طبعه: حمد الجاسر، ص 6-23- الحسن بن أحمد الهمداني: صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الأكواع الحوالي، أشرف على طبعه حمد الجاسر، ص 56-57-24- الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة المصطفى الإلكترونية، www.al-mostafa.com.
- 25- يقول الأديب فرحان عبدالله الفرحان: "كنا نسمع منذ أمد عن أسواق العرب القديمة مثل: ذو المجنة عكاظ ودومة الجندل والشجر والمشقر لكن هنالك أسواقاً كثيرة في هذه الجزيرة رحبة لم يمر عليها الباحثون القدماء ولم يعطوها أهمية لصغرهما ومن ضمن هذه الأسواق سوق كاظمة، الذي أخذ مكاناً مرموقاً بسبب موقع كاظمة الذي يربط بلاد فارس والعراق واليمن في وسط الجزيرة العربية، وكذلك كانت تربط شرقي الجزيرة العربية بهاتين البلدين فارس إيران والعراق، للمزيد انظر صحيفة القبس: فرحان عبدالله الفرحان، أسواق العرب في الجزيرة العربية التاريخية، وسوق كاظمة في التاريخ، العدد 12418، دولة الكويت.
- 26- صحيفة القبس: فرحان عبدالله الفرحان، أسواق العرب في الجزيرة العربية التاريخية، وسوق كاظمة في التاريخ، العدد 12418، دولة الكويت.
- 27- الحبيب الجنتاني: الكويت بين أمس واليوم، ص 7-10-28- الحبيب الجنتاني: المرجع السابق، ص 7-10.
- 29- صحيفة القبس: فرحان عبدالله الفرحان، هل تحتضن أرض الكويت قبور شخصيات مهمة في تاريخها، دولة الكويت، 2016م.

- 30- دفن في تراب كاظمة من الصحابة الصحابي الجليل العلاء بن عبد الله الحضرمي - رضي الله عنه -، للمزيد انظر صحيفة الوطن: عبدالله خلف، كاظمة لم تأخذ حظها في التاريخ الحديث، الكويت، 6 فبراير 2016م. 31- سلطان الدويش: المرجع السابق، ص 19-23. 32- الحسن بن أحمد الهمداني: صفة جزيرة العرب، تحقيق: محمد بن علي الأكوخ الحوالي، أشرف على طبعه: حمد الجاسر، ص 319-333. 33- سلطان الدويش: المرجع السابق، ص 19-23. 34- هو همام بن غالب بن صعصعة بن ناجية بن عقال بن محمد بن سفيان بن مجاشع بن دارم، كني بأبي فراس، ولقب بالفززدق، ولد بالبصرة سنة 20هـ ونشأ فيها وتوفي سنة 114هـ. للمزيد انظر أحمد زكي الأنباري: كاظمة في الشعر العربي، ص 179-35. 35- يعقوب يوسف غنيم: كاظمة في الأدب والتاريخ، ص 67-71. 36- المؤؤدات: البنات اللاتي كنَّ يُدْفَنْنَ قبل الإسلام في الجاهلية، للمزيد انظر هدى التميمي: الأدب العربي عبر العصور، ط إلكترونية. 37- ديوان الفززدق حياته- شعره: إعداد ضعى عبد العزيز، دار كرم، دمشق، ص 4-38. أحمد زكي الأنباري: كاظمة في الشعر العربي، ص 179-39. كان هناك تحرك سريع من السلطات البريطانية لإيقاف هذا المشروع، عندما طلب المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي مالcolm John Meade من الكابتن دنيسون الذهاب إلى الكويت لكي يسلم حاكم الكويت الشيخ مبارك الصباح خطاباً جاء فيه عدم تلقي عرض سكة الحديد الألمانية قبل إبلاغ السلطات البريطانية، للمزيد انظر مجلة كلية الآداب والتربية: بدر الدين عباس الخصوص، دراسة وثائقية جديدة عن كاظمة الكويت كنهاية لسكة حديد برلين بغداد، ص 105-106. 40- مجلة كلية الآداب والتربية: بدر الدين عباس الخصوص، دراسة وثائقية جديدة عن كاظمة الكويت كنهاية لسكة حديد برلين بغداد، ص 100-41. يوسف عبد المعطي: الكويت بعيون الآخرين: ط 1، ص 30-31. 42- مجلة كلية الآداب والتربية: بدر الدين عباس الخصوص، دراسة وثائقية جديدة عن كاظمة الكويت كنهاية لسكة حديد برلين بغداد، ص 9-43. يعقوب يوسف الغنيم: أحمد البشر الرومي قراءة في أوراقه الخاصة، ص 24-25. 44- مجلة البعثة: أحمد البشر، كاظمة، العدد 8، السنة الخامسة، محرم 1371هـ أكتوبر 1951م، ص 290-291. 45- بدر خالد البدر: معركة الجهراء ما قبلها وما بعدها، 25 جمادى الأولى 1400هـ 11 إبريل 1980م. 46- يعقوب يوسف غنيم: كاظمة في الأدب والتاريخ، ص 67-71. 47- صحيفة الوطن: عبدالله خلف، كاظمة لم تأخذ حظها في التاريخ الحديث، الكويت، 6 فبراير 2016م. 48- مجلة البعثة: أحمد البشر، كاظمة، العدد 8، السنة الخامسة، محرم 1371هـ أكتوبر 1951م، ص 291. 49- هو حندج، وقيل عدي وقيل مليكة وغلب عليه امرؤ القيس، لقب بالملك الضليل، وبذي القروح، وأما كنيته فهو أبو وهب أو أبو زيد وأبو الحارث، وهو ابن حجر ملك غطفان وأسد، للمزيد انظر أحمد زكي الأنباري: كاظمة في الشعر العربي، ص 180. 50- مجلة كلية الآداب والتربية: بدر الدين عباس الخصوص، دراسة وثائقية جديدة عن كاظمة الكويت كنهاية لسكة حديد برلين بغداد. 51- أحمد زكي الأنباري: كاظمة في الشعر العربي، ص 180-52. أحمد زكي الأنباري: المرجع السابق، ص 180-53. صحيفة القيس: فرحان عبد الله الفرحان، هل تحتضن أرض الكويت قبور شخصيات مهمة في تاريخها، دولة الكويت. 54- يعقوب يوسف غنيم: المرجع السابق، ص 67-71. 55- مهبأر بن مرزويه الديلي، كاتب وشاعر مشهور، كان مجوسياً، ويقال أنه أسلم على يد الشريف الرضى الشاعر العربي، الذي يعد أستاذه في الشعر، للمزيد انظر يعقوب يوسف غنيم: كاظمة في الأدب والتاريخ، ص 67-71. 56- يعقوب يوسف غنيم: المرجع السابق، ص 56-57. 57- صحيفة الوطن: أحمد بن محارب الظفيري، كاظمة البحور، دولة الكويت، 15 أكتوبر 2005م. 58- الدكتور خليفة عبد الله فارس الوقيان: أديب وشاعر ومفكر كويتي فاز بجائزة القدس الأدبية التي يمنحها الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب، وهي من أرفع الجوائز التي يقدمها الاتحاد سنوياً، للمزيد انظر صحيفة الجزائر: سامية شيلي، خليفة الوقيان يستلم جائزة القدس الأدبية بالجزائر فيفري المقبل، السنة السادسة، العدد 1629، 8 ذو الحجة 1437هـ/10 سبتمبر 2016، ص 21-59. مجلة البيان: خليفة الوقيان، كاظمة، العدد السادس، رابطة الأدباء الكويتيين، دولة الكويت، سبتمبر 1966م، ص 35-60. أحمد زكي الأنباري: المرجع السابق، ص 3-9. 61- الدكتور عبد الوهاب عزام أديب مصري ذائع الصيت، تولى عمادة كلية الآداب في جامعة القاهرة، كان سفيراً لبلاده في عدة بلدان، للمزيد انظر صحيفة الوطن: أحمد بن محارب، كاظمة البحور أرض نقية وأغنية شجية، الكويت، 15 أكتوبر 2005م. 62- صحيفة الوطن: عبدالله خلف، كاظمة لم تأخذ حظها في التاريخ الحديث، الكويت، 6 فبراير 2016م. 63- أحمد الشرباصي: أيام الكويت، ص 475-476. 64- أحمد زكي الأنباري: المرجع السابق، ص 3-9.

مقالات في التاريخ الحديث.

مأساة الموريسكيين بين اجتهاد الفتوى وغياب القوة العسكرية
906-950هـ/1500-1543م
The Tragedy of the Moors between the
jurisprudence of the Fatwa and the absence of military
force (906-950h/1500-1543g)

اسم ولقب المؤلف المرسل: فاطمة الزهراء حميش - hamiche Fatima zohra صص 211-228
الدرجة والعنوان المهني: طالبة دكتوراه ل.م.د في التاريخ الوسيط- جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله.
البريد الإلكتروني: fatimazohra.hamiche44@gmail.com

تاريخ استقبال المقال: 2019/12/30 تاريخ المراجعة: 2020/04/01 تاريخ القبول: 2020/03/19

الملخص بالعربية: نحاول من خلال هذه البحث التطرق إلى واحدة من أحلك المحن التي عرفها التاريخ الإنساني بصفة عامة والتاريخ الإسلامي بصفة خاصة التي وقعت للموريسكيين الأندلسيين الذين اختاروا البقاء في الأندلس بعد سقوط مملكة غرناطة سنة 897هـ/1492م في يد الإسبان، من خلال دراستنا لبعض رسائل الاستصراخ والاستنجد التي أرسلوها بعد نقض الإسبان لمعاهدة التسليم، وتعرضهم للتنصير القسري ودفع الضرائب والمغرم الثقيلة، وإجبارهم على التخلي عن ممتلكاتهم، وترحيلهم من مساكنهم، وغيرها من الإجراءات القاسية التي أسس الإسبان من أجل تنفيذها محاكم خاصة سميت "محاكم التفتيش" التي ارتكبت في حق هذه الأقلية جرائم وانتهاكات قل لها مثيل.

الرسالة الأولى أرسلت للفيقيه أحمد بن أبي جمعة المغراوي من فقهاء مدينة وهران بالمغرب الأوسط، ورسالة أخرى متزامنة معها أرسلت للسلطان العثماني بايزيد الثاني، أما الرسالة الثالثة فأرسلت بعد عدة سنوات إلى السلطان سليمان القانوني.

في هذا البحث سنقوم بتحليل مضمون الرسائل، وسندرس ردود الأفعال المختلفة والمتباينة، كما سنحاول إمطة اللثام عن الأسباب التي أخرجت أو منعت التدخل العسكري سواء من العدو أو من الدولة العثمانية التي كانت في تلك الفترة الدولة الإسلامية الوحيدة القادرة على إنقاذ الموريسكيين من هذه المحرقة، واسترجاع الأندلس

لحوزة المسلمين من جديد، بخاصة بعد ضمها للجزائر وتونس وليبيا، وسيطرتها الكلية على حوض البحر الأبيض المتوسط.

الكلمات المفتاحية: الموريسكيون- إسبانيا- القوة العسكرية- العثمانيون- فتوى.

Abstract: *This research tries to deal with one of the darkest adversities that human history has ever knew in general and Islamic history in particular, That happened to the Moriscos and they were the Andalusians who chose to remain in al-Andalus after the Fall of the kingdom of Granada in the hands of the Spanish in 1482AD/897AH.*

Through the study of some letters the Moriscos sent after the Spanish breached the Handover Treaty and being forced to convert to christianity, to pay taxes and heavy fines. They were also obliged to abandon their properties, to deport and were exposed to other tough measures and acts. The Spanish established for those purposes special courts; the latter were referred to as the Inquisition that committed unprecedented crimes and violations against this minority.

The first letter was sent to Fakih- Islamic legislator- Ahmad Ben abi Jumaa Elmaghraoui: one of the Muslim legislators of the city of Oran in Central Maghreb and the other concurrent letter was sent to the Ottoman Sultan Bayzid II ,were as the third letter was sent to sultan Suleiman the Magnificent.

In this study; we analyse the content of the letters and examine the different reactions. Additionally; we try to uncover the causes that delayed or obstructed the military intervention either from Maghreb or the Ottoman Empire that was the only Islamic State capable of saving the Moriscos from this holocaust and that was able to regain al-Andalus back to Muslims especially after annexing Algeria, Tunisia and Libya under its total dominance over the Mediterranean Basin.

Keywords: The Moriscos- Spain- Military force- Ottomans- Fatwa.

المقدمة: تقلص حكم المسلمين في الأندلس مع نهاية القرن السابع للهجرة/الثالث عشر الميلادي، واقتصر على مملكة غرناطة (Granada) في الجنوب الشرقي التي ضمت بضع مدن فقط هي: غرناطة، مالقة (Malaga)، بسطة (Baza)، والتي كانت تحت حكم أمراء بني الأحمر¹، هذه المملكة الفتية لم تصمد طويلا أمام هجمات الإسبان المتتالية لتسقط في أيديهم سنة 897هـ/1492م بتوفر العديد من العوامل؛ فبينما كان أمراء بني الأحمر يتناحرون على كرسي العرش، وينغمسون في اللهو والمجون، كان الإسبان يعلنون وحدتهم، ويعدون العدة لبسط سيطرتهم على ما تبقى من المدن الأندلسية، وفي هذا يقول المقري: «واستمر الأمر بالجزيرة على هذه الحالة مدة، والمسلمون لا يزدادون إلا ضعفا، والعدو تكالبا وشدة حتى استولى على الجزيرة بأسرها»².

بعد وفاة هنري (Henry) ملك إمارة قشتالة (Castilla) سنة 1474م تربعت أخته إيزابيلا (Isabella) على العرش بعد معارضة النبلاء لاعتلاء ابنته خوانا (Juana)، وكانت إيزابيلا قد تزوجت سنة 1469م من ابن عمها فرناندو الأراجوني (Fernando)³ الذي بدوره تمكن من الحصول على عرش إمارة أراجون (Aragón) سنة 1479م بعد تنازل والده خوان الثاني (Juan II) عن العرش عند بلوغه الثمانين من عمره، وفقدانه لبصره، وهكذا اتحدت مملكتا قشتالة وأراجون، وبدأ فرناندو وإيزابيلا في العمل على توحيد إسبانيا⁴ ليس هذا فحسب، بل أعطوا لحرهم مع المسلمين الصبغة الدينية.

بدأ الإسبان يزحفون ويستولون على المدن الأندلسية الواحدة تلو الأخرى، وكانت البداية بجبل الفتح (Gibraltar) سنة 866هـ/1461م، وعلى الحمة (Alhama) سنة 887هـ/1482م، ومدينة مالقة (Malaga) سنة 892هـ/1486م، ولم تكد تصل سنة 895هـ/1489م حتى بسط النصارى يدهم على معظم بلاد الأندلس⁵، وبقيت مدينة غرناطة لوحدها تواجه مصيرها المحتوم، حيث قام النصارى بحصارها لأكثر من سنة، وأمرت الملكة إيزابيلا ببناء معسكرات للجنود بدل الخيام حتى تضعف معنويات المسلمين، وثبتت لهم أنهم جاؤوا هذه المرة ولن يعودوا أدراجهم إلا وغرناطة تحت سيطرتهم⁶.

عاش الشعب الأندلسي خلال هذا الحصار محنة عظيمة لم يسبق لها مثيل، ويصور لنا مؤلف مجهول حالة الأندلسيين المحاصرين الذين تضرروا منه بسبب الجوع والعطش حيث أغلق الإسبان عليهم كل المنافذ، وطال الأمر فلم يصلهم المدد من الأشقاء في العدو رغم استنجادهم بهم، يقول: "إن إخواننا المسلمين من أهل عدوة المغرب بعثنا إليهم فلم يأتنا أحد منهم، ولا عرج على نصرتنا وإغاثتنا"، وبالمقابل ذكر أن الإسبان كانوا يحصلون على العون من البابوية والدول الأوروبية الأخرى، "وعدونا قد بنى علينا وسكن، وهو يزداد قوة ونحن نزداد ضعفا، والمدد يأتيه من بلاده ونحن لا مدد لنا"⁷، وفي الأخير استسلم الأندلسيون، ووقع الأمير أبو عبد الله الصغير (882-897هـ/1477-1491م) مع الملكين الإسبانيين فرناندو وإيزابيلا معاهدة التسليم في 25 نوفمبر 1491م التي تضمنت مجموعة من الشروط التي تعهد الملكان باحترامها، أهمها حماية المسلمين، واحترام معتقداتهم، "واشترط المسلمون على العدو الكافر شروطا أظهر قبولها، وبسط لهم جناح العدل حتى بلغت بزعمهم مأمولها"، وترك للمسلمين في البداية حرية الاختيار بين الرحيل

إلى إحدى مدن العدو وبين البقاء في الأندلس مع الاحتفاظ بممتلكاتهم، واعدن إياهم بالعناية والاحترام.

عاش الأندلسيون مدة بشكل طبيعي محتفظين بممتلكاتهم من دون دفع الكراء أو الضرائب، "من غير أن يعطي كراء ولا مغرماً، وأظهر للمسلمين العناية والاحترام"⁸، ثم نقض الإسبان المعاهدة، وبدأت أوضاع المسلمين المتخلفين في الأندلس تتغير من مسلمين إلى مدجنين، ثم إلى موريسكيين⁹ بعد سنة 1500م بسبب صدور قرار التنصير الجماعي لهم¹⁰ في 20 جويلية 1501م/4 محرم 907م من طرف الملكين الإسبانين¹¹، وبعد عام من ذلك، وبالضبط في 12 سبتمبر 1502م صدر مرسوم ملكي جديد يحظر على الناس التصرف في ممتلكاتهم قبل مضي سنتين، كما منعوا من مغادرة مملكة قشتالة إلا إلى أراجون والبرتغال (Portugal)، ثم أقيمت المحاكم¹² لمتابعة ومراقبة عملية التنصير، بخاصة وأنهم كانوا يعلمون جيداً بأن المسلمين واليهود لن يتخلوا عن دينهم بسهولة، وتفنونوا في التعذيب والتنكيل والترويع¹³، في هذه الظروف العصبية لم يجد الموريسكيون إلا الاستغاثة مجدداً بأشقائهم في العدو والمشرق؛ فأرسلوا رسائل إلى جهات مختلفة ضمنوها ما يعانونه على يد الإسبان، ومن هنا نطرح الإشكالية التالية: لماذا أرسل الموريسكيون هذه الرسائل؟ هل كانت للاستجداد وطلب التدخل العسكري أم كانوا يصبون من خلالها لغايات أخرى؟ وهل وجدت هذه الرسائل صدى واستجابة؟

1- رسالة الموريسكيين للفقهاء أبي عبد الله المغراوي 910هـ/1504م: لا يمكننا معرفة عدد الرسائل التي أرسلها الموريسكيون بالضبط؛ فمن المرجح أن تكون بعضها قد ضاعت في خضم هذه المأساة الإنسانية؛ فقد كانت السلطات الإسبانية تبث الجواسيس في كل مكان لرصد المعلومات عن تحركات الموريسكيين، أو للحصول على مثل هذه الرسائل¹⁴، ومن بين الرسائل واحدة أرسلت إلى فقيه من مدينة وهران بالمغرب الأوسط هو أحمد بن أبي جمعة المغراوي، وإن كانت رسالتهم لم تصلنا لكن رد الفقيه المغراوي على الرسالة موجود، وقد نقله إلينا المؤرخ محمد عبد الله عنان في كتابه نهاية الأندلس، "وهي رسالة مؤثرة مؤرخة بتاريخ أول رجب سنة 910هـ/28 نوفمبر 1504م¹⁵، تضمنت فتوى طويلة فيها طرق للتعامل مع الوضع الجديد "التنصير القسري" دون التخلي عن دينهم، وممارسة شعائرهم الدينية.

وقبل الخوض في تفاصيل الفتوى التي رد بها المغراوي على رسالة الموريسكيين لآبد لنا أن نتطرق لحياة هذا الفقيه لعلنا نجد بعض التفاصيل التي تعطينا إجابة عن سبب اختيار الموريسكيين له بالذات، لكن المعلومات عنه قليلة، ولم نظفر له إلا على ترجمة مقتضبة نقلها التنبكي في كتابه نيل الابتهاج¹⁶، و ترجمة نقلها محمد البشير ظافر الأزهرى في كتابه يواقيت ثمينة، لكن من الواضح أنه اختلط عليه الأمر فنقل ترجمة لابنه أبو عبد الله محمد شقرون بدلا من والده، والدليل على ذلك سنة وفاته التي قال إنها كانت في "العشرة الثالثة من القرن العاشر"، وهي نفس سنة وفاة ابن الشيخ المغراوي¹⁷، والترجمة التي أفردتها كل من الكتاني في كتابه فهرس الفهارس، وابن مخلوف في شجرة النور الزكية كانت أيضا لابنه¹⁸.

ومن خلال المعلومات البسيطة التي عثرنا عليها أن الشيخ المغراوي واحد من فقهاء مدينة وهران بالمغرب الأوسط، عاش في القرن التاسع الهجري وبداية القرن العاشر، درس في تلمسان على يد نخبة من شيوخها منهم محمد بن يوسف السنوسي، كما كانت له رحلة علمية إلى تونس درس خلالها عند مجموعة من العلماء، وله كتاب في مجال التربية والتعليم وواجبات المعلمين اسمه "جامع جوامع الاختصار والتبيان فيما يعرض للمعلمين وأباء الصبيان"¹⁹، وكانت وفاته حسب التنبكي سنة 917هـ/1533م²⁰.

اشتهر الشيخ المغراوي في أغلب الدراسات التاريخية بالفتوى التي أرسلها إلى الموريسكيين ردا على رسالتهم، وكانت الفتوى طويلة من عدة صفحات بدأها المغراوي بوصفه للأندلسيين "بالقابضين على دينهم كالقابض على الجمر"، أي أن المسلم في زمن المحن والفتن يصبح كالقابض على الجمر من شدة ما يصيبه من المحن والآلام من الأعداء لإبعاده عن دينه، مقتبسا ذلك من حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: "يأتي على الناس زمان الصابر فيهم على دينه كالقابض على الجمر"²¹.

وفي أغلب فقرات الرسالة يحثهم بالصبر على الأذى، ويقدم لهم الحلول والطرق للتعامل مع النصارى دون التحلي عن دينهم، والقيام بالفرائض الدينية كالصلاة والصوم والزكاة خفية عن أعينهم؛ "فالصلاة ولو بالإيماء، والزكاة ولو كأنها هدية لفقيركم أو رياء، لأن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن إلى قلوبكم، والغسل من الجنابة ولو عوما في البحور،

إن منعتهم فالصلاة قضاء بالليل لحق النهار، وتسقط في الحكم طهارة الماء، وعليكم بالتيمم ولو مسح بالأيدي للحيطان..."²².

وفي الأخير يطلب منهم إرسال رسائل أخرى كلما تعسر عليهم أمر ما، وسيقوم هو بإرشادهم، "وما يعسر عليكم فابعثوا فيه إلينا نرشدكم إن شاء الله على حسب ما تكتبون"، ثم يدعو الله أن يستعيد المسلمون الأندلس من جديد لتخليصهم من هذه المحنة، ويعلق آماله على الدولة العثمانية، "وأنا أسأل الله أن يديل الكثرة للإسلام حتى تعبدوا الله ظاهرا بحول الله من غير محنة ولا وجلة، بل بصدمة الترك الكرام"²³، لماذا أرسل الموريسكيون الرسالة إلى الفقيه المغراوي بالذات؟ وأين كان فقهاء الأندلس آنذاك؟ ألم يكونوا هم المرجعية الفقهية لأهل المغرب قبل هذا التاريخ؟ وما الهدف الذي سعى إليه الموريسكيون من خلال هذه الرسالة؟ هل كانت الفتوى أم وراءها دوافع أخرى؟

قد يكون السبب حاجتهم للفتوى خاصة إذا علمنا أن أغلب الفقهاء الأندلسيين قد غادروا مملكة غرناطة قبل سقوطها صوب المدن المغربية والمشرقية كأبي الحسن القلصادي (ت891هـ/1486م)، ومحمد المجاري (ت856هـ/1452م)، وشمس الدين الراعي (ت853هـ/1449م)، وأبي الحسن علي البياضي (ت912هـ/1506م)، وأحمد بن محمد بن يوسف الصنهاجي المشهور بالدقون (ت920هـ/1514م)، وأبي عبد الله بن الأزرق (ت895هـ/1489م)، ولم يتبقى منهم إلا البعض، وكان المؤلف المجهول قد ذكر بأن فقهاء غرناطة كانوا ضمن الوفد الذي توجه لمقابلة الأمير أبو عبد الله الصغير يطلبون منه التفاوض مع الإسبان لإنهاء الحصار المفروض عليهم²⁴، ولم يذكر أسماء هؤلاء الفقهاء، ولا نعرف مصيرهم بعد سقوط غرناطة، ومن المرجح أنهم غادروها بعد ذلك.

لم تذكر أغلب المصادر إلا الفقيه محمد المواق (ت897هـ/1491م)²⁵، الذي وصفه ابن مخلوف "بخاتمة علماء الأندلس والشيخ الكبار"²⁶، وقال عنه التنبكتي: "مفتي الحضرة وخطيبها وآخر الأئمة بها"²⁷، ولما استولى النصارى على غرناطة كان على قيد الحياة، وشهد سقوطها؛ «فسألوا عمن هو المقدم بها في العلم فأشير بالمواق"، وتوفي بعد مدة قصيرة من ذلك وبالضبط في شهر شعبان سنة 897هـ/1491م، أي بعد خمسة أشهر فقط من سقوط غرناطة²⁸.

وبعد سقوط غرناطة تختفي أخبار العلماء تماما، وتقهرت العلوم العقلية والنقلية التي كانت منتشرة سابقا في كل مكان؛ فأحرقت المصاحف، وأتلفت كل الكتب الدينية بموجب قرار صدر في 12 أكتوبر 1501 ينص على إحراق جميع الكتب التي لها علاقة بالإسلام²⁹؛ وأقدم الكاردينال خمينث على حرق أغلب الكتب والمخطوطات التي ورثها غرناطة من المدن التي سقطت كقرطبة وإشبيلية وغيرهما، وكانت أكثر من مئة ألف مخطوط في شتى مجالات العلوم لم يسلم منها إلا عدد قليل من كتب الطب، "ولم يشفع لها الموضوع الذي تحتوي عليه، ولم تكن له أية صلة بالقرآن في أحايين كثيرة"³⁰؛ فهل يستطيع أي عالم أن يتحمل مثل هذه الإجراءات القاسية؟ من المرجح أن تكون هذه الحادثة سببا في رحيل من تبقى منهم.

غياب العلماء في الأندلس³¹ دفع الموريسكيين لإرسال الرسالة للفقهاء المغراوي حتى يزودهم بمثل هذه الفتوى التي تدعمهم وتقوّمهم على المحنة العظيمة التي أصابهم في دينهم ولغتهم، وكان اجتهاد الفقهاء المغراوي يتماشى مع حساسية الوضع الذي عاشه الموريسكيون، وبخاصة من استعصى عليهم الرحيل، وأجبرتهم الظروف على البقاء على عكس الفتوى التي أوردها عبد الواحد الونشريسي تحت عنوان "أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر"، والذي أفتى فيها بعدم جواز بقاء المسلمين في بلاد تغلب عليها النصارى، وبضرورة الهجرة إلى بلاد المسلمين، ولم يأخذ بعين الاعتبار أن السواد الأعظم من هذه الفئة كانوا من الضعفاء غير القادرين على الهجرة.³²

2- رسالة الموريسكيين للسلطان بايزيد الثاني: الرسالة الثانية أرسلت في نفس الفترة، وأوردها المقري التلمساني في كتابه أزهار الرياض، أرسلها الموريسكيون هذه المرة إلى السلطان العثماني بايزيد الثاني (1481-1512)³³ يطلبون منه التدخل لإنقاذهم من بطش الإسبان، ولم يذكر لنا المقري تاريخ الرسالة، واكتفى بالقول إن الموريسكيين أرسلوها بعد استيلاء الإسبان على الأندلس، ولكن من الواضح أنها كانت مزامنة للرسالة التي أرسلت للفقهاء المغراوي؛ فالسلطان العثماني بايزيد حكم إلى غاية سنة 1512 أي أن الرسالة قد تكون أرسلت إليه بين سنوات 1505 أو 1512م.³⁴

بدأ الموريسكيون رسالتهم بتوجيه الكلام للسلطان بايزيد الثاني، ووصفوه بعبارات تمجده وتعظمه معتبرين إياه سلطان المسلمين وناصرهم، "بحضرة مولانا وعمدة ديننا

ودنيانا السلطان الملك الناصر، ناصر الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، قانع أعداء الله الكافرين، كهف الإسلام، وناصر دين نبينا محمد عليه السلام³⁵، وأتبعوا الرسالة بقصيدة طويلة سردوا فيها المحنة التي ألمت بهم بعد إجبارهم على التنصير؛ فأصبحوا غرباء في وطنهم بعدما كانوا أعزة، ولم يستثنى الإسبان من التنكيل لا النساء ولا الشيوخ ولا الأطفال؛ فكشفوا حرمان النساء، وتعرضت اليافعات منهن للاغتصاب، وأجبروا على أكل لحم الخنزير والجيفة، وحرموا من الصلاة والصوم، ومن يقوم بذلك يحرق حيا، كما دنسوا المصاحف بالنجاسة وفضلات الحيوانات، وأحرقوا كل الكتب الدينية، وقاموا بقتل كل من يخالف أوامرهم حتى وصل بهم الأمر لإحراق مدن كاملة بسكانها كمدينة أندرش، وهذه بعض أبيات القصيدة:

سلام عليكم من وجوه تكشفت على جملة الأعلاج من بعد سترة
سلام عليكم من بنات عواتق يسوقهم اللباط قهرا لخلوة
سلام عليكم من شيوخ تمزقت شيوهم بالنتف من بعد عزة
سلام عليكم من عجائز أكرهت على خنزير ولحم الجيفة
وفي آخر القصيدة يطلبون منه التدخل لرفع الغبن عنهم لأنه الأمل في خلاصهم من هذا الكرب والإذلال الذي أصابهم.

ومن عندكم نرجو زوال كربنا وما نالنا من سوء حال وذلة³⁶
ورغم قساوة الأخبار التي تضمنتها الرسالة، وإلحاح الموريسكيين على السلطان العثماني بايزيد الثاني التدخل العاجل لإنقاذهم، إلا أنه لم يحرك جيوشه لنصرتهم، وهذا لعدة أسباب:

أولا: تشير أغلب المصادر أن السلطان بايزيد الثاني لم يكن كوالده السلطان محمد الثاني الذي رفع راية الجهاد ونصرة الإسلام عاليا، وتمكن من فتح القسطنطينية سنة 1453م، بينما كان بايزيد يميل إلى السلم أكثر من الحرب محبا للعلوم الأدبية، لذلك كان يطلق عليه أغلب المؤرخين الأتراك اسم "بايزيد الصوفي"³⁷.

أما السبب الثاني: فهو اختياره المهادنة والابتعاد عن الحروب مع الأوروبيين، وحرصه على تنشيط العلاقات الدبلوماسية معهم، والتي كانت قبله تقتصر على البلاد الواقعة على الحدود فقط، لكن في عهده عقد علاقات دبلوماسية مع الباباوية، ومع

أغلب البلدان والممالك الأوروبية كفلورنسا ونابولي وفرنسا، والمجر، كما أبرم صلحا مع البندقية³⁸.

والسبب الثالث: هو انتشار الصراعات الداخلية، والتنافس على السلطة في الباب العالي بين السلطان بايزيد الثاني وأخيه جم³⁹ الطامح إلى الحكم، وبينه وبين ابنه سليم الذي تمكن في الأخير من الاستحواذ على السلطة، والتخلص من والده بعد تسميمه حسب أغلب المصادر⁴⁰.

3- جهود العثمانيين لإنقاذ الموريسكيين بعد السلطان بايزيد الثاني(1512-1535): كانت الدولة العثمانية الدولة الوحيدة القادرة على إنقاذ الموريسكيين⁴¹، وافتكاك الأندلس من الإسبان، وإرجاعها لحوزة المسلمين مرة أخرى؛ فقد كانت تمتلك من القوة العسكرية ما يؤهلها لذلك، بخاصة بعد ضمها للجزائر وتونس وليبيا، وسيطرتها على حوض البحر الأبيض المتوسط؛ فهل كانت هناك محاولات عثمانية لإنقاذ الموريسكيين بعد السلطان بايزيد الثاني؟

استمر الموريسكيون في مجابهة اضطهاد الإسبان لهم بمفردهم؛ فمنهم من رضي بالمدجن وبقي في الأندلس، ومنهم من قرر الرحيل إلى المدن المغربية، ولم يكن اختيارهم هذا يسيرا؛ حيث كان أغلبهم يجازفون بالرحيل خفية، ولم يجدوا من يعينهم على ذلك إلا بعض البحارة الأتراك الذين كانوا ينشطون في حوض البحر الأبيض المتوسط بصفة مستقلة عن السلطات العثمانية⁴².

هؤلاء البحارة هم أربعة أشقاء- إسحاق وهو الأكبر وعروج وخضر المعروف باسم خير الدين وإلياس بربروس أي ذو "اللحية الحمراء"- يعود أصلهم إلى قلعة مدلي بجزيرة لسبوس باليونان، وبينما اختار إسحاق البقاء في قلعة مدلي، وإلياس الأخ الأصغر قتل في إحدى المعارك من طرف فرسان رودس، واصل عروج وخير الدين الاشتغال في مجال الجهاد البحري حيث دخلا في خدمة أمير تونس محمد الحفصي؛ فكانوا يأسرون المراكب التجارية المسيحية، ويأخذون ما فيها من بضائع، ويبيعون ركابها وملاحها كرقيق⁴³.

كانت أنباء الجرائم الإسبانية تصل إلى الإخوة بربروس تباعا؛ فقد ذكر خير الدين في مذكراته بعضها منها، وقال بأن الموريسكيين وصل بهم الأمر لبناء مساجد تحت الأرض، للتعبد فيها سرا وبعبدا عن أعين الإسبان، "لقد دمر الإسبان وأحرقوا جميع المساجد،

وصاروا كلما عثروا على مسلم صائم أو قائم إلا وعرضوه وأولاده للعذاب والإحراق؛ فقام الأخوان عروج بالتدخل مرات عديدة لإنقاذ الكثير من الأندلسيين العالقين في عرض البحر، ومساعدتهم بنقلهم عبر سفنهم إلى الجزائر وتونس، "قمنا بحمل عدد كبير من المسلمين في السفن وإنقاذهم من أيدي الكفار، ونقلهم إلى الجزائر وتونس"⁴⁴، وبعد ترحيلهم دخل الكثير منهم في خدمتهم، وأصبحوا أعوانا لهم في حروبهم ضد الأسطول الإسباني فيما بعد⁴⁵.

وبعد سنوات أصبح خير الدين بربروس أول بايلرباي (أمير الأمراء) في الجزائر (1520-1535) لكنه افتقر للقوة العسكرية التي تمكنه من الزحف نحو إسبانيا من أجل إنقاذ الموريسكيين، كما أن الإسبان قاموا باحتلال أغلب المدن الساحلية بالمغرب الأقصى والأوسط لضرب أي محاولة لاسترداد الأندلس تنطلق من العدة برعاية الدولة العثمانية؛ ففضى خير الدين فترة حكمه كلها في تحرير المدن الجزائرية من يد الإسبان بدعم كبير من السلطان سليم الأول (1512-1520)⁴⁶ بن بايزيد الثاني (1512-1520)⁴⁷.

4- رسالة الموريسكيين للسلطان سليمان القانوني 948هـ/1541م: جدد الموريسكيون طلب الدعم من العثمانيين مرة أخرى سنة 1541م، وأرسلوا رسالة⁴⁸ إلى السلطان سليمان القانوني (1520-1566): "السلطان سليمان بن السلطان سليم بن السلطان بايزيد بن محمد خان، مد الله ظلال النعمة بامتداد ظلاله، وضاعف لديه مواهب إكرامه وأفضاله"⁴⁹، ولم تخلو هذه الرسالة أيضا من عبارات الاستعطاف مستعملين كلمات مؤثرة لوصف ما كانوا يعانونه على يد الإسبان؛ "فإن عبيدك الفقراء المساكين المنقطعين بجزيرة الأندلس... رافعين شكواهم وما يلاقون من بلواهم، باكين متضرعين مستنصرين بعناية مولانا السلطان، دام عزه ونصره لما أصابهم من أعداء الدين"، وذكروا في الرسالة أيضا معلومات عن عددهم، وقالوا بأنه بلغ ثلاثمئة وأربعة وستين ألف موزعين بين غرناطة ومدن مجاورة لها⁵⁰.

أشاد الموريسكيون في هذه الرسالة بالدور الذي قام به خير الدين بربروس، ووصفوه بـ"المجاهد في سبيل الله" و"ناصر الدين"، وتحدثوا عن سعيه الحثيث لنصرتهم وإنقاذهم في الوقت الذي خذلهم أهل المغرب حسب ما جاء في الرسالة، "وطالت بنا الأيام، وعاشت فينا يد النكاية والإيلام، وخذلنا جيراننا وإخواننا ببلاد المغرب من أهل

الإيمان، وقد كان بجوارنا الوزير المكرم، المجاهد في سبيل الله خير الدين...؛ فاستغثنا به فأغاثنا، وكان سببا في خلاص الكثير من المسلمين"⁵¹، وبأنه جعل من الجزائر ملاذا لهم، واستقبلت مدن شرشال وتلمسان العديد منهم، وهذا هو سبب قيام الإسبان بحملة عسكرية على الجزائر حسبهم؛ "فلما سمع الكافر اللعين بذلك، ولم يقدر على منعنا بالسياسة والإهانة والحرق بالنيران...، واتفق رأيهم المعكوس وتديبرهم المنكوس على قتال الجزائر، ليلا يبقى ببلاد المغرب لأهل الاسلام ناصر"⁵²، الحملة العسكرية التي ذكرها الموريسكيون هي حملة شارلكان على الجزائر سنة 1541م⁵³، وهذا يؤكد أنهم كانوا مطلعين على كل الأحداث التي كانت تجري في المنطقة، "المدد المدد لنصرة الجزائر لأنها سياج لأهل الإسلام"، كما كانوا يعلمون بمغادرة خير الدين بربروس للجزائر إذ طالبوا السلطان سليمان القانوني في آخر الرسالة بإعادة إرساله إلى الجزائر: "إرسال المجاهد خير الدين باشة إلى الجزائر؛ فإنه لهذا الوطن نعم ناصر"⁵⁴.

يبدو أن الرسالة حركت مشاعر الحمية لدى السلطان سليمان القانوني؛ فاستدعى خير الدين بربروس سنة 1543م، وطلب منه الالتحاق بالباب العالي لتقلد منصب قبطان داريا في الأسطول العثماني، وعند وصوله لتسلم مهامه الجديدة، وفي حفل أقيم على شرفه حضره السلطان وأغلب الوزراء ذكر خير الدين في مذكراته أن السلطان سليمان أخذه على انفراد، "وبعد أن انفض الاجتماع خلاي السلطان خان، وأعلمني بأنه يريد غزو إسبانيا"⁵⁵، لكن هذا المشروع ظل مجرد فكرة؛ فما الذي حدث بعدها بالضبط وحال دون تحقيقه؟

عند تتبع مسيرة السلطان سليمان القانوني نجد أنه بعث الجهاد ضد القوى الأوروبية، وخاض معهم حروبا طويلة، وانتعشت الفتوحات في عهده مرة أخرى، وربما هذا هو السبب الذي أبعده عن إنجاز الموريسكيين، كثرة حروبه وفتحه لجهات كثيرة ليس في أوروبا فحسب، بل وفي بلاد العجم واليمن وبلاد المغرب؛ فخاض حربا ضد المجر، وقام بفتحها سنة 1521م⁵⁶، كما فتح جزيرة رودوس في السنة الموالية⁵⁷، وضرب حصارا طويلا على النمسا سنة 1529م⁵⁸، وخاضت أساطيله حروبا بحرية مع الأدميرال أندري دوريا⁵⁹، ثم عرج على تبريز وبغداد ففتحهما سنة 1534م⁶⁰، وتونس في السنة الموالية⁶¹، وانتقل بعد ذلك لافتكالك عدن من البرتغاليين سنة 1538م، وحاصر جزيرة هرمز وغيرها من الحروب والمعارك⁶².

بالإضافة إلى هذا لم تخلو فترة حكمه من الدسائس والمنافسات داخل القصر بينه وبين أبنائه؛ ففي مدة وجيزة خسر السلطان سليمان ثلاثة من أولاده بسببها؛ فقد أمر بقتل ابنه

مصطفى سنة 1553م بسبب مكيدة حاكتها ضده إحدى زوجاته⁶³ ، وبعد فترة قصيرة من هذه الحادثة التي هزت أركان الباب العالي فقد ابنه الثاني جهانكير الذي توفي حزنا على شقيقه مصطفى، وفي سنة 1561م أمر مجددا بقتل ابنه بايزيد وأبنائه الأربعة أورخان ومحمود وعبد الله وعثمان⁶⁴ ، في خضم هذه الأحداث ضاع مشروع غزو إسبانيا، ولم يتمكن السلطان سليمان القانوني من تجسيده على أرض الواقع.

الخاتمة: عاش النصارى في الأندلس مئات السنين دون أن يتعرضوا لمكروه، ولما انتهى حكم المسلمين لم يحظ الأندلسيون بهذه المعاملة من طرف الإسبان الذين ارتكبوا في حقهم أبشع الجرائم، وأجبروهم على التخلي عن دينهم ولغتهم وممتلكاتهم.

لم يجد الموريسكيون من وسيلة إلا الاستنجاد، وطلب المدد والعون من الأشقاء في بلاد المغرب والمشرق؛ فأرسلوا رسائلها ضمونها ما كانوا يتعرضون له من اضطهاد قل له مثل. لا نستطيع أن نحصر عدد الرسائل؛ فقد تكون بعضها ضاعت، ولم تصل إلى وجهتها، وتشابهت هذه الرسائل في وصف تفاصيل المحنة التي أصابهم على يد الإسبان لكنها اختلفت في غايتها وتاريخ إرسالها.

واحدة من هذه الرسائل أرسلت لفتية من مدينة وهران يستفتونه في كيفية التعامل مع إجراءات التنصير التي فرضت عليهم؛ فاجتهد الشيخ المغراوي في تقديم فتوى تتلاءم مع محتهم على عكس علماء آخرين أفتوا بعدم جواز بقائهم في الأندلس بعد نهاية حكم المسلمين.

الرسالتان الباقيتان وجهت لسلطين الدولة العثمانية: واحدة أرسلت للسلطان بايزيد الثاني، والثانية أرسلت بعد عدة سنوات للسلطان سليمان القانوني يطلبون فيها التدخل لحمايتهم، وإنقاذهم من الإبادة التي كانوا يتعرضون لها.

لم يحصل الموريسكيون على الدعم العسكري من الدولة العثمانية مثلما كانوا يأملون على الرغم من القوة التي تميزت بها الدولة في ذلك الوقت بسبب انشغال سلاطينها بالجهاد، وفتحهم لعدة جهات في المشرق والمغرب وأوروبا.

الملاحق:

الملحق رقم 1: رسالة الموريسكيين إلى الفقيه المغراوي: الفتوى التي أرسلها الفقيه أبو عبد الله المغراوي إلى الموريسكيين المؤرخة في 1 رجب 910هـ/28 نوفمبر 1504م "الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما، إخواننا القابضين على دينهم كالقابض على الجمر، من أجزل الله ثوابهم فيما لقوا في ذاته، وصبروا النفوس والأولاد في مرضاته، الغرياء القرباء إن شاء الله، من مجاورة نبيه في الفردوس الأعلى من جناته، وارثو سبيل السلف

الصالح في تحمل المشاق، وإن بلغت النفوس إلى التراق، نسأل الله أن يلطف بنا، وأن يعيننا وإياكم على مراعات حقه بحسن إيمان وصدق، وأن يجعل لنا ولكم من الأمور فرجا، ومن كل ضيق مخرجا، بعد السلام عليكم، من كاتبه إليكم، من عبيد الله أصغر عبيده وأحوجهم إلى عفوه ومزيده عبيد الله تعالى أحمد ابن بوجمعة المغراوي ثم الوهراني كان الله للجميع بلطفه وستره سائلا من إخلاصكم وغريبتكم حسن الدعاء بحسن الخاتمة، والنجاة من أهوال هذه الدار، والحشر مع الذين أنعم الله عليهم من الأبرار، ومؤكدا عليكم في ملازمة دين الإسلام، أمرين به من بلغ من أولادكم إن لم تخافوا دخول شر عليكم من إعلام عدوكم بطويتكم؛ فطوبى للغرباء الذين يصلحون إذا فسد الناس، وإن ذكرا الله بين الغافلين كالحي بين الموتى؛ فاعلموا أن الأصنام خشب منجور، وحجر جلمود لا يضر ولا ينفع، وأن الملك ملك الله، ما اتخذ الله من ولد، وما كان معه من إله؛ فاعبدوه واصطبروا لعبادته؛ فالصلاة ولو بالإيماء، والزكاة ولو كأنها هدية لفقيركم أو رياء، لأن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن إلى قلوبكم، والغسل من الجنابة ولو عوما في البحور، وإن منعتم فالصلاة قضاء بالليل لحق النهار، وتسقط في الحكم طهارة الماء، وعليكم بالتيمم ولو مسحاً بالأيدي للحيطان؛ فإن لم يمكن؛ فالمشهور سقوط الصلاة وقضاؤها لعدم الماء والصعيد، إلا أن يمكنكم الإشارة إليه بالأيدي والوجه إلى تراب طاهر أو حجر أو شجر مما يتيمم به؛ فاقصدوا بالإيماء نقله ابن ناجي في شرح الرسالة لقوله عليه السلام؛ فأتوا منه ما استطعتم، وإن أكرهوكم في وقت صلاة إلى السجود للأصنام أو حضور صلاتهم فأحرموا بالنية، وانووا صلاتكم المشروعة، وأشيروا لما يشيرون إليه من صنم ومقصودكم الله، وإن كان لغير القبلة تسقط في حركم كصلاة الخوف عند الالتحام، وإن أجبروكم على شرب الخمر لا بنية استعماله، وإن كلفوا عليكم خنزيرا فكلوه ناكرين إياه بقلوبكم، ومعتقدين تحريمه، وكذا إن أكرهوكم على محرم، وإن زوجوكم بناتهم فجائز لكونهم أهل الكتاب، وإن أكرهوكم على إنكاح بناتكم منهم؛ فاعتقدوا تحريمه لولا الإكراه، وإنكم ناكرون لذلك بقلوبكم، ولو وجدتم قوة لغيرتموه، وكذا إن أكرهوكم على ربا أو حرام فافعلوا منكرين بقلوبكم، ثم ليس عليكم إلا رؤوس أموالكم، وتتصدقون بالباقي إن تبتم لله تعالى، وإن أكرهوكم على كلمة الكفر؛ فإن أمكنكم التورية والألغاز فافعلوا، والا فكونوا مطمئني القلوب بالإيمان إن نطقتم بها ناكرين لذلك، وإن قالوا اشتموا محمدا فإنهم يقولون له ممد فاشتموا ممد، ناوين أنه الشيطان أو ممد اليهود فكثير بهم اسمه، وإن قالوا عيسى ابن الله فقولوها إن أكرهوكم، وانووا إسقاط مضاف أي عبد الله مريم معبود بحق، وإن قالوا قولوا المسيح ابن الله فقولوها إكراها، وانووا بالإضافة للملك كبيت الله لا يلزم أن يسكنه أو يحل به، وإن قالوا

قولوا مريم زوجة له فانووا بالضمير ابن عمها الذي تزوجها في بني إسرائيل، ثم فارقها قبل البناء، قاله السهيلي في تفسير المهم من الرجال في القرآن، أو زوجها الله منه بقضائه وقدره، وإن قالوا عيسى توفي بالصلب فانووا من التوفية والكمال والتشريف من هذه، وإماتته وصلبه وإنشاد ذكره، وإظهار الثناء عليه بين الناس، وأنه استوفاه الله برفعه إلى العلو، وما يعسر عليكم فابعثوا فيه إلينا نرشدكم إن شاء الله على حسب ما تكتبون، وأنا أسأل الله أن يدل الكثرة للإسلام حتى تعبدوا الله ظاهرا بحول الله من غير محنة ولا وجلة، بل بصدمة الترك الكرام، ونحن نشهد لكم بين يدي الله أنكم صدقتم الله ورضيتم به، ولا بد من جوابكم، والسلام عليكم جميعا، بتاريخ غرة رجب عام عشرة وتسع مائة، عرف الله خير، يصل إلى الغيباء إن شاء الله تعالى". (محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس نهاية الأندلس، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط4، 1997، ج 4 صص342-344).

الملحق رقم 2: رسالة الموريسكيين للسلطان بايزيد الثاني: رسالة الموريسكيين للسلطان العثماني بايزيد "الحضرة العلية وصل الله سعادتها، وأعلى أنصارها، وأذل عدائها، حضرة مولانا وعمدة ديننا ودينانا، السلطان الملك الناصر، ناصر الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، قانع أعداء الله الكافرين، كهف الإسلام، وناصر دين نبينا محمد عليه السلام، معي العدل، ومنصف المظلوم ممن ظلم، ملك العرب والعجم والترك والديلم، ظل الله في أرضه، القائم بسنته وفرضه، ملك البرين، وسلطان البحرين، وحامي الذمار، وقانع الكفار، مولانا وعمدتنا، وكهفنا وغيائنا، مولانا أبو يزيد، لازال ملكه موفور الأنصار، مقرونا بالانتصار، مغلد المآثر والآثار، مشهور المعالي والفخار، مستأثرا من الحسنات ما يضاعف الله به الأجل الجزيل، في الدار الآخرة والثناء الجميل، والنصر في هذه الدار، ولا برحت عزماته العلية مختصة بفضائل الجهاد، مجردة على أعداء الدين من بأسها، ما يروي صدور السمر والصفاح وألسنة السلاح، بأذلة نفائس الذخائر في المواطن التي تألف فيها الأخائر مفارقة الأرواح للأجساد، سالكة سبيل السابقين الفائزين برضا الله وطاعته يوم يقوم الأشهاد"، واتبعت الرسالة بقصيدة طويلة تجاوزت المئة بيت يصفون فيها ما كانوا يكابدونه على يد الإسبان. (شهاب الدين أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، أزهار الرياض في أخبار عياض، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1939، ج1ص108 وما بعدها).

الملحق رقم 3: رسالة الموريسكيين للسلطان سليمان القانوني: "بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الكريم وعلى آله وصحبه، يقبل مواطي الأقدام الشريفة التي ثراها إذا مر بالعيون الرمدة أبراهما، ورحاب الأكف الكريمة التي كذا عطاها كذا،

إذا مر بالأرض المحملة أتراها، أقدام شأنها السعي من الخيرات والقربات، وأكف شأنها فعل الخيرات والمكرمات، أدام الله أيامها ونصر أعلامها، وأوطأ كذا ركابها أعناق الملحدين والمتمردين، وأنعشه في كل وقت بنصر وفتح مبین، نسأل كذا الله تعالى أن يجعله أركابا لم يزل ممتطيا مطايا السعيد، محفوف بالسعود، قطبا للسيادة السلطانية عليه تدور وبه تسود، وأن يجعله دائما نسيم الخلافة العلية في منصب الوراثة، وحائز الفضيلة السنوية من خدمة المساجد الثلاثة، وله ملك مصر وأنهارها، والشام وديارها، والحجاز وشرف مقدارها، وإلى حضرته مجتمع الرفاق من الآفاق، وإلها الأجسام بالرحلة والأفئدة بالأشواق، وعلى جمع تلك الحضرة العلية المحاسن الدين والدنيا، انعقد الإجماع والإصفاق- كذا، مولانا السلطان الملك الأشرف الأضخم الأرفع الأعرف الأعلم الأحلم الأرحم الأرف- كذا- الأجود الأكرم الأسمع الأعطف، قانع الملحدین، وقاطع دابر الطغاة- كذا- والبغاة- كذا- والمردة والمفسدين، ممد طريق الحج والعمرة والزيارة، الفايز بشرف الدين والدنيا من الجهاد في سبيل الله، والسقاية في المسجد الحرام والعمارة، مطهر البسيطة من درن فسادها، ومظهر آيات الرأفة والرحمة في بلادها، سلطان الإسلام والمسلمين، عز الدنيا والدين، وظل الله على الخليفة أجمعين، السلطان بن السلطان بن السلطان، السلطان سليمان بن السلطان سليم بن السلطان بايزيد بن محمد خان، مد الله ظلال النعمة بامتداد ظلاله، وضاعف لديه مواهب إكرامه وأفضاله، وأدام نجم سعده المنير باهر الإشراق، وجعل سهم ضده الحقيير لازم الإخفاق، وحفظ بشهب أولياء مجده من مردة النفاق جميع الأقطار والآفاق؛ فهو الإمام الهمام، والأسد الباسل الضرغام، الذي مهد الله تعالى بدولته البلاد، وأمن ببركة إيلته في مسالكها وممالكها العباد، ومزق به ثوب الفساد، وقطع بسيفه وسنانه وبادرتي قلمه الأعلى ولسانه دابر أهل العناد؛ فسعد الإسلام بدولته، واعتز دين الله العزيز في مدته، وخمدت نيران البغي بسعادته، وامتدت الأمانی، وشمل الأمان بحسن سياسته، نسأل- كذا- الله تعالى أن يصل لسيدنا ومولانا عادت- كذا- نصره وتمكينه، ويريه قرّة العين في دنياه ودينه وبعد: فإن عبيدكم الفقرا- كذا- المساكين المنقطعين بجزيرة الأندلس، وجملة عدتهم ثلثمائة ألف وأربعة وستون ألف منهم من رساهم بغرناطة وغيرها خمسون، والباقي من عامة المسلمين، رافعين شكواهم وما يلاقون من بلواهم، باكين متضرعين مستنصرين بعناية مولانا السلطان دام عزه ونصره لما أصابهم من أعداء الدين وطغاة المشركين وما هم فيه من مكابدة الكفار، ومقاساة- كذا- التضيق والأضرار، وجور أهل الشرك أثناء الليل وأطراف النهار، وتحريقهم إيانا بالنار، قد تكالب العدو علينا، ومدد السوء والضرر إلينا، وأحاطت بنا الأعداء من كل جانب، ورمونا عن قوس واحد بسهم صايب، وطالت

بنا الأيام، وعاشت فينا يد النكاية والإيلام، وخذلنا جيراننا وإخواننا ببلاد المغرب من أهل الإيمان. وقد كان بجوارنا الوزير المكرم، المجاهد في سبيل الله خير الدين وناصر الدين وسيف الله على الكافرين، علم بأحوالنا، وما نجده من عظيم أهوالنا لما كان بالجزائر، واجتمعت أهل الإسلام على طاعة مولانا ومحبتته بالخواطر والضمائر- كذا- وانتظم العدل والشرع والأمان في البادي والحاضر؛ فاستغثنا به فأغاثنا، وكان سببا في خلاص كثير من المسلمين من أيدي الكفرة المتمردين، ونقلهم إلى أرض الإسلام، وتحت إيالة طاعة مولانا السلطان، ولعمارة مدينة برشك وشرشال ونواحي تلمسان؛ فلما سمع الكافر اللعين بذلك، ولم يقدر على منعنا بالسياسة والإهانة والحرق بالنيران، علم أننا اخترنا المصيبة في الأهوال والأبدان، وأثرنا ديننا على ساير الأديان؛ فلما صدقت الضماير، وبلغت القلوب الحناجر، خاف من عصبتنا واجتماع كلمتنا، وتركنا أموالنا وأوطاننا وهجرتنا وفرارنا إلى بلاد الإسلام لسلامة ديننا، تحاير في أمره، وجمع إليه أهل تديبه وحزبه؛ فدبروا ومكروا، وهل يحق المكر السيء إلا بأهله؟ واتفق رأيهم المعكوس وتديبرهم المنكوس على قتال الجزائر، ليلا يبقى ببلاد المغرب لأهل الإسلام ناصر؛ فعاقبهم الله بعقاب أصحاب الفيل، وجعل كيدهم في تضليل، وأرسل عليهم ربح عاصف وموج قاصف- كذا؛ فجعلهم بسواحل البحر ما بين أسير وقتيل، ولا نجا منهم من الغرق قليل، والآن اشتد غيظهم على أهل الإسلام، وهم يتوسلون بالرهبان والأصنام، ونحن نتوسل بسيد الأنام إلى موجب الوجود ذو- كذا- الجلال والإكرام، وهم عازمين- كذا- على الجزائر، والله تعالى هللكم وينصر دينه وهو نعم الناصر، يا مولانا سلطان البرين والبحرين نصركم الله، المدد المدد لنصرة الجزائر لأنها سبب سبب لأهل الإسلام، وعذاب وشغل لأهل الكفر والطغيان، وهي موسومة باسمكم الشريف، وتحت إيالة مقامكم المنيف، وقد أصبحت القلوب المنكسرة بها عزيزة، والرعية المختلفة بها مؤتلفة أليفة، وطراز رونقها المجاهد في سبيل الله عبدكم الوزير الأجل خير الدين، الممثل لأوامر مولانا، ونتاج عز الدنيا والدين؛ فإنه أحيا هذا الوطن وجميع النواحي والسكن، وأرعب قلوب الكفار، وخرّب ديار المردة والفجار، وأظهر نظام السلطنة العثمانية وأحكام مولانا نصره الله حتى تزينت بها الديار والأمصار؛ فنزغ ونطلب من مولانا نصره الله فيما يراه من إرساله لهذا الوطن إن رءا- كذا- مولانا صلاح- كذا-؛ فذلك؛ فيكون ذلك غاية الإحسان لجميع أهل الإسلام، وقهر ونكاية لحزب الشيطان، وقد اتفق جمعنا من المسلمين المذكورين على رفع الشكوى- كذا- إلى مولانا السلطان الأعظم سلطان الإسلام، لا زال بالعز موصوف- كذا- وبالهاء والنصر محفوف- كذا- بأن يغيثنا بإرسال المجاهد خير الدين باشة- كذا- إلى الجزائر؛ فإنه لهذا الوطن نعم ناصر، وجميع أهل الشرك منه خايف وحائر- كذا- والسلام التام على المقام

الشريف العالي ورحمة الله، بتاريخ أوائل شهر شعبان أحد شهور سنة ثمانية وأربعين وتسعمائة باقيا راقيا في درجات العز والملك إلى آخر الدهر، مصونا في حرز كنف الله الحريز، وأن يخرق له العادة بطول بقاية، وما ذلك على الله بعزير، ركاب حضرة الجود، ورواق العز الممدود، ومعدن الرأفة والحنان، ومأمّن الخايف اللهفان، ومضمن أن الله يأمر بالعدل والإحسان، حضرة فخر ملوك البسيطة، ودرّة تلك السلوك الوسيطة. كبير سلاطين الزمان، منيل أفانين الأمانى والأمان، الملاذ الأعظم والشمال الأعصم، ذي العروة التي- كذا- لا تفصم، والحجة التي كذا- لا تخصم، الذي يعترف له القاصي والداني بالفضل على الإطلاق، يبوئه رتبة الأصاله والجلالة بالاستحقاق ولما لا وهو". (عبد الجليل التميمي، الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين الأندلسيين، مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات، زغوان، تونس، 1989، ص34 وما بعدها)

الفهارس:

- 1- يعود أصل بنو الأحمر إلى أرجونة من حصون قرطبة، وكانوا من أصحاب الواجهة في ناحيتهم وينتسبون إلى سعد بن عبادة سيد الخرج وكبيرهم أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد بن خميس بن نصر بن قيس الخزرجي مؤسس الدولة النصرية ويلقب بالغالب بالله ويعرف بالشيخ وأبي الدبوس لمزيد من المعلومات أنظر عبد الرحمن ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون ، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2000، ج4 ص218/لسان الدين بن الخطيب، للمحة البديرة في الدولة النصرية، المطبعة السلفية، القاهرة، 1347، ص30-2- شهاب الدين أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، أزهار الرياض في أخبار عياض، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1939، ج1 ص64.
- 3- عنان، المرجع السابق ، ص176-4- نفسه، ص180-5- المقرئ، المصدر السابق، ج1 ص66-6- مجهول، نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر، تحقيق ألفريد البستاني، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد، 2002، ص37-7- نفسه، ص40-8- المقرئ، المصدر السابق، ج1 ص67-9- الموريسكيون: ظهر هذا المصطلح في أوائل القرن السادس عشر وأطلق على المسلمين الذين اختاروا البقاء في وطنهم والخضوع لحكم المسيحيين واجراءات التنصير فيما بعد. لمزيد من المعلومات أنظر جمال عبد الكريم، الموريسكيون تاريخهم وأديهم، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة، ص6 وما بعدها.
- 10- أنطونيو دومينغيث أورتيث، تاريخ الموريسكيين حياة ومأساة أقلية، ترجمة محمد بنيابة، هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، أبوظبي، 2013، ص20-11- علي مظهر، محاكم التفتيش في إسبانيا والبرتغال وغيرها، المكتبة العلمية، القاهرة، ص26.
- 12- يعود تاريخ إنشاء محاكم التفتيش إلى سنة 1329م حيث اجتمع رجال الكنيسة الكاثوليكية في مدينة تولوز، وقرروا تأسيس محكمة تحاكم كل من اهتم في دينه، وكل من كان على دين آخر مثل اليهود والبروتستانت والمسلمين المقيمين في أوروبا. وفي سنة 1333 اعطيت الأوامر إلى كل الكنائس الكاثوليكية بتعيين كاهن مهمته البحث عن المرتدين، وسمح له بالاستعانة بالجواسيس، وأطلق على هذه المحاكم في البداية الديوان المقدس، التفتيش المقدس، وعلى الرغم من وجود مثل هذه المحاكم في فرنسا وإيطاليا إلا أنها لم تقم بما قامت به المحاكم في إسبانيا والبرتغال؛ فقد قدر عدد ضحايا محاكم التفتيش في إسبانيا والبرتغال بحوالي 900 ألف بين سنوات 1333 و1835م. لمزيد من المعلومات أنظر مظهر، المرجع السابق، صص51-52.
- 13- علي مظهر، المرجع السابق، ص27-14- التميمي، المرجع السابق، ص27-15- أنظر الملحق رقم 1-16- أحمد بابا التنبكتي، نيل الأبتهاج بتطريز الديباج، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، 1989، ص580-17- محمد البشير ظافر الأزهرى، البواقيت الثمينة في اعيان مذهب عالم المدينة، جمعية العروة الوثقى، 1324هـ/1905م، ص16-18- عبد العي بن عبد الكبير الكتاني، فهرس الفهارس والاثبات، تحقيق احسان عباس، دار الغرب الاسلامي، تونس، ج2 ص1065/محمد بن محمد بن عمر بن قاسم مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، تحقيق عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003، ج1 ص400.

- 19- أحمد بن أبي جمعة المغراوي، جامع جوامع الاختصار والتبيان، تحقيق أحمد جلولي البدوي ورايح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص6-20-التنبيكي، المصدر السابق، ص580.
- 21- أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة بن موسى الضحاك الترمذي، سنن الترمذي، تحقيق رائد بن صبري بن أبي علقمة، دار الحضارة للنشر والتوزيع، الرياض، ط2، 2015، ص450-22- محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ص342-23- نفسه، ص344-24- مجهول، المصدر السابق، صص40-41-25-التنبيكي، المصدر السابق، صص561-562-26- ابن مخلوف، المصدر السابق، ج1 ص378-التنبيكي، المصدر السابق، صص561-28-التنبيكي، المصدر السابق، صص562-29- المقرئ، المصدر السابق، ج1 ص112/دومينغيث أورثيث، المرجع السابق، صص25-30- فون شك، الفن العربي في اسبانيا وصقلية، ط2، دار المعارف، القاهرة، 1985، ص126-31- في تعليقه على فتوى عدم جواز بقاء المسلمين في بلاد تغلب عليها النصرارى حمل حسين مؤنس ما أصاب الموريسكيين من محنة للفقهاء الذين رحلوا من الأندلس وتركوهم يجاهون حقد الاسبان بمفردهم «مسؤولية الشيوخ واضحة إذ لم يكفهم أن يفروا بأنفسهم مخلفين أهل دينهم بل حرموا البقاء على من أراده من الرؤساء وطلبوا إليهم الهجرة ومعنى ذلك ترك الضعفاء وحدهم يفعل العدوهم ما يريد». لمزيد من المعلومات أنظر أبو العباس أحمد بن يحيى بن محمد التلمساني الونشريسي، أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصرارى ولم يهاجر وما يترتب عليه من العقوبات والزواج، تحقيق حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد، مصر، 1996، ص17-32- نفسه، ص22 وما بعدها.
- 33- السلطان بايزيد الثاني (1481-1512) ثامن سلاطين الدولة العثمانية ابن السلطان محمد الفاتح فاتح القسطنطينية 1453، تميزت فترة حكمه بالسلم وقلة الحروب لمزيد من المعلومات أنظر محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق إحسان حقي، دار النفائس، بيروت، 1981، ص179 وما بعدها-34- أنظر الملحق رقم 2-35- المقرئ، المصدر السابق، ج1، ص108 وما بعدها-36- نفسه، ج1 ص115-37- المحامي، المصدر السابق، ص180-38- نفسه، ص52-39- نفسه، ص180-40- نفسه، صص181-180-41- والاسبان كانوا يدركون ذلك جيدا فقد ذكر مترجم كتاب العز والمنافع ابن القاسم الحجري أن الاسبان كانوا يخافون من الدولة العثمانية وتوارثوا ذلك الخوف جيلا بعد جيل «حصلت الروعة الموروثة خوفا منهم في قلوب النصرارى» وظل هذا الخوف مسيطرا عليهم ليلا ونهارا لمدة طويلة وكان عندهم أمل في انقراض دولتهم عند وصولها إلى السلطان السادس عشر لكن أملهم خاب واستمرت الدولة. لمزيد من المعلومات أنظر ابن غانم الرياش الأندلسي، العز والرفعة والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع، تحقيق احسان الهندي، هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، أبوظبي، الامارات العربية المتحدة، 2013، ص258.
- 42- خير الدين بربروس، تحقيق محمد دراج، مذكرات خير الدين، شركة الأصالة، الجزائر، 2010، ص10-43- بربروس، المصدر السابق، ص21/المحامي، المصدر السابق، ص233-44- نفسه، صص54-45- مظهر، المرجع السابق، ص21-46- السلطان سليم الأول (1512-1520): تاسع سلاطين الدولة العثمانية، كان يلقب بـ"ياوز" أي القاطع، في عهده ضمت الدولة العثمانية كل من مصر الشام والجزائر. لمزيد من المعلومات أنظر المحامي، المصدر السابق، ص188 وما بعدها. 47- اسماعيل أحمد ياغي، الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي الحديث، مكتبة العبيكان، الرياض، 1996، ص237-48- أنظر الملحق رقم 3.
- 49- السلطان سليمان القانوني(1520-1566): عاشر سلاطين الدولة العثمانية، سمي بالقانوني لتفعيله بعض القوانين في فروع الحكومة، وإدخاله تعديلات في نظام العلماء والمدرسين، تميزت فترة حكمه بالفتوحات وكثرة الحروب. لمزيد من المعلومات أنظر المحامي، المصدر السابق، ص198 وما بعدها-50- التميمي، المرجع السابق، صص36-51- نفسه، صص36-37-52- نفسه، صص37-53- قام شارلكان بتنظيم حملة عسكرية لاحتلال الجزائر في شهر أكتوبر سنة 1541م، ضمت هذه الحملة 36 باخرة كان على متنها 12330 بحريا و23900 من أفراد الجيش البري، ورغم ضخامة هذه الحملة إلا أنها فشلت في الوصول إلى هدفها، وهو احتلال الجزائر إذ تحطمت اغلب السفن والعتاد الحربي من مدفعية وذخيرة بسبب صمود الجزائريين وسوء الأحوال الجوية. لمزيد من المعلومات أنظر مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، ج3 ص64 وما بعدها.
- 54- التميمي، المرجع السابق، ص37-55- بربروس، المصدر السابق، صص164-165-56- المحامي، المصدر السابق، ص199-57- نفسه، ص205-58- نفسه، ص216-59- نفسه، صص218-219-60- نفسه، ص222-61- نفسه، ص232-62- نفسه، ص239-63- نفسه، صص246-247-64- نفسه، ص248.

العلاقات التجارية بين إيالة الجزائر ومملكة الدنمارك
في نظر القنصل لودلف هامكين (1746-1751م)
Trade relations between the Algerian state and the Kingdom
of Denmark in the eyes of Consul Ludolf Hammeken.
(1746-1751)

اسم ولقب المؤلف المرسل: صرهودة يوسف- sarhoudayousfi صص 229-248
الدرجة والعنوان المهني: أستاذ محاضر في التاريخ الحديث- جامعة باجي مختار- عنابة.
البريد الإلكتروني: yousfisarhouda@gmail.com

تاريخ استقبال المقال: 2019/12/07 تاريخ المراجعة: 2020/01/20 تاريخ القبول: 2020/02/20

ملخص: يهدف هذا المقال الموسوم بـ"العلاقات التجارية بين إيالة الجزائر ومملكة الدنمارك في نظر القنصل لودلف هامكين Ludolf Hammeken (1746-1751م)" إلى التعريف بأهم ركائز العلاقات التجارية بين الإيالة والمملكة التي تعرّض لها لودولف هامكين؛ أول قنصل يمثّل الإتحاد الدنماركي الترويجي في إيالة الجزائر؛ الذي عُيّن بعد توقيع معاهدة السلام والصداقة بين الجزائر والدنمارك سنة 1746م، بين داي الجزائر إبراهيم باشا وممثّل كرستيان السادس ملك الدنمارك والترويج، وسنتعرّض للموضوع من خلال مجموعة الرسائل الشبيهة بالتقارير حول الإيالة التي بلغت ثمانين رسالة، موجّهة لغرفة التجارة، وتعرّض فيها لعدّة نقاط مهمة تخصّ مداخل خزينة الإيالة من الهدايا التي تقدّمها الدول الأوربية، والهدايا التي يقدّمها داي الجزائر لملك الدنمارك، وقد عمل لودولف هامكين على رعاية مصالح مملكة الدنمارك والترويج في الجزائر، وعقد الصفقات التجارية التي كانت تتمّ مع الفاعلين الاقتصاديين، وهم حسب تقاريره الداي والمهود الذين كان لهم الأثر الواضح في اقتصاد الإيالة، والقناصل، وبخاصّة قنصلي فرنسا والسويد.

وللحفاظ على مصالح الدنمارك التجارية في الجزائر قدّم القنصل هامكين مجموعة من المقترحات في أكثر من رسالة أهمّها: تقديم الهدايا في موعدها المحدّد، وتفادي التأخير، كما اقترح منافسة قنصل السويد بتقديم أفضل المنتوجات الدنماركية،

وإرسال العتاد الحربي الذي تطلبه سلطة الإيالة، وبالمواصفات التي يطلبها الداي، كما أشار في أكثر من رسالة إلى السلع التي يجب توريدها للجزائر، وقام القنصل بعقد عدّة صفقات في الإيالة بالعملة الإسبانية البياستر.

الكلمات المفتاحية: تجارة- إيالة الجزائر- قنصل- الدنمارك- امتيازات- لودلف هامكين- اليهود- الداي- السويد- هدايا.

Abstract: *This article, tagged with "Trade relations between the Algerian state and the Kingdom of Denmark in the eyes of Consul Ludolf Hammeken. (1746-1751) " to introduce the most important pillars of trade relations between the Ayala of Algeria and the Kingdom to which Ludolf Hammeken the first consul representing the Danish-Norwegian Union in Algeria, was appointed after the signing of the Treaty of Peace and Friendship between Algeria and Denmark 1746, between Dey of Algeria Ibrahim Pasha, The representative of Christian VI of Denmark and Norway kingdom, and we will be exposed to the topic through the series of letters similar to reports on the mandate, which amounted to 80 letters addressed to the Chamber of Commerce, in which it presents several important points: the income of the treasury of the Ayala from gifts provided by European countries, and gifts provided by the Dey of Algeria for the King of Denmark, Ludolf Hammeken worked to take care of the interests of the Kingdom of Denmark and Norway in Algeria and to make trade deals with economic actors, namely, The Dey, the Jews who had a clear impact on the economy of the Ayala and consuls, especially the Consuls of France and Sweden.*

In order to preserve Denmark's commercial interests in Algeria, Consul Hammeken made a series of proposals in more than one letter, the most important of which is: to give gifts on time and avoid delays, as he suggested competing with the Consul of Sweden to provide the best Danish products, and to send the military equipment requested by the Authority, With the specifications requested by The Dey of Algeria, as he pointed out in more than one letter to the goods to be supplied to Algeria, the consul made several transactions in the Spanish currency Of piaster.

Keywords: Trade- Algeria- Consul- Denmark- Privileges- Ludolf Hammeken- Jews- Day- Sweden- gifts.

مقدمة: وقّعت إيالة الجزائر مع مملكة الدنمارك والترويج سنة 1746م بين الداي إبراهيم باشا (1745-1748م) المعروف في الكتب باسم إبراهيم كوجوك أو "كوتشوك"¹ وممثل ملك الدنمارك والترويج كرستيان السادس، وتحتوى تلك المعاهدة على اثنين وعشرين بنداً، وترتيبات بنودها متشابهة بترتيبات المعاهدة مع السويد، وبموجبها مُنحت

صلاحيات عدّة للقنصل الدنماركي في الجزائر أهمّها: البند السادس عشر الذي ينصّ على أنّ القنصل هو الذي يفصل في التّزاع بين الدانماركيين في الجزائر.²

ويعتبر لودولف هامكين (Ludolf Hammeken) أوّل قنصل يمثّل الإتحاد النرويجي الدنماركي في إيالة الجزائر، وأقام فيها من 1746 إلى 1751م، وكتب مجموعة من الرّسائل إلى أطراف مختلفة في الدنمارك والنرويج وصل عددها إلى 80 رسالة شبيهة بالتقارير حول إيالة الجزائر؛ إذ تعرّض فيها لعدّة نقاط مهمّة تخصّ طبيعة صادرات وواردات إيالة، بالإضافة إلى الهدايا التي تتلقاها، كما تعرّض للشخصيات الفاعلة في تجارة إيالة.

وتعدّ هذه الرّسائل مادة خام لدراسة الوضع الاقتصادي كما وصفه هامكين، وسنحاول في هذا المقام التّعرّض للجانب التجاري لإيالة الجزائر، وذلك من منطلق التّساؤلات الآتية: كيف نُوظّف هذه الرّسائل في كتابة تاريخ العلاقات التجاريّة بين مملكة الدنمارك وإيالة؟ وما هي المقترحات التي قدّمها القنصل للسلطات التي يمثّلها للحصول على امتيازات تجاريّة في الجزائر؟

1- التّعريف بعينة الدّراسة: للإجابة عن الإشكاليّة كان لزاما علينا اختيار عينة تخدم هذه الدّراسة، حيث لجأنا إلى مجموعة رقم 3190، وتحتوي هذه المجموعة على معطيات تُثري الموضوع من جوانب عدّة أهمّها قوائم الهدايا التي تمنحها الدّول الأوروبيّة للجزائر مقابل السّلام والصّداقة، وأهمّ الوثائق التي اعتمدها في هذا المقام الوثيقة رقم 451، وهي عبارة عن قائمة بالعتاد الذي قدّمته مملكة الدنمارك لإيالة، والوثيقة 453، وتحتوي كذلك على المعدّات التي قدّمت كهدية من مملكة الدنمارك لإيالة، إلى جانب الوثائق الموجودة في الملفّ الثّاني من هذه المجموعة؛ إذ تحوي نماذجًا من الجوازات الممنوحة من قبّل الدّاي لبعض السّفن الأوروبيّة، إلى جانب رسائل أوّل قنصل نرويجي في إيالة الجزائر لودولف هامكين الذي أقام في الجزائر من 1746 إلى 1751م، والتي نشرها توربجورن أوديغارد (Torbjorn Odegaard)، كما وردت في نسختها الأصليّة المكتوبة باللّغة الفرنسيّة، ووضع لها عنوانًا: مراسلات لودولف هامكين أوّل قنصل دانماركي نرويجي في الجزائر 1751-1476

(les Correspondances de Ludolf Hammeken le premier consul Dano-Norvègien à Alger 1746-1751).

2- التّعريف بالقنصل: لم يكن بوسع التّجّار الأجانِب سواء منهم المقيمون بالجزائر لفترات طويلة أو محدودة ممارسة أنشطتهم بحريّة، ومن دون عائق، ومن دون سَنَد، وحماية دولتهم، هذه الحاجة الملّحة لحماية المصالح التّجاريّة لتلك الدّول، وأيضا حماية جاليّتها سواء المقيمة أو المتردّدة بين الفينة والأخرى على الجزائر هي التي جعلت العديد منها تسعى إلى إقامة قنصليات لها بالعاصمة، حيث تقع القنصليات الأوروبيّة في شارع القنصليات قرب باب الجزيرة، وكانوا يمتلكون منازل داخل المدينة، إلّا أنّهم يفضّلون الإقامة في منازلهم الواقعة في فحوص مدينة الجزائر³.

ولد لودلف هامكين في 1696م بمدينة بيرغن الواقعة على السّاحل الغربي للتّرويج، التابعة للدّنمارك في تلك الفترة؛ فهو نرويجي المولد، ولكن من أصل ألماني من جهة الأب⁴، دخل مجال التّجارة البحريّة بعد إفلاس والده⁵؛ فاشتغل في تصدير الأسماك المجقّفة وبيض الأسماك والزّفت والخشب إلى شمال إفريقيا.

ثمّ اشتغل في تجارة الأوراق الماليّة، والمستشار المّفوض للقنصل الهولندي في الجزائر بعد معاهدة السّلم بين إيالة الجزائر وهولندا والسّويد سنة 1730م، حيث اشتغل في القنصلية الهولنديّة (1726-1732م)، وكان داي الجزائر عبدي كردي (1724-1732م) قد وُصف في رسالة إلى السّلطات الهولنديّة عام 1731م بالكسول، ولا يمكن الاعتماد عليه؛ فتمكّن من تحقيق معاهدة السّلام بين الجزائر والدّنمارك سنة 1746م، وبذلك أصبح أوّل قنصل من أصل نرويجي يمثّل الدّنمارك في الجزائر منذ ذلك التّاريخ إلى سنة 1751م.

قضى لودولف هامكين السّنوات الأخيرة من حياته في تونس، حيث كرّر نجاح الجزائر (معاهدة السّلام 1746م)، عن طريق التّفاوض على المعاهدة في ديسمبر 1751م مع باي تونس علي باشا، ومنذ هذه السّنة اشتغل قنصلا للدّنمارك في تونس حتّى وفاته في ماي 1759م⁶.

ويعدّ القنصل في إيالة الجزائر أهمّ ممثّل لبلاده؛ فهو الدّبلوماسي الذي من واجبه أن يتعرّف على كلّ فروع الاقتصاد؛ ليصبح بالإمكان وضع تقديرٍ حقيقي للموارد التي يتوقّر عليها البلد المعني، وإلى جانب هذا فقد شرحت التّعليمات دور القنصل وعلاقاته برعايا بلاده؛ فمهمّته لها وجهين: مدّهم بيد المساعدة، والتّوجيه عند الاحتياج⁷، ومراقبة

تنفيذ المعاهدات المبرمة بين حكومته والدولة التي يقيم على أراضيها، إضافة إلى تطبيق المعاهدات التجارية⁸ بين الدولتين، والحث على تنفيذها، والتدخل في حال الحاجة إلى ذلك، وتقديم التهانى في المناسبات كالترتيع على العرش أو الانتصار في الحروب، كما يدخل في هذا الإطار تسليم الهدايا⁹، وكان للقناصل في إيالة الجزائر تأثيرًا في الحياة الاقتصادية؛ إذ كانت لهم علاقات مباشرة مع الدايات وأصحاب المراكز العليا.

3- أهمية الرسائل في كتابة التاريخ الاقتصادي للإيالة: تكمن أهمية هذه الرسائل الشبيهة بالتقارير في أنها تعطينا كمًا هائلًا من المعلومات عن الوضع الاقتصادي للجزائر في أواسط القرن الثامن عشر؛ فلودلف هامكين كان في المكان المناسب وفي الوقت المناسب عندما كان الأسطول الدنماركي الترويجي في حاجة إلى خبير في الظروف المحددة في الجزائر خلال مفاوضات معاهدة عام 1746م، خبرة يمتلكها هامكين في القنصلية الهولندية؛ فالرسائل تدل على خبرته ومكانته في عاصمة الإيالة، كما تعطينا فكرة عن طبيعة العلاقة التي جمعت بين بعض القناصل كالقنصل الفرنسي وبعض التجار اليهود، وتعطي هذه الرسائل أيضا فكرة واضحة عن طبيعة الهدايا التي تتلقاها، واحتياجاتها إلى تجهيزات السفن والمعدات الحربية.

من خلال الرسائل يبدو أن هامكين يعرف الظروف السائدة في الجزائر، وما يلفت النظر، ولا يمكن إنكاره بأي حال من الأحوال أنه مثل اثنين من الأمم الأوروبية المختلفة خلال مسيرته في مدينة الجزائر، لكن خطابه التي كتبها في الجزائر خلال عمله في القنصلية الدنماركية الترويجية تعرفنا على شخصية هذا القنصل الذي امتلك صفات للدفاع عن مصالح ولاته في إيالة الجزائر: الدقة في كتابة الرسائل لدرجة تقارب التقارير المفصلة؛ إذ كان يُتقن اللغات العربية والتركية، وكذلك الفرنسية اللغة التي كتب بها الرسائل.

4- مداخيل الإيالة من الدول الأوروبية: قدّم هامكين تقاريرًا مفصلة عن الهدايا التي تقدّمها الدول الأوروبية للجزائر من أجل الحصول على امتيازات، وشراء السلام لسفنها، وحثّ ملك الدنمارك وغرفة التجارة والاقتصاد على منافسة الدول الأوروبية، بخاصة السويد وهولندا لتقديم أفضل الهدايا، كما تطرّق لتحركات القراصنة، وللتوضيح ارتأينا أن نتطرّق إلى تلك المداخيل، كلّ واحدة لذاتها بدايةً بـ

1-4- الهدايا: تُؤمّن السّلطات للإيالة الأسلحة والذّخيرة من حكومات هولندا والدّنمارك والسّويد، وكان يأخذ هذه اللّوازم على شكل ضرائب، وهدايا تتمثّل في إرسال البارود والذّخيرة بأنواعها، إضافة إلى لوازم السّفن، ومن ذلك الرّسالة المؤرّخة في 30 ديسمبر 1746م "... كلّفني بإبلاغ الملك أن يُرسل له بدلاً من 24 قطعة من مدفع 24 بعبّار حُرّ، وقال: إنّه يريد أن يكون 24 قطعة من الكرة 18 جنيه، وبدلاً من 20 قطعة من الكرة مدفع 12، و24 قطعة من 12 جنيه، ويرسل إليه قاعدة لكلّ مدفع؛ لاستخدامها على متن السّفينة"، وقال: "كما كان دائماً يعمل به نظراً لعدم وجود الخشب في المكان؛ للقيام بذلك..."، ويبدو أنّ الدّاي لا يقبل الهدية¹⁰، كما ترسلها الدّول، وإنّما يضع مواصفاتها، ونلاحظ ذلك من خلال رسالة نفس القنصل التي يقول فيها: "... ولأنّقل لفخامتكم بأنّ الدّاي رفض قطعاً قذائف... قائلاً: إنّه يريد من البرونز حسب الاتّفاق أو بمعنى آخر حسب ميوله...، إنّ الاتّفاق ينصّ على أنّها من الحديد وليس من البرونز، ولكنّه لا يريد السّماع بهذا على العكس من ذلك، أجبرني على إعادة تحميلها في سفينة سوانهولم (Swanholm) بقيادة الكابتن جون...، محمّل بالملح لعودته إلى كوبنهاغن، وإنّ الدّاي ينتظر من صاحب الجلالة أن يُرسل له 4 قذائف... من البرونز في العام المقبل"¹¹.

هذا ما ذكره عزيز سامح ألتر، حيث أشار إلى أنّ الدّنمارك قدّمت أربعين مدفعاً وأربعين مدفعاً هاون، وستمائة قنبلة، وعشرين ألف قذيفة، وكمية من لوازم الإنشاءات، ولكنّ الجزائريين رفضوا قبول مدافع الهاون المصنوعة من الحديد الصّلب، واشتروا أن تكون مصنوعة من البرونز، وهدّدوهم بقطع العلاقات إذا خالفوا ذلك¹².

كما قدّم في 14 أكتوبر 1751م تقريراً مفصّلاً حول الهدية التي قدّمتها هولندا لإيالة الجزائر، والتّوقيت الذي غادرت فيه سفينتها، وجاء النّص كالآتي: "... وغادرت السّفينة الحربيّة الهولنديّة من هنا في يوم 10 الماضي إلى جبل طارق، وقدّم إلى الدّاي الهدية المتمثّلة في ساعة ذهب مزينة بالماس، وخاتم من الماس، وقطعتين ملاءة من الصّوف... ذات اللّون القرمزي، والأزرق...، قد ضاع من القبطان هوغلانت (Hooglant) واحد من المرساة في صوفيا، وطلبت واحداً من الدّاي، ووافق عليه أولاً، ووزنه ليطلبه السنّة القادمة واحد مثله، وأمر بتسليمه مع مجاملة، وسأهدبها إلى الملك، وعليه شكّرتة..."

كما أنّ الدّاي تلقّى ساعة من الدنماركيين، وطلب من قنصلها أن يُرسل له ساعة أخرى، وهذا ما أشار إليه لودلف هامكين بقوله: "...مثل الساعة الذهبية التي تم إرسالها إلى الدّاي، وأنّه يتوقّع من جلّالته ليرسل إليه ساعة أخرى مثل التي قد تلقّاها من الهولنديين، ومزخرقة بالماس، وأتّها باهظة الثمن، وسيتمّ صنع واحدة مماثلة في إنجلترا من محترفين أفضل من الهولنديين، وقد أرسلت إلى القسطنطينية إلى المعظم الكبير، والاستقبال بالقفطان بصفته باشا..."¹³، وللتعرّف على طبيعة الهدايا التي تقدّمها الدّول الأوروبية وضعنا الجدول الآتي:

جدول رقم (01): الإتاوات والهدايا التي تلقّتها الأيالة ما بين (1785-1802م)¹⁴

رقم الوثيقة	اسم الدّولة	محتوى الهدية	ملاحظة
436-شعبان 1199هـ/1785م	إسبانيا	قناطير بارود عدد 4000 . بوبة عدد 2000 . مدفع نحاس عدد 25 . صواري عدد 100، حبال رفاق عدد قناطير 500 . لوح الصنوبر 1000، لوح رويلو 1000 . قراطيل قطران عدد 100، قراطيل زفت عدد 50 .	قيمة الهدية: 1000000 ريال
439- رجب 1211هـ جانفي 1797هـ	لسويد	500 حديد لقراريط مدافع بورمة 36 . 500 حديد لقراريط مدافع بورمة 24 . 100 قنطار بارود . 50 صواري طول الدّراع 45 . لوح رولو 1000 . قناطير رصاص 1000 .	الوثائق: 441 442، 443 . كلّها تحتوي علي هدايا قدّمها السّويد لجزائر.
445-رمضان 1212هـ فيفري 1798م	لمريكان (الو.م.أ)	لوح روليو قنطار 145 . مسمار بالقراطيل 49 . قوالب رصاص 442، وورق رصاص 74 .	حتوت الهدية على أشياء أخرى.
452- رجب 1217هـ	لدنمارك	قراطيل بارود 250 بلانجات رصاص قناطير 28 .	حتوت الهدية علي قائمة من مختلف

الألواح.	تزنكة مسمار قناطير 34 . لوح التّبطين 204+لوح التّبطين 134 لوح ريلو 54 .	نوفمبر 1802م
----------	---	--------------

المصدر: المجموعة 3190. المكتبة الوطنية الحامة.

من خلال الجدول نلاحظ أنّ طبيعة الهدية متقاربة؛ فأغلبها عتاد حربي، ويبدو أنّ الدّاي وموظّفيه قد قدّموا هذه القوائم إلى ممثلي الدّول (القناصل)؛ لتقدّم كهدايا.

2-4- غنائم القرصنة: تعدّ القرصنة من مصادر الدّخل الأساسيّة لخزينة الإيالة، وعاملا في تنشيط الاقتصاد إذ تنال الدّولة من غنائمها حصّة 12% على السّفن، كما أنّها تغدّي الأسواق بالبضائع التي تجلبها من البحر؛ فالقرصنة قضية دولة (d'Etat affaire)، والبايلك هو المجهّز الأساسي (Armateur) إلى جانب المساهمين.

وأهمّ التقارير التي قدّمها هامكين تقرير مؤرّخ في 30 ديسمبر 1746م يقول فيه: "... كلّ القراصنة الكبار لا يزالون في عرض البحر، ووقت عودتهم يقترب، ويمكن أنّهم يتابعون الأسطول البرتغالي الآتي من البرازيل...". ومن قراءته يبدو أنّ القنصل يراقب تحركات البحارة الجزائريين الرّياس الذين تمّونهم سلطة الإيالة.

أمّا في 28 فبراير 1747م فقد كتب: "... إنّ بواخر القراصنة الصّغار متواجدة كلّها في عرض البحر، وقد أرسلوا باخرة إسبانيّة صغيرة بالفعل محمّلة بالتّبنيذ، وبعض البضائع الأخرى دون قيمة تُذكر...". ويقصد القراصنة الخواص الذين استثمروا أموالهم في النّشاط البحري، وقد ساهم الخواص في العمليات البحريّة بإذن من حكومة الإيالة، وكانت عملياتهم تُذكر في مراسلات القناصل، ومن ذلك ما ذكره القنصل الدّنماركي: "... سفينة وودفورث (woodforth) بقيادة القبطان يعقوب أندرس ديسينقتون (Jacob Dissingthun Andries) قادمة من برقين في التّرويج متّجهة إلى برشلونة مع حمولة من السمك المجفّف، وقد التقى به في أعالي كاب باللّصوص، من قبيل ثلاثة (3) من صغار القراصنة، ولم يوجد بحوزته إلاّ جواز البحر الأبيض المتوسط، وقد أرسلت هذه السفينة مع طاقتها مُرفّقة ببعض من عساكر الأتراك لغرض منعه من مغادرة الميناء، وعند وصوله قمتُ بمقابلة الدّاي، وأنّ هذه السفينة ذهبت قبل أن يُرسل الجواز إلى البحريّة،

وأنتها محملة فقط بالسّمك المجفّف، وقد توسّلت إليه ليسمح لها بالمغادرة...¹⁵، وللتعرّف على قيمة الغنائم التي ذكرها هامكين في تقاريره وضعنا الجدول الآتي:

جدول رقم(02): غنائم القرصنة الجزائريّة (1747-1750م)¹⁶.

تاريخ الرسالة	جنسية السفينة	طبيعة الغنيمة	ملاحظة
10 نوفمبر 1747م	نابوليتان تدعى immacule conception essn Nicolas بقيادة القبطان Nicolas قادما من لندن، ومتوجّها إلى Livourne، وnaples، والبضائع	200 رصاصة . 150 كرات من الفلفل الأسود، بوزن 350 لكلّ واحدة. 30 برميل من القرنفل. 15 برميل من خشب البرازيل. 42 بالة من الجلود المدبوغة . 700 "saumond" من الرصاص. 15 برميل من الكينه. 7 صندوق من rhubarb . 12 صندوق من القضبان الهنديّة. 15 دتي قبعات . 30 برميل ادوات حديدية. 8 ساعات كبيرة . 8 ديتي للموسيقى.	غنمها قرصنة خواص؛ لأنّها لا تملك جواز سفر.
23 أغسطس 1749م	إنجليزية	التّقود والمجوهرات (العملات الذهبية، والماس) المأخوذة من الباخرة الإنجليزية، قد اتّخذت فعلا، حيث أنّ لا الملك البريطاني، ولا أيّ من القناصل المقيمين في الجزائر لم يبلغوا أنّ الملك سيدهم له باخرة يتاجرون بدون جواز سفر، وبالتالي لعادة قديمة، بأنّ أي سفينة صديقة ليست في موضع حرب، فإنّ وُجدت بدون جواز سفر، فإنّ الحمولة عرضها تُصدّر العثور عليها.	أولا بخصوص البحار الذين أُسروا مع السفينة، فقال القنصل، على أنّ المعاهدة بين جلالة الملك، والجمهورية أنّ أيّ عبد يتمكّن من الفرار على متن السفينة سيكون حرّاً، ممّا أغضب الداي بشدّة، وأمر بربطهم كلّهم بالسلاسل.

الجزائر 14 يناير 1750م	سفينة برتغالية متجهة للبرازيل	قبض عليها في أعالي جزر madeina بواسطة سفينة صغيرة، بعد أن تمّ شراءها من الإنجليز، وعلى متنها الطاقم، والركاب كانوا 107 شخصا، من بينهم 7 نساء، والأطفال، ومحمّلة بالصّوف، القماش، والأربطة، غالون من الذهب، والفضّة، وفي الجزء السفلي بالملح، وقضبان من الحديد، والتّببذ، والبراندي.	ولكن حتّى الآن لا شيء معروض للبيع، ونحن لا نعرف الثروة التي وجدناها، ويبدو أنّ مردودها يساوي سفينة أوستند من الهند والشّرقية في العام 1720م.
---------------------------	-------------------------------------	--	---

المصدر: Torbjorn Odegaard, les Correspondances de Ludolf Hammeke

ولعلّ أهمّ الأسباب التي أدّت إلى ممارسة القرصنة في إيالة الجزائر هي: عدم امتلاكها لأسطول تجاري، وهذا ما أشارت إليه لوسات فالنسي (Lucette Valensi) أنّ الجزائر خلال العهد العثماني لم يكن لها أسطول تجاري؛ فقد منعهم النصارى من إنشائه، وحالوا دون تطوير أيّ أسطول تجاري أو تمكين المسلمين من تعاطي التجارة بصورة مباشرة في بلاد النصارى؛ ذلك أنّ القرصنة المسيحيين المسلّحين من قبَل فرسان مالطة أو الرّاكبين في سفن ترفع راية مملكة صقلية ونابولي كانوا يُهدّدون التجارة المغربية، ويُخلّون بالأمن دوائماً واستمراراً¹⁷.

تعدّ الوظيفة التي تقوم بها الجزيرة بوصفها مستودعا تجاريا في البحر الأبيض المتوسط أهمّ من وظيفتها كمقرّ لفرقة القديس يوحنا، ولكن أعمال القرصنة من شأنها أن تساعد على الدّفاع عن التجارة المسيحية ضدّ المنافسة الإسلامية، وبهذا العنوان تحظى بالتشجيع؛ لاسيّما من لدن أهل مرسيليا؛ فقد أكّد القائم بأعمال فرنسا في مالطا في 1790م بكلّ وضوح ما يلي: "إنّ الفائدة الأساسية التي نجنمها من التجارة المرسيلية التي تتولّى فرقة القديس يوحنا أهميّة بالغة تتمثّل في منع الأتراك من شحن بضائعهم على السفن التّابعة لدولتهم، وجعلتهم تحت رحمتنا"¹⁸.

إنّ استمرارية القرصنة الأوروبية، ومقاومة وصول المسلمين إلى موانئها كان وراء النّشاط البحري للجزائر لاستمرار النّشاط الاقتصادي؛ لذلك يمكن أن نقول أنّ الدّول الأوروبية عملت على أن تبقى إيالة الجزائر تابعة لها في مجال النّقل البحري سواء النّقل

التجاري أو نقل الهدية للسُلطان العثماني؛ فهي تدفع الهدية لشراء السلم لسفنها التجارية، ولتحصل على امتياز كراء السفن للإيالة.

5- الشخصيات الفاعلة في تجارة الإيالة في نظر القنصل: من خلال رسائل لودلف هامكين نلاحظ أنه قدّم لغرفة التجارة في كبنهاغن فكرة واضحة عن الفاعلين في تجارة الإيالة، والذين كانت لهم اليد العليا في إدارة الشؤون المالية والتجارية، وركز القنصل الدنماركي في رسائله على:

1-5- الداي: يتدخل في التجارة الخارجية، بخاصة بيع الحبوب، كما يُشرف على تحديد سعر المواد الغذائية الضرورية للحياة كالخبز والخضر، وهو الذي يعطي الرخص للسفن، ويستقبل كل الأجانب الذين يدخلون للإيالة؛ ففي الرسالة المؤرخة في 2 فبراير 1751م كتب قائلاً: "... أسمح لنفسي أن أعبر لأصحاب المعالي، أيها السادة نواب من كلية الاقتصاد والتجارة العامة في رسالتي المؤرخة في 25 يناير؛ لتمثيل صاحب جلالته، وأنّ الداي كلفني، وإرضائه بإرسال السفينة التي تحمل الهدايا لهذا العام..".

في القرن الثامن عشر يظهر الداي بأنه سمح بكل أنواع التجارة الخارجية تقريباً؛ لتكون في أيدي التجار الأوروبيين أو اليهود الذين تعاضم دورهم في الإيالة، وذلك راجع إلى كون الأتراك ينظرون إلى أنفسهم على أنهم جنود وحكام، وليس أرباب مال، وبذلك أصبحت التجارة اليهودية التي لها صلاتاً مع مختلف أنحاء أوروبا ذات أهمية أكثر فأكثر للحركة الاقتصادية والمالية في الإيالة، ومع النفوذ جاءت القوة والأهمية العظمى في المجتمع التجاري.

كانت حكومة الداي الوكيل الرئيسي لمعظم البضائع التي تبيعها الجزائر إلى أوروبا، وفي 23 أغسطس 1749م بعث القنصل يُنبّه أعضاء الغرفة التجارية بقوله: "... وبهذه المناسبة أرسلتُ إلى سعادة مسؤولي الغرفة الاقتصادية والتجارية تفاصيل نوايا الداي في ما يخص الهدايا السنوية له..". أمّا في 19 جوان 1751م فيُعلمهم بقدم السفن الإنجليزية هدية الداي وأصدقائه: "... وصل الكابتن كيبيل إلى هنا في 17 من هذا الشهر، مع ثلاث سفن حربية ماهون، مع هدية للداي وأصدقائه.."، ويقصد بأصدقاء الداي أعضاء الديوان الصغير، وهذا ما عبّر عنه في رسالة أخرى: "... مع مدخل مزخرف بالفضّة

إلى أمين الصندوق (الخرناجي)...، وللأغا، والمقتصد خواتم أو ساعات ذهبية، ولكل قاضي البحرية...".

كما تعرّض في نفس الرسالة 19 جوان 1751م للهدية التي قدّمها الداي للأندلس: "... أعطى الداي من ناحية أخرى بعض التمور والأسود والنعام للمملكة البريطانية، وحصان اللحية لكل قائد، كما قام قبل مغادرته بمعالجة قضية الجوازات، ثم غادر في 18 من الشهر الجاري إلى جبل طارق، دون ذكر الماس والعملية الذهبية المأخوذة من قارب للشبونة...".

2-5- اليهود: في القرن 18م اتسع نشاطهم في مدن إنجلترا ومدينة مرسييا، كما استقرت بعض العائلات اليهودية في مدينة الجزائر لمزاولة نشاطها المعهود؛ فكوّنت مصارفًا وشركاءًا تجارية، وأوكلت السلطات التركية بعض المهام المالية لهؤلاء اليهود لتسيير الجريات السنوية المخصصة للجنود مقابل فوائدهم سنوية¹⁹، ويمارس اليهود نشاطهم المالية كذلك مع القناصل، ومن ذلك ما وجدناه في الرسالة الآتية: "... أسمح لنفسي أن أقدم لأصحاب المعالي كشف الحساب، ونتاجه فيما يخصّ السنة آلاف دوقيات لـHollande التي بعث بها القنصل بلويار (Ployard) من مرسييا بعملية اليباستر الإسبانية لتسيير المدينتين من اليهود، والآخرين للقياد ديسينقوم، ونتج عنهم 56150 ¼ "pataecques"، وقد سدّدت إلى اليهود حسابات برصيد 52183، ونصف " pataecques ..."²⁰، ثمّ إنّ البحث في أرشيف القناصل الفرنسيين في مدينة الجزائر كشف عن رواج هذا النوع من المعاملات المالية التي كان يتعامل بها اليهود؛ لأنّها تسهّل حركية رأس المال²¹.

3-5- القناصل: تجدر الإشارة إلى أنّ قنصلية فرنسا كانت الأهمّ مقارنة بباقي القنصليات، بالنظر إلى الأهمية العددية للفرنسيين؛ إذ مثل هؤلاء نسبة 64% من بين كافة الأوروبيين؛ فكانت الممثلة الدبلوماسية الفرنسية متركزة على طاقم إداري مكوّن من قنصل يساعده مستشار وسمسار وترجمان²²، وكان للقناصل الفرنسيين في إيالة الجزائر تأثيرًا في الحياة الاقتصادية؛ إذ كانت لهم علاقات مباشرة مع الدايات وأصحاب المراكز العليا في السلطة إلى درجة أنّ القنصل الفرنسي يعلّق على نظيره الإنكليزي في سنة 1703م بقوله: "... رغم هداياهم التي كانت بالغة في الرّوعة، ووعودهم الفخمة،

وتوسلاتهم المتواصلة؛ فإنهم لم يتمكنوا من الحصول على أي شيء ضدنا، ولا لصالحهم ولا لصالح الهولنديين..."²³.

وللمحافظة على هذه المصالح الاقتصادية عمل القناصل على تقديم الهدايا إلى الدايّات؛ فحين تولى مصطفى داي (1704م) حكم الإيالة تقدّم القنصل الفرنسي بطلب هدايا لصالح الداي الجديد، واشتكي من الشحّ المؤسف الذي تصرف به غرفة مرسيليا مع الوكالات التجاريّة بمدينة الجزائر قائلا: "... لقد عمّوا تماما، ولم يفهموا أبدا ضرورة هذا النوع من النّفقات، من المستحيل استيعاب رجال تجارة قريبا جدّا من هذا البلد...، وأنّ هؤلاء التّوّاب ليس لديهم الكثير من العلم بالمصالح الحقيقيّة للنّاس، ومبادئ مدينة الجزائر"²⁴.

وكان لزامًا على القناصل الاهتمام بالمصالح التجاريّة؛ فملك فرنسا أرسل رسالة إلى قنصله في الجزائر يشتكى من داي الجزائر بخصوص سماحه للأجانب بتحميل سلع من أماكن هي حكر على الفرنسيين، كما عمل القناصل على الحدّ من منافسة التّجار اليهود؛ فهذا لومير (Le Maire) قد حثّ في 10 أفريل 1734م الغرفة التجاريّة بمرسيليا على منع التّجار اليهود من شحن البضائع الفرنسيّة في أرصفة مرسى هذه المدينة؛ فالنّشاط التجاري هناك حسب رأيه يرجع إلى الفرنسيين، وقبله القنصل بوم (Baume) 1718م راسل الملك الفرنسي، وطلب منه معاقبة اليهود الفرنسيين على النّشاط غير الشّرعى مع اليهود الجزائريين²⁵.

إلى جانب ذلك أثار القناصل في عمليات اقتداء الأسرى؛ حيث عمل القنصل الفرنسي في 1735م على إطلاق سراح الأسير الجزائري إبراهيم بن أحمد الدّي قام والده بدفع الفديّة، وطلب القنصل من حكومته أن يراعى في قيمتها، كما سعى قناصل فرنسا إلى تحرير السّفن التي تتعرّض للأسر بأطقمها وحمولتها، وتمكّن القنصل توماس سنة 1747م من استعادة سفينة فرنسيّة كانت متّجهة من برشلونة نحو وهران وعلى متنها 60 جنديا أسرت، وسيقت إلى الجزائر²⁶.

كما أشار هامكين في الرّسالة المؤرّخة في 7 يناير 1751م لعلاقته بالقنصل الفرنسي قائلا: "جاء أمس قنصل فرنسا السيّد لازار لامار لزيارتي في منزلي، وبعد الحديث للحظة على الأعمال المختلفة طلب منّي الانسحاب إلى شقّة أخرى؛ لأنّه كان يريد أن يخبرني

بشيء، وطلب مني أن أحلف له بشرفي أن لا يُخبر أيّ أحد عن هذا، حتّى وإن حصل ذلك أن لا يذكر اسمي إذا طُلب منّي، وقال لي: إنّ بعض الأصدقاء للدّاي قد أكّدوا له أنّنا عازمين على إعلان الحرب علينا..."، شكّرتّه على الصّداقة التي أحظى بها من طرفه؛ لذلك قدّم لي دليلاً، وأنا أخذتُ احتياطاتي بهذا الشّأن، وبما أنّ الدّاي قد حدّثني بالفعل بنفس الكلام، وأظنّ أنّ هذا القنصل يهتمّ بمصالحه الخاصّة أكثر من مصالحنا..."، والمقصود في الرّسالة هو الدّاي محمّد بن بكر (1748-1754م).

6- اقتراحات هامكين لتوطيد العلاقات التّجاريّة الدّنماركيّة مع الإيالة: عمل هامكين على الحفاظ على مصالح الدّنمارك في إيالة الجزائر بكلّ الطّرق؛ فحثّ على تقديم الهدايا في وقتها، كما راقب تحرّكات القراصنة في البحر، وعمل على حصول الدّنماركيّة على الجزوات، بالإضافة إلى أنّه قدّم مقترحاً أخرى تمثّلت في:

1- تجنّب التّأخير في دفع الهدايا: أوّل مقترح قدّمه لودلف هامكين هو تجنّب التّأخير في أداء الهدايا السنويّة، وإرسال كلّ ما تخلف من مستحقّات؛ ففي 23 أوت 1749م قال: "...وبهذه المناسبة أرسلتُ إلى سعادة مسؤولي الغرفة الاقتصاديّة والتّجاريّة تفاصيل نوايا الدّاي فيما يخصّ الهدايا السنويّة له، وآمل أنّ الدّاي سيستجيب لي في هذا العام سترسل ما نقص لتجنّب أيّ نزاع، اسمحوا لي سيدي أنّ أبرئ نفسي من واجبي، متمنيا لفخامتكم في هذا العام الجديد أكثر سعادة مرفقة بالعديد من الأخباريات في الصّحّة المثاليّة مصاحبة للفرص المتكرّرة؛ لأشهد على الرّغبة العارمة التي لديّ، يشرفني أن أكون محترماً جداً".

2- منافسة القنصل السّويدي: علّق القنصل الفرنسي بيار توماس على العلاقة السيّئة التي نشأت بين قنصل السّويد جورج لوجي²⁷ وهامكين نتيجة المعاهدة الدّنماركيّة، من خسائر للسّويد في سنة 1746م، وسبب هذا التّنافر هو تنافس المملكتين في نفس الميدان؛ أي تصدير مواد الصّناعات الحربيّة والعسكريّة، ولم ينته هذا التّنافس الاقتصادي بانتهاء المحادثات والمصادقة على السّلم؛ بل استمرّ إلى ما بعد ذلك²⁸، وفي هذا الصّدّد كتب هامكين لغرفة التّجارة والاقتصاد الدّنماركيّة رسالة بتاريخ 19 جوان 1751م يُعلمها بتحركات لوجي التّجاريّة في الجزائر.

ويقدم لها مقترحاتاً لزيادة القدرة التنافسية للدنمارك فيما يخص السوق الجزائرية، حيث أنّ هذا الأخير يقوم بـ "... فيما يتعلّق بالعصيّ المعروفة باللّغة اللاتينية باسم الصنوبر، وفي ألمانيا فريسن باوم، وبالفرنسية الصنوبر؛ فإنّ تلك التي جلبها القنصل السويدي إلى هنا تُباع بـ 70 قرشاً، بطول 38 إلى 52 قدماً، ويعرض 53 بوصة²⁹ في راند التي سحبناها من خليج البندقية، وأعتقد أنّه بإمكاننا العثور على نفس الجودة في الترويج، وبتكلفة أقلّ بكثير من تلك التي جلبها قنصل السويد من خليج البندقية...".

وفي هذا وجدنا قوائمًا بالبضائع القادمة من السويد، وأخري لسفن دنماركية في المجموعة 3190، حيث تشير الوثيقة 451 إلى أنّ السفينة الدنماركية تحمل: "... 465 قنطار بارود، و1000 حجرات بونبة، و61 قنطار حديد.."، وفي وثيقة أخرى نسجّل كميّاتاً من لوح التّبطين العدد 200³⁰، أمّا في الوثيقة 441، فالسّفينة السويديّة في ميناء الجزائر تنزل: "... لوح روبلو عدد 230، ولوح البرميل الكبير 2398 صغيرة، إلى جانب صواري كبار عدد 06، ومنشار كبير بيان 8..."، وفي أخرى قائمة للوح الروبلو بأعداده، ومرفق بمقياس طولهِ الدّراع"³¹.

3- دفعُ الأموال لشراء السّلم: للحفاظ على السّلم مع إيالة الجزائر اقترح القنصل الدنمارك- الترويجي على المملكة أن تدفع الأموال والعتاد في إطار ما يُعرف بالهدية التي تقدّمها كلّ سنة، ومن ذلك الرّسالة المؤرّخة في 2 فبراير 1751م: "... وقيمة 1268 بياستر المستحقّة للسّنة الفارطة، مرفق 3500 بياستر كقيمة لـ 50 ياردة، مع الأجزاء كاملة بـ 4768 بياستر..."، ويلجّ في طلب دفع الأموال للدّاي في 16 أكتوبر 1751م: "... وجلالته عليه أن يدفع حسب تفصيل الكشف المرسل إلى معالي السّادة من مدرسة التّجارة مبلغ 2257 بياستر...".

وإذا لم تصل الأموال المطلوبة فإنّ القنصل³² لا يستطيع تأمين جوازات المرور للسّفن الخاصّة ببلده، وأنّ يرفع تقريراً أو رسالة إلى دولته للتّعجيل بالهدية، وهذا ما قام به القنصل الدنماركي بالجزائر، حيث أشار إلى: "... نحن هنا قلقون جدّاً حول عدم وصول جوازات السّفر لتقديمها للقراصنة، لتجنّب أيّ نزاعات خلال لقاء بعض التّجار الدّين ينتمون إلى رعايا صاحب الجلالة، هو ونحن محرومون من جميع المراسلات مع

أوروبا بسبب الحرب، قال لي الدّاي: إنّه يجب شراء باخرة صغيرة للذّهاب والإياب من ليفورن إلى مرسليليا، والعودة هنا بقارب؛ لتعلم بخبر جديد في ما يخصّ الهدايا...³³.

كما يشير القنصل في رسالته المؤرّخة في 23 أوت 1749م قائلا: " ... إنّ التّقود والمجوهرات المأخوذة من الباخرة الإنجليزيّة قد أخذت فعلا...؛ فالقناصل المقيمين في الجزائر لم يُبلّغوا أنّ الملك سيّدهم له باخرة تتاجر بدون جواز سفر، وبالتالي العادة القديمة بأنّ أيّ سفينة صديقة ليست في موضع حرب؛ فإنّ وُجدت بدون جواز سفر؛ فإنّ حمولتها تُصَادَر بعد العثور عليها مباشرة..."، وهذا يدلّ على أنّ السّلطة في الإيالة لا تتسامح مع من لا يملك جواز مرور مهما كانت جنسيته؛ فإنّ سفينته تُحوّل إلى الجزائر.

4- تزويد الإيالة بالعتاد الحربي: تدفع الدّول الأوروبيّة هدايا سواء بهدف عقد معاهدات واتفاقيات، أو التّقرب من حكومة الدّاي³⁴؛ إذ جاء في البند الثّاني من معاهدة الجزائر مع الدّنمارك سنة 1746م بخصوص السّلح المحظورة التي هي الذّخائر الحربيّة البارود: الرّصاص والحديد والكبريت والقار والقطران، والأخشاب الصّالحة لبناء السّفن؛ فإنّه لن يُستخلص أيّ رسم عنها من رعايا الدّنماركيين³⁵؛ فهذا لودلف هامكين يرسل رسالة في 28 ديسمبر 1746م إلى ملك الدّنمارك والتّرويج يقول فيها: "أتصل بي الدّاي في الأيام الماضيّة ليخبرني بأنّه مصمّم على فتح ورشة لبناء سفينة في الرّبيع المقبل، وقد أمر مسبقا بقطع الخشب الضّروري، وجعلني أعرف أنّ المدافع الممنوحة لمعاهدة السّلام لا يمكن استخدامها لأنّ حجمها كبير جدّا، وكلفني بإبلاغ الملك أن يرسل له بدلا من 24 قطعة من مدفع 24 بعيّار حرّ، وقال: إنّه يريد أن يكون 24 قطعة من الكرة 18 جنيه، وبدلا من 20 قطعة من الكرة مدفع 12، و24 قطعة من 12 جنيه، ويُرسل إليه قاعدة لكلّ مدفع لاستخدامها على متن السّفينة..."³⁶.

تعرّضت الجزائر لكارثة كبيرة فقدت بحدوثها ما تمتعت به من نجاح السّياسة الخارجيّة للدّاي محمّد بكير، وفي سنة 1750م انفجر مصنع يلدز للبارود، وكان يشتمل على 1500 قنطار من البارود، وتهدم برج مولاي محمّد والمنازل المجاورة له؛ فطلب الدّاي من حكومتي الدّنمارك والسّويد تعويضه عن الذّخيرة التي ضاعت، وإحضار الآلات اللّازمة لإعادة المصنع كما كان³⁷.

وربما كان هذا هو السبب الذي جعل هامكين يلجّ في 2 فبراير 1751م على وجوب إرسال: "... و4000 رصاصة من وزن 2 ليفر لكل رصاصة، و4000 من وزن 3 ليفر، والباقي من 8 ليفر حسب النموذج المرفق لهذه الرسالة، وأن أصحاب المعالي قد أمروا أن يكون مسحوق البارود في براميل ذات سعة 100 ليفر لكل واحد حسب ما جرت عليه العادة، إنني أرجو من سعادتك مساندة طلبه هذا مما سيجعله سعيداً جداً..."

إلى جانب العتاد الحربي تدفع الدنمارك كمياتاً من الحبال للإيالة لتجهيز السفن، والقنصل في كل رسائله تقريباً يذكر بالكميات التي يطلبها الداي، ومن ذلك الرسالة المؤرخة في 16 أكتوبر 1751م: "... 270 قنطار من الحبال لكل سنة، وأيضاً إرسال للسنة 1752: 458 قنطار من الحبال...، و188 قنطاراً بقيمة 2257 بياستر كرصيد مستحق، وأرجو من سعادتك التكرم بتسجيله لكي يتم تنفيذه..."

خاتمة: في ختام هذه الدراسة وصلنا إلى مجموعة من النتائج أهمها: تمكّن لدولف هامكين من التفاوض مع السلطة في إيالة الجزائر، وتوقيع معاهدة سلام لصالح الاتحاد الدنماركي-الترويجي سنة 1746م، وبموجبها عُيّن أول قنصل يمثلها في الجزائر.

تسعى الدول الأوروبية لشراء السلام لسفنها ورعاياها بعقد معاهدات سلام بموجبها تعيّن القناصل الذين يسهرون على تطبيق المعاهدة، وحماية مصالحها في الإيالة، وتقديم الهدايا لسلطة الجزائر، وكانت هذه الأخيرة من أهم مداخلها، إلى جانب غنائم القرصنة، وفي المقابل تمنحهم الإيالة جوازات المرور.

لم تكن هدايا مملكة الدنمارك تُقبل كما هي؛ بل كان داي الجزائر يُرسل المواصفات والكميات، وإذا وصلت إلى ميناء الجزائر، واكتُشف بأنها مخالفة للمواصفات يُرجعها، ويرسل إلى المملكة تنبيهاً بأنه سيعلن الحرب إذا خالفت التعليمات.

عمل لدولف هامكين على رعاية مصالح مملكة الدنمارك والترويج في الجزائر، وعقد الصفقات التجارية التي كانت تتم مع الفاعلين الاقتصاديين، وهم حسب تقاريره الداي واليهود والقناصل، وبخاصة قنصلي فرنسا والسويد، وللحفاظ على مصالح الدنمارك في الجزائر قدّم القنصل هامكين مجموعة من المقترحات في أكثر من رسالة أهمها: تقديم الهدايا في موعدها المحدد للحصول على جوازات مرور الإيالة، وتجنّب

تعرض السفن الدنماركية للمصادرة، ومنافسة قنصل السويد بتقديم أفضل المنتجات الدنماركية، وإرسال العتاد الحربي الذي تطلبه سلطة الإيالة.

أغلب الصّفقات التي كان يعقدها القنصل الدنماركي كانت تتمّ بالعملّة الإسبانيّة البياستر، وفي الأخير يجب أن نشير إلى أنّ هذه الرّسائل يمكن أن نستفيد منها في كتابة التّاريخ الاقتصادي، وهذا ما قمنا به في هذه الدّراسة، كما يمكن أن تفيد في كتابة التّاريخ السّياسي والدّبلوماسي للجزائر خلال العهد العثماني.

الهوامش:

1- كوجوك أي: الصّغير، وهذا لتمييزه عن عمّه الدّاي السّابق الذي يحمل الاسم نفسه ، والرّسم الصّحيح لهذه الصّفقة في العثمانيّة هو "كوجك"، وفي قائمة ولاة الجزائر التي أوردها عزيز سامح لتر في كتابه نجد هذا الدّاي يحمل اسم رودس جوكو إبراهيم، للاطلاع أكثر ينظر: عزيز سامح التر: الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشّماليّة، ترجمة: محمود على عامر، ط1، دار النّهضة العربيّة، بيروت، 1989م، ص 663.

2- قنان جمال: نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث 1500-1830، دط، دار الزائد للكتاب، الجزائر، 2010م، 221-223.

3- أرزقي شوتام: المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني 1519-1830م، رسالة دكتوراه في التّاريخ الحديث، 2005-2006م، ص 139.

4- والد Ludolf يوهان هامكين، تاجر، ولد في 1667 ، توفي في 3 سبتمبر 1726. ذلك التّاجر ولد طفله الأوّل لودولف هامكين في 4 نوفمبر 1696م، الأكبر من بين سبعة أطفال، من يوهان، ومارغريت، وتاريخ عائلته يشير إلى أنّهم من ملاك السفن، والبجارة الجرمانيّة، وانتقل من الأب إلى الابن لعدّة أجيال. وجدّه لودولف هامكين هينريشسن (1635-1676) كان يقيم في ألمانيا، لكنّه يسافر بانتظام إلى بيرغن، وعمّه تاجر، ومالك السفينة في رصيف بيرغن، وملتزمة على حدسواء لصيد الحيتان في التّجارة مع بلدان الشّمال. للاطلاع أكثر ينظر:

Torbjorn Odegaard, les Correspondances de Ludolf Hammeken le premier consul Dano- Norvègien à Alger

ENAG, Editions, Alger, 2016, p.12111746-1751.

5- ومن الواضح أنّ حدث 1702 كان كارثة للعائلة، حيث اختفت ثروات العائلة بين عشية، وضحاها، وكان والده من بين الأكثر تضرراً. يوهان هامكين عاش الانهيار الاجتماعي من التّاجر إلى مصّحح الأحذية ، وكان عمر ابنه Ludolf ستة سنوات. للاطلاع أكثر ينظر: Ibid, p13.

6- دُفن في تونس، وكتب على الشّاهدة التي لا تزال موجودة في المقبرة البروتستانتية القديمة في تونس، ما يلي: هنا رفات المستشار لودولف هامكين التّجاري، وقنصل الدنمارك، والتّرويج في تونس، ومفوضاً للسّلام مع الجزائر، وتونس، وطرابلس، ولد في 4 نوفمبر 1696، في بيرغن التّرويج، وكان والداه "يوهان، مارغريتا، هامكين" الآباء في الخدمة؛ منذ فبراير 1745 في أوّل مايو 1759م غادر هذا العالم بعد أن عاش 62 سنة 5 أشهر، و27 يوماً. Ibid, p15.

7- على القنصل أن يكتسب معرفة واسعة بمكان إقامته، ومتابعة نشاط موظّفي الحكومة، وكذلك التّعريف على سكانه، وطبائعهم، فملاحظاته يجب أن لا تنصبّ فقط على الوضع القائم للبلد المضيف، وعلى العلاقات فقط، وإنّما يجب أن تمتدّ أيضاً إلى معرفة علاقاته بالبلدان الأخرى، كما يجب على القناصل أن تمتدّ عنايتهم إلى النّشاط الزراعي، ومحاصيل الأرض، وأنواعها، ووسائل النّقل، والمواصلات الداخليّة، وكذلك الملاحة السّاحليّة، والنّشاط الصّناعي للسّكان، والوضع المالي لهاته البلدان، والعملات المتداولة بها. للاطلاع أكثر ينظر: جمال قنان: العلاقات بين الجزائر وفرنسا 1790-1830م، منشورات متحف المجاهد، الجزائر، دت، ص 69.

- 8- سيطر الوسط المرسي على وظيفة القناصل في الجزائر، وما يفسر هذه الهيمنة في اختيار، وتعيين القناصل الفرنسيين للتجارة الفرنسية مع الجزائر، وارتباط هؤلاء بمركز رأس المال الذي حركته الدوائر المرسيية، وعلى رأسها الغرفة التجارية، في حين كانت الشركة الشرقية في إنجلترا هي المسؤولة على تعيين القناصل في المدن، والموانئ العثمانية. للإطلاع أكثر ينظر: رحيمون بليل: القناصل والقنصليات الأجنبية بالجزائر العثمانية من 1564-1830م، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة وهران، 2010-2011م، ص 28-32.
- 9- كما يُعتبر القنصل وكيلا سياسيا، حيث يمكنه إدارة المفاوضات السياسية؛ أي: أنّ من مهامه التكفل بالقضايا السياسية، والدبلوماسية القائمة بين دولته والدولة التي يمثلها فيها، بالإضافة إلى مهام دبلوماسية، تجارية، وقضائية. للإطلاع أكثر ينظر: براهيم دهان: دور القناصل الفرنسيين في العلاقات الجزائرية الفرنسية 1689-1789م، مذكرة ماجستير، جامعة غرداية، 2012-2013م.
- 10- الهدية التي يقدمها ممثل القنصليات الأوروبية تُقدّم للباشا، وأعوانه كالخزناجي، وكيل الخرج، وخوجه الخيل، ووكيل الخرج، وغالبا يتكوّن من ساعات، وجواهر، وقفاطين حرير مذهّب. للإطلاع أكثر ينظر: Kamel Filali, Le Don Epine Dorsale Du Système Ottoman, Le Cas De L'Algerie, Annales L.E.R.M.M, Université Mentouri Constantine, Volume 5, 2002, p19.
- 11- الرسالة المؤرخة في الجزائر 24 نوفمبر 1747م، للإطلاع أكثر ينظر: Torbjorn Odegaard, les Correspondances de Ludolf Hammeken. Opcit. p110-12-12- عزيز سامح التز: الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، مرجع سابق، ص 510.
- 13- الرسالة المؤرخة في الجزائر 16 أكتوبر 1747م، للإطلاع أكثر ينظر: Torbjorn Odegaard, les Correspondances de Ludolf Hammeken. Opcit. p106-14-14- وثائق 436-439-445-452 المجموعة 3190. المكتبة الوطنية العامة.
- 15- الجزائر في 10 نوفمبر 1747م، للإطلاع أكثر ينظر: Torbjorn Odegaard, les Correspondances de Ludolf Hammeken. Opcit. p109
- 16- Torbjorn Odegaard, les Correspondances de Ludolf Hammeken. Opcit. p109
- 17- هناك من حاول من الرياس فكّ الحصار التجاري المفروض من قبل الأوروبيين على دول المغرب العربي، وأشهرهم: مراد رايس الذي أراد إنهاءها، بمهاجمة الموانئ التجارية في مدن إيطاليا، وجنوب فرنسا. للإطلاع أكثر ينظر: مؤلف مجهول: الهدايا الملكية، ترجمة: سعيد دحماني، ط1، منشورات بونة للبحوث والدراسات، عنابة، الجزائر، 2011م، ص 19.
- 18- فلزي لوسات: المغرب العربي قبل احتلال الجزائر (1790-1830)، تعريب: حمادي السّاحلي، سراس للنشر، تونس، 1994م. ص 79-80. 19- الجندي المتزوج داخل الجزائر، وغير ملزم بالعمل لا بالنوبات، ولا بالمحلات يبيع راتبه لليهود. للإطلاع أكثر ينظر: علي خلاصي: الجيش الجزائري في العصر الحديث، ط2، منشورات الحضارة، الجزائر، 2013م، ص 283.
- 20- الرسالة المؤرخة في الجزائر 23 يونيو 1751م للإطلاع أكثر ينظر: Torbjorn Odegaard, les Correspondances de Ludolf Hammeken. Opcit. p189167-21-21- بيلامي وداد: اليهود والشبكة التجارية في إيالة الجزائر والحوض الغربي للمتوسط (1686-1830م)، رسالة دكتوراه في التاريخ الحديث، جامعة عبد الحميد مهري -قسنطينة 2-2018م، ص 101.
- 22- محمد أمين: الاختراق التجاري الفرنسي للجزائر خلال العهد العثماني (1518-1830م)، إسهام في دراسة التوسّع الاستعماري، مطبعة أنفو، فاس، المغرب، 2015م، ص 117-118.
- 23- Eugène Plantet: Correspondance Des deys D'Alger avec la cour de France 1700-1833, T2, Editions ART'Kange, 2013, p19
- 24- تكوّنت الهدية التي طلبها القنصل إلى مدينة الجزائر من الديباج الأبيض، وأغطية زرقاء، وحمراء، وبنادق، ومسدسات، وصناديق التّقاح، والكسّناء، وأنواع المرّي، بقيمة إجمالية 10201. للإطلاع أكثر ينظر: براهيم دهان: دور القناصل الفرنسيين في العلاقات الجزائرية الفرنسية 1689-1789م، مرجع سابق، ص 35. 25- وولف جون: الجزائر وأوروبا، ترجمة: أبو القاسم سعد الله، دط، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م، ص 169. 26- براهيم دهان: دور القناصل الفرنسيين في العلاقات الجزائرية الفرنسية 1689-1789م، مرجع سابق، ص 100-101.
- 27- جورج لوجي: ظهر أول مرة في الجزائر يقود سفينة تجارية ترفع العلم السويدي، وكان لوجي هو الذي فاوض على معاهدة السلام للسويد، ثمّ أصبح قنصلا سويديا. واستطاع أن يشتري عددا من السفن المحتجزة التي كان يقودها تحت العلم السويدي كتاجر، وكوكيل تجاري عام للداي. للإطلاع أكثر ينظر: وولف جون، الجزائر وأوروبا، مرجع سابق، ص 42-42.

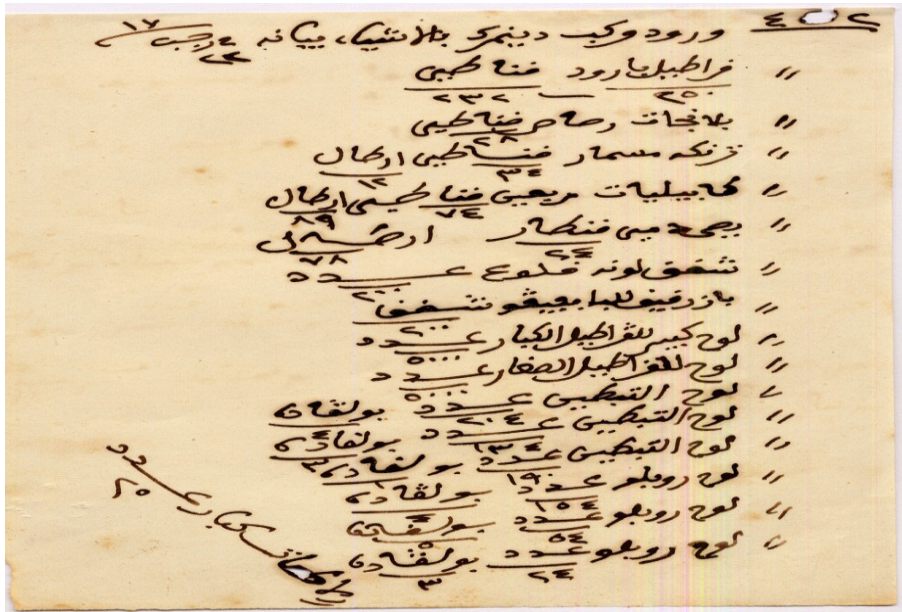
28- عبد الهادي رجائي سالمي، العلاقات الجزائرية الإسكندنافية في الفترة العثمانية: 1141-1206هـ/1729-1792م، ماجستير في التاريخ الحديث، قسم التاريخ، جامعة الجزائر- 02- أبو القاسم سعد الله، 2014-2015م، ص110-29- البوصة: وحدة قياس للطول، مقدارها 2,27 سنتيمتر-30- الوثيقة 453 المجموعة 3190 المكتبة الوطنية الحامة-31- الوثيقة 446 المجموعة 3190 المكتبة الوطنية الحامة-32- إلا أن القناصل يستغلون الجوازات لصالح بلدانهم، كما يتاجرون بها، فالقنصل الإنجليزي في طرابلس الغرب اشتكى من زميله في جنوة، بسبب أنه كان يبيع الجوزات ب: 30 دولار. ينظر: رحمونة بليل: القناصل والقنصليات، مرجع سابق، ص 140-33- الرسالة المؤرخة في الجزائر 28 فبراير 1747م، للإطلاع أكثر ينظر: Torbjorn Odegaard, les Correspondances de Ludolf Hammeken. Op.cit p103

34- بالنسبة لكل من هولندا، والبرتغال، والسويد، والترويح، فهي تدفع ضريبة كل سنتين: بينما فرنسا، وبريطانيا، والولايات الإيطالية كالبنديقية، فهي تدفعها نقدا أوعتادا. للإطلاع أكثر ينظر: مولود قاسم نابت بلقاسم، شخصية الجزائر الدولية وهيبها العالمية قبل سنة 1830م، ج1، دار الأمة، الجزائر، 2012م، ص77-35- قنان جمال: نصوص ووثائق، مرجع سابق، ص221.

36- Torbjorn Odegaard, les Correspondances de Ludolf Hammeken. op.cit.p97

37- عزيز سامح الترو: الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، مرجع سابق، ص 512.

الملاحق: الوثيقة رقم 452 من المجموعة 3190: بيان هدايا الدنمارك لإيالة الجزائر.



معاهدة الصلح بين الجزائر وإسبانيا سنة 1791م
The Peace Treaty between Algeria and Spain in 1791

اسم ولقب المؤلف المرسل: د. بن عتو بلبروات- Belbraouate Benattou صص 249-265
الدرجة والعنوان المهني: أستاذ- كلية العلوم الانسانية والاجتماعية- جامعة جيلالي ليايس بسيدي بلعباس-
الجزائر.
البريد الإلكتروني: belbraouateb@gmail.com

تاريخ استقبال المقال: 2019/12/30 تاريخ المراجعة: 2020/04/01. تاريخ القبول: 2020/04/18

الملخص باللغة العربية: يندرج هذا المقال ضمن العلاقات السياسية بين الجزائر العثمانية وإسبانيا التي عرفت معاهدتين متقاربتين زمانا؛ معاهدة 1786 ومعاهدة 1791، هذه الأخيرة هي موضوع مقالنا، وهي تتعلق بموقعين ساحليين متجاورين في غرب الجزائر، حيث حرصت إسبانيا على احتلالهما، وهما مدينة وهران وميناء المرسى الكبير اللذين تحررا نهائيا بموجب معاهدة بين الدولتين سنة 1791. والجديد في هذا المقال أننا ارتكزنا على نص المعاهدة باللغة العثمانية، ثبتناه كملحق، وقمنا بترجمته إلى اللغة العربية، مع تقديم توضيحات تاريخية حول أسباب المفاوضات، ومسارها وأهمية المعاهدة ونتائجها المحققة. الكلمات المفتاحية: الجزائر العثمانية؛ إسبانيا؛ وهران؛ المرسى الكبير؛ المعاهدات؛ الصلح؛ الباي محمد الكبير؛ الداوي حسن.

Abstract: The topic of this paper is about the political relationship between the ottoman Algeria and Spain, according to the two treaties of 1786 and 1791. These treaties were closed in time, however, they were a result of the liberation of two of the western coastline cities in ottoman Algeria: Oran and Mers El Kebir.

The historical events are well known but what is new in this artical is the original text of the treaty in Ottoman language translated into arabic language. After the translation of the text, I have added a commentary and analysings of the circonstances of the traties, according to historical sources and scientific researchs, however the historical circonstances of the events, the process of negotiations and the consequences of the treaty was studied.

Keywords: Algeria; Spain; Oran; Mers El Kebir; Treaties; Peace; Bey; Mohamed El Kebir ; evacuation ; Dey Hassan.

مقدمة: يكتنف الدراسات التاريخية حول العلاقات الدبلوماسية والسياسية بين الجزائر العثمانية والمملكة الإسبانية فراغا ملحوظا يتعلق بمعاهدة الجلاء الإسباني من وهران والمرسى الكبير سنة 1791م؛ فجل المصادر العربية والأجنبية تكتفي بالإشارة إلى هذه المعاهدة دون الخوض في حيثياتها وتفصيل فصولها، وسنعمل بهذا الصدد على دراسة موضوع معاهدة 1791م بين الجزائر وإسبانيا اعتمادا على النص العثماني⁽¹⁾ مبرزين في ذات الوقت أهميتها التاريخية وأسباب ومسار المفاوضات ومحتوى المعاهدة بالنص العربي بعد ترجمته عن اللغة العثمانية، أملا في سدّ الفراغ وإجلاء الغموض الحاصل حول حقائق هذه المعاهدة.

تختص هذه المعاهدة بثغري وهران⁽²⁾ والمرسى الكبير⁽³⁾ اللذين علقا في معاهدة 1786⁽⁴⁾، وقد جسدت بالفعل توزيع الأدوار بين حكام الجزائر العثمانيين تجاه إسبانيا؛ فالداي حسن باشا⁽⁵⁾ منشغل بالمفاوضات والمعاهدة، والباي محمد الكبير⁽⁶⁾ يحاصر ويضغط عسكريا على إسبانيا بوهران والمرسى الكبير، منتظرا أوامر الداوي، وقد أثمر هذا التنسيق بين الداوي والباي، حيث تحولت وهران وميناء المرسى الكبير إلى قلعة في قبضة الجزائر وعامرة بالمسلمين.

1- المفاوضات الجزائرية-الإسبانية:

1.1- أسبابها: اختارت الملكية الإسبانية وحكومتها التفاوض كأسلوب لتسوية النزاع القائم مع الجزائر العثمانية حول وهران والمرسى الكبير بشكل نهائي، وبادرت إلى ذلك سنة 1791م، للأسباب التالية:

*الضغط العسكري للباي محمد الكبير 1780-1791م: مارس الباي محمدا الكبير (الذي حكم بإبليك الغرب الجزائري بين 1779-1797م) ضغطا عسكريا على وهران، من سنة 1780م إلى 1791⁽⁷⁾، تخللته ثلاث هدنات في التواريخ التالية:

- الهدنة الأولى: 1785-1787م.

- الهدنة الثانية: 25 مارس - 25 أبريل 1791م.

- الهدنة الثالثة: 20 جويلية - 03 أوت 1791م.⁽⁸⁾

وقد تنفس فيها إسبانيا وجيش الباي محمد الكبير الصعداء، ولما اشتد الضغط العسكري في مرحلة الحصار الثاني (1790-1791م)، عندما أشرك جيشا من طلبة

الزوايا⁽⁹⁾ رفقة قبائل الغرب الجزائري المخزنية، وعلى إثر استخدامه للمدفعية الثقيلة التي أثمرت هدنة ثلاثة لمدة خمسة عشر يوماً، انتهى خلالها الملك كارلوس الرابع (Carlos IV)، إلى البحث عن مسالك تفاوضية توجت بعقد معاهدة جلاء في 12 سبتمبر 1791م⁽¹⁰⁾ التي نحن بصدد دراستها.

*زلزال وهران في 8-9 أكتوبر 1790م: أحدث زلزال وهران الذي وقع يومي 8-9 أكتوبر 1790م خسائر مادية وبشرية بالغة، وأفرز انعكاسات خطيرة على الحياة الاقتصادية والاجتماعية للمستوطنين الإسبان بوهران، وكذا أعوانهم من العرب المسلمين المستقرين بالمدينة، عانوا خلالها الجوع والمرض وضياع الأملاك⁽¹¹⁾، ووقع عبء وهران في هذه النكبة على عاتق حكومة مدريد وملكها كارلوس الرابع؛ فشرعت في إلحاق المدد العسكري والمؤونة الغذائية، وأمامها ورشة بناء واسعة هي إعادة بناء وهران من جديد، وترميم وتجديد تحصيناتها المخربة، ولم ير التاج الإسباني أي فائدة من الاحتفاظ بوهران والمرسى الكبير ما دام التوسع الداخلي قد أصبح من المستحيلات أمام صلابة المقاومة العثمانية والعربية بباليك الغرب، والمشاكل الاقتصادية والاجتماعية التي تعيشها إسبانيا، وعليه نعتقد أنه بالإمكان أن يكون الزلزال أحد الأسباب التي جعلت حكومة مدريد تقرر نهائياً الإنسحاب المشروط من وهران والمرسى الكبير.⁽¹²⁾

*وفاة الداوي محمد بن عثمان باشا⁽¹³⁾ يوم 12 جويلية 1791م: في يوم الثلاثاء 12 جويلية 1791م بين الساعة السابعة والثامنة صباحاً، توفي الداوي محمد بن عثمان باشا عن عمر يناهز تسعين سنة تأثراً بمرض الحمى الذي لازمه عشرة أيام، وقد اشتهر بمعاملته الصارمة ومواقفه المتصلبة تجاه الدول المسيحية وبخاصة إسبانيا، وقام مقامه حسن باشا الذي قرر مواصلة الحرب على وهران، وهو ما عبرت عنه الرسالة التي أرسلها إلى الباي محمد الكبير ذاكراً فيها ما يلي: "إن كنت على يقين من أخذ البلاد أعنتك بما شئت"⁽¹⁴⁾، وفي خضم استمرار الحصار والقتال في عهد الداوي حسن باشا (1791-1798م)، وأمام تفوق الإسبان في عشرة هكتارات، تبين للقيادة العسكرية الإسبانية بوهران أن طلب الهدنة والعمل على تحقيق الصلح مع الداوي حسن والباي محمد الكبير أمراً لا مفر منه⁽¹⁵⁾.

*الثورة الفرنسية الأولى عام 1789م: وجد الوزير الأول الإسباني فلوريدا دي بلانكا (Florida de Blanca) نفسه بين نارين: إما مغادرة وهران وتفادي العدو الجزائري، والتفرغ لمجابهة أخطار الثورة الفرنسية القائمة منذ عام 1789م، أو الاحتفاظ بوهران والمرسى الكبير، ومجابهة عدوين على جبهتين، وكان من المنطقي أن يختار الطرح الأول، ويواجه الخط الفرنسي، وينضم إلى التحالف الأوروبي الذي جمع الأنظمة الرجعية الاستبدادية، إلا أنه فضل عقد معاهدة صلح تمكن الإسبان من مغادرة وهران والمرسى الكبير، والظفر بامتيازات اقتصادية⁽¹⁶⁾.

2.1- مسار المفاوضات: تقدّم وكيل إسبانيا بمدينة الجزائر إلى الداى حسن باشا طالبا منه الصلح وفق الشرطين التاليين: تعويض نفقات الباى محمد الكبير الحربية مقابل إقلاعه عن حصار وحرب وهران، واستدعى بحث شروط الصلح، وإقرار هدنة مدتها خمسة عشر يوما، يتشاور فيها أطراف القرار في الجزائر وإسبانيا، وقد وقع الاتفاق على الهدنة يوم السبت 28 ذو القعدة 1205هـ/20 جويلية 1791م، وينتهي أجلها يوم السبت 12 ذو الحجة 1205هـ/09 أوت 1791م⁽¹⁷⁾، ويظهر أن الشرطين قاسيان على الطرفين معا؛ فلا إسبانيا تقوى على تعويض نفقات الباى محمد الكبير، ولا الباى يقوى على ترك وهران للإسبان.

احتراما لشروط الصلح، أمر الداى حسن باشا الباى محمد الكبير بالرحيل عن وهران والدخول إلى معسكر: فكان ذلك يوم 28 ذو الحجة 1205هـ/30 جويلية 1791م، وهو كله غيظ من خلال ما نستشفه من كلام ابن سحنون الراشدي: "فبعث إلى الكفار يهددهم، ويتوعدهم بالعود..."⁽¹⁸⁾.

في 11 ذو الحجة 1205هـ/02 أوت 1791م دخل الباى محمدا الكبير مقر حكمه بمعسكر ليستقبل الهدية السلطانية⁽¹⁹⁾، الدالة على اعتناء الداى حسن باشا بالباى محمد، ويظهر لنا أن هذه الهدية التي قال عنها ابن سحنون: إنها تلت الخلعة السلطانية، هي إطراء لقلب الباى جراء رحيله عن وهران.

كان للتهديد الصادر من الباى محمد الكبير حين امتثاله لأمر الداى حسن باشا بالرحيل عن مدينة وهران وقع في نفوس الإسبان مما دفعهم إلى مراجعة أفكارهم، إذ أيقنوا أن الباى لا يترك القتال ولا يصدّه مانع دون افتكاك البلد ولو دفعوا له الأموال

الطائفة، لأن قصده هو تطهير مواطن حكمه من الدخلاء الذين اختاروا القوة العسكرية أسلوباً لفرض تواجدهم⁽²⁰⁾، وبالتالي يؤمن الباي محمداً الكبير بخيارين فقط هما: إما الاستيلاء على المدينة بقوة السلاح، أو استعادة المدينة والمرسى الكبير معاً بطريقة سلمية. عندما أوشكت مدة الهدنة على الانقضاء، ورد على مدينة الجزائر وفد إسباني ليصبح نقطة تجارية نشيطة تستفيد منها الدولة الإسبانية، وبالتالي يكون وجود برج الميناء قد أبلغ الداى حسن باشا أن الملك كارلوس الرابع يرفض دفع التعويضات الحربية للباي محمد في ظل بقاء عداوة هذا الأخير، وتهديده بالعودة إلى القتال، وأنه اختار تسليم وهران دون مينائها، وبناء مخزن أو مخزين ببرج الميناء⁽²¹⁾.

في هذا السياق، نشير إلى جواب الداى حسن باشا على ما تقدم به الوفد الإسباني، والذي تضمن تأكيداً للداى حسن مفاده أنه يريد قلعة وهران مع برج مينائها معاً حتى لا يكون نزاع مستقبلي مع الباي محمد أو القبائل المستقرة حول وهران، وفيما يتعلق بالمخازن التي يصّر الملك الإسباني على بنائها في برج الميناء، فإن حكومة الجزائر تتكفل ببناء أكثر من مخزن بالميناء، وحينئذ تزداد العلاقات القائمة بين الجزائر وإسبانيا قوة ومتانة⁽²²⁾.

قرر الداى حسن باشا في ختام رسالته المؤرخة في يوم 13 ذو الحجة 1205هـ الموافق لـ 04 أوت 1791م، أنه إذا كان في نية الملك الإسباني تسليم وهران؛ فليتم ذلك في مدة شهرين ابتداء من تاريخ الرسالة، وهو مستعد لتعيين أكبر عدد ممكن من الرجال لمساعدة الإسبان على إخلاء ما يوجد في المدينة من الممتلكات الإسبانية إذا لم يكن مانع⁽²³⁾.

في يوم الثلاثاء 15 ذو الحجة 1205هـ/02 أوت 1791م وصل بريد من الداى حسن باشا إلى الباي محمد الكبير، يعلمه بما استجد في موقف الملك كارلوس الرابع، ولمح له ضمناً أن تهديده ووعيده بالقتال في المستقبل هو الذي حال دون دفع الملك الإسباني للتعويضات المالية، بمعنى أنه بإمكانه أن يدفع المال لو زال التهديد⁽²⁴⁾، ثم استشاره بقبول تسليم البلاد كلياً أو قبول المال، لكن مع الإقلاع عن التهديد، وقد رد عليه الباي محمد الكبير بضرورة قبول البلاد كلها للمسلمين، لأنها لا تعوض بنصيب من المال، وأبدى له استعداداً بدفع المال من خاصة ماله إن كان في حاجة إلى ذلك⁽²⁵⁾.

يلاحظ أن هذا الرد كان بمثابة وضع النقاط على الحروف، ووقوف الداى حسن باشا والباى محمد الكبير على خط واحد بشأن قضية وهران والمرسى الكبير، ولا يحدد أحدهما عنه؛ فكلاهما تمسك بفكرة استعادة الثغرين معا، والتغاضي عن كل المثبطات والإغراءات التي تحول دون تجسيد هذه الفكرة على أرض الواقع.

في نهاية شهر ذي الحجة 1205هـ الموافق لأواخر أوت 1791م كتب الملك الإسباني للداى حسن باشا، يؤكد أنه اختار نهائيا تسليم البلاد المحتلة كليا على الصورة التي تركها المسلمون عام 1732م، أي تهديم ما بناه الإسبان عقب عودتهم إليها⁽²⁶⁾، وطلب منه أن يتشرف بقبول هذا الشرط، معلنا له في المقابل أن هذا الاختيار كان ضرورة له، إذ لا يؤمن دفع التعويضات المالية- التي هي ثقيلة على الدولة الإسبانية- التواجد الإسباني بوهران والمرسى الكبير في ظل التهديد الصادر من الباى محمد الكبير القاضي بتجديد القتال، ومعاودة الحرب مستقبلا⁽²⁷⁾.

تجدد الإشارة إلى أنه قبيل عقد المعاهدة، أوصى الوزير الأول الإسباني فلوريدا دي بلانكا نائب قنصل وهران ومبعوث ملك إسبانيا ميغال دي لاريا (Larrea Miguel de) ببعض المقترحات المتعلقة بتجنب التأويل السلبي لإرادة الملك دون كارلوس في مغادرة وهران والمرسى الكبير، ومنع دخول العرب والأتراك العثمانيين الثغرين قبل تمام الجلاء الإسباني عنهما، والإشارة إلى عزم إسبانيا على تهديم الحصون بوهران، وسحب المدافع وترك الأراضي الزراعية لرعايا الملك بوهران والذين يفضلون الاستمرار في فلاحتها⁽²⁸⁾.

أثناء سير المفاوضات رفض الداى حسن باشا تهديم كل الحصون، إذ اشترط أن تبقى الحصون القريبة من المرسى الكبير، وكذا مدافعها للدفاع عن مدينة وهران وحماية التجارة الإسبانية، ومقابل ذلك يدفع تعويضا لملك إسبانيا قدر بستمائة حمولة من القمح، وقد ألغى الداى حسن باشا الاقتراح الإسباني المتعلق ببقاء الأراضي الزراعية في حوزة رعايا الملك الإسباني⁽²⁹⁾.

توصل الداى حسن باشا ونائب قنصل وهران "دي لاريا" إلى اتفاق مبدئي لم يحضره الباى محمد الكبير، مثلما كان الأمر في معاهدة 1786م في عهد الداى محمد عثمان باشا، رغم أنه أدرك الحكام بقضية وهران وصلاحياته الواسعة بشأنها.

2- محتوى المعاهدة: تحتوي معاهدة الجلاء الإسباني عن وهران والمرسى الكبير الموقعة في 09 ديسمبر 1791م على استهلال وتسعة فصول أو بنود، وقمنا بتحريرها باللغة العربية اعتماداً على النص العثماني الذي ثبتناه في نهاية المقال كملحق، ويمكن عرض محتوى المعاهدة كالآتي:

"تحت عناية وعون ومعالي حضرته، وفي بداية شهر محرم الحرام لعام ست ومائتين وألف⁽³⁰⁾، وبواسطة المقيم هنا والحاضر بجانبنا، دون ميغال دي لاريا نائب قنصل وهران ومبعوث الملك الإسباني دون كارلوس الرابع، تم الكلام والاتفاق على معاهدة حول موضوع إخلاء قلعة وهران⁽³¹⁾ وشروط تخص منافعها.

الفصل الأول

هكذا، في بداية شهر محرم الحرام لعام ست ومائتين وألف، يستجيب سعادة سيدنا دولاتلي أفندي⁽³²⁾ حسن باشا متصرف ولاية الجزائر لرغبة حضرة بادشاه⁽³³⁾ إسبانيا الذي وبرضاه وإرادته وصداقته لسيدنا الدولاتلي أفندي حسن باشا، يتنازل ويغادر ويخلي قلعة وهران التي خضعت في الماضي لحكم الجزائر، وهي الآن تحت تصرفه.

الفصل الثاني

تهدم جميع الحصون المنشأة من طرف إسبانيا بقلعة وهران منذ عهد الاستيلاء عليها، وتسحب جميع المدافع ما عدا التي سميدها برضاه لحضرة البادشاه أفندي حسن باشا، وأثناء نقلها وإلى غاية تفريغ المواضع المذكورة من لوازمها ومغادرتها، لا يؤذن للعرب والعجم ممن يجاورون القلعة المذكورة الاقتراب منها ودخولها.

الفصل الثالث

هكذا، يغادر حضرة بادشاه إسبانيا وباحترام سيدنا حضرة حسن باشا، قلعة المرسى، شأنها شأن وهران، ويترك ذلك، بشرط أن يأمر حسن باشا باي الوطن⁽³⁴⁾، ليأذن للتجار الإسبان حسب مراده امتلاك بعض المخازن، وبناء دار للاستقرار بها⁽³⁵⁾، وممارسة البيع والشراء بوهران، وتمكنهم من السكن والإقامة.

الفصل الرابع

كذلك، ومقابل مغادرة حضرة البادشاه دولاتلي إسبانيا وبرضاه، وعن طواعية للوالي وداي الجزائر المحروسة عن القلعين المذكورين: وهران والمرسى بغرض ردهما

مجددا لمملكة⁽³⁶⁾ الجزائر، تخصص عمليتي بيع وشراء البضائع بقلعتي وهران والمرسى لطائفة التجار الإسبان، ويمكنهم شراء من أسواق القلعتين المذكورتين: القمح، الشعير، الفول، الحمص، الأغنام، البقر وسائر الأشياء مثل الشمع والجلود والصوف. ولا يؤذن لأحد من الأجناس الأخرى بالإقامة والقيام بالشراء والبيع في الأماكن المذكورة، ولا يمكن لهم بأية حال من الأحوال بممارسة الشراء والبيع.

الفصل الخامس

كذلك، يدفع باي الوطن كل سنة إلى دار الكريمة⁽³⁷⁾ عشرة آلاف حمولة⁽³⁸⁾ من القمح ومائة قنطار من شمع النحل، ويبيعها سيدنا أفندي لمن شاء، ولما يحين زمان البيع من كل سنة، يوّد الباشا سيدنا الإعلان عنه وإعلام الإسبان، وإذا أراد الإسبان الشراء، ودفع السعر المقدم من تجار الأجناس الأخرى، تشبع رغباتهم، ولا نبيع لغيرهم، لكن إذا دفع تجار الأجناس الأخرى بسعر أعلى من سعرهم، يباع لهم إذا رفض التجار الإسبان إضافة الزيادة.

الفصل السادس

كذلك، كما تم الاتفاق بين الطرفين المتعاقدين، خص التجار الإسبان بدفع مقدار معين من المال كعوائد جمركية، وبناء على القرار المتخذ، يدفع التجار الإسبان إلى دار الكريمة ألف قطعة ذهبية جزائرية، وبشأن السلع المشتراة والمصدرة إلى وهران والمرسى؛ فهي مُعفاة من طلب الرخصة، ومن المستحقات الجمركية، ولا نلزمهم بالدفع. ومن جهة أخرى، يسمح لهم سيدنا الباشا أفندي بشراء عشرة آلاف حمولة من القمح كل سنة، ولا تدفع السفن المكلفة بشحن هذه العشرة آلاف حمولة من القمح مستحقات الإرساء، بالمقدار الذي تدفعه سائر السفائن الأخرى. وما عدا السفن التي تشحن هذه العشرة آلاف حمولة من القمح، تدفع السفن الأخرى مستحقات الإرساء كما هو معتاد، وحسب وزن الشحنة، وباعتبار ستة ريال، وإلا قطع ذهبية جزائرية؛ فالريال يعادلها، ويشترى المذكورون العشرة آلاف حمولة من القمح بالسعر الذي تحدده السوق.

الفصل السابع

كذلك، بدءاً من اليوم، يمكن للسفن الإسبانية، سواء أكانت سفن حرب أو سفن بضائع، الدخول إلى موانئنا والخروج منها بلا مانع وبلا إذن، وذلك حسب احتياجات موانئنا، وبناء على المعاهدة العثمانية القديمة⁽³⁹⁾ لم يحق لها الدخول بلا إذن، ومن الآن أصبح الشرط المذكور والمشروح في الفصل الثاني والعشرين باطلاً بدون شرط، وبالتالي لا ينفذ.

الفصل الثامن

كذلك، نذكر أن يكون نقل كل أمتعة ولوازم قلعتي وهران والمرسى في أسرع وقت ممكن، وننبه ونؤكد أثناء الجلاء المشار إليه، يمنع على أي شخص من الخارج ارتكاب مانع أو تجاوز أو اعتداء.

الفصل التاسع

كذلك، فيما يتعلق بالغرف التجارية، يعني الغرف التجارية التي تجمع طائفة التجار الإسبان المقيمة بقلعة وهران وحصن المرسى، لا يمكن لأحد بلا وجه شرعي أن يفرغهم أو يهينهم، وبالمثل في موانئنا الأخرى، لا يجوز لأحد بلا سبب أن يفرغهم، أو يعتدي عليهم، أو يتهجم عليهم".

(يوجد خاتم حسن باشا، داي ووالي جزائر الغرب قبل استهلال المعاهدة وبعد

البند التاسع)

3- أهمية المعاهدة: تكتسي معاهدة الجلاء أو الانسحاب الإسباني من وهران والمرسى الكبير أهمية على صعيد الدولتين المتعاهدتين (إيالة الجزائر ومملكة إسبانيا)؛ فبالنسبة للجزائر نلاحظ أنها كانت بحاجة إلى هذه المعاهدة انطلاقاً من حاجتها لتحقيق السلم مع إسبانيا- الذي زكته بدءاً من معاهدة 14 جوان 1786- وإيقاف الحملات الإسبانية التي كانت ترهق الجزائر العثمانية⁽⁴⁰⁾، واستكمال عملية تصفية الاحتلال الإسباني من البلاد حيث بقيت وهران والمرسى الكبير آخر معاقل الإسبان في الجزائر، ولا بد من ردهما إلى دار الإسلام وإلى حياض السلطان العثماني سليم الثالث (1761-1808)، وإخضاعهما لسلطة الحكومة العثمانية في الجزائر، وزيادة على ذلك وفرت هذه المعاهدة- في اعتقادي- الكثير من العناء النفسي والمادي على الباي محمد الكبير الذي خاض حصاراً وقتالاً ضد الإسبان المحتلين لوهران منذ توليه سدة الحكم

ببايليك الغرب وتحديدًا سنة 1779، ولم يتمكن من اختراق أسوارها وهدم حصونها بسبب مناعتها، وقوة التحصينات العسكرية التي شيّدت بعد سنة 1732⁽⁴¹⁾.

وفي المقابل كانت هذه المعاهدة هي الأخرى ضرورية وذات أهمية بالنسبة لإسبانيا، رغم أنها خسرت وهران والمرسى الكبير، لأن إسبانيا كانت تعيش أزمة مالية واقتصادية، وكلفها الباي محمد الكبير خسائر مادية بفعل الحصار الذي أطبقه على وهران التي كانت تمون غذائيا من البلاد الإسبانية، ناهيك عن الزلزال العنيف الذي ضرب وهران في أكتوبر 1790، والذي استمرت هزاته مدة أسبوع تقريبا، مُخلفًا خسائر مادية وبشرية جسيمة، ومن جهة أخرى قدمت معاهدة الجلاء لإسبانيا امتيازات تجارية وامتيازات اجتماعية محصورة في السكن والإقامة على مستوى وهران والمرسى الكبير، موزعة على فصول المعاهدة.

4- نتائج المعاهدة: من أهم النتائج التي حققتها المعاهدة هي كالاتي:

1- انسحاب الإسبان من وهران والمرسى الكبير، ودخول جيش الباي محمد الكبير وعائلته وحاشيته القلعتين يوم 27 فبراير 1792م، في جو احتفالي كثر فيه التكبير والأذان، والصلاة على الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وضربت المدافع والطبول⁽⁴²⁾.

2- تكريم الباي محمد الكبير من طرف الداى حسن بقصره بالجزائر العاصمة، وإلباسه الريشة الذهبية التي وضعها على عمامته عرفانا بقدرة، وعلامة على أنه من المقربين للداى⁽⁴³⁾.

3- إخضاع وهران والمرسى الكبير لحكم الباي محمد الكبير⁽⁴⁴⁾.

4- نقل عاصمة بايليك الغرب الجزائري من معسكر إلى وهران اقتداء بالباي مصطفى بوشلاغم عقب تحريرها سنة 1708.

5- إعلان الباي محمد الكبير العفو على المسلمين الذي عاشوا مع الإسبان بوهران حتى لا يرتحلوا معهم إلى إسبانيا⁽⁴⁵⁾.

6- بعث الداى حسن ببيعة الفتح للأقطار الصديقة لإيالة الجزائر القريبة والبعيدة، ووجه للسultan العثماني سليم الثالث كتاب البشارة ومفاتيح وهران دلالة على الطاعة والولاء⁽⁴⁶⁾.

7- دعوة الباي محمد الكبير إلى تعمیر وهران؛ فوفدت عليه مجموعات من مدن بايليك الغرب الداخلية، ومجموعات من قبائل المخزن والدواير والغرابية، ومجموعات من المغرب الأقصى (وجدة، فاس ومراكش)، وكثير من اليهود قدموا من تلمسان وندرومة ومستغانم ومعسكر⁽⁴⁷⁾.

8- تحقيق الوحدة الترابية لإيالة الجزائر، وتعزيز سيادتها في الداخل والخارج.

9- تحسن واستقرار العلاقات السياسية بين الجزائر العثمانية وإسبانيا، حيث التحق العديد من القناصل الإسبان بوهران والجزائر وعنابة⁽⁴⁸⁾.

10- استفادت إسبانيا من امتيازات جمركية وتجارية على مستوى وهران والمرسى الكبير، وتصاعدت وتيرة المبادلات التجارية مع الجزائر حيث تأسست عدة شركات تجارية إسبانية مثل شركة "كامبانيا Compagna" سنة 1792 التي انصببت اهتماماتها على شراء الحبوب والمواشي، وشركة صيد المرجان التي باشرت نشاطها سنة 1791، وشركة "غاريجو Garrigo" التي اهتمت بشراء الجلود والصوف والشمع والحبوب⁽⁴⁹⁾.

11- استفاد التجار الإسبان بوهران والمرسى الكبير من السكن والإقامة والحماية من كل أشكال الاعتداء النفسي أو الجسدي⁽⁵⁰⁾.

خاتمة: لقد تم إعداد نص المعاهدة باللغة العثمانية في 12 سبتمبر 1791م، ولم يتم المصادقة عليه من طرف الداى حسن باشا إلا في 09 ديسمبر 1791م بسبب اختلاف النص الإسباني عن النص العثماني في الفصول التالية:

- في الفصل الخامس: أهمل النص الإسباني دور تجار الأجناس الأخرى في شراء البضاعة، إذا دفعوا سعرا أعلى من السعر الذي يقدمه الإسبان.

- في الفصل السابع: أهمل النص الإسباني القيود التجارية التي أقرها الداى حسن باشا على السفن الإسبانية.

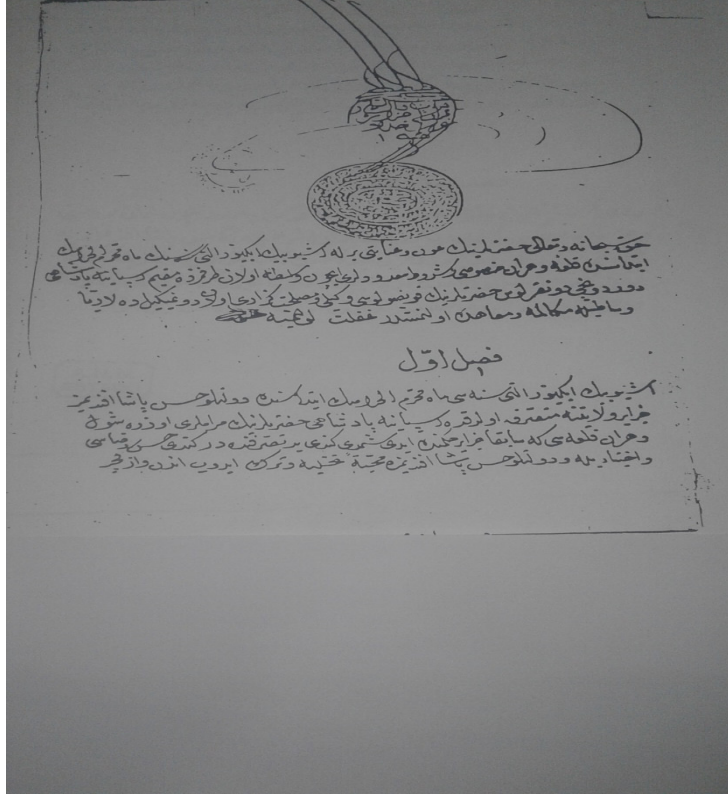
- في الفصل الثامن: رفض النص الإسباني سرعة الجلاء عن وهران والمرسى الكبير.

- في الفصل التاسع: يعمم النص الإسباني حسن المعاملة إلى كل الإسبانين، أي التجار وغيرهم الذين يقصدون وهران.

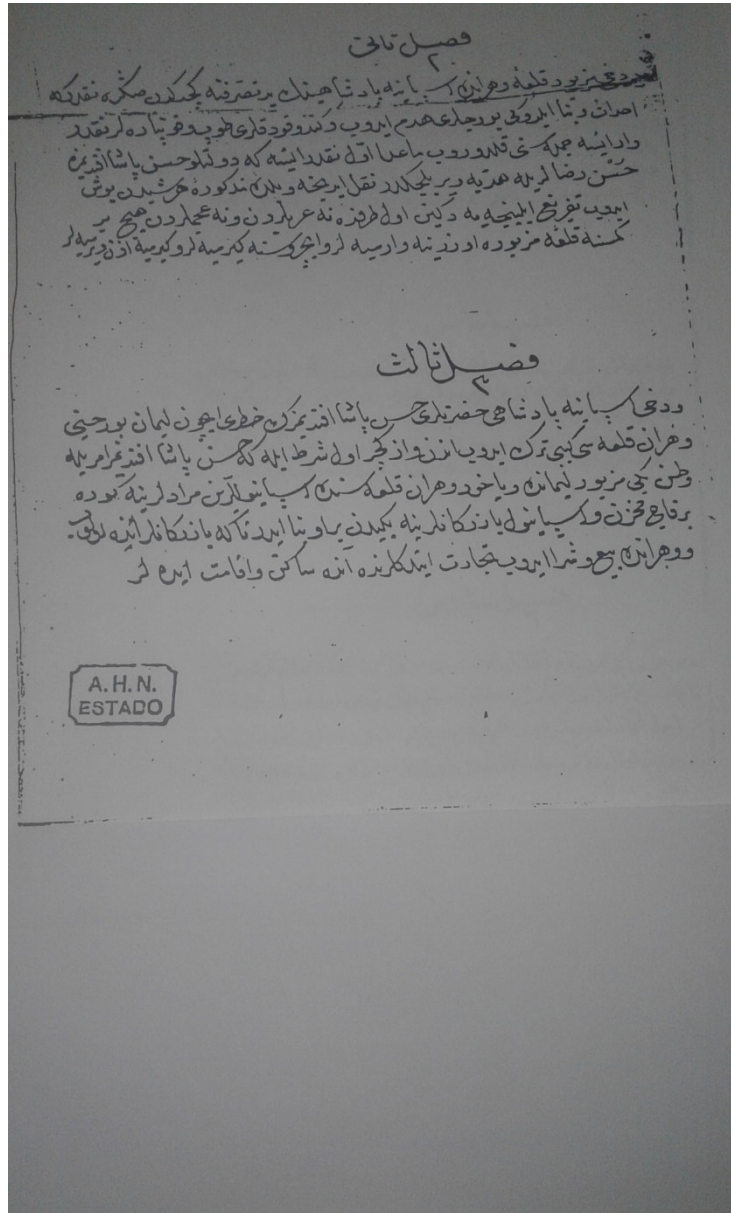
ويظهر لنا جليا أن معاهدة الجلاء الإسباني عن وهران والمرسى الكبير سنة 1791م قد أثبتت أن الاحتلال الإسباني الثاني لوهران والمرسى الكبير بين 1732-1792 تم إنهاؤه بطريقة سلمية عكس ما وقع سنة 1708م حيث انسحب الإسبان من الثغرين عنوة.

الملحق: معاهدة الصلح حسب النص العثماني (أربع صور)

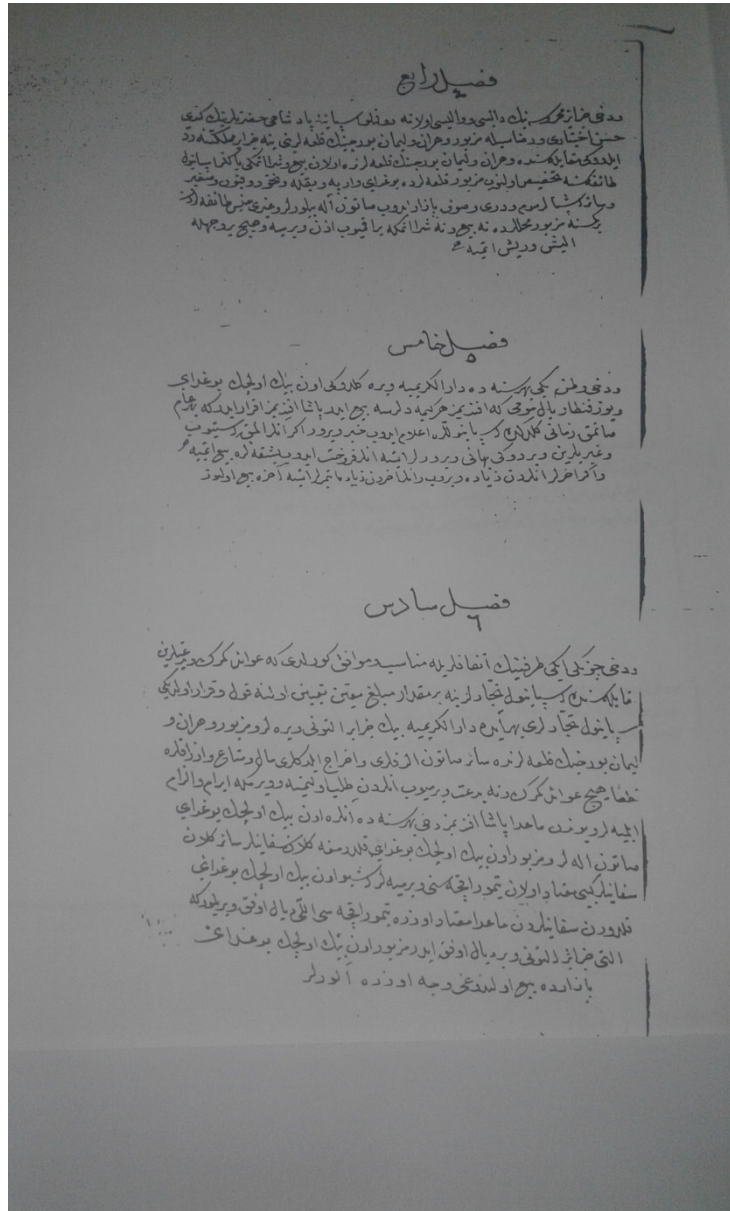
الصورة رقم 1: تشتمل على ختم الداوي حسن باشا واستهلال المعاهدة والفصل الأول.



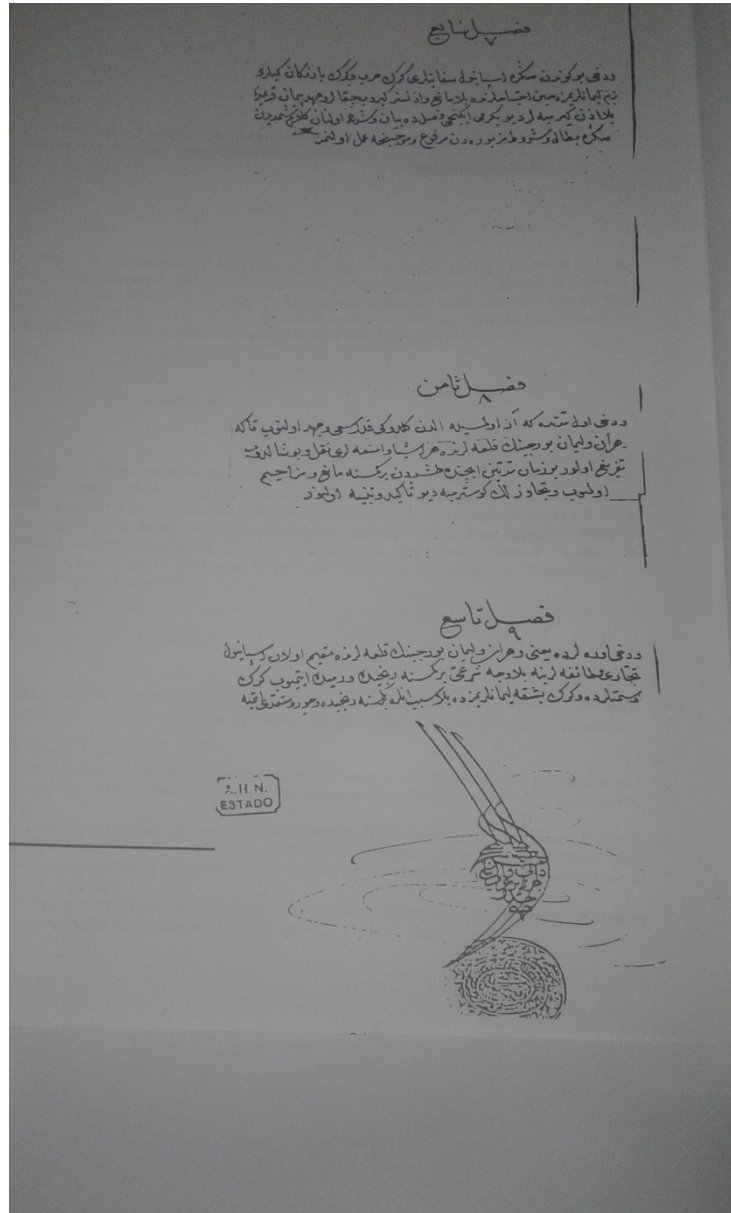
الصورة رقم 2: تشتمل على الفصلين الثاني والثالث للمعاهدة



الصورة رقم 3: تشتمل على الفصل الرابع والخامس والسادس للمعاهدة.



الصورة رقم 4: تشتمل على الفصل السابع والثامن والتاسع للمعاهدة وتنتهي بختم
الداي حسن باشا.



الهوامش:

1- عثرنا على النص العثماني لمعاهدة الصلح بين الجزائر وإسبانيا سنة 1791م في رسالة ماجستير ناطقة باللغة الإسبانية مفرسة في المكتبة الجامعية بوهران كالآتي:

Araf, Kheira. *Las relaciones argelio- españolas durante el reinado del dey hassan bacha (1791-1798)*. Magister, Oran, 1989.

AHN.Estado, Lejado 3606.

وهو مستخرج من الأرشيف الوطني الإسباني.

وقدمت لنا الأستاذة القديرة السيدة بلعربي ليوبوف Belarbi Lioubov ترجمة للنص العثماني باللغة الفرنسية، وهي ترجمة غير منشورة، تحت عنوان:

Traduction inédite du manuscrit ottoman de la langue Osmanlidja (Osmanlica) en langue rançaise.

2- تعتبر وهران إحدى القلاع والمدن الساحلية الواقعة في الغرب الجزائري، احتلها الأسبان سنة 1509، إلى أن حررها الـداي محمد بكداش والباي مصطفى بوشلاغم سنة 1708، لكن عاد إليها الاحتلال الأسباني سنة 1732 وظلت بؤرة من بؤر النزاع والتصادم العسكري بين العثمانيين والأسبان الذين أجبروا على الجلاء بطريقة سلمية جسدها معاهدة 1791 التي نحن بصدد دراستها.

3- المرسي الكبير هو أحد الموانئ الاستراتيجية بغرب الجزائر، يبعد عن مدينة وهران بحوالي ست كيلومترات، احتله الجيش الأسباني سنة 1505، وحرر سنة 1708 ثم أعيد احتلاله سنة 1708 إلى أن حرر نهائيا سنة 1792 بموجب معاهدة 1791، ويكاد يرتبط تاريخه بتاريخ مدينة وهران. وحول المرسي الكبير وأهميته، يمكن مطالعة كتاب:

Robert Tintoin. **Mers El Kebir**. Oran, 1956.

4- معاهدة 1786: وهي أول معاهدة مبرمة بين إيالة الجزائر وأسبانيا التي أيقنت عدم جدوى الخيار العسكري في سبيل تنفيذ مشاريعها في الجزائر، ومن خلال هذه المعاهدة تحسنت العلاقات الدبلوماسية والسياسية والتجارية بين الطرفين لكنها أبقّت قضية وهران والمرسي الكبير معلقة مما جعل الباي محمد الكبير يخوض حربا ضد الأسبان المحتلين لوهران.

ولمزيد من المعلومات حول معاهدة الجزائر وأسبانيا سنة 1786 يمكن مطالعة: مولاي بلحميسي. "صفحات من تاريخ العلاقات الجزائرية الأسبانية - معاهدة 1786 بين الجزائر وأسبانيا، سبب إبرامها، مضمونها، نتائجها." مجلة تاريخ وحضارة المغرب، العدد 11، جوان 1974/عبد القادر فكايير. "معاهدتا الجزائر مع أسبانيا 1786 و 1791 ظروفهما وانعكاسهما على العلاقات بين البلدين" مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، العدد 05، 2016. صص 215-241.

5- الـداي حسن باشا: حكم إيالة الجزائر بين 1791 و 1798 خلفا للداي محمد عثمان باشا، وتفتح فترة حكمه وشخصيته الكثير من التساؤلات المرتبطة بما آلت إليه الجزائر من تدهور والسير نحو الانهيار.

6- الباي محمد الكبير: هو الباي محمد بن عثمان الكردي الملقب بالكبير لجلالته أعماله، اعتلى منصب الباي سنة 1779 وكان تحرير وهران والمرسي الكبير من أولى اهتماماته، توفي سنة 1797. ولمزيد من المعلومات حول هذا الباي المصلح يمكن مطالعة:

-بلبروات بن عتو. "الباي محمد الكبير - باي وهران : 1779-1797حياته وسيرته" مجلة عصور، العدد 03، جوان 2003. ص ص: 151-158-7- ابن سحنون الراشدي، أحمد بن علي. الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني. منشورات وزارة التعليم الأصلي، قسنطينة، 1973. صص 29، 183.

8-Terki Hassaine, Ismet. **Documentation Espagnola sobre Argelia : Ocho legajos del archivo historica nacional de Madrid sobre las relaciones hispanico-argelinas. 1767-1799**. D.E.A , Oran, 1980. P : 139.

9- حول دور الطلبة في تحرير وهران، يمكن مطالعة : حماش، خليفة " دور الطلبة الجزائريين في تحرير مدينة وهران من الاحتلال الأسباني عامي 1118هـ/1706-1707م و 1205هـ/1791م (مقاربة تاريخية في تأصيل الحركة الطلابية الجزائرية)" مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، العدد 09، 1422هـ/2001م. ص ص: 204-222.

ابن سحنون الراشدي، أحمد بن علي. المصدر السابق، ص: 254-10.

11-Malki, Nordine. « Le tremblement de terre d'Oran d'octobre 1790 et les tentatives du bey de Mascara pour la libération de cette ville d'après des archives nationales historiques de Madrid. » **In Actes de séminaire international sur les sources espagnols de l'histoire Algérienne**. Oran, 20-22 Avril 1981. P : 304.

12- Alazard, Autre. **Histoire et historiens de L'Algérie**. Collection du centenaire de 1830-1930. Paris, p :261.

13- الـداي محمد عثمان باشا: حكم إيالة الجزائر بين 1766-1791 اشتهر بالصرامة في الحكم والعمل الإصلاحية والمواقف المتصلية تجاه الدول الغربية. ولمزيد من المعلومات حول الرجل، يمكن مطالعة: أحمد توفيق المدني. محمد عثمان باشا، داي الجزائر 1766-1791. المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986. 14- ابن سحنون الراشدي، أحمد بن علي. المصدر السابق، ص: 298-15- المصدر نفسه، صص: 300-303.

16- Araf, Kheira. *Las relaciones argelio- españolas durante el reinado del dey hassan bacha (1791-1798)*. Magister, Oran, 1989. pp : 238-239.

17- أبو راس الناصري، محمد بن أحمد بن عبد القادر. عجائب الأسفار ولطائف الأخبار. مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية. رقم 3327، ورقة 67 (ظ/ابن سحنون الراشدي. المصدر السابق، صص 300-303. 18- ابن سحنون الراشدي. المصدر نفسه، ص: 304. 19- المصدر نفسه، ص: 300. 20- المصدر نفسه، ص 307. 21- المصدر نفسه ص 307. 22- بوعزيز، يحيى. المراسلات الجزائرية الإسبانية في أرشيف التاريخ الوطني لمدرسة 1798-1780. ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1993. ص: 150. 23- المرجع نفسه، ص: 150. 24- ابن سحنون الراشدي، أحمد بن علي. المصدر السابق، ص ص: 380-390. 25- المصدر نفسه، ص: 309. 26- اشترط الملك الإسباني كارلوس الرابع على الداى حسن تهديم كل الحصون والأبراج التي بناها الإسبان بوهران والمرسى الكبير منذ عودتهم إليهما سنة 1732 بهدف تجريد القلعتين من قوتهما وحتى لا تستعصيان على الإسبان إذا حاولوا احتلالهما مرة تالفة. 27- ابن سحنون الراشدي، أحمد بن علي. ص 309.

28- Araf, Kheira. Op, Cit. pp : 42-43. 29- Idem.

30- تم إعداد معاهدة الجلاء الإسباني عن وهران والمرسى الكبير باللغة العثمانية في بداية محرم 1206 هـ الموافق لـ 12 سبتمبر 1791م، وصادق عليها الداى حسن باشا في 09 ديسمبر 1791م. 31- أفصح استهلال المعاهدة عن الأطراف الحاضرة للتوقيع وكذا تاريخها حسب التقويم الهجري وموضوعها المتمثل في إخلاء قلعة وهران بشروط إسبانية لكنه لم يذكر في الاستهلال المرسى الكبير، رغم أن الإخلاء قد شمل الموقعين معا، حيث ذكر في الفصل الثالث من المعاهدة إخلاء قلعة المرسى وكان الأمر تم استدرأه. 32- دولاتلي أفندي: لقب يطلق على كبار النبلاء العثمانيين مثل الوزير، الباشا، والصدر الأعظم. 33- بادشاه: لقب حكم فارسي يعني الملك، الإمبراطور، ويحمل السلطان العثمانيين ثلاثة ألقاب رسمية هي: البادشاه، السلطان، والخان. 34- يقصد بباي الوطن، باي الغرب الجزائري " محمد بن عثمان الكبير".

35- يقصد بدار للاستقرار- في اعتقادي- الغرفة التجارية بوهران. 36- إن ورود كلمة "مملكة" في النص العثماني للمعاهدة يثير تساؤلات حول طبيعة الحكم في إيالة الجزائر. هل هو حكم جمهوري أم عسكري أم ملكي؟ وتلاحظ أن استخدام كلمة المملكة في نص رسمي لحكومة الجزائر يتوافق مع ما تداولته الكتابات الأجنبية وخاصة الفرنسية التي تنعت الجزائر العثمانية بمملكة الجزائر- Le Royaume D'Alger. 37- دار الكريمة: دار المالية. 38- الحمولة: وحدة وزن عثمانية تساوي 12 أوقية، وأوقية استانبول كانت تعادل 1232 غرام. 39- يقصد بالمعاهدة العثمانية القديمة في نص معاهدة 1791: معاهدة 14 جوان 1786م.

40- تصدت مدينة الجزائر العاصمة لثلاث حملات بحرية إسبانية في السنوات التالية: 1775، 1784، وكانت كلها فاشلة. لمزيد من المعلومات انظر عبد القادر فكايير. الغزو الإسباني للسواحل الجزائرية وأثاره 1792-1505. دار هومه للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2012. 41- بن عتو بلبروات. " التحرير الثاني والنهائي لوهران والمرسى الكبير عام 1206هـ/1792م. " مجلة عصور، العدد 5-4، جامعة وهران، 2003-2004. صص 263-272. 42- ابن سحنون الراشدي، أحمد بن علي. المصدر السابق، صص 457-458. 43- شالر ويليام. مذكرات ويليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر 1816-1824. تعريب وتعليق وتقديم إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982. ص 35. 44- مولود قاسم نايت بلقاسم. شخصية الجزائر الدولية وهيبته العالمية قبل سنة 1830. ط1، دار البعث، قسنطينة، 1405هـ/1985م، ج 1 ص 177. 45- ابن سحنون الراشدي، أحمد بن علي. المصدر السابق، ص 464. 46- المصدر نفسه، صص 452-454. وأيضا:

Fey Henri Léon. *Histoire d'Oran avant, pendant et après l'occupation espagnole-Oran, 1858*. P.269.

47- الزهار أحمد الشريف. مذكرات أحمد الشريف الزهار-نقيب أشراف الجزائر- تحقيق أحمد توفيق المدني، ط2، ش.ون. ت، الجزائر، 1980. ص 63. 48- عبد القادر فكايير. "معاهدتا الجزائر وإسبانيا...". صص 231-232. وخصص الباحث في مقاله ملحقا لقائمة القناصل الإسبان ونوابهم ومستشاريهم بمدن الجزائر وعنابة ووهران بعد 1786م. صص 239-240. 49- المرجع نفسه، صص 232-233. 50- في هذا الشأن يراجع ما ورد في الفصلين الثالث والتاسع لمعاهدة الجلاء الإسباني المبينة سابقا.

النساء الحضر والنشاط الحرفي في الجزائر
خلال الفترة العثمانية على ضوء الكتابات الأجنبية
Urban women and artisan activity in Algeria during the
Ottoman period in the light of foreign writings

اسم ولقب المؤلف المرسل للمقال: شريط إيمان- Cherit Imane صص 266-275

الدرجة والعنوان المهني: طالبة دكتوراه- وهران1 جامعة أحمد بن بلة

البريد الإلكتروني: cherit1987@gmail.com

اسم ولقب المؤلف الثاني: حمدادو بن عمر- Hamdadou Benamar

الدرجة والعنوان المهني: أستاذ- جامعة وهران1 أحمد بن بلة

البريد الإلكتروني: Sidahmed1976@gmail.com

تاريخ استقبال المقال: 2020/03/13 تاريخ المراجعة: 2020/04/01. تاريخ القبول: 2020/04/20

الملخص بالعربية: لقد عرف النشاط الحرفي تنوعًا وازدهارًا في الجزائر خلال الفترة العثمانية، حيث قامت النساء إلى جانب الرجال بامتهان العديد من الحرف الإنتاجية، الخدماتية والتسويقية خاصة النساء الحضر اللواتي استقررن في مختلف مدن الجزائر، ومما ساعد على ذلك وفرة المواد الأولية ذات المصدر الحيواني والنباتي، والتي كانت تجلب في الغالب من الأرياف في إطار حركة المبادلات التجارية التي كانت تتم بين المدن والأرياف. تتفق معظم الكتابات التاريخية على أن النساء في المناطق الحضرية أو ما يعرف باسم النساء الحضر اشتغلن في العديد من المهن الإنتاجية والخدمية، وبخاصة النساء الحضر اللواتي سكنن في مدن الجزائر.

وفي هذا المقال نقوم بدراسة تاريخية حول دور النساء الحضر في ازدهار النشاط الحرفي داخل المدن في إيالة الجزائرية خلال الفترة العثمانية من خلال التعرف على أهم الحرف التي امتهنوها وطريقة ممارستها ودورها في إثراء النشاط الحرفي في الجزائر خلال الفترة العثمانية، استنادًا إلى مجموعة من الكتابات الغربية، وقد ركزت في بحثي هذا على ثلاثة مصادر مهمة باعتبارها أولت اهتماما كبيرا بموضوع بحثي، وهي "مذكرات ويليام شالر" للقنصل الأمريكي ويليام شالر، و"ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا" لهانريش فون

مالتسيان، و"مذكرات جزائرية عشية الإحتلال" لسيمون بفايفر باعتبارها أولت اهتماما كبيرا بموضوع بحثي، وتضمنت معلومات غزيرة عن المرأة الحضرية عامة، والحرفية منها خاصة خلال الفترة العثمانية.

الكلمات المفتاحية: النساء الحضر، النشاط الحرفي، الحرف، الفترة العثمانية، الكتابات الأجنبية، حرفة الخياطة، حرفة النسيج، صناعة الأواني.

Abstract: *The craft activity in Algeria during the Ottoman period witnessed diversification and prosperity as a result of the spread of the various types of crafts that were practiced by men and women, and this was helped by the spread of various craftsmanship institutions such as workshops, shops and markets, in addition to the abundance of raw materials of animal, vegetable and mineral origin. Most historical writings agree that urban women or what are known as women have abused many productive and service trades, especially urban women who have settled in the cities of Algeria.*

In this article, we are conducting a historical study on the role of urban women in the flourishing of artisanal activity by identifying the most important productive, service and marketing trades that they possessed and the way they were practiced and their role in enriching artisan activity in Algeria during the Ottoman period based on a group of foreign writings. I have focused in my research on this three Important sources paid attention to my research topic, They are the "memoirs of William Schaller" the American consul, and "Three years in Northwest Africa" by Heinrich von Maltsian, and "Algerian notes before the occupation" by Simon Pfeiffer", which gave rich information about urban women and craftsmanship during the Ottoman period.

Keywords: Urban women- artisan activity- crafts- Ottoman period- foreign writings- sewing craft- weaving craft- pot industry.

مقدمة: لعبت النساء دورًا كبيرًا في بناء المجتمع الجزائري خلال الفترة العثمانية على اختلاف انتمائهن، وبخاصة النساء الحضر باعتبارهن سكنن في حواضر الإيالة مما سمح لهن بالإحتكاك بمختلف فئات النساء كالوافدات من الميزابيات والبسكريات والقبائل، وحتى النساء الأجنبية من المسيحيات واليهوديات والأندلسيات اللواتي أتين إلى الجزائر، هذا ما جعلهن يكتسبن أفكارا وعادات وحرف جديدة ساهمت في جعلهن يلعبن دورا كبيرا في المجتمع الجزائري مقارنة ببقية النساء؛ فما هي الصفات التي تميزت بها النساء الحضر؟ وكيف كانت حياتهن اليومية؟ وإذا أولت هذه الفئة من النساء اهتماما بالنشاط الحرفي؛ فما هي أهم الحرف التي اهتم بها؟ وكيف كانت تتم ممارستها لها؟ وهل لعبن دورا في انتعاش النشاط الحرفي.

ولإنجاز هذه الورقة البحثية ركزت على ثلاثة مصادر مهمة باعتبارها أولت اهتماما كبيرا بموضوع بحثي، وهي "مذكرات ويليام شالر" للقنصل الأمريكي ويليام شالر، و"ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا" لهاينريش فون مالتسيان، و"مذكرات جزائرية عشية الإحتلال" لسيمون بفايفر.

1- مفهوم فئة الحضر: الحضر هم سكان المدن⁽¹⁾، وكانوا يسمون أنفسهم بعرب البلد أو عرب المدينة، أما الأوروبيون والأجانب عموما فكانوا يطلقون عليهم إسم "المور"⁽²⁾، وهم خليط من السكان الأصليين العرب والأندلسيين المهاجرين⁽³⁾ والكراغلة الذين نتجوا عن الإختلاط الحاصل بين العرب والأتراك الذين تزوجوا بجزائريات، وهنا تذكر العديد من الكتابات الأجنبية أنه لم يكن يسمح للمجندين بأن يأتوا بالنساء التركيات معهم⁽⁴⁾، ورغم اختلاف أجناسهم إلا أن الحضر شكلوا فئة متجانسة لها شخصية قوية متميزة يدينون بالإسلام⁽⁵⁾، كما كان أسلوب حياتهم يختلف عن بقية فئات المجتمع، إذ نجد طبقة غنية تعيش حياة الرفاهية والهدوء، يشتغل الآباء والأزواج من خلال ممارسة التجارة، أما الطبقة المتوسطة فكان أفرادها يمارسون مختلف الحرف والصناعات⁽⁶⁾.

وصف شالر حضر مدينة الجزائر التي كان يقيم فيها فقال: "... هؤلاء السكان أبعد ما يكون عن البربرية التي يتصف بها بعض الجزائريين؛ فإن سلوكهم لياقة ومجاملة، وأنا قد وجدتهم في المعاملات اليومية دائما مهذبين ومتدينين وإنسانيين، وأنا لم أكتشف فيهم حتى أعراض التعصب الديني أو كره الأشخاص الذين لا يدينون بدين آخر غير دينهم..."⁽⁷⁾.

2- صفاتهم وطباعهم: من الصعب جدا حسب هذه الكتابات الغربية إعطاء وصف دقيق للنساء الحضر لأنه لم يكن يسمح لهن بالخروج إلا نادرا، كما أنه قلما تتاح للأجانب فرصة رؤية المرأة العربية؛ فوصفهن كان يتم حسب رواية بعض النساء الأجنبية اللواتي اختلطن بهن أو حسب جمال أبنائهن⁽⁸⁾، أو من خلال لمحهن في سطوح منازلهن التي يصعدن إليها قصد الترويح عن أنفسهن، وحول ذلك يقول ويليام شالر: "... وبذلك تبقى هذه السطوح وقفًا على النساء...؛ فنحن يمكننا في بعض الأمسيات أن نلمح سحر هذه الأسيرات الجميلات اللاتي يستفدن من اللحظات القليلة... لاستنشاق الهواء..."، كما يؤكد ويليام شالر على أن النساء الحضر يتميزن بجمال ينافس به

الأوروبيات، وذلك من خلال بياض بشرتهن وطول قامتهن وجمال عيونهن⁽⁹⁾، إلا أن سيمون بفايفر يذكر عكس ذلك إذ يؤكد على فكرة أن جمال هؤلاء النساء كان متوسطاً، ويستدل على ذلك بمجموعة من الصفات التي تتميز بها كالسمنة واصفرار الوجه الذي يرجع حسبه إلى مكوثهن الطويل في المنازل⁽¹⁰⁾.

لكن هذه المرأة يبدأ جمالها في الزوال بداية من سن الخامسة والعشرين إذ تصبح جدة في هذا السن⁽¹¹⁾، ويفسر سيمون بفايفر ذلك بزواجها المبكر، وإنجابها للكثير من الأطفال⁽¹²⁾، والإفراط في استعمال الحمامات البخارية⁽¹³⁾، وفي هذا الصدد يقول: "... وقد رأيت نساءً بين الخامسة والعشرين والثلاثين تبدو الواحدة منهن أكبر سناً من امرأة شمالية في الخامسة والأربعين من عمرها..."⁽¹⁴⁾.

أما عن طباعهن فتتميزن بحمهن لحياة الرفاهية، وهو ما تعكسه بيوتهن التي تجهز بالأثاث الراقى الذي يختلف عن أثاث بقية السكان، وامتلاكهن للجواري اللواتي يقمن بشؤون المنزل، يقول بفايفر: "... وليس للمرأة باعتبارها ربة بيت ما تفعله...، وحتى إذ لم يكن زوجها غنياً وكان متوسط الحال فإن لها عدد كبير من الجواري يقمن بشؤون البيت..."، ونرى أنه كان مبالغاً في ذلك لأن النساء الجزائريات تميزن بحمهن وإتقانهن لأعمالهن المنزلية، كما أن تكلفة زواجهن كانت مرتفعة مقارنة بباقي النساء⁽¹⁵⁾، كما عُرفت نساء المدن بالأناقة، وذلك بسبب انعزالهن وتأثرهن بالأتراك⁽¹⁶⁾، حيث كانت تُصنع ملابسهن من أجود أنواع القماش الذي يستورد من أوروبا⁽¹⁷⁾، يقول شالرحول فخامة ملابس المرأة: "... إنها ترتدي ثوباً متعدد الألوان، وهو ثوب بنات الملوك وحلية الأبقار..."⁽¹⁸⁾، كما ترتدي أجمل الحلي المصنوعة من المعادن الثمينة كالذهب والفضة التي ترتديها الحضريات طول حياتهن⁽¹⁹⁾، وتلبسن سلاسل متدلّية وأقراط ثقيلة مرصعة بالأحجار الكريمة والمرجان، وبخاصة في الأفراح والمناسبات⁽²⁰⁾.

كما اتّصفت النساء بغيرتهن على أزواجهن، وهذه الصفة جعلت العديد من الكتابات تفسر امتناع أزواجهن عن تعدد الزوجات، إضافة إلى أن غرورهن لا يسمح لهن بوجود امرأة أخرى⁽²⁰⁾ قريهن لدرجة أنهن يحتقرن كل أولئك اللواتي يسمحن لأزواجهن باتخاذ امرأة أخرى⁽²¹⁾، وهو ما جعل العدد القليل من الرجال يستفيدون من ترخيص الإسلام لهم بالزواج؛ فيكتفون بامرأة واحدة بالرغم من مكانتهم الراقية والثروة التي يتمتعون بها⁽²²⁾.

4- عاداتهن اليومية: لقد تميز نمط حياة النساء الحضر بمجموعة من الممارسات التي تميزهم عن بقية نساء المجتمع الجزائري خلال تلك الفترة، والتي نذكر منها:

1.4- التسليات اليومية: باعتبار أن النساء الحضريات لم يكن يسمح لهن بالخروج إلا نادراً؛ فالترفيه عن أنفسهن كان يتم من خلال اللقاءات المتبادلة بين النساء، والتي تتم في الحمامات أو البيوت⁽²³⁾، إضافة إلى تنظيمهن لمأدبات في منازلهن يدعون إليها صديقاتهن، ويحضرن فيها مختلف الأطعمة الفاخرة التي تعدها الجوارى، ولم يكن يسمح للرجال البقاء في المنزل خلالها، وهو ما جعلهم يكرهون هذه العادة⁽²⁴⁾، وبخاصة أن هذه الحفلات كانت تستغرق وقتاً طويلاً⁽²⁵⁾، وعلى عكس نساء الريف اللواتي لا يعرفن التسلية أو الاجتماعات لأنشغالهن بالأعمال المنزلية⁽²⁶⁾.

2.4- ترددهن على الحمامات: احتلت الحمامات مكانة هامة في حياة الحضر حيث كنّ يترددن عليها كثيراً، إذ وجدت حمامات خاصة بالنساء وأخرى بالرجال⁽²⁷⁾، وكانت هذه الحمامات تشبه إلى درجة كبيرة حمامات القسطنطينية والقاهرة وغيرها من مدن المشرق⁽²⁸⁾، وكان الحمام هو المكان الذي ينظف المسلم فيه جسمه دينياً وصحياً⁽²⁹⁾، أما اجتماعياً فهو المكان الذي تلتقي فيه النساء، وتتفقن فيه حول أمور الزواج ومختلف الأحداث العائلية، ويصفها هايدو بقوله: "... كانت بناياتها واسعة ونظيفة، مضاءة من السقف، ومجهزة بالماء الساخن والبارد..."⁽³⁰⁾، كما يشكل زيارتهن مرة في الأسبوع إلى الحمامات حدثاً تقليدياً تنظيفياً تتباهى فيه النساء من خلال إظهار الأزياء، وارتداء أحسن الحلي وأفخمها⁽³¹⁾، إلا أن المرأة لم تكن تذهب إلى الحمام لوحدها، وإنما يرافقها زوجها وجوارىها⁽³²⁾.

3.4- حضور حفلات الزواج والختان: إن التخطيط للزواج كان يتم بواسطة الأمهات والعلاقات النسوية حينما يلتقيان في الزيارات المتبادلة في المنازل والحمامات⁽³³⁾ أو بتوجه من يريد الزواج إلى مقهى المدينة، وسؤاله عمّن لديه فتاة جميلة للزواج من أجل الاتفاق حول الشروط مع مراعاة ظروف غنى أو فقر الرجل⁽³⁴⁾، أما القاعدة المتبعة في عقد الزواج فهي نفسها التي يسير عليها المسلمون في كل مكان، وهي في صالح النساء عموماً إذ تحميهم من معاملة أزواجهن التعسفية⁽³⁵⁾؛ فكانوا يشترطون حلياً من الذهب والفضة والألبسة، وفي بعض الأحيان جارية أو عدة جوارى، وبعد الإتفاق يذهبون إلى القاضي من أجل إبرام عقد الزواج، وكتابة ما تمّ الإتفاق عليه، ثم يذهب أقارب الطرفين بعد ذلك إلى الجامع من أجل قراءة الفاتحة والدعوة للزوجين بالرفاهية، ويقدم لهم ماء محلى يشربونه، ثم يتوجهون إلى

بيت الزواج لحضور الوليمة؛ فتقوم النساء بالغناء والرقص للترفيه عن أنفسهن في هذا الحفل لأن حضور الزواج بالنسبة لهن يعد متنفسا للترويح عن النفس⁽³⁶⁾.

4.4- زيارة المرابطين: احتلت زيارة المرابطين مكانة مهمة في حياة النساء الحضر حيث كنّ يقومون بالتردد عليها بصفة منظمة من خلال زيارة القبب؛ فيقومن بإشعال الشموع، ويقدمن القرايين لاعتقادهن أن ذلك يبعد المصائب الاجتماعية والعائلية ويعالج المرضى⁽³⁷⁾؛ ففي مدينة الجزائر كانت زيارة ضريح سيدي عبد الرحمن تحتل مكانة كبيرة لدى السكان، بخاصة وأنه ينتهي إلى الأسرة التي حكمت مدينة الجزائر قبل مجيء العثمانيين، وحول ذلك يقول هاينريش فون مالتسيان: "... كانت تلتف حول ضريح الولي وقبور المسلمين كالتفاف الكتاكيت حول الدجاجة؛ فهن يظنن أنهن بهذه الطريقة الصوفية يشاركن الولي في قداسته..."، إذ كان يمنع المسيحي من دخولها خاصة وأنها كانت مكانا لتعلم الطلبة القرآن الكريم ومكان إقامة الصلاة⁽³⁸⁾.

5- دورهن الحرفي: بعد إطلاعنا على العديد من الكتابات التاريخية وجدنا أن الوضع الإجتماعي الحسن الذي كانت تعيشه النساء الحضر جعلهن لا يولين اهتماما كبيرا بممارسة الحرف، وإنما اقتصر اهتمامهن على بعض الحرف كحرفة الخياطة والنسيج وصناعة الأواني والعمارة والحلي، وهي الحرف التي كانت تمارس في غالب الأحيان لأنها موجهة في للإستهلاك العائلي، ومن أهم هذه الحرف نذكر:

1.5- حرفة الخياطة: عرفت هذه الحرفة بمختلف فروعها اهتماما كبيرا من قبلهن، وبخاصة أن النساء الحضر تعلمن هذه الحرفة من الجوارى المسيحيات واليهوديات⁽³⁹⁾، ولقيت اهتماما كبيرا من طرفهن، كما اختلفت نوعيتها باختلاف طبقات الناس وثروة الأفراد وفصول السنة⁽⁴⁰⁾، وكان عملهن الحرفي هذا يتميز بالإتقان والبراعة وبخاصة حرفة التطريز⁽⁴¹⁾، وهو ما يدل على الذوق الرفيع للنساء الحضر إذ يستعملن أجود أنواع الخيوط والقماش، كالحبر الذي تصنع منه الشالات والمناديل والأحزمة والعمائم، كما تقمن بتطريز القطع الخاصة بالنوافذ والمحارم اليدوية والألبسة كالقفطان، وشغلت هذه الحرفة من وقتهن ساعات طويلة مما أدى إلى جودة وإتقان صنعتهما⁽⁴²⁾.

وحول جودة هذه المنتجات يقول وليام شالر: "... المنتجات الجزائرية أجمل وأمتن...، وعلى العموم لا توجد بضاعة أوروبية تفوق المنتجات الجزائرية في هذا المجال..."⁽⁴³⁾، ومما زاد من جمالها استعمال أجمل الألوان نتيجة الأصبغة التي تأتي من أوروبا كالأحمر والأصفر والرمادي التي تستعمل لصبغ الأقمشة⁽⁴⁴⁾ لكن غالبية هذه المنتجات لا تصدر الى الخارج بل

توجه للاستهلاك المحلي، وهذا ما أكده وليام شالر حيث قال: "... والمنتجات... من الحرير هي الشالات والمناديل والأحزمة، ونوع من العمائم، والقماش الذي يطرز بالذهب، وغير ذلك من المنتجات التي تستهلك محليا"⁽⁴⁵⁾، في حين أن فيلهلم شيمبر يؤكد أن هذه المنتجات تلقى رواجًا لدى الأوروبيين نتيجة لإتقان صنعها إذ يقول: "... ويتم شراء هذه المصنوعات من الطرازين ومن بعض الحضريات..."⁽⁴⁶⁾.

2.5- حرفة النسيج: النساجون هم الذين يقومون بصناعة مختلف أنواع الزرابي التي يفتريها السكان على اختلاف انتمائهم، إضافة إلى الحايك والبرانس والأغطية والشواشي والأحزمة والشالات الصوفية⁽⁴⁷⁾، وتحتاج هذه الصناعة إلى مواد أولية أساسية كالصوف وشعر الماعز ووبر الإبل التي يجلب من المناطق الصحراوية والريفية⁽⁴⁸⁾، وبخاصة وأن سكان الريف عرفوا بتربيتهم لقطعان المواشي التي تعتبر الثروة الأساسية لهم⁽⁴⁹⁾، وكانت تتم عملية تزويد سكان المدن بما يحتاجونه من مواد أولية من خلال الأسواق الأسبوعية التي تقام في المدن، وحول هذه العملية تقول لوسيت فالنسي: "... هذه المبادلات المنظمة تؤسس التضامن الوثيق الذي يربط البدو بالحضر، والذي هو إحدى السمات الرئيسية للإقتصاد...؛ فتستعمل النساء الحضر الصوف لنسج مختلف أنواع الأغطية والزرابي والسجاد الموجه للإنتاج المحلي⁽⁵⁰⁾، أما عن طريقة ممارسة هذه الحرفة فتتم من خلال نصب المنسج بطريقة مستقيمة في الأرض، وربطه بواسطة مجموعة من الخيوط التي تثبت بواسطة الخشب لتمرر بها بعد ذلك خيوط الصوف بواسطة الأصابع بعدما تغسل وتجفف قبل استعمالها في العملية⁽⁵¹⁾، إضافة إلى نسج الأغطية يتم أيضا صناعة البرنوس الذي تستعمل في صناعته صوف ناعمة بيضاء تمزج أحيانا بمادة الحرير، ويصنع من أمتن الخيوط لكي يقي من المطر، ويكون لونه أسود في كثير من الأحيان⁽⁵²⁾.

احتلت هذه الحرفة مكانة مهمة في حياة هؤلاء النساء نظرًا لأهميتها في توفير حاجياتهم المنزلية، يقول فندلين شلوصر: "... وكانت النساء ينسجن ويغزلن لساعات متأخرة من الليل"⁽⁵³⁾، كما يؤكد أيضا وليام شالر انتشار هذه الحرفة بين النساء الحضريات بقوله: "... نسج الصوف كان شائعًا في كل عائلة في المملكة، لكن ذلك يتم بطريقة بدائية، وهذا الإنتاج موجه للاستهلاك العائلي⁽⁵⁴⁾.

3.5- حرفة الطيابة (العاملة في الحمامات): الطيابات هن اللواتي يشتغلن في الحمامات، وتتمثل مهمتهن في تقديم المياه إلى المغتسلات، وتدليك أجسادهن، وتقديم المشروبات لهن، كما يشرفن على تسيير الحمام، وتنظيفه عقب خروج النساء حيث تعد حرفة الطيابة حرفة

شاقة ومتعبة، وغالبية النساء الحضريات كن يترفعن عن القيام بها باستثناء اللواتي ينتمين إلى الطبقة الفقيرة، بخاصة وأن النساء الميزابيات هن اللواتي يستحوذن على هذه الحرفة⁽⁵⁵⁾، ويؤكد هانريش أن هذه الحمامات لم تكن يقصدها سكان الجزائر فحسب بل حتى الأوروبيات⁽⁵⁶⁾.

4.5- صناعة الأواني: لم تعرف هذه الحرفة اهتماما كبيرا من طرف النساء الحضري مقارنة بنساء الريف اللواتي اهتمن بها وامتتهن، وتقوم هذه الحرفة على مادة أولية أساسية هي الطين الذي يشكل لتُصنع منه أواني منزلية مختلفة الأشكال والألوان كالصحون والأوعية والأباريق والمزهريات، إضافة إلى الجرار التي تستخدم في تخزين مختلف المواد الغذائية كزيت الزيتون والزبدة، والتي تزيّن بواسطة رسومات من سجل قديم وثري من الرموز والأشكال، وتعد منطقة القبائل من أكثر المناطق اهتماما بهذه الحرفة، وهو ما تؤكده لوسيت فالنسي التي تقول: "... إنهم يصنعون أواني الطبخ وكل الأغراض المصنوعة من الطين..."، إلا أن غالبية المنتجات كانت موجهة للإستهلاك العائلي وليس للغرض التجاري، وهو ما تؤكده نفس المؤرخة حيث تقول: "... هذا الإقتصاد العائلي مع ذلك بعيد عن أن يكون إكتفائيا"⁽⁵⁷⁾.

5.5- صناعة الحلي: عرفت هذه الحرفة انتشارا في مختلف أنحاء الإيالة، إلا أن النساء الحضري ختصت بنوع معين من صناعة الحلي إذ أن صناعتهم لم تكن مثل الصناعة التي تمارس داخل الورشات، والتي تقوم على تحويل مادة الذهب و الفضة إلى حلي لتزيين المرأة كالأساور والأقراط والسلاسل والخواتم التي تنقش عليها أشكالا ورسوما متنوعة، وكانت تعتمد على وسائل بسيطة متوفرة في كل منزل كالخيوط ومادة المرجان التي تعرف وفرة في الجزائر، إذ تقوم النساء بإدخال حبات المرجان في خيوط مُشكّلات بذلك سلاسل وأساور متنوعة تستعمل لتزيين النساء⁽⁵⁸⁾.

6.5- صناعة العطور: تتمثل هذه الحرفة في صناعة مختلف أنواع العطور، وعرفت إنتشارا نتيجة لوفرة مختلف الورود كالياسمين الذي يغرس في الحدائق العامة والخاصة، حيث يقطف ويستخرج منه مختلف أنواع العطور التي تستعملها النساء في حياتهن اليومية، وتندرج في هذه الحرفة صناعة ماء الورد⁽⁵⁹⁾.

7.5- الصناعة الغذائية: إن الحاجة اليومية للمواد الغذائية جعلت النساء الحضري يولين اهتماما بصناعة مختلف المواد الغذائية كالكسكس وزيت الزيتون ومختلف أنواع المربي المصنوع من فواكه مختلفة، إضافة إلى مادة الزبدة التي وصف لنا فاندلين شلوصر طريقة صناعتها حيث يقول: "... تعلق بعمود خشبي ذي عقب وثلاث سيقان قريبة تحتوي على اللبن

الجديد...، وتجلس امرأة أمام العمود، وتمسك عنق القربة، وتحركها هنا وهناك دون انقطاع، وهكذا تنشأ الزبدة...⁽⁶⁰⁾، وكثيرا ما كان يتم تسويق هذه المواد داخل أسواق المدن.

6- دور هذه الحرف في إنتعاش النشاط الحرفي داخل المدن: تؤكد العديد من الكتابات الأجنبية أن الحرف التي اهتمتها النساء الحضر كانت محدودة مقارنة بفئة الرجال، كما أنها افتقدت إلى التنظيم؛ فلم تتم داخل ورشات وإنما كانت تمارس داخل المنازل، كما أن هؤلاء النسوة لم تنخرطن في الجماعات الحرفية المخصصة لكل حرفة، ذلك لأن الهدف الأساسي من ممارسة هذه الحرف بالنسبة للنساء الحضر هو تلبية حاجيات عائلتها والسوق المحلية، وهو ما تؤكد لوسيت فالنسي في قولها: "هذا الإقتصاد العائلي مع ذلك يكون بعيدا عن أن يكون إكتفائيا..."⁽⁶¹⁾.

وما ميز هذه المنتجات الحرفية جودتها وإتقانها لأنها النساء كن تستغرقن ساعات طويلة في إنجازها، وهذا ما جعل العديد من الكتابات تؤكد على أن هذه المنتجات لقيت رواجاً لدى الأجانب، وهو ما يؤكد ويليام شالر بقوله: "إن هذه المنتجات تميزت بجودتها وإتقان صنعها مما جعلها تلقى رواجاً لدى الأجانب..."⁽⁶²⁾.

الخاتمة: من خلال ما سبق ذكره يخلص الدارس لهذا الموضوع إلى أن الكتابات الغربية ركزت على فكرة انغلاق النساء الحضر على أنفسهن، وذلك من خلال مكوثهن في المنزل، وحصص دورهن في تأدية واجبهن المنزلي مهملين التركيز على دورهن في جوانب أخرى من حياتهن كاهتمامهن بالنشاط الحرفي، وذلك من خلال إمتهانهن للعديد من الحرف كحرفة الخياطة والتطريز والنسج، والتي أبدعت فيها وساهمت من خلالها في توفير حاجياتها وإعالة عائلتها، وبخاصة النساء اللواتي ينتمين إلى الطبقة الوسطى، إلا أن جهن لحياة الرفاهية مقارنة ببقية نساء المجتمع الجزائري جعلهن يولين اهتماما ببعض الحرف دون غيرها، والتي عرفت بالحرف الراقية كحرفة الخياطة.

الهوامش:

1. لوسيت فالنسي، المغرب العربي قبل سقوط مدينة الجزائر 1790.1830، ترجمة إلياس مرقص، دار الحقيقة للنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 1969، ص34-2. سيمون بفايفر، مذكرات عشية الإحتلال، ترجمة أبو العيد دودو، دار هومة للنشر، الجزائر، 2009، ص166. 3. مذكرات ويليام شالر، قنصل أمريكا في الجزائر 1816.1824، تعريب إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1982 ص107-4. سيمون بفايفر، المصدر السابق، ص166. 5. ويليام شالر، المصدر السابق، ص107-108. 6. سيمون بفايفر، المصدر السابق ص166.167. 7. ويليام شالر، المصدر السابق ص58-8. المصدر نفسه، ص79-9. نفسه، ص79-10. سيمون بفايفر، المصدر السابق، ص177-11. ويليام شالر، المصدر السابق، ص79-80.
12. سيمون بفايفر، المصدر السابق، ص178-13. ويليام شالر، المصدر السابق، ص80-14. سيمون بفايفر، المصدر السابق، ص178-15. سيمون بفايفر، المصدر السابق، ص172.

16. ويليام سينسر، الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب وتقديم عبد القادر زبادية، دار القصبة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007، ص107-17. المرجع السابق، ص29-18. ويليام شالر، المصدر السابق، ص86-19. ويليام سينسر، المرجع السابق ص29.
20. المرجع السابق ص 109، 108. 21. سيمون بفايفر، المصدر السابق، ص 173-22. ويليام شالر، المصدر السابق، ص86-23. نفسه، ص89-24. سيمون بفايفر، المصدر السابق، ص176، 177-25. ويليام شالر، المصدر السابق، ص87.
26. فاندلين شلوصر، قسنطينة أيام أحمد باي 1832، 1837، ترجمة أبو العيد دودو، الشرطة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 2007 ص94-27. سيمون بفايفر، المصدر السابق، ص171-28. ويليام شالر، المصدر السابق، ص99.
29. ويليام سينسر، المرجع السابق، ص114-30. المرجع نفسه، ص114-31. نفسه، ص108-32. سيمون بفايفر، المصدر السابق، ص 176-33. ويليام شالر، المصدر السابق، ص87-34. سيمون بفايفر، المصدر السابق ص173-35. ويليام شالر، المصدر السابق، ص86-36. سيمون بفايفر، المصدر السابق، ص174، 173-37. ويليام سينسر، المرجع السابق، ص126-38. هايتريش فون مالتسيان، ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا، ترجمة أبو العيد دودو، ط1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، ج1 ص4241. 39. سيمون بفايفر، المرجع السابق ص176-40. ويليام شالر، المصدر السابق ص83.
41. ويليام سينسر، المرجع السابق ص110-42. نفسه ص112-43. ويليام شالر، المصدر السابق، ص93-44. ويليام سينسر، المرجع السابق، ص93-45. ويليام شالر، المصدر السابق، ص93-46. أبو العيد دودو، المرجع السابق، ص63.
- * فيلهلم شيمبر هو عالم ورحالة ألماني كان له إهتمام كبير بعلم النبات، قام بعدة رحلات لعدة دول كفرنسا، مصر والجزائر، التي اقام بها حوالي عشرة أشهر وبعد عودته إلى وطنه أصدر كتابا بعنوان "رحلة فيلهلم شيمبر إلى الجزائر" وصف فيه مدينة الجزائر للمزيد أنظر أبو العيد دودو "الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان" ص13-47. سيمون بفايفر، المرجع السابق، ص167-48. لوسيت فالنسي، المصدر السابق، ص55-49. ويليام شالر، المصدر السابق، ص33-50. نفسه ص93-51. فاندلين شلوصر، المصدر السابق، ص93-52. ويليام شالر، المصدر السابق، ص83-53. فاندلين شلوصر، المصدر السابق، ص93-54. ويليام شالر، المصدر السابق، ص94-55. هنريش فون مالتسيان، المصدر السابق، ص84-56. نفسه، ص83-57. لوسيت فالنسي، المصدر السابق، ص55-58. نفسه، ص57-59. أبو العيد دودو، المرجع السابق، ص63-60. فاندلين شلوصر، المصدر السابق، ص93-61. لوسيت فالنسي، ص55-56-62. ويليام شالر، ص93.

مقالات التاريخ المعاصر

موقف الشيخ البكري بن عبد الرحمن التواتي من كتابات
محمد بن مصطفى بن الخوجة الجزائري سنة 1898م
The Standpoint of Sheikh El Bekri Ben Abderrahmane El
Twati Towards the Writings of Mohamed Ben Mustafa Ben
El Khoja El Jazairi, year 1898.

اسم ولقب المؤلف المرسل للمقال: عبد الله بابا- Baba Abdallah صص 277-293
الدرجة والعنوان المهني: أستاذ محاضر ب- قسم العلوم الإنسانية- جامعة أدرار- الجزائر
البريد الإلكتروني: abd.baba@univ-adrar.dz

تاريخ استقبال المقال: 2019/12/14 تاريخ المراجعة: 2020/04/01 تاريخ القبول: 2020/04/16

الملخص باللغة العربية: عرفت الجزائر نهاية القرن 19م بروز جيل من المثقفين الجزائريين الإصلاحيين، الذين تناولوا في كتاباتهم ودروسهم الوضع الاجتماعي المتردي للجزائر في ظل الاحتلال الفرنسي، داعين في نفس الوقت إلى الأخذ بمقومات الحضارة الفرنسية، قصد تجاوز المنعرج المتأزم الذي وصل إليه المجتمع الجزائري، ومن بين الشخصيات الإصلاحية التي أثرت في الساحة الوطنية بنشاطها الصحفي والفكري محمد بن مصطفى بن الخوجة (الكمال)، الذي أَلَّف في مواضيع شتى لها صلة بالثقافة والتعليم والمرأة، ورأت فيه الإدارة الفرنسية نموذج المثقف الملتزم والمتفتح الذي يخدم أهدافها من خلال كتاباته ودروسه وخطبه المسجدية، كما رأت فيه النخبة المثقفة الجزائرية رائد الإصلاح الوطني وأب النهضة الجزائرية الحديثة، غير أنّ مما وصل من تأليف لابن الخوجة إلى يد الشيخ والفقير البكري بن عبد الرحمن بن الطيب التواتي قبيل الاحتلال الفرنسي للواحات الصحراوية (تيدكلت وتوات وقورارة) سنة 1900م، متمثلة في كتابي: "الاكتراث بحقوق الإناث" و"تنوير الأذهان في الحث على التحرز وحفظ الأبدان"، جعلت الشيخ البكري التواتي بعد تمحيص أفكارهما يتفرّس ببصيرته الغاية من وصولهما إلى يديه، في هذا الظرف الحساس الذي تمر به توات من وقوف القوات الفرنسية على أعتاب احتلال المنطقة، الأمر الذي دفعه إلى أن يدوّن عليهما ملاحظاته ونقده اللاذع

لأفكار العلامة ابن الخوجة في مخطوط بيّض مسودته في سنة 1898م، ويحمل في ثناياه عتاباً وتأنيباً للكاتب لما لمس في أفكارهما من مدهانة وتمجيدٍ للاستعمار الفرنسي. الكلمات المفتاحية: البكري بن عبد الرحمن، محمد بن مصطفى بن الخوجة، الجزائر، توات، فرنسا، الاستعمار، النخبة، العلماء، التأليف، المرأة.

Abstract: *At the end of the 19th century, Algeria had witnessed the emergence of a generation of intellectual Algerian reformists, who wrote in their books and lessons about the degrading social situation in Algeria during the French colonization. They also called for taking with the elements of the French civilization in order to overcome the tense situation in which the society was struggling. Among the reformists who left a mark with his intellectual work is Mohamed Ben Mustafa Ben El Khoja (El Kamal), who wrote in different subjects that have a relation with heritage, education and women. Furthermore, the French leaders saw him as the educated, committed and open-minded modal who can serve their goals through his writings, lessons and sermons. The Algerian educated elites also saw him as the pioneer of reformation and the father of the Algerian renaissance. However, when the writings of Ben El Khoja, specifically “The Awareness of Women Wrights” and “The Enlightenment of Minds in the Urge of Carefulness and Self-Reserve” arrived at the hands of Sheick El Bekri Ben Abderrahmane Ben El Tayeb El Twati, just before the French colonization of desert oases (Tidiklt, Twat and Gorara) in 1900, it made him after a bright reviewing of its ideas and concepts understood the purpose beyond the arrival of such writings in such difficult situation that Twat was facing. Of course, this pushed Sheikh El Bekri to mark his notes and harsh criticism on the writings of Ben El Khoja in a script in 1898. This script holds a strong reproach and reprimand due to the writer’s ideas of glorifying the French colonization.*

Keywords: El Bekri Ben Abderrahmane; Mohamed Ben Mustafa Ben El Khoja; Algeria; Twat; France; Colonization; The elite; Scientists; Authoring; Women.

1- المقدمة: أثبتت السياسة الاستعمارية الفرنسية المنتهجة في حق العلماء والمرابطين وشيوخ الطرق الصوفية مدى نجاعتها خاصة في النصف الثاني من القرن 19م، وبفضل هذه السياسة استطاعت أن تُدجّن أغلب الشيوخ والفقهاء بتقليدهم الأوسمة والنياشين، وأن تمنح لهم الامتيازات بما يحفظ لها بقاءها ومكانتها داخل المجتمع الجزائري، كما وظفت فتاواهم وكتاباتهم بما يساهم في تقبل المجتمع الجزائري للطروحات الاستعمارية، غير أن هذا الأمر لم يمنع علماء توات قبل احتلال منطقتهم من الوقوف مع الحق ورجاله، ومقارعة الباطل وأهله، والرد على الفتاوى والكتابات التي تحمل في جنباتها تمجيذاً للسياسة الفرنسية، وتعتبر الوثيقة التي بين أيدينا مظهراً لا

غبار عليه من حيث النطق بكلمة الحق في تأليفين أصدرهما الشيخ محمد بن مصطفى الخوجة (ت1915)، ضمنهما تمجيداً لسياسة الحاكم العام الفرنسي للجزائر جول كامبون، جاء الأول تحت عنوان: "تنوير الأذهان في الحث على التحرز وحفظ الأبدان"، والثاني تحت مسمى: "الاكتراث في حقوق الإناث"، والذي مجّد من خلالهما جول كامبون وسياسته، عبر تضمينه في هذين التأليفين أفكاراً تشيد بمنجزات الإدارة الفرنسية الاجتماعية والاقتصادية والخدماتية، وردّ عليه الشيخ البكري التواتي بتأليف مخطوط عاب فيه على المؤلف توّدده إلى الدولة الكافرة العدوّة- حسب تعبيره- مبيناً له المفاسد التي جرّها الاحتلال الفرنسي على الجزائر والجزائريين.

اعتمدنا في سبيل هذا الدراسة المنهج التاريخي وتحليل المضمون بغرض الإحاطة بأهم الملاحظات التي ساقها الشيخ البكري بن عبد الرحمن في مخطوطه حول تأليف ابن الخوجة، بتحليلنا لأهم الشواهد والقرائن والحجج التي دحض بها البكري ما جاء به ابن الخوجة في كتاباته، وللإحاطة بالموضوع أكثر يمكن طرح التساؤلات التالية: من هو الشيخ البكري بن عبد الرحمن التواتي؟ وما هي ملاحظاته حول تأليف ابن الخوجة؟ وما أهمية المخطوط التاريخية محلياً ووطنياً؟

2- الشيخ البكري بن عبد الرحمن التواتي (ت1339هـ/1921م): ولد البكري بن عبد الرحمن بن الطيب عند أخواله بالزاوية البكرية¹ سنة 1260هـ/1844م، وتربى في بيت خاله الحسن بن سعيد البكري، حيث يتصل صاحب الترجمة في نسبه بالبيت التنلاني الأموي؛ فهو ابن الشيخ عبد الرحمن بن الطيب بن أحمد بن أمحمد بن محمد الطيب بن عومر بن معروف بن يوسف التنلاني²، أما عن تسميته بالبكري فيقول عن نفسه: أن أمه سمته على جده الشيخ سيد البكري بن عبد الكريم، وهذا ما ورد في تقييد من قوله: "الأصل في اسمي واسم كل من يقال له البكري...، كان الشيخ سيدي عبد الكريم بن أمحمد والد الشيخ سيدي محمد البكري قد طاف الأقطار في طلب العلم ولاسيما قطر مصر؛ فسعى ابنه سيدي محمد البكري، ثم سمتني أمي على الشيخ محمد البكري³.

نشأ البكري بن عبد الرحمن في بيئة علمية صالحة حيث تعلم على يد والده ثم عند خاله الشيخ الحسن بن سعيد البكري (ت1286هـ/1869م)⁴، الذي كان يعد أفقه شيوخ العائلة البكرية في تلك الفترة، حيث درس عنده لمدة سنتين، ثم انتقل بعدها إلى

بلدة كالي⁵ بتيميمون عند الشيخ مولاي عبد الحاكم بن عبد العالي بن محمد، ولازمه إلى غاية وفاته.

جلس الشيخ البكري بن عبد الرحمن للتدريس بالزاوية البكرية خلفاً لخاله الشيخ الحسن بن سعيد الذي وصفه الشيخ باي بلعالم بقوله: "كان بحراً لا يُجارى"، وكان إذا سئل عن مسألة يقول للسائل: أتريد الجواب نظماً أو نثراً؟ كذلك إذا سئل عن تدوين وثيقة يقول للسائل: أتريد الوثيقة نظماً أو نثراً؟⁶، كان همه طول حياته التدريس والتعليم والتدوين وخدمة العلم، كما عرف بزهده في الدنيا وملذاتها، ومن بين تلامذته الشيخ عبد العزيز بن الصافي البكري، والشيخ البكري بن محمد الصالح، والشيخ محمد بن عبد الوافي البكري، والشيخ سالم بن محمد الطيب البكري⁷.

خلف الشيخ البكري بن عبد الرحمن تراثاً متنوعاً وضخماً من الكتابات المتعددة الأغراض، جمعها في ديوان من أربعة أجزاء، نذكر منها:
- مجموعة كبيرة من القصائد في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم بلغت أزيد من ثلاثين قصيدة، تم عن حبه له حتى لقب بـ"مداح النبي"، ومنها قصيدة خالية من حرف الألف الذي هو أكثر الحروف دوراناً في الكلام، يقول في بيتها الأول:

مُحَمَّدٌ كَثْرُ كُلِّ كَوْنٍ وَعَيْنُهُ عَلَيْنِكَ مَكُونِي يُصَلِّي بِكَثْرَةٍ⁸

- قصيدة أجاب فيها على سؤال الشيخ محمد محمود الشنقيطي⁹.

- قصيدة في هجاء فرنسا عند دخولها لتوات جاء في مطلعها:

رَبِّ إِنَّ فِرْنَسَا الْكُفْرُ جَارُوا فِي تَوَاتٍ وَجَارَفُوا بِفَسَادٍ¹⁰

- منظومة "المعيار في ذم الاستقصاء للنظار".

- أرجوزة الأوليات المعروفة بالأرجوزة البكرية، وتشتمل على ثلاثة فنون "التوحيد والفقهاء والتصوف"¹¹.

- نبذة في علم الميراث.

- قصائد متنوعة الأغراض (الطب، عشبة الشاي، نصائح وحكم... وغيرها).

- منظومة في أوصاف الخيل¹².

- مخطوط في ذكر مناقب الشيخ محمد البكري بن سيد البكري تحت عنوان "الكوكب الدرّي في مناقب سيدي محمد البكري"¹³.

توفي الشيخ البكري بن عبد الرحمن بن الطيب بالزاوية البكرية، ودفن بها سنة 1339هـ/1921م، وضريحه يقع شرق قصبة الزاوية المعروفة بـ"بايسى"¹⁴.
3- محمد بن مصطفى الخوجة (الشيخ كمال)¹⁵: يلقب بالمضربة، ولد بالجزائر العاصمة سنة 1865، أخذ علومه الأولى في حلقة درس المفتي علي بن الحفاف، وأيضاً على يد الشيخ محمد السعيد بن زكري، تم توظيفه سنة 1880 حزاباً في الجامع الأعظم بالجزائر العاصمة، ثم عين سنة 1884 حزاباً في الجامع الجديد، وبعدها مُنحت له وظيفة رسمية بالإدارة الفرنسية سنة 1886، وفي سنة 1896 عمل في جريدة المبعثر الفرنسية كمحرر، وهناك كانت له إسهامات في الجانب الإصلاحي من خلال معالجة مواضيع اجتماعية تتعلق بالحياة السيئة للرجل والمرأة، مع نشر مواضيع لها صلة بالتعليم ومحاربة الخرافات والبدع، ونتيجة لمقالاته الإصلاحية تمّ عزله سنة 1901، في آخر عمره تفرغ لمهنة التدريس في جامع سفير، كما عين وكيلاً على أوقاف ضريح الشيخ عبد الرحمن الثعالبي سنة 1913.

تمتع الشيخ بعلاقات وثيقة مع الشيخ محمد عبده عند زيارته للجزائر، بل كان مولعاً به وبأفكاره الإصلاحية، ولم يفارقه طيلة بقائه في الجزائر، وعنه قال عمر راسم: "شاعر الجزائر في وقته، وأفصح علمائها وأعلمهم بتراجم علماء الجزائر، كان شغوفاً بمحبة الشيخ محمد عبده، وهو الذي أدخل مذهبه إلى الجزائر، وعرف الناس به"، كما كانت له اتصالات برجال الإصلاح في المشرق كرشيد رضا ومحمد فريد¹⁶.

وصفه تقرير المفتشين الفرنسيين الصادر في 1906-1907 "على أن ابن الخوجة أفضل من يعرف اللغة العربية وأدائها، وأنه يتكلمها بطلاقة، وأنه كان رجل فكري وتسامح وانفتاح، وأنه حلو الكلام وفصيح اللسان، كما كان يستشهد بالقرآن الكريم والحديث الشريف، ويستحضر بالإضافة إلى ذلك كتب التراث؛ فقد كان صاحب ذاكرة فذة، ناهيك عن نبوغه وقدرته على الإقناع إذ كان يدعو تلاميذه إلى الانفتاح وحرية الفكر والاعتقاد"¹⁷، ومن أهم مؤلفاته¹⁸:

- الاكتراث بحقوق الإناث: تم تأليفه سنة 1895، وترجمه إلى الفرنسية المستشرق أرنو، وترجع دوافع كتابته إلى الهجمات التي طالت المرأة الجزائرية من خلال الكتابات الفرنسية

- التي كانت تطعن في تقاليد المرأة ولباسها، وعقد الزواج وشروطه، وقد بين من خلاله حقوق المرأة وواجباتها داخل الأسرة وخارجها.
- تنوير الأذهان في الحث على التحرز وحفظ الأبدان 1896.
 - إقامة البراهين العظام على نفي التعصب الديني في الإسلام 1902.
 - عقود الجواهر في حلول الوفد المغربي بالجزائر 1902.
 - اللباب في أحكام الزينة واللباس والاحتجاب 1907.
 - السمط الدرّي في مسائل تتعلق بالجدري.
 - رسالة في مسيرة بعض علماء الجزائر.
 - نفائس في مآثر بعض علماء الوطن.
 - نشر كتاب "الجواهر الحسان في تفسير القرآن الكريم" لعبد الرحمن الثعالبي بعد مقابلته على سبع نسخ مخطوطة، والذي نشرته مكتبة رودوسي سنة 1904.
 - توفي الشيخ محمد بن الخوجة في 7 شوال 1333هـ الموافق 17 أوت 1915م، ودفن بمقبرة الحامة بالجزائر العاصمة¹⁹.

أراد الشيخ محمد بن مصطفى الخوجة من خلال عمله الصحفي والتعليمي إحداث نوع من الإصلاح الداخلي للمجتمع الجزائري، وذلك بنشر أفكار التسامح، ونبذ شعارات التفرقة والتعصب، كما دعا إلى محاربة الخرافات والبدع التي طمست بصيرة الشعب الجزائري²⁰، والظاهر أن السلطات الإستعمارية كان يخدمها هذا الفكر الذي ساهم في نشر الأفكار الفرنسية عن طريق مؤلفاته وخطبه، وقد وصفته الصحف الفرنسية بأنه لم يكن متعصبا بل كان متفتحا وملتزما، ودعا إلى تعليم المرأة²¹، غير أن عمراسم كان يرى فيه رائد الإصلاح وأب النهضة الجزائرية الحديثة²².

4- ملاحظات الشيخ البكري على كتابات ابن الخوجة: جاء رد الشيخ البكري على كتابات ابن خوجة ضمن كتابه المخطوط المسمى بـ"الديوان"، والذي ينسب للشيخ البكري، وضمّ فيه كل ما ألفه في شتى الأغراض كالأدب واللغة والنحو والتاريخ والطب والتصوف، إما نثراً أو شعراً، والملاحظ أن الشيخ البكري اطلع على التأليفين سنة 1898، وذلك قبيل الاحتلال الفرنسي لتوات سنة 1900م، وجاءت هذه الملاحظات في الديوان تحت عنوان: "الردّ على بعض علماء الجزائر لما وقف على تأليفين من تأليفهم جبر الله

صدعهم"، ومن العنوان يمكننا أن نحكم بأن توات- خلال تدوين الردّ- لم تكن قد احتلت بعد، لكن يبقى التساؤل لماذا وصلت هذه التأليف المطبوعة في ظرف قياسي إلى يد الشيخ البكري؟ والجواب هنا يكمن وراء فرضية أن فرنسا قد بدأت في استراتيجيتها القائمة على تهيئة الأجواء لاحتلال منطقة توات من خلال إرسال مثل هذه الكتابات المدجّنة والممتدحة للاستعمار إلى شيوخ الزوايا بتوات قصد إيجاد مناخ مناسب يتيح لها السيطرة على المنطقة بأقل التكاليف، وليس غريباً إن قلنا أنّ هذين الكتابين قد وصلا إلى زوايا أخرى وشيوخ آخرين في عموم الصحراء، غير أن الشيخ البكري بن عبد الرحمن، وبما تميز به من قوة القلم، وحضور الفطنة، وغيرته على الإسلام والوطن جعلته لا يقف عند قراءة مثل هذه الكتب، وإنما عرف ببصيرته ماذا يُراد منها، وإلى أي مدى يمكن أن تؤثر في معنويات الجزائريين تجاه فرنسا؛ فجاء الردّ واضحاً على أفكار ابن الخوجة مثمناً حيناً ومعاتباً أحياناً كثيرة.

يبدو من مقدمة الشيخ البكري أنه لم يتعرّف على صاحب التأليفين، معتبراً بأنهما لمؤلفين مختلفين، وذلك عندما يقول: "قلله درّ مؤلفيهما ومفوفيهما برديهما ومبدعي رصفيهما"²³، وهنا يمكننا القول أن اسم المؤلف قد بتر من الصفحة الأولى، ووضعت بدل ذلك إشارة تبين نسبة التأليفين إلى علماء الجزائر، وهو ما دفع الشيخ إلى وسم مؤلفه "الردّ على بعض علماء الجزائر"، وقد فرغ الشيخ من تسجيل ملاحظاته على مؤلفي ابن الخوجة يوم الإثنين الأخير من شهر محرّم 1316هـ الموافق لـ13 جوان 1898م²⁴.

جاءت المقدمة بعد الصلاة والسلام تمدح التأليفين والمؤلف بقوله: "أما بعد؛ فقد أجلت جواد الفكر في ميزان صحائف الكتابين...؛ فألفيتهما روضتين زهراوين تجنى منهما الأثمار، وتصدح فيهما الأطيار...؛ فكان فيهما لذة الأذواق والإسماع والأبصار والجنان"، ثم أردف الشيخ الأديب هذه الكلمات الرنانة بنقد الأفكار والمضامين واقفا عند كل زلة قلم لابن الخوجة، غير متحرّج من صاحب التأليف، وكان مما عاتب عليه صاحب تنوير الأذهان قوله: "لما رأيت الدولة الفرنسية العظيمة الشأن معتنية كل الاعتناء بصيانة صحة الأبدان"²⁵؛ فلم يعجبه هذا الوصف، وأنكر عليه هذا التعظيم لدولة كافرة تحتل أرض الأسلام، كما أنكر عليه في موضع آخر تمجيد الحاكم العام جول كامبون بحجة إقامته لمستشفين: أحدهما في بلاد القبائل والثاني في بلاد الأوراس، بقوله: "محتمية عن

البواء بإقامة المحاجر، ومرام سمو الأغر الميمون، والينا الأفخم السيد جول كامبون²⁶؛ فكان عتاب الشيخ البكري على وصف الحاكم العام بستة أوصاف هي في الحقيقة أوصاف للمسلم ومنها: "السمو والأغر والميمون والينا والسيد والأفخم"، متعجباً ممن يدعي الإيمان ومحبة الله ورسوله، وفي نفس المكان يتودد لأعدائه الله أولي الكفر والطغيان²⁷، ويبدو أن الشيخ ازداد انفعالاً برجوع ابن الخوجة في كتابه إلى الرفع من قيمة الدولة الفرنسية لديه عندما كتب: "على أن ما فعلته حكومتنا السنية"²⁸، قائلاً في هذا الموضوع: "قد رجع أيضاً لركاكة القول وخزعبله الباطل وخساسة النطق، وكسوف العبارة، لأنه أضاف الحكومة النصرانية لنفسه ومعه أمثاله، ووصفها بكونها سنية أي رفيعة أو مضيئة، بل هي والله وضيفة مظلمة وطريق مدلهمة"²⁹.

وفي معرض حديث ابن الخوجة عن بعض العادات المشينة داخل المجتمع الجزائري التي وصلت إلى مسامعه، ومنها ما تعلق بقضايا الخلع وعدم توريث النساء، وهي عادات عرفت لدى بعض القبائل دون غيرها، وذكر بأن هذه العادات المذمومة قد تناقصت واندثرت منذ دخول الجزائر تحت مظلة الدولة الفرنسية، كما أن الحكومة الفرنسية قامت بإصلاحات أفضت إلى إخماد نيران الفتنة بين القبائل، ثم كتب قائلاً يتودد للحكومة الفرنسية: "ونحن بناءً على ما اتصفت به من الرحمة والإنسانية نستلفت أنظارها الصائبة إلى استئصال عروق تلك الأعراف التي تشمئز منها النفوس، وتقشعر منها الجلود، وليس ذلك بعزيز على أمة فوفت برود الحضارة، وأورفت ظلال العمارة، وأخذت راية المعارف باليمين، واشتهرت بالعدل والإحسان بين العالمين، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً"³⁰، لكن الشيخ البكري كان له رأي حازم في هذا الخطاب الذي رآه غير مبرر، بخاصة وأنه نسب الدولة الفرنسية له ومن سار في نهجه، واعتبرها قائمة بالإصلاحات التي ساهمت في وأد الفتن، ونشرت العدل والهناء، وهي حقيقة مغلوطة ظاهرة للعيان، من باب أن الاستعمار هو من نشر الفساد، وحطم أو اصر الأخوة، وفرّق بين العشائر، وهجر العديد من القبائل، مستغرياً من طلبه لها بمواصلة خطتها وبرامجها الصائبة في محاربة مثل هذه الظواهر المستشرية في المجتمع الجزائري، بخاصة وأنها تعمل على نشر أفكارها الحضارية، ومما زاد من حدة قلم الشيخ البكري توظيف ابن الخوجة الآيات القرآنية للاستدلال على صنائع الحكومة الفرنسية مثل استشهاده

بالآية الكريمة ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾³¹؛ فكان حري به- حسب البكري- أن يقول: "والله لا يهمل من أساء عملاً"³².

وقد أشاد ابن الخوجة في كتابه "الاكتراث" بصنيع المرأة الفرنسية مع زوجها في مقابل ما يتلقاه الزوج الجزائري من معاملة سيئة من زوجته كقوله: "وهو أن جلّ نساءنا يتناولن على رجالهن، ويكلفهن ما لا يطاق من الإنفاق والتبذير، ومنهن من لا تحي زوجها ولا ترحب به...، وسبب ذلك كله جهلهن وجهل أزواجهن بعلم الدين المرادف للفظه التمدن عند غيرنا"³³، وعبر في موضع آخر عن ولعه بما وصلت إليه المرأة الفرنسية من المعاملة اللطيفة لزوجها معتبراً ذلك نابعاً من تعليمها وثقافتها، واصفاً إياها بهذه العبارات: "وبعكس ما ذكرناه، نساء الإفرنج فإن غالبيهن لا ينهجن مع بعولتهن ذلك النهج، وما ذلك إلا لتغذيتهم بلباب المعارف، التالذ منها والطارف...، وأتى لنسائنا مجاراتهن في ميدان أو الموازنة معهن بميزان، وقد بلغن في الجهل الغاية القصوى، وركبن في حقوق أزواجهن متن عمياً"³⁴، وهنا وقف البكري بن عبد الرحمن موقف المدافع عن المرأة المسلمة الجزائرية التي حطمها الاستعمار وجرّأها، ثم أراد بمثل هذه الأقوال أن يقضي على ما بقي من حشمة وطهر وعفاف، مستنكراً تخاذل علماء الجزائر وعدم قول كلمة الحق، مستعملين المداينة في غير موضعها، كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾³⁵، وتوظيف المداينة هنا مع الاستعمار محرمةً شرعاً، وهي عكس المدارات التي توظف عند الحاجة لقضاء الحوائج³⁶.

رأى الشيخ البكري أن ما وصل إليه صاحب التأليفين بصفة خاصة وعلماء الجزائر بصفة عامة من التخاذل ومداينة الاستعمار نابع من الوهن الذي أحاط بقلوبهم؛ فسقط أغلبهم في شرك الاستعمار، مستحلين شهوات الدنيا ومناصبها على الهجرة ابتغاءً لمرضاة الله، لأن الضرورة تبيح لهم ذلك، وأن لا عذر لهم فيها، وهم أثمون إذ لم يأخذوا بها في مثل هذه المواضع³⁷، ولم يخف الشيخ البكري خوفه على علماء الجزائر الارتداد من الإيمان إلى الكفر إذا طال أمد الاستعمار قياساً بما حدث لأهل الأندلس³⁸.

أما عن عدالة علماء الجزائر في هذا الزمان- أواخر القرن 19م- فقد تم تجريحها من طرف الشيخ البكري بقوله: "واعلم أيها الواقف على هذا أنّ علماء إيالة الجزائر

وقضاتهم وعدولهم في زعمهم ساقطة عند أهل الحق عدالتهم، ومردودة فتاويهم وأحكامهم، إلا من عذره الله أو تولاه الله من أهل الولاية الربانية"، معترفاً في نفس الوقت- بعلو مرتبة علماء الجزائر التي لا يشق لها غبار، حيث تشهد على ذلك مؤلفاتهم وإنتاجهم العلمي، مستفسراً "هل علماء إيالة الجزائر جاهلون أو متجاهلون"³⁹، وفي نفس السياق أشار إلى مصيبة أخرى تحدد بأبناء الجزائر، وتكمن في إدخال أبناء الجزائريين إلى المدارس الفرنسية، وتعليمهم من طرف معلمين فرنسيين؛ فيكون الحال كما قال: "يطبخون في دورهم نجاساتهم العديدة...؛ فيكون الارتداد أقرب إلى صبيان المسلمين من شرك النعل"⁴⁰.

أبدى الشيخ في آخر كلامه خوفاً على ضياع توات بعدما تزاممت القوات الفرنسية على حدود الصحراء حيث نصبوا قلاعهم على الطرق التجارية، وبثوا جواسيسهم في كل مكان، إلا أن يتولاها الله بأمر من عنده، يكسر شوكة المستعمر عن طريق فئة مجاهدة أو بدعوة من أهل التصريف، "وأقول حسبي الله، وأخص إيالتنا بحرز حماية الله، وأفوض أمري إلى الله"⁴¹.

يبدو أن الشيخ بعدما أنهى كتابة- رده على التآلفين- سلمه لبعض فقهاء المنطقة من أجل قراءته، وتوضيح مفرداته وتصويب هفواته؛ فكان ممن حظي بقراءته، ووضع تقريراً له الفقيه أحمد بن أحمد الحبيب البلبالي⁴² الذي رأى بأن ما جاء به البكري بن عبد الرحمن هو عين الصواب، وأن هؤلاء العلماء الذين ينسبون أنفسهم للشيخ عليش المصري⁴³، ويدعون السير على نهجهم قد خالفوه في مسألة الهجرة التي تعد واجبة شرعاً، كما أتى على ذلك الشيخ عليش في نوازله في فصل الجهاد⁴⁴.

وعلق الشيخ محمد بن أحمد البلبالي⁴⁵ أيضاً على ما جاء به الشيخ البكري معبراً في البداية على علو كعب الشيخ في مختلف العلوم مع زهده وخشوعه وقول كلمة الحق، ومما ذكره عن قيمة ما كتبه البكري بن عبد الرحمن قوله: "فاعلم أن هذا الجواب الصادر من هذا الفقيه الثبت أعلم الشيوخ...، هو عين الصواب الذي لا شك فيه ولا ارتياب؛ فلقد أفاد فيه وأجاد، وأبى وأعاد، وقرر المسألة أحسن تقرير، وحرّرها أتمّ التحرير، سالكاً في ذلك سبيل المحققين من العلماء الراسخين"⁴⁶، وسجل أيضاً في هذه الكلمة هجومه على العلماء الذين يتوددون للفرنسيين مع ادعائهم بمحبة الله فقال: "إن

العلماء المذكورين ليسوا بعبيد لمولانا بحبهم أهل شرك لأنه لا يجب أن تكون لغيره، وإن زعموا أنهم أحباؤه؛ فقد كذبهم العيان والسلوك مع الأعداء"⁴⁷.

5- أهمية التأليف: كتب الشيخ هذه النسخة التي بين يدينا في وقت كانت فرنسا على أبواب احتلال الواحات الصحراوية (تيدكلت- توات- قورارة)، لذلك تضمنت معلومات هامة اقتصادية واجتماعية وثقافية وعسكرية خاصة بمنطقة توات، ومنها الفتوى التي تحرّم الهجرة من المناطق المستعمرة التي تم توظيفها من طرف الحاكم العام جول كامبون في ما عرف بفتوى قورارة، وقد وقف لها علماء توات بالمرصاد من خلال معارضة الأدلة التي سيقّت من قبل علماء الجزائر تجيز الإقامة تحت سلطة الاستعمار الفرنسي، وهذه الفتوى توضح بما لا يدع مجالاً للشك الحالة التي وصل إليها بعض علماء وفقهاء الجزائر في آخر القرن 19م من تزلف وبحث عن المناصب، ومحاولة إرضاء الحكام الفرنسيين، بعدما دجّنتهم فرنسا بمنحهم النياشين والامتيازات والألقاب قصد عزلهم، وتوظيفهم في مشروعها الاستعماري، وتوضح الوثيقة أيضاً انهيار بعض العلماء بالمرأة الفرنسية، وما وصلت إليه من تفتح ومستوى علمي على عكس المرأة الجزائرية التي تم ذمها بسب جهلها مع انتشار الخرافة الراجع أساساً إلى السياسة الاستعمارية في مجال التعليم الذي أفضى إلى هذه الحالة السوداوية للمرأة الجزائرية.

كما يسلط المخطوط الضوء على الحالة الاقتصادية والاجتماعية التي وصلت إليها توات في أواخر القرن 19م بعد المخالطات والتجارات الحاصلة من الاستعمار الفرنسي، ومن نتائج ذلك تغير النقود المتعامل بها من العملات المتعارف عليها والرائجة، إلى استخدام العملة الفرنسية التي وصفها الشيخ البكري: بأنها مشؤومة، تحمل على ظهرها صورة طاغية من أعداء الإسلام، ارتفعت باستخدامها البركة من التجارة القائمة مع حاضرة سجلماسة، وأصبحت الحاجة بذلك للنقود الفرنسية ماسة بعد رواجها بالمنطقة، وكثرة استخدامها في المعاملات، وساهم هذا الأمر في هجرة العديد من التواتيين إلى المناطق الشمالية للعمل لدى المعمرين، وخلت بذلك القصور من أهلها، وعند رجوعهم إلى توات تشم منهم رائحة التآثر بعادات المستمعر، ومما وضعهم فيه قوله: "وتشم منهم رائحة الكفر إلا قليلاً"، مع مدحهم لأسلوب الحياة الفرنسي ما تعلق منها بالعدل والمساواة وحرية الرأي والتعبير"⁴⁸.

ومن خلال قراءتنا للتأليف أيضا يظهر لنا الجانب الصوفي في حياة الشيخ البكري بصفة خاصة، وفي حياة التواتيين بصفة عامة؛ فقد تحدث الشيخ عن عدالة علماء الجزائر، وأنها مجروحة وفتاومهم مردودة، واستثنى منهم أصحاب الأعدار من أهل الولاية الربانية كالشيخ محمد بن القاسم الهاملي⁴⁹، ومن شابهه من أهل الطريقة الأخضرية؛ فأولئك لا يشك في علمهم، ولا يمكننا لنا إلا التسليم⁵⁰ - حسب قول البكري- وبعدما لاحظ البكري أن توات ستسقط لا محالة في يدي الاستعمار متنبأ بذلك، بعدما وصلته أخبار إقامة القوات الفرنسية على تخوم الواحات، إلا أنه تمنى أن يُقيض الله لتوات من يدافع عنها سواءً من أهل الولاية الربانية من الأولياء والصالحين أو بفئة مجاهدة، وهذا ما وقفنا عليه في قوله: "وإني أشفق من تهافت أعداء الله على الإقليم التواتي إلا أن يكسر الله شوكتهم بجماعة من أهل التصريف، أو بجماعة مجاهدة في الزمان الآتي لأنهم زاحموا هذه الإيالة، وما من جهة إلا وقد نصب في فنائها حباله، وإني أستنصر الله وأقول حسبي الله"⁵¹، ويمكن أن نقول هنا أنّ طلب المدد من الأولياء الصالحين أو فئة مجاهدة، دون ذكر دور للسلطنة المغربية في حماية توات يبرهن بما لا يدع مجال للشك أن توات لم تكن تحت سلطة هذه الأخيرة سواءً اسمياً أو فعلياً، ونفي الإدعاءات المغربية بتبعية هذه المناطق الصحراوية لها، وإلا ماذا يمكن لنا أن نقول على عدم ذكر الشيخ للسلطة المغربية في حماية المنطقة!

ومما جاء في ثنايا المخطوط حول العلاقات التجارية والتأثير المباشر على الاقتصاد التواتي، هو تغيير العملة المحلية المتعامل بها مع القوافل التجارية من عملات مغربية وإفريقية إلى العملة الفرنسية التي تسلمت إلى توات عبر منفذين هما: التجارة الخارجية وفئة المهاجرين من التواتيين، الذين انتقلوا إلى الشمال بحثا عن العمل، وجلبوا معهم أثناء مرحلة العودة العملة الفرنسية، وأصبح لها رواج بتوات أدى إلى تفضيل التعامل بها عن غيرها من العملات الأخرى، وعن شكل العملة الفرنسية التي وردت إلى توات يقول الشيخ البكري: "وما من سكة من تلك السكة المشؤومة إلا وعليها رأس صورة طاغية أعداء الله"⁵²، ويذهب الشيخ بعيدا في تأثير العملة الفرنسية على المنطقة بوصفها عملة منزوعة البركة جلبت معها الخراب والكساد، بعدما كانت التجارة ميسرة بين توات وسجلماسة، ومن مظاهر نزع البركة من العملة الفرنسية كما عاينها الشيخ البكري ما

وقف عليه بعد عودة المهاجرين من الشمال الجزائري الذي قضوا فيه سنين عديدة يجمعون الأموال، لكن بعد سنة واحدة تجد الشخص يرجع إلى حالته السابقة أو أسوأ من ذلك رغم ترده على الهجرة لتلك الديار المحتلة⁵³.

الخاتمة: أخيراً يمكن الإشارة إلى أن الوثيقة التي بين أيدينا هي مصدر تاريخي هام لفترة حساسة من تاريخ توات، تضمنت مؤشرات اقتصادية واجتماعية عشية الاحتلال الفرنسي للمنطقة، ومن ناحية أخرى حملت نقداً لاذعاً ساقه الشيخ البكري بن عبد الرحمن للعلامة محمد بن مصطفى بن الخوجة الجزائري يدخل في إطار توجيه العلماء والشيوخ إلى الأخذ بزمام الأمة في الدفاع عن مقوماتها الشخصية والدينية، دون محاولة السير في ركب المخططات الاستعمارية التي أرادت من هذه الفئة القيام بدور المثبط للأمة والمنظر للحضارة الفرنسية، وينم الرد أيضاً على مدى اطلاع الشيخ البكري بن عبد الرحمن على قضايا عصره المصيرية الاجتماعية منها والاقتصادية التي عصفت بالجزائر، وأن الفوارق المكانية لم تكن يوماً عائقاً في حمل هموم الجزائر، والتأثر بما حصل للشمال وما سيحصل لتوات في قابل الأيام.

الملحق رقم 2: الصفحة الأخيرة من مخطوط (الرد على بعض علماء الجزائر)

يا فخر العالمين زمام الصابغى بركت احوالهم وحسنت اعمالهم وهم مع الله مع
 فلاتعزبهم كل الكبرياء والارباب من غير علمك بمقتله الإيمان كونه يمتد الحاصل
 والبرور والجاره ويقتوا ارفاقهم وراحمهم ويحببت لهم الخيرات والصلوات
 رافقهم واستجروا اجناس الكعبه بنم الله انواجر العباد **والله اعلم
 باليوم والقوة التي تمولد** وكانوا مع جماعة الف ابنوا عليهم منهم من وقفت كتيب
 منهم ففرا الفرع عنتم من مؤلفه وقالوا مني علمت ذلك انما اطلع به قال مني
 حيث انه يخبره الذي كما يخبره اشع الغيلة **ولتا مكان زمانه صلى**
مذرك رطقت ونسنت الطول ما ذكره الله تعالى في كتابه العزيز
 الثغور رافع الكرامه ونهضت على اركانهم صالوا على اهل البیت مني
 منسكت مذرك رافع الكرامه ونهضت على اركانهم صالوا على اهل البیت مني
 اشركهم في افعالهم الخبيثة ويقيم افعالهم الخبيثة بانفسهم وكثير في العروج
 البلاء لان الجماعة كل علم في كرامتهم وقرينهم بجانهم انعموا بالخيرات والحق
 الذكور ورائدات العيون والوجوه **وقم مع فوك تمل**
 واغاشي من تها فت اعلاء الله على اهلهم التولية رطقت عليهم الله منكم جماعة
 من اهل الله وبها التولية او جماعة عليهم في الإيمان رافقة للمؤمنين في احوالهم
 رافقهم وما رجعوا وافر نصب في هذا زمانهم **والله اعلم**
 اقول عتبه الشهوات حرام التاج في رضى الله وابو خراي الى الله **وقد رفع**
 عن مفضلة البرائة والكبرياء المنافع والخير في كل قول في افواه رطقت
 العلى العظيم **ولمجد الله** الرب الكريم **ونصا على النبي** العارضا الى
 الحراك المستقيم **وعلى الله** وهو اولى العظمة العظيم **ومى** فيهم باحسان
 الى من اجوابه رطقت الله فاعلمت انهم **مؤلفه** منسكت على اهل

الهوامش:

1- تأسست الزاوية البكرية سنة 1112هـ/1701م على يد الشيخ سيد البكري بن عبد الكريم بن أحمد المنطيطي، حيث تم تكليف الشيخ محمد بن سيد البكري بإدارة شؤون الزاوية برضى إخوته الثلاث وإيعاز من سيدي علي بن حنفي، فسكنها عام

1117هـ/1705م، وابتدأ عمارتها واستصلاح أراضيها وتفجير ماء فقارتها، ثم تولى أمر الزاوية بعد وفاته ابنه عبد الكريم ومحمد الصالح، ثم تولى شؤونها الشيخ بوزيان ثم الشيخ سعيد ثم محمد الطيب وبعده سيد البكري بن المبروك بن محمد الصالح ثم الحسن بن سعيد(ت1286هـ/1869م). للمزيد انظر: عبد الله بابا: الزاوية البكرية ودورها الثقافي والاجتماعي بإقليم توات من 1112 - 1421هـ/1700 - 2000م، مذكرة ماجستير، إشراف أ.د عبد الكريم بوصفصاف، قسم التاريخ، جامعة أدرار، الجزائر، 2011-2012، ص 59-65.

2- تقييد حول الشيخ سيد البكري بن عبد الرحمن، مخطوط بيد الحاج عبد الله بكاروي، غوزي، أدرار، الجزائر.

3- محمد باي بلعالم: المباحث الفكرية شرح على الأرزوجة البكرية، مطابع عمارقرفي، باتنة، الجزائر، دن، ص8.

4- الحسن بن سعيد البكري: يعتبر أشهر الأعلام العلماء الذين أسسوا مجلس علم بالزاوية البكرية. ولد بالزاوية البكرية سنة 1210هـ/1796م، أخذ العلم بحاضرة ملوكة على يد الشيخ عبد العزيز البليالي وحصل منه على إجازة في جميع الفنون التي أخذها عنه، كان له مجلس علم تخرج على يده شيوخا وفقهاء، منهم: ابنه الشيخ محمد، والقاضي الحاج محمد بن عبد الرحمن، الشيخ البكري بن عبد الرحمن التلاني، له عدة مؤلفات وهي: غاية المنتظر وفتح الجليل في أصول بعض فروع مختصر خليل، مخطوط في تراجم العائلة البكرية، قصائد متعددة الأغراض. انظر ترجمته: عبد الله بابا: المرجع السابق، ص 109-110.----5- كالي إحدى قري مقاطعة أولاد سعيد بتيميمون وتبعد عنها ب 30 كلم ناحية الشمال.

6- محمد باي بلعالم: الرحلة العلية إلى منطقة توات لذكر بعض الأعلام والآثار والمخطوطات والعادات وما يربط توات من الجهات، ج1، دار هومه، الجزائر، 2005، ص162.----7- البكري بن عبد الرحمن: منظومة أوصاف الخيل(شفاء القلب العليل بتحقيق شرح منظومة البكري على أوصاف الخيل)، تج: محمد سالم بن عبد الكريم، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2006، ص34.----8- محمد باي بلعالم: الرحلة العلية، المرجع سابق، ج1، ص168.

9- للمزيد انظر: أحمد جعفري: "الشيخ سيد البكري بن عبد الرحمن(1339هـ) ومناظرته الشهيرة مع الشيخ محمد محمود الشنقيطي"، مجلة النخلة، العدد الثاني، مجموعة القروط، أدرار، سبتمبر 2006، صص30-31.----10- محمد باي بلعالم: الرحلة العلية، المرجع السابق، ج1، ص173.----11- وضع لها الشيخ باي بلعالم شرحاً سماه "المباحث الفكرية شرح على الأرزوجة البكرية"----12- حققها الشيخ محمد سالم بن عبد الكريم تحت اسم "شفاء القلب العليل بتحقيق شرح منظومة البكري على أوصاف الخيل".----13- توجد نسخة منه بخزانة الأثرية لقصبة السي الطيب التابعة للزاوية البكرية، أدرار، الجزائر.----14- تقييد بيد الحاج عبد الله بكاروي، شيخ زاوية غوزي، قصر غوزي، أدرار، الجزائر.

15- انظر ترجمته: عادل نوپهض: معجم أعلام الجزائر من عصر الإسلام حتى العصر الحاضر، ط2، مؤسسة نوپهض الثقافية، بيروت، لبنان، 1980، ص138/محمد بن مصطفى ابن الخوجة الجزائري: الاكتراث في حقوق الإناث، تج: زهير قوتال، دار الكتب العلمية، بيروت، 1971، صص3-8/أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، صص83-88.----16- عادل نوپهض: المرجع نفسه، ص138.

17- محمد بن مصطفى الخوجة: الاكتراث، المصدر السابق، ص5.----18- أعمال محمد بن الخوجة: منشورات خمسينية جامعة الجزائر، الجزائر، 2012، صص10-11/عادل نوپهض: المرجع السابق، ص138.----19- أعمال محمد بن الخوجة، ص11.----20- محمد بن مصطفى بن الخوجة: الاكتراث، صص6-7.----21- أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ج6، صص349-350.----22- المرجع نفسه، ج3، صص87-88.----23- البكري بن عبد الرحمن التواتي: الديوان، ج4، مخطوط، الخزانة الأثرية، زاوية سيد البكري، أدرار، الجزائر. صص352.----24- المصدر نفسه، ص365.----25- محمد بن مصطفى بن الخوجة: تنوير الأذهان، المصدر السابق، ص90.

26- المصدر نفسه، ص90.----27- البكري بن عبد الرحمن: المصدر السابق، ص353.----28- محمد بن مصطفى: تنوير الأذهان، المصدر السابق، ص90.----29- البكري بن عبد الرحمن: المصدر السابق، ص353.----30- محمد بن مصطفى: الاكتراث، المصدر السابق، ص38.----31- سورة هود، الآية115.----32- البكري بن عبد الرحمن: المصدر السابق، ص356.

33- محمد بن مصطفى بن الخوجة: الاكتراث، المصدر السابق، ص61.----34- محمد بن مصطفى: الاكتراث، المصدر السابق، ص61-62.----35- سورة القلم، الآية9.----36- البكري بن عبد الرحمن: المصدر السابق، ص356.

- 37- هنا يشير الشيخ البكري إلى فتوى قورارة التي وظيفها جول كامبون تجيز للمسلمين الإقامة تحت سلطة الكفار في حالة ما سمحت الحكومة الفرنسية للمسلمين بإقامة شعائهم. للمزيد انظر: محمد الأمين بلغيث: سياسة التوسع الفرنسي في الجنوب الغربي، مجلة المصادر، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، ع33، الجزائر، 2000، صص134-139.--
- 38-- البكري بن عبد الرحمن: المصدر السابق، ص357----39- المصدر نفسه، ص356.
- 40- نفسه، ص359----41- نفسه، ص364.
- 42- أحمد بن أحمد الحبيب البلبالي: ولد بقصر ملوكة سنة 1248هـ/1832م من أسرة مشهورة بالعلم والصلاح، أخذ العلم عن والده وعن الشيخ محمد عبد العزيز البلبالي، تصدر للتدريس والفتوى، تولى منصب القضاء سنة 1892، وظل به إلى غاية وفاته سنة 1902. للمزيد انظر: الصديق حاج احمد: التاريخ الثقافي لإقليم توات من القرن 11هـ إلى القرن 14هـ، ط2، منشورات الحر، بني مسوس، الجزائر: 2011، ص 95. أحمد بن محمد بن حسان: الشجرة المرجانية في التعريف بالأسرة البلبالية الركانية، دار هومه، الجزائر، 2010، ص133.
- 43- محمد بن أحمد بن محمد عليش المالكي: ولد بالقاهرة وتعلم في الأزهر، وولي مشيخة المالكية فيه، من تصانيفه فتح العلي المالكي في الفتوى على مذهب الامام مالك، و منح الجليل على مختصر خليل في فقه، توفي بالقاهرة سنة 1882م. انظر ترجمته: خير الدين الزركلي: الأعلام، ج6، دار العلم للملايين، بيروت، 2002، ص19.
- 44- البكري بن عبد الرحمن: المصدر السابق، ص365.
- 45- محمد بن أحمد البلبالي(ت1354هـ/1935م): ولد بكوسام سنة 1277هـ/1860م، أخذ العلم عن والده وعن عمه الشيخ عبد الله بن أحمد الحبيب البلبالي، تقلد منصب القضاء سنة 1912م، وظل به إلى غاية وفاته سنة 1935م. انظر عبد الله بابا: الحياة الاجتماعية والاقتصادية بتوات إبان الاحتلال الفرنسي 1900-1962م من خلال سجلات المحكمة الشرعية، أطروحة دكتوراه، إشراف د. مبارك جعفري، قسم العلوم الإنسانية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية والعلوم الإسلامية، جامعة أدرار، 2018-2019، ص68----46- البكري بن عبد الرحمن: المصدر السابق، ص366.
- 47- المصدر نفسه، ص366----48- نفسه، صص361-362.
- 49- هو أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم بن ربيع بن محمد بن عبد الرحيم الشهير بالهاملي: فقيه، له مشاركة في علوم الحديث والكلام والتاريخ والأخلاق والتفسير تعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن في بلده، ثم قصد زاوية ابن أبي داود في زواوه فأخذ عن مؤسسها علوم التفسير والفقه، كما درس فنون العربية، أسس زاويته المعروفة بزاوية الهامل سنة 1863م، من مؤلفاته منظومة الاسمانية، توفي سنة 1897. عادل نويض: المرجع السابق، ص335.
- 50- البكري بن عبد الرحمن: المصدر السابق، ص351----51- المصدر نفسه، صص364-52- نفسه، ص361.
- 53- نفسه، صص362-363.

دور المؤتمرات الدولية في دعم وتدويل القضية الجزائرية في
المجال الإفريقي والآسيوي 1955-1962
The role of international conferences in supporting and
internationalizing the Algerian issue in the African and Asian
field 1955-1962

اسم ولقب المؤلف المرسل: د. بولجويجة سعاد- bouledjoudja souad صص 294-312
الدرجة والعنوان المهني: أستاذة محاضرة ب- جامعة 8 ماي 1945- قالمة
البريد الإلكتروني: bouledjoudja.souad@univ-guelma.dz

تاريخ استقبال المقال: 2019/12/06 تاريخ المراجعة: 2020/04/01 تاريخ القبول: 2020/04/22

الملخص باللغة العربية: ركزت الثورة منذ البداية على إخراج القضية الجزائرية للرأي العام الدولي، حيث اهتمت جبهة التحرير الوطني بالمحيط الأفروآسيوي؛ بخاصة وأن الثورة تزامن اندلاعها مع ظهور الكتلة الأفروآسيوية التي أعلنت تأييدها لكفاح الشعوب المناضلة من أجل استقلالها، وقد حضرت جبهة التحرير جل المؤتمرات الإفريقية والآسيوية مثل مؤتمر باندونغ ومؤتمر القاهرة ومؤتمر أكرا وغيرها، والتي كانت مظهرا من مظاهر الدعم والتأييد، كما جسدت في الوقت نفسه فكرة التضامن الإفريقي الآسيوي للقضية الجزائرية منذ انطلاق الثورة سنة 1954، ومن خلال هذه المؤتمرات عبرت الدول الداعمة والمساندة لها في أكثر من فرصة وخلال العديد من المرات عن الشعور بالواجب والمسؤولية اتجاهها، واعترافها بحق الشعب الجزائري في تقرير مصيره، وشرعية مطالبه إلى جانب قناعتها التامة بأن الجزائر يستحيل أن تكون جزء لا يتجزأ من فرنسا كما تدعيه هذه الأخيرة، وتصبر على ذلك بهدف عزل الجزائر عن العالم، وإبعادها بكل الطرق حتى يتسنى لها أن تفعل وتقول ما تشاء، وتتحكم في مصير الجزائر بدون ضغوطات، بالإضافة إلى توجيه أنظاره عما يحدث فعلا داخلها.

الكلمات المفتاحية: القضية الجزائرية، التدويل، المجتمع الدولي، الكتلة الأفروآسيوية، المؤتمرات الإفريقية، المؤتمرات الآسيوية، الدعم الدولي، باندونغ، مؤتمر القاهرة، أكرا.

Abstract: The revolution focused from the beginning on bringing the Algerian issue to international public opinion, as the National Liberation Front took care of

the Afro-Asian environment, especially since the revolution coincided with the outbreak of the Afro-Asian bloc, which announced its support for the struggle of peoples fighting for its independence. The Liberation Front attended most of the African and Asian conferences such as the Bandung Conference And the Cairo conference, the Accra conference, and many others, which were a manifestation of support and support, and at the same time embodied the idea of African-Asian solidarity for the Algerian issue since the start of the revolution in 1954. Through these conferences, the supportive and supportive countries have expressed on more than one occasion and many times their sense of duty and responsibility towards them, their recognition of the Algerian people's right to self-determination, the legitimacy of its demands, and their complete conviction that Algeria is impossible to be an integral part of France as it claims The latter and insists on this with the aim of isolating Algeria from the world and removing it in every way so that it can do and say whatever it wants and control the fate of Algeria without pressure, in addition to directing its attention from what is really happening inside it.

Keywords: The Algerian issue, internationalization, international community, Afro-Asian bloc, African conferences, Asian conferences, international support, Bandung, Cairo conference, Accra.

المقدمة: سنتطرق من خلال دراستنا هذه إلى موضوع آليات وطرق تدويل القضية الجزائرية، والتعريف بها خارج هيئة الأمم المتحدة، والتي تعد المنبر الرئيس لإيصال القضية الجزائرية عبر مختلف سبلها ومعايرها إلى العالمية؛ فمن خلال مؤتمرات الدول الإفريقية المستقلة وكذلك مؤتمرات الكتلة الأفروآسيوية، والتي من خلالها عبرت الدول الداعمة والمساندة للمسألة الجزائرية في أكثر من فرصة وخلال العديد من المرات عن الشعور بالواجب والمسؤولية تجاه القضية الجزائرية، واعترافها بحق الشعب الجزائري في تقرير مصيره وشرعية مطالبه.

فما هي الإجراءات التي اتخذتها هذه الدول كرد فعل عما يحدث في الجزائر على الصعيد الإقليمي والدولي من خلال القيام بحملات الدعاية في الأمم المتحدة للضغط على فرنسا؟ إلى أي مدى ساهمت هذه المؤتمرات في التعريف بالقضية الجزائرية من جهة وتقديم الدعم الدبلوماسي لها من جهة أخرى؟

1- فكرة تدويل القضية الجزائرية من خلال موثيق الثورة: أشار بيان أول نوفمبر 1954م للإطار السياسي لجهة التحرير الوطني الذي سعى إلى تنظيم قاعدة سياسية للحركة الوطنية تمثلت في جهة التحرير الوطني حتى تعود للعمل وفق أطر مضبوطة، من

خلال إبراز الأهداف الداخلية للعمل العسكري، والأهداف الخارجية للعمل السياسي، مركزا على ثلاث نقاط مهمة فيما يخص هذا الأخير، وهي:

- تدويل القضية الجزائرية.

- تحقيق وحدة شمال إفريقيا في داخل إطارها العربي الإسلامي.

- تأكيد التعاطف تجاه الأمم التي تساند قضية الجزائر التحررية في إطار ميثاق الأمم المتحدة¹.

وكان على جبهة التحرير الوطني القيام بمهمتين أساسيتين، ومحاولة التوفيق بينهما: العمل الداخلي سواء في الميدان السياسي أو العسكري، والعمل في الخارج لجعل القضية الجزائرية حقيقة واقعية في العالم كله بمساندة كل حلفائها الطبيعيين، وهذه مهمة شاقة ثقيلة العبء، وتتطلب تعبئة كل الموارد الوطنية².

وفي إطار تدويل القضية- والذي أكد بيان أول نوفمبر 1954م عليها كما سبق ذكره- أولت جبهة التحرير الوطني العمل الدبلوماسي أهمية كبرى من أجل تحسين موقع ومكانة الثورة؛ ففي 22 جوان 1954م كلف ثلاثة من أعضاء لجنة الستة بالأمور الخارجية وهم: أحمد بن بلة ومحمد خيضر وحسين آيت أحمد، وكان هذا الفريق على اتصال بلجنة تحرير المغرب العربي في القاهرة³.

كما أكدت الوثيقة السياسية للثورة الجزائرية في مؤتمر الصومام 1956م، أنه يجب إبطال مفعول الأكاذيب التي بثتها الحكومة الفرنسية ودبلوماسيتها وصحفيها الكبيرة، من خلال محاولة تعريفها كثورة مجهزة من الخارج ليس لها جذور في الأمة الجزائرية، وقد جعلت الحكومة المؤقتة الجزائرية، مثلها مثل جبهة التحرير الوطني قبل ذلك، من بين أهدافها نقل القضية إلى الخارج حسب برنامج أساسي يدخل في إطار الكفاح التحرري لكسب أقصى ما يمكن من المساندة الدولية؛ فعلى لسان محمد يزيد أكد أنه يجب توسيع اتصالات الثورة إلى غير البلدان العربية، وذلك بمطالبة دول مؤتمر باندونغ على ممارسة ضغط سياسي ودبلوماسي واقتصادي مباشر ضد فرنسا، وضد مساعيها في هيئة الأمم المتحدة، والسعي للحصول على تأييد الدول والشعوب الأوروبية، بما في ذلك الديمقراطيات الشعبية وكذلك بلدان أمريكا اللاتينية⁴.

ولهذا الغرض عمدت جهة التحرير إلى توفير كل الوسائل اللازمة لتحقيق ذلك من خلال إنشاء مكاتب عديدة لوفودها في آسيا وأوروبا للدعاية للثورة، والمشاركة في المؤتمرات والتجمعات العالمية، الثقافية والسياسية⁵، إن الأمر هنا يتعلق بمدى نجاح جهة التحرير الوطني دبلوماسيا في خلق علاقات دولية تهدف من ورائها إلى كسب أكبر عدد ممكن من الحلفاء لدعم القضية، والتعريف بحقيقة ما يحدث فعلا في الجزائر، على خلاف ما كانت فرنسا تظهره للرأي العام العالمي، وعلى هذا الأساس جعلت القضية الجزائرية منابر لتفعيل تدويلها من خلال عدة مؤتمرات دولية كان لها دور كبير في مساندة القضية وجرها تدريجيا وتوجيهها نحو هيئة الأمم المتحدة.

كان لاهتمام قادة الثورة الجزائرية بالميدان السياسي والدبلوماسي دورا بارزا لصالح المسألة الجزائرية، قصد إخراجها من إطارها الضيق- بين فرنسا والجزائر- إلى إطار أوسع يدخل في مجال الصراع بين قوى الاستعمار والتسلط وقوى التحرر والسلام، وقد كانت الشعوب الإفريقية والآسيوية الحليف الطبيعي والمؤيد لهذه القضايا؛ فاتخذت منها جهة التحرير الوطني قاعدة ارتكاز لمعركة السيادة، وتجسد دعم تلك الشعوب فعليا خلال عقدها لسلسلة من اللقاءات والمؤتمرات، من باندونغ إلى بلغراد.

2- المنابر الأولى لتدويل القضية الجزائرية:

1-2- مؤتمر باندونغ وموقف الكتلة الأفروآسيوية من القضية الجزائرية: انعقد مؤتمر باندونغ التاريخي ما بين 18 و24 أبريل 1955م أي بعد 6 أشهر من اندلاع الثورة، ويأتي انعقاده بناء على التوصية التي جاءت في اللائحة التي أقرها المجتمعون في بوقور في ديسمبر 1954م، وشاركت فيه 29 دولة⁶، كما دعيت لحضوره أربع حركات تحريرية من تونس والجزائر والمغرب وقبرص كأعضاء مراقبين⁷.

أفتتح المؤتمر في باندونغ بحضور حوالي 600 مندوب جاءوا من دول مختلفة من إفريقيا وآسيا، وهي دول خرجت من الاستعمار، وتعاني من مشاكل اجتماعية وصحية وانتشار الأمية وزيادة هامة في السكان⁸.

وللمشاركة في المؤتمر أرسلت جهة التحرير وفدا يتكون من السيد حسين آيت أحمد ومحمد يزيد اللذين عملا على تعريف المؤتمرين بالوضع في الجزائر، وإزالة الآثار السلبية التي خلفها النشاط المضاد للحركة المصالية (MNA)، والتي كان من نتائجها

حدوث التباس وغموض عند عدد من المشاركين حول الممثل الشرعي للشعب الجزائري، وأثبتنا أن جبهة التحرير الوطني هي الممثل الشرعي والوحيد للشعب الجزائري⁹. خلال المؤتمر أجمعت دول الكتلة الأفروآسيوية على إدانة فرنسا، والمطالبة باستقلال الجزائر التام، وهذا الموقف الصريح والصارم لا يستند إلى أي مصلحة خاصة أو أي اعتبار استراتيجي أو اقتصادي أو مذهبي أو غيره، وإنما يستند فقط على روح إنسانية عالية¹⁰.

كما ورد في تقرير السياسة العامة الذي قدمه السيد فرحات عباس يوم 1959/06/20م ما يؤكد الدور الفعال لدول هذه المجموعة في دعم نضال الشعب الجزائري: "... يجب أن نظهر بأن هناك شعوبا أخرى تساندنا، وتقف إلى جانبنا والشعب التونسي والمغربي والعرب والأفروآسيويين..."

إن هذا الموقف الإفريقي الآسيوي من قضية الجزائر يؤثر تأثيرا كبيرا على الرأي العام العالمي وعلى موقف الكتلتين، ومن ناحية أخرى يحمل هذا الموقف بالنسبة للشعب الجزائري في نفس الوقت الذي يتخلى فيه العالم عن فرنسا، وتشتد فيه عزلتها يوما بعد يوم، ويجب أن لا ننسى عاملا آخر من عوامل هذا التأييد الأفروآسيوي للقضية الجزائرية، وهو وجود جميع البلدان العربية وأغلب البلدان الإسلامية داخل هذه الكتلة، وهكذا برهنت حرب الجزائر مرة أخرى على أن تضامن العرب والمسلمين لا يزال قوة فعالة تحطم التكتلات والمذاهب والأحلاف¹¹.

شكلت أحزاب المغرب العربي وفدا مشتركا، لأن القضية التي يدافعون عنها واحدة والخصم واحد، كما شاركت وفود عربية عديدة تمثل العراق والمملكة العربية السعودية ومصر وسوريا والسودان ولبنان والصومال واليمن والأردن، وقد قامت هذه الوفود بنشاط فعال ومكثف لإبراز حقيقة القضية الجزائرية، وفضح المناورات الفرنسية.

حيث ألقى الرئيس جمال عبد الناصر خطابا في حفل الافتتاح بين فيه موقف مصر الداعم والمؤيد لمبدأ حق تقرير المصير لكل الشعوب الخاضعة للهيمنة الاستعمارية؛ حيث قال: "... على أي أساس يستطيع إنسان أن يستسيغ أن أقطار إفريقيا التي ظلت قرونا مستقلة، وكانت منارة للعلم والعلماء أن تنحط مرتبتها إلى حدّ أن تصبح مناطق لا تتمتع بالحكم الذاتي..."، كما اقترح باسم مصر أن يقوم المؤتمر باقتراح يعلن فيه تأييد

الدول الآسيوية والإفريقية لحق شعوب الجزائر وتونس والمغرب في تقرير المصير والاستقلال، وأن تعجل الحكومة الفرنسية في تسوية تلك القضايا تسوية سليمة وعاجلة¹².

لقد كانت أولى النتائج العملية لمؤتمر باندونغ هي:

- مراجعة كثير من الزعماء الوطنيين ورؤساء الحكومات في إفريقيا وآسيا لسياساتهم القديمة التي كانت تالين الاستعمار.

- كانت قراراته تعبيراً عن مطامح كل شعوب الأرض في الحرية والتقدم والعدالة، كما أعلنت مبادئه العشرة التي نادى بالحرية والمساواة بين الشعوب والتعايش السلمي بين الدول والنظم المختلفة، وعدم التدخل في شؤون الغير، ومحاربة الاستعمار والسيطرة الأجنبية بكل أشكالها.

- بروز الوعي الوطني والنضج السياسي اللذين ساهما في اتساع رقعة الحرية في جميع أركان القارة الآسيوية والإفريقية، حيث استكملت مصر استقلالها بجلاء القوات الإنجليزية عن بلادها، كما حصل السودان على استقلاله، وحصلت كذلك كل من تونس والمغرب على الاستقلال عام 1956م، وفي العام التالي نالت غانا استقلالها، كما حصلت شعوب إفريقيا السوداء الخاضعة للاستعمار الفرنسي كذلك على استقلالها الداخلي، لكنه دليل على خوف فرنسا وإدراكها قرب نهايتها المحتممة في المنطقة.

- تعزيز كفاح الشعب الجزائري بتأييد الأقطار العربية الشقيقة، ومؤازرة البلاد الآسيوية والإفريقية الصديقة¹³.

- في مجال حقوق الإنسان تأييد حق الشعب الجزائري في تقرير مصيره، ودعوة الحكومة الفرنسية لوضع تسوية سلمية.

- في المجال الثقافي طلب المؤتمر من الدول الأفريقية والآسيوية قبول طلبه جزائريين للدراسة في جامعاتها، كما أوصى بعرض المسألة الجزائرية على الأمم المتحدة¹⁴.

في هذه الفترة بلغت الثورة الجزائرية درجة كبيرة من التنظيم والقوة حيث زعزعت أركان الاستعمار، وتعزز كفاح الشعب الجزائري بتأييد الأقطار العربية ومؤازرة البلدان الإفريقية والآسيوية بعد مؤتمر باندونغ، وعلى هذا الأساس فكر قادة الحركات الوطنية في إفريقيا وآسيا أن يعقدوا دورة جديدة للمؤتمر لتقديم النتائج التي تحققت، وإذا كان

اختيار باندونغ مكانا لانعقاد المؤتمر الأول؛ فإن أنسب مكان لانعقاد المؤتمر الثاني هو القاهرة بعد أن تمكنت من مواجهة العدوان الثلاثي سنة 1956م¹⁵.

ولعل أهم النتائج التي تمخض عنها المؤتمر هي التوصية بعرض القضية الجزائرية على الأمم المتحدة، وطلب إدراجها في جدول أعمال الدورة العاشرة للجمعية العامة، حيث قدم المندوبون رسالة إلى الأمين العام للأمم المتحدة في 29 جويلية 1955م طالبوا فيها بهذه المطالب، واعتبرت هذه البادرة دعما معنويا للثورة الجزائرية أحسن من السلاح¹⁶.

وعقب انتهاء أشغال المؤتمر عبرت السلطات الفرنسية عن غضبها اتجاه القرارات الصادرة ضدها، واعتبرتها تدخلا في السيادة القومية الفرنسية، إذ جاء في تصريح رئيس الحكومة الفرنسية إدغار فور (Edgard Faure) أنها قرارات قاسية وجارحة فيما يتعلق بالعمل الذي قامت به فرنسا في شمال إفريقيا وفي القطر الجزائري على وجه الخصوص الذي هو جزء لا يتجزأ من فرنسا¹⁷، ويضيف حسبما نشرته جريدة information الباريسية، متهما دول باندونغ أنها ليست مثالا للأوروبيين، الذين هم ليسوا بحاجة إلى تلقي الدروس منها، وبدل إقامة رقابة على الديمقراطية الغربية؛ فليحاولوا أن يجعلوا من بلادهم شيئا يمكن أن يقاس ولو من بعيد بما كونته فرنسا في الجزائر في قرن واحد...، وليرحونا من هذه المبادئ التي يوجهونها إلينا...، ولم يكونوا هم الذين اخترعوها¹⁸.

2-2 مؤتمر القاهرة 1957/12/26م إلى غاية 1958/01/01م: إن الدليل على أن الفكرة الإفريقية الآسيوية لم تزد إلا قوة وانتشارا تجسد من جديد في مؤتمر التضامن الإفريقي الآسيوي المنعقد في القاهرة من 1957/12/26م إلى 1958/01/01م، والذي حضرته 46 دولة، بل إننا نستطيع القول إن انتقال الملتقى الإفريقي الآسيوي من أقصى الطرف الشرقي للقارة الآسيوية (باندونغ) إلى أقصى الطرف الشرقي للقارة الإفريقية (القاهرة) يعني أن المؤتمرات الإفريقية الآسيوية لم تعد تجمع الدول المستقلة فحسب، بل هي ترمي قبل كل شيء إلى تحقيق التقارب وتوحيد برامج العمل بين الشعوب المستولى عليها بشكل من الأشكال، والتي ما تزال تواجه العدوان الاستعماري بصفة مباشرة أو غير مباشرة¹⁹.

جاء مؤتمر التضامن الآسيوي الإفريقي بمدينة القاهرة تأكيدا لمبادئ باندونغ التي فتحت عهدا جديدا في تاريخ الإنسانية، واعتبرتها شعوب العالم وثيقة جديدة لحقوق

الإنسان، إن هذا المؤتمر هو الذي ترسخت فيه المبادئ الكبرى لمؤتمر باندونغ، وعرف نشاط جبهة التحرير الوطني الممثلة من طرف الأمين دباغين²⁰ الذي قام بتقديم لائحة صوّت عليها بالإجماع باستقلال الجزائر وفسح المجال للتفاوض²¹.

في حين كان مؤتمر باندونغ مؤتمر حكومات ودول؛ فإن مؤتمر القاهرة كان مؤتمر شعوب وحركات وطنية وسياسية ونقابية، وكان انعقاده في بلد عربي مناسبة رائعة لإظهار التأثير الكبير الذي يلعبه كفاح الشعب الجزائري، وقد استقبل الوفد الجزائري في المؤتمر استقبالا رائعا، وقامت كل الوفود وقوفا تصفق وتهتف في حماس عظيم لكفاح الشعب الجزائري وثورته التي عبرت عن قوة الشعوب الجديدة وصمودها الجبار، وعزمها الواضح على الكفاح بكل وسيلة وأي ثمن لتحقيق حريتها واستقلالها²².

قدّم الأمين دباغين خلال هذا المؤتمر تقريرا كان يهدف من ورائه إلى إثارة عواطف الشعوب الأفروآسيوية، وبالتالي دفعهم إلى مزيد من الدعم والمناصرة للقضية الجزائرية، وفضح فرنسا أمام الحاضرين، وإظهارها بمظهر المحتل المعتدي²³.

من جهة أخرى دعا مؤتمر القاهرة فرنسا إلى إطلاق سراح المعتقلين الخمسة، وكذا جميع الموقوفين في السجون والمحتشدات الفرنسية، كما أوصى بتكثيف مظاهر تأييد الكفاح الجزائري، وقد أصدر هذا المؤتمر جملة من القرارات والتوصيات لصالح الشعب الجزائري جاء فيها:

- استنكار الحرب الاستعمارية التي تشنها القوات الفرنسية، والاعتراف باستقلال شعب الجزائر فوراً.

- المبادرة إلى إجراء مفاوضات على أساس هذا الاستقلال بين الحكومة الفرنسية وجبهة التحرير التي تمثل الشعب.

- استنكار تجنيد الإفريقيين في الجيش الفرنسي الذي يحارب الجزائر، وتوجيه نداء إلى هؤلاء ليرفضوا مقاتلة إخوانهم.

- على جميع شعوب العالم وبخاصة شعوب إفريقيا وآسيا أن ينظموا حملات صحفية، وأن يقوموا بمظاهرات كفيلة بتعبئة الرأي العام ضد حرب الإبادة في الجزائر، وحمل فرنسا على احترام حقوق الإنسان، واتفاقيات جنيف الخاصة بقوانين الحرب²⁴.

وتنفيذا لقرارات مؤتمر القاهرة حدّد يوم 30 مارس ليكون يوما للتضامن العالمي مع الجزائر المجاهدة في جميع أنحاء إفريقيا وآسيا، كما أصدر بيان بمناسبة هذا اليوم جاء فيه ما يلي: "... إنه في جميع أنحاء البلاد الإفريقية الآسيوية، 30 مارس يوم الجزائر المجاهدة، تنظم السكرتارية الدائمة لمؤتمر التضامن الإفريقي الآسيوي، الاحتفال بهذا اليوم كما سبق وتقرر ذلك في مؤتمر القاهرة 1 جانفي 1958م، ولا زال القرار قائما ونافذ المفعول، بخاصة وأن الاستعمار الفرنسي لا يزال يفتك بالجزائر، وحيث أن حرب الإبادة في الجزائر قد اجتازت سنتها الخامسة...؛ فلزاما على الجزائر وشمال إفريقيا، وعلى حلفائها الطبيعيين، وشعوب آسيا وإفريقيا المبادرة لتجميع القوى، وخوض المعركة من أجل الانتصار العاجل لقضية الاستقلال وقضية السلام..."²⁵.

كما أوصت الأمانة الدائمة باتخاذ التدابير الآتية فورا:

- تكوين لجان قومية لتحرير الجزائر، وسيكون هدف كل لجنة القيام بعملية ذات شعب متعددة منها:

*التأييد الأدبي: من خلال الصحافة والإذاعة واللافتات، وما إلى ذلك من رسائل النشر والدعاية، أما عن الموضوعات التي تتناولها الحملة فينبغي أن تشمل ما يأتي:

- نبذة عن تاريخ الاستعمار الفرنسي في الجزائر.

- نبذة عن تاريخ الكفاح القومي في الجزائر.

- قرارات هيئة الأمم فيما يخص القضية الجزائرية.

- نشر أحاديث زعماء المجتمع الجزائري المكافح.

*التأييد السياسي: تقوم حكومات البلدان الإفريقية والآسيوية عن طريق ممثلها في

الأمم المتحدة بواسطة المذكرات الرسمية العمل على الآتي:

- المطالبة في جميع الدوائر الدولية باستقلال الجزائر.

- اتخاذ جميع التدابير الكفيلة لإقناع الحكومة الفرنسية بوقف أعمال العدوان في الجزائر.

- امتناع الحكومات عن تقديم أي إعدادات أو مساعدات لفرنسا²⁶.

كما قدمت الدول الأفروآسيوية توصية للأمم المتحدة في دورتها 13 المنعقدة في ديسمبر 1958 تنص على الاعتراف بحق الشعب الجزائري في تقرير مصيره، وإجراء مفاوضات بين الطرفين.²⁷

كان مؤتمر القاهرة فرصة للوفد الجزائري للإتصال بأعضاء الوفود الأخرى في إطار عمله الدبلوماسي من أجل شرح جوانب القضية الجزائرية لهم لجلب تأييد ومساندة دولهم التي أدركت بوضوح أهداف الشعب الجزائري القائمة على المطالبة بالحرية.²⁸

3-2 مؤتمر أكررا الأول 15-22 أبريل 1958م؛ اختيرت أكررا عاصمة غانا أحدث الدول الإفريقية استقلالاً- حيث نالت استقلالها في مارس سنة 1957م- مكانا للمؤتمر الجديد (مؤتمر الحكومات الإفريقية)، وقد تواصلت الاتصالات الدبلوماسية الإفريقية تمهيدا لهذا المؤتمر الذي نشأت فكرته في غانا أثناء أعياد الاستقلال، وقد حدّد موعد انعقاده مرتين سنة 1957م، وأجل مرتين أيضا، ليتم الاتفاق على تعيين يوم 15/04/1958 م موعدا لعقده.²⁹

شارك في هذه الندوة ثمان حكومات إفريقية مستقلة تمثل ثلث سكان إفريقيا وهي: مصر والحبشة وغانا وليبيريا وتونس والمغرب وليبيا والسودان، واكتست هذه الندوة أهمية بالخصوص من خلال الشخصيات التي حضرتها مثل الدكتور كوامي نكرومه أحد الزعماء المشهورين في إفريقيا السوداء ورئيس حكومة غانا، وجمال عبد الناصر عن الجمهورية العربية المتحدة، والرئيس بورقيبة عن الجمهورية التونسية، والرئيس توكمان رئيس حكومة ليبيريا، والسيد أحمد بلفريج وزير خارجية المغرب، والسيد عبد الله خليل رئيس حكومة السودان، والسيد وهي البوري وزير بالدولة الليبية.

وهذه أول مرة سيلتقي فيها رجال سياسيون أفارقة ذوي شهرة عالمية، وسيتدارسون المشاكل الخاصة بإفريقيا لأول مرة أيضا³⁰، كما أعلنت الحكومات المجتمعة في هذا المؤتمر وفاءها لمبادئ باندونغ، والتضامن الآسيوي الإفريقي، وتأييدها للحركات الوطنية في إفريقيا، كما اعتبر يوم 15 أبريل يوم القارة الإفريقية تمجد فيه كفاحها.³¹

عقد المؤتمر بحضور أكثر من 300 مندوب يمثلون 62 هيئة شعبية في إفريقيا بهدف إحياء الذكرى الأولى لاستقلال غانا، وشمل جدول أعمال هذا المؤتمر الذي وصف بأنه باندونغ الإفريقي على تبادل وجهات النظر حول السياسة الخارجية ومشاكل أخرى³²، كما أجمع المشاركون على بذل كل الجهود الممكنة من أجل مساعدة الشعب الجزائري، وتشكيل مجموعة إفريقية ضمن هيئة الأمم المتحدة من أجل توحيد العمل لصالح جبهة التحرير الوطني³³.

اغتنم ممثلو جبهة التحرير الوطني الفرصة للتعريف بقضيتهم، وفضح أساليب المستعمر الفرنسي لكسب المزيد من الدعم الإفريقي والعالمي لها³⁴.

وبذلك يكون تصميم الشعب الجزائري قد نجح في الدخول بالقضية الجزائرية في طور جديد، وهو الطور الذي تحتضن فيه الدول الإفريقية كلها حرب الجزائر بصفة رسمية، ومن ثم تعهدت الدول الثمانية المستقلة بإعانة الجزائر بجميع الوسائل الممكنة. لقد صادقت دول المؤتمر على لائحة في شأن الجزائر تضمنت ما يلي:

- الاعتراف بحق الشعب الجزائري في الاستقلال وتقرير المصير.
- دخول فرنسا سريعا في مفاوضات سلمية مع جبهة التحرير الوطني من أجل الوصول إلى تسوية نهائية وعادلة.
- مطالبة أصدقاء وحلفاء فرنسا بالتخلي عن تقديم الإعانة لها بطرق مباشرة أو غير مباشرة في عملياتها العسكرية في الجزائر.
- توصية الدول الإفريقية بإرسال تعليمات إلى مندوبيها في الأمم المتحدة تنص على إعلام أعضاء الأمم المتحدة بواقع ما يحدث في الجزائر وطلب مساندتهم³⁵.
- وفي نفس الوقت الذي كانت فيه ندوة أكرا تدرس الأساليب للإعانة الفعالة للكفاح الجزائري، أهملت مواضيع أخرى كالخطر الناجم عن الأشكال الجديدة التي اتخذها الإستعمار، ولهذا درست أساليب مناهضة الاستعمار بشكله الجديد بواسطة التبادل الثقافي والفني بين الأقطار الإفريقية نفسها³⁶.
- وتجسيدا للتأييد الذي حظيت به القضية الجزائرية في مؤتمر أكرا، قامت الدول الإفريقية المستقلة بتكليف وفد عنها بمهمة الدعاية للقضية الجزائرية مع توضيح فكرة أن جبهة التحرير الوطني هي الممثل الحقيقي للشعب الجزائري³⁷.

إضافة إلى ما كتبه بعض الصحف عن المؤتمر مثل صحيفة le Combat قائلة: "إذا كان من الأهداف الرئيسة لمؤتمر أكرا إنشاء منظمة تتمتع بصلاحيات دبلوماسية يدخلها ممثلو جبهة التحرير بصفة رسمية، وأن هذه المنظمة سيكون من أولويات أهدافها الدفاع عن الأقطار التي لم تحصل بعد على استقلالها، وفي مقدمتها الجزائر³⁸.

4-2- مؤتمر أكرا الثاني 8 ديسمبر 1958م: عقد المؤتمر من يوم الإثنين 8 ديسمبر 1958م بأكرا، بدعوة من رئيس جمهوريتها نيكروما، وشاركت فيه الحكومة المؤقتة بوفد رسمي³⁹، إلى جانب ثمانية بلدان إفريقية مستقلة، وحوالي 200 عضو يمثلون أكثر من 50 حزبا سياسيا أو نقابيا أو حركة إصلاحية من مختلف الشعوب الإفريقية، ترأس المؤتمر السيد طوم مبوبيا (Thom Mboya) وهو ممثل كينيا، أما عن الوفد الجزائري فقد كان يقوده الدكتور فرانس فانون الناطق الرسمي باسم جبهة التحرير الوطني، حيث لقي استقبالا حارا من قبل المؤتمرين، والذي بدوره أعلن من خلال هذا المؤتمر أن معركة التحرير لن تكون بأي طريقة كانت ملاذا للعنف بل وسيلة للحصول على الحقوق المسلموبة⁴⁰.

يعتبر هذا المؤتمر امتدادا لمؤتمرات الحكومات الإفريقية المنعقد بأكرا من 15 إلى 22 أبريل 1958م، حيث لقيت فيه القضية الجزائرية دعم الدول الإفريقية⁴¹.

مؤتمر أكرا الثاني كان مؤتمرا للشعوب لا للحكومات، وكان شعاره "يجب أن تكون إفريقيا حرة"، وقد ضم كل الحركات الوطنية في إفريقيا من أقصى شمالها إلى أقصى جنوبها⁴²، حيث ناقشت الوفود المشاركة في هذا المؤتمر العديد من القضايا المهمة، وأكدت على تطبيق قرارات مؤتمر أكرا الأول ومناصرتها للشعب الجزائري، وكان هذا المؤتمر مكسبا جديدا للقضية الجزائرية في المحافل الدولية ومنابر الكتلة الأفروآسيوية، وقد جاء نتيجة مساعي وجهود الوفد الجزائري، حيث أكد المؤتمر على أن شعب الجزائر يدافع عن حرية إفريقيا، بخاصة وأن جيش الاحتلال قد جمع 800 ألف جندي على أراضيها⁴³.

وقد ذكرت جريدة المجاهد أهم القرارات المتوصل إليها في عددها 34 تحت عنوان "لائحة أكرا حول الجزائر"، والمتمثلة في:

- يؤكد حق الشعب الجزائري في الاستقلال، ويستنكر السياسة المسماة إدماج الجزائر في فرنسا.
- يدعو فرنسا إلى أن تعترف للشعب الجزائري بحقه الطبيعي في الاستقلال، وأن تجري عاجلا مع الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية مفاوضات لتحقيق الاستقلال، ووقف إطلاق النار.
- يجدد نداء مؤتمر الدول الإفريقية المستقلة المنعقد بأكرا في 22 أبريل 1958م للأمم الصديقة لفرنسا لكي ترفض من الآن تقديم أي مساعدة إلى فرنسا من أي نوع كانت في حرب الإبادة التي تسلكها ضد الجزائر.
- يدعو منظمة الأمم المتحدة بقوة إلى إيجاد حل سلمي للمشكلة الجزائرية، بإجراء مفاوضات مباشرة بين الحكومة الفرنسية والحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، وأن تحدد أجلا معقولا لفتح هذه المفاوضات، وأن تتخذ الوسائل العملية الناجعة لمساعدة حكومة فرنسا على قبول حل المشكل الجزائري عن طريق المفاوضات المباشرة.
- توجه نداء حارا إلى الأقطار الإفريقية لتنظم يوما للتضامن الإفريقي مع الجزائر في الشهرين القادمين، يُقام في أثناءه جمع التبرعات الشعبية لمساعدة ضحايا القمع، واستنكار الحرب الاستعمارية في الجزائر بواسطة التظاهرات الشعبية والاحتجاجات والالتماسات...⁴⁴، كما أصدر المؤتمر العديد من القرارات الأخرى، نذكر منها:
- دعوة الحكومات الإفريقية إلى الاعتراف بالحكومة المؤقتة.
- توجيه نداء لمساعدة الجزائر ماديا وأديبا.
- معارضة سياسة المعسكرات والتجارب النووية والحروب العدوانية، وتأييد فكرة السلام العالمي والتعايش السلمي بين كل الشعوب والدول مهما اختلفت اتجاهاتها السياسية ونظمها الاقتصادية والاجتماعية.⁴⁵
- إنشاء مجموعة إفريقية داخل الأمم المتحدة مناصرة للقضية الجزائرية.
- تشكيل بعثة إفريقية للتوجه إلى أمريكا اللاتينية والدول الإسكندنافية للتعريف بالقضية الجزائرية.⁴⁶
- في الأخير يمكن القول بأن هذا المؤتمر كان ورقة ضغط أخرى على فرنسا، لصالح القضية الجزائرية إذ يقول الدكتور شوقي مصطفىاوي في خطابه: "... إن الضعف الذي

انتاب فرنسا من حروبها الاستعمارية منذ الحرب العالمية الأخيرة قد بعث فيها الخوف من انتشار حرب عامة بمنطقة الشمال الإفريقي كله...، وعندما اندلعت الثورة الجزائرية كان من نتائجها أن سارعت فرنسا إلى منح الاستقلال للمغرب وتونس، كما كان من نتائجها أيضا أن اقتنعت فرنسا بأنها عاجزة عن مواجهة الحركات الثورية في أقطار إفريقيا السوداء...⁴⁷.

5-2- مؤتمر منروفا 04-08 أوت 1959: جاء هذا المؤتمر تدعيما للتضامن الإفريقي الآسيوي، واجتمع فيه وزراء خارجية الدول المستقلة⁴⁸، وانضم إليهم وفد الحكومة المؤقتة كعضو رسمي، لتحقيق دبلوماسية الحكومة المؤقتة بذلك انتصارا آخر على الصعيد الدبلوماسي الإفريقي، وقد عقد هذا المؤتمر في منروفا عاصمة ليبيا⁴⁹ في 04 أوت 1959م لدراسة مشاكل القارة الإفريقية، وبالخصوص مشكلة الجزائر⁵⁰.

عند افتتاح جلسات المؤتمر ألقى حسين ذو الفقار صبري خطابا مهما ندد فيه بالفضائح التي ترتكها فرنسا ضد الشعب الجزائري، كما ندد بقرار فرنسا القاضي بإجراء تجاربها النووية في الصحراء الكبرى، وتحدث عن قضية الجزائر فنقل صوراً حية للإرهاب الفظيع وألوان الدمار الذي لحق بالجزائر منذ اندلاع الثورة الجزائرية، كما ندد المؤتمر أيضا بما تقدمه دول أعضاء الحلف الأطلسي من إعانات لفرنسا في حربها ضد الجزائر، كما استنكر استخدام الجنود الإفريقيين في قتل إخوانهم بالجزائر، وألح على الدول المستقلة بمواصلة العمل الدبلوماسي لنصرة القضية الجزائرية في المحافل الدولية⁵¹، كما تم ضبط جدول أعمال المؤتمر بالنسبة للقضية الجزائرية بكل وضوح في ثلاث نقاط أساسية هي:

- الاعتراف بالحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية.

- العون المادي لجبهة وجيش التحرير الوطني.

- النشاط الدبلوماسي في هيئة الأمم المتحدة.

وبهذه النقاط الثلاث تمكن ممثلو الدول الإفريقية المستقلة أن يقوموا بعمل واضح وفق خطة مضبوطة في القضية الجزائرية⁵²، حيث تتجلى أهمية هذا المؤتمر في كونه بداية لمرحلة جديدة من التأييد الإفريقي المادي والأدبي للثورة الجزائرية؛ فحتى انعقاده بقيت حرب الجزائر مسألة تخص الشعب الجزائري بالدرجة الأولى، والأقطار

العربية بالدرجة الثانية، أي أن هذه الحرب بقيت منحصرة في الإطار العربي الضيق، لكن الدبلوماسية الجزائرية بعد سنوات توصلت إلى إقناع الدول الإفريقية بأهمية معركة الجزائر بالنسبة للقارة الإفريقية، وبأن حرب الجزائر ستحدد مصير هذه القارة، وبخاصة بعد تفجير القنبلة الذرية الفرنسية الأولى في الصحراء حيث انتشرت مشاعر الغضب والاستنكار بين جميع الإفريقيين في شمال الصحراء وجنوبها⁵³، وتكمن أهمية هذا المؤتمر في أنه زاد من حجم التأييد الإفريقي للثورة الجزائرية بعدما كانت في بداية الأمر محصورة في الساحة العربية فقط، وهذه المكانة التي حظيت بها في مؤتمر منروfia هي في حد ذاتها انتصارا للدبلوماسية الجزائرية التي تمكنت بعد سنوات من الوصول إلى إقناع الدول الإفريقية بأهمية القضية الجزائرية كقضية إفريقية بالنسبة للقارة كلها⁵⁴.

وقد كسبت الجزائر مكاسب جديدة حيث نالت التأييد الرسمي والصرح من كل الحكومات، واعترفت كل من غانا وغينيا بالحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية.
2-5- المؤتمر الثالث للشعوب الإفريقية 25-30 مارس 1961م: انعقد المؤتمر الثالث للشعوب الإفريقية بمدينة القاهرة من 25 إلى 30 مارس 1961م، وقد ضم وفود تمثل كل الحركات الوطنية والسياسية والنقابية في القارة الإفريقية.

في البداية افتتح المؤتمر بإلقاء الرئيس جمال عبد الناصر خطابا استعرض فيه مختلف المشاكل الإفريقية، ثم أشار بعدها إلى المفاوضات المحتملة إجراؤها بين فرنسا والجزائر حيث قال: "... إننا نتجه بكل تأييدنا المادي والمعنوي بدون حدود وبدون تحفظات لنضعها في نصرة الجزائر، وفي هذه المفاوضات واثقين أن نتيجتها لا بد أن تكون في مستوى التضحيات والأعمال البطولية للشعب الجزائري الذي خاض معركة ليس ضد فرنسا وحدها بل ضد الحلف الأطلسي كله..."⁵⁵.

في اليوم الثاني للمؤتمر كانت أول كلمة يستمع إليها المشاركون كلمة أحمد بومنجل الذي ألقى خطابا استعرض فيه قضية الجزائر وظروفها الراهنة حيث قال: "... إنه ينبغي علينا أن نقدر مدى التضحيات المختلفة التي تطلبها وسيطلبها تحرير القارة الإفريقية...، كما ينبغي علينا أن نكثف ونرفض العروض الخبيثة الجذابة للاستعمار الجديد، الذي يمثل خطرا لا يقل عن خطر الاستعمار المباشر..."، كما تحدث بومنجل كذلك عن مسؤوليات مؤتمر الشعوب الإفريقية اتجاه الجزائر فقال: "... إن الجزائر مرت بتجربة

مؤلة في الأمم المتحدة عندما وقفت بعض الدول الإفريقية ضد الجزائر، وفضلت على المجموعة الإفريقية مجموعة فرنسية يسيطر عليها الاستعمار، ولذلك فإن من واجب المؤتمر تصفية التناقضات الداخلية بين الإفريقيين حتى يصبح للوعي الإفريقي فعالته الكاملة...⁵⁶.

أما عن قرارات المؤتمر الخاصة بالجزائر فقد أكد المؤتمر على تضامهم التام مع الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية في قرارها المتعلق بالشروع في مباحثات مع الحكومة الفرنسية قصد تطبيق مبدأ تقرير المصير، كما طالب المؤتمر بتعزيز ومضاعفة الدعم السياسي والدبلوماسي والمادي للشعب الجزائري، ومساندة وجهة نظر الحكومة المؤقتة فيما يخص الصحراء التي تشكل جزءا لا يتجزأ من الوطن الجزائري⁵⁷.

6-2 مؤتمربلغراد 1961م: إنعقد مؤتمربلغراد من 1 إلى 6 سبتمبر 1961 حيث اجتمع رؤساء دول وحكومات عدة بلدان⁵⁸ أفروآسيوية في وقت اشتد فيه توتر الأحداث الدولية، وأصبح فيه السلم العالمي مهدد بصورة جدية⁵⁹.

الجزائر في مؤتمربلغراد: لقد شاركت الحكومة المؤقتة الجزائرية في هذا المؤتمر على قدم المساواة مع كل الدول الأخرى باعتبارها حكومة الجزائر الشرعية كما جاء في بيان المؤتمر. وإذا كانت الحكومة الجزائرية قد شاركت في مؤتمرات دولية مثل أكرا والدار البيضاء سابقا؛ فإن هذا أول مؤتمر واسع النطاق يجمع عددا كبيرا من الدول من جميع القارات، ويقوم بدور عالمي عظيم الأهمية، وقد كان لمشاركة الجزائر في مؤتمربلغراد دور إيجابي كبير حيث ساهمت في بحث كل القضايا الدولية المعروضة، وقدمت بشأنها اقتراحات لصالح السلم والحرية في العالم.

كانت النتيجة التي اكتسبتها القضية الجزائرية من هذا المؤتمر هي حصولها على التمثيل الدبلوماسي لها في عدة دول من أمريكا اللاتينية، إلى جانب تغير المواقف الدولية التي كانت معادية لها مثل المكسيك والأروغواي لصالح القضية الجزائرية⁶⁰.

كما أجمع المعلقون الأجانب على أن أول وأهم النتائج الإيجابية للمؤتمر تمثلت في ذلك التأييد الخماسي الرائع الذي أحيطت به الحكومة المؤقتة الجزائرية؛ حيث أعلنت حكومة أفغانستان منذ اليوم الأول للمؤتمر اعترافها بالحكومة المؤقتة الجزائرية، ثم توالت الاعترافات القانونية من العديد من الدول المشاركة مثل غانا ويوغوسلافيا، وقد

أطلقت عليها في البيان النهائي "حكومة الجزائر الشرعية"، كما ترأست إحدى الجلسات العامة، وألقت خلالها خطابا شاملا لمختلف القضايا الدولية، كما وقعت على بيان المؤتمر، والنداء الموجه إلى الرئيسين خروتشوف وكينيدي، وبهذا تكون الحكومة المؤقتة الجزائرية قد خطت خطوة مهمة جدا في الميدان الدبلوماسي على النطاق العالمي، وعلى هذا الأساس فإن مطالبة الرئيس نيكروما بقبول الحكومة المؤقتة في الأمم المتحدة لم تعد شيئا خياليا أو بعيد التحقيق، وبهذا أيضا تكون الجزائر قد فرضت نفسها في المجال الدولي باعتراف هذا العدد من الدول بها، ومشاركتها الإيجابية في حل مشاكل العالم كعضو فعال في مجموعة دولية كبرى لها دور عالمي يتزايد قوة واتساعا في كل يوم⁶¹.

الخاتمة: في الختام يمكن القول إن المؤتمرات الإفريقية والآسيوية كانت تعد شكلا أو مظهرا جديدا من مظاهر توحيد الشعوب في الكفاح والنضال في سبيل تحقيق الحرية والاستقلال، والمطالبة بإنهاء الحروب في العالم، ونبذ التكتلات والأحلاف الدولية، كما لعبت هذه المؤتمرات دورا رائدا في التعريف بالقضية الجزائرية، وتدويلها من خلال عرضها في جلسات الجامعة العربية إقليميا، وهيئة الأمم المتحدة دوليا، وبحصولها على التصويت لصالحها في دورات الجمعية العامة من جهة، ووقوف شعوب مختلف القارات إلى جانب الشعب الجزائري، والاعتراف له بحقه في تقرير مصيره بنفسه من جهة أخرى.

إن التقدم والدعم والمساندة الذي أحرزته القضية الجزائرية على صعيد التضامن الأفريقي والآسيوي، وعلى صعيد دول عدم الانحياز قد شكل دعما قويا للقضية الجزائرية، و تأييدا لا يُستهان به ضمن دورات الجمعية العامة للأمم المتحدة، بل إنه أكسبها مواقع دبلوماسية جديدة في القارة الآسيوية، والتي تعتبر ذات وزن دبلوماسي مهم في السياسة الدولية. كانت هذه المؤتمرات في كل مرة توضح الصورة أكثر للعالم لما يحدث فعلا في الجزائر، وتبرز للهيئات العالمية سياسة فرنسا للإنسانية الهمجية التي تطبقها على الشعب الجزائري، مع إصرارها في كل مرة على التأكيد بأن الجزائر جزء لا يتجزأ منها، وأن قضيتها مسألة داخلية تخص فرنسا، ولا يحق لأي طرف التدخل فيها، إلا أن نشاط الدبلوماسية الجزائرية، وعملها المتميز مكنها من مواجهة المخططات الاستعمارية الفرنسية في كل مكان وزمان، بالإضافة إلى تعبئة الرأي العام العالمي للوقوف بجانب الشعوب المستضعفة التي كان همها الوحيد هو أن تنال حق الحرية.

الهوامش:

- 1- بيان أول نوفمبر 1954م.---2- المصدر نفسه.---3- عبد القادر خليفي: المؤتمرات الأفروآسيوية والقضية الجزائرية، مجلة المصادر، ع08، 2003، ص221.---4- يحيى بوعزيز: ثورات الجزائر في القرنين 19 و20، ج1، ط2، منشورات متحف المجاهد، الجزائر، 1996، ص183.---5- المرجع نفسه، ص183.
- 6- الدول التي شاركت في المؤتمر هي كالاتي: أفغانستان، العربية السعودية، بورما، كمبوديا، سيلان، الصين، غانا، مصر، إثيوبيا، الهند، أندونيسيا، العراق، إيران، اليابان، الأردن، اللاوس، لبنان، ليبيريا، ليبيا، النيبال، باكستان، الفلبين، سيام، السودان، سوريا، تركيا، الفيتنام الشمالي، الفيتنام الجنوبي، اليمن.---7- عبد القادر خليفي: المرجع السابق، ص219.---8- المرجع نفسه، ص217. ---9- أحمد سعيود: مساعي جبهة التحرير الوطني للتعريف بالقضية الجزائرية في الخارج، مجلة النائب، عدد خاص، 2004 المرجع نفسه، ص178.---10- المجاهد: القضية الجزائرية أمام المعسكرات الدولية، الكتلة الإفريقية الآسيوية ع19، 58/03/01، ص5.---11- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
- 12- بشير سعدوني: الثورة الجزائرية في الخطاب العربي 1954-1962، أطروحة دكتوراه، جامعة بن يوسف بن خدة، الجزائر، 2008-2009 ص168-169.---13- المجاهد: من باندونغ أبريل 1955 إلى كونا كوري أبريل 1960، ع66، 18-04-1960، ص6
- 14- أحمد سعيود: الذكرى 50 لمؤتمر باندونغ التاريخي، مجلة المصادر، ع12، 2005، ص165.---15- عمار قليل: ملحمة الجزائر الجديدة، ط1، دار البعث، قسنطينة، 1991، ص123.---16- عبد القادر خليفي: مرجع سابق، ص225.
- 17- المجاهد: شعوب آسيا وإفريقيا تعزز معسكر الحرية، ع15، 58/01/01
- 18- المجاهد: الافتتاحية، التضامن الإفريقي الآسيوي مع الجزائر يتعزز، ع15، 01 جانفي 1958، ص1.---19- المصدر نفسه.
- 20- ولد سنة 1917 بحسين داي، من عائلة ميسورة الحال، حاز على شهادة البكالوريا والتحق بكلية الطب، انخرط في صفوف حزب الشعب، كان من الداعين لإنشاء المنظمة الخاصة، التحق بالثورة وطلب منه التوجه للقاهرة للعمل ضمن الوفد الخارجي، كان عضوا في لجنة التنسيق والتنفيذ، كما عين مسؤولا عن اللجنة الخارجية لجبهة التحرير سنة 1956، ثم وزيرا للشؤون الخارجية في الحكومة المؤقتة سنة 1958 وفي نهاية سنة 1959 اختلف مع رئيس الحكومة المؤقتة فرحات عباس بسبب قضية عميرة واضطر إلى تقديم استقالته، بعد الاستقلال عاد إلى ممارسة مهنة الطب بالعاصمة ثم مدينة العلمة وبقي بعيدا عن الأضواء إلى أن توفي في 21 جانفي 2003. عبد الله مقلاتي. قاموس أعلام شهداء وأبطال الثورة الجزائرية، ط1، منشورات بلوتو، الجزائر، 2009، ص262-264
- 21- تطور الدبلوماسية الجزائرية 1830-1962، دراسات وأعمال الملتقى الأول حول تطور الدبلوماسية، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر، الجزائر 1992، ص91.---22- عمار قليل، مرجع سابق، ص124
- 23- بشير سعدوني: الثورة الجزائرية في الخطاب العربي الرسمي، ج1 و2، دار ندى للطباعة والنشر، 2013، ص326
- 24- محمد بلقاسم وآخرون: القواعد الخلفية للثورة الجزائرية (الجهة الشرقية 1954-1962) منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، ص302-303
- 25- الأرشيف الوطني الجزائري: بيان بمناسبة يوم التضامن الإفريقي الآسيوي مع الشعب الجزائري، رصيد الحكومة المؤقتة، 033/05/017
- 26- المجاهد: يوم الجزائر كما حددته، السكرتارية الدائمة 30 مارس يوم التضامن العالمي مع الجزائر المجاهدة، ع21، 58/04/01، ص3.
- 27- المصدر نفسه، ص3.---28- عبد الله مقلاتي: مصرو الثورة التحريرية الجزائرية، شمس الزيبان للنشر والتوزيع، ص94.---29- المجاهد: مؤتمر أكرأ الأول والثاني، ع66، 18-04-1960
- 30- المجاهد: ملتقى الدول الإفريقية المستقلة في أكرأ، ع21، 58/04/01، ص125.---31- عمار قليل، مرجع سابق، ص125.---32- المجاهد، نصف الشهر السياسي، مؤتمر أكرأ الإفريقي، ع22، 58/04/10، ص10.---33- تطور الدبلوماسية: الجزائر 1830/1962، مرجع سابق، ص92.---34- بشير سعدوني: ج1، مرجع سابق، ص337.---35- المجاهد، نصف الشهر السياسي، ع22، ص10.---36- المجاهد: مغزى ندوة أكرأ، ع23، 58/05/07، ص15
- 37- عيسى ليتيم: دور الدبلوماسية في إفريقيا والعالم العربي في كسب وتأييد الدولي للثورة الجزائرية 1954-1962، دكتوراه، جامعة باتنة، 2015-2016، ص512.---38- أحمد بشيري: الثورة الجزائرية والجامعة العربية، ط2، ثالة للنشر والتوزيع، 2009، ص130.

- 39--- المجاهد: مغزى ندوة أكرأ..المصدر نفسه.---40- تمثل وفد الجزائر في: أحمد بومنجل، فرانس فانون، ومصطفاوي، أنظر صالح بلحاج، تاريخ الثورة الجزائرية، دار الكتاب الحديث، القاهرة، 2008، ص336
- 41- la conférence d'Accra prend l'allure d'une manifestation contre la France (le monde, 11 décembre 1958)
- 42- المجاهد: من باندونغ ... ع66/سليم العايب: الدبلوماسية الجزائرية في إطار منظمة الإتحاد الإفريقي، مذكرة ماجستير في العلوم السياسية، جامعة باتنة، 2011، ص64.---43- عمر بوضربة: النشاط الدبلوماسي- الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية- سبتمبر 1958- جانفي 1960، دار الحكمة للنشر، الجزائر، 2010، ص198.
- 44- المجاهد: مؤتمر أكرأ الأول والثاني، ع66، مصدر سابق. ---45- مقالاتي عبد الله و تواتي دحمان: البعد الإفريقي للثورة الجزائرية ودور الجزائر في تحرير إفريقيا، دار الشروق، الجزائر، 2009، ص22.---46- المجاهد : ع 34، 24 ديسمبر 1958، ص4.
- 47- المجاهد: من باندونغ..... مصدر سابق، ص3.---48- عمر بوضربة، مرجع سابق، ص198.
- 49- المجاهد، ع34، مصدر سابق.---50- المجاهد: المؤتمر الثالث للشعوب الإفريقية، ع 93، 10-04-1961، ص06.
- 51- كما أكد بومنجل على خطورة المساعدة التي يقدمها الحلف الأطلسي بقيادة الوم أ لفرنسا، وتحدث عن التناقض الأساسي بين موقف الجزائر وفرنسا في قضية تقرير المصير. المجاهد: المؤتمر الثالث، الصفحة نفسها.
- 52- المجاهد، ع 93، المصدر نفسه.---53- هذه الدول هي: ليبيا، مصر، المغرب، تونس، ليبيا، غانا، غينيا، السودان، الحبشة، وحكومة الجزائر كعضو رسمي.
- 54- مريم صغير: البعد الإفريقي للقضية الجزائرية 1955-1962، ط1، دار السبيل للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص331-332.
- 55-- المجاهد: متروفا انتصار جديد للجزائر، ع 48، 10 أوت 1959، ص3.---56- المجاهد: المؤتمر الإفريقي الثاني، ع 48.
- 57- المجاهد: متروفا انتصار.....، ع 48.---58- هذه البلدان هي: أفغانستان، الجزائر، العربية السعودية، قبرص، مالي، المغرب، النيبال، الجمهورية العربية المتحدة، الصومال، السودان، تونس، اليمن، البرازيل، الإكوادور، المكسيك، فنزويلا
- 59- مريم صغير المواقف الدولية من القضية الجزائرية 1954-1962، دار الحكمة للنشر والتوزيع، 2009، ص 359
- 60- المجاهد: الجزائر في بلغراد، ع104، 11/09/1961.---61- المصدر نفسه.

إستراتيجية الثورة الجزائرية في مواجهة وتحييد الإدارة

الاستعمارية الفرنسية (1954-1962)

The strategy of the Algerian revolution in confronting and neutralizing the French colonial administration (1954-1962)

صص 313-335

اسم ولقب المؤلف المرسل: سليم سايح- Sayah Salim

الدرجة والعنوان المهني: أستاذ محاضر في التاريخ الحديث والمعاصر- قسم التاريخ- جامعة قسنطينة2- عبد الحميد مهري.

البريد الإلكتروني: salim.sayah@yahoo.com

تاريخ استقبال المقال: 2019/10/09 تاريخ المراجعة: 2020/01/20 تاريخ القبول: 2020/01/31

الملخص: تعرف الثورات التحريرية على أنها حروب شعبية في أشكالها ومضامينها، تلعب فيها الجماهير الشعبية الدور الفاصل والحاسم في تحديد نتائجها، ومن ثمة فلا غرابة أن تظل هذه الجماهير في البلاد المستعمرة تشكل جوهر الصراع بين الإدارة الاستعمارية وبين الثوار الوطنيين. لهذا سعت هذه الدراسة التي تندرج ضمن المقاربات التي تبنتها الثورة التحريرية في إدارة معركتها التحريرية مع الإدارة الاستعمارية إلى إبراز أهمية الإستراتيجية التي تبنتها ثورة التحرير الوطني الجزائرية، لفك ارتباط الشعب الجزائري بالإدارة الاستعمارية الفرنسية، وكيف استطاعت جبهة التحرير الوطني مواجهة هذه المنظومة الإدارية الاستعمارية المعقدة التي ظلت تتحكم ولعقود طويلة من الزمن، في تفاصيل الحياة اليومية للجزائريين بشكل بدا للإدارة الاستعمارية نفسها أنه يصعب معه إنجاز أية محاولة لتفكيك هذا الترابط، وهو الرهان الذي ظلت تراهن عليه الإدارة الاستعمارية لعزل الثورة عن وسطها الطبيعي، ومن ثمة القضاء عليها. بيد أن الثورة، وبفضل تجربة مناضليها (من أيام الحركة الوطنية) في التنظيم والتعبئة، تمكنت من كسب "معركة استمالة الجماهير الشعبية"، وتحرير الشعب الجزائري من مخالب الإدارة الاستعمارية، وانتهت إلى توطين إدارة ثورية بديلة، أصبحت هي من تدير شؤون الجزائريين، وهو ما يكون وراء اقتناع الإدارة الاستعمارية بمسألة عدم جدوى استمرار الحرب.

الكلمات المفتاحية: الثورة الجزائرية؛ استمالة الجماهير؛ خنق وعزل الثورة؛ الفصائل الإدارية المتخصصة؛ جبهة التحرير الوطني؛ المنظمة السياسية الإدارية؛ توطين إدارة ثورية؛ تحييد الإدارة الاستعمارية.

Abstract: *The liberal revolutions are defined as popular wars in their form and depth, therefore, the conflict between the colonial administration and the national revolutionary movements was linked to how controlled the popular masses. Hence, this study which can be included in studies interested in stories of the approaches adopted by the Algerian liberation revolution in the management of the editorial battle, seeks to clarify the importance of the strategy adopted by the revolution to disengage the masses of the popular colonial administration in order to restore the role of these masses in supporting and strengthening the battle of the national liberation front with French colonialism. This was achieved by the national liberation front, which restored its authority over the popular masses, which ended the colonial administration's control over the masses, which also precipitated the end of the war.*

Keywords: Algerian revolution; wooing the Algerian people; strangle and isolate the revolution; specialized administrative factions; national liberation front; administrative political organization; revolutionary administration; neutralizing the colonial administration.

مقدمة: شكلت الثورة الجزائرية بحق أحد أهم الثورات التحريرية في التاريخ المعاصر، كونها استطاعت أن تبتكر لنفسها طرقاً أصيلة أبانت من خلالها على مقدرة كبيرة في التنظيم، وفي إدارة المعركة التحريرية ضد الاستعمار الفرنسي، مكنتها من الوصول إلى شل وتحييد المنظومة الإدارية الاستعمارية بشكل شبه كامل، على الرغم مما كانت تحوزه هذه الأخيرة من تراكم للخبرات العسكرية واللوجستية، وحتى الدبلوماسية؛ فكيف أمكن إذن لهذه الثورة التي لم تكن تملك من الإمكانيات إلا إرادة مفجريها على تحقيق الحرية والاستقلال، وأن تواجه الترسنة الاستعمارية الفرنسية التي كانت تصنف حينها كراعب قوة عسكرية، وأن تشل منظومتها الإدارية إلى الحد الذي أصبحت فيه الثورة هي من تملك زمام المبادرة، بعد أن تمكنت من خلق وتوطين نظام سياسي وإداري ثوري بديل للإدارة الاستعمارية.

إن رصد وتفسير جملة الطرق والأساليب التي انتهجتها جبهة التحرير الوطني والثورة عموماً في مواجهة المنظومة الإدارية الاستعمارية المعقدة التي ظلت تعززها وباستمرار الآلة العسكرية، كفيل بأن يتيح للقارئ تفهم طبيعة الصراع العنيف الذي

احتدم بين الثورة التحريرية والإدارة الاستعمارية الفرنسية حول موضوع إدارة الجماهير الشعبية، وكيف استطاعت جهة التحرير الوطني خلخلة المنظومة الإدارية الاستعمارية المعقدة، وتحرير الشعب الجزائري من سطوتها، واستعادة دور هذه الجماهير في إسناد الثورة، وتقديم كل أشكال الدعم المادية والبشرية، مما سمح لها في الأخير بإدارة المعركة التحريرية على النحو الذي عجل باستعادة السيادة الوطنية في الـ 05 جويلية 1962.

وقد جاءت هذه الدراسة وفق خطة بحثية تقوم على المحاور التالية: إصرار الثورة على فك ارتباط الجماهير الشعبية بالإدارة الاستعمارية- الفصائل الإدارية المتخصصة لمواجهة تمدد الثورة- احتدام الصراع بعد مؤتمر الصومام- الثورة تفرض سلطتها على الأرض.

يلخص الكسندر دومارونش (Alexandre De Marenches) الفرق بين الحروب الكلاسيكية والحروب الثورية بالقول: "في الأولى نغزو الأرض، ويجب على سكانها أن يتبعونا، أما في الثانية فإننا نراقب العقول والأرواح، وفي هذه الحالة الأرض هي التي تتبع"¹.

انطلاقاً من هذه المقاربة، شكلت معركة استمالة واحتواء الشعب لجزائري، وتكبيله بواسطة منظومة إدارية استعمارية قوية، تمكنها من إدامة الاحتلال دون أية مقاومة، أهم معارك الإدارة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر منذ الاحتلال سنة 1830 وإلى غاية الاستقلال في سنة 1962، فحتى وإن استمر رهانها على القوة العسكرية حتى أواخر القرن التاسع عشر؛ فإن ذلك لم يكن في حقيقة الأمر سوى بقصد كسر شوكة المقاومات الشعبية المسلحة التي أظهرها الشعب الجزائري إلى هذا التاريخ، إذ سرعان ما كانت الإدارة الاستعمارية تعود للرهان على سياسة الاحتواء والإخضاع لتحقيق "الهدوء في المستعمرة"، من خلال منظومة "الإدارة الأهلية" التي بدأت بالمكاتب العربية² (Bureaux Arabes) التي ظهرت في سنة 1834، ثم تطورت لاحقاً لتظهر سنة 1955 في صورة "الفصائل الإدارية المتخصصة" (SAS)³ بالأرياف والقرى، وتم تعزيزها بـ"الفصائل الإدارية الحضرية" (SAU)⁴ بالمدن في سنة 1957م⁵، وقد شكلت هذه النظم الإدارية الاستعمارية على اختلاف مراحل ظهورها مؤسسات قائمة بذاتها، سخرت لها كل الإمكانيات المادية

والبشرية بقصد خلخلة البنية المجتمعية للشعب الجزائري، التي استعصى على الإدارة الاستعمارية تفكيكها⁶.

لم يكن من الصعب على قادة الثورة الأوائل استيعاب الأساليب الاستعمارية وأهدافها الرامية إلى تكبيل الشعب الجزائري، بجعله أسير منظومة إدارية استعمارية قمعية، بعد أن أنهكته وجردته من أسباب الحياة؛ فكانت المعركة الثانية للقيادة الثورية (بعد تفجير للثورة) هي تحرير الجماهير الشعبية من مخالب الإدارة الاستعمارية، وإعادة إدماجها بسرعة في هيكل تنظيمي بديل يجعل من هذه الجماهير أساس الثورة لتحقيق الاستقلال، هكذا إذن كانت معركة استقطاب الجماهير الشعبية، جوهر المارك بين الإدارة الاستعمارية الفرنسية والثورة الجزائرية.

1- إصرار الثورة على فك ارتباط الجماهير الشعبية بالإدارة الاستعمارية: كانت جهة التحرير الوطني في بداية الثورة أمام سؤال كبير، وهو كيف السبيل إلى تحرير الجماهير الشعبية، وتحديد الجهاز الإداري الاستعماري الذي ظل يحبس أنفاس الجزائريين طيلة قرن وربع القرن من الزمن، وإعادة هذه الجماهير إلى دورها الطبيعي وهو مؤازرة الثورة؟ لكن قبل هذا كان على قيادة الثورة أن تسارع إلى حل معضلة جهل الجماهير الشعبية بطبيعة هذه الثورة، وأن تجيب على الكثير من الأسئلة التي كانت تشغل بال الجماهير الشعبية في هذه المرحلة حول من يكون مفجرو هذه الثورة؟ ومن هي الجهة التي تديرها؟ أهي في الداخل أم في الخارج؟ وما هي إمكانات هذه الثورة؟ وهل بمقدورها الوقوف في وجه الترسانة الاستعمارية الفرنسية؟

مثل هذه الهواجس لم تكن بغائبة عن أذهان قادة الثورة الأوائل الذين عكفوا على تفجير الثورة، وكانوا على وعي بهذه التحديات، من ذلك أن كريم بلقاسم كان قد أكد عشية تفجير الثورة على أهمية دور الدعاية في مواجهة حالة عدم التوازن في الإمكانيات بين الثورة التي سوف يعلن عنها وبين الاحتلال الفرنسي، وعبر كريم بلقاسم عن ذلك بالقول: "إمكانياتنا ليست قوية، يجب تعويض هذا النقص في الإمكانيات بالأهداف المهمة (...). العمل النفسي يوم التمرد سيكون هو الأكثر أهمية"⁸.

لكن هذه الإرادة كانت تواجهها عقبة كبيرة؛ فعشية اندلاع ثورة الفاتح نوفمبر 1954، كان النظام الإداري الاستعماري في الجزائر قد استحكم، وأصبح نظام حكم

استبدادي في أيدي المعمرين الأوروبيين، اشتدت فيه سطوتهم على السكان الجزائريين بواسطة شيوخ البلديات والمجالس التي يختارون أعضاءها، والجمعيات التي يسخرونها لمصالحهم الخاصة، على حساب الجزائريين الذين أمعنوا في إفقارهم وإذلالهم؛ فشيخ البلدية الذي ينتخبه المعمرون الأوروبيون هو من يضع القوانين، ويحدد الضرائب، ويشرف على البوليس والجندرمة ومصالح الغابات والتجارة والفلاحة وأجور العمال، أما الجزائريون فكانوا فريسة لحكم المعمرين وأعاونهم من قياد وحراس جماعات "الأحواز" (أي المناطق البعيدة عن مقرات البلديات التي يديرها القيادة تحت سلطة رؤساء البلديات) في البوادي، الذين أمعنوا في تعميم الاضطهاد في حق أبناء جلدتهم إرضاء لموكليهم المعمرين. كانت إذن أولى أولويات الثورة في البداية تحطيم هذا النظام، والقضاء على أعوانه وتدمير مراكزهم⁹.

كان بيان الفاتح نوفمبر 1954م، وهو أول بيان للثورة، قد ألقى على أهمية تفكيك الإدارة الاستعمارية، عندما أكد على ضرورة "تصفية النظام الاستعماري، وإعادة بعث الدولة الجزائرية التي كانت موجودة قبل سنة 1830م"¹⁰، وهذا لن يتأتى إلا بتوحيد صفوف الجماهير الشعبية، وتعبئة كل الطاقات الحية فيها داخل جبهة التحرير الوطني لخوض الكفاح المسلح؛ الذي لا بديل عنه لاسترجاع السيادة الوطنية، وتحقيق الاستقلال الوطني¹¹.

ولما كانت الثورة في البداية (قبل مؤتمر الصومام) تفتقر لجهاز تنظيمي موحد يقود معركة التحرير الوطني؛ فقد تركت المبادرة لقادة المناطق والنواحي¹² لتقدير ما يمكن القيام به تبعا للظروف المحيطة بهم، وقد تركز الجهد في هذه الفترة على العمل الدعائي في الأرياف، وإجبار المعمرين على إخلاء مزارعهم واللجوء إلى عواصم المدن، أما الخونة والجواسيس من الجزائريين فمن لم يتعظ "ويتوب فكان يلقى حكم النظام"¹³، ويتم إعدامه¹⁴، أما السكان فقد طالبتهم الثورة بعدم التعامل مع العدو، وتسوية قضاياهم داخل قراهم ومدائشهم، كما اعتمدت جبهة التحرير أيضا وكإجراء ردعي على معاقبة كل من يثبت تعاونه مع المستعمر؛ فكانت تجوب مختلف المناطق، مجموعات صغيرة (تتكون في الغالب من 2 إلى 3 أشخاص) لشرح "النظام"، وتصفية الريف من العناصر

المشبوهة¹⁵، كما تحولت حملات التشهير التي قادتها الصحافة الكولونيالية ضد الثورة إلى عمل دعائي ترويجي لنشاط جيش التحرير الوطني والثورة عموماً¹⁶.

وقد عززت الطبيعة العدائية للجزائريين عموماً والأوراس خصوصاً الجهد الدعائي الذي قامت به خلايا الثورة في هذه المناطق، مما كان له الأثر الواضح على النتائج الكبيرة التي تم تحقيقها في وقت مبكر من عمر الثورة، وقد أشار التقرير الذي أعده المكتب الثاني لهيئة أركان الجيوش (الفرنسية) للناحية العسكرية العاشرة (الجزائر) الذي حمل عنوان "ملخص معلومات لشهر نوفمبر 1954" إلى أن "الحركة الإرهابية المعقدة أدت إلى انضمام عدد كبير من دواوير الأوراس إلى هذه الحركة بداية من تاريخ الـ11 نوفمبر 1954، وقد بدأ ذلك من خلال الدعم والتمويل والمراقبة والتعاطف الذي أبداه سكان المنطقة تجاهها"، ورغم هذا الاعتراف، إلا أن التقرير كان يرى- أو هكذا كان يمتني أصحابه أنفسهم- أن هذا التعاطف ظرفي، وسوف يتراجع بمجرد بروز بوادر انشقاق داخل هذه الحركة¹⁷.

ورغم العمليات العسكرية البرية والجوية الواسعة التي شنتها القوات الاستعمارية الفرنسية في مناطق الشرق الجزائري وفي الأوراس تحديداً بداية من الـ12 نوفمبر 1954 في محاولة للقضاء على الثورة في مهدها، والتي أرفقتها بإلقاء¹⁸ حوالي 5000 منشور على دواوير وسط الأوراس (واد لبيض وبخاصة واد عبدي)، مكتوبة بالعربية والفرنسية والأمازيغية، تطلب من السكان التزام الهدوء و"التخلي عن العصاة"¹⁹، واللجوء إلى قرى أخرى آمنة، لكن هذه الإجراءات لم تحقق نتائج كبيرة باعتراف التقرير نفسه، والذي أكد أنه لم يلتحق بمناطق الأمان هذه من دوار إشمول مثلاً سوى 280 عائلة من مجموع 1000 عائلة، وأن أغلب الملتحقين بها كانوا من الشيوخ والأطفال²⁰.

إن نتائج بهذا المستوى وفي أيام قليلة من اندلاع الثورة لهو دليل على أن قيادة الثورة قد استوعبت الأهداف القصوى التي هدف إلى تحقيقها بيان أول نوفمبر 1954، والتي تصبو إلى إحداث قطيعة نهائية بين الشعب الجزائري والإدارة الاستعمارية، هذه القطيعة التي تمثل السبيل الأمثل لاستعادة السيادة الوطنية، وتحقيق الاستقلال الوطني، لأنه بدون هذه القطيعة لن تستطيع الثورة استعادة الجماهير (التي تمثل الأساس في إحداث الانقلاب الشامل على المستعمر)، من قبضة الإدارة الاستعمارية، وقد

أوضح بيان أول نوفمبر طبيعة الثورة وأهدافها ووسائلها عندما قال: "إن جبهة التحرير الوطني هي المنظمة الوحيدة للشعب الجزائري في حرب الاستقلال، وفي نفس الوقت الذي تقوم فيه بالكفاح التحريري، فإن جبهة التحرير الوطني تقود ثورة هدفها محو النظام الاستعماري، وبعث الدولة الجزائرية ذات السيادة، وبناء جمهورية ديمقراطية، وفي هذا الكفاح تعتبر جبهة التحرير الوطني مرشد الشعب ومحرك الكفاح (...) تقوم (...) بالكفاح المسلح بفضل جيش التحرير الوطني، وهو يستمد قواه من طاقة الشعب"²¹.

أ- الخلايا الثورية لتأطير الجماهير الشعبية: وقد وفرت تجربة حزب الشعب الجزائري- حركة الانتصار للحريات الديمقراطية (بين 1937 و1950) للثورة الكثير من الجهد والوقت في الجانبين التنظيمي والعملي، سواء أثناء التحضير لعمليات أول نوفمبر 1954 أو ما بعدها، بفضل القاعدة النضالية للحزب، سواء منهم المناضلون الذين كانوا ولطبيعة تكوينهم ولتوجهات الحزب، على استعداد للعمل الثوري (نشطاء المنظمة الخاصة)، ولكن لم يتم الاتصال بهم قبل الثورة، أو الذين كانوا قبيل الثورة وبعدها على خط الحياد؛ فأجبرتهم ضغوط وملاحقات الإدارة الاستعمارية على الانخراط في الثورة، ومنهم تشكلت في المدن خلايا لتزويد الثورة بما تحتاجه²².

اتجهت الثورة في البداية إلى تنظيم الريف للاعتماد عليه كقاعدة لعملياتها العسكرية باعتباره الميدان الطبيعي لحرب العصابات، على الرغم من المشاق التي يخلقها هذا الريف، بسبب التركيبة المجتمعية لعالم الريف، والطبيعة القبلية المعقدة التي تتحكم فيه، والتي أقل ما يمكن الإشارة إليه في هذا الصدد مسألة الخصومات بين القبائل²³ (وهي عادة متأصلة في المجتمعات القبلية) سواء بسبب خلافاتها القديمة، أو بسبب التفاخر بالأنساب، غير أن تحمل مشاق الريف كان أقل مغامرة من الاعتماد على المدينة في بداية الثورة، بسبب سيطرة الأجهزة الأمنية للمستعمر وأعدائه من بوليس وعملاء من الموظفين ومن القياد وغيرهم، لذلك كانت أولوية العمل تتطلب تأجيل الارتكاز على المدينة لحين الانتهاء من تنظيم الريف²⁴.

اعتمدت الثورة إذن في الأشهر الأولى على تنظيمات الخلايا في الأرياف والقرى؛ فكانت تقوم بإرسال جندي إلى كل قرية وكل دشرة للاجتماع بسكانها بقصد شرح مبادئ وأهداف الثورة، والاستماع لأرائهم، وكانت هذه الاجتماعات تجرى في ظروف عالية من الحيلة والحذر، وكان ذلك يدوم ليوم أو لثلاثة أيام، وعندما تتضح الرؤية لموفد الثورة يتم اختيار أكثر العناصر إخلاصا واستعدادا للعمل لتشكيل الخلية التي تتولى مهام تنظيم العمل الثوري بالدوار أو المشتة، وبعد أن يؤدي أعضاؤها اليمين والقسم على المصحف الشريف تصبح الخلية هي المسؤول الأول عن جميع القضايا التنظيمية والتنفيذية بالقرية أو المشتة والدشرة، وهي التجربة التي أستلهمتها الثورة من تنظيم حزب الشعب²⁵ خلال فترة نضال الحركة الوطنية.

وقد حرصت الثورة في البداية على مخاطبة سكان المداشر والأرياف بلغة كان يغلب عليها الطابع الديني، حتى يسهل عليها الوصول إلى قلوب وعقول السكان الذين تهيم عليهم الثقافة الدينية الإسلامية، من ذلك مثلا أن اللقاءات كانت تبدأ بتحية المجاهد للسكان ب"السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته"، ويكون جواب السكان: "الله ينصر الدين"، كما كانت الحوارات تفتتح بعبارة "باسم الله والحمد لله، ثم باسم جبهة التحرير وجيش التحرير الوطني" لتأكيد الترابط بين هدف الثورة التحريرية والجهاد في سبيل الله، مما أدى إلى تسارع وتيرة انضمام الجماهير الشعبية والتفافهم حول الثورة، وبخاصة بعد هجمات الـ20 أوت 1955 بالشمال القسنطيني²⁶.

ب- تجربة المجالس الشعبية (في المنطقة الثانية) بداية إحلال إدارة بديلة محل الإدارة الاستعمارية: بعد هجومات الـ20 أوت 1955، وفي الاجتماع الذي عقده زيغود يوسف في الفاتح نوفمبر 1955 بنواحي سكيكدة لتقييم نتائج الهجومات، ووضع استراتيجية للعمل الثوري للفترة المقبلة، تم تبني تجربة "المجالس الشعبية" التي، وإن لم تكن جديدة وسبق لحزب الشعب تطبيقها في هيكله قواعده، إلا أنها تعد تجربة جديدة في عمر الثورة حتى هذا التاريخ، وكانت أول عملية لهيكله الجماهير الشعبية وتعبئتها، وقد استوحى مؤتمر الصومام لاحقا (20 أوت 1956) نظامه الوطني من تجربة منطقة الشمال القسنطيني، وقام بتعميمه على كامل التراب الوطن²⁷، وأرى أنه من المهم جدا استعراض تجربة المجالس الشعبية هذه، كونها مكنت الثورة من وضع أرجلها على الأرض في هذه المرحلة

- الدرجة التي لم تكن الثورة تملك فيها إستراتيجية واضحة لإدارة المعركة مع الاستعمار الفرنسي، وقد ظهرت المجالس الشعبية بالتشكيل التالي:²⁸
- 1- مسؤول المجلس الذي يقوم ب:
 - السهر على تنفيذ تعليمات وتوجيهات القيادة، وتطبيق قرارات المجلس الشعبي الذي يشرف عليه.
 - التنسيق بين جميع أعضاء المجلس.
 - 2- مسؤول المالية: ويقوم ب:
 - جرد الاشتراكات والتبرعات التي يستلمها من مسؤولي المشاتي والدواوير والقرى، ويقدم تقارير شهرية بحصيلة عمله.
 - تسديد نفقات الهياكل النظامية.
 - صرف منح أسر الشهداء وعائلات المجاهدين والمنكوبي، وبعض الأسر المعوزة بواسطة مسؤول المشاتي والقرى.
 - 3- مسؤول الدعاية الذي يقوم ب:
 - جمع وتنظيم مراكز البريد.
 - جمع المعلومات وتبليغها للقيادة.
 - تنظيم شبكة الاستعلامات داخل القرى والدواوير، ومراقبة تحركات العدو.
 - إحصاء عدد الشهداء والمساجين، في سجون العدو، وجرد وتوثيق أعمال القمع التي يقوم بها العدو.
 - إحصاء المجندين الجزائريين في صفوف الجيش الفرنسي، وكشف هوياتهم، ورصد "المتجبرين" منهم لتصفيتهم.
 - 4- مسؤول الأمن الذي يقوم ب:
 - الإشراف على جهاز الشرطة، وعلى تحديد المناطق الملائمة لتمرکز وحدات جيش التحرير الوطني.
 - تنظيم عمليات تنقل السكان، وتحديد المسالك الخاصة بأفراد جيش التحرير وقوافل تموينه.
 - تنظيم ومراقبة الحراسة الشعبية، ومساعدة مسؤولي المشاتي في مهامهم.

- 5- مسؤول التموين، ويشرف على:
- جمع وتخزين المؤن، وتموين عمليات توزيعها على مراكز جيش التحرير.
 - جمع جميع ممتلكات الثورة.
- 6- مسؤول الدشرة أو المشتة: وهو الحجر الأساس في عمل المجالس الشعبية، إذ يقوم ب:
- جمع الاشتراكات والزكاوات والتبرعات من المواطنين.
 - تنظيم الحراسة الشعبية.
 - تبليغ كل الأخبار والمعلومات لأعضاء المجلس الشعبي.
 - مراقبة نشاط الخونة، ومراقبة تحركات العدو.
 - استقبال أفراد جيش التحرير، وتأمين الأكل والمأوى لهم.
 - توزيع المنح على أسر الشهداء والمجاهدين.
 - تسجيل الحالة المدنية (مواليد، زواج، طلاق، وفيات).
 - تسوية النزاعات بين المواطنين، عن طريق الصلح والقضاء.
- إن النتائج السريعة التي حققتها الثورة في الأشهر الأولى من جهة، وفشل الإجراءات القمعية الاستعمارية (العسكرية والدعائية) في القضاء على الثورة من جهة ثانية، هي التي دفعت الإدارة الاستعمارية في الجزائر إلى إعادة النظر في سياستها الإدارية زعما منها أن السكان قد أرغموا على مساندة الثورة، تحت الإكراه والتهديد، لهذا سارع الحاكم العام روجي ليونار (Roger Léonard) في بداية 1955 (قبل تنحيته) إلى محاولة توطين نظام إداري جديد، يقوم على إنشاء "وحدات إدارية متقدمة" لمراقبة وإدارة الدواوير والمشاتي التي تعرف نشاطا متزايدا لجيش التحرير الوطني، وقد تم تدعيم هذه الوحدات بعدد من موظفي البلديات المختلطة، وضباط الجيش الفرنسي³⁰، وهي الإستراتيجية التي سار عليها خليفته جاك سوستيل (Soustelle Jacques) الذي أعاد بعث تجربة المكاتب العربية في شكل جديد.
- 2- الفصائل الإدارية المتخصصة (SAS) لمواجهة تمدد الثورة: الحاكم العام جاك سوستيل الذي استقدمه رئيس الوزراء مانديس فرانس (P. Mendès France) على عجل في بداية 1955، كان بغرض إنجاز ما عجز عنه سلفه ليونار. ولأجل ذلك منح مانديس

لسوستيل صلاحيات واسعة بهدف القضاء على الثورة: "إن الحكومة (الفرنسية) تضع كامل ثقتها فيك وفي أفكارك وعملك"³¹.

أدرك سوستيل سريعا أن جهوده يجب أن تركز على استعادة سلطة إدارته على السكان، ولإنجاح هذه المهمة قام بجولة استطلاعية في كامل مناطق الأوراس (باتنة، بسكرة، خنشلة وتبسة)، ومما استنتجه سوستيل أن عزلة السكان وغياب الإدارة (الاستعمارية) فيها، هي من دفعت السكان إلى ولاء الثورة، وأوعز دعم السكان ومساندتهم للثورة إلى العزلة والحرمان اللذين يعانيهما السكان، وحمل إدارته المسؤولية، وانتقد عجزها وافتقارها للمعلومات الدقيقة عن السكان³².

بعد انتهاء القوات الفرنسية من حملة الإبادة التي باشرتها في حق الأهالي العزل، في القرى والأرياف والمداشر، قررت الإدارة الاستعمارية في الـ 26 سبتمبر 1955 إنشاء "الفصائل الإدارية المتخصصة" في كافة الأرياف بكامل القطر الجزائري، وأوكلت لها مهمة إدارة وتسيير شؤون الأهالي³³ في محاولة للحيلولة دون توسع الثورة، وانخراط فئات واسعة من الشعب فيها، وهي نفس المهمة التي أنشئت من أجلها المكاتب العربية في أواخر النصف الأول من القرن التاسع عشر، بغرض مواجهة توسع دائرة الانتفاضات الشعبية المسلحة، وقد كلف الجنرال بارلانج (Parlange) (الذي كان رهينة لأسلوب عمل المكاتب العربية) بإدارة الفصائل الإدارية³⁴.

أول ظهور للفصائل الإدارية المتخصصة في الجزائر كان بالأوراس في أواخر سنة 1955، وترأسها بارلانج الذي عين على رأس القيادة المدنية والعسكرية لمنطقة الأوراس بموجب المرسوم الوزاري المؤرخ في الـ 30 أبريل 1955، وبأشر بارلانج مهامه رسميا في الـ 07 ماي من نفس السنة³⁵، لتعمم لاحقا على باقي المناطق، إلى أن وصل تعدادها في سنة 1961 إلى سبعمائة وأربعين (740) فصيلة³⁶.

كان بارلانج قائد القسم العسكري القسنطيني قد حذر، في التقرير المؤرخ في الـ 05 ماي 1956 الذي قدمه إلى قيادته العسكرية، من خطورة تمدد الثورة على مستقبل الإدارة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر، بخاصة في الجهة الشرقية، وألح على ضرورة توسيع تجربة الفصائل الإدارية المتخصصة التي سبق إنشاؤها في المغرب، وأثبتت نجاعتها³⁷ على حد زعمه.

ومما أشار إليه تقرير بارلانج:³⁸

- التنظيم الجيد "للعصابات المسلحة".
- تهديم كل ما يرمز للوجود الاستعماري.
- زيادة الضغط الممارس من طرف الثوار على السكان في المجالين النفسي والسياسي.
- خيانة العديد من القياد المنتخبين للإدارة الاستعمارية.
- ارتفاع نسبة الفارين الجزائريين من الجيش الفرنسي، إذ انتقل عددهم مثلا في الأوراس- النمامشة من 17 حالة في شهر ديسمبر 1955 إلى 18 حالة في جانفي 1956 لينتقل إلى 65 حالة فرار في فيفري 1956.

هذه الوضعية قادت الجنرال بارلانج إلى تسريع نشر الفصائل الإدارية المتخصصة لتشمل كافة التراب الجزائري؛ فارتفع عددها من 160 فصيلة في بداية 1956 لينتقل إلى 568 في نوفمبر 1957، و679 في جانفي 1958، ليقفز الرقم إلى 740 في سنة 1961م³⁹.

3- احتدام الصراع بعد مؤتمر الصومام: كان الهدف الرئيس للفصائل الإدارية المتخصصة تحطيم المنظمة السياسية الإدارية لجهة التحرير الوطني (OPA)⁴⁰ التي أوصى مؤتمر الصومام بإنشائها، هذا المؤتمر (الصومام) الذي يعد في حد ذاته انتصارا سياسيا كبيرا للثورة، كونه جرى في داخل الجزائر، مما مثل تحد واضح للإدارة الاستعمارية، وأسقط مزاعمها القائلة بسيطرتها على الأوضاع في الجزائر، وقد استطاع مؤتمر الصومام بعد عشرين شهرا من الكفاح المسلح أن يمنح الثورة الإطار التنظيمي العسكري والسياسي لإدارة المعركة العسكرية مع المستعمر الفرنسي.

وقد تركزت قرارات الصومام السياسية والإدارية على تنظيم وتعبئة الجماهير الشعبية داخل هياكل الثورة العسكرية والسياسية (المدنية) وفق آليتين هما:⁴¹

أولا- المحافظون السياسيون: الذين يقومون بكل ما يتصل بتنظيم وتثقيف الشعب، وبالدعاية والأخبار والتوجيه، وبإدارة الحرب النفسية مع العدو، ونظرا للدور الكبير الذي كان يقوم به المحافظون السياسيون في تعبئة الجماهير لشعبية، وتفكيك ارتباطهم بالإدارة الاستعمارية؛ فقد تعرضوا أكثر من غيرهم للملاحقة من طرف الأجهزة الأمنية للجيش الفرنسي، وأصدرت قيادته العليا في سنة 1957 تعليمات بإعدام كل من يلقي عليه القبض من أعضاء المنظمة السياسية الإدارية لجهة التحرير الوطني.

ثانيا- المجالس الشعبية: التي يتم تشكيلها (عبر انتخابات حرة) في مختلف المناطق بغرض الإشراف على الجوانب المدنية والاقتصادية، وعلى القضاء والأمن، والتي (أي هذه المجالس) أصبح لزاما على المواطنين اللجوء إليها عند تسوية قضاياهم.

وكما سبقت الإشارة إليه؛ فقد تبنى مؤتمر الصومام نظام المجالس الشعبية الذي اعتمده المنطقة الثانية بعد هجومات الـ20 أوت 1955، حيث تم تعميم هذه التجربة على القرى والمداشر، وأصبحت كل قرية وكل دشرة تنتخب مجلسها البلدي المكون من خمسة أعضاء، مهمته إدارة الشؤون الخاصة بالسكان الإدارية والاجتماعية والاقتصادية، إذ يشرف المجلس البلدي على سجلات الحالة المدنية (مواليد، وفيات، طلاق، منازعات)، ويحافظ على الأمن العام، وكان يتم تكليف ثلاثة أعضاء يتم اختيارهم من بين الأعضاء الخمسة للمجلس بالتنسيق مع اللجنة المحلية لجهة التحرير الوطني⁴².

كانت المهمة الأساسية للمنظمة السياسية الإدارية لجهة التحرير الوطني تتبع ومن ثمة إفشال نشاط الفصائل الإدارية من خلال تنظيم وهيكل الشباب (سواء داخل التنظيم العسكري للثورة، أو داخل أذرعها المدنية، كالمنظمات الجماهيرية والنقابية والفنية)، وتوعية المرأة⁴³.

ولبلوغ الأهداف المسطرة بشكل سريع، كثفت الثورة من تواجدها في كل القرى والمداشر والدواوير، وفي المدارس والورشات، وفي مراكز الحشد والتجميع التي أصبحت مراكز لدعم الثورة وإسنادها بما تحتاجه، بفضل قوة التنظيم السياسي لجهة التحرير الوطني داخل هذه المراكز والمحشدات، وتزايد مراكز الدعاية وطبع النشرات، وكذلك بفضل عمليات التعبئة الواسعة والتجنيد في أوساط الشعب بمختلف فئاته، من رجال ونساء وفلاحين وعمال وتجار وأصحاب مهن حرة، ومن شباب ومثقفين، داخل المنظمات الجماهيرية والنقابية التي أصبحت طاقة فعالة عززت وسائل المعركة التحريرية بعدما كانت عبارة عن طاقة يملكها الخوف، وتهيمن عليها الإدارة الاستعمارية.

وقد شكلت المنظمات الجماهيرية منابر مهمة للدعاية لصالح الثورة؛ فعلى المستوى الداخلي كانت مهمة هذه الأذرع الدعائية⁴⁹:

- اتصال الثورة بالشعب، وإبلاغه بحقيقة الصراع المسلح الدائر مع العدو.
- تعبئة الجماهير الشعبية لضمان التفافها حول ثورتها بغية تحقيق الاستقلال.

- تحصين المواطنين من الدعاية والحرب النفسية التي تشنها الإدارة الاستعمارية ضد الثورة والجماهير الشعبية.

- مواجهة ودحض إعلام العدو ودعايته.

أما على المستوى الخارجي فكان دورها نقل حقيقة الصراع الدائر في الجزائر إلى الرأي العام الدولي، وبجانب الجهد الدعائي الكبير الذي كانت تقوم به، واصلت الثورة سياسة الحزم والردع ضد كل من يخالف أوامرها وتعليماتها، وهو ما توضحه مثلاً الأوامر والتعليمات الصارمة التي وجهتها إحدى المذكرات الصادرة عن قيادة أركان الشرق لجيش التحرير الوطني (لم يذكر تاريخها، ويرجح أنها تعود إلى أواخر سنة 1958 وبداية 1959)، والتي جاء فيها:⁵⁰

- يحظر على النساء الحصول على بطاقات تعريف تحمل صورهن.

- الأطفال يجب أن يتوقفوا عن الذهاب للمدارس الفرنسية، إلا في حالات استعمال القوة ضدهم.

- العائلات التي غادرت قراها نحو المدينة يجب عليها إجبارياً العودة إلى منازلها.

- يمنع استخراج أذن المرور من مكاتب "لصاص" (SAS).

- يجب أن يكون التنقل من قرية إلى أخرى أو إلى مدينة برخصة من مسؤول الجبهة أو من مسؤول آخر موجود بالمكان.

- كل من يخالف أوامر الجيش سوف يتعرض لعقوبات قاسية.

وقد لاحظت السلطات الاستعمارية قوة النظام الثوري الذي انتشر بسرعة مذهشة، وحل محل إدارتها بعد أن تسارعت حركة استقالة النواب من المجالس المنتخبة؛ فسارعت إلى محاولة وضع نظام إداري جديد يعيد لها مراقبتها وسلطاتها على السكان؛ فضاعفت من عدد العمالات، من ثلاثة إلى أربعة عشرة عمالة، وتم تقسيم الأحواز المختلطة، وتقرر تعيين مجالس جديدة، وأعلن روبير لاكوست عن إجراء انتخابات في المناطق التي تتم "تهديتها"⁵¹.

لكن لاكوست وبعد مدة وجيزة تأكد من فشل برنامجه؛ فقرر في الـ 21 فيفري 1957 تعيين مفوضيات خاصة على رأس البلديات التي تم حلها، وأسند إدارتها لضباط

الفصائل الإدارية الخاصة، الذين أخذوا في جمع السكان في القرى والبوادي تحت التهديد، وأجبروهم على تعيين ممثلهم في هذه المفوضيات، وأمام رفض السكان كان ضباط الفصائل الإدارية كثيرا ما يلجأون إلى تعيين ممثلي السكان بالقوة، لكن وحتى بعد تعيينهم بالقوة، ظل هؤلاء المعينين يرفضون القيام بالمهمة، مما كان يعرض أهاليهم وذويهم للتعذيب والقتل.⁵²

وفي هذا الشأن، يشير التقرير الذي قدمه رئيس قسم مغنية عن بلديات دائرته موجه إلى عامل تلمسان، في أواخر ماي 1957، إلى أن عدد الكتاب الجدد والقدامى من السكان الأهالي في البلديات بلغ صفرا، وأن مجموع البلديات الجديدة التي لا تزال بدون كتاب بلغ واحدا وعشرين بلدية مما أجبر السلطات الاستعمارية على توظيف الجنود العسكريين في أغلب البلديات التي قاطعها الجزائريون، ولما يئست الإدارة الاستعمارية من السكان، لجأت إلى القمع والاضطهاد لإخضاع الجزائريين، كما حدث في منطقة القبائل التي حوشر أهلها، ومنعوا من مغادرة بيوتهم، ومن تموين أسرهم لعدة شهور.⁵³

بعد النجاح الذي عرفته الثورة خاصة في سنة 1957، أصبح دور ضباط الفصائل الإدارية صورة طبق الأصل لدور المحافظين السياسيين لجهة التحرير الوطني⁵⁴، لهذا تم تعزيز عمل هذه الفصائل الإدارية ببرنامج عسكري، يبرئ لها الظروف المناسبة لأداء مهمتها بنجاح، يقوم على:⁵⁵

- 1- غلق الحدود الغربية والشرقية (مع المغرب الأقصى وتونس) بواسطة الأسلاك الشائكة والمكهربة (خطي موريس وشال).
- 2- إبادة الشعب الجزائري بواسطة العمليات العسكرية الكبرى، واحتلال المناطق "المحررة"، وجعلها مناطق إيواء ولجوء⁵⁶ إجبارية لسكان القرى والمداشر.
- 3- ليأتي بعدها دور الفصائل الإدارية المتخصصة لمباشرة عملها، وهو تحطيم المنظمة السياسية والإدارية- كما سبقت الإشارة إليه- واستعادة سلطة الإدارة الاستعمارية فرنسية.

وقد ركز الجنرال صالان (قائد المنظمة العسكرية العاشرة أي الجزائر) على الجانب النفسي لتحقيق ثلاثة أهداف كبرى:⁵⁷

أ- تجفيف منابع السلاح والمال القادمين من تونس.
ب- وقف شبكات "الإرهاب" في المدن الكبرى، وبخاصة في الجزائر العاصمة.
ت- محاولة كسب ثقة الأهالي الجزائريين.
وعلى المستوى العام كان مطلوباً من الفصائل الإدارية تحقيق هدفين مستعجلين
هما:⁵⁸

- هدم التنظيم السياسي الإداري لجهة التحرير الوطني
- الإسراع في إعادة سلطة الإدارة الاستعمارية
أما على مستوى الأداء؛ فقد توزعت مهام "لصاص" بين المهام الآتية:
1- المهام الإدارية: وتتوزع بين تمثيل سلطة الإدارة الاستعمارية، والإشراف على الحالة المدنية، وإعادة ربط العلاقات مع السكان.
2- المهام العسكرية، وفيها تتولى:
- تشديد الحصار على الثوار الجزائريين من خلال الاستخبار ورصد المعلومات بواسطة
تجنيد المزيد من فرق الحركي وفرق الدعاية النفسية.
- إنشاء المحتشدات ومراكز التجميع، والقيام بأعمال التعذيب والاستنطاق.
ولما كان دورها نفسياً؛ فقد تم الحرص على إنشاء هذه الفصائل وسط التجمعات
السكانية، حتى تكون على معرفة دقيقة بأحوال بالسكان (لغتهم، تدينهم، عاداتهم
وتقاليدهم...) ⁵⁹، وتم في البداية الاستعانة بضباط مصلحة الشؤون الأهلية بالمغرب
الأقصى، وتم توزيعهم على أولى مكاتب الفصائل الإدارية المتخصصة ليقوموا في ما بعد
بتكوين الهيئة الخاصة بالشؤون الجزائرية في الدوائر والمقاطعات، وهي الهيئة التي
ستصبح لاحقاً المصلحة المكلفة بمهمة تكوين إطارات الجيش، وتقديم الدعم المادي
والبشري لهم للقيام بمهام إدارية متخصصة⁶⁰.
ارتكز عمل الفصائل الإدارية المتخصصة على الجانب النفسي الدعائي في أوساط
السكان، بهدف إحداث القطيعة مع الثوار، وخلقلة تماسك الثورة من الداخل، لهذا
رصدت لهذه الفصائل إمكانات مادية كبيرة، كانت تتطور مع تطور الثورة، وتتنوع مع
تغير المعطيات على الميدان⁶¹.

وقد تنوعت وسائل الإغراء المادية من فتح للمدارس القصدية في الأرياف والقرى وفي التجمعات السكانية لاستقطاب أبناء الأهالي، وتقديم الأدوات المدرسية والألبسة، وحتى تنظيم الرحلات لهم، وإنشاء الفرق الرياضية (خاصة كرة القدم) والفنية، والإغراق على الخونة والأسر الموالية لهم، وصولاً إلى بعض الإصلاحات الوهمية، الاقتصادية والاجتماعية⁶²، كما تعزز عمل هذه الفصائل الإدارية بمجموعة من أجهزة الإسناد نذكر منها:⁶³

1- المكتب الخامس: الذي أنشئ في 1 مارس 1955، ودخل الخدمة في 2 جويلية 1956، كان دوره "ضرب النفوس والقلوب وتحضير اتفاقات المستقبل" ضمن الإطار الفرنسي كما صرح بذلك الوزير المقيم روبر لاكوست أمام الجمعية الوطنية الفرنسية.

2- مجموعات مكبرات الصوت والمناشير: التي ظهرت في جوان 1956، وبلغ عددها ثلاث مجموعات، توزعت على العمالات الثلاث (قسنطينة، الجزائر، هران)، والتي عززت بدورها بإمكانات مادية ضخمة، وقد ارتكز عملها على محاولة استعادة ثقة السكان من خلال التذكير بنية وإرادة الإدارة الاستعمارية الفرنسية في التغيير والإصلاح، بالتركيز على بعض إنجازاتها الميدانية.

3- الفرق الطبية والاجتماعية: التي أنشئت في سنة 1957، والتي كانت تقوم بتقديم الإسعافات الطبية والاجتماعية لأسر الأهالي في الأرياف والقرى، وقد ركزت هذه الفرق عملها على المرأة في محاولة لخلخلة البنية الأسرية للمجتمع الجزائري.

وقد أظهرت هجومات 20 أوت 1955 بالشمال القسنطيني التي جاءت بعد أقل من عشرة أشهر، سلامة تكتيكات الثورة إلى هذا التاريخ، والنضج الكبير الذي بلغته من الناحية التنظيمية على المستويين العملياتي (العسكري) والتعبوي (الجماهيري)، كما كشفت عمليات 20 أوت 1955 "أن الثورة قادرة على تحقيق المهمة التي تكونت من أجلها"⁶⁴، وأنها تجاوزت بالفعل خطر "الانشقاق" الذي كانت الإدارة الاستعمارية تراهن عليه.

وفضلاً عن الأعداد الكبيرة من الجماهير الشعبية التي استطاعت قيادة المنطقة الثانية تعبئتها وحشدها في هجومات الشمال القسنطيني من جهة، ومحاولتها فك الحصار المضروب على منطقة الأوراس (وهذا دليل آخر على البعد الوطني للثورة)؛ فإن عمليات

20 أوت 1955 أدت أيضا إلى تكثيف العمليات العسكرية والفدائية بالقطاع الوهراني في الغرب الجزائري، وزادت من عمليات التطوع في صفوف جبهة وجيش التحرير الوطني.⁶⁵

1- الثورة تفرض سلطتها على الأرض: مع بداية سنة 1957 حققت الثورة التحريرية انتصارات كبيرة على جميع الأصعدة السياسية والعسكرية، بفضل قوة التنظيم والانضباط اللذين أصبحت تتمتع بهما الثورة في هذه المرحلة، وكذا الصرامة التي انتهجتها لوضع حد لتعامل السكان مع الإدارة الاستعمارية؛ ففي هذا الشأن، أصدرت الثورة تعليمات صارمة لعموم الشعب الجزائري بضرورة مقاطعة كل ما يرمز للإدارة الاستعمارية، وكان من نتيجة ذلك أن قام سكان المدن في الشمال القسنطيني والجزائر العاصمة وفي كثير من المدن الأخرى بداية من سنة 1957 بمقاطعة المنتجات الفرنسية كالتبغ والخمور.⁶⁶

حقيقة بسط الثورة لسلطتها على السكان أصبح مثار قلق كبير للسلطات الاستعمارية التي لم تستطع إخفاء هذه الحقيقة، وهو ما يستشف من اعترافات الكثير من ضباطها بقوة الثورة الجزائرية في فرض إرادتها على عموم السكان تقريبا، في كافة مناطق التراب الوطني، وقد نشرت جريدة "المقاومة الجزائرية" (في عددها لتاريخ 20 ماي 1957، ص3) جزءا من تحقيق أجراه صحفي فرنسي في الولاية الثالثة، جاء فيه: "أن الثورة الجزائرية أوجدت إدارتها الخاصة، إدارة سرية تأخذ الضرائب، وتقضي بين الناس، وتفصل في المنازعات، وبذلك صارت محكمة تيزي وزو خالية لا يقدم إليها أحد، وصار المحامون بدون قضايا يكتسبون منها، مما اضطرهم إلى طلب إعانة مالية من وزارة المال الفرنسية"، كما نشرت نفس الجريدة تحقيقا لصحفي فرنسي عن الولاية الخامسة جاء فيه: "لقد شاهدت كثيرا من الدلائل التي تبرهن على أن جبهة وجيش التحرير الوطني يسيطران على مناطق واسعة من الأرض الجزائرية، وبالعكس من ذلك؛ فإن الإدارة الفرنسية أصبحت معدومة في الواقع، وهكذا نرى السكان المدنيين يعيشون بصفة سرية في جزائر مستقلة، يديرها جزائريون وفقا لتجارهم الخاصة (...)، ويحتكمون لدى المحاكم الشعبية في جميع المنازعات"⁶⁷.

كما نشرت جريدة المجاهد أيضا حديثا لمجلة "تيموانياج كريتيا" (Témoignage Chrétien) أجرتة مع أربعة ضباط فرنسيين، أجاب فيه أحدهم على سؤال المحرر حول

ما إذا كان يرى أن كافة "الأمة الإسلامية" بالجزائر تشارك في المقاومة السياسية التي تقوم بها جبهة التحرير الوطني بالقول: "فيما يتعلق بإحساسات الشعب الجزائري، لي أن أصرح أن 95 في المائة من الأمة الجزائرية تقريبا هم الآن ضدنا، سواء بصفة فعلية أو بصفة ضمنية (...). الناس كلهم منشغلين، هذا بالتمرد، وذلك بمقاومته، (...) يمدون جبهة التحرير بالإعانة، سواء بواسطة الاشتراكات المالية، أو بإمداد جيش التحرير بالإرشادات"، ويواصل الضابط الفرنسي حديثه بالقول: "إنه ذات يوم انضم إلى فرقته أحد "أعوان جبهة التحرير الوطني"؛ فحدثه عن العمليات التي قام بها رفقة رجاله في المنطقة، وحدثه بالقول: "يوم كذا وقد قمتم بعمل كذا، إذ أن الأهالي يمدوننا بالإرشادات"⁶⁸.

لقد استطاعت جبهة التحرير الوطني بالفعل تحييد المنظومة الإدارية العسكرية الاستعمارية الفرنسية، وإحلال إدارة ثورية فعلية محلها، تستند إلى سلطة الجماهير الشعبية، وهو ما عبرت عنه الباحثة الأمريكية جوان جليسي بـ"بدء الدولة داخل الدولة"⁶⁹، في دلالة واضحة على قوة الثورة في فرض إرادتها.

من جهتها، أكدت جبهة التحرير في جريدة المجاهد على هذه الحقيقة بوضوح بالقول: "إن الحركة الجماهيرية- التي هي تعبير صادق على انخراطها الكامل وبالشكل الفعال في الجهد الثوري- تمثل لحظة تاريخية مميزة لا يمكن أن تتكرر، وهي ليست ثمرة آلية مصطنعة يتم تحريكها متى أردنا، بل تتويج لسيرورة متواصلة لا رجعة فيها، ولا يمكن التحكم في تسارعها"، وقد عكست مظاهرات 11 ديسمبر 1960 حقيقة وعي الجماهير الشعبية، وامتثالها لتعليمات القيادة السياسية والعسكرية⁷⁰.

هذه الحقيقة هي ما خلصت إليه الدراسة الحديثة التي أجراها مركز العقيدة العسكرية للقوات الفرنسية العاملة (CDEF) التي أشرف عليها أدال لوغان (Adel Le Guen)، والتي أوعزت أسباب انتصار الثورة الجزائرية إلى وضوح أهدافها، وإلى التنظيم والانضباط الكبيرين اللذين فرضتهما على الاستعمار الفرنسي، ولخصت الدراسة إستراتيجية الثورة الجزائرية في خمسة مراحل هي:⁷¹

- المرحلة الأولى: وهي "مرحلة الدعاية" من خلال التفجيرات والعمليات العسكرية التي لعبت الصحافة دورا في نقلها للرأي العام الدولي.

- المرحلة الثانية: ولعبت فيها الثورة الجزائرية على استغلال الهوة بين الشعب و"السلطات القانونية" (أي الإدارة الاستعمارية).

- المرحلة الثالثة: وتم فيها توظيف واستغلال أفراد الشعب لصالح الثورة، من خلال توسيع نشاطاتها ودائرة تواجدها، وانتقلت بذلك من مرحلة التواطؤ السلمي للعب مع الثورة، إلى مرحلة التواطؤ العملي.

- المرحلة الرابعة: وهي المرحلة التي تمكنت فيها جبهة التحرير الوطني من بسط سيطرتها السياسية على الشعب.

- المرحلة الخامسة: وهي المرحلة التي اختتمت فيها "هذه الحركة التخريبية" من تكريس وفرض المنظمة السياسية الإدارية والقوات العسكرية، اللتين هما مرتبطتين ببعضهما البعض، واستطاعت أن تفرض رقابتها العسكرية والسياسية والاقتصادية على نطاق واسع جدا.

خاتمة: في الأخير ومما تقدم، يمكننا أن نستنتج أن من أهم أسباب انتصار الثورة الجزائرية أصالة تجربتها الثورية التحريرية، وإيمانها بقدرتها على الانتصار، مستفيدة في ذلك لا محالة من خبرات مناضليها السابقة في التنظيم والتعبئة، ومن تجارب الثورات التحريرية في العالم التي سبقتها؛ فقد كانت القيادات الثورية التي تعاقبت على قيادة الثورة إلى وقت متأخر قيادات فاعلة في المنظمة الخاصة، وهو ما أهلها لأن تكشف ومنذ البداية على نضج ثوري عال، وعلى تمرسها وقدرتها على امتصاص الضغوط الكبيرة التي حاول الاستعمار الفرنسي فرضها على الثورة، بخاصة في البداية، مما مكّنها (القيادات) من التحكم في أدوات إدارة المعركة مع الإدارة الاستعمارية، على الرغم مما تحوزه هذه الأخيرة من إمكانات بشرية ومادية، والأكثر من ذلك أن الثورة الجزائرية أصبحت هي من تملك زمام المبادرة، بعد أن تمكنت من تحييد الإدارة الاستعمارية، وإحلال محلها إدارة ثورية وطنية حررت الشعب الجزائري من الهيمنة الاستعمارية التي استمرت لعشرات العقود، وحققت الاستقلال الوطني في نهاية المطاف.

هذا ويظل الموضوع في عمومته موضوعا خصبا مفتوحا للدراسات المتخصصة، لتقديم قراءات جديدة تقوم على إبراز أصالة المنهج الذي تبنته الثورة الجزائرية في إدارتها للمعركة العسكرية مع الاحتلال الفرنسي، كون أن جل الدراسات التي تناولت هذا

الموضوع انتهت إلى تقديمه وفق مقارنة الفعل ورد الفعل، في حين أن منح الثورة كان يستجيب لطبيعتها الشعبية، ولمنطق المغالبة وفق إمكانياتها الذاتية، بعيدا عن منطق ردود الفعل "البافلوفية"- إن جاز القول- مما جعلها (الثورة الجزائرية) تختلف عن غيرها من الثورات التحريرية في العالم، وإن تقاطعت مع كثير منها في الكثير من الخصائص، واستفادت بلا شك من تجاربها.

الهوامش:

1-Centre de Doctrine d'Emploi des Forces(CDEF), in cahier de la Recherche Doctrine, division Recherche, Retour d'Expérience (DREX): l'Emploi des forces terrestres dans les missions de stabilisation en Algérie (Etude mené par Adel Le Guen), PARIS le 20juin 2006,p.13

2- أنشئ في بداية الأمر، مكتب خاص بالشؤون العربية في عهد الحاكم العسكري أفيزار (Avisard) باقتراح من قائد الأركان تريزل (Trézel). وهو مكتب عسكري إداري، كلف بجمع المعلومات لاستغلالها في العمليات العسكرية، كلف بإدارته، النقيب في "سلك الزاوة" (الزواف) لامورسيير (Lamorcière) الذي كان يجيد اللغة العربية، وعلى دراية بشؤون الأهالي. ومع مجئ الحاكم العام بيجو (Bugeaud)، صدر مرسوم وزاري يقضي بإنشاء المكاتب العربية. وفي الـ 08 أوت 1845 وبطلب من المارشال فيون (Vaillant)، أصدر نابليون الثالث (Napoléon III) مرسوما ملكيا بإنشاء المكاتب العربية بصفة رسمية. فاطمة حباش، المكاتب العربية ودورها في المد الاستعماري بالغرب الجزائري 1844- 1870، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، قسم التاريخ والآثار، جامعة وهران، 2013/2014، ص. 51، 54، 61/عمبروي احميده، قضايا مختصرة في تاريخ الجزائر الحديث، دارالهدى، عين مليلة- الجزائر، 2005، ص.115

3-Sections Administratives Spécialisées

4-Sections Administratives Urbaines

5-Guy Pervillé, pour une histoire de l'Algérie, la guerre d'Algérie 1954- 1962, centre national du livre, Lavauzelle, France, 2002, p.161

وكذلك فاطمة حباش، المرجع السابق، ص.54---5- يقول المؤرخ ريمبرت (Pierre Rimbart): "إن العامل الرئيسي في المقاومة العنيفة الشرسة التي قام بها الشعب الجزائري، هو قوته الجماعية التي لم يستطع الفرنسيون في ذلك العهد، أن يفهموها أو يعزلوها". نقلا عن الفضيل الورتلاني، الجزائر الثائرة، طبعة جديدة، دارالهدى، عين مليلة- الجزائر، 2009، ص.419

7-يقول المؤرخ الفرنسي جاك فريمو (Jacques Fremaux): "توصف حرب الجزائر بأنها حرب ثورية أو حرب تخريبية، وهي بهذا أقل وصفا على مستوى المعارك وأقرب إلى طبيعتها الإيديولوجية المرتبطة بالإطار العام للحرب الباردة مع الأخذ بعين الاعتبار، أساليب هذه الحرب التي تتميز بقدر من التنظيم السياسي للشعب، أكثر مما تتميز به على مستوى المواجهات أو الإلتحامات العسكرية، ولنا في حرب الهند الصينية مثلا على ذلك.

Jacques Fremaux, conquête de l'Algérie et guerre d'Algérie, in actes des travaux du 3 eme colloque international sur: l'événement dans l'histoire récente de l'Algérie (1954- 1962), tenue a l'université du 20 aout 1955- Skikda, p.24

8-centre de doctrine d'emploi des forces, op.cit. P.14

9- المجاهد، عدد 13 (01 ديسمبر 1957)، ص.03---10- جوان جيلسي، ثورة الجزائر، ترجمة عبد الرحمن صدقي أبو طالب، الدار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، 1996، ص137---11- أحسن بومالي، إستراتيجية الثورة الجزائرية في مرحلتها الأولى 1954-1956، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، الجزائر، ص.38،39،49

12- ANOM, GGA, 3R 434 (note de renseignements (secret): le service de renseignement et de liaison du FLN, daté le 10 Avril 1958.

13- "النظام" مصطلح كان يشار به في البداية إلى الثورة التي كان جزء كبير من الشعب الجزائري، يجعل طبيعتها. وعلى الرغم من أن بيان أول نوفمبر 1954، وضع هويتها وأهدافها، إلا أن الثورة، على المستوى المرئي، ظلت غير معروفة نظرا للسرية الكبيرة التي طبعت

- نشاطاتها. فحتى المجاهدون الذين كانوا يحملون أوامر الثورة، كانوا يقولون بأنهم رسل، كلفوا بتبليغه. وقد تعمدت قيادة الثورة هذا المصطلح (النظام) لما فيه من دلالة على الحزم والقصاص من كل من يخالف أوامرهم. من شهادات المجاهدين
- 14- المجاهد، عدد 13 (01 ديسمبر 1957)، ص. 03-15- الجندي وآخرون، حوار حول الثورة، منشورات المركز الوطني للتوثيق، والصحافة والإعلام، طلع بالمؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1996، ج1 ص. 251/الإعلام ومهامه أثناء الثورة، منشورات المركز الوطني للبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 1998، ص. 56
- 16- Centre de Doctrine d'Emploi des Forces, op.cit.p.12
- 17- ليلي تينة، منطقة الأوراس في تقارير الجنرال بول شاربير (Paul Charrière) من خلال كتاب شارل جوفير (J. Charles Jaufert): la guerre d'Algérie par les documents: les portes de la guerre، في مجلة الإحياء، العددان 17-18 (2015)، ص. 165، 170، 171-172
- 18- نجاة بية، إستراتيجية الثورة في التصدي للمصالح الإدارية المتخصصة (SAS) 1955-1962، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة- الجزائر، 2015/2014، ص. 97-199- ومما جاء في المناشير التي ألفت على سكان هذه المناطق (وهذا في إطار سياسة الحرب النفسية التي باشرت بها السلطات الاستعمارية لعزل الثورة عن جماهيرها الشعبي وخنقها في أيامها الأولى)، أنه: "قريبا سيحل السخط على رؤوس المتمردين، وسيحل السلام الفرنسي من جديد". ليلي تينة، المرجع نفسه، ص. 97-20- المرجع نفسه، ص. 176
- 21- نصوص أساسية لجهة التحرير الوطني (1954-1962)، منشورات وزارة الإعلام والثقافة، أوت 1976، ص. 55
- 22- علي كافي، مذكرات الرئيس علي كافي من المناضل السياسي إلى القائد العسكري 1946-1962، دار القصة، الجزائر، ص. 72
- 23- المصدر نفسه، ص. 75-24- المصدر نفسه، ص. 75. وكذلك فضيل بومالي، المرجع السابق، ص. 121-25- المصدر نفسه، ص. 75. وكذلك فضيل بومالي، المرجع نفسه، ص. 122-123-26- فضيل بومالي، المرجع السابق، ص. 123. وكذلك الجندي وآخرون، المرجع السابق، ص. 250-27- علي كافي، المصدر السابق، ص. 94-95-28- المصدر نفسه، ص. 995
- 29- نجاة بية، المرجع السابق، ص. 113-30- المرجع نفسه، ص. 113-114-31- المرجع نفسه، ص. 105-32- المرجع نفسه، ص. 108-33- عقيلة ضيف الله، التنظيم السياسي والإداري للثورة 1954-1962، البصائر الجديدة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013، ص. 233
- 34- شارل أندري جوليان، تاريخ الجزائر المعاصر، ترجمة عيسى عصفور، منشورات عويدات، بيروت، ط. 1، 1982، ص. 163
- 35- بوبكر حفظ الله، إستراتيجية الاستعمار الفرنسي في مواجهة الثورة في الأوراس، من خلال تقرير الجنرال بارلانج، في مجلة الآداب والعلوم الإنسانية (تصدر عن جامعة الحاج لخضر- باتنة)، العدد السابع (ديسمبر 2011)، ص. 210-211
- 36- Le général à la retraite, Khaled Nezzar: l'armée de libération national et l'armée française, le heurt de deux stratégies, in actes du forum international sur les origines et l'évolution de l'armée de libération national, Alger le 2,3,4 juillet 2005, p.29
- 37- إستراتيجية العدو الفرنسي لتصفية الثورة الجزائرية، منشورات المركز الوطني للبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، طبعة خاصة لوزارة المجاهدين، ص. 297-38- المرجع نفسه، ص. 295-39- المرجع نفسه، ص. 298. وكذلك
- Le général à la retraite, Khaled Nezzar, op.cit. p.29
- 40- organisation politico-administrative
- 41- زغبيدي محمد لحسن، مؤتمر الصومام وتطور ثورة التحرير الوطني الجزائرية 1956-1962، دار هومه، الجزائر، 2009، ص. 138، 131، 139. وكذلك مصطفى الأشراف، الجزائر الأمة والمجتمع، المؤسسة الوطنية للنشر والإشهار والتوزيع، الجزائر، ص. 379-42- المجاهد، عدد 13 (01 ديسمبر 1957)، ص. 3-43- نجاة بية، المرجع السابق، ص. 224-44- زغبيدي محمد لحسن، المرجع السابق، ص. 140-45- المرجع نفسه، ص. 141-46- المرجع نفسه، ص. 145
- 47- الجندي وآخرون، المرجع السابق، ص. 44-48- زغبيدي محمد لحسن، المرجع السابق، ص. 146-149
- 49- الإعلام ومهامه أثناء الثورة، منشورات المركز الوطني للبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، دار القصة، الجزائر، 2009، ص. 361
- 50- Mohamed Harbi, Gilbert Meynier, le FLN document et histoire 1954-1962, Casbah Editions, Alger, 2004, p.175
- 51- المجاهد، عدد 13 (01 ديسمبر 1957)، ص. 03-52- المصدر نفسه، ص. 03

- 53- المصدر نفسه، ص. 03-54- الإعلام ومهامه. المرجع السابق، ص. 412.
- 55- الجندي وآخرون، حوار حول الثورة، ج. 2. منشورات المركز الوطني للتوثيق، والصحافة والإعلام، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، ص. 44.
- 56- مناطق اللجوء التي ستتحول محتشدات ومراكز للتجميع، قدر عددها في سنة 1961 بـ 2600 محتشد. كما بلغ عدد المهجرين إلى هذه المراكز في سنة 1960 بـ 2.175000 مهاجر، أي ما يعادل ربع تعداد السكان، كانوا يعيشون داخل هذه المحتشدات التي تنعدم فيها أسباب الحياة، إلى الحد الذي جعل السلطات الاستعمارية نفسها، تعترف: "أن الأدوية لم تعد تؤثر على هؤلاء المجمعين، لفرط التلف الذي أصاب قواهم الفيزيولوجية". ويذكر (Farouk Benatia) أن التحقيق الذي قام به السوسيوولوجيان أ. صياد وبوردو (Bourdieu)، توصل إلى أن الهدف من هذه المحتشدات ومراكز التجميع، كان ممارسة العمل النفسي والخلخلة المنهجية لتركيبية السكان، وهي إحدى وسائل تدمير المقاومة. محمد تقي، الثورة الجزائرية المصدر، الرمز، المال، ترجمة عبد السلام عزيزي (طبعة خاصة لوزارة المجاهدين)، دار القصبه للنشر، الجزائر، 2010، ص. 384-382. وكذلك فرانس فانون، العام الخامس للثورة الجزائرية، ترجمة ذوقان قرقوط، المؤسسة الوطنية للنشر والإشهار، الجزائر، 2004، ص. 18. وأيضا Farouk Benatia, les actions humanitaires pendant la lutte de libération (1954-1962), Dahlab Editions (éd. spéciale du Ministère des Moudjahidines), p. 160
- 57-Le Général à la retraite Khaled Nezzar, op. cit. p. 29
- 58- نجاة بية، المرجع السابق، ص. 122، 134، 122-59- إستراتيجية العدو الفرنسي. المرجع السابق، ص. 312-313
- 60- نجاة بية، المرجع السابق، ص. 120-122-61- إستراتيجية العدو الفرنسي. المرجع السابق، ص. 314
- 62- المرجع نفسه، ص. 307، 315، 63- المرجع نفسه، ص. 314-319-64- الجندي وآخرون، حوار حول الثورة، ج. 1. المرجع السابق، ص. 260-65- علي كافي، المصدر السابق، ص. 87. وكذلك الجندي وآخرون، حوار حول الثورة، ج. 1. المرجع السابق، ص. 261-66- زغيدي محمد لحسن، المرجع السابق، ص. 101-67- المرجع نفسه، ص. 158
- 68- المجاهد، عدد 59 (11 جانفي 1960)، ص. 4-69- جوان جيلسي، المرجع السابق، ص. 157-70- محمد تقي، المرجع السابق، ص. 515.

71- centre de doctrine. Op. cit. p. 12

نشاط منظمة الجيش السري الفرنسية في مدينة وهران
وانعكاساته (1961-1962).

The activity of the French Secret Army in the city of Oran
and its implications (1961 - 1962).

✍ اسم ولقب المؤلف المرسل: عبد الناصر بختي- Bakhti Abdennaser صص336-358
الدرجة والعنوان المهني: طالب دكتوراه- قسم الحضارة الإسلامية- كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية-
جامعة وهران 1 أحمد بن بلة- الجزائر/البريد الإلكتروني: naser.bakhti31@gmail.com

✍ اسم ولقب المؤلف الثاني: لعباسي محمد- Labbaci Mohamed
الدرجة والعنوان المهني: أستاذ محاضر أ- قسم الحضارة الإسلامية- كلية العلوم الإنسانية والعلوم
الإسلامية- جامعة وهران 1 أحمد بن بلة- الجزائر/البريد الإلكتروني: med.labbaci@yahoo.fr

تاريخ استقبال المقال: 2019/12/06 تاريخ المراجعة: 2020/04/01 تاريخ القبول: 2020/03/18

ملخص: قام جنرالات فرنسا المعارضون للرئيس شارل ديغول بإنشاء منظمة الجيش السري (Organisation de l'Armée Secrète) كرد فعل تجاه سياسته الرامية لفتح باب الحوار والتفاوض الجدي للخروج من حرب دامت سنوات لم تكن في صالح الطرفين، وقد عمل مؤسسو المنظمة على الإطاحة بنظام ديغول عن طريق الانقلاب العسكري لكنهم فشلوا في ذلك، وكانت المنظمة تهدف للاستفراد بمدينة وهران وجعلها قاعدة خالصة لهم، وبخاصة وأن المدينة تحتوي على عناصر القوة المتمثلة في الموانئ والقاعدة البحرية العسكرية للمرسى والمطار المدني والمطارين العسكريين، وشبكة الطرقات ومحطة القطار، مما دفع بهؤلاء الجنرالات لمحاولة السيطرة عليها.

وهذا ما يفسر تصاعد عنف المنظمة التي عملت على تلغيم المفاوضات بين الحكومة الفرنسية وجبهة التحرير الوطني، وعرقلة استقلال الجزائر الذي أصبح وشيكا، وقد بلغت حدا غير مسبوق حين تم الاتفاق على وقف إطلاق النار بين الجيش الفرنسي وجيش التحرير الوطني بغرض إفراغ المدينة من سكانها المسلمين بتنفيذ جرائم جهنمية تمثلت في سلسلة الاغتيالات والتفجيرات مستهدفة كل ما له صلة بالشعب الجزائري الذي أضحي هدفا مستباحا لجرائمها التي لم تستثن شيئا ولم ترحم أحدا؛ وقد اشتمل

مخططها على زرع الخراب، وإشاعة الرعب والذعر في النفوس، وتدمير المؤسسات والمنشآت والبني التحتية، واغتيال الأشخاص سواء كانوا من المسلمين أو الأوروبيين الراضين لسياستها الإجرامية. مما دفع بالسلطات الاستعمارية للاستعانة بالجنرال جوزيف كاتز الذي أوكلت له مهمة التصدي لزعماء المنظمة في مدينة وهران من أمثال جوهو وأنطوان أرغود وغيرهم.

الكلمات المفتاحية: الجيش السري الفرنسي، وهران، الجرائم، تفجير، اغتيال،

الطحطاحة، سجن، المنظمة.

Abstract: *The French generals opposed to President Charles de Gaulle created the Organization de l'Armée Secrète (O.A.S) in response to his policy to open the door for dialogue and serious negotiation to exit from a war that lasted years that was not in the interests of both parties,*

The founders of the organization worked to overthrow the de Gaulle regime through the military coup, but they failed to do so, and the organization was aiming to unilaterally make the city of Oran and make it a pure base for them, especially since the city contains the elements of power represented in the ports, the naval military base of the marina, the civil airport, the two military airports, the road network and a station The train, which prompted these generals to try to control it.

This explains the escalation of violence by the organization that worked to mine the negotiations between the French government and the National Liberation Front, and hit Algeria's independence, and it reached an unprecedented level when a ceasefire was agreed between the French army and the National Liberation Army with the aim of emptying the city of its Muslim population by implementing infernal crimes represented In a series of assassinations and bombings targeting everything related to the Algerian people, who have become a prohibited target for their crimes that exclude nothing and have no mercy for everyone; its plan has included sowing ruin, spreading terror and terror in the soul, destroying institutions, installations and infrastructure, and assassinating people whether They were Muslims or Europeans who rejected their criminal policy. This prompted the colonial authorities to seek the assistance of General Joseph Katz, who was entrusted with the task of confronting the leaders of the organization in the city of Oran, such as Jouhaud, Antoine Argoud, and others.

Keywords: French Secret Army, Oran, Crimes, Detonation, Assassination, Tahtaha, Prison, Organization.

1- المقدمة: إن مرارة الاستعمار التي عانى منها الجزائريون لم تقتصر على السياسة القمعية لجيش الاحتلال والشرطة، وتعسف الإدارة الاستعمارية بقوانينها المجحفة، وإنما

تعدت إلى تحمل المزيد من القمع والجرائم التي مارستها منظمة الجيش السري الإرهابية، وكانت بالنسبة لغلاة المستوطنين الأوروبيين تمثل آخر آمالهم في الحفاظ على مصالحهم الحيوية في المستعمرة، واتخذت عبارة "الجزائر فرنسية" (française L'Algérie) شعارا لها، ردا على ما اعتبرته خيانة ديغول للأمة الفرنسية، وعلى مطالب الثوار الجزائريين بالاستقلال واسترجاع السيادة الجزائرية، وتُعد وهران من المدن الجزائرية التي شهدت عمليات الجيش السري الأكثر فظاعة ودموية، ذلك أنها كانت عاصمة العمالة والغرب الجزائري بتعداد سكاني يفوق 400 ألف نسمة يشكل الأوروبيون فيه الأغلبية، ويعيش السكان المسلمون وسط هذه الحشود في أحياء خاصة بهم كالمدينة الجديدة والحجري ومديوني، أو على أطراف المدينة كحي "بتي لأك" ورأس العين، بالإضافة إلى عدد من المسلمين وسط الأحياء الأوروبية، هذا الفارق الكبير في تعداد السكان بين المسلمين والأوروبيين دفع بغلاة المعمرين إلى محاولة فرض سيطرتهم على المدينة، وطرد المسلمين أو إبادتهم لتخلو لهم، لكنهم اصطدموا بمقاومة وصمود مسلمي وهران رغم بطش المنظمة الإرهابية.

الأهداف العامة للبحث:

- التعرف على كيفية إنشاء منظمة الجيش السري الفرنسي.
- معرفة الوضع الأمني الذي آلت إليه مدينة وهران من سنة 1960 الى الاستقلال بتتبع تطور المسار الإجرامي لمنظمة الجيش السري الفرنسي.
- دراسة نماذج من العمليات الإجرامية الكبرى، ودور المسلمين الجزائريين بمدينة وهران في التصدي لمشروع فصل المدينة عن الجزائر.
- كشف الجانب الآخر من الصراع الجزائري الفرنسي.
- إشكالية البحث: انطلاقا مما ذكر نطرح الإشكالية التالية: الى أي مدى ساهمت منظمة الجيش السري في زيادة معاناة مسلمي وهران، وتندرج تحتها عدة أسئلة أهمها: ماهي منظمة الجيش السري، وما أهدافها، وأهم أعمالها الإجرامية في مدينة وهران، وكيف تصدى لها الوهرانيون؟ وما موقف جبهة وجيش التحرير الوطني من نشاط المنظمة الإجرامي، وهل كان للسلطات الاستعمارية يد في أعمالها؟

منهجية البحث: أتبع المنهج التاريخي الوصفي لسرد الأحداث والوقائع، وعرض تفاصيلها، والمنهج المقارن لمعرفة أوجه الشبه والاختلاف بين الرواية الجزائرية ونظيرتها الفرنسية في وصف تفجير ساحة الطحطاحة، أما المنهج التحليلي فخصص لدراسة الروايات الشفوية ونقدها.

الإطار الزمني والجغرافي: يغطي البحث الفترة الممتدة من سنة 1961م إلى غاية يوم الاستقلال في 5 جويلية 1962م، أما الإطار الجغرافي فيشمل مدينة وهران؛ حيث تعد السنتين الأخيرتين من عمر الثورة التحريرية- 1961 و1962- مرحلة هامة وحساسة إذ لعبت فيها القوى المتصارعة آخر أوراقها لتحقيق الأهداف التي كانت تخطط لها، وواجهت فيها الثورة الجزائرية أخطر العقبات ممثلة في المنظمة العسكرية السرية، أما اختيار مدينة وهران فكان بغرض التعرف على النشاط الإجرامي للمنظمة السرية كون المدينة كانت تحت قبضة السلطات الفرنسية، ولم تعرف معارك طاحنة كمعركة الجزائر مثلا، وردود فعل سكانها، وموقف قيادة جيش التحرير في التعامل معها.

2- مدخل: تعود جذور هذه المنظمة الإرهابية إلى اجتماع المنفيين بالعاصمة الإسبانية مدريد في 11 فبراير 1961، وبعد مناقشات شاقة بقيادة بيير لاغيارد (Pierre Laguaillarde) وجان جاك سوسيني (Jean Jacques Susini)، تقرر إنشاء منظمة مسلحة جديدة خلال هذه الجلسة¹، كما أن موقف الجنرال شارل ديغول² من الثورة الجزائرية، ودعوته إلى التفاوض مع جبهة التحرير الوطني في 14 جوان 1960، ورؤيته لمستقبل الجزائر، أثار حنق الأقدام السوداء، واعتبروه "ردّة"، رافضين الاعتراف بالثورة ورغبة الجزائريين في الحرية والاستقلال، ودفعهم لمزيد من التطرف والتعاطف مع المنظمة، وتدعم موقفها بانضمام جنرالات معارضين لمشروع ديغول أمثال "راؤول سالان (Salan) وجوهو (Jouhaud).

3- هيكل المنظمة السرية (OAS): تم الاتفاق عليه في اجتماع بالجزائر العاصمة بتاريخ 1 جوان 1961 بين زعماء الأقدام السوداء والجنرالات، وهو كما يلي:

- أ- فرع التنظيم والتجنيد (IOM) مهمته تجنيد المواطنين في الأحياء الأوروبية.
- ب- فرع التنظيم والاستخبارات والعمليات (L.O.R.O) لجمع المعلومات والاعتداءات والسطو، وينقسم إلى خلية جمع وتحليل المعلومات وخلية العمليات الميدانية.

ج- فرع العمل السياسي والبيسيكولوجي (APP)، وينقسم إلى: اللجنة السياسية ولجنة العمل البيسيكولوجي، ونصبت المنطقة الثالثة بوهران³ برئاسة جوهر في أوت 1961 بعد خلافات بين المسؤولين ومنهم تاسو، وهو من استقبل الجنرال إدموند جوهر خلال هروبه إلى وهران، وتشكلت من الجمعيات العنصرية⁴ التي نشطت قبل انقلاب أفريل 1961م، فضلا عن كون المدينة تتوفر على عدة معايير أهمها:

أ- كثافة الجماهير الأوروبية (400 ألف مقابل 85 ألف مسلم).

ب- طبيعة مدينة وهران بثكناتها العسكرية تحاصر أحياء المسلمين المدينة الجديدة والحمرى وسان اندري ومعسكر سان فيليب وثكنات الدائرة 28، الدائرة 411، والدائرة 66، وثكنة المجمع الثاني، وثكنة الفرقة الثابتة (garnison) منذ 1845.

وبلغة الأرقام بلغ إجمالي أعضاء المنطقة الثالثة في وهران 3000 عضو ناشط ومهيكل، وحوالي 10.000 متعاطف⁵، واتخذ الصليب شعارا لها، وأخذت تتمركز بالجزائر وقسنطينة وباريس ومرسيليا ووهران كعاصمة اقتصادية في الجزائر⁶.

4- مصادر التمويل والتسليح: إن عملية جمع التبرعات أصبحت الهاجس الأكبر لمسؤولي المنظمة رغم توفر بعض المال جراء عمليات نهب صناديق البنوك والمؤسسات، إلا أنها كانت تواجه مشاكل كبيرة في تغطية أهم النفقات، لذا فإن فرع "العمل السياسي والبيسيكولوجي" كان يفرض ضريبة التضامن بجمع الأموال من المواطنين الأوروبيين باستعمال كَنَاشَات وريدية (100 فرنك جديد لكل قصاصة) طبعت بأحرفها الأولى (O.A.S)، بالإضافة الى طرق أخرى مكنتها من الاستيلاء على مليار ونصف فرنك جديد بين شهري جانفي وأبريل 1962م، كما استطاعت الحصول على ترسانة متنوعة من الأسلحة كالرشاشات والذخيرة والقنابل اليدوية وقنابل البلاستيك التي كان الجيش الفرنسي هو المنتج الوحيد لها فتمرّر سرا الى O.A.S.

وهو ما أكده جوهر بأن المنظمة بوهران كان بحوزتها 20 رشاشا قبل صائفة 1961م، وبعد العمليات بذات المدينة تحصلت على كمية معتبرة من الرشاشات والذخيرة والبدلات العسكرية؛ ففي 18 مارس 1962م حصلت على 209 قذيفة مضادة للدبابات، و80 رشاش، و2872 بندقية مع ذخيرتها بتواطؤ من عناصر الجيش الذين ادعوا أنهم في مهمة لنقلها الى فرنسا تفاديا لوقوعها في أيدي المنظمة⁷.

وتشير إحصائيات مختلفة إلى إن الجرائم البشعة لمنظمة الجيش السري (OAS) خلّفت أزيد من 1100 ضحية من المدنيين الجزائريين بوهران بين سنتي 1961 و1962، ويصعب تحديد العدد الحقيقي للضحايا، لأن العديد منهم لم يُدرجوا في سجلات الوفاة للحالة المدنية نظرا لعدة عوامل؛ ففي بعض الحالات كانوا يُدفنون بصفة مستعجلة دون اللجوء إلى الحالة المدنية، وفي حالات أخرى كان من الصعب التعرف عليهم بالنظر إلى أساليب الإعدام، وفي أحيان أخرى كان مجرمو هذه المنظمة يفتالون ضحاياهم، ثم يدفنونهم، وبعد الاستقلال من 1963 إلى 1964 اكتُشف العديد من رفاة جزائريين في أقبية وحدائق منازل المعمرين، كما أن الأغلبية من ضحايا مجازر الطرقات التي كان ارتكبتها ضباط مزيفون للجيش في حواجز بالطريق الرابط بين وهران وتلمسان لم تدوّن أسماءهم في السجلات، من جهة أخرى فإن الجزائريين لم يكونوا الهدف الوحيد للمنظمة؛ حيث استهدفت مجنّدين في الجيش وضباطا فرنسيين من المشاركين في مكافحتها⁸ بفكرة من ليس معنا فهو ضدنا.

5- نماذج من الجرائم التي ارتكبتها المنظمة السرية في مدينة وهران:

أ- تفجيرات العاصمة ووهران: قامت المنظمة في يوم 20 ماي 1961 بتنفيذ سلسلة من التفجيرات بالقنابل البلاستيكية بلغت 35 انفجارا منها 10 بوهران والباقي بالعاصمة⁹.

ب- اختطاف السجناء وإحراقهم: شهد سجن وهران عملية هروب قام بها المجاهد بن قاسميه شاذلي الجيلالي المدعو سي عبد الحميد شكلت صدمة للسلطة الاستعمارية ومنظمة الجيش السري بوهران، ولإعادة الاعتبار لها عند الرأي العام (الأقدام السوداء) وزعت المنطقة الثالثة للمنظمة بوهران منشورا عبر كل الأحياء الأوروبية، معلنة الحكم بالإعدام على- زعيم المتمردين- من طرف المحكمة الخاصة بمنظمة الجيش السري في جلستها الطارئة بتاريخ 18 نوفمبر 1961، وشنت سلسلة اعتداءات بالقنابل ضد بيوت المسلمين بالأحياء الأوروبية، وقامت بتحديث أسلحتها لاستعادة ثقة الأقدام السوداء، وترسيخ فكرة أنها "تضرب من تريد ومتى تريد".

كل هذه الأحداث دفعت بالمنظمة الى توجيه فرقة كوموندا تابعة لها إلى سجن وهران يوم 12 يناير 1962 مؤلفة من ستة أفراد مرتدين زي الدرك الفرنسي، منهم أنتوان كاتاجين (Antoine Catagène) وأنتوان إيميليو (Antoine Emilio) بقيادة

قونزاليس (Gonzales) المدعو بانشو (Pancho)، وتحمل وثائق مزورة ممضاة من السلطة الولائية تثبت أمرا من الجنرال إدموند جو هو بتحويل السجناء "قراب الهواري، أحمد فريح من مدينة سيق، سي صبري (عواد بن جبار) وسي عثمان (حمادي عدة)¹⁰ بالتواطؤ مع حراس السجن المتعاطفين مع المنظمة ومدير السجن الذي أرقه هروب سي عبد الحميد.

أُخرج الرجال من زناناتهم بعنف، ونقلوا بشاحنة مغطاة مرفقة بسيارات المنظمة إلى غابة كندستال¹¹؛ فعدّبو حتى شارفوا على الموت لإجبارهم على الاعتراف بمعلومات للقبض على سي عبد الحميد، ودام التعذيب أكثر من نصف الليل، ثم صبوا عليهم البنزين، وأضرموا فيهم النار، وأحرقوهم أحياء لمسح آثار التعذيب، وفي الصبيحة اكتشف السكان منظرا مهولا لجثث متفحمة ورائحة لحم آدمي¹².

ج- اغتيال الشهيد محي الدين بن شاعة: ولد محي الدين بن شاعة في 27 أوت 1917م بالحي العتيق سيدي الهواري بمدينة وهران، وكان ينتمي إلى مجموعة من الفدائيين تسمى بجماعة سي عبد الباقي حيث أشرف عليها عدد من المناضلين السياسيين في حي سي صالح (بلانتور)، وتعود جذورها التاريخية إلى المنظمة الخاصة (OS) التي أنشئت في شهر فبراير 1947م، وكان الشهيد رفقة صديقه متجهان إلى بلاص دارم (ساحة السلاح- ساحة أول نوفمبر حاليا)؛ فباغتهما أفراد منظمة الجيش السري بإلقاء القبض عليهما واغتيالهما، لكن وقع اشتباك أسفر عن إصابة الشهيدين برصاصات قرب مقر بلدية وهران، وقبض عليهما متأثرين بجراحهما، وبعد أسبوع من المعاناة والألم توفيا في 02 فبراير 1962م، ودفنا بمقبرة عين البيضاء¹³.

د- تفجير ساحة الطحطاحة: الطحطاحة هي الساحة العمومية بحي المدينة الجديدة بوهران، يتوافد عليها الناس بكثرة يوميا من مختلف المناطق كونها مفتوحة للتجارة والتبضع والفرجة ورؤية الأصدقاء، وبخاصة في شهر رمضان، وفي يوم 28 فبراير 1962 وقع بها انفجار سيارة مفخخة، نفذته منظمة الجيش السري بوهران¹⁴، ورغم أنها لم تكن قادرة على دخول حي المدينة الجديدة، لكن كان لديها عملاء ومتواطئين، ومنهم فيليب جاكو (Philippe Jacquau) برتبة ملازم أول¹⁵، أمّا الرأس المدبر لفكرة تفجير السيارة المفخخة فهو ألتاقراس جولو بول (altagrace joulu Paul)، وهو أوروبي من

أصل يوناني، وأحد مؤسسي المنظمة في وهران¹⁶، واستخدمت المنظمة شخصاً مسلماً¹⁷ ليركن السيارة المفخخة بساحة الطحطاحة، وبالتزامن مع ذلك قام أعضاء المنظمة المندسين بنشر إشاعات في أحياء المسلمين بوهران، مفادها أنّ بينهم عملاء للمنظمة بهدف زعزعة الاستقرار وبثّ الشك بينهم¹⁸.

كان المناضل بن عبودة محمد في مكان التفجير ربع ساعة قبل الانفجار¹⁹، ثم توجه إلى ساحة سيدي بلال²⁰، وهناك توقف مع صاحبه لاقتناء بعض الزلابية قرب مقهى زيان، ثم سمع انفجاراً يصم الأذان هز أركان المدينة الجديدة، وتهاطلت على رؤوسهم أمطار من شظايا زجاج النوافذ المجاورة، وتصاعدت في السماء سحابة سوداء كثيفة تملأ الجو برائحة لا توصف، هرع الجميع نحو مكان الانفجار ليجدوا الدمار على مساحة 800 متر مربع، كان السواد يغطي بقايا أشلاء أدامية على الأرض يسيل منها دم أسود، ورائحة اللحم الآدمي المتفحم مزجت برائحة البارود، ووسط الطريق هيكل سيارة ممزق من نوع بيجو 403. كان المشهد بشعاً؛ فأرضية الساحة وجدران المنازل والدكاكين والمقاهي بالطحطاحة غمرت ببركة من الدماء والأشلاء التي تطايرت، وعلق بعضها بأسلاك الكهرباء في منظر فظيع، صراخ وشم لأفراد الجيش الفرنسي الذين جاءوا لمعرفة ما حدث؛ فمنعهم المسلمون بوابل من الحجارة²¹.

بعدها تنقل أهل الحي رفقة أعضاء من الشبكات الحضرية إلى مكان الانفجار لجمع ما تبقى من أشلاء وأطراف مبتورة في جو لا يطاق بدا كنهاية العالم، وبادرت بعض النسوة بنزع خمرهن لتغطية الجثث أو فرشها، وجمع الأشلاء المتناثرة فيها، وقام البعض بتغطية الجثث بأوراق الجرائد²²، ولم يستطع أحد الجلوس على مائدة الإفطار لهول الصدمة، والانشغال بإسعاف الجرحى، وجمعت الجثث وأشلاء الضحايا في قاعة فوق مدرسة الفلاح بغية تجهيزها للدفن في الغد²³.

لم يتوقف الأمر على التفجير فحسب، بل تعدّاه إلى استفزاز السكان من طرف الجنود الفرنسيين بإطلاق النار باتجاه الجموع، ناحية حمام "إيسياخم عمر"، مما أجبر الفدائيين على الرد بمسدساتهم (PM)؛ فقتل جندي مسلم، واضطروهم للخروج علناً لاحتواء الجماهير الثائرة التي تريد التظاهر والثأر، وتنظيم عمليات الإسعاف في الأماكن الأكثر تضرراً؛ حيث توجهوا إلى المركز الطبي بشارع تومبكتو²⁴، وهرع أطباء متطوعون

للعمل في ظروف صعبة، أما المصابين الأخف ضررا فرفضوا التوجه إلى المستشفى الجامعي خوفا من غدر الأطباء والمرضى المتعاطفون مع المنظمة السرية²⁵.

إن هذه الجريمة النكراء هي نتيجة سيطرة المنظمة على مدينة وهران لكون معظم سكانها من جنسيات أوروبية فاق تعدادهم 400 ألف نسمة، وكان حي المدينة الجديدة عاصمة الأحياء الإسلامية في وهران؛ فرمزية المكان تعني ضرب المسلمين في أكبر أحيائهم، وبداية من عام 1961م عرفت المدينة صراعا ثلاثيا ميرا بين الجيش الفرنسي وأجهزته الأمنية، وجبهة التحرير وشبكاتهما الحضرية، ومنظمة الجيش السري والمتعاطفين معها، وتمثلت سيطرة المنظمة في تغلغل نشاطها في جميع المؤسسات والميادين كأجهزة الإدارة الاستعمارية والاقتصاد بالإضافة إلى تواطئ أفراد المؤسسات الأمنية والعسكرية كالشرطة والجيش والدرك²⁶.

سبب جريمة الطحطاحة: يرجع اختيار يوم 28 فيفري 1962م إلى أنه في مثل هذا اليوم من عام 1961م أدى الشيخ الطيب المهاجي صلاة الغائب بساحة الطحطاحة على روح محمد الخامس ملك المغرب، وبعدها خرج الجزائريون في مظاهرة، وصادف أن التقوا بسيارتين فيهما أوروبيون؛ فقاموا بإحراق هاتين السيارتين، وفيهما يونانيون يعرفهم جولو بولو؛ فكان سببا لاختيار يوم 28 فيفري من أجل الثأر لهؤلاء اليونانيين، وتذكير الجنرال كاتز بقوة المنظمة²⁷، وسمع دوي الانفجار داخل السجن المدني لوهران لقربه من مكان التفجير، وعلموا أن أمرا سيئا قد حصل، حينها سألوا الحراس عن سبب ذلك الصوت؛ فقبل لهم إنه صوت انفجار سيارة مفخخة بساحة الطحطاحة، وحتى سكان حي بلانتور وحي الكميل شاهدوا الدخان المتصاعد²⁸.

تغطية الصحافة للجريمة: في صبيحة اليوم الموالي نشرت جريدة صدى وهران مقالا على صفحاتها بعنوان: "انفجار في وسط المدينة الجديدة باستعمال سيارة مفخخة من نوع بيجو 403 يخلف 25 قتيلًا و31 جريحًا"، جاء فيه: "أمسية البارحة وقع انفجار قوي سمع صداه بكامل أرجاء المدينة حوالي الساعة الثالثة و45 دقيقة تم تحديد موقعه في مركز المدينة الجديدة، تبعه صراخ وعويل النساء، وعلى الفور قدم فريق من الجيش الفرنسي لتطويق المكان؛ فشاهدوا مشهدا مؤثرا ومؤلما جثت تسبح في بحر من الدماء، والبعض مقطع الأوصال، مبعثر الأشلاء، وكان الجزائريون قد استقبلوا الجيش الفرنسي بالسبب

والشتم والرشق بالحجارة، وزحزحوهم من مكانهم؛ فاضطر الجيش الفرنسي لإلقاء القنابل المسيلة للدموع حتى يتمكنوا من الفرار، غير أن المتمردين أطلقوا الرصاص، وحينها أعلن منع التجول ليلا، بينما سيارات الإسعاف تفتحم المكان، وتتوجه بالجرحى إلى مستشفى المدينة، وعلمنا أن صندوق السيارة المفخخة كان بداخلها عيار ناري من نوع 105، وكان لشدة النسف القوي أثر على باقي السيارات المجاورة ما بين دورة المياه ومقهى الرياضيين الخاص بفريق "الإتحاد الرياضي الإسلامي لوهراڤ" (ليزمو- usmo)، وانتهيار بعض المنازل، وبلغت الحصيلة عند الساعة الثامنة 25 وفاة و32 جريحا²⁹.

ضحايا التفجير: بتفحص أرشيف البلدية ووكالة تشييع الجنائز تبين أن عدد الضحايا المسجل أقل من الحقيقي، وحسب ما دُوّن في سجلات الوفيات؛ فالشهداء الذين وجدت بطاقتهم بحوزتهم دونت أسماءهم، أما الذين لم يجدوا بطاقتهم ومزقت أجسامهم إلى أشلاء؛ فكتب فيها أطراف من اللحم دفنت دون التعرف عليهما؛ فالإرهاب طوال 17 شهرا احتل شهر فبراير الصدارة بـ235 قتيل ظلت جثثهم مرمية في الشوارع، وبلغ عدد القتلى خلال 6 أشهر 854 منهم 89 امرأة³⁰.

بالمقارنة بين الروايتين- الجزائرية المتمثلة في شهود العيان، ونظيرتها الفرنسية المتمثلة في مقال جريدة صدى وهران، وما ورد في المقال الخاص بالجنرال جوزيف كاتز- وتحليلهما، يتبين أن الروايتين متباينتين من حيث عدد الضحايا: 80 شهيدا و200 جريح حسب رواية الشهود، و25 قتيلًا و32 جريحا حسب رواية الصحيفة، وهو ما يعكس إحجام السلطات الفرنسية الرسمية والصحافة عن ذكر العدد الحقيقي للضحايا، ووصف الجريمة على حقيقتها، ونسبتها للفاعل وتجريم فعلته، وعدم الإشارة ولو بالاحتمال إلى ضلوع المنظمة السرية في هذه الجريمة، وأهم نقطة هي مسألة إطلاق النار الذي أعقب الانفجار، حيث نسبته الرواية الجزائرية إلى فاعل مجهول، بينما نسبته الجريدة إلى من وصفتهم بالمتمردين، وتقصد بها الفدائيين من أبناء الشعب، كأنما تريد تحميل المسؤولية لهم، في حين يقول الشهود إن إطلاق النار كان من الجنود، والردّ من الفدائيين الذين هرعوا لتقديم المساعدات، وإسعاف الجرحى، وتغطية الجثث، وتهديئة الجماهير الغاضبة، ومنع وقوع اشتباكات تزيد من سقوط الضحايا؛ فغضب السكان ورشق الجيش بالحجارة لا يبرر اللجوء إلى الردّ بالرصاص.

موقف الحكومة الفرنسية: دقت الحكومة الفرنسية في باريس ناقوس الخطر بعدما امتد إجرام المنظمة ليطال المدنيين الأوروبيين المؤيدين لسياسة ديغول في الجزائر وضباط جيشه ناهيك عن القتل اليومي والعشوائي للمسلمين الجزائريين الذين كانوا هدفا ثابتا لغدر المنظمة السرية، وقررت وضع حد لهذه المنظمة، وذلك بتغيير المسؤول العسكري لمدينة وهران المتواطئ مع المنظمة، وهو الجنرال كليشي، وعوضوه بالجنرال جوزيف كاتز حيث كلفه وزير الحربية الفرنسي بمهمة واحدة تمثلت في مكافحة المنظمة السرية (OAS)، واستعادة السيطرة على وهران، وترك جبهة التحرير لفيالق أخرى، وصل كاتز إلى مطار السانية يوم 19 فبراير، وتزامن وصوله مع انفجارات بالمدينة، واغتيالات تحمل رسالة له مفادها أن المنظمة لا تزال قوية وقادرة على فعل الكثير.

أول ما قام به كاتز هو تغيير الفرقة المسؤولة عن الأمن، والتي كانت مكونة من الأقدام السوداء القاطنين بمدينة وهران وضباط "فصائل الأمن الجمهوري" (CRS)³¹، واستبدلهم بفرقة أخرى وضباط قدموا من فرنسا، وكان هذا التغيير في الضباط ملحوظا لدى العامة، وبدأت المنظمة السرية باستهداف هؤلاء الضباط الجدد، حيث تشير الإحصائيات إلى قيامها باغتيال 40 جنديا وضابطا فرنسيًا بين أواخر ديسمبر 1961م و28 جوان 1962م، منهم الجنرال كوندالمي الذي اغتيل يوم 14 جوان 1962م، وحتى جيش التحرير لم يفعل أمرا كهذا ليس لقلّة حيلة أو عدم استطاعة ولكن تنفيذًا لتعليمات الجبهة.

من جهة أخرى برزت بعض المنظمات المناهضة للمنظمة السرية (OAS)، ودخلت معها في حرب استنزاف كمنظمة المجندين السرية، والحركة من أجل التعاون أو الباربوز (M.P.C)، وهي حركات مؤيدة لسياسة ديغول، وقام المحافظ جون موران بالتخطيط للمهمة ج "Mission C" التي تقتضي تسريح 80 في المئة من الشرطة، واستبدالهم بعناصر من فرنسا وفيّة للجنرال ديغول تعمل شهرين بالجزائر، ثم تستبدل، وأسندت قيادتها الى المدير العام للشرطة القضائية ميشال (Michel)، ووصل 200 محافظ توزعوا على مدن الجزائر وقسنطينة ووهران، وتمكنوا من تنفيذ 5834 عملية بين ديسمبر 61 وفبراير 62م، وتم توقيف 604 عنصرا من عناصر المنظمة السرية، واسترجاع 642 قطعة سلاح وكمية من الذخيرة³².

وينبغي التنبيه إلى الدور الذي لعبه جهاز المخابرات الصهيونية "الموساد" بتحريض يهود وهران للانضمام إلى منظمة الجيش السري، حيث كان لليهود دور كبير تمثل في التبليغ عن المطلوبين أو تتبعهم، وتنفيذ القتل في حقهم³³، كما قتل يهود صهاينة وموالون لأوروبيي الجزائر المناهضين لاستقلال البلاد العديد من الجزائريين المسلمين في إطار نشاطاتهم شبه العسكرية داخل خلايا المنظمة المسلحة (OAS)، خصوصا في مدينة وهران وضواحيها، بعد دعوة الجنرال جوهر اليهود للالتحاق بهذه المنظمة الإجرامية، وكان اليهوديان إيلي عطار وأزولاي من بين أبرز عناصرها³⁴.

ه- محاولة تفجير سجن وهران: كان سجن وهران المدني (3700 سجين) على لائحة أهداف المنظمة السرية؛ فبعد خمسة أيام من تفجير ساحة الطحطاحة، خططت للقيام بجريمة أخرى بنفس الطريقة، في محاولة لتفجير السجن واقتحامه، وإطلاق النار على نزلائه، كونه يضم عددا كبيرا من المساجين الجزائريين ونشطاء جبهة التحرير؛ فيكون مقبرة لهم، لكن العملية أسفرت عن استشهاد شخصين وجرح 11 شخصا، وعلى أثر ذلك أغلق الحراس البوابات، وانصرفوا خوفا من القوة الضاربة التي كانت تلوح بها منظمة الجيش السري، التي فاقت قوة الجيش الفرنسي في المدينة، واندلعت النيران وتصاعد الدخان باتجاه قاعات المساجين المكتظة قبيل إفطار رمضان حيث كان المساجين في رواق لأخذ حصص الطعام، وساد بينهم الذعر والهلع، وتدافعوا للنجاة من الاختناق أو الاحتراق في غياب الحراس، وعدم وجود منافذ للهروب؛ فاتجهوا ناحية حوض الماء والمراحيض أسفل القاعات لتبريد الحرارة، والتخلص من الدخان الخانق.

تدخلت فرقة CRS بعد مدة، وأخطرت رجال الحماية المدنية للإسراع بإطفاء الحريق، وفتحت الأبواب الضخمة (بِسْمُك 10 سم) وأخمد الحريق، وفي تلك الأثناء حاول أفراد المنظمة الإرهابية اقتحام السجن، واغتيال المساجين لكن تدخل قوات الأمن حال دون ذلك، وتولوا حراسة السجن بدل الحراس الذين أنهيت مهامهم³⁵.

كانت الأيام مليئة بالأحداث التي تسببت فيها المنظمة السرية، وبخاصة بعد وقف إطلاق النار في 19 مارس 1962 حيث أعلن الجنرال راوول صالان عن شروع أنصار الجزائر الفرنسية في "عملية المدينة الميته"، تكملة لسياسة "الأرض المحروقة" التي دعا إليها الرجل الثاني في المنظمة جان جاك سوزيني، وبالفعل قام إرهابيو المنظمة باغتيال

مئات الجزائريين والأوروبيين الذين ساندوا استقلال الجزائر، وألقت فرق الموت بكل ثقلها في "معركة وهران" لفرض سيناريوهات "واهية" بالحفاظ على المنطقة الغربية تحت لواء "الجزائر الفرنسية" ووهان كعاصمة لها، وهو ما يفسر مواصلة المنظمة لعملياتها الإجرامية رغم اتفاق وقف إطلاق النار³⁶، ووزعت منشورات في الجزائر العاصمة توضح أن وقف إطلاق النار لا يمكن أن يعتبره أنصار الجزائر الفرنسية ضمناً للعودة إلى السلام، ولكن كإشارة إلى معارك جديدة بقيادة المنظمة السرية، وأعلن آخرون في مدينة وهران أن "المقاومة الحقيقية" ستبدأ في نهاية الإضراب، وطلبت من السكان الاستعداد لمتابعة تعليمات الجنرال جو هو (Jouhaud) حرفياً³⁷.

وفي يوم 13 جوان 1962 قُتل المقدم ماريوت بالرصاص في الشارع على يد منظمة الجيش السري بغرض جذب الجنرال كاتز (Katz) إلى مشرحة المستشفى لتحية رُفاة مرؤوسه فيقتل بسهولة، وقرر الجنرال جينستي (Ginestet) بعد علمه بالهجوم الذهاب إلى مستشفى بودانس (Baudens) ليوقف على جثمان ماريوت دون استشارة كاتز، ودون حماية يرافقه الكابتن ماسون مساعده الوحيد، حيث رحب بهم العقيد مابيل (Mabill) وذهبوا معاً إلى المشرحة، وانتظر القناص المكلف بمهمة اغتياله في غرفة مجاورة (مخزن التوابيت)، وما إن دخلوا الغرفة حتى أطلق رصاصتين باتجاه جينستي فأصابه بجروح خطيرة، وثالثة أصابت مابيل الذي سقط قتيلاً، وبعد يومين نقل جينستي إلى مستشفى فال دي غراس (باريس) حيث مات في 24 جوان³⁸.

وجهت المنظمة السرية نظرها إلى ميناء وهران؛ ففي يوم 25 جوان 1962 تمّ تفجير خزانات البنزين العملاقة بالميناء، مما أدى إلى احتراق مائة ألف لتر من البنزين، وإحداث سحابة من الدخان الكثيف ظلت تغطي سماء مدينة وهران طيلة ثلاثة أيام³⁹.

6- مواقف أطراف الصراع من جرائم (OAS):

أ- موقف جيش التحرير الوطني: بالنظر إلى تمادي منظمة الجيش السري في ارتكاب كل أنواع الجرائم في سبيل تحقيق ما كانت تخطط له؛ فإنه تحتم على جيش التحرير التصدي لمؤامراتها عسكرياً وسياسياً داخل المدن عموماً ووهان خاصة، بعد التقارير التي رفعها المناضلون والفدائيون لقيادته العليا في الولاية الخامسة؛ فقام الفدائيون بعمليات تخريبية لبعض الشركات الفرنسية التي تقوم ببعض الخدمات ظاهرياً للسكان،

استغلها أفراد المنظمة السرية للتسلل باسمها داخل الأحياء الشعبية والمحلات التجارية بحجة تصليح الأجهزة الكهربائية لارتكاب الجرائم، وكلف الفدائيون بعدة عمليات بين 3 و 18 جوان 1962م انتهت بتصفية 17 عضوا من هذه المنظمة، وردًا على مجزرة الطحطاحة أصدرت الجبهة أوامرها إلى رؤساء الشبكات الحضرية بوهران (سي عبد الحميد وسي عبد الباقي) بتنفيذ هجمات ضد الأوروبيين المتواطئين معها، وكانت لهذه الأحداث تداعيات ظهرت نتائجها يوم الاستقلال بسقوط ضحايا أوروبيين وسط الاشتباكات مع عناصر المنظمة السرية أثناء الاحتفال بنهاية الاستعمار⁴⁰.

لكن الأمر اختلف بعد توقيع اتفاق وقف إطلاق النار حيث قامت الجبهة بتوعية الجماهير الشعبية وإفهامها بما تريده المنظمة السرية، وذلك بتوزيع منشورات في المدن تطلب منهم مضاعفة الهدوء واليقظة، وتوخي الحذر وتجنب التصعيد مع الأوروبيين لتفادي انزلاق الوضع تحضيرًا للاستفتاء⁴¹.

ب- موقف السلطات الفرنسية: كل هذه الأحداث المهولة تطرح تساؤلاً عن حقيقة موقف السلطات الفرنسية وردود أفعالها، فنجد أنه تميز بالتغاضي عن نشاط المنظمة الإرهابية، واكتفت بعبارات الإدانة؛ ففي يوم 07 نوفمبر 1961 أدان الرئيس الفرنسي شارل ديغول أعمال منظمة الجيش السري الإرهابية⁴²، والمفروض أن الدولة الفرنسية كان من واجبها "ضرب معاقل منظمة الجيش السري ومحاربتها"، لكن بعض أجهزتها الأمنية والعسكرية المتواطئة معها لتصفية المناضلين الجزائريين سواء كانوا منخرطين في جبهة التحرير أو مدنيين يشك أنهم متعاونون معها، جعل الموقف الفرنسي ضعيفا ومتباينا، ودليل ذلك ما صرح به جان جاك سوزيني⁴³ بقوله: "وصلتنا معلومات عن أعدائنا المتعاطفين مع جبهة التحرير سواء كانوا مسلمين أو أوروبيين من قبل مصالح الشرطة الفرنسية في الجزائر".

وعن سؤال حول ما إذا كانت منظمة الجيش السري بمثابة متعاون فرعي لمصالح الشرطة للقيام بالمهام القدرية، قال جون جاك سوزيني: "حين تتمكن القوى النظامية من القبض على عميل تابع للأفان ولا تعثر بشأنه على ما يجعله يمثل أمام المحكمة، لا بد أن يتكفل طرف ما بإعدامه"، وهذه إشارة ضمنية إلى أن المنظمة تكفلت بتصفية عدد من الجزائريين دون محاكمتهم، وأضاف الرجل الثاني في المنظمة أن مصالح الشرطة

الفرنسية كانت ترسل لهم قوائم بأسماء فدائيين ومتعاطفين مع الثورة لتصفيتهم، رغم أنها كانت مكلفة في الواقع بمحاربتها قاتلاً: "قد يبدو هذا مفارقة، لكن بالنسبة لهم اعتبر الأمر من بين الحلول الممكنة لضرب عدو مشترك"، وذكر سوزيني أن التعاون بين أنصار الجناح العسكري لتيار الجزائر الفرنسية ومصالح الشرطة الفرنسية يعود إلى معركة الجزائر، وأنه "منذ أن عجزت الدولة الفرنسية عن تنفيذ الحلول الراديكالية المطروحة، كان لزاماً علينا أن نحل محلها"⁴⁴.

وكان هذا الأخير قد تواعد في 1 أبريل 1962 بتحويل الجزائر لجحيم⁴⁵، كما قامت المنظمة السرية في العاشر ماي 1962 باغتيال 15 امرأة من النساء الجزائريات العاملات في البيوت الأوروبية أثناء توجيههن للعمل صباحاً، وسُميت هذه الجريمة بـ"عملية فاطمة"، وشكّلت ذروة وحشيتها في إطار سياسة الأرض المحروقة التي حصدت أرواح 410 جزائرياً و487 جريح، من 19 مارس (وقف إطلاق النار) إلى 1 جويلية 1962 م⁴⁵.

وفي شهادة عن الإرهاب الفرنسي في الجزائر يقول الدبلوماسي الألماني مراد هوفمان:⁴⁶ "أثناء عملي بالجزائر عامي 1961/1962م عايشت فترة حرب بين قوات الاحتلال الفرنسي وجهة التحرير الجزائرية، وانضممتُ- أثناء فترة وجودي هناك- طرف ثالث هو "منظمة الجيش السري"، وهي منظمة إرهابية فرنسية تضم مستوطنين وجنوداً متمردين، ولم يكن يوم يمر دون أن يسقط عدد غير قليل من القتلى في شوارع الجزائر، وغالباً ما كانوا يُقتلون رمياً بالرصاص على مؤخرة الرأس من مسافة قريبة، ولم يكن لذلك من سبب إلا كونهم مسلمين أو أنهم مع استقلال الجزائر"⁴⁷.

7- نهاية الصراع مع مع المنظمة السرية: عملت جبهة التحرير الوطني على تفعيل الجانب الدبلوماسي في التعامل مع المنظمة السرية، حيث سعى عبد الرحمن فارس بواسطة رئيس بلدية البلدية شوفالييه للقاء سوزيني، وإقناعه بضرورة التخلي عن العنف؛ فوضع شروطاً للقبول، وبعد مشاورات في تونس مع بن خدة كُلف شوقي مصطفى من الحكومة المؤقتة بالتفاوض مجدداً؛ فقام في 17 جوان 1962 بإبرام اتفاق مع جون جاك سوزيني آخريزعماء المنظمة السرية لوقف نشاطها الإجرامي⁴⁸.

الخاتمة: لقد حولت منظمة الجيش السري حياة مسلمي وهران لجحيم؛ فأمضى أهلها شهوراً صعبة في ظل الاحتقان السائد بين أطراف النزاع: جيش التحرير وخلفه الجماهير

الشعبية، الجيش الفرنسي وساسته، المنظمة السرية وخلفها دعاة "الجزائر الفرنسية" من كبار المعمرين وغلاة الأقدام السوداء والجنرالات، وتمركزت أعمال المنظمة الإرهابية في وهران نظرا للثقل الاستراتيجي للمدينة، مستخدمة استراتيجية جبهة التحرير في حرب المدن باستخدام الشبكات والخلايا.

جسدت هذه المنظمة الوجه الأكثر سوءا للاستعمار، والخصم الأكثر تطرفا وإرهابا؛ فعناصرها تمسكوا بفكرة الجزائر الفرنسية، ورفضوا كل ما من شأنه تغيير أوضاعهم فيها، لذا كان هدفهم من تأسيسها إبقاء "الجزائر فرنسية" بتعبئة الرأي العام الفرنسي حولها، والتصدي لسياسة ديغول، والضغط على حكومته، ومحاولة الإطاحة بنظامه، وعرقلة المفاوضات بين الحكومة الفرنسية وجبهة التحرير بإشاعة حالة من الرعب، وممارسة التهديدات في جو من الإرهاب المنظم، وتمثلت أعمالها الإجرامية بمدينة وهران في تخريب المصالح الحيوية، والتصفية الجسدية للإطارات الجزائرية، واغتيال المؤيدين لسياسة ديغول، والسطو على البنوك، ونهب مصالح البريد، وتوزيع المناشير التحريضية واستعمال البث السري الإذاعي والكتابات الجدارية، والقتل الجماعي كتفجير السيارة المفخخة، واغتيال معارضها، وحرق المختطفين، والتعذيب في أقبية منازل المعمرين والمزارع حتى الموت، والقتل على قارعة الطريق في حواجز مزيفة، واستهداف المنشآت الكبرى والبنى التحتية كتفجير ميناء وهران ومحطة القطارات، وإحراق المكتبة المركزية بالعاصمة- جريمة ضد التراث الإنساني-، وتنفيذ سلسلة تفجيرات قدرت بنحو 2293 تفجير بين سبتمبر 61 ومارس 62 أسفرت عن سقوط 700 ضحية؛ فهذه الأعمال الانتقامية كانت أيضا بغرض حرمان الجزائريين من الاستفادة من البنى التحتية والمنشآت التي شيدها الفرنسيون في حال خسروا الحرب مع جبهة التحرير واستقلال الجزائر عن سلطتهم؛ فعملوا على إرجاع البلد الى ما قبل 1830.

وكان للنشاط الإجرامي للمنظمة تداعيات على حياة سكان المدينة؛ فكان أهلها من الجزائريين المسلمين يدفعون الثمن باهظا في سبيل الحرية، ولئن كانت معارك الجبال والأرياف تتم بالأسلحة؛ فان معركة وهران ضد المنظمة الإرهابية تصدى لها الوهرانيون بالصبر الثبات أمام أهوال الجرائم اليومية وقمع الشرطة، وهذا ما دفعهم إلى تأكيد تعلقهم بجبهة التحرير، وكذا جيشها الذي أبدى موقفا صارما من نشاط المنظمة

الإجرامي؛ فصدرت الأوامر بالتصدي لها، واستهداف عناصرها وقادتها والمتعاونين معها من مدنيين أوروبيين ويهود ومسؤولي أجهزة الأمن والإدارة بعمليات فدائية ردا على جرائمها الجبانة التي استهدفت المدنيين.

أما السلطات الاستعمارية فإن موقفها الرسمي كان مناهضا للمنظمة مع اتخاذ بعض التدابير للقضاء عليها لكن تواطؤ أفراد الجيش والشرطة وموظفي الإدارة أضعف موقفها، وأطال عمر المنظمة لارتكاب المزيد من العنف، والضغط على مسار المفاوضات الفرنسية الجزائرية لنسف أي اتفاق يهدد مصالح المنظمة، لكن رغبة طرفي الصراع في إنهاء هذه الحرب المكلفة كانت أقوى من ضغوطات هذه المنظمة.

ويبقى العدد الحقيقي للضحايا مجهولا نظرا لظروف الحرب وسرية نشاطها؛ فالمتبع لطبيعة أعمالها الإرهابية يستطيع تصنيفها في خانة الجرائم ضد الإنسانية والإبادة الجماعية لأنها تجاوزت كل الخطوط الحمراء، ولا تزال جرائمها في الجزائر من فبراير 61 إلى جويلية 62، أو ما عُرف في الصحافة الفرنسية بمعركة وهران يلفها الكثير من بؤر الظل نظرا لقلّة البحوث والكتابات التي تناولتها بالدراسة والبحث.
الملاحق:

الملحق 01:



الصورة على اليمين: الجنرال إدموند جوود Edmond Jouhaud 1961 من أبرز مؤسسي وقادة
منظمة الجيش السري الفرنسية⁴⁹
الصورة على اليسار: الجنرال راوول صالان Raoul Salan من أبرز مؤسسي وقادة منظمة الجيش
السري الفرنسية⁵⁰

الملحق رقم 02:



تفجير براميل البنتزين بميناء وهران 25 جوان 1962م⁵¹

الملحق رقم 03:



مقال بجريدة صدى وهران الناطقة باللغة الفرنسية حول انفجار السيارة المفخخة وسط حي المدينة الجديدة⁵²

الهوامش:

- *- GEORGES FLEURY, HISTOIRE SECRETE DE L'O.A. S, Quatrième partie L'O.A.S. ET LE PUTSCH, 26-Naissance de l'O.A.S. à Madrid Éditions Grasset & Fas quelle, 2002, 275p.
- 2- شارل ديغول رجل دولة فرنسي ومن أبرزهم في القرن العشرين، ولد في مدينة ليل شمال فرنسا سنة 1890م، في سنة 1809 اتجه للعمل في الجيش، والتحق بمدرسة سان سير Saint Cyr وحصل على المرتبة الثالثة في دفعته، وعين ضمن الكتيبة الثالثة والثلاثين للمشاة تحت قيادة العقيد بيتان Pétain، للمزيد من المعلومات ينظر: عبد القادر خليفي، سياسة ديغول من خلال مذكراته، مجلة الفكر السياسي، صص217-238.
- 3- المنطقة الثالثة: هي الأحياء الرئيسية التالية وسط المدينة- لا مارين- الحي اليهودي- سانت أنطوان- اكميل- صاناناس- سانت أوجان- قوميتا- كارطو- المرسي الكبير- عين الترك، ينظر: محمد بن عبودة، المنظمة السرية المسلحة OAS اضطرابات وهران 1961-1962م، دار القدس العربي للطباعة والنشر والتوزيع، وهران، الجزائر، 2012م، ص160/جعفر بن صالح، جرائم دون عقاب 51 عاما على ميلاد منظمة الجيش السري الإرهابية، مقال نشر في جريدة الخبر يوم 17 - 03 - 2012م، اطلع عليه بتاريخ 15-09-2019، على الساعة 23:17 الرابط: <https://www.djazairiss.com/elkhabar/283635?fbclid=>
- 4- الجمعيات هي: الحركة من أجل التعاون (Le M.C.P)، المنظمة الخفية للمعسكر الفرنسي (L'O.C.C)، شبكة بوناپارت Bonaparte مصلحة الفعل الحضاري (Le S.A.C)، لجنة الدفاع عن الجمهورية (Le C.D.R)، فرنسا انبعاث France Résurrection جمعية حارس العلم (Le G.A.D) بشرطتها العنصرية، الأمة الشابة La Jeune Nation، جبهة سوسيني Susini الوطنية، جبهة الجزائر الفرنسية (Le F.A.F)، جمعية قدماء الوحدات الإقليمية (A.A.U.T)، ينظر: محمد بن عبودة، المصدر السابق، ص160.
- 5- وهران موزاييك من النسيج الاجتماعي بين جنسيات أوروبية، أعراق، ديانات، محمد بن عبودة، المصدر السابق، ص. ص 141-150.
- 6- بلبوري سيد أحمد، شهادة حية أدلى بها ضمن فعاليات ندوة بعنوان "جرائم منظمة الجيش السري بوهران- تفجير الطحطاحة (28 فبراير 1962) أنموذجا" نظمها مخبر مخطوطات الحضارة الإسلامية في شمال إفريقيا بجامعة وهران 1 أحمد بن بلة بالتعاون مع مديرية المجاهدين لولاية وهران، يوم 26-02-2019م، بكلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- بلقايد.
- 7- باتريك إيفينو وجون بلانشايس، حرب الجزائر: ملف وشهادات ترجمة بن داود سلامنية، دار الوعي للنشر والتوزيع، 2013، روية الجزائر، ج2 ص251-252/محمد بن عبودة، المصدر السابق، ص166/حمزة شعابنية، منظمة الجيش السري الفرنسية OAS وموقفها من الثورة التحريرية 1961-1962، مذكرة ماستر، تخصص تاريخ عام، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة 08 ماي 1945- فالمة- 2015-2016، صص63-64.
- 8- صادق بن قادة في دراسة حول ضحايا حرب التحرير بوهران بين 1956 و1962، اعتمادا على مصادر الذاكرة، منها سجلات الوفاة بالحالة المدنية الجزائرية والأوروبية وأرشيف مصلحة تشييع الجنائز وقائمة الدفن وسجلات التسخير للسلطات العسكرية والطبية

والشرطة، قدمها في محاضرة بعنوان: "مدن ومجازر جماعية: حالة وهران 1961-1962" نُظمت بمركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، نشر بواسطة فيصل ش في جريدة السلام اليوم يوم 22.02.2012، أُطُوع عليه بتاريخ 23-08-2019 الرابط: <https://www.djazairress.com/essalam/8446>

9- حمزة شعابنية، المرجع السابق، ص 75.

10- حمداني عدة المدعو عثمان (1926 - 1962): ولد في 26 أبريل 1926 بتيارت التحق الشهيد حمداني عدة بصوف جيش التحرير الوطني لقيادة القطاع المستقل لمدينته وقام بإنشاء خلية للفدائيات، تقلد عدة مسؤوليات قبل أن يقبض عليه الجيش الاستعماري يوم 4 ديسمبر 1959 قرب من وادي ليلي، وبعد تعرضه إلى أشنع أنواع التعذيب في سجن تيارت وحكم عليه من طرف المحكمة العسكرية لوهران بالإعدام أربع مرات متتالية. ينظر: حنان لعروسي، مقال بعنوان باسم الشهيد حمداني عدة المدعو "سي عثمان" قائد الناحية العسكرية الثانية يشرف على مراسم تسمية مدرسة أشبال الأمة بوهران، نشر على موقع التحرير الإلكتروني بتاريخ 11 مايو، 2014، اطلع عليه بتاريخ 15-09-2019 على الساعة 13:23، رابط المقال:

<https://www.altahrironline.com/ara/articles/20156?fbclid>

11- تقع منطقة كانستيل على بعد 12 كم شرق وهران.---12- محمد بن عبودة، المصدر السابق، ص 235-238-241.

13- بن جبور محمد، "إن شاعة شهيد منظمة الجيش السري"، مداخلة ألقها نيابة عنه حصام صورية ضمن فعاليات ندوة بعنوان "جرائم منظمة الجيش السري بوهران-تفجير الطحطاحة (28-فبراير-1962) أنموذجا" والتي نظمها مخبر مخطوطات الحضارة الإسلامية في شمال إفريقيا بجامعة وهران 1- احمد بن بلة بالتعاون مع مديرية المجاهدين لولاية وهران، يوم 26-02-2019م، بمقر كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية.---14- بلبوري سيد أحمد، المصدر السابق.---15- قتله فدائي عمره 19 سنة اسمه بن معمر عمار بتاريخ 14 فيفري 1962م، أي 15 يوم قبل يوم تفجير السيارة، لمزيد من المعلومات حول تصفية الملازم جاكوت ينظر:

Saddek Benkada, 14 février 1962: l'élimination du lieutenant Jacquot a été le prélude au carnage du 28 février à Mdina-Jdida, Evocation, Samedi 23 février 2019, N° 7379

http://www.lequotidien-oran.com/index.php?news=5273540&archive_date=2019-02-23

16- صادق بن قادة، تفاصيل وحيثيات حول جريمة الطحطاحة، المصدر السابق.---17- عضو في الفدرالية الجزائرية للحركة الديمقراطية (F.A.A.D)، وهي عن خلية استحدثتها المصالح الخاصة الفرنسية، وكانت مراقبة من طرف ضابط فرنسي يدعى لافونصو lavanceau، وكان هدف هذه الفدرالية العنصرية هو القضاء على مسؤولي جهة التحري الوطني، ودس عناصرها في الأحياء لقيادة حملات التسميم الإعلامي وزعزعة الصفوف. ينظر: محمد بن عبودة، المصدر السابق، ص 247.---18- محمد بن عبودة، المصدر السابق، صص 246-245

19- تلقى المناضل مع رفيقه "تيجيني قيلو" أمرا من سي عبد الحميد -مسؤول الشبكة الحضرية- للاتصال بمسؤول قطاع المدينة الجديدة، التابع لشبكة سي عبد الباقي، بغرض تسوية مشكلة ناجمة عن سوء تفاهم بخصوص جمع التبرعات، وعمليات الفدائيين ضد الخونة المندسين في الحي الشعبي، جرى هذا اللقاء الساعة 15:00، مكان النصب التذكاري حاليا، مقابل الزاوية التي تجمع شارع تومبكتو بساحة الطحطاحة عند محل بولجية بائع "الزلاية"، حيث كان المكان يعج بالمواطنين عند المحل، ساعات قبل الإفطار في شهر رمضان، خلال ذلك اللقاء عرض كل واحد أسباب الاجتماع، ثم أخذت القرارات بعد اتفاق مشترك نص على احترام المحيط الذي ينشط فيه الأعضاء، ينظر: محمد بن عبودة، المصدر السابق، ص 243-20- ساحة سيدي بلال هي المكان الذي يقع فيه ضريح الولي الصالح سيدي بلال بعي المدينة الجديدة- وهران.---21- محمد بن عبودة، المصدر السابق، ص 244/بلبوري سيد أحمد، المصدر السابق.---22- صادق بن قادة، تفاصيل وحيثيات حول جريمة الطحطاحة، مداخلة أقيمت ضمن فعاليات ندوة بعنوان "جرائم منظمة الجيش السري بوهران-تفجير الطحطاحة (28-فبراير-1962) أنموذجا" والتي نظمها مخبر مخطوطات الحضارة الإسلامية في شمال إفريقيا بجامعة وهران 1- احمد بن بلة بالتعاون مع مديرية المجاهدين لولاية وهران، يوم 26-02-2019م، بمقر كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- بلقايد.---23- شهادة الشيخ محمد (عمره 82 سنة)، في حوار أجريناه معه داخل مسجد الفلاح بتاريخ الأربعاء 20 ديسمبر 2017م عصرا.---24- المركز الطي سابقا كان يسمى عمارة الأخوات النصرانيات أو عيادة الراهبات.

25- من بين الأطباء المتطوعين نذكر: د. دحو، د. سقال، د. تامي مجير، نايت، صافر، بخوش، رخال محمد، بادي مصطفى، وآخرين.. ينظر: محمد بن عبودة، المصدر السابق، ص 245-246.---26- بلبوري سيد أحمد، المصدر السابق.

27- Katz Joseph. Les dernières semaines à Oran. In: Matériaux pour l'histoire de notre temps, n°26, 1992. La guerre d'Algérie: les humiliés et les oubliés, sous la direction de René Girault. pp. 11-25, p11.

ينظر أيضا: صادق بن قادة، تفاصيل وحيثيات حول جريمة الطحطاحة، المصدر السابق.

28- حصام قويدر، شهادة حية أدلى بها ضمن فعاليات ندوة بعنوان "جرائم منظمة الجيش السري بوهران-تفجير الطحطاحة (28-فبراير-1962) أنموذجا" والتي نظمها مخبر مخطوطات الحضارة الإسلامية في شمال إفريقيا بجامعة وهران 1- احمد بن بلة بالتعاون مع مديرية المجاهدين لولاية وهران، يوم 26-02-2019م، بمقر كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- بلقايد-/صادق بن قادة، تفاصيل وحيثيات حول جريمة الطحطاحة، المصدر السابق

29- مقال ورد في جريدة صدى وهران (Echo D'oran) صبيحة يوم الخميس 01-03-1962م، ص 7. ينظر:

R.A, **HIER APRES-MIDI A ORAN UNE VOITURE PIEGEE EXPLOSE AU CENTRE DE LA VILLE NOUVELLE BILAN : 25 MORTS, ET 32 BLESSES**

Hier après-midi, une très violente explosion était entendue dans tous les quartiers de la ville, aux environs de 15 heures 45. Elle était localisée en plein cœur de la Ville Nouvelle, sur l'esplanade du boulevard Joseph Andrieu.

Aussitôt on entendait des cris de douleur et les youyous des femmes, Les éléments militaires du secteur se portaient sur les lieux et un spectacle macabre s'offrait à leurs yeux. Au milieu d'une immense fumée de nombreux corps gisaient dans des mares de sang, certains déchiquetés.

Les soldats étaient accueillis par des insultes et des cris hostiles de nombreux manifestants. Puis ils étaient bousculés et essayaient des jets de pierres ou de projectiles. A l'aide de grenades offensives et lacrymogènes, les patrouilles des forces de l'ordre se dégageaient, mais des terroristes ouvraient le feu dans leur direction, tuant un zouave. Le couvre-feu était alors décrété, tandis que les ambulances montaient vers la Ville Nouvelle, et que des blessés étaient dirigés vers l'hôpital de civil, également, dans des voitures particulières. On apprenait qu'une voiture piégée, soit avec un obus de 105 soit à l'aide d'engins explosifs avait explosé semant la mort sur cette esplanade où se trouvait une foule nombreuse d'hommes, de femmes et d'enfants. L'effet de souffle pulvérisait d'autres véhicules garés à proximité entre une vespasienne et le Café des Sportifs qui était autrefois le siège de l'USMO. Des maisons vétustes ont subi également d'importants dégâts.

A 20 heures, le bilan de ce drame s'élevait à 25 morts, 32 blessés.

Echo D'oran; Jeudi 1^{er} Mars 1962, N° 35345, P7.

تم الاطلاع على نسخة من جريدة صدى وهران محفوظة بأرشيف المكتبة البلدية المجاورة للمتحف الوطني أحمد زبانه، في العلية المخصصة لشهر مارس 1962م. ينظر الملحق رقم 04.

30- أسماء الضحايا الذين تم التعرف عليهم: عائلة شباك منهم صالح، أحمد واثنين آخرين، شارف إبراهيم، محمد بن قدور، بخي محمد، قليل عبد القادر، بخت مجاهد، داود محمد، مسيلي محمد، عرومية عبد الكريم، إبراهيم البشير، عواد محمد، حاج سي علي الجيلالي، مجاهد، خالد محمد، شراك ميلود، سلانة عبد القادر، لطفي أحمد، بلكرسي الهواري، لخضر محمد، البردي الجيلالي، بلحمري عبد القادر، سكرار احمد، التونسي مغناوي، بلجية عبد القادر، جباري عبد القادر، وابنته جباري خدوجة عمرها 04 سنوات بقيت ممسكة بيد أبيها المقطوعة، فايد علي، حمدوني عبد القادر، عبدان بن سعيد، محمد بن أحمد، مغراوي بن ثابت، وهناك المزيد، وطفل آخر لم يذكر ضمن القائمة صرح به أحد الشهود مؤخرا، صادق بن قادة، تفاصيل وحيثيات حول جريمة الطحطاحة، المصدر السابق.

31-CRS= وحدات الجمهورية للأمن.

32- صادق بن قادة، تفاصيل وحيثيات حول جريمة الطحطاحة، المصدر السابق/حمزة شعابنية، المرجع السابق، ص90-91.

33- جاءت دعوة الموساد للانتقام من الجزائريين المتهمين بتفجير سيارة ملغمة أمام كنيس يهودي في مدينة "المدينة" في عمالة الجزائر يوم 09-09-1961، الذي أوقع عديد القتلى وهو الفعل الذي نظمته OAS واتهمت الأفلان به لاستمالة اليهود إلى صفها، ينظر: بومدين بن

- عباد، جرائم منظمة الجيش السري في وهران غداة المفاوضات، التمرد الذي أزهق فرنسا وأباد الجزائريين، مقال نشر في الجمهورية يوم الخميس 15 ذو الحجة 1435هـ/09-10-2014م، العدد: 5380، ص 04.
- 34- محمد غربي، الأوضاع الاجتماعية والثقافية في عمالة وهران 1945-1962م، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم العلوم الإنسانية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجيلالي اليابس، سيدي بلعباس، الجزائر، 2014-2015م، ص41/فوزي سعد الله، اتجاهات سياسية تصف نفسها بالبربرية تروج للأطروحات الصهيونية، جريدة النصر، العدد 14360، صادرة بتاريخ 13 أبريل 2014م/13 جمادى الثاني 1435هـ حسب ما ذكره الباحث محمد غربي في أطروحته لنيل شهادة الدكتوراه، و28 ماي 2012م، حسب موقع جزائري على الرابط: <https://www.djazairiss.com/annasr/34063>
- 35- بعد محاولة تفجير سجن وهران تم تحويل المساجين فمهم من نقل إلى سجون فرنسا، ونقل المجاهد حصام قويدر رفقة مجموعة أخرى إلى معتقل في المنطقة العسكرية لبوفاريك قرب العاصمة، ويقوا هناك حتى يوم النصر حيث أفرج عنهم ولم تتكفل إدارة السجن بنقلهم بل تولى عملية النقل متطوعون من الشعب الجزائري بسياراتهم حيث نقل إلى شلف رفقة زملائه وتكفل أهل شلف بإيوائهم ليلتها وإطعامهم وفي الغد تم نقلهم إلى مدينة غليزان حيث تكفل بهم أهل غليزان من طعام وإيواء وتكريم ومبيت ومن حملوا إلى مدينة وهران وبالضبط عند مدرسة الفلاح التي اجتمع عندها كل المساجين الوهرانيين الذين أفرج عنهم من السجون الفرنسية بالجزائر وبدأت عملية تسليم المساجين لأهاليهم ولم يتركوا بمفردهم خوفا على حياتهم من انتقام منظمة الجيش السري، وبعدها تم إدماجهم في سلك النظام كأفراد شرطة لما لهم من خبرة سابقة في الشبكات الحضرية، وتم تنظيم احتفال يوم 03 جويلية جرت بأحسن حال، حصام قويدر، المصدر السابق.
- 36- قبيل التوقيع على وقف إطلاق النار أصدر صالان بيانا من 6 صفحات قال فيه: "إن الحدث المحتوم على وشك الوقوع.. ويتعين علينا الأيام القليلة التي تفصلنا عن وقف القتال لندرس الوضعية وردود الفعل التي سنتخذها.. أريد أن نسيطر بقدر المستطاع على الأحداث، أريد أن أتسبب فيها وليس تحملها.. أرفض مسبقا طل فكرة دفاعية.. ونظرا لأن وقف إطلاق النار أمر محتوم كان تاريخه سيكون مرحلة جديدة من نشاطاتنا"، ينظر حمزة شعابنية، المرجع السابق ص 78، ينظر أيضا: جعفر بن صالح، المرجع السابق
- 37- Georges Fleury, Histoire Secrète De L'o. a. s, Huitième partie LA GUERRE TOTALE- 64 –Oran, ville O.A.S. Éditions Grasset & Fas quelle, 2002, p723.
- 38- Katz Joseph, op-cit. P22
- 39- براهيمية مسعودة، جريدة الشعب، يوم السبت 03-03-2018م، نقلا عن المجاهد قدور الناير، اطلع عليه بتاريخ 15-09-2019، على الساعة 23:17 ينظر الرابط: <http://www.ech-chaab.com/ar/item/88379-صفحات-خاصة-التاريخ-المجاهد-الناير-قدور-ل-الشعب> - مجازر - "الطحطاحة" - تؤرخ - لإحدى - أبشع - مجازر - الاستعمار - في - الجزائر /html/محمد بن عبودة ص 211.
- 40- صادق بن قادة، المصدر السابق/حمزة شعابنية، المرجع السابق، ص87/بليوري سيد أحمد، المصدر السابق.
- 41- عامر رخيعة، من توقيع اتفاقيات إيفيان الى استفتاء تقرير المصير، مجلة أول نوفمبر، العدد 186، جمادى الثاني 1440هـ/فيفري 2019، ركن دراسات وبحوث، ص 11. نشرت صفحاته بتاريخ 06 مارس 2019 على صفحة مجلة أول نوفمبر بموقع فيس بوك، اطلع عليه بتاريخ 05 فيفري 2020، على الساعة 23:49. على الرابط: https://www.facebook.com/permalink.php?story_fbid=2292344541087998&id=100009374240811
- 42- صفحة ذاكرة الجزائر، نشر بتاريخ 07-11-2017، الساعة 04:33، اطلع عليه بتاريخ 15-09-2019، 22:12، الرابط: https://m.facebook.com/story.php?story_fbid=530433997309694&id=243482619338168
- 43- جان جاك سوزيني مناضل يميني متطرف، ولد بالجزائر العاصمة سنة 1933، شغل منصب رئيس الجمعية العامة للطلبة الجزائريين، فر إلى إسبانيا بعد إخفاق انقلاب الجنرالات الفرنسيين على الجنرال ديغول سنة 1961، وهناك أسس رفقة الجنرال راؤول سالون وبيار لانغايارد وجوزيف أورتيث منظمة الجيش السري، فحكم عليه بالإعدام، لكن الجنرال ديغول قرر العفو عنه سنة 1968، ينظر: حميد عبد القادر، تصريح مثير لجان جاك سوزيني "الدولة الفرنسية تعاونت مع منظمة الجيش السري"، أدلى به سوزيني في حوار مع الصحفي الفرنسي برتران لوجوندر الذي أصدره في شكل كتاب ونشرت مجلة "لوبوان" الفرنسية بعض صفحاته، في عام 2008، قال إنه "نادم على عملية اغتيال الروائي مولود فرعون، واعتبر ذلك بالخطأ الجسيم" ونشر مقال حول الموضوع في جريدة الخبر يوم 17-03-2012، اطلع عليه بتاريخ 15-09-2019م على الساعة 10:15، ينظر الرابط: <https://www.djazairiss.com/elkhabar/283635?fbclid>

- 44- حميد عبد القادر، نفس المرجع----45- منشورات متحف المجاهد ولاية عين تموشنت على صفحة الفيسبوك- الرابط: https://m.facebook.com/story.php?story_fbid=998505063674587&id=343587845832982
- ينظر أيضا: جعفر بن صالح، المرجع السابق----46- مراد هوفمان مفكر إسلامي ولد 1931، شغل منصب سفير ألمانيا بالجزائر 1987 - 1990م، دخل الإسلام بعد تعرضه لحادث سير، تأثر بالثورة الجزائرية ضد الفرنسيين واعتبرها سببا لإسلامه، جريدة الجمهورية، 08 ماي 2019، العدد 6787، ص12----47- أحمد مراد، مراد هوفمان.. أسلم متأثراً بسائق جزائري، جريدة الإتحد، القاهرة، نشر بتاريخ: 1 يوليو 2016 الساعة 22:44 اطلع عليه بتاريخ 01 ديسمبر 2019م الساعة 12:57، الرابط: <https://www.alitihad.ae/articleamp/29340/20165>
- 48- حسين آيت أحمد، روح الاستقلال مذكرات مكافح 1942-1952، ترجمة: سعيد جعفر، منشورات البرزخ، 2002م، ص 176، هامش رقم 1/ حمزة شعابنية، المرجع السابق، ص. ص 83-93.
- 49- <http://www.micheldandelot1.com/le-general-salan-a-institue> ... https://fr.m.wikipedia.org/wiki/Edmond_Jouhaud---50- http://www.micheldandelot1.com/le-general-salan-a-institue...-https://fr.m.wikipedia.org/wiki/Edmond_Jouhaud
- 51- Amandine Letizia, Juin 1962 Le Port D'Oran En Feu -Petite Fille De Claude Ravier D'Oran-, Documents Transmis Ce Jour Le 11 Décembre 2010. <http://popodoran.canalblog.com/archiv.../.../06/25/12141482.html>
- 52- R.A, Hier Apres-Midi A Oran Une Voiture Piegee Explose Au Centre De La Ville Nouvelle Bilan: 25 Mots, Et 32 Blesses, Echo D'oran, Jeudi 1er Mars 1962, N° 35345, P7.
- العدد موجود ضمن اللعبة الأرشيفية المخصصة لشهر مارس 1962م بالمكتبة البلدية المحاذية للمتحف الوطني أحمد زبانة، تم الاطلاع عليها بتاريخ 2019-11-24م.

أماكن الذاكرة بالمغرب: مراكز الاعتقال التعسفي بجهة درعة-
تافيلالت نموذجاً

**Memory Locations in Morocco: the arbitrary
detention centers in Daraa-Tafilalet region as a model**

اسم ولقب المؤلف المرسل: عبد المجيد الهلالي- Hilali Abdelmadjid صص 359-372
الدرجة والعنوان المهني: دكتوراه في التاريخ الراهن- جامعة محمد الخامس- الرباط- المملكة المغربية.
البريد الإلكتروني: hamidhilali2002@hotmail.com

تاريخ استقبال المقال: 2019/12/15 تاريخ المراجعة: 2020/04/01 تاريخ القبول: 2020/04/15

الملخص بالعربية: إن الحديث عن مغرب ما بعد الاستقلال حديث عن الصراعات والمواجهات السياسية والاجتماعية التي ميزت العقود الثلاثة التي تلت الاستقلال، فيما أصبح يعرف بعدها بسنوات الجمر والرصاص، وهذا ما يجرنا إلى الحديث عن أماكن الذاكرة التي نشأت بتزامن مع ما ميزت تلك الفترة من احتقان اجتماعي وسياسي. يهدف المقال المعنون بـ"أماكن الذاكرة بالمغرب، مراكز الاعتقال التعسفي بجهة درعة تافيلالت نموذجاً"، إلى إبراز العلاقة التي تربط الذاكرة الجماعية بالأمكنة التي تتخذ في بعض الأحيان أبعاداً رمزية تتجاوز بكثير ما هو مادي فيزيائي، وبخاصة حينما يجر المكان معه حمولة تاريخية مأساوية؛ كالتى خلفتها مراكز الاعتقال التعسفي خلال سنوات الرصاص التي عاشها المغرب بعد الاستقلال (1961-1999)، ومعلوم أن هذه المراكز أصبحت مع بداية فترة الانفراج السياسي ملازمة لذاكرة مغاربة ما بعد الاستقلال. يركز المقال في معظم محاوره على أماكن الذاكرة بجهة درعة تافيلالت باعتبارها الجهة التي نالت النصيب الأكبر من مراكز الاعتقال التعسفي بتاريخ المغرب الراهن؛ مثل معتقل أكدز وتاكونيت وتازممارت ومركز الاعتقال قرب سد المنصور الذهبي، فضلاً على معتقل قلعة مكونة...، وقد تمّ تخصيص الجزء الأخير من المقال للنش في الذاكرة الجماعية لسكان مدينة قلعة مكونة حول المعتقل الذي كان يوجد بمنطقتهم، وذلك اعتماداً على مجموعة من الشهادات التي استقينها من داخل مدينة الورد.

الكلمات المفتاحية: التاريخ الراهن- أماكن الذاكرة- الذاكرة الجماعية- مراكز الاعتقال التعسفي- ذاكرة السجين- المجتمع المدني- السجون السرية- سنوات الرصاص- ذاكرة المكان- المعتقل.

Abstract: *This article, which is entitled as "Memory places in Morocco, Arbitrary detention centres in Drâa-Tafilalet region as a case study", aims at showing the relationship that links collective memory to places. This relationship sometimes takes symbolic dimensions that exceed enormously the material physical place; especially when this place evokes a tragic historical load like the one arbitrary detention centres left behind during the Years-of-lead, which Morocco witnessed after independence (1961-1999).*

In this respect; the article, in most of its parts, focuses on memory places in Drâa-Tafilalet region as this region got the biggest share of arbitrary detention centres in Moroccan contemporary history. These arbitrary detention centres were Agdz, Tagounite, Tazmamart and Kalaat M'Gouna. The last part of the article is left for 'digging' into the collective memory of Kalaat M'Gouna's people concerning the detention centre used to be in the area, relying on a collection of testimonies drawn from inside the town of roses.

Keywords: Memory places- collective memory- Arbitrary detention centers- Years-of-lead- The prisoner's memory- Civil society- Secret prisons- The detainee.

تقديم: تقترن الذاكرة الجماعية لبلد أو لشعب ما بما تناقلته أجياله من وقائع تاريخية بصمت تاريخه الراهن أو القريب، تلك الذاكرة المشتركة التي لا يقتصر اشتغالها على أحداث بعينها، بل يتعداه إلى الأماكن والفضاءات التي جرت فيها، وحيث يستحيل الحديث عن فعل اجتماعي تاريخي دون العودة إلى زمن وقوعه، تلك العودة تحيل على المكان أو الفضاء الذي جرى فيه الحدث، والذي يشكل حلقة الوصل بين وقائع الماضي وبين حاضر الذاكرة الجماعية لمجموعة أو مجتمع ما؛ فغالباً ما يتولد على ارتياد أماكن وفضاءات معينة صبرورة استرجاع واسترداد الماضي، تعمل وفقها الذاكرة الجماعية.

وكثيراً ما يلفت انتباه الباحث في الذاكرة الجماعية لمجموعة إنسانية معينة، توقفها على أماكن دون غيرها، اكتسبت مع توالي السنوات صبغة تاريخية، تحولت على إثرها من إطارات فيزيائية جافة ومجردة، إلى فضاءات رمزية تحمل بين طياتها هوية تاريخية، تترسخ معالمها عبر الزمن في ذاكرة الأفراد والجماعات؛ فالساحات والشوارع والأزقة ومنازل المناضلين وغيرها، تتحول إلى فضاءات ومواقع تاريخية، بمجرد ما تطبع في

الذاكرة الجماعية عن طريق الأحداث التاريخية؛ فتصبح بهذا المعنى جزءاً لا يتجزأ من تلك الذاكرة، وهو ما يصطلح عليه بـ"أماكن الذاكرة" (Les lieux de mémoire). من هنا فإن الحياة الجماعية للشعوب والامم تزخر بوقائع تاريخية طبعت مسارات تحولها وتطورها؛ فالانتصارات والانتكاسات والانتفاضات والصراعات الاجتماعية والسياسية وغيرها تصبح المادة الخام للذاكرة الاجتماعية، والذاكرة الاجتماعية بالمغرب لا زالت هي الأخرى تحتفظ على العديد من الوقائع التاريخية التي كانت عدداً من المواقع مسرحاً لها، إلى الحد الذي أصبح معه تلك المواقع أماكن للذاكرة، وحيث إن الحديث عن مغرب بعيد الاستقلال حديث عن الصراعات والمواجهات السياسية والاجتماعية التي ميزت العقود الثلاثة التي تلت الاستقلال، فيما أصبح يعرف بعدها بسنوات الجمر والرصاص؛ فإن ذلك يجرنا إلى الحديث عن أماكن الذاكرة التي نشأت بتزامن مع ما يميز تلك الفترة من احتقان اجتماعي وسياسي، وهنا يتعلق الأمر بمراكز الاعتقال التعسفي التي ستصبح مع بداية فترة الانفراج السياسي ملازمة لذاكرة مغاربة ما بعد الاستقلال.

سنركز في هذا المقال على أماكن الذاكرة بجهة درعة تافيلالت باعتبارها الجهة التي نالت النصيب الأكبر لمراكز الاعتقال التعسفي بتاريخ المغرب الراهن، محاولين تسليط الضوء أكثر على مركز الاعتقال بقلعة مكونة، واستجلاء الذاكرة الجماعية لسكان المنطقة حول هذا المعتقل، اعتماداً على شهادات مختلفة استقيناهما من عين المكان.

1- أماكن الذاكرة... جدلية المجتمع والمجال:

1-1 البعد الرمزي للمكان: إن الفضاء الفيزيائي يكتسي أهمية بالغة في تحديد الروابط التي تميز الفعل الاجتماعي لمجموعة إنسانية اقتسم أفرادها- في زمن ما- أجزاءً من ذاكرة الفضاء، بهذا المعنى يتحول المكان من فضاء فيزيائي مجرد إلى مجال يحمل بين أرجائه ثقافة تميزه عن غيره من الفضاءات الأخرى، وتبعاً لذلك تتسرب الثقافة داخل الفضاء لتسبغه بهوية تميز الأفراد والجماعات، تلك الهوية التي تراكمت مع توالي الأحداث التاريخية وعبر تواتر الزمن، وفي هذا الصدد يقول "جيروم موني": إن الفضاءات تكتسي بعداً رمزياً، إذ تحمل أشياء أخرى ودلالات اجتماعية إلى جانب كونها مادية¹، وعلى

العموم فالبعد الرمزي للمكان يسهم في تحديد الهوية، وبالتالي يمكن أن يؤثر في تشكيل المجموعة البشرية.

وحيث يستحيل تشكيل علاقات اجتماعية إلا داخل فضاء يحتويها كما كان يرى هالفاكس²، وبالمثل فإن أي فضاء لن يصير مجالاً رمزياً إلا من خلال فعل اجتماعي يصاغ بين أركانه، فعل اجتماعي لا يشكل استرجاعه عبر الزمن إلا هوية تقتسمها المجموعة فيما بينها، وثقافة تعبر عن فاعليتها وكينونتها، إذن يظهر المشهد أو المجال الجغرافي كنظام ذي دلالة، يُظهر القيم التي من خلالها ينظم مجتمع ما يمكن قراءته كنصوص³ توضح معتقدات الجماعات وموروثها المشترك، ويرتقي المكان على إثر ذلك، وعبر الذاكرة الجماعية من مجرد مكان صامت جاف إلى وعاء يفيض رموزاً.

2-1 الانتاج الرسمي لرمزية المكان: في جميع أنحاء العالم، تكرر الحكومات والمؤسسات التابعة لها حصة من سلطتها وصلاحياتها لتبرئ الفضاءات الرمزية، التي تتمثل مهمتها الأساسية في تحديد وإنشاء المجموعة التي من شأنها أن تضيء الشرعية على السلطات والمؤسسات، في هذا الصدد يؤكد جيروم موني أنه في القرن التاسع تعاضد الاهتمام بالإننتاج المتسارع لرمزية المواطن من خلال البنائيات والمعالم التي ترفع وتحيل على قيم المواطنة والمسؤولية الاجتماعية المتجسدة في تماثيل ورموز مثل العدالة والحرية والاستقلال أو الأبطال، وقد أخذ تدخل تلك الحكومات في إنتاج الفضاءات الرمزية على ثلاثة مستويات:

- إنشاء مدن جديدة.

- تعريف مساحات عامة لاسيما من خلال الساحات والشوارع الكبرى.

- إقامة وتشييد المباني الكبيرة والضخمة والقصور والكنائس⁴.

هكذا فإن إنتاج الفضاءات الاجتماعية هو استمرار لرهان الدولة في تحصين تاريخها الرسمي، من خلال توظيف التاريخ والذاكرة لأغراض سياسية، لأنها تشكل تلك الذاكرة الرسمية التي تجتهد الدولة في ترويجها داخل الفضاء العام الذي تتجاذبه ذكارات متعددة، تسعى كل واحدة منها للارتقاء داخل سوق التبادلات الرمزية، وحيث إنه في الحالة المغربية يظل الحديث عن تنافس الذاكرة متعذراً، بحيث نجد تهميش ذكارات وطمس أخرى، مقابل ترويج أخرى، وبالتالي فعبر ما يسميه لويس ألتوسير بالجهاز

الإيديولوجي، يتم نشر ذاكرة رسمية للمكان من خلال المؤسسات التعليمية ووسائل الإعلام، وتبعاً لذلك تطرح تسمية بعض الفضاءات العمومية جداولاً واسعاً بين مختلف الفاعلين: دولة ومجتمعاً مدنياً وأحزاباً سياسية، ومرد ذلك ما قد يطرحه قرار تسمية فضاء ما من حساسيات مجتمعية بين الأطراف، بخاصة إذا علمنا أن ما يمكن طرحه من اقتراحات لن تكون سوى رموزاً تاريخية لهذا الفاعل أو ذاك، صحيح أن الدولة مالكة وسائل الإكراه تفرض ذاكرتها الرسمية في تدبير الفضاءات الرمزية، والدليل على ذلك إطلاق تسميات على شوارع ومؤسسات ومساجد وأحياء وملاعب رياضية، وبشكل هرمي يتناسب مع أيديولوجيتها، بمعنى آخر فإننا لا يمكن أن نجد اسم شارع تعبره آلاف السيارات قد سمي باسم لا يعكس صورة الدولة الرمزية، ويكرس شرعيتها التاريخية.

3-1 أماكن الذاكرة ورهانات المجتمع المدني: لما كانت الذاكرة مرجعية أساسية للماضي وفهم واقعه وحيثياته⁵؛ فإن التحدي الذي تطرحه يرتبط بشكل أساسي بمسألة استثمار الماضي من طرف ذاكرات متنافسة ومتضاربة ذات طابع إنساني⁶، بشكل يصبح الماضي يكتسح الحاضر على حد تعبير هيلان والنبورن (Hélène Wallenborn)، على اعتبار أن الذاكرة رؤية تربط الماضي بالحاضر، كما يذهب إلى ذلك بول ريكور (Paul Ricœur)، وتبعاً لذلك قد لا تنفصل عن حاضرها بحيث تمارس عليه فعلاً انتقائياً أثناء استعادته، لسبب أنها توجد تحت وصاية سياسية أو دينية⁷، توجهها وتضيق حدود مصداقيتها بشكل يزعم الكتابة التاريخية الساعية إلى فرز الذاتي عن الموضوعي، والسياسي عن التاريخي، وهو ما يفرض على المؤرخ التمكن من مستلزمات البحث الحذر خلال مخاطبة الذاكرة، وتجميع شذراتها؛ فهي ليست ديمومة بل إنها شذرات⁸ ممن عاينوا الحدث أو عاشوه.

وإذا كان التاريخ ليس حكراً على المؤرخين؛ فقد ظهر الزجّ بالماضي بوقائعه وصوره ورموزه في حاضر الأفراد والجماعات، وتجاوز الأمر ذلك إلى توظيفه خدمة لقضايا مختلفة برزت خلالها الذاكرة كحقل يشهد في السنين الأخيرة تعاظم دور المجتمع المدني، الذي أصبح أحياناً يزاحم المؤرخين في مقارنة الماضي والكشف عن حقائقه، في نفس المجال؛ فالمجتمع المدني أصبح هو الآخر يطالب بمساحة أكبر في تدبير "الماضي ويصر على الإسهام في كتابته وإعادة كتابته، وتبعاً لذلك تراهن التنظيمات الجموعية على الإدلاء

بدلوها في مجال تدبير الفضاءات العمومية، وبخاصة تلك التي تشكل مجالات تسبح فيها الذاكرة الجماعية للمجتمع المدني، وصور ذلك التاريخ الذي أسهم هذا الأخير في تشكيله. ففي المغرب مثلاً، أصبحت جمعيات المجتمع المدني ("جمعية 20 يونيو 1981" مثلاً) تلح على ضرورة إشراكها في مشاريع حفظ الذاكرة، وضمان عدم تكرار انتهاكات حقوق الانسان (التي أعقبت أحداث 20 يونيو بالدار البيضاء)، أما محلياً فيبرز دور عدد من الجمعيات التي ظهرت في السنوات الأخيرة، ونذكر من بينها جمعية "آمال دادس" التي تنظم عدة لقاءات وندوات حول تاريخ المنطقة⁹، كان من بينها ندوة تحت عنوان "جبر الضرر الجماعي وآفاق التنمية المحلية" سنة 2011؛ تطرق فيها المشاركون إلى إشكالية التنمية المحلية التي عانت من "التهميش" نتيجة ارتباط تاريخها الراهن بالمعتقل الذي يؤثر على حاضر المنطقة، وقد برزت دعوات فعاليات محلية لتحويل المعتقل/الذاكرة إلى مركز ثقافي تحفظ المنطقة من خلالها ذاكرتها الجماعية.

2- أماكن الذاكرة في المغرب ما بعد الاستقلال... مراكز الاعتقال نموذجاً:

1-2 أماكن الذاكرة في المغرب، محاولة للتحديد: يتعذر على كل متفائل الإحاطة بأماكن الذاكرة الجماعية سواءً بالمغرب أو غيره من بقاع العالم، ليس لأنها تتسم بتعددتها وتنوعها عبر الزمان والمكان فحسب، بل لأن أماكن الذاكرة نفسها لا تحمل نفس الدلالة التاريخية والرمزية المجتمعية، دون إسباغها بتلك المعاني المشتركة التي تشكل الصورة المحددة اجتماعياً، وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على إشكالية تأطير أماكن الذاكرة، وهو ما يفرز مجالاً واحداً يجسده الوطن، ولكن يتسم بتعدد أماكن الذاكرة وتنوعها، وتبعاً لذلك فعملية إنتاج أماكن الذاكرة بين صفوف الفاعلين الاجتماعيين يعكس بشكل أو بآخر اختلافاتهم ورهاناتهم وخصوصية كل واحد منهم؛ فقد تكون الساحة أو الشارع أو السوق أو مقر الحزب... أماكن ذاكرة عند فعاليات المجتمع المدني أو عند فئة مهنية أو سياسية، وقد لا تحمل أية دلالة عند السلطة أو فاعلين آخرين داخل الفضاء العام.

2-2 مراكز الاعتقال التعسفي بجهة درعة- تافيلالت:

أ- معتقل أكذز: بدأ العمل بمركز الاعتقال بأكذز منذ يناير 1976، وهو التاريخ الذي يوافق نقل المجموعة المعتقلة إليه على إثر أحداث مارس 1973 إلى غاية 1982،

والمعتقل- الذي هو عبارة عن قصر من قصور الباشا الكلاوي- شُيد على شكل قصبية يحيط بها سور وأبراج عالية، ويقع وسط واحة في بلدة أكدز.

وقد ضم المعتقل المجموعات التالية¹⁰:

- مجموعة معتقلي أحداث مارس 1973 الذين نقلوا إليه من مركز الاحتجاز بتاكونيت في شهر يناير 1976، باستثناء موحا أولهاوس وزايد ألعبود اللذين توفيا أثناء فترة احتجازهم بتاكونيت، وقد استمر احتجازهم إلى غاية غشت 1977، توفي منهم خلال فترة الاحتجاز خمسة أشخاص.

- مجموعة المعتقلين الصحراويين الذين نقلوا إليه في فبراير 1976، وبلغ عددهم 110 أشخاص، كما ضم المعتقل أيضاً ست نساء محتجزات.

- مجموعة بنوهاشم: وتتكون من خمسة تلاميذ على رأسهم عبد الناصر بنوهاشم، وعبد الرحمان قونسي، ومحمد الرحوي (المعروف بالصحراوي)، ومولاي ادريس الحريزي، ومحمد نصراني، وقد نقل هؤلاء التلاميذ إلى المركز في 5 غشت 1977، وبعد أن قضاوا مدة في الجناح الخاص بالمحتجزين المنحدرين من الأقاليم الجنوبية، تم إلحاقهم بمجموعة أحداث 1973 م¹¹.

ب- معتقل تاكونيت¹²: في أقصى الجنوب الشرقي، تمتد بلدة تاكونيت المعروفة بقساوة طبيعتها؛ المتمثلة في ارتفاع درجة الحرارة صيفاً، وانخفاضها الشديد شتاءً، وهذا المركز هو الآخر في الأصل دار للكلاوي، استعمله الجيش الفرنسي وجيش التحرير ثم الجيش الملكي خلال حرب الرمال، ضمّ المعتقل مجموعة الدار البيضاء التي بلغ عددها 215 شخصاً، اعتقلوا ما بين دجنبر 1971 إلى بداية مارس 1972، إبان احتضان المغرب لقمة المؤتمر الإسلامي، دامت مدة استغلال المعتقل ما يناهز 28 شهراً، بالإضافة إلى مجموعة ثانية تتكون من 14 شخصاً: 13 رجلاً وامرأة واحدة؛ تم احتجازهم في أحداث مارس 1973، وتضم فاطمة أحرفو وعرجاوي موحى وزايد جلوق وأيت زايد موحى...، تمّ احتجازهم بمدن الرشيدية وكلميمة وتغير... ما بين ماي 1974 ويناير 1976، تاريخ نقلهم إلى أكدز.

تضم الزوايا الأربعة لمعتقل تاكونيت- الذي بني على شكل مربع- برجاً للمراقبة تتوزع بينها الطرق الرئيسية، وتتجلى خصوصية المعتقل في أنه كان يضم حجرات صغيرة

تحت أرضية، كانت تستعمل أيضاً لأجل الاحتجاز والطبخ؛ حيث يلاحظ أن إحدى الحجرات يعلو سقفها السواد، وتوجد خلفها قاعة صغيرة مساحتها 22 متر مربع، بها كتابات على الجدران تؤشر على كونها كانت تأوي معتقلين، وربما كانت تستعمل للعقاب والعزل.

يتكون المعتقل من جناحين؛ الأول وهو عبارة عن بناية محاذية للمعتقل الرئيسي، أصغر وأقل جودة من حيث مواد وطريقة البناء، حالتها جد متردية، هذا الجناح الخلفي يتم اللوج إليه من باب صغير يوجد عند نهاية جدار المركز من الجهة اليسرى، ويتكون هذا الجناح أيضاً من فناء صغير وقاعات صغيرة في إحدى زواياها ممر ضيق (باب) لا يمكن دخوله إلا في وضعية القرفصاء، يؤدي إلى غرفة صغيرة لا تتجاوز مساحتها مترين مربعين، في جدارها أربعة ثقب كبيرة من الجانبين، أما الجناح الثاني فيتم ولوجه من مدخل صغير عبارة عن ثقب في الجدار يحتوي غرفاً صغيرة، قد تكون استعملت لأغراض عزل المعتقلين، أو لإقامة بعض الحراس، ويوجد الجناح الثالث داخل سور مستقل يتم اللوج إليه من ساحة المعتقل المقابل لباب الجناح الثاني، وتوجد به بئران يستعملها السكان، أقيمت به بناية تحت أرضية تقريباً، تبدو حديثة نسبياً بالقياس إلى الأجنحة.

ج- مركز الاحتجاز بكرامة: يوجد هذا المركز ببلدة كرامة بإقليم ميدلت، وقد احتجز فيه ثلاثة معتقلين صحراويين ينتمون إلى الأقاليم الجنوبية، وهم الدايم فضيلي سيدي أحمد وخلوق محمد السالم ونفعي برديسي، والذين فور وصولهم في 21 يناير 1988 تم وضعهم في مكان منعزل في القيادة عن المكاتب الإدارية، قبل أن يتم بناء زنازين انفرادية لتوزيعهم عليها¹³.

قيادة كرامة التي توجد عند المدخل الرئيسي للمدينة، تتكون من جناحين مستقلين؛ يضم الجناح الأول المدخل الرئيسي للقيادة والمكاتب الإدارية، أما الجناح الثاني الذي يوجد فيه مركز الاعتقال فيقع خلف الجناح الأول، ويضم بنايات مهترئة يستعمل جزء منها لتجميع أدوات الحفر وحمل التراب، ويوجد بجوار أحد أبراج مقر سكني القائد، وقد تم وضع المحتجزين في غرفة طولها أربعة أمتار ونصف، وعرضها متر و80 سنتمتراً وعلوها متران ونصف، قبل أن تبني زنازين انفرادية تأوي المعتقلين الثلاثة،

يبلغ طول كل واحدة منها مترين و30 سنتمترًا وعرضها متر و17 سنتمترًا وعلوها مترين و44 سنتمترًا.

د- مركز الاعتقال قرب سد المنصور الذهبي: بإقليم ورزازات، وبالضبط بمركز الحراسة سد المنصور الذهبي، تم تخصيص جزء منه لاحتجاز ثلاثة معتقلين وهم: محمد بن أحمد عيان المراكشي، الذي توفي فيه ودفنه الحارس المكلف بمكان مجاور للسد، ومحمد الهلول علي بن عمر، وشخص يدعى "العلوي"، ويوجد هذا المركز في البناية المخصصة للحراس، ويتكون من أربع زنازين ضيقة ومرفق صحي.

ه- معتقل تازمامارت: حول هذا المعتقل سال مداد كثير من الأعلام الأدبية والتاريخية والصحفية الوطنية والدولية¹⁴، ولإزال وقع هذا الاسم كبير جداً في الذاكرة الجماعية محلياً ووطنياً، نظراً لما تميز به المعتقل من صور مليئة بالأهوال والفظائع والرعب والرهبية.

بالقرب من قصر تازمامارت- وهو قرية توجد بين ميدلت والرشيديّة على بعد 20 كلم من مدينة الريش في اتجاه "كرامة"- يقع هذا المعتقل الجهني¹⁵ داخل الثكنة التي كان الجيش الفرنسي قد شيدها بذلك الموقع، عززها "مغاربة الاستقلال" ببنائات خصصت أساساً لاحتجاز العسكريين المحاكمين في إطار المحاولتين الانقلابيتين: الصخيرات في 10 يوليوز 1971، والقنيطرة في 16 غشت 1972 وعدددهم 58 محتجزاً، واثنين آخرين مجهولي المصير، وقد استعمل لأغراض الاحتجاز ما بين 8 غشت 1973، و15 شتنبر 1991.

نجا من المعتقل الرهيب فقط 28 شخص، وتوفي 32 آخرين لأسباب مختلفة، ودفن أغلبهم بجانب السور، وكان الحراس يضعون فوق جثمانهم قطعة من صفيح الزنك تغطي بفرشة من الإسمنت قبل ردمها بالتراب بطريقة لا تترك أية معالم خارجية للقبور.

1- المعتقل السري بقلعة مكونة...التجربة السجنية والذاكرة الجماعية:

1-3 لمحة تاريخية عن المعتقل السري بقلعة مكونة: من ثكنة عسكرية صغيرة تنتصب على مرتفع مطل على قلعة مكونة، سيتم تحويلها إلى مركز اعتقال ابتداءً من سنة 1982؛ فالمركز المحاط بأسوار، شيد حسب الطريقة المتبعة محلياً في البناء، وبنيت بداخله ثلاثة

أجنحة، ستضاف إليها لاحقاً خمسة أخرى، هكذا بني الجناحان الرابع والخامس سنة 1982، وأضيف الجناح السادس سنة 1989، أما السابع ففي 1990، وأضيف أخيراً الجناح الثامن سنة 1992، وكل الأجنحة السابقة لا تتوفر إلا على مرحاض واحد، وصنوبر ماء واحد، وقد أشار تقرير هيئة الإنصاف والمصالحة إلى أن هذا المركز استعمل لأغراض الاحتجاز والسجن منذ 23 أكتوبر 1980، وهو التاريخ الذي يحيل على عملية ترحيل المعتقلين المحتجزين بأكدز إليه، وقد تم إغلاق المعتقل بعد الإفراج عمّن بقي من المعتقلين على قيد الحياة بتاريخ 12 يونيو 1991، وحسب شهادة أحد المسؤولين الإداريين السابقين فقد بدأت السلطات في استغلال المعتقل بعد العملية السابقة، والتي استعملت فيها شاحنات محروسة من طرف الدرك الملكي، ويرجع أن السلطات لجأت إلى ذلك بعد تسرب أخبار عن وجود أشخاص معتقلين بمركز أكدز، ويشير تقرير هيئة الإنصاف والمصالحة إلى أن الاحتجاز تم في زنازين جماعية وانفرادية مبنية من الطين مغطاة بالقصب والتراب، ولا ينفذ إليها الهواء إلا عند فتح الأبواب الحديدية، أما الزنازين الانفرادية التي لا تتجاوز مساحتها متراً مربعاً واحداً بدون نافذة أو مرحاض أو ماء؛ فقد كان يلجأ إليها في حالة إنزال العقاب أو التأديب، وهو ما أفقد عدداً من الضحايا لقدراتهم العقلية، فضلاً عن تدهور الحالة الصحية لبعضهم بعد تفشي بعض الأمراض المزمنة من قبيل الربو والروماتيزم وأمراض الجهاز الهضمي والتناسلي والبيولي، مما أدى إلى وفاة ست عشرة ضحية¹⁶.

قضى معظم معتقلي المركز فترة الاحتجاز داخله باستثناء ثلاثة منهم؛ ويتعلق الأمر بمحمد بن عباس المراكشي اللبناني الجنسية والفلسطيني الأصل، ومحمد الهلول علي بن عمر ريان طائرة ليبي، ومغربي يدعى "العلوي" يقال إنه قام بمحاولة خطف طائرة، نقلوا إلى معتقل سد المنصور الذهبي قرب ورزازات، أما بقية المعتقلين- والحديث هنا عن "مجموعة التلاميذ"- فقد أطلق سراح مجموعة منهم بتاريخ 30 دجنبر 1984 والباقي سنة 1991.

وقد خلصت تحقيقات هيئة الإنصاف والمصالحة¹⁷ فيما يخص من قضوا نحبتهم في هذا المعتقل إلى النتائج التالية¹⁸:

الاسم	تاريخ الاعتقال	تاريخ الوفاة
سيدي اجدود الخليفة	احتجز سنة 1975 من خيمته	19 يونيو 1989
يحيى الداوي بن محمد الناجم	اختطف من طانطان نهاية 1975 بعد صلاة الصبح من منزله	23 فبراير 1990
ولد الترفاس أحمد بن اسويلم	اعتقل سنة 1976	28 يناير 1981
محمد بودي بن ابراهيم	اعتقل سنة 1976	13 نونبر 1983
ديديه لحبيب أحمد الحسن	بطانطان في 25 يناير 1976	17 أبريل 1986
بولسان السالك ولد عبد الصمد	اختطف من تاوريكت قرب طرفاية	27 ماي 1983
اسليلك السالك	سنة 1976	19 دجنبر 1987
عبد العالي بوسروال بن مجيد	اعتقل سنة 1976	28 مارس 1987
ميلود عبد اللوي	اعتقل على الحدود مع الجزائر	14 يونيو 1986
محمد عدنان	اعتقل في 1976	2 يوليو 1986
الناجم بن أحمد لحسن	اعتقل قرب كلميم في فاتح فبراير 1976	4 فبراير 1987
لمديمغ المحجوب بن لعروصي	اعتقل سنة 1976 بأكادير	18 ماي 1986
الونات محمد الحبيب	احتجز سنة 1976 بطانطان	25 يناير 1988
محمد الناجم بن بيدي	اعتقل سنة 1982	19 يونيو 1986
لكوارا سيداتي	تم الاختطاف سنة 1985	25 ماي 1986

المصدر: التقرير الختامي لهيئة الانصاف والمصالحة.

2-3 معتقل قلعة مكونة في الذاكرة الجماعية المحلية: يتحول المكان، مكان الذاكرة إلى صورة مشوشة، تعثرها صور ناقصة وغير مكتملة أحياناً، ومضطربة أحياناً أخرى، وهو ما يخلف فراغات عدة (des trous) في الذاكرة الجماعية، وهذا الوضع يقودنا إلى طرح التساؤل التالي: هل يتعلق الأمر بنسيان لا إرادي لكل ما يرتبط بالمكان باعتباره سجلاً لوقائع الماضي؟ أم أن الأمر يتعدى ذلك إلى ما يمكن نعتة بحالة تناسي (Amnésie)؟

نصطدم عند شروعا في استنطاق الذاكرة المحلية بجوارٍ من مركز الاعتقال قلعة مكونة بالشذرات القليلة والمتناثرة التي تمدنا بها تلك الذاكرة، إلى الحد الذي يدفعنا إلى القول إن المعتقل حاضر- غائب بين طيات الذاكرة المحلية؛ حاضر مادياً وغائب تاريخياً؛ فهو حاضر كثكنة عسكرية ترمز للسلطة/المخزن، بما يحمله ذلك من دلالات بالنسبة للسكان المحلية من ضرورة الابتعاد عن كل ما له علاقة به، وهو غائب من الطرف

الآخر، غائب تاريخياً، لأننا وحسب مقابلاتنا مع عدد من أفراد مجتمع البحث لا نكاد نلمس وجوداً يذكر للمركز كـ "معتقل" في الذاكرة الجماعية المحلية، إذ أكدت عدد من الافادات أنه "لم يكن هناك علم بكون الثكنة العسكرية كانت مركزاً للاعتقال"، ويضيف المستجوب الأول (58 سنة، مهنته نجار) أنه "تفاجأ عندما شاهد في التلفاز أن "القشلة" كما يسميها الذين يسكنون بجوارها، كانت سجنًا زجّ بعدد من الأشخاص داخلها"، ويضيف مستجوب آخر (50 سنة، سائق سيارة أجرة) "أن السلطات المحلية كانت تمنع منظم عمل سيارات الأجرة (أو ما يعرف بـ"الكورتبي") من رفع صوته عندما يصرخ باتجاهات السفر... حتى لا يتسنى- كما فهم من بعد شيوع أخبار المعتقل- للمعتقلين داخل السجن معرفة المنطقة التي يوجدون فيها"، وهذا ما يفسر ما ذكرناه سابقاً في كون نقل المعتقلين من أكدرز إلى هذا المركز كان قد تم في سرية تامة بعدما اكتشف أمر وجود أشخاص معتقلين بمعتقل أكدرز.

وقد أكد مستجوب ثالث أنه في عدة مرات لا يتردد الجنود العاملین بالمعتقل (الثكنة العسكرية) في النزول إلى الدوار لاستجلاب الماء، وعندها قد تجود عليهم أيادي القرويين ببعض الأطعمة المحلية (اللبن مثلاً)، ويضيف مستجوب آخر (44 سنة، عامل يومي بالسوق المحلي بمدينة قلعة مكونة) أنه يتذكر في صباه "أن الجنود كانوا ينهرون الأطفال ورعاة الغنم الذين قد يقتربون من أسوار الثكنة...، وفي بعض المرات يندفع الجنود أنفسهم إلى إخراج قطعان الماشية التي تتجاوز الحدود المسموح بها، دون أن يقترب أي أحد من المجتمع المحلي.

3-3 معتقل قلعة مكونة في ذاكرة السجنين: إن المتفحص لإنتاجات الذاكرة السجنية في المغرب يلاحظ أن معظمها قد انصبت على مراكز الاحتجاز بتازمامارت¹⁹، ودرّب مولاي الشريف²⁰ وغيرها، مع غياب شبه كلي لأي عمل من هذا الصنف حول معتقل قلعة مكونة، باستثناء شهادات وردت في جرائد أو تقارير إخبارية أو برامج تلفزيونية²¹.

"كان كفن يوجد في إحدى الغرف، يوجد على مرأى من المختطفين... هذا مصيركم، هذا الثوب الذي ستخرجون به من هذا المدفن، يتحدث مولاي إدريس الحريزي أحد معتقلي مركز قلعة مكونة، مولاي إدريس الذي أصبح سائق شاحنة بعد إطلاق سراحه، كما لو أنه أراد أن يعبر عن حبه الشديد للحرية وحقده للحدود والجيران، ويقول في هذا

الصدد: "كنت أكره الحيطان، كان السفر هو وسيلة لإعادة اكتشاف الحياة، من العودة للحياة من جديد لاكتشاف أشياء أخرى غابت عنا في فترة الاختطاف"²²، تلك الفترة التي عانى فيها المعتقلون من ويلات حصص التعذيب اليومي التي كان يتفنز فيها الحراس، إلى الحد الذي دفع محمد النظرائي- أحد المعتقلين- إلى وصف أحد الحراس بـ"الغوريلا"، ويقول: "كان هذا الحارس يدخل ليعطيني الأكل وليضربني، كان هو الاتصال الوحيد بيني وبين العالم، بطبيعة الحال كنت أتمشى هكذا"²³، بشكل قطري "خطوات مستمرة كي لا تتجمد قدمي، الصيف والشتاء والخريف وسنة ونصف... أه البرد... الذي لا يمكن تصوره هنا... (يشير إلى ركن)، كنت أضع وعاء قضاء الحاجة، كانت لي فرصة واحدة كل صباح لأخرج لأقل من دقيقتين لأفرغ الوعاء خارج الزنزانة، وكنت أخرج لأغسل ملابسي مرة في الشهر، مرة خلعت ملابسي قبل الخروج، قلت هذا أفضل لكسب بعض الوقت لأضعها مباشرة في السطل عند الخروج لغسلها، وهكذا أوفر بعض الوقت... خلعت ملابسي... وعندما دخل السجن سألتني: كيف عرفت أن اليوم موعد الغسيل؛ فأجبت أنه أنني كنت أحسب، وهذه الكلمة أثارتته فهو لا يريدني أن أعرف موعد الغسيل، لا يريدني أن أعد الأيام، وقال: "كيف تعد الأيام، ممنوع أن تعد الأيام، وانها لي بالضرب"²⁴، ويضيف عن تجربة الاعتقال "كانوا يعطوننا في كل شهر نصف شفرة حلاقة، وكنت أحلق رأسي بيدي والدماء تسيل على وجهي، فقد أوصلونا إلى مستوى... يعني مثل الحيوانات"²⁵، ويضيف رفيقه عبد الناصر: "كان هناك تعذيب بدون هدف، كان التعذيب من طرف حراس ساديين..."²⁶، وعن التعذيب أيضاً يقول عبد الناصر النظرائي: "ضرب أحد الحراس أحد المختطفين بالمجرفة التي يحمل بها التراب ضربة بجزئها الحديدي؛ فجرح جبهته والعظمة التي تحمي العينين، تعفنت المنطقة من وجهه إلى أن توفي"²⁷.

خاتمة: يستشف مما سبق أن مراكز الاحتجاز تتيح إمكانيات مهمة لدراسة تاريخ المغرب الراهن، على اعتبار أنها تنسج ضمن الذاكرات الجماعية المختلفة التي تمد الباحث في هذه الحقبة بمعطيات مهمة ومتنوعة لا تتيحها صفحات الكتب، أو بما قد يفرج عنه من وثائق رسمية في هذا المجال.

لكن حفظ تلك الذاكرة الجماعية يتطلب استحضار استراتيجيات واضحة المعالم، تتحول فيها مراكز الاعتقال المدروسة إلى أماكن تحتفظ بتلك الذاكرة، وهو ما يتطلب معه الاهتمام بها وترميمها حتى تظل شاهدة على إحدى الفترات الساخنة من تاريخ المغرب الراهن. بذلك يرتب تطور البحث التاريخي الراهن بما قد يدشنه من مواضيع جديدة للدراسة، أو حتى بما قد يبدعه البحث من أدوات وتقنيات مستجدة لتجميع المادة التاريخية، تقوم

بالأساس على الاحتكاك المباشر بموضوع البحث من خلال النزول إلى الميدان و"استنطاق معطياته"، وهو ما يتعزز معه تجديد المنهج التاريخي، وفك قيوده الكلاسيكية الضيقة التي ظل هو الآخر محتجزاً داخلها لفترات طويلة.

الهوامش:

1-Jérôme Monnet, «la symbolique des lieux: pour une géographie des relations entre espace, pouvoir et identité», Cybergeog: European Journal of Geography, Politique, Culture, Représentations, article 56, mis en ligne le 07 avril 1998, modifié le 03 mai 2007. URL: <http://cybergeog.revues.org/5316>. p.3. consulté le 20-04-2017.

2- Maurice Halbwachs, la mémoire collective: un document en version numérique par Mme Lorraine Audy, stagiaire, Et Jean-Marie Tremblay, professeur de sociologie, dans le cadre de la collection: « les classiques des sciences sociales ».

3- مايك كرانغ، الجغرافيا الثقافية، أهمية الجغرافيا في تفسير الظواهر الانسانية، ترجمة سعيد منتاق، عالم المعرفة، العدد 317، يوليو 2005.

4-Jérôme Monnet, «la symbolique des lieux: pour une géographie des relations entre espace, pouvoir et identité », p.7.

5- محمد كنيب، ضمن تقديم كتاب: التاريخ الحاضر ومهام المؤرخ، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم 158، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، الرباط، 2009، ص.11

6- Jacques Le Goff, Histoire et mémoire, Gallimard, Paris, 1988, p.82.

7- صالح شكاك، "من المغرب المعاصر إلى المغرب الراهن، إشكاليات الاستمرارية والتحول"، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم 158، م.س، ص.58-8- إبراهيم بوطالب، "الذاكرة والتاريخ"، مجلة الجمعية المغربية للبحث التاريخي، العدد الأول، 2003، صص 5-26.

9 - منطقة قلعة مكونة وبومالين دادس الواقعة جنوب شرق المغرب-10- التقرير الختامي لهيئة الانصاف والمصالحة، الكتاب الثاني، الحقيقة والمسؤولية عن الانتهاكات، منشورات المجلس الاستشاري لحقوق الانسان، 2005، صص 68-78-11- نفسه، ص.77-12- التقرير الختامي لهيئة الانصاف والمصالحة، صص 65-68-13- نفسه، صص 84-56.

14 - لعبت كريستين السرفاتي (زوجة أبرهام السرفاتي) دوراً أساسياً في التعريف بمعتقل تازمامارت على الصعيد الدولي وخصوصاً في فرنسا منذ أواخر الثمانينيات من القرن الماضي، كما كتب الناجون من المعتقل مجموعة من السير والروايات المستلهمة من يوميات المعاناة داخل الزنازين، ومن أبرزهم أحمد المرزوقي الذي كتب "الزناينة رقم 10"، ومحمد الرايس الذي ألف "من الصخيرات إلى تازمامارت: تذكرة ذهاب وإياب إلى الجحيم"، وكذلك مذكرات الطيار صالح حشاد، كما ألف الطاهر بنجلون رواية بعنوان "تلك العتمة الباهرة" التي استلهم أحداثها من شهادة عزيز بنين، أحد المعتقلين السابقين في معتقل تازمامارت. 15- أحمد المرزوقي، الزناينة رقم 10، الطبعة الأولى، منشورات طارق، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2012، ص.84-16- التقرير الختامي لهيئة الانصاف والمصالحة، مرجع سابق، صص 83-84.

17 - هيئة الإنصاف والمصالحة: هي لجنة تم تنصيبها من طرف الملك محمد السادس في 7 يناير 2004، وذلك من أجل الكشف عن مصير ضحايا الاعتقال التعسفي والاختفاء القسري، أحياء كانوا أم متوفين، إضافة إلى مواصلة تحديد التعويضات للضحايا أو أصحاب الحقوق، والعمل على جبر باقي الأضرار المادية والمعنوية، بما في ذلك تقديم الحلول للمشاكل الصحية والاجتماعية والإدارية. وبعد انتهاء مهام هذه الهيئة تم حلها في دجنبر 2005-18- دفن جميع الضحايا بمقبرة قلعة مكونة-19- كتاب أحمد المرزوقي: تازمامارت، الزناينة رقم 10. ومحمد الرايس: من الصخيرات إلى تازمامارت، تذكرة ذهاب وإياب إلى الجحيم-20- كتاب جواد مديش: درب مولاي الشريف، الغرفة السوداء-21- من قبيل برنامج "يحكى أن" الذي كان يبث على قناة الجزيرة-22- الإفادات المقدمة مأخوذة من برنامج "يحكى أن" لأسعد طه، موقع الجزيرة الإلكتروني www.aljazeera.net. تم الاطلاع بتاريخ: 15-01-2016-23- برنامج "يحكى أن" لأسعد طه، مرجع سابق-24- نفسه-25- نفسه-26- نفسه-27- نفسه.

إكتشاف موريتانيا نوفمبر 2019
Discovering Mauritania November 2019

اسم ولقب المؤلف المرسل: أ.د عبد القادر خليفي- KHELIFI Abdelkader صص373-402

الدرجة والعنوان المهني: أستاذ- جامعة وهران 1 أحمد بن بلة- الجزائر.

البريد الإلكتروني: Khelifi.abd2009@yahoo.fr

تاريخ استقبال المقال: 2019/12/20. تاريخ المراجعة: 2020/04/01. تاريخ القبول: 2019/04/04.

الملخص: يتعرض المقال للرحلة التي قمت بها في شهر نوفمبر من سنة 2019 إلى موريتانيا، وذلك بتتبع تنقلاتي من مكان إلى آخر. أسجل فيه تحركاتي وأذكر المواقع التي زرتها والمدن التي حللت بها؛ فقد زرت مدينتي نواكشوط وروصو، حيث اطلعت على شوارعها وأسواقها، وتحدثت عن نهر السنغال المجاور لروصو، وتحدثت عن المراكز العلمية التي زرتها مثل المعهد الموريتاني للبحث العلمي والمكتبة الوطنية وقسم التاريخ بجامعة نواكشوط، وزرت المعهد العالي للدراسات الإسلامية والمركز الثقافي المغربي والمكتبات الخاصة، وقد استفدت من أرشيف هذه المؤسسات، ومن المصادر والمراجع المحتوية عليها عن طريق التصوير والتلخيص والاقتناء، وتحدثت عن بعض المميزات في موريتانيا اعتمادا على مشاهداتي أو على بعض المراجع المحلية، ومن تصريحات الموريتانيين الذين لقيتهم، وفي مقدمتهم أساتذة قسم التاريخ بجامعة نواكشوط، وقد صادف وجودي بموريتانيا انعقاد مهرجان المدن القديمة الذي تقيمه موريتانيا كل سنة بإحدى المدن القديمة، وقد كانت مدينة شنقيط هي المعنية هذه السنة، وقد انعقد مهرجانها في أسبوع المولد النبوي حين كنت هناك.

ففيما يخص خصوصيات موريتانيا تعرضت لتعدد الأعراق فيها من بيضان وسودان، وتعرضت لظاهرة الطرق الصوفية، وانتشارها ودورها في الثقافة الموريتانية، وانتقلت للحديث عن المحضرات، وهي مدارس التعليم الأصلي، وانتشارها الواسع في البادية، كما لاحظت انتشار ظاهرة شرب الشاي بين الموريتانيين، وعن منتجات موريتانيا تحدثت عن بعض الموارد الهامة كالتمر والحديد والسمك والذهب.

الكلمات المفتاحية: موريتانيا- رحلة- دراسات- جامعة- مخطوطات- الثقافة- الطرق الصوفية- السمك- الصحراء.

Abstract: *The article concerns the trip I made in November 2019 in Mauritania. It keeps track of my movements from one place to another. I recorded my moves and mentioned the sites I have visited and the cities I have analyzed. I visited the cities of Nouakchott and Roseau, where I looked at its streets and markets, and talked about the Senegal River next to Roseau. I talked about the scientific centers I visited such as the Mauritanian scientific Research Institute, the National Library and the History Department of the University of Nouakchott, and I visited the Higher Institute of Islamic Studies and the Moroccan Cultural Center and the private libraries. I benefited from the archives of these institutions and the sources and references they contain through photography, synthesis and acquisition. I mentioned some of the advantages of Mauritania, based on my observations or some local references, and the declarations of the Mauritians I met, in particular the professors of the history department of the University of Nouakchott. My presence in Mauritania coincided with the holding of the festival of ancient cities that Mauritania organizes each year in one of the ancient cities. The city of Chinguetti was selected this year, and its festival took place the week of the Prophet's birthday when I was there. Regarding the peculiarities of Mauritania, it was subjected to the multiplicity of races from Whites and Blacks, and exposed to the phenomenon of Sufi methods, their dissemination and their role in the Mauritanian culture. I also continued to speak about the preparations and the schools of original teaching and their widespread in the countryside. I also noted the prevalence of tea consumption among Mauritians, and with regard to Mauritanian products, I talked about some important resources such as dates, iron, fish and gold.*

Keywords: Mauritania - Travel - Studies - University - Manuscripts - Culture - Religious brotherhoods - Fish - Desert.

مقدمات الرحلة: أصبح موعد توزيع ميزانية التبرعات معروفا لدى موظفي وزارة التعليم العالي والبحث العلمي في الجزائر، التي يستفيد منها مختلف موظفي الوزارة محليا ومركزيا، وفي هذا المجال تم تعليق منشور الإعلان عن افتتاح فترة تقديم ملفات الاستفادة من التبرص القصير المدى للسنة الجارية 2019، وحدد آخر أجل لتقديم الملف بتاريخ شهر أبريل، لكن الجديد هذه السنة- كما علمنا- أن الحصة المالية الخاصة بالتبرص قصير المدى هي أقل مما كانت عليه في السنوات الماضية، وأن علينا الاختيار بين الذهب جميعا، وتقسيم القيمة المالية بيننا، أو تقسيم الأساتذة المستفيدين إلى

مجموعتين، تذهب المجموعة الأولى هذه السنة، وتذهب المجموعة الثانية السنة المقبلة، كي تكون القيمة المالية المحصل عليها معتبرة.¹

اجتمع أساتذة قسم التاريخ تحت رئاسة رئيس القسم السيد بن عمر حمدادو بتاريخ 13 جوان 2019م²، وبعد الانتهاء من التعرض لمختلف نقاط جدول الأعمال، افتتح موضوع التريصات، وبعد شرح ومناقشة هذه القضية أجمع الحاضرون على استفادة الجميع من هذه التريصات، واستبعد التداول بين مجموعتين، وقال الحاضرون كلمة واحدة هي "نَمْشُوا قَاعًا"، استئناسا بالعبارة التي يتداولها الحراك الشعبي³، وبذلك جاءت الحصة المالية بقدر نصف ما كنا نحصل عليه في السنوات الماضية، وتبعاً لذلك تقلصت مدة الإقامة في الخارج من عشرة أيام إلى سبعة أيام باحتساب يومي الذهاب والإياب ضمن هذه الأيام.

كنت قد قررت زيارة موريتانيا هذه السنة؛ فنحن لا نعرف كثيراً عن موريتانيا، وبخاصة وأنا نُدْرَسُ تاريخها ضمن تاريخ البلدان المغربية الحديث والمعاصر، بالإضافة إلى مقياس تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء في العصور الحديثة، والأساتذة يعانون في هذا المجال، كما رغبتُ في زيارة هذا البلد في إطار إتمام مقالاتي حول الرحلات العلمية التي أقوم بها؛ فقد ارتأيت أن أكمل هذا البلد المغربي بعد أن زرت المغرب وتونس، أما ليبيا فإن أوضاعها الأمنية لا تشجع على الزيارة في هذا الوقت⁴.

بحثتُ عن رفيق من أساتذة قسم التاريخ الذي أنتمي إليه لمرافقتي في هذه الرحلة، وعرضت الأمر على ثلاثة أساتذة، كان رد الجميع سلبياً، وتساءلوا عن الغرض من هذا التوجه، بل إن بعض أعضاء اللجنة التي قامت بتوزيع الحصص المالية على الأفراد المستفيدين من التريص احتاروا في أمر توجه أستاذي إلى موريتانيا؛ فقد تعوّد الجميع على الذهاب إلى بلدان تسبقنا تطوراً أو تختلفنا عنا في ظروفها الطبيعية؛ فكيف التوجه إلى بلد موضوع في قائمة البلدان المتخلفة، وهو واقع في أرض الجذب والقفار (الصحراء الكبرى)، تركت أساتذة القسم، واتصلت بأستاذ زميل من جامعة بشار فاستجاب على الفور، ورد إيجابياً بأنه يتشرف بمرافقتي بالسفر إلى موريتانيا، ولكنه لم يحصل على المنحة هذه السنة لظروف خاصة؛ فاستعدت بالله وقررت الذهاب بمفردتي كما فعلت في كثير من الأحيان.

1-إشكالية العنوان: تعودت أن أعنون موضوع الرحلة التي أكتب عنها ب"رحلتي إلى كذا في تاريخ كذا"، ولكنني أعرضت عن هذا العنوان بعد أن شاهدت ما يتميز به البلد الموريتاني من خصوصيات، وما يوجد من اختلاف في بعض نواحي الحياة العامة لهذا البلد مع البلدان المغاربية الأخرى، وتبادر لي تغيير العنوان، وفكرت في عنوان: "مغامرتي إلى موريتانيا"، نظرا لما لقيته من إعراض الزملاء عن مرافقتي من جهة، ولما وجدت عليه بلد موريتانيا من جهة أخرى، وعملا بتيسير الأمور واقترابا من الواقعية، تبين لي أن يكون العنوان كالتالي: "اكتشاف موريتانيا نوفمبر 2019"، لأنني اكتشفت فعلا بلدا مغاربيا مختلفا عن بقية البلدان المغاربية الأخرى في مجالات عديدة.

2- التحضيرات: بعد أن تسلمنا- نحن الأساتذة- وثائق التبرص من إدارة الكلية، عمل كل واحد من الأساتذة على تحضير نفسه لتنفيذ سفره إن عاجلا أو آجلا، ومن أجل الإسراع في الحصول على المنحة المالية بصرف النقد من الدينار إلى العملة الصعبة (اليورو)، يجب تقديم تذكرة السفر ضمن الملف؛ فاتصلت بوكالة الأسفار التي تتعامل معها كليتنا، وهي وكالة "بيشا" الكائن مقرها بجي العقيد لطفي بوهيران، وهناك تعرفت على قيمة التذكرة إلى موريتانيا ذهابا وإيابا، التي تتجاوز خمسين ألف دينار، وبما أن الكلية لم تغط القيمة كلها فقد شاركت بنصف قيمة التذكرة، وللتذكير فقد كنت قد شاركت في تذكرتي الخاصة بتونس سنة 2017 وبالمغرب سنة 2018 بثمانية آلاف دينار جزائري لكل منهما مثل بقية الزملاء، ومن هناك اتجهت إلى البنك، وقدمت الملف كاملا لصرف المبلغ الممنوح من الدينار إلى اليورو (72000 دينار). ذهبت إلى بنك الفلاحة والتنمية الريفية- المخول لهذا الأمر- الواقع بشارع زبانة، لاستخراج تلك القيمة بنقودي الخاصة في انتظار تسليمنا مستحقاتنا من الإدارة التي سيطول انتظارنا لها.

في تلك الأثناء، التقيت بالسيد سعد الله، الإداري المكلف بالإشراف على مسألة التبرصات في كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية، الذي نصحني بالاتصال بأحد أساتذة العلوم الإسلامية الذي قضى تربصا قصير المدى في موريتانيا، كي يفيدني في بعض الأمور التي احتاجها هناك. اتصلت بالأستاذ مولاي محمد هاتفيا واتفقنا على اللقاء في الكلية، وهناك أمدني ببعض المعلومات التي أفادتني كثيرا، ومنها عنوان الفندق الذي كان يقيم به حين كان يُحضر شهادة الدكتوراه سنة 2016، ومنها جرد لبعض الدور

العلمية والتعليمية بنواكشوط، وبأسماء بعض الأساتذة الذين كانت له علاقات جيدة معهم وبهواتفهم؛ كما استعنت ببعض المواقع الإلكترونية لمعرفة ظروف موريتانيا جغرافيا وبشريا، وعن المنشآت العلمية والتعليمية في هذا البلد.

3- الانطلاق نحو موريتانيا: كنت قد اخترت الفترة الممتدة من 9 نوفمبر إلى 16 منه من سنة 2019، ولكن خط الانطلاق لا يكون سوى من الجزائر العاصمة، أي خط الجزائر-نواكشوط، وتبلغ عدد الرحلات بين البلدين ثلاث مرات أسبوعيا؛ فكان لزاما علي الانتقال إلى الجزائر العاصمة بوسيلة نقل معينة، فاخترت النقل الحديدي، وفي الساعة السابعة من مساء يوم 9 نوفمبر كان الانطلاق من المطار الدولي هواري بومدين بالجزائر في اتجاه مدينة نواكشوط العاصمة الموريتانية، وبدل الساعة 19 كان إقلاع الطائرة على الساعة الثامنة وعشر دقائق (20.10)، وبعد ثلاث ساعات من الطيران، كان الوصول على الساعة 11 ليلا (العاشرة ليلا بنواكشوط)، أما درجة الحرارة في نواكشوط فكانت 26 درجة بحسب الإعلان الذي صرحت به مضيئة الطائرة قبيل نصف ساعة من النزول (تركناها 18 درجة بمدينة الجزائر). خرجت من المطار الدولي أم التونسي بنواكشوط، ركبت سيارة أجرة، وطلبت من صاحبها إيصالي إلى فندق الوفاء القريب من مقر قيادة أركان الحرس الوطني بمنطقة موريتل ألوان بوسط نواكشوط.

كانت المسافة طويلة بين المطار والمدينة، وتبلغ حوالي 35 كلم. سلمت للسائق مستحقاته عند الوصول إلى الفندق، وكانت القيمة هي 800 أوقية (يقولون عنها 8000 أوقية بالعملة القديمة)، وقد أظهر لي فاتورة من شركة نقل خاصة مسجل عليها: وصل نقل المطار- اتجاه الراكب 800 أوقية.

دخلت فندق الوفاء وسألت عن غرفة منفردة، فكان الرد إيجابيا، حملت حقيقتي وودعت السائق ودخلت الغرفة 5، أعلمني عامل الفندق أن الغرفة الفارغة لا تحتوي على جهاز تهوية، وأن علي الانتظار حتى الغد كي تفرغ غرفة ثانية تحتوي على جهاز تهوية. كانت الغرفة متوسطة الاتساع تشتمل على جهاز تلفزة وثلاجة صغيرة وعلى حمام ودورة مياه، قبلت بالوضع مؤقتا؛ فأنا في منتصف الليل، ولا بد من قبول العرض.

4- في الطريق إلى مدينة روصو: علمت بعد وصولي إلى نواكشوط أن العطلة الأسبوعية هنا هي يوما السبت والأحد، كما أن يوم الاثنين 11 نوفمبر هو يوم عطلة بمناسبة المولد

النوبي (وصلت أمسية السبت)، ولهذا قررت السفر إلى إحدى المدن الموريتانية خارج نواكشوط ربعا للوقت، وكان قصدي هو مدينة روصو المحاذية لنهر السنغال. كنت أرغب في زيارة مدينة ولاتة أو مدينة شنقيط التاريخيتين أو نوادييو كأهم ميناء في البلد، ولكني وجدت المسافة كبيرة بين نواكشوط وهذه المدن (حوالي 400 كلم، أما ولاتة فأكثر من ذلك بكثير) وأيام إقامتي هنا قصيرة؛ فقررت السفر إلى مدينة روصو جنوبا (200 كلم)، التي تقع على ضفاف نهر السنغال، حيث بان لي أنه لابد للزائر من الاطلاع على هذا النهر الهام في إفريقيا.

اتجهت إلى مفترق طرق مدريد (Carrefour Madrid)، وهو منطلق عدة اتجاهات، يمكن المشي إليه راجلا انطلاقا من فندق الوفاء إذا لم يكن للشخص أمتعة تثقل كاهله، أو بواسطة سيارة أجرة جماعية (50 أوقية)، ومن هذا المكان (مفترق مدريد) يمكن الانطلاق نحو حافلات مدينة روصو عن طريق سيارة أجرة أخرى، كما يمكن الانطلاق منه نحو جامعة نواكشوط العصرية بواسطة الحافلة، وفي الصباح من يوم الأحد 10 نوفمبر 2019 ركبت سيارة أجرة من هذا المفترق، أنزلني بالقرب من حافلات مدينة روصو في مكان بعيد جنوب نواكشوط، هناك حصلت على التذكرة بـ 250 أوقية (ألفان وخمس مائة أوقية بحسب تلفظ سكان موريتانيا) في الساعة 11 صباحا. ركبت الحافلة بتوجيه من عمال الموقع ليأخذ كل شخص مكانه دون نزاع.⁶ تحمل الحافلة الركاب وأمتعهم التي توضع على السطح، ويتم حزمها بشبكة من الخيوط المتينة. أفلعت بنا الحافلة من محطة توقفها، وانطلقت تنهب الأرض نهبا، في سرعة فائقة لا فرق في ذلك بين الطريق المعبد وغير المعبد. هذا الطريق الذي ينقسم إلى ثلاث حالات: **جزء منه معبد جيدا بـ(Tapis) **و جزء تجري تهيئته مما يجعل الحافلة تحيد عن الطريق لتسلك طريقا جانبيا غير معبد، يجري به السائق دون اعتبار لأي شيء، **و جزء ضيق تحفه الرمال من إحدى الجهتين أو منهما معا. استرحنا في إحدى المدن الواقعة في منتصف الطريق، وحصل كل راكب منا على ما يريده، سواء كان شاي أو فطائر أو نوعا آخر من الطعام.

كانت المنطقة جافة مع كثرة الرمال على أطراف الطريق في البداية؛ فنحن في أرض صحراوية، ولكن الأرض بدأت تخضر كلما اقتربنا من مدينة روصو؛ كنا نبتعد عن الصحراء الكبرى، ونتجه صوب المنطقة المدارية جنوبا، وفي الطريق كنت أرى تجمعات

سكنية متفرقة منفصلة عن بعضها البعض على جانبي الطريق، سألت أحد المسافرين الموريتانيين الجالس بجاني هل هذه "شاليهات" للسياسة أم هي سكنات؟ فرد علي بأنها سكنات للمواطنين. إنها قرى يستقل فيها كل منزل عن الآخر بما يشبه في أحيان كثيرة سكنات الأفارقة المبنية بالقش، أو كأنها تجمع لخيام البدو، لأن الخيام لا تلتصق ببعضها، بل إن كل بيت من الشعر مستقل عن غيره. يتكون المنزل الواحد من حويطة من الإسمنت أو الحجر بارتفاع دون المتر، وتخرج منه أعمدة حديدية أو إسمنتية، ويتوسط هذا المربع شكل قبة، وعلى الأعلى غطاء مسدول على تلك الأعمدة، يتوسط كل تجمع سكاني من هذا النوع مسجد صغير بصومعته، وفي مدخل القرية دكان (بقالة) للمواد الغذائية يتمون منه سكان المكان.

يظهر أن شكل الخيمة لدى بدو موريتانيا الهرمي هو غير شكلها في البلدان المغربية إلى الشمال منها، وهي المصنوعة من شعر الشياه والمعزومين وبر الإبل، ولها فتحة يخرج منها دخان الموقد. يقول أحد الكتاب الفرنسيين بمناسبة إحياء الذكرى الخمسين لنشأة نواكشوط العاصمة (2005): إن الخيمة في موريتانيا هي "ذلك السكن الأصيل للرعاة الرحل البيضان، والذي يختلف عن أنواع الخيام الأخرى في إفريقيا الشمالية والجزيرة العربية، بشكلها الهرمي وأبعادها المتواضعة".⁷

5- الوصول إلى روصو: كان الوصول إلى مدينة روصو في الساعة الثانية والنصف بعد الزوال (4 ساعات). تقع مدينة روصو جنوب العاصمة نواكشوط بأكثر قليلا من 200 كلم، وهي على الضفة اليمنى لنهر السنغال، ومن محطة الحافلات ركبت سيارة أجرة لتوصلني إلى وسط المدينة، وبعد برهة توقف بي السائق أمام أحد الفنادق (La case)، ولكنني لم أر ما يميز المكان، وما يعتبر أنه فعلا وسط المدينة، لقد كان الشارع والبنائيات جد بسيطة، ولا شيء يدل على الحضارة ما عدا بناية الفندق التي تمثل تحفة وسط بنايات قديمة. أكد لي السائق أن المكان هو فعلا وسط المدينة، فنزلت وحجزت غرفة لشخص واحد وهي بقيمة 1200 أوقية لليلة الواحدة. أخذت حماما لأزيل أتعاب السفر وشدة الحرارة. كانت الحرارة شديدة في الخارج، لذلك فضلت البقاء في الفندق حيث التهوية ومشاهدة التلفاز، وبعد حين خرجت أجوب المكان، كل شيء كان قديما لا يدل على أن المدينة حديثة. هناك الباعة في كل مكان، وكأن الجميع يتاجر في المحال المبنية

البرلمان، ويُعرف بأنه مؤسسة عمومية ذات طابع إداري لها هدف علمي وثقافي وتراثي وتقني...، وقد أسند لهذه المؤسسة منذ سنة 1974 مهام جسام ومتعددة تتلخص في:

*تنظيم البحث العلمي في مختلف مجالات التراث والثقافة والنهوض بها.

*إحصاء وفهرسة ودراسة وحفظ وصيانة المخطوطات الوطنية.

*البحث في مجالات ما قبل التاريخ والتاريخ والأركيولوجيا.

*جمع وحفظ وتثمين ونشر التراث الشفوي المتعلق بالعادات والتقاليد.

قمت بزيارة المعهد يوم الثلاثاء 12 نوفمبر 2019 صباحا. اعتذر لي أحد الموظفين (عبد الله أحمد عبيد رئيس قطاع البحث العلمي بالمعهد) لغياب موظفي قسم المخطوطات، ومنهم مدير المعهد لوجودهم في مدينة شنقيط بمناسبة انعقاد "مهرجان المدن القديمة". عدت يوم 14 نوفمبر صباحا، وتكلف الموظف السابق ذكره بفتح قسم المخطوطات، وقدم لي دليل مخزون المخطوطات⁸، تصفحته وطلبت بعض الوثائق. سلمني بعضها واعتذر عن الأخرى بسبب ظروف المهرجان السابق الذكر، قمت بتصوير بعضها بواسطة آلة التصوير.

يحتوي دليل مخزون المخطوطات على مجموعة كبيرة من العناوين بلغت 27 عنوانا أي موضوعا. منها الميدان الديني والتاريخي واللغوي والأدبي وبعض العلوم الأخرى (الطب- الفلك- الجغرافيا). ذكر لي الموظف، عندما استفسرت عن ظروف جمع الوثائق، أن المعهد قام بعملية الجمع في السبعينيات من القرن العشرين بالاتصال بالسكان وبخاصة البدو الرحل الذين كانوا يحملون صناديق كتب يعانون في حملها في تنقلاتهم من مكان إلى آخر. منهم من سلمها لهم، ومنهم من اعتبرها أمانة يعود لاستلامها حين يكون ذلك ضروريا. وقد أخبرني أن بعضهم استعاد ما كان قد سلمهم إياه، ومنهم من لم يعد. ويُصدر المعهد مجلة سنوية عنوانها: "الوسيط"، كنت قد شاركت في العدد 12 الصادر سنة 2013 بمقال عن "سياسة ديغول الإفريقية من خلال مذكرته الأمل"، مع ثلة من الأساتذة الجزائريين، تبعا للحملة التي قام بها المعهد بين الأوساط الجامعية الجزائرية في تلك الفترة.

ب- المكتبة الوطنية: عندما لم أجد غرضي في المعهد الموريتاني للبحث العلمي يوم 12 نوفمبر اتجهت إلى المكتبة الوطنية الموجودة في ظهر المعهد غربا. تحيط الرمال بكل من

المعهد المذكور والمكتبة وبجوارهما المتحف الوطني. يتم الدخول إلى المكتبة عبر بوابة كبيرة مفتوحة على ساحة فسيحة، ثم ترتقي أدرجا لتدخل المكتبة. رحبت بي الموظفة وسألنتني عن غرضي، طلبت منها دليل المحتويات فأشارت لي إلى مكانها. تصفحت العناوين واخترت دليل "التاريخ والجغرافيا". يحتوي دليل التاريخ والجغرافيا على كتب مغربية وأخرى عامة. لاحظت وجود بعض المؤلفات الجزائرية، منها موسى لقبال في "دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية"، ومنها مرمول محمد الصالح في "السياسة الداخلية للخلافة الفاطمية في بلاد المغرب الإسلامي" من جامعة قسنطينة. وعن موريتانيا أحصيت خمس مراجع فقط (موريتانيا الماضي المتحرك والمكان المؤثر- موريتانيا عبر العصور- حياة موريتانيا- موريتانيا في مفترق طرق- الشعر والشعراء في موريتانيا). قمت بتلخيص بعض الفقرات عن موريتانيا من بعض هذه المراجع، وهو ما يمكن القيام به في تلك الظروف. وبنظرة متفحصية يظهر أن هذه المكتبة لا ترقى إلى أن تكون بمعنى مكتبة وطنية حقيقية؛ فهي في مبنائها ومحدودية محتوياتها تحتاج إلى إعادة نظر بترقية محتوياتها وتوسيع خدماتها لتتجاوز مجرد المطالعة.

ج- جامعة نواكشوط العصرية: تقع جامعة نواكشوط الجديدة شمال العاصمة نواكشوط، في الطريق المؤدي إلى مدينة نواكشوط، بها كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وبها مكتبة ودوريات. افتتحت منذ ثلاث سنوات، كان الزميل مولاي محمد قد أخبرني بأن الذهاب إلى هذه الجامعة يتم عند مفترق طريق مدريد (Carrefour Madrid)، اتجهت إلى المكان وركبت الحافلة يوم الأربعاء 13 نوفمبر (10 أوقية). كنت من الأوائل في الصعود إليها لذلك تمكنت من الحصول على مقعد للجلوس، وكانت المسافة بعيدة. قطعنا أحياء عديدة، وانتهى العمران ونحن ما نزال لم نصل. لقد تم نفي الطلبة إلى القفار، وإبعاد هوسهم عن وسط المدينة للتخلص من حركاتهم.

قصدت قسم التاريخ، هناك التقيت بأستاذين: محمد سعيد رئيس القسم تخصص تاريخ حديث ومعاصر، والأستاذ أحمد مولود أيد الهلال تخصص تراث وآثار إسلامية ورئيس وحدة بحث آثار وتراث موريتانيا. وقد شارك هذا الأخير- تبعا لتصريحه- في "مهرجان شنقيط نوفمبر 2019". تأسف الأستاذ أحمد مولود على عدم الاستفادة من حضوري إلى موريتانيا لإلقاء محاضرة لطلبة الماجستير، لأن موعد عودتي سيكون بعد

يومين فقط. والوقت غير كاف للاتصال بالطلبة من أجل الحضور. وقد تكرم هذا الأستاذ وأوصلني إلى المدينة في سيارته، ليعرض علي تناول الغذاء معه في أحد المطاعم، ولولا غياب زوجته في تونس لكان الغذاء في الدار كما قال. وقبل الغذاء أخذني إلى مقر المكتبة المركزية لأهدي لها كتابا من تأليني (الطريقة الشيخية). كما أخذني إلى إحدى المكتبات التي ينشطها الأساتذة؛ وبخاصة طبع الكتب بإمكانياتهم الخاصة. وتقع المكتبة بجوار المسجد السعودي، الذي أدينا فيه صلاة الظهر، حيث تصادف وجودنا في المكتبة المذكورة مع وقت الأذان (14.30).⁹

يتبع قسم التاريخ منهج (LMD) المتبع لدينا، أما موضوع الماجستير المفتوح هذه السنة فهو: "الصحراء والساحل في الفترتين الحديثة والمعاصرة"، وأما الدكتوراه فلم تفتح في هذه الشعبة حتى الآن، رغم أن الاعتماد صدر رسميا وتم تعيين منسق (البروفسور محمد أمين)، وتبقى إجراءات التنفيذ. أما في التخصصات الأخرى بالجامعة نفسها فقد افتتحت الدكتوراه في مادة الأدب واللغة العربية وآدابها وفي مادة الجغرافيا.

ويصدر مختبر "الدراسات والبحوث التاريخية حول موريتانيا" بجامعة نواكشوط العصرية مجلة تحت عنوان: "مصادر"، صدر منها حتى الآن ستة أعداد، حصلت على العدد 5 لسنة 2013، والعدد 6 لسنة 2017، وهي تعني بالتاريخ الموريتاني في مختلف عصوره.

وفي اليوم الموالي اتصل بي الأستاذ محمد أمين من القسم نفسه، بعد أن علم بوجود أستاذ جزائري بموريتانيا. اتفقنا على اللقاء صبيحة اليوم الموالي. حضر الأستاذ باكرا إلى المنزل الذي أقيم به، وصحبيني إلى أحد المطاعم الذي يقدم وجبات فطور الصباح، معذرا عن عدم تمكنه من استضافتي في منزله لظروف خاصة. كان الأستاذ جواد، قدمت لنا أشهى ما يقدم في مثل تلك المطاعم، تناولنا الحديث مطولا ونحن نتناول فطورنا. وجدت الأستاذ ملما بكثير من القضايا الثقافية، وأعلمني أنه شارك في العديد من الندوات والمليقيات عبر بلدان عديدة وبخاصة البلدان المغربية. وقبل أن نفترق أهدى لي أحد كتبه عن الثقافة الحسانية من خلال تاريخ البداوة في موريتانيا، وأرسل معي نسخة للأستاذ عبد القادر بوباية.

د- جامعات ومعاهد أخرى في موريتانيا: استنادا إلى الأستاذ مولاي محمد الذي عاش في نواكشوط 45 يوما، وإلى بعض الأساتذة الموريتانيين الذين التقيت بهم في العاصمة الموريتانية. يمكن حصر الجامعات فيما يلي:

- جامعة شنقيط العصرية: وهي جامعة خاصة بها كلية اللغة العربية وآدابها والدراسات الإسلامية، تقع بالقرب من السفارة المغربية الجديدة في منطقة راقية تسمى "تفرغ زين" في العاصمة نواكشوط، لم أتمكن من زيارتها لضيق الوقت.

- الجامعة اللبنانية: وهي جامعة خاصة، تقع إلى الشمال من جامعة نواكشوط، أسست سنة 2008، تضم تخصصات مختلفة وتتبنى النظام الإنكليزي، تمتاز بمحدودية المقاعد في القسم الواحد، لها علاقات مع جامعات أجنبية.

- جامعة عبد الله بن ياسين: وهي أيضا جامعة خاصة أسست سنة 2010، يقع مقرها الرئيس في نواكشوط، تدرس تخصصات مختلفة كالاقتصاد والعلوم الشرعية واللغات والكمبيوتر.

- المعهد العالي للتعليم التكنولوجي: في مدينة روصو، وهو متخصص في الفلاحة.

ه- المعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية: هو معهد للتعليم العالي يلتحق به الطلبة الحاصلون على البكالوريا أو بعد اجتياز مسابقة لمن لم يحصل عليها من خريجي المحاضر الموريتانية، وقد أنشئ سنة 1978. زرت المعهد يوم الخميس 14 من شهر نوفمبر 2019. اطلعت في مكتبته على بعض المخطوطات وهي يسيرة، سجلتها وطلبت ثلاثة منها، حصلت على اثنتين منها فقط (رسالة أهل ولاتة لمجهول- أرجوزة في تاريخ موريتانيا لوالدين خالنا- شيم الزوايا لمحمد بن سعيد اليدالي).

و- المركز الثقافي المغربي: يقع في سوق موريتل ألوان بجانب مسجد الحسن الثاني، ويعرفه السكان بالمسجد المغربي، به مكتبة اطلعت على دليل المحتويات في تخصصات مختلفة. يشرف على المركب مسؤول مغربي (المسجد والمركز الثقافي). زرت يوم الجمعة 15 نوفمبر 2019 ابتداء من الساعة 10 صباحا. طلبت كتابين (المسار الإفريقي للطريقة السنوسية لجون لوي تريو- الإسلام والمقاومات والدولة في إفريقيا الغربية- ندوة)، وقمت بتصوير بعض الصفحات.

ز- المكتبات الخاصة: هي مكتبات قليلة منها مكتبة القرنين 15 و21م: تقع بعمارة المامي في الشارع الكبير بالقرب من السوق الكبير وبالقرب من مستشفى أنكولوجيا، حصلت من هذه المكتبة على كتاب واحد عن تاريخ موريتانيا. مكتبة الثقافة الإسلامية بها مكتبة غنية حصلت منها على ثلاثة كتب في التاريخ الموريتاني، وتقع وسط سوق شعبي (المرسى). مكتبة الرشاد قريبة من المكتبة السابقة، لكنها ليست ذات أهمية.

7- المكتبات الأهلية: خصص الأستاذ محمد أمين فصلا لـ "المكتبات الأهلية في موريتانيا وتحديات البقاء" في كتابه مدخل إلى تاريخ البداوة، بيّن فيه قصده بالمكتبات الأهلية على أنها المكتبات الشخصية أو الأسرية أو الوقفية الموجودة في المدن التاريخية وفي المراكز الحضرية العريقة وفي القرى والمخيمات والأحياء وفي الزوايا، ويقدر عددها بـ 300 مكتبة وقفية أو خصوصية متفرقة في مدن وقرى وأرياف موريتانيا، وأنها تختزن تراثا مخطوطا يعتقد أنه يبلغ أربعين ألف (40.000) مخطوط تتناول موضوعات شتى.

وقد اعتمد في بعض معلوماته على مقال لأحمد ولد محمد يحي عن "المخطوطات العربية والإسلامية في دول الساحل" (مجلة الموكب الثقافي، اللجنة الوطنية للتربية والثقافة والعلوم. العددان 2 و3، نواكشوط 1995، ص39)، ويرى الكاتب أن المكتبات الأهلية تهددها تحديات في الصميم ناتجة عن الظروف الطبيعية من جهة، وعن الظروف الاقتصادية والاجتماعية والمؤهلات العلمية والمهنية لمن يتولون حيازتها والإشراف عليها من جهة أخرى.¹⁰ ويستند الكاتب أيضا في تعداد المكتبات على أحد البحوث الحديثة بمدينة شنقيط وحدها، على أن عددها هو 22 مكتبة أهلية سنة 2008 في مقدمتها مكتبة أهل حبت¹¹.

لكن ما هي الظروف التي سهلت الحصول على الكتب في هذه المكتبات في بلد مترامي الأطراف في أقصى غرب البلاد العربية، وفي بلد يغلب عليه الطابع الصحراوي. يذكر محمد أمين أن العلماء والفقهاء كانوا يقتنون الكتب من مختلف الحواضر العربية والإسلامية التي يمرون بها أثناء تأديتهم لفريضة الحج، وأنه ورغم أن أغلب سكان موريتانيا هم من البدو المتنقلين وهم في وسط صحراوي منعزل؛ كانوا يهتمون بجمع الوثائق، وكان ارتباطهم بالعلم والمعرفة كبيرا، ويمكن إضافة من أسباب هذا الاهتمام هو محاولة الموريتانيين تعويض بعدهم عن الديار المقدسة بالحصول على الكتب

والمخطوطات. إلا أن الظروف القاسية التي يعيشها هؤلاء، وبخاصة منها الطبيعية من تصحر وقساوة العيش أدى إلى النزوح نحو مناطق أخرى، وأنهم اختاروا التعليم الرسمي الحديث على التعليم الأصلي، وتمت هجرة المكتبات ما جعلها تنخفض أو تتلاشى شيئاً فشيئاً.

8- مهرجان المدن القديمة: تقوم دولة موريتانيا بواسطة الأجهزة المتخصصة (وزارة الثقافة والصناعة التقليدية والعلاقات مع البرلمان) بتنشيط الحركة العلمية والثقافية عن طريق ما يسمى بـ"مهرجان المدن القديمة" الذي تقام فيه ندوات علمية سنوية ونشاطات للشعر والصناعات التقليدية والسهرات الفنية والعروض الفلكلورية والمعارض وكذلك سباق الإبل، وقد شاركت كل من الجزائر والمغرب وإسبانيا هذه السنة (2019) في المهرجان الذي أقيم بمدينة شنقيط في دورته التاسعة، وقد انعقد المهرجان في الأسبوع الذي قضيته بموريتانيا، وهو يصادف أسبوع المولد النبوي، ويبدأ من يوم الأحد 10 نوفمبر 2019.

أقيم المهرجان هذه السنة في مدينة شنقيط الواقعة في الشمال الموريتاني، في الطريق البري الموصل إلى الجزائر مروراً بمدينة تندوف، وقد تم تصنيف المدينة من قبل منظمة اليونسكو كموقع ضمن قائمة التراث العالمي سنة 1996. "كانت ممراً وملتقى كل القوافل؛ فمكّن ذلك من تدعيم الدور البارز الذي لعبته تجارياً وثقافياً في عهد ما بعد تدهور أوداغست وكومبي صالح..."¹².

شاركت الجزائر في هذا المهرجان بعشرين معرضاً في ميدان الصناعة التقليدية والحرف، وأدرجت في منتوجاتها الجلود والفخار والخشب والنحاس والملابس التقليدية والمجوهرات والتحف... كما قدم الجناح المغربي نشاطات المركز الثقافي المغربي بنواكشوط بمطبوعاته وكتبه ومخطوطاته ولوحاته...¹³

وتعمل موريتانيا على إحياء هذه المناسبة لإعادة الاعتبار للمدن التاريخية التي قدمت خدمات كبيرة للإسلام والعلم والتجارة؛ فقد كانت شنقيط منارة للإشعاع الثقافي والفكري والديني بين البلاد المغربية شمالاً وبلاد غرب إفريقيا جنوباً، وكانت مركزاً تجارياً تمر بها قوافل التجار، تحمل سلعا متعددة أهمها الذهب والملح والرقيق، كما ساهمت في نشر الدين الإسلامي والثقافة العربية الإسلامية جنوب الصحراء بعامة، وإذا كان مهرجان

هذه السنة قد أقيم بمدينة شنقيط؛ فإن مهرجان العام الماضي (2018) أقيم بمدينة تيشيت.

وكانت مدينة شنقيط- بالإضافة إلى ما سبق- تمثل إحدى المدن الهامة في الإسلام بغرب إفريقيا، حيث يجتمع فيها الحجاج للقيام بالمسيرة الطويلة نحو مكة، وهي اليوم تحتوي على مكتبات عائلية هامة تعتبر كنزا أدبيا حقيقيا مهددا بالاندثار. تعود أقدم مخطوطاتها إلى القرن الحادي عشر ميلادي، وهي مكتوبة في بعضها على جلود الغزلان بواسطة النبات الأخضر والنيلى (أزرق) وأكسيد الحديد (أحمر) والفحم (أسود) والصبغ العربي لإصلاح الكتابة.¹⁴

وإلى جانب مدينة شنقيط هناك مدن تاريخية أخرى، يذكر الأستاذ أحمد مولود أن "أودغست وكومي صالح وأزوكي كلها حواضر ظهرت وازدهرت ثم اندثرت في ذات الحقبة الوسيطة...، ثم ظهرت بعدها قصور ولاتة وودان وتشتيت وشنقيط التي شكلت امتداداً وتواصل مع الحواضر السابقة خصوصا في مستوى الوظائف التجارية والأنماط المعمارية وطرق استغلال الفضاء شبه الحضري..."¹⁵.

وقد لاحظت عند ركوبي الطائرة العائدة إلى الجزائر يوم 16 نوفمبر، ركوب أعداد من الجزائريين العائدين على متن الطائرة نفسها بعد نهاية المهرجان؛ فالطريق الرابط بين البلدين هو النقل الجوي الذي يربط مدينة الجزائر بالعاصمة الموريتانية نواكشوط، أما الطريق البري الرابط بين تندوف وشنقيط فهو شاق ومتعب لبعده المسافة وحرارة الجو. ذكر لي أحد الجزائريين- ونحن في الطائرة- أنه يشتغل في شركة تقوم بمد سكان نواكشوط بالمياه العذبة انطلاقا من نهر السنغال، وذكر لي آخر أنه يشتغل في شركة جزائرية تقوم بمد بعض الطرق وتعييدها بين المدن الموريتانية، والواقع أن الطرق في موريتانيا ما تزال تحتاج إلى تحديث وتوسيع ومراقبة.

كان الرئيس الموريتاني محمد ولد الشيخ الغزواني قد افتتح المهرجان، وألقى كلمة في هذا الافتتاح، بين في خطابه "الهدف من إقامة المهرجان الذي يكمن في ترقية التراث العلمي لمدننا القديمة، وصون موروثنا الثقافي، والمحافظة على طابعها المعماري الفريد، وترقية كنوزها التراثية، ودعم إنتاجها المحلي وأنشطتها المدرة للدخل بخلق فرص عمل جديدة."¹⁶ "وأن الحكومة (الموريتانية) ستعمل من أجل المدن التاريخية لأن البلاد تحمل

مقومات النمو والتطور، بفك العزلة عنها، وتحديث بناها التحتية، وجعلها مناطق سياحية نشيطة"¹⁷.

والمعروف أن كلمة "شنقيط" كانت تطلق على البلاد الموريتانية الحالية، والفرنسيون هم الذين أطلقوا الاسم الأخير على هذه البلاد. يرى البعض أن السبب هو محاولة فصل السكان عن ماضيهم الإسلامي الزاهر بإحياء الاسم الروماني القديم.¹⁸ ويذكر أحد الكتاب الموريتانيين أن "التسمية الحالية "موريتانيا" اصطلاح روماني معروف أصله أمازيغي- آتمورتناغ- تمورتنا- أرضنا، ولعله متأث من قبائل المور الشهيرة التي ناهضت الرومان والوندال وغيرهم من غزاة الأمازيغ القديمة"¹⁹.

9- من خصوصيات موريتانيا؛ تختص موريتانيا بمميزات محددة نتيجة موقعها المتوسط بين بلدان شمالي إفريقيا وبلدان جنوبي الصحراء من جهة، ونتيجة تاريخها كدولة وكعاصمة جديدة انبثقت عما كان يسمى بإفريقيا الغربية الفرنسية، ثم استقلالها عن الاستعمار الفرنسي سنة 1960 من جهة أخرى، كما أن لغلبة الطابع الصحراوي على جل أراضيها، إلى جانب مجاورتها للمحيط الأطلنطي بساحل كبير أكسبها تميزا آخر، وبناء على ذلك تبينت لنا بعض الخصوصيات سنتعرض لها فيما يلي:

أ-سيادة المناخ الصحراوي: تقع أغلبية مساحة موريتانيا في الصحراء، والتي تمثل 60 في المائة من المساحة الكلية، مما نتج عنه شدة الحرارة طول السنة (متوسطها 30 درجة سنويا) وندرة المياه وانتشار المناخ القاري وقلة السكان وانعدام النبات ما عدا النخيل في الواحات، وتسود تربية الإبل في الوسط والشمال حيث الصحراء القاحلة، وتسود الرمال بكتباتها الرملية مساحة واسعة، نجدها وقد غزت شوارع العاصمة نواكشوط متحدية الإنسان بقوتها؛ مما يجعل موريتانيا تحت أشعة الشمس الدائمة والعواصف الرملية شبه اليومية، وتهب بقوة على معظم أنحاء البلاد ما عدا فصل الشتاء، وأفضل مكان تعادل فيه درجة الحرارة هو مدينة وميناء نواذيبو في الشمال الغربي التي تتميز بمناخ صحراوي بحري تتراوح متوسط درجة الحرارة فيه بين 18 و26 درجة مئوية سنويا.²⁰

كما تتميز موريتانيا بوقوعها إلى الشمال من نهر السنغال- وهو أحد الأنهار الإفريقية الكبرى- الذي يقطع أراضيها بخط متعرج على مسافة 500 كلم من طولته الذي يبلغ 1700 كلم من المنبع حتى المصب، ويعتبر حدا فاصلا بينها وبين دولة السنغال، ويسود

المناخ المداري الرطب صيفا في هذه الجهات، مما يسهل ممارسة الزراعة وتربية الحيوان من ضأن وماعز وأبقار، وتطغى مياه النهر عند الفيضان فتغمر أطرافه (من شهر جوان حتى شهر نوفمبر)، فيترك رواسب حديثة تستغل في الزراعة بعد انحساره عن تلك الأطراف، ويستفيد البلدان: السنغال وموريتانيا من النهر في النقل البحري؛ فهو صالح للملاحة في هذا الجزء السفلي منه لنقل الأشخاص والأمتعة.

ب- تعدد الأعراق في موريتانيا؛ تتميز موريتانيا بوجود العنصر الزنجي بشكل كبير عكس بقية البلدان المغاربية؛ ففي العاصمة نواكشوط يعتبر هذا العنصر لافتا للنظر لوجوده بكثرة؛ أما في مدينة روصو بالجنوب الموريتاني والمجاورة للسنغال؛ فهم الغالبية بحسب ما لاحظت في شوارع المدينة وأسواقها.

وإذا كان الجزء الأكبر من هؤلاء هم موريتانيو الجنسية؛ فإن العمالة الإفريقية لها وزنها في هذا التواجد الكبير. يستطيع الإنسان ملاحظة ذلك من خلال عدم فهم البعض منهم للغة العربية (الحسانية الموريتانية)، مما يجعل المرء يكلمهم باللغة الفرنسية التي هي لغة المستعمر السابق لهذه الجهات من إفريقيا؛ فهناك عدد كبير من المالميين والسنغاليين، يلهم عددا البوركينافيون، والمعلوم أن دولة مالي وبوركينا فاسو دولتان داخلتان دون ساحل. لذلك يتجه شباب هذين البلدين إلى موريتانيا لأنها الأقرب إليهم من جهة، والأقرب إلى جزر الكناري التابعة لإسبانيا من جهة أخرى التي يتمنون المرور عبرها في اتجاه أوروبا؛ حلم الشباب الإفريقي، وعموما تعتبر موريتانيا أقرب دولة إفريقية إلى السواحل الأوروبية، والمعلوم أن هؤلاء الأفارقة يتنقلون بكل حرية، ولا يستظهرون سوى ببطاقة التعريف الوطنية دون تأشيرة، أما النيجيريون والتشاديون فليبيا هي الأقرب مسافة إليهم والأقرب إلى أوروبا؛ كما أن أوضاعها المساوية تساعد على المرور بأكثر أريحية من بقية البلدان الإفريقية المستقرة أوضاعها.

ويشتغل هؤلاء الأفارقة في الأعمال البسيطة كخدم في المقاهي والمطاعم والفنادق، وكحمالين في الحافلات، وناقلين للأمتعة على عربات ذات عجلتين يدفعونها إلى الأمام بأثقالها أو تجرها بعض الحيوانات، كما يعمل بعضهم كطباخين أو صيادين للسماك وبائعين له على الساحل، وتنتشر النساء الإفريقيات لبيع السمك في الساحل، وداخل الأسواق يحضرن الفطائر أو الأكلات الخفيفة وبيعنها في المكان نفسه.

وهذا تعتبر موريتانيا حلقة وصل بين الدول والشعوب المغاربية شمالا ودول وشعوب إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى، وتعدد عناصر سكانها تنوع ثقافتها من عربية وأمازيغية وإفريقية مشكلة لوحدة اجتماعية متعددة الألوان والثقافات، يتعايش فيها الجميع تحت شعار الدولة الواحدة التي يجمعها دين واحد هو الإسلام.

والبيضان هو لفظ متداول في الكتابات الموريتانية للدلالة على العنصر العربي والأمازيغي في مقابل الإفريقي الأسود البشرية. يحددها أحد الكتاب الموريتانيين بأن البيضان: "تسمية محلية غلبت على سكان المجال الصحراوي الواقع بين توات ووادي درعة شمالا، ومنحنى نهر النيجر ومصب نهر السنغال جنوبا، تميزا لهم عن جيرانهم الجنوبيين الذين أطلق عليهم اسم السودان، اعتبارا للون بشرتهم، وعن جيرانهم في الشمال الذين لا يشتركون معهم في سماتهم الثقافية المميزة..."²¹، وبين كاتب آخر المعنى بقوله: "البيضان أو البياضين تطلق على سكان الصحراء الإفريقية الكبرى ذوي البشرة السمراء- الضاربة أحيانا إلى البياض- عن بقية سكان المنطقة الزوج ذوي البشرة السوداء"²².

ويقارن الكاتب بين التسمية العربية وما درج عليه الفرنسيون من تسميات للمكان، ويذكر أن الفرنسيين درجوا- ومنذ القرن التاسع عشر- على تسمية هؤلاء السكان البيضان بالمور (Maures)، وينفي الكاتب عن كوبولاني تسمية موريتانيا للمكان بل هناك غيره؛ فيذكر أن تسمية موريتانيا على هذا الجزء الجنوبي الغربي من الصحراء ليس من ابتكار الإداري كزافيي كوبولاني (Xavier Coppolani) كما هو شائع؛ بل إن الضابط جان فرانسوا كاي (J.F.Caille) هو الذي أطلق ذلك الاسم سنة 1843 قبل كوبولاني بحوالي نصف قرن²³.

ويعرف بهم الكاتب السابق في قوله: "... وهم من البداة الرعويون المتنقلون دوما بحثا عن الماء والكأ لمواشيهم، وعن الظروف المناخية والأمنية الأكثر ملاءمة في محيط صحراوي يمتاز بقساوة المناخ، وبشح مصادر العيش وغياب نظام مركزي قادر على توفير مستلزمات الحياة والطمأنينة للسكان"²⁴.

كما يلاحظ انعدام استعمال اللغة الأمازيغية مثلما هو الحال في بقية البلاد المغاربية؛ فقد كان لدخول قبائل بني حسان- وهم من المعقل- في القرن الثامن الهجري،

واكتساحهم أراضي موريتانيا أو بلاد شنقيط، أثر في حدوث تفاعل اجتماعي ثقافي نتج عنه تعريب القبائل الأمازيغية، وهكذا "طبعت السمة العربية جوانب الحياة المختلفة بشتى مظاهرها... ومن يومها ارتسمت ملامح هوية هذه البلاد، واتضح معالم مجالها الجغرافي، وتحددت أوصال جسمها الاجتماعي..."²⁵، وأصبحت اللهجة الحسانية هي لغة التخاطب اليومي بين مختلف شرائح المجتمع الموريتاني.

لقد كان لعرب المعافرة (من المعقل) دور في ميدان التعريب، وقيام نهضة جديدة بعد أن دخلت العربية- الحسانية كل البيوت، وامتزجت الثقافة الوافدة بالثقافة المحلية (اللمتونية) التي تكمن في الروح الإسلامية والعلوم الدينية²⁶، وكان لللمتونيون في حاجة إلى توثيق حياتهم بالعربية، ووجدوا في بني حسان ما يحتاجون إليه، كما وجد بنو حسان في الزوايا لدى السكان الأصليين حرارة العاطفة الإسلامية ووفرة المعارف الدينية والالتزام بالشعائر التعبدية، وكانت مسألة أخذ وعطاء استفاد منها كلا الطرفين.

ج-انتشار الطرق الصوفية: كانت موريتانيا تنشر التعاليم الإسلامية منذ عهد عبد الله بن ياسين في البلاد المجاورة لها، "وانتشرت بها المساجد والمدارس، وحلق الذكر التي أنجبت علماء صالحين وحجاجا كثيرين من تكاير وسرغات وولف وغيرهم من السودان...، ولم تخل قبيلة من الزوايا ومن علماء مشاركين في جميع العلوم، يستظهرون المتون العلمية المختصرة المقررة للتدريس، ويطلبون المطولات"²⁷.

ومن الطرق السائدة في موريتانيا الطريقة القادرية، ومن أشهر أعلامها الشيخ سيدي المختار الكنتي (ت1226هـ/1811م)، والشاذلية التي من فروعها الغطفية والناصرية، ومن أعلامها سيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم العلوي (ت1233هـ/1818م)، والطريقة التجانية، ومن أعلامها سيدي محمد الحافظ العلوي (ت1247هـ/1831م)²⁸. ويلاحظ الكاتب محمد الأمين ولد الزي أن عدد أتباع القادرية والتجانية أكثر في الإقليم من عدد أتباع الطريقة الشاذلية.

وقد قامت هذه الطرق بدور كبير في نشر الإسلام إلى جانب الدعاة والتجار وانتقال القبائل المسلمة من مكان إلى آخر. كانوا يقيمون المدارس والمساجد، يعلمون فيها أبناء الأفرقة، ويبعثونهم إلى أهاليهم يعلمونهم مبادئ الدين الإسلامي والحضارة العربية الإسلامية، كما كانوا يشترون الرقيق، ويحررونهم ويعلمونهم في المدارس التي أقاموها

ليعودوا إلى أهاليهم يعلمونهم ما تعلموا في تلك المدارس والمساجد، ويعتبر عبد الله بن ياسين من أكبر الدعاة في نشر الإسلام في السودان الغربي، وهو الذي أعقبته الدولة المرابطية التي انطلقت من هذه المنطقة لتغزو بلاد المغرب شمالا، وتجتاز مضيق جبل طارق لتبسط نفوذها على بلاد الأندلس.

د- انتشار المحاضرات: يُعرفها الأستاذ محمدو محمدن أمين بأنها "مؤسسات ذات وظائف متعددة اجتماعية وثقافية وتربوية، ساهمت طوال القرون الماضية مساهمة كبيرة في نشر المعارف العربية والإسلامية بمختلف فنونها في ربوع الصحراء، ومنها إلى المناطق الإفريقية المجاورة، وفي نقل هذه المعارف عبر الأجيال..."²⁹، ويضيف أنها تنقسم إلى صنفين:

- المدارس القرآنية: تنحصر وظيفتها في تعليم القراءة والكتابة للمبتدئين، وتحفيظ النص القرآني لا أكثر.

- المحاضر: وتختص في تدريس علوم القرآن والفقه والعقيدة... وهي التي تجمع بين علوم الغاية وعلوم الآلة معا كالتجويد والتفسير والحديث والبلاغة والحساب والمنطق³⁰...، وأنها بدأت حصرية في المدن، ثم انتقلت لتصبح مؤسسة تربوية بدوية من حيث الأساس...، وقد احتضنت البداية هذه المدارس، وتعاطت الثقافة العالمية درسا وتأليفا، وقامت بدور الدفاع عن التراث وحمائته، وقد ظلت المحاضرة قائمة رغم قوة منافستها المدرسة الجديدة التي روجت لثقافة المستعمر الجديد، وظلت حاملة لمشعل الثقافة العربية الإسلامية في البلاد الإسلامية.

ما تزال المحاضر تقوم بمهمة نشر ونقل المعارف في نقاط عديدة من موريتانيا، مستقبلة طلابا موريتانيين وغير موريتانيين، وهذا ما ذكره لي أحد تجار مدينة نواكشوط الذي التقيت به في المدينة بعد أن علم بسبب قدومي إلى موريتانيا وهو الهدف العلمي؛ فقد ذكر لي ضرورة زيارة المحاضرات التي تعتبر إحدى خصوصيات موريتانيا، وأشار لي إلى إحدى البلدات المشهورة في هذا الميدان بمحضرتها وهي بلدة النباغية الواقعة على بعد سبعين (70) كيلومتر من نواكشوط، والتي يسيرها الشيخ أباه المشهود له بالامتياز في المنطقة، وأن بها طلبة من جهات عديدة وحتى من الجزائر³¹، كما ذكر لي أحد الجزائريين الذي زار موريتانيا سنة 1992 رفقة جماعة من الدعاة أنهم زاروا بلدة بوتليميت

الواقعة على مسافة 150 كلم جنوب العاصمة نواكشوط، وبها محاضرة يتعلم فيها البنون والبنات. يجلسون على الحصير وعلى الرمال الناعمة. يحفظون القرآن الكريم وبعض العلوم الفقهية. فيهم طلبة جزائريون وبخاصة من ولاية أدرار. كما ذكر لي أنهم زاروا محاضرة أخرى في مدينة نواكشوط بأحد الأحياء القصدية³².

ويركز جل الباحثين الموريتانيين على أن المحاضرة تختص اليوم بالبادية دون الحاضرة، هذه الأخيرة التي استحوذ عليها التعليم الرسمي، وعن دور تلك المؤسسات يذكر أحد هؤلاء الباحثين أنه "بفضل التنشئة المحضرية، ورواج أطروحات هذه المؤسسات الثقافية، امتاز الموريتانيون بالتشبث بقيم دينهم، والتمسك بموروثهم الثقافي، والاعتزاز بتاريخهم وثقافتهم، والاحتفاظ بهويتهم المميزة"³³.

والواقع أن بقية البلدان المغاربية لم تكن بعيدة عن هذا الطرح وهذه الخاصية؛ ففي كتابنا عن التعليم القرآني في الجنوب الغربي الجزائري، ذكرنا ذلك؛ "فإذا كان مقر المدرسة القرآنية عبارة عن حجرة منفردة أو تابعة للمسجد؛ فإنها في البادية كانت خيمة مستقلة للتعليم على حاشية الدوار المكون من خيام القبيلة، تدعى أحيانا عُشة، وتنتقل الخيمة- المدرسة هنا مع تنقل البدو من مكان إلى آخر بحثا عن الماء والكلأ، وينتقل معهم تلاميذها ومعلمها"³⁴. والأمر نفسه في موريتانيا؛ فالمحاضرة "تقام عادة فور حلول المخيم بأي مكان جديد يتم النزول فيه"³⁵، غير أنها لم تكن تعلم في الجزائر خلال العهد الاستعماري سوى حفظ القرآن الكريم، وحفظ بعض المتون الفقهية والنحوية دون شرح أو تفسير بسبب محدودية مستوى المعلمين آنذاك بالجزائر.

وترد كلمة "المَحَضْرَة" في المدرسة القرآنية بالجزائر وبالمغرب؛ ففي الجزائر تدعى جماعة التلاميذ في المدرسة القرآنية بـ"المَحَضْرَة"، وتعني في بعض الجهات من الغرب الجزائري المكان، وهكذا يرد عند أحد الكتاب قوله: "وإن كانت المحاضرة تعج بالتلاميذ تتعدى قدرة الشيخ على الاحتواء..."³⁶، وفي المغرب ترد عبارة "أَحْرَيْشْ إِيْمَحَضْرَانْ" لتعني المدرسة القرآنية في بلاد سوس بالمغرب الأقصى³⁷.

هـ- شرب الشاي: الشاي هو أم التشريفات في الصحراء بعامة من الجنوب الغربي الجزائري، وهو كذلك في موريتانيا. يتحدث أحد الكتاب الموريتانيين عن قيمة الشاي في موريتانيا، ويذكر أن "أكثر المشروبات صلّةً بوجدانهم وأقواها علاقة بنظرتهم للمجتمع،

وأهم وسيلة لتعلمهم وتلهمهم هو الشاي؛ فقد داخل حياتهم أيما مداخلة، وانعكست ممارسات السلوك المتعلقة بشربه على أنشطتهم سلبا وإيجابا، حتى غدا معروفا بأداب وأنواع من السلوك مخصوصة، وأصبح قوي الدلالة على التراتبية الاجتماعية³⁸، ويشترك سكان الجنوب الغربي الجزائري مع الموريتانيين في هذه الخاصية، بدوهم وحضّهم؛ إذ لا يخلو أي تجمع من وجود الشاي الذي يهيا بطريقة خاصة، حيث لا يُحضّر في المطبخ حين يحضر الضيوف، بل في وسط تجمع الرجال، حيث يُكلف أحد الحضور بتهيئته بعد أن يزود بمختلف تجهيزاته: الصينية- الإبريق- الكؤوس- السكر- أوراق الشاي- الموقد الغازي (المجمر-كانون جمر سابقا)، ويجري هذا كله داخل البيوت عند إقامة المأدبات، ويتم الأمر نفسه في الشرق المغربي من مدينة وجدة شمالا حتى مدينة فكيك جنوبا، وربما أكثر نحو الجنوب.

أما في موريتانيا فهيا الشاي في الشوارع بالمدن القديمة وفي المتاجر والأسواق. يجلس الشخص، وهو في الغالب من صغار السن مربعا وقد يُعده واقفا، وبجواره موقد التسخين والإبريق، وهو من الحجم الصغير- عكس ما يجري في الجنوب الغربي الجزائري من كبر حجم الإبريق بسبب عدد الحضور في المأدبة- والكؤوس في صينيتها. يُطبخ الشاي بمائه في الإبريق الصغير، ثم يشرع في صبه في كأس صغير الحجم، ليقلبه بين كأسين في عملية متكررة، إلى أن يُكوّن رغوة بيضاء، ويسلمه لطالبيه في كأس غير مملوء، وهم يعدونه كمادة تباع وتشتري في الأماكن التي ذكرناها في موريتانيا³⁹، وقد ذكر لي أحد عمال المعهد الموريتاني للبحث العلمي- الذي أمدني بالشاي ثلاث مرات عندما كنت أقوم بتصوير بعض المخطوطات- أنهم في موريتانيا لا يشربون أقل من ثلاث كؤوس في المرة الواحدة.

ويلاحظ الكاتب سابق الذكر (محمد الأمين) أنهم يشربونه في موريتانيا صباحا، كما "يُفضّل أن يكون عَقِب كل طعام، كما يشربونه عند الأصيل، وأقواها ما يعقب به الشواء أو اللحم عموما"⁴⁰، وهم يشابهون في هذا ما يجري عند سكان الجهات الجزائرية التي ذكرناها أعلاه. لقد حظي الشاي بمكانة استثنائية لدى سكان الصحراء وجنوبها. يُفصّل صاحب النفحات الرندية الحديث عن العادات الغذائية في عموم المنطقة، ويقول

عن الشاي: "ولم يكن لهم شراب معروف من قديم الزمان سوى اللبن خالصا وممزوجا...؛ فلما ظهر أتاي صرفوا إليه عنايتهم بالكل وعكفوا عليه..."⁴¹.

- بعض المنتجات الموريتانية: تنتج موريتانيا مجموعة من المنتجات رغم محدوديتها، ورغم اتساع المساحة فإن جملها يمثل الصحراء الكبرى المعروفة بشدة الحرارة وندرة المياه وقساوة الطبيعة من زوابع رملية، وبعد للمسافات وخلوها من الغطاء النباتي، مما قلل من عدد السكان الذي يدور حاليا حول أربعة ملايين نسمة، وسنقتصر على بعض المنتجات مثل التمور والحديد والذهب والأسماك:

- التمور: تشتهر ولايتان في إنتاج تمور موريتانيا:

أ- ولاية أدرار في الشمال: ومن أهم واحاتها المنتجة شنقيط وودان وأوجفت وعطار وتونكد..

ب- ولاية تكانت: وهي واحات تقع في وسط البلاد.

ويعاني إنتاج التمور من صعوبات تتمثل في الجفاف والتصحر المتمثل في زحف الرمال، كما يجتاح الجراد البلاد من سنة إلى أخرى، وتصدّر موريتانيا بعض أنواع التمور، بينما يعتمد السكان في معيشتهم على التمر كغذاء يومي.

- الحديد: يستخرج الحديد من منجم الزويرات في الشمال الموريتاني، وهو يعد للتصدير إلى الخارج عبر ميناء نواذيبو، وينقل على سكة حديدية (وحيدة) تربط بين المنجم والميناء، وبه مركبات خاصة بالعمال وعائلاتهم (تحمّل 40 راكبا) كخدمات اجتماعية، ولكن الواقع غير ذلك؛ فقد أصبح هذا القطار الوسيلة الوحيدة للنقل بين مختلف المناطق في الشمال، يركبه الناس بأعداد كبيرة وبخاصة عند عودته من الميناء فارغا، وهو قطار طويل لكنه قديم. يقال إنه أطول وأثقل وأبطأ قطار في العالم. تستغرق الرحلة حوالي 20 ساعة في مسافة تبلغ 700 كم، وهو يجر أكثر من 100 عربة بطول 2,5 كلم. "يجري فوق هذه السكة أضخم قطار منجمي في العالم، وزيادة على شحنات خامات الحديد يتم نقل الركاب في عربات خاصة، كما يتم عبر بعض العربات نقل المياه لتزويد مدينة نواذيبو والزويرات"⁴².

وقد أصبح هذا القطار شريان الحياة في موريتانيا لمئات السكان، ينقلون عبره سلعهم وحتى حيواناتهم، كما يتم نقل الماء عبر صهاريج ضخمة في وسط صحراوي تندرأو

تندعم فيه المياه؛ مما ينشط الحياة الاقتصادية، وما تزال العربات الأولى تسير كما كانت في ستينيات القرن العشرين، ويبلغ عدد القطارات المشتغلة في الخط ست (6) قطارات في اليوم الواحد: ثلاث منها في طريق الذهاب وثلاث في طريق العودة⁴³.

- الذهب: عُرفت بلاد السودان الغربي بالغنى والثراء عندما كانت البلاد الموريتانية جزءاً من هذه المنطقة، وقد ضمت هذه الأخيرة مدينة أودغست الموجود موقعها الحالي وسط موريتانيا. كانت مملكة أودغست مركزاً تجارياً في بلاد السودان عدة قرون، ولكنها كانت تتمدد وتتقلص (القرن 12م) من وقت إلى آخر.

كان الذهب في صدارة صادرات غانا (التي كانت موريتانيا جزءاً منها)، وقد بدأت تجارته تتسع في السودان الغربي في القرن 3هـ/9م عن طريق قوافل المنطلقة من ورجلان إلى كاغوبمالي، والقوافل المتجهة من سجماسة إلى أودغست، وكان تبادلته يتم عن طريق المقايضة. يذكر البكري أنه كان يُجلب من أودغست "الذهب الإبريز الخالص خيوطاً مفتولة، وذهب أودغست أجود من ذهب أهل الأرض وأصحه"، ويذكر أن سكانها كان يتابعهم بالتبر وليس عندهم فضة وبها مبان حسنة⁴⁴.

وقد جنى الفاطميون أرباحاً طائلة من هذه التجارة طيلة وجودهم ببلاد المغرب (909-972م)، مما سمح لهم من تحقيق خططهم لغزو مصر (362هـ/972م) في ظرف قصير، وقد صنعوا الحصير والسروج والسيوف من الذهب، مما يعني توفر هذه المادة لديهم.

ويتحدث الفشتالي- الذي كان من موظفي الدولة السعودية كوزير القلم الأعلى- عن بلاد السودان التي غزاها أحمد بن محمد المنصور السعودي (1549-1603م)، واستيلائه على البلاد وما تحتويه من ثروات، وبخاصة معدن الذهب الذي حمل منه الأثقال حتى سمي لذلك أحمد المنصور الذهبي: "وحسبك ببلاد أثرها الله وأثرها... وأرض كرم الله تربتها وأبان فضلها بما اختصها به من معادن الذهب الذي به قوام العالم وأس الملك وبناء المجد، وبالتفاوت فيه تتفاوت أقدار قوة وسلطانا وجنودا وأوطانا، فهي مثرات العديم ومجلب التبر إلى المشارق والمغرب في الحديد والقديم، فمن ملكها ملك الأرض، وجمع الطول والعرض لاضطرار أهل الأرض قاطبة إلى حمرائه، واقتيادهم إلى الإذعان لصفرائه..."⁴⁵، ويبين سبب غزو السلطان السعودي لبلاد السودان في قوله: "ثم تسامت

همم مولانا أمير المؤمنين أيده الله بعد ذلك إلى الغلب على هذه الممالك الأخرى التي لا توازي لأجل معادنها الذهبية فخامة قدر وأصالة ملك اتساع خطة وكثرة أمم واتساع عمران ورسوخ إيمان واستبحار خراج...⁴⁶ ، وقد تم ذلك سنة 991هـ/1583م.

أخبرني أحد الأساتذة الموريتانيين الذي رافقني إلى عدة جهات في العاصمة نواكشوط، أن موريتانيا تملك ثروة مهمة من هذا المعدن الثمين إلا أنها لا تتحكم فيه جيدا، بل إن أستراليا تستحوذ على نسبة كبيرة من هذه المادة، بينما لا تحصل دولة موريتانيا صاحبة الأرض والمعدن سوى على باقي النسبة المئوية الضئيلة.

تتواجد خامات الذهب بالصحراء الموريتانية الواسعة الأطراف، وقد أظهرت عدة تحقيقات مصورة عن حُمي البحث عن الذهب التي شدت إليها الشباب الموريتاني العاطل من أجل الغنى. منهم من فاز واغتنى، ومنهم من فشل وعاد يجر ثوب الخيبة والامتهان. يذكر مراسل (CNN) أنه ما إن سمع الشباب العاطل عن وجود الذهب في صحراء موريتانيا حتى تقاطروا فرادى وجماعات على محلات بيع أجهزة التنقيب عن الذهب وعلى الإدارات الحكومية للحصول على تراخيص للتنقيب السطحي عن الذهب... وأن عشرات الشباب قصبوا منطقة الدواس على بعد 200 كلم شمال نواكشوط بحثا عن الذهب.⁴⁷

كما تتوفر موريتانيا على كميات هامة من خامات أخرى منها النحاس الذي يوجد ضمن نطاق يشق الخريطة من الشمال إلى الجنوب، كما أن هناك احتياطي كبير من الفوسفات.

- صيد السمك: تعد الثروة السمكية من أكبر منتجات العالم الحيوانية، وتستهلك بشكل واسع، كما تعتبر لدى البعض أهم منتج غذائي، وفي موريتانيا يلعب صيد السمك دورا كبيرا في معيشة السكان لو أحسن استغلاله، وتمتد المنطقة الاقتصادية المحددة لموريتانيا إلى 200 ميل بحري في اتجاه عرض البحر.⁴⁸

وتقع السواحل الموريتانية- التي يتجاوز طولها 700 كلم- في ملتقى التيار البحري الدافئ القادم من المنطقة الاستوائية جنوبا والماربغرب إفريقيا، بالتيار البارد القادم من المنطقة القطبية الشمالية (تيار كناريا البارد) والماربغرب أوروبا، وهذا الملتقى يعتبر من أغنى أماكن تواجد الأسماك في العالم؛ فالتقاء التيارات البحرية الدافئة بالتيارات

البحرية الباردة يمثل أفضل مصادر اصطياد الأسماك عالميا؛ ففي هذه الأماكن تترسب حمولة التيارين مما يخفف من عمق المسطحات المائية ويوفر غذاء الأسماك، وهو ما يساعد هذه الأسماك على الاستقرار في هذه الأماكن.

والمعروف أن البحار والمحيطات تتعرض لحركة دائمة تؤدي إلى حركة مياهها تدعى التيارات المائية، وسبب هذه الحركة المائية هو قوة الرياح التي تدفع المياه في طريقها وتؤثر بذلك على درجة حرارة الأماكن المارة بها برودة أو دفئا بحسب الاتجاه.

وقد لاحظتُ عند زيارتي للساحل الموريتاني بمدينة نواكشوط أمسية يوم الجمعة 15 نوفمبر رفقة الأستاذ أحمد مولود أيد الهلال تنافس الصيادين على الصيد البحري ونقله إلى الشاطئ، وكلهم من الأفارقة السود البشرة، حيث يعرضونه للبيع في أوعية بلاستيكية، كما يوجد بالمكان تجار لبيع بعض الصناديق الفارغة الخاصة والمعدة لتعبئة السمك (نوع Polyester)، ليحمل إلى أي مكان من العالم عبر هذه الصناديق الحافظة- كما أكد لي الأستاذ الموريتاني سابق الذكر- والذي دعاني إلى اصطحاب صندوق من السمك مؤكدا أنه لن يفسد في هذه العلب المعدة لذلك⁴⁹.

لا يستغل السمك بآتم معنى الكلمة، وبخاصة من قبل الموريتانيين البيض، لقد أعطوا ظهورهم للبحر سنين طويلة، وأهملوه لجهلهم بأهميته الكبيرة- كما يقول الأستاذ أحمد مولود- ولكنها البداوة، ينفر البدو من منتجات البحر، ويفضلون منتجات البر كيفما كانت، وقد ورث الموريتانيون الحاليون هذا السلوك عن أسلافهم، وتندر أكالات السمك لدى المطاعم العادية، هذا ما لاحظته في أحد المطاعم المجاورة للفندق الذي أقمت فيه؛ فقد طلبت من صاحبه أن يأتي بالأسماك؛ فاعتذر متعللا بعدم معرفة طبخها، وقال لي آخرون إنهم يتخوفون من بوارها، وبخاصة وأنها سريعة التلف في الجو الحار، وهناك مطاعم راقية تباع السمك على أشكال مختلفة من الطبخ. كما يقوم البعض منهم بتجفيف السمك، هذا ما لاحظته في السوق المجاور للمسجد المغربي في نواكشوط.

يذكر أن الصيد البحري احترفته منذ أمد بعيد جماعة إيمراكن، "وظل إلى وقت قريب من عصرنا الحالي حكرا محكورا عليها، ولم يولها باقي سكان المنطقة أي اهتمام، رغم غنى سواحلها بالأسماك والحاجة الموضوعية إليها أحيانا..."⁵⁰. لقد ازدرى البيض

السّمك كغذاء وغاب عن موائدهم، ويستثنى من ذلك سكان الشاطئ وضيّاف نهر السنغال إلى حد ما.

ز- مراكز تحويل الأموال: هي مؤسسات مالية خاصة توجد في محلات صغيرة على جنبات الطرق، وبخاصة في الأسواق، يطلق أصحابها نداءات متواصلة، بل ربما هي نداءات مسجلة على أشرطة تنادي كل من يرغب في إرسال أموال نحو بعض الجهات يذكرونها في تلك النداءات، وقد كتبوا على مداخل محلاتهم ما يلي: "تحويل الأموال إلى الولايات وبعض المقاطعات"، وهم بهذا يحلون محل المصالح البريدية والمالية. أخبرني أحد الأساتذة الموريتانيين أنها طريقة مضمونة وسريعة، حيث أن لهؤلاء ممثلون أو زملاء يقومون بدفع الأموال المرسلة إلى أصحابها في وقت وجيز، بمجرد تلقيهم الخبر.

وهي عملية مبتدعة تخالف النظام المصرفي المعمول به بحسب ما أفهم. يظهر من المشاهدة أن من بين المتعاملين بهذه الطريقة محلات الصرف الخاصة ووكالات النقل ومحلات الهواتف النقالة التي يسيطر عليها القطاع الخاص، وبذلك تفقد الدولة الكثير من المداخل بعد أن سيطر عليها هؤلاء، وكلها ترتبط بالحياة اليومية للمواطن في كل مكان؛ فهي ترافقه في تنقلاته وفي حاجاته اليومية.

10- العودة إلى الوطن: إن أول ما يفكر فيه المسافر عند اقتراب موعد العودة إلى الوطن هو الهدايا التي يقدمها لمن حوله من الأهل والأحباب. كنت أحمل معي كل مرة هدايا لأسرتي، لكنني لم أفعل ذلك هذه المرة. إن أصعب ما يلاقيه المرء في رحلته- كما تبين لي- هو كيفية انتقاء الهدايا للآخرين؛ فأنت إما أن تأتي بشي لا يناسب صاحبه من حيث القامة: الطول أو العرض أو البدانة والنحافة، كما أن نوعية القماش أو نوعية الهدية بأكملها قد لا تعجب صاحبها الذي أهديت إليه، وقد قررت الاكتفاء هذه المرة بتمر موريتانيا، رغم أنه لا ينافس تمر بسكرة الجزائري، ولكن الموريتانيين يفتخرون بتمر مدينة عطار، لذلك اشتريت قليلا من ذلك التمر.

وقبل يومين من تاريخ العودة، كلمت عامل الفندق "كيتا"- المالي الجنسية- كي يبحث لي عن سائق سيارة يوصلني إلى المطار ب600 أوقية (بدل 800 أوقية التي دفعتها عند القدوم)، وقد فعل وجاءني السائق في الساعة السابعة بعد صلاة المغرب من يوم 16 نوفمبر، وأوصلني إلى المطار مبكرا.

كنت قد احتفظت بثمان مائة أوقية (800) حتى المطار احتياطا لأي جديد، وعندما تأكدت من عدم توقيت الطائرة، بالإضافة إلى حصولي على ورقة الصعود (Fiche d'embarquement) قصدت محل الصرف في المطار وقمت بذلك بكل سهولة.

ركبنا الطائرة بعد حوالي ساعة من تأخر قدومها من الجزائر (23.15)، وهو التوقيت نفسه الذي قدمت فيه إلى موريتانيا في السبت الماضي. رحب بنا ريان الطائرة وذكّرت لنا المضيفة أننا سنصل مطار الجزائر بعد أربع ساعات من الطيران، وهذا ما حدث. قدموا لنا وجبة عشاء ثم أطفالاً والأضواء. وقبل نصف ساعة من النزول كلمتنا المضيفة تطلب منا شدّ الحزام والاستعداد للنزول، والتأكد من عدم ترك أي شيء يخلصنا، وأعلمتنا أن درجة الحرارة في مدينة الجزئري هي 8 درجات، عكس موريتانيا التي تركناها تزيد قليلا عن 30 درجة نهارا و22 درجة ليلا.

نزلنا مطار الجزائر هوارى بومدين والبرد شديد والأمطار تنزل، مثلما وقع تماما عند الذهاب؛ فقد كان الجو في ذلك اليوم ممطرا ودرجة الحرارة 18 عند المغرب من يوم 9 نوفمبر. وتفرق المسافرون كل في اتجاه معين؛ فقد عاد الجزائريون إلى موطنهم، وجاء الموريتانيون ليقضوا مصالحهم، كما فعل المسافرون الجزائريون هناك في موريتانيا قبل حين. وأخيرا تجدر الإشارة إلى أنني تعلمت من هذه الرحلة أشياء من خلال زيارة بلد شقيق يدعى موريتانيا، منها أننا تعودنا أن نكتب الطاء في اسم موريتانيا بدل التاء (موريطانيا)، والقاف بدل الكاف في (نواكشوط)، والحقيقة هي ما ينطق بها أهلها، ويتم هذا على الشكل التالي: موريتانيا- نواكشوط.

الهوامش:

- 1- تم تعليق منحة الاستفادة من السنة السببية التي كان الأساتذة يستفيدون منها خارج الوطن منذ سنتين، نظرا للضائقة المالية التي مست مداخل الدولة الجزائرية.
- 2- كان الأستاذ موقفس محمد قد استقال من رئاسة القسم في نهاية السنة الجامعية 2018/2017 ليخلفه الأستاذ حمدادو بن اغمر (2018-2019)، الذي استقال بدوره في بداية السنة الجامعية 2020/2019، وتحل محله الأستاذة صوافي الزهرة.
- 3- الحراك الشعبي: هي حركة جماهيرية تتمثل في مسيرات سلمية قام بها الجزائريون عبر أهم المدن الجزائرية منذ 22 فيفري 2019، رافعين شعار "يتنحأوا قاع"، أي المطالبة برحيل رموز النظام السياسي الجزائري الذي حكم البلاد عشرين سنة تحت قيادة الرئيس السابق عبد العزيز بوتفليقة، وهذا منذ سنة 1999. وكان الرئيس المذكور قد حكم البلاد لمدة أربع عهديات، وكان النظام يحضر نفسه لعهد خامسة، والرئيس يعاني من المرض الذي أقعده على كرسي متحرك، وهو ما رفضته الجماهير الجزائرية.
- 4- كانت الثورة الليبية قد أطاحت بمعمر القذافي بقتله في 20 أكتوبر 2011. وقد انطلقت الثورة قبل ذلك يوم 15 فيفري 2011 بمدينة بنغازي بمظاهرات واحتجاجات مطالبة بالحرية السياسية وإطلاق سراح المعتقلين.. وحدثت اشتباكات بين رجال الثورة وقوات القذافي، وتدخل الغرب بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا للقضاء على القذافي ونظامه تحت غطاء حماية المدنيين من ضربات

- طهران الحكومة.-----5-سعر مبيت الليلة الواحدة 600 أوقية. وهناك دار الضيافة(Maison de haute) تستقبل الأجنب بسعر 1600 أوقية بحسب ما صرح لي به الأستاذ أحمد مولود أيد الهلال من قسم التاريخ.-----6-مؤسسة النقل تدعى "اترازة للنقل".
- 7-سبستيان بولي، أدوات البداوة في انواكشوط مجرد بقايا أم محامد مفضلة لهوية حضرية حية، ترجمة محمد المصطفى ولد سيد أحمد، "انواكشوط عاصمة موريتانيا". بمناسبة ذكرى مرور خمسين عاما من التحدي. إصدار وزارة الثقافة والشباب والرياضة، دار نشر سيبيا(Sepia) 2006، ص: 113
- 8-طبعت المطوية من قبل المعهد سنة 2015م/1434-1435هـ قام بإنجاز هذا العمل الطالب أحمد ولد اطوير الجنة ومحمد بمب بن أحمد يحي في 14-9-2012.
- 9-أخبرني الأستاذ أحمد مولود أنه التقى ببعض أساتذة قسم التاريخ بجامعة وهران منهم محمد بن عبد المومن في أحد الملتقيات في القاهرة، كما أفادني بزيارة قام بها عبد الحميد بورايو أستاذ الثقافة الشعبية بالجزائر كأستاذ زائر لجامعة نواكشوط. وأن هناك إحدى أستاذات قسم الاجتماع بجامعة وهران التي تزورهم من حين إلى آخر بسبب دراسات لها حول الحسانية، كما أنها أصلا من مدينة تندوف التي توجد بها طوائف من الحسانيين، وهي زوجة الأستاذ العايد عبد الكريم.
- 10-محمّدو أمين، مدخل إلى تاريخ البداوة، وزارة الثقافة والصناعة التقليدية والعلاقات مع البرلمان بالجمهورية الإسلامية الموريتانية، الطبعة الأولى 1440هـ/2018م، ص: 81 و 92
- 11-محمّدو أمين، المرجع السابق، اعتمادا على: محمد عبد الله ولد محمد الولي، مكتبات شنقيط: دورها العلمي وإشعاعها الثقافي، بحث لنيل شهادة المتريز، المعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية، 2008، ص 13-14.
- 12-محمد الأمين ولد الزي، الثقافة الشنقيطية مقارنة نسقية حول مدة زمنية 1630-1980، منشورات مركز نجيبويه للمخطوطات وخدمة التراث، دبلن إيرلندا، الطبعة الأولى، د.ت. ص: 79
- 13-Horizons, Quotidien Mauritanienne n°: 7649, Lundi 11 novembre 2019, page 4.
- 14-سيدي مصطفى ولد بلالي، "شنقيط: باب للمعرفة"، جريدة أوريون(Horizons)، ليوم 11 نوفمبر 2019، ص: 8.
- 15-أحمد مولود ولد أيد الهلال، مدن موريتانيا العتيقة. قصور ولاتة وودان وتشيت وشنقيط، مركز الدراسات الصحراوية، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الرباط 2014، ص: 11.
- 16-Horizons, Quotidien mauritanien, n°: 7649 du Lundi 11 novembre 2019.-----17-IBID.
- 18-أحمد بن سيدي، موريتانيا الماضي المتحرك والمكان المؤثر، ص: 45، مرجع بالمكتبة الوطنية(الموريتانية) تحت رقم 934/362. اطلعنا عليه يوم 11-12-2019.-----19-حماد الله ولد السالم، تاريخ بلاد شنقيط (موريتانيا)، دار الكتب العلمية، بيروت. د.ت. ص: 18.-----20-اسلم بن محمد الهادي، المرجع السابق، ص: 16-30.
- 21-محمد المختار ولد السعد، المرجع السابق الجزء الثاني، ص: 755.
- 22-محمّدو بن محمذن، المجتمع البيضاني في القرن التاسع عشر -قراءة في الرحلات الاستكشافية الفرنسية- منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط 2001، ص: 17.-----23-محمّدو بن محمذن، المرجع السابق، ص: 19. في كتابه (Notes sur les peuples de la Mauritanie et de la Nigritie, riverains du Sénégal. Paris, Revue Coloniale.. septembre 1846, pp. 1-10.)
- 24-محمّدو بن محمذن، المرجع السابق، ص: 19.
- 25-محمد الأمين ولد الزي، الثقافة الشنقيطية مقارنة نسقية، مركز نجيبويه للمخطوطات وخدمة التراث، الطبعة الأولى. د.ت. ص: 159-158.-----26-محمد المختار ولد أباه، الشعر والشعراء في موريتانيا، الشركة التونسية للتوزيع، تونس 1987، ص: 10.
- 27-المختار بن حامد، حياة موريتانيا، الجزء الثاني، الحياة الثقافية، الدار العربية للكتاب بطرابلس ودار تونس، د.ت. ص: 6.
- 28-محمد الأمين ولد الزي، المرجع السابق، ص: 373.
- 29-محمّدو محمذن أمين، المحظرة الموريتانية نشأتها وأدوارها، مقال بمجلة عصور الموريتانية، العدد السادس لسنة 2017(ص: 207-251).-----30-المرجع نفسه.-----31-السيد المختار تاجر بمدينة نواكشوط، المقابلة يوم 12-11-2019.
- 32-دلهموم الشيخ، 53 سنة ممرض متقاعد من عين الصفراء. المقابلة بوهان في 11 جانفي 2020.

- 33-محمّد أمين، مدخل إلى تاريخ البداوة(عناصر من الثقافة الحسانية)، طبع وزارة الثقافة والصناعة التقليدية والعلاقات مع البرلمان بالجمهورية الإسلامية الموريتانية، نواكشوط 2018، ص: 125.
- 34-عبد القادر خليفي، التعليم القرآني في الجنوب الغربي الجزائري قبل 1962، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر، قسنطينة عاصمة الثقافة العربية 2015، ص: 165-35-محمّد أمين، المرجع السابق.
- 36-احمد الأزرق، الكتابات القرآنية في الجزائر ودورها في المحافظة على وحدة الأمة وأصلاتها، دار الغرب للنشر والتوزيع وهران 2002، ص: 28-37-ينظر كتابنا: التعليم القرآني في الجنوب الغربي الجزائري قبل 1962، ص: 163.
- 38-محمد الأمين ولد الزي، المرجع السابق، ص: 347.
- 39-انتشرت عملية إعداد الشاي وبيعها في مدن عديدة من الشمال الجزائري، يشرف على إعداده أبناء منطقة الجنوب الغربي وبخاصة سكان ولاية أدرار.---40-محمد الأمين، المرجع السابق، ص: 347.
- 41-إبراهيم بن الشيخ سيدي، النفحات الرندية في العوائد البيضانية، تحقيق محمد يحي بن محمد محفوظ، م 1 ع أ 1986، ص: 67-42-اسلم بن محمد الهادي، موريتانيا عبر العصور، مطبعة الأطلس. د.ت. ولا بلد، ص: 91.
- 43-بحسب قناة الجزيرة عبر مراسلها محمد الصوفي، موقع: www.bellewarmedia.com اطلع عليها بتاريخ أول ديسمبر 2019 الساعة العاشرة صباحا. وعن الأستاذ أحمد مولود الهلال من قسم التاريخ بالجامعة العصرية بنواكشوط.
- 44-أبو عبيد الله بن عبد العزيز البكري، المغرب في ذكر إفريقيا والمغرب. وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، مكتبة المثنى، بغداد، د.ت. ص: 159. جدد طبعها المستشرق دوسلان: (De Slane : Imprimerie du gouvernement, Alger 1857)
- 45-أبو فارس عبد العزيز الفشتالي، مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا، دراسة وتحقيق عبد الكريم كريم، منشورات جمعية المؤرخين المغاربة الرباط، الطبعة الثانية 2005، ص 117-118-46-أبو فارس عبد العزيز الفشتالي، المرجع السابق، ص: 119.
- 47-التارولد أحمد، نواكشوط بتاريخ الخميس 19 ماي 2016. موقع: arabic.cnn.com. تم الاطلاع على المعلومة يوم 2019/12/12 الساعة الثانية بعد الظهر.---48-اسلم بن محمد الهادي، المرجع السابق، ص: 10.
- 49-لاحظت وجود قوارب متراصة على الساحل على امتداد البصر متوقفة الواحد بجانب الآخر وكأنها خيول تنتظر الانطلاق للسباق، وهي راسية في البر. وفي البحر مراكب أخرى عائدة من داخل البحر، وهي تحمل ما تمكن الصيادون من اصطيداده في ذلك اليوم.
- 50-محمد المختار ولد السعد، إمارة الترازة وعلاقتها التجارية والسياسية مع الفرنسيين من 1703 إلى 1860 الجزء الأول، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، مطبعة كوثر، الرباط 2002، ص: 145.



الباحث برفقة الأستاذ أحمد مولود أيد الهلال
غروب الشمس بشاطئ نواكشوط (2019/11/15)
أستاذ بجامعة نواكشوط بشاطئ مدينة نواكشوط في 2019/11/15.

الإصدارات الجديدة- 2020
New Publications- 2020

اسم ولقب المؤلف المرسل: أ.د عبد القادر بوبايا- BOUBAYA Abdelkader صص 403- 408
الدرجة والعنوان المهني: أستاذ- جامعة وهران 1 أحمد بن بلة- الجزائر.
البريد الإلكتروني: boubaya.abdelkader@univ-oran1.dz

تاريخ استقبال المقال: 2020/05/05 تاريخ المراجعة: 2020/05/05. تاريخ القبول: 2019/05/06.

عنوان الكتاب: "التاريخ الاقتصادي والاجتماعي وتاريخ الذهنيات بالمغرب والأندلس: قضايا وإشكاليات".



المؤلف: تأليف جماعي
دار النشر: الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية-
تطوان- المملكة المغربية
تاريخ الصدور: طبعة شمس برنت، سلا- 2020م.
صدر مؤخرا الجزء الثاني الموسوم بـ"قضايا في
التاريخ الاجتماعي" في 550 صفحة.
ويضمّ الكتاب بين دفتيه القسم الثاني من أشغال
الندوة الدولية التي نظمتها الجمعية المغربية
للدراسات الأندلسية تكريما للمؤرخ المغربي إبراهيم

القادري بوتشيش، اعترافا بما أسداه من جهود رائدة في مجال التاريخ الاقتصادي والاجتماعي
وتاريخ الذهنيات خلال أربعة عقود من مساره العلمي، قضاها معتكفا ومنقبا ومجتهدا في تطوير
البحث التاريخي.

وساهم في هذا الجزء الثاني مجموعة من المؤرخين والأكاديميين والشخصيات العلمية الوازنة
في عالم الفكر والتاريخ، من المغرب والجزائر وتونس وموريتانيا ومصر والسعودية والإمارات
العربية ولبنان وقطر وتايوان، حيث جاءت أبحاثهم لتفتح ملفات اجتماعية مهمة في المتون
التاريخية، وتلقي الضوء على الفئات الاجتماعية التي أسقطتها كتب التاريخ، مثل فئة الأيتام
والأشخاص المسنين، وقضايا الحمل عند المرأة.

وأعدت الأبحاث المذكورة طرح السؤال حول "دور المجال المغربي الأندلسي في تشكيل نسيج التاريخ الاجتماعي في عالم العصور الوسطى، والحضور المغربي الأندلسي في سياق التواصل البشري بين الشرق وأوروبا، فضلا عن الإشكالية الديموغرافية، وصيغ قوانين وأعراف العقوبات بالمجتمع المغربي".

وتمحورت البحوث حول ستة محاور تتمثل في "المهتمش والمنسي في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس"، و"التواصل والتعايش واللقاء مع الآخر"، و"المدن والديموغرافيا التاريخية"، و"التصوف وثقافة العقاب"، و"الماء والمجتمع"، و"أبحاث فرنسية في التاريخ الاجتماعي مترجمة إلى اللغة العربية".

وتضمن الكتاب ثلاثة مقالات لأعضاء مختبر تاريخ الجزائر هي:

- فئة الشيوخ بمجتمع المغرب الإسلامي للباحثة نوال بلمداني- صص 63-84.

- قضايا الحمل في نوازل الغرب الإسلامي للباحثة تواتية بودالية- صص 85-102.

- القيمة التاريخية للكتب المناقبية: مناقب صلحاء شلف للمازوني للباحث عبد القادر بوبايا- صص 363-386.

عنوان الكتاب: "أبحاث المؤتمر الدولي: الحضارة الإسلامية في الأندلس تكريما للأستاذ الدكتور

أحمد مختار العبادي"

المؤلف: تأليف جماعي- تحرير الدكتور محمد الجمل.

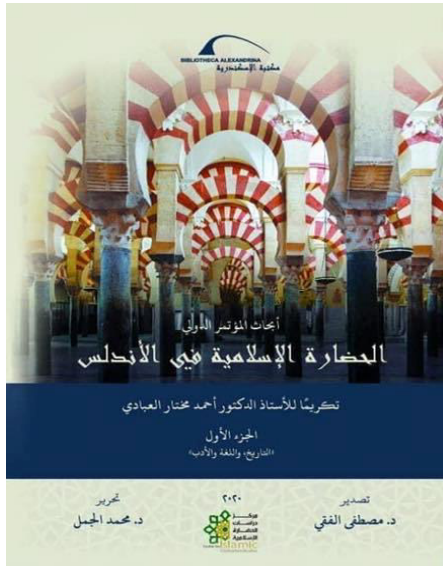
دار النشر: مكتبة الإسكندرية- مصر.

سنة النشر: 1441هـ/2020م.

نبذة عن الكتاب: صدر عن مركز دراسات الحضارة الإسلامية بقطاع البحث الأكاديمي بمكتبة الإسكندرية المجلد الأول من كتاب يقع في جزأين عن «الحضارة الإسلامية في الأندلس»، ويلقي الضوء على مراحل تطور التجربة الأندلسية الفريدة التي استمرت ثمانية قرون من الإسهام الحضاري والمعرفي في الحضارة الإنسانية.

يتضمن الكتاب بجزأيه دراسات حول نشأة علم

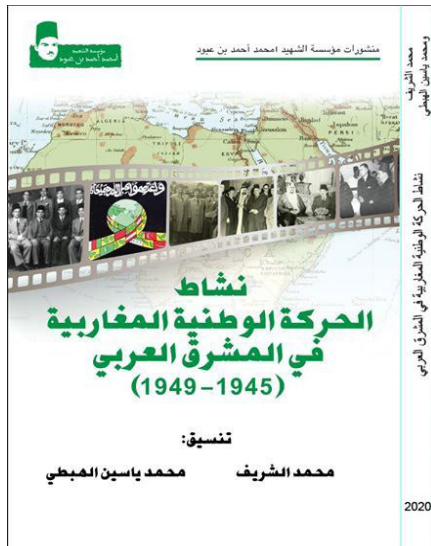
التاريخ وتطوره في الأندلس، والإبداع الأندلسي في العلوم والفنون والآداب، والعمارة والفنون



الإسلامية، والحياة الاجتماعية الاقتصادية في الأندلس، وتعد هذه الدراسات والبحوث نتاج أعمال مؤتمر دولي عقد في مكتبة الإسكندرية سنة 2016م تكريماً لرائد من رواد الدراسات الأندلسية هو الدكتور أحمد مختار العبادي، صاحب الإسهامات المتميزة في مجال الدراسات التاريخية والحضارية المغربية والأندلسية، صدر منه الجزء الأول، ويتضمن الموضوعات المتصلة بالتاريخ واللغة والأدب، ومنها مساهمة الأستاذ عبد القادر بوباوية الموسومة بـ"أحمد مختار العبادي محققاً: تاريخ الأندلس من كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء أنموذجاً".

قدم الكتاب الدكتور مصطفى الفقي مدير مكتبة الإسكندرية الذي أكد على اهتمام المكتبة بمفهوم الحوار بين الحضارات والثقافات، بالإضافة إلى التأكيد على مفهوم عالمية الإسلام، وسماحته التي تمثل رافداً من روافد الحضارة الإنسانية، كما حرص علي شكر وتكريم الباحثين والعلماء الذين أسهموا بجهد وافر في هذا المجال من الدراسات الأكاديمية المتخصصة، ونالوا مكانة علمية محلية ودولية.

عنوان الكتاب: نشاط الحركة الوطنية المغربية في المشرق العربي (1945-1949)



المؤلف: جماعي- تنسيق محمد الشريف ومحمد ياسين المبطي.

دار النشر: منشورات مؤسسة الشهيد أحمد بن عبود- تطوان
تاريخ الصدور: 2020م.

تقديم: يتضمن الكتاب أعمال الندوة العلمية الدولية التي عقدت أيام 14/13/12 ديسمبر 2017 بمدينة بتطوان (المملكة المغربية) في موضوع "نشاط الحركة الوطنية المغربية في المشرق العربي 1949/1945"، والتي نظمتها مؤسسة الشهيد أحمد بن عبود بمساهمة باحثين من

تونس والمغرب، وتمحور بحثها حول الحركة الوطنية المغربية والتوثيق العربي، والحركة الوطنية المغربية والتوثيق الإسباني الفرنسي وزعماء المغرب العربي في القاهرة في الأربعينيات. إن فترة الأربعينيات فترة مهمة في تاريخ الحركة الوطنية بشمال المغرب، وفي كيفية مواجهة الاستعمار الإسباني، حيث جرى نقل صوت المغاربة إلى الخارج عبر الوافد الخليفي في اللجان

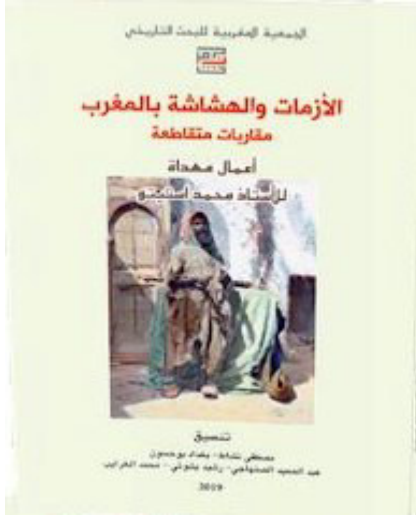
الثقافية للجامعة العربية بالقاهرة ومكتب المغرب في نيويورك، بعد التنسيق مع السلطان محمد الخامس والخليفة مولاي الحسن بن المهدي.

كما تميزت أيضا بالتنسيق مع زعماء وطنيين من المنطقة السلطانية والمغرب العربي كانوا بالقاهرة كمحمد بن عبد الكريم الخطابي وعلال الفاسي من المغرب والحبيب ثامر من تونس وعلي الحمامي من الجزائر...، إذ عملت الأحزاب المغاربية على التعاون والتنسيق من أجل نيل استقلال المنطقة، وكان ذلك يجري في إطار مكتب المغرب العربي في القاهرة، أو بالمشاركة في مؤتمرات دولية كالمؤتمر العربي الثقافي الأول في بيروت سنة 1947 ومؤتمر المغرب العربي في القاهرة في السنة نفسها، والمؤتمر الإسلامي الاقتصادي بكراتشي سنة 1949، وأكدت أهمية النشاط الوطني للأحزاب الوطنية المغاربية خلال فترة الأربعينيات بالمشرق، وسعيا إلى تعميق البحث التاريخي، وإنجاز دراسات حول هذه الفترة، وتخليدا لذكرى شهداء المغرب العربي الثلاثة.

عنوان الكتاب: الأزمات والهشاشة بالمغرب: مقاربات متقاطعة

المؤلف: عمل جماعي من تنسيق مصطفى نشاط وآخرين

دار النشر: الجمعية المغربية للبحث التاريخي-الرباط
تاريخ النشر: 2019م



تقديم الكتاب: من رحيق ثقافة الاعتراف أنجز هذا الكتاب الذي بين أيدينا الموسوم "الأزمات والهشاشة بالمغرب مقاربات متقاطعة، أعمال مهداة للأستاذ محمد ستيتو" تنسيق الأستاذة مصطفى نشاط وبغداد بوحسون وعبد الحميد الصنهاجي ورشيد يشوتي ومحمد الغرايب، وهو أعمال مهداة إلى أحد رواد وجهابذة التاريخ بالمغرب تأليف ونشرا وتأطيرا الأستاذ

محمد استيتو لما بذله من مجهودات مضيئة في تنوير سماء المعرفة التاريخية كعربون اعتراف من طرف الجمعية المغربية للبحث التاريخي، وقد كان للمحتفى به إسهامات جمة وغنية وذات قيمة أكيدة انتفع بها جيل المؤرخين، وبخاصة أطروحته المرجعية موضوعا ونهجاً: "الفقر والفقراء في مغرب القرنين 16 و17".

لقد جاء الكتاب حافلا بمجموعة من المقالات الغنية والمفيدة التي تتميز بالرصانة والعلمية حول تيمة أساسية تمتع من تاريخ الأزمات والهشاشة في تاريخ المغرب موضوعا، لما يتميز به من راهنية، وما رافق ذلك من طقوس وأموات وأعطاب وسلوكيات غيرت مجاري من تاريخ المغرب في كل فتراته القديمة والمعاصرة، وقد قسم الكتاب إلى ثلاثة محاور أساسية: خصص الباب الأول منها للمواضيع المرتبطة بأحوال المجتمع المغربي وبالفقر والتمهيش والهشاشة، وخصص الثاني منها للأزمات المختلفة عبر استحضار حالات من القحوط والحروب والأوبئة والمجاعات، وما لها من انعكاسات ومآلات، وركز المحور الثالث على معطى مهم وهو ما ارتبط بالعقليات والطقوس المرافقة لفترات الضعف والوباء والفاقة.

وقد بلغت المساهمات ما يربو عن 30 مساهمة من حبر باحثين مرموقين لهم باع كبير في البحث عن أغوار تاريخ المغرب، إضافة إلى باحثين شباب يعول عليهم مواصلة مسار البحث في تاريخ المغرب وبخاصة في شقه الاجتماعي والاقتصادي. إن الكتاب وبهذا الثراء المعرفي والجهد العلمي، والموضوع المطروق يعتبر لبنة أساسية في تنوير عتبات رئيسية ظلت تعترض لفترات تاريخ الفقر والهشاشة والمهمشين، الذي يعد بحق مكنا تاريخيا واعدة في الكتابة التاريخية المغربية.

ومن البحوث المنشورة في الكتاب بحث للدكتور أمحمد بوشريط- رئيس فرقة بحث في مختبر تاريخ الجزائر موسوم بـ"إسهامات محمد استيتو في تحقيق التراث المخطوط: تنبيه الإخوان على ترك البدع والعصيان أنموذجا".



عنوان الكتاب: النوازل الشرعية وقضايا التربية والتعليم والمجتمع بالمغرب

المؤلف: أعمال ندوة- تنسيق الطاهر قدوري والحسن قايدة

دار النشر: مكتبة قرطبة- وجدة.

سنة النشر: 2019م.

تقديم الكتاب: إن التراكم العلمي على مستوى النوازل

الفقهية من أهم الإنجازات الحضارية الكبرى للأمة الإسلامية على المستوى الفكري والمعرفي؛ فقد بذل الفقهاء جهودا مضيئة لتجميع مختلف النوازل والأحكام الشرعية، وترتيبها وفق منهج

صارم، ولقد حقق المغاربة سبقا في فقه النوازل على مستوى التجميع والتصنيف والدراسة والتحليل وفق خصوصياتهم المنهجية والفكرية. ويتضمن هذا الكتاب أشغال الندوة العلمية التي نظمها المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين بوجدة بتاريخ 19 و20 مارس 2019م، وتمحورت حول:

- النوازل الفقهية: المنهج وقضايا التربية والتعليم.
- النوازل الفقهية: ومنهجية التعامل معها
- النوازل الفقهية: التدبير الزماني والبيداغوجي
- النوازل الفقهية: ومرجعيتها التنظيمية والإدارية.
- النوازل الفقهية: مشاريع إصلاحية في قضايا التربية والتعليم والسياسة.

عنوان الكتاب: دراسات أندلسية مورييسكية إسبانية

المؤلف: الدكتور عدنان خلف سرهيد الحراجي

دار النشر: بيت الحكمة- بغداد

سنة النشر: 2020م



د. عدنان خلف سرهيد الحراجي

دراسات أندلسية مورييسكية إسبانية



تقديم: استقر العرب في الأندلس وأسسوا حضارة عريقة أضاءت لأكثر من ثمانية قرون كانت الأندلس فيها محط أنظار العالم المتمدن آنذاك، وكانت قبلة لطلبة العلم من كل أنحاء العالم وأضححت الأندلس درة المغرب الإسلامي، وما إن أقل نجمها حتى تكالب عليها أعداؤها، وسلبوا سكانها من المسلمين أرواحهم ووطنهم، وجاء هذا الكتاب ليسلط الضوء على بعض الجوانب الدينية المتنوعة عند المورسكيين وأهم ما قدحت به

قريحتهم في هذا الباب، كما تسلط الضوء على الجوانب الحضارية عند الأندلسيين معتمدا في جوانب كثيرة منها مخطوطاتهم ووثائقهم، وما كتب عنهم في مختلف المصادر التاريخية.

المقالات باللغة الأجنبية

Articles in foreign
languages